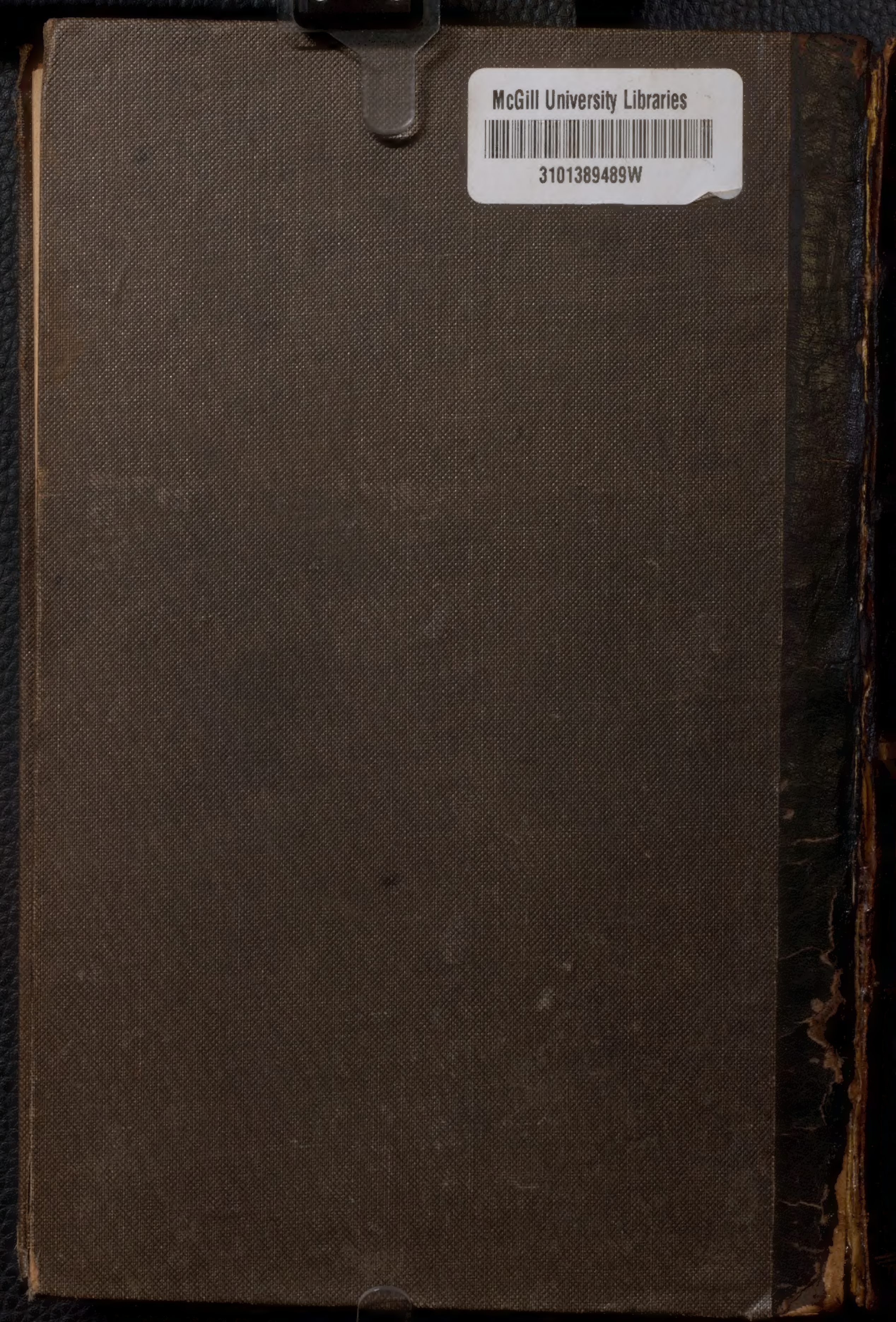
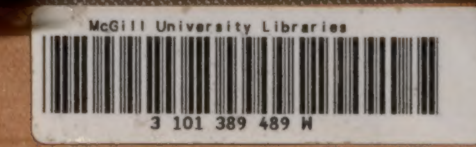
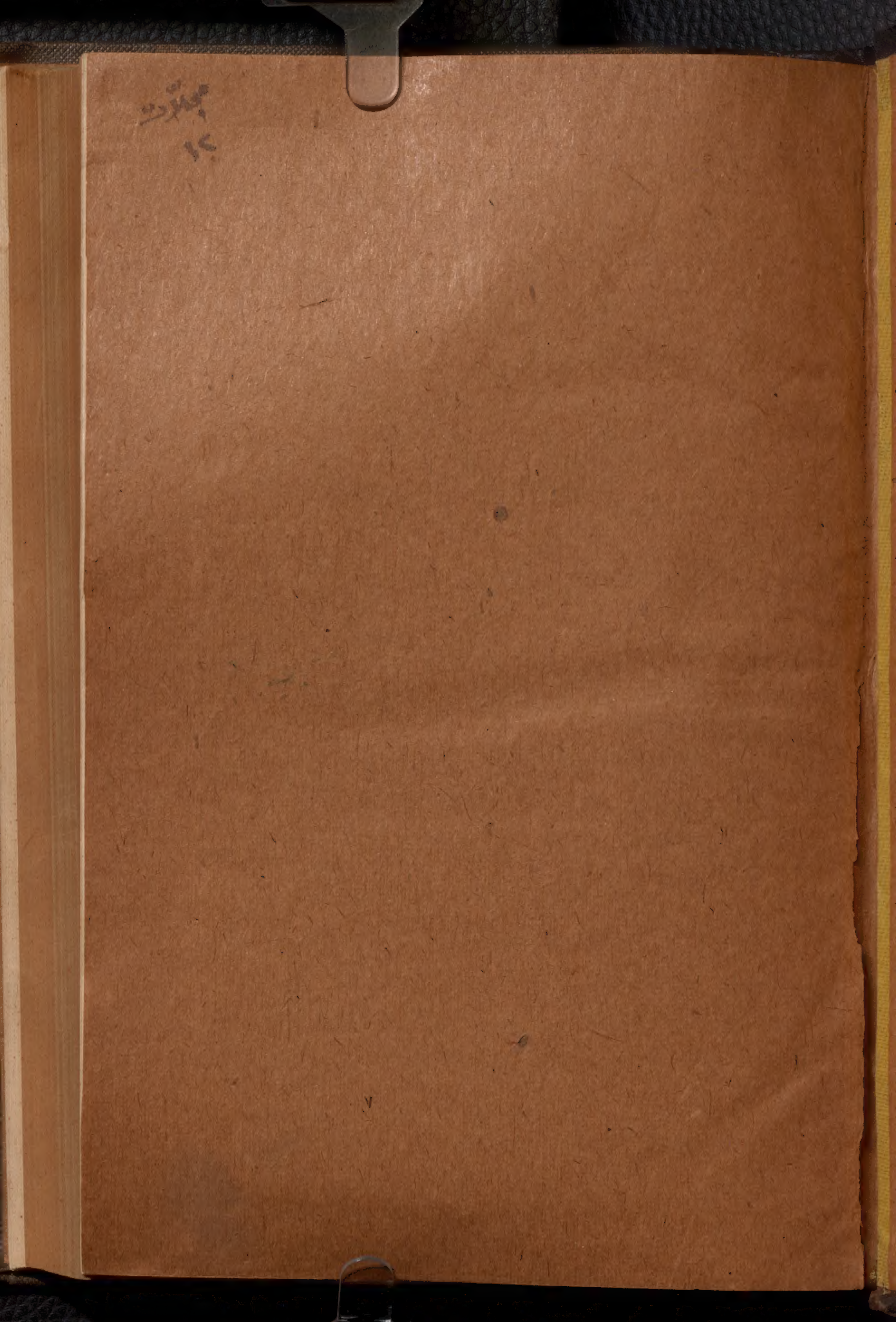

McGill University Libraries
3101389489W



Ch Go


١٢





مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

ناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد التاسع عشر

سنة ١٣٣٤ — ١٣٣٥ هـ ق ١٢٩٤ — ١٢٩٥ هـ ش

قيمة الاشتراك عن سنة ثمانون قرشاً صحيحاً في مصر والسودان
وفي المملكة العثمانية أربعة ريالات وفي الخارج ٢٣ فرنكا و٥٩ سانتيما
و١٤ روبية في الهند و٩ روابل في روسية والدفع سلفاً

الطبعة الاولى

مطبعة المنار بمصر

﴿ فهرس عام لجميع المواد التي وردت في المجلد التاسع عشر ﴾

ا

صفحة

الآخرة . اظهارها ما يخفيه المبطلون من ضلالهم وأسرارهم وكون انكشاف الحقائق فيها لا يغير حال الناس وانكار حياتها وكونها خيرا من الدنيا ٣٢٤—٣٢٩

« قياسها على الدنيا بكون المنعم هنا منعما هنالك ٦٠١

« مخالفة شؤونها للدنيا ٢٨٧

« النجاة فيها بتزكي النفس ٥٨٨

« نعيمها روحي وجسدي ٢٨٢

آدم أبو البشر . خلقه ٢١

آراء الخواص في المسألة العربية (م) (* ١٤٤

آل بيت الرسول . وصيته بهم وقرنهم بالقرآن ٦١٦

الآلوسي المفسر . اغتراره بأبي السعود ٥٨٩

الائمة الاربعة والبخاري . تواريخهم ٣٢

الائمة أسباب . اختلافهم ٢٧٠ (وطبع خطأ ٢٤٩)

الآيات في رؤية الباري تعالى ٢٨٤

« الشاهدة بالرسالة ٢٠٩ و٢٦٤ و ٤٨١

*) هذا الحرف (م) اشارة الى عنوان المقالات

صفحة

الآيات الكونية . اقتراحها على الرسول وعدم استطاعته الاتيان بها وحكمة ذلك ١٣٠—١٣٦ و٣٩٦ و٤٠١

« . مكابرتها ١٣٠ و٥٢٤

« المتشابهة وبلاغتها ٤٦٤

آيات الله. التكذيب بها ٦٨ و٢٥٩ و٣٨٧ و٤٦٢ و٥٢٦

« « في القرآن والاكوان. تلازمهما وسبب الاعراض عنهما ونتيجته ٦٦ و١٣١

« « في القرآن والاكوان والوجدان ١٣١ و ٢١١

ابن تيمية . مكانته ٥٢

« جبير الاندلسي . وصفه علماء بغداد ٦١٩

« الجوزي. علمه ووعظه ٦١٩

« القيم. انفراده بتحرير التصوف وترجمته ٥٠

أبو اسماعيل الهروي. ترجمته ٥٤

« حنيفة . تقليده لفقهاء الصحابة دون رواتهم ٤٧

أبو السعود. تنطعه في تفسيره ٥٨٩

« هريرة. اتهامه بالكذب ٣٥ و ٤٠

« « استنكار المتأخرين لبعض أحاديثه وعللها ٩٧

« « روايته عن كعب الاحبار ٩٨

« « شبهات المبشرين عليه وردها ٣٣ و٤٨

صفحة

أبو هريرة . كثرة روايته وسببها ٣٣—٤٠

« « ما رواه البخاري له ١٠١

« « مناضبته لمروان وامتحان مروان له ٤٣ و٤٩

الاتحاديون. اتفاقهم السري مع ألمانية ١٥٧

« اعتقاد الشريف فيهم ١٦٥

« اهتمامهم بأمر العرب ٧٨

الاتحاديون . أول من رماهم بالكفر ٢٣٣

« تعريضهم الدولة للخراب ٣٧٣

« تغلبهم على السلطان والترك ١٦٦

« تكفير علماء الآستانة لهم ١٦٣

« تكوينهم للجنسية العربية ٧٩

« جعلهم البلاد مناطق نفوذ للاجانب ٧٧

« جمعياتهم وتعليمهم المدرسي وأناشيدهم في تكوين العصبية التركية ٥٥٥

« دفاع المنار عنهم ٢٣٣ و٢٤٤

« دلائل الحادهم ١٥٨

« دليل القائلين ببيعهم الدولة والقائلين بتجديدهم لها ١٥٥

« دينهم الجديد ١٦١

« سوء نيتهم في عداوتهم للعرب ١٥٠ و١٦٥

« طعنهم في الاسلام ١٦٢

صفحة

الاتحاديون . عزمهم على تتريك العرب ٥٠٦
« عصبيتهم الجنسية ٧٥ و ٥٠١
« قيام الشريف عليهم وبيانه لسببه ٢٤١ و ٣٧١ و ٤٨٩
« مذهبهم السياسي ١٦٠ و ٢٣٨
الاجتهاد المخالف للسنة ٢٧٤
الاجل . معناه والمقضي منه والمسمى عند الله ٢١
الاحاديث في آل البيت والخلفاء والصحابة ٦١٦
« الارتياب فيها ٢٨٠
الاحاديث في بقاء طائفة من الامة على الحق ٦١٨
« الغريبة والموقوفة والمرسلة ٨
« في القيام على الظلمة ٤٩٠
أحاديث الآحاد في العقائد ٣٤٢
« رؤية الباري تعالى ٢٨٥
« شق صدر النبي والمعراج ٥٣٠
« الصحيحين الآحادية المفيدة لليقين وشرطها ٣٤٨
احتضار سورية (م) ٤٤٣
الاحرام . لباسه على من يجب ٦٤٠
الاحزاب العثمانية . سبب تأليفها ٧٧
اختلاف الائمة والصحابة ٢٧٠ (وطبع ٢٥٠ خطأ)
الاختيار . لاينافيه حرمان المقلد من الفهم والعلم ٢٦٢
اختيار العبد ومشيئة الرب ٤٦٢
اذان الجمعة الاول والثاني ٥٣٩
الاذان . الصلاة على النبي عقبه ٥٤٣
ارادة الله لا تؤثر فيها الحوادث ٣٥١
أرأيتكم . تحقيق معناها ٥١٤

صفحة

الارضة ٤٣٤
الارواح المجردة . الاستمداد منها ١٣٧
الازياء والعادات من مشخصات الامم ١٢٥
الاسباب . الخلاف في تأثيرها ٣٠٥
الاستاذ الامام . قوله في الكشف والالهام ١٣٩
« مشاورته في انشاء المنار ومساعدته له ورأيه فيه ومقاومة أعدائه له وعدم مساعدة أصدقائه له ٣٠٠
الاستبداد . محو الاسلام له ١٠٣
استدارة الزمان في الحديث ٦٠٣
استقلال الحجاز ٢٤١
الاستهزاء والهزء ١٤١
الاسطولان الانكليزي والالماني . تقاتلهما ٥٩
الاسلام . استحالة تركه الى النصرانية ١٠٦—١٠٩
الاسلام . امتيازه على الاديان وحكمة كونه آخرها وبناؤه على البرهان ٧٠ و ١٠١—١٠٩
« والجامعة الطورانية ٢٢٥
« جناية الخلاف عليه ٥١
« حربه مع عدله ورحمته ٣٤١ و ٤٧٨
« حريته بعد الهجرة ٦١٦
« حفظه بالاستقلال في فهمه ٧٠
« حكمة ظهوره في العرب ٤١٢
« خلاصة دعوته ٤٧٧
« ذله بذل العرب ٤٣٩
« رأي شبلي شميل فيه ٦٢٧
« شريعته ومزاياها ١٠١ و ٧٨ .

صفحة

الاسلام . شكل حكومته ٤٧٨ و ٦١٨
« ظهوره وحروبه ٣٦٧
« العدل والمساواة فيه ١٠٣
« علماؤه وتفرق مذاهبهم وتعصبهم وخدمتهم له ٥٠
« مدة تشريعه ٦١٦
« مكان العرب فيه ٨١
« موافقته للفطرة والعقل ٠٢١١
« وسط روحاني جسماني ١٠٨
اسماعيل عاصم بك . تكريمه لمنشئي المقتطف ١١٠
الاشاعرة . نفيهم تأثير الاسباب وكسب الانسان ٣٥٠
أصحاب السوء . شعر في ذمهم ٣١١
الاصلاح . زعماؤه ٢٥٢
الاعراب . اختلاف المعاني به ٣٢٣
أعظم معركة بحرية (م) ٥٩
الاعمى والبصير حسا ومعنى . عدم استوائهما ٥٨٣
الاغنياء والاقوياء . غرورهم وقياسهم الآخرة على الدنيا ٦٠١
أغنياء المسلمين ٩٢
الافرنج . اقتباسهم الاستدلال منا ٧٠
« سيرتهم في الشرق ٣٤٠
أفعال العباد . تأثيرها ٣٥١
الالتهاب الرئوي ٣٥٩
« « الباسيلي ٤٢٥
الالمان . خطرهم على العثمانية ١٥٢
« رأي الانكليز في قوتهم ٤٩٨
« « ملك الانكليز فيهم ١٥٣
« شركاء الترك في نكبات

صفحة

سورية ٤٤٥
الامر بالمعروف والنهي عن
المنكر ٧٤٤
أمراض القطر ٤٣٠
الامثال لاختلاف عالمي
الغيب والشهادة ٢٨٨
الامم. أزياؤها من مشخصاتها ١٢٦
« عقابها على الاستهزاء ١٤٢
« عذابها كذنوبها نوعان ٧٣
و١٤٢ و٥٢٠
الامة. احتقار أفرادها لها ١٢٧
« معناها وكون العجماوات أمماً
٤٥١
الانبياء والملائكة. المفاضلة
بينهما ٥٨٤
الانصار. حفاوتهم بالرسول ٦٠٨
« مبايعتهم للنبي ٤٨٤
الانكليز. آداب جنودهم ٤٧٢
« مكانتهم من الحرب وتوقعهم
زعامة أوربة وسيادة العالم
٤٩٥
أنور باشا في سورية والحجاز ١٥٠
أهل الاهواء وأهل
الحق ٥١ و٥٢
أهل الكتاب. اتخاذ أنبيائهم
وصلحائهم آلهة ٢٠١
« « معاملة النبي لهم ٦١٢
« « معرفتهم الرسول ٢٥٨
الاوزار. حملها في الآخرة ٣٣٣
الاولاد. مرارة فراقهم وتوديعهم
وتربية النفس بذلك ٤٦٩
الايمان. شرطه العلم اللغوي
لا المنطقي فيكفي فيه عدم
الارتياب والتردد ٣٤٥
« فقد الاستعداد له ١٣٠

صفحة

و١٩٨ و٢٥٨ و٢٦٢ و٣٢٢
« الفطري ٢١١ و٥١٦
« بوحدانية الافعال ٣٥٠
و٥١٦

ب

البأس والبؤس والبأساء ٥١٩
البخاري. تعديله للصحابة ٣١
« ومسلم. سبقهما لجمع
الصحيح ٢٧٥
البدع المتعلقة بالموتى والجنائز ٥٤٤
بدع الجمعة والاذان وختم
الصلاة والجنائز ٥٣٨
البسملة. آية من كل سورة ٤٠٤
البشر. اجتماع نقائص العجماوات
فيهم ٣٤٠
« اختلاف استعدادهم ٣٩٧
« ادراكهم لبعض الاشياء
من غير طريق الحس
والفكر واستعدادهم
من عالم الارواح ١٣٧
البشر. ايثار خواصهم للمعنويات
٢٨٢
« تربيتهم ٣٢٧ و٥٢٠
« تناقضهم في حكمهم
لانفسهم وعليها ١٣٣
« درجات شعورهم ووجدانهم
وغاياتها وموازينها وتلذذهم
ببعض الآلام ٤٦٨
« ظهور حقيقة أنفسهم لهم
لا يصلح فاسدها وتمنيهم
الرجوع عن الباطل والشر
عند العجز عنهما يزول عند
القدرة عليهما ٣٢٦
البطر بالنعم ٥٢١ و٦٠١

صفحة

بطرس. طعن المسيح فيه ٤٩
البعث. افساد انكاره للفطرة ٣٣٩
« كونه رحمة ١٩٥
بغداد. علماؤها في القرن
السادس ٦١٩
« عمرانها في القرن الثالث ٦٣٣
بلاد العرب في التاريخ
القديم وقبله ٣٦٣
بنو هاشم. اصطفاؤهم ٤١٧

ت

التابعون. تفقههم بالصحابة ٢٧٣
تأثير الصحافة في أخلاق
الامة (م) ٥٠٧
تاريخ سينا القديم والحديث
(كتاب) ٣٧٥
تأويل الفرق للنصوص ٥٣
التبليغ والترقية يوم الجمعة ٥٤١
التدليس في الحديث ٣٤٧
التربية الاستقلالية والخطأ فيها ٣٢٧
« بالشدائد وبالنعم ٥٢٠
الترك. استقلالهم عن الدين
الاسلامي وتركهم الحروف
العربية ٥٠١ و٥٠٣
« تعصبهم للاسلام ١٦٦
« جامعتهم الطورانية
٢٣٥ و٥٠١ و٥٥٥
« حاجتهم الى العرب ٨١
« دعوتهم الى دين جديد ١٦١
« سياستهم الجديدة
(راجع الاتحاديون)
« عددهم والطمع في جعلهم
دولة واحدة ١٠٠
« عصبيتهم الجنسية ٧٥ و٥٠١

صفحة

« فطرتهم وصفاتهم وعقلهم واستعدادهم ٢٣٩
« . فضل الاسلام في ايجاد حضارتهم وزعم ملاحدتهم انه حال دونها ٢٢٩
تسمم الدم وعلاجه ٣٥٤
تصحيح أغلاط ٦ ٦
« وتنقيح ٤٠٧
صحيح كتاب الاغاني (كتاب) ٥١١
« لسان العرب « ٥١٢
التصرف في السكون . نفيه عن الرسول وادعاؤه للشيوخ ٥٧٨
التعريف بكتابي منازل السائرين ومدارج السالكين (م) ٥٠
التفريط . معناه وحسرته في الآخرة ٣٣٢
التفريط ونفيه عن القرآن ٤٥٥
تفسير « اقرأ باسم ربك » ٤٧٥
« المنار . رأي فيه ١٩٢
التقليد . ابطاله وظائف العقل والسمع ٦٧ و٢٦٢
« اضاعته للنفس وافساده للفطرة ١٩٨
« قبحه وبطلانه ٧٠ و٥٨٣
التكفير . الاحتياط فيه ٣٥١
تكفير المسلم بما لم يصح عنده ٢٧٧
تلاميذ المسيح . وصفه اياهم بعدم الايمان ٤٩
تهذيب الطباع بالوداع ٤٦٦
التواتر . بم يفيد العلم القطعي ٣٤٤
التورانية (راجع الطورانية)
التيوبركيولين ٢٨٩

صفحة

ج

جدة . حفاوة أهلها بنا ٥٦٦
جرائد مصر . انتقاد مصري لها ٥٠٧
جريدة الثمرات ٣٨٤
« القبلة ٣٨٣
« الكوكب ٥١٢
الجزاء قسمان أثر للعمل وإنشاء عدل أو فضل ١٩٦
جزيرة العرب في فجر التاريخ ٣٦٤
« « مستقبلها بعد الحرب ٣٧٩
« « مهد الجنس السامي ٣٧٧
جعل الظلمات والنور ١٧
جمال الدين الافغاني . كلمة له في الجرائد وخاصة جريدة طرابلس الشام ٥٠٩
جمال باشا السفاك . في سورية ٧٩ و١١٦ و١٤٩ و٣٧٢
الجمرة الخبيثة ٢٩١
الجمعة وما فيها من البدع ٥٣٨
الجمعيات الاتحادية لتكوين العصبية التركية (م) ٥٥٥
جمعية آداب اللغة العربية بلندن (م) ٣١٣
« الاتحاد والترقي (راجع الاتحاديون)
« النهضة النسائية ٥١٠
الجنازة . السير معها بالذكر وانشاد البردة ٥٤٣
الجنس السامي . مهده ٣٧٧
الجنسية التركية . فصلها عن الاسلام ٢٣٧
الجنسية العربية . تكوين

صفحة

الاتحاديين لها ٧٩
الجنة والنار . وجودهما ٢٨١
الجواب والاستجابة ٣٩٨

ح

حال المسلمين الاجتماعية (م) ٩٨ و٢٤٤ و٢٩٧
الحجاز . استقلاله ١٤٤
الحج . أحكامه وحكمه ٢١٣
« تلبية لدعوة ابراهيم ٣٠٨
« نسيئة الجاهلية فيه ٦٠٣
حجاج المصريين في البواخر ٥٦٤
الحديث . جمعه حجة على الاجتهاد المخالف للنص ٣٧٤
الحديث الصحيح . تعريفه ٣٤٦
« « حجة لاعذر لمن ترك العمل به ٢٦٦ (وطبع ٢٤٦ خطأ)
« المتواتر والمرسل والمعنعن والمضطرب والشاذ والمنكر والمردود والمعلل ٣٤٤
الحديث الموقوف الذي له حكم المرفوع ٩٨
حديث اذا ذلت العرب ذل الاسلام ٤٣٩
« اذا وسد الامر ٦٧١
« ان الزمان قد استدار ٦٠٣
« خلق الله آدم على صورته ٢٦٧ (وطبع ٢٤٧)
« الشيطان القرين واسلام شيطان النبي ٥٣٥
« مس الشيطان للمولود ٥٣٤
الحرب الدينية والمدنية ٣٤١
« عاقبتها ومكانة الانكليز

صفحة
منها ورأيهم فيها ٤٩٥
الحرب كيف تنتهي ومتى ٣١٩
« منع الاسلام لشرورها ١٠٤
الحركة الطورانية (م) ٥٠١
الحرية والمساواة في الاسلام ١٠٣
« عند الصحابة والعرب ٤٤٠
حزب اللامركزية وسببه ٧٨
حسن باشا عاصم . وفاؤه ٣٠٠
حسين الجسر وجمال الدين .
مناظرتهما ٥٠٩
حشر الحيوانات ٤٥٦
الحق . التكذيب به وسببه ٦٧
الحقوق . آكلوها من العلماء
والاغنياء ٢٩٨
حكمة اختلاف استعداد البشر ٣٩٧
« تنوع الاساليب ١٩٤
« عدم اجابة الكفار الى
الآيات المقترحة ٤٠١
« كون الاسلام خاتم
الاديان ١٠٥ و٦١٦
حمد الله نفسه وتعليله ١٧
الحمى الراجعة ٥٠٢
« النافض (الملاريا) ٤٨٥
الحياة في كل موجود ٤٦١
حياة الآخرة . انكارها ٣٢٩
« الدنيا لهو ولعب ٣٣٤
الحيوانات . كونها أمما أمثالنا
والقول بحشرها وبأن لها
أنفساً ناطقة وبتكليفها
ووجوب الرفق بها والعبرة
بذلك ٤٥١ — ٤٦٠

خ

صفحة
خاتمة السنة الـ١٩ للمنار ٦٣٨
خبر الواحد يفيد الظن والعلم ٣٤٤
خديجة . مزاياها وتزوج النبي
بها ٤٢٣
الخديو عباس . سعي خواصه
للتفريق بين الاستاذ الامام
وصاحب المنار ٣٠٥
خرافات الزار والسحر
والعفاريت والمشايخ ٣٥٠
خسارة المكذبين بلقاء الله ٣٣٠
خسران النفس علة عدم
الايمان ١٩٨ و٢٥٨
خصائص الرسول أكثرها
أحكام شاقة ٥٩٥
الخطأ في الواضحات غرورا
بالروايات ٥٩٧
الخلفاء الراشدون وسننهم ٦١٧
الخلق والجعل . الفرق بينهما ١٧
خلق البشر من الطين ٢١
الخليفة العباسي . سماعه الوعظ
مع نسائه ٦٢٢
« « عظمة دار الخلافة ٦٢٣
الخمر . ذمها وتفضيل الماء
عليها ٣١٢
الخير والشر والضر ٢٠٥

د — ذ

داء مادورا ٤٣٠
دار الخلافة في بغداد والشجرة
— شجرة الفضة — في
قصر الخلافة ٦٢٣
الدرن وأنواعه وأمراضه ٢٢٥

صفحة
الدستور العثماني . تحذير
المنار من سوء عواقبه ٧٥
دعاء الله عند الشدة حجة
على وحدانيته بالفطرة ٥١٤
دعاة النصرانية (راجع المبشرون)
الدعوة الى المشروعات العامة ٣٠٦
الدكتور ناظم مؤسس الجامعة
الطورانية للترك ٢٣٨
الدنيا . حياتها وكون لذاتها
سلبية ٣٣٤
الدواب في السماوات ٤٥٢
الدوسنطارية ٤٢٦
« الاميبية ٥٤٩
الدولة العثمانية بين اليأس
والرجاء ١٥٢
« « حاجتها الى العرب ٨٠
« « والحروب ٣٦٩
« « حرص المسلمين على
حياتها ٨١
« « ظهور الخطر عليها
٧٧ و٨٠ و١٥٢
الدين . اضاعة المقلدين له ٥٧٠
« سبب الاختلاف فيه ٢٧
« « التكذيب به ٦٧
« ظلم المنع من تحصيله
بنحو الطرد من مدارسه ٦٠٠
« والعلم والكفر ١٩١
« ظاهر وباطن ٥٣
« المعلوم منه بالضرورة
وحكمه ٢٧٨

ذكرى المولد النبوي (م)
٤٠٨ و٤٧٣ و٦٠٧
ذنوب الامم المهلكة نوعان ٧٣

صفحة
الذوق والحال عند الصوفية ٥٣

ر - ز

الرؤساء الجهال للدين والدنيا ٧٠
رؤية الباري في الآخرة ٢٨٢
الربوبية والالوهية. تلازمهما ٦٧
الرثية السيلانية ٢٩٥
رحلة الحجاز ٣٠٧ و٤٦٦؛ ٥٦٣
الرحمة. كتابة الله اياها على نفسه ١٩٥
الرسالة. موضوعها علمي تعليمي فلا تتوقف على اقدار الرسول على التصرف في المخلوقات من غير طريق الاسباب كهداية من يحبه بالفعل ولا على علم الغيب بالذات بل على الوحي ٥٨٠
الرسل. أتباعهم الضعفاء وأعداؤهم المترفون ٥٩٢
« عدم التفرقة بينهم ١٠٧
« كونهم بشرا لا أربابا ولا ملائكة ٥٧٨
الرسول. الخلاف في اجتهاده ٥٨٦
« مساواته لامته وخصائصه ٥٩٥
رسول ملك الروم عند الخليفة العباسي ٦٣٤
الرفق بالحيوان ٥٤٧
الروايات. الغرور بها ٥٩٧
الروماتزم السيلاني ٢٩٥
الرياء والغش والفساد في الحضارة المادية ٤٠٣
الرياسة الدينية. نفيها من الاسلام ٥٩٩

صفحة
رياض باشا. مساعدته للمنار ٣٠٠
« « ومشروع الدعوة والارشاد ٩٥
الزار. وهل يستلزم الشرك ٣٤٩
الزكاة وفوائدها ١٠٥

س

الساعة التي يزول فيها الامر من المسلمين ٦١٨
« والقيامة الكبرى والوسطى والصغرى ومجيئها بغتة ٣٣١
السؤال عما لم يقع ٢٦٧
(وطبع ٢٤٧ غلطاً)
السحر وآيات الانبياء ١٣١
« خداع باطل ١٣٢
السخرية والاستهزاء ١٤١
السعال الديكي ٣٥٧
السفر. أول فوائده ألم الفراق ٤٧٠
السقاوة والسراجة ٢٩٣
السل الرئوي ٢٣٠
« الكاذب ٤٣١
السمع والسماع ومراتبه ٣٤٤ و ٤٠٠
سمع الله. احاطته ٢٠٠
السماوات. معنى كون الله فيها ٢٤
« وجود الدواب فيها ٤٥٢
سنن الله في الآخرة المخالفة لسننه في الدنيا ٢٨٦
« البيهقي. مختصره ٢٦٩
« الكائنات. دروس فيها ٢٢٥ و٢٨٩ و٣٥٣؛ ٥٤٥
السنة. حفظ الدين بتدوينها ٧٠ و٢٦٦ (وطبع ٢٤٦)

صفحة
و٣٧٤
السنة وصحتها والشريعة ومتانتها — ردعلى مطاعن المبشرين وفيه فوائد كثيرة في ضبط السنة وصحتها ومكانتها من الشريعة ٢٥ و٥٧
سنة الله في حرمان المقلد من العلم والفقه ٢٦٢
سنة الله في خلق الناس ٣٩٧
سورة الانعام مناسبتها لما قبلها وبعدها ١٤
« « نزولها مرة واحدة ٩ و٥٩١
سورة البقرة. جمعها للاصول والفروع ١٣
سورة الكهف. قراءتها يوم الجمعة ٥٣٨
سورية. اشرافها على الزوال بالجوع والامراض الوبائية ٤٤٣
« سكانها الاولون ودولهم من العرب ٣٧٨
« صلب نابغيها ٧٩ و١١٧
« قصيدة في سوء حالها وتذكير أهلها المهاجرين بها ٤٤٦
السياسية. بناؤها على القوة ٣٤٠
السين وسوف ٦٩

ش

شبلي شميل. ترجمته وتأبينه ٦٢٥
الشبهات على الرسالة ١٣٠
الشدائد. تربيتها وفوائدها ٥٢٠
الشر. معناه وعدم اسناده الى الله ٢٠٥

صفحة
الشرك . باتخاذ غير الله وليا ٢٠١
« والبراءة منه ٢١٢
« بتصديق تأثير الاولياء والجن والشيوخ وقدرتهم على النفع ودفع الضر ٣٥٠
« ثلاث درجات ٥١٦
« وحساب المشركين ٢٥٩
الشريعة الاسلامية مزاياها ١٠١
« التشكيك فيها ١٠٨
« تقييد الحكومة بها ٦١٨
« مصادرها وأصولها ٢٧
شريف مكة . اخلاصه للدولة ١٥١
« استقلاله في الحجاز ١٢٧ و ١٦٧
« اعتقاده في الاتحاديين ١٦٥
« عنايته بنا ٥٦٧
« مبايعته بملك العرب ٤٣٥
« منشوره الاول في شأن استقلال الحجاز ١٤١
« « الثاني في بيان حال الدولة والحرب واستقلال الحجاز ٣٠٩
« « الثالث في بيان سبب قيامه على متغلبة الاتحاديين ٤٨٩
الشريفان حيدر وجعفر ١٥٠
الشعر والادب ٣١١ و ٤٤٦
شكر النعمة مدعاة المزيد وعكسه ٦٠١
الشمس . رجوعها أو وقوفها للنبي ٢٨١
الشهادة للشيء وبه وشهادة الله ورسوله ٢٠٩
شهادة التوحيد ٢١٠ و ٢١٢
الشيطان . مسه للمولود وقرين

صفحة
الانسان ٥٣٤
شيطان الوسوسة ٥٣٦

ص

الصحابة . أحاديثهم المرسلة ٩٩
« أسباب اختلافهم في المسائل ٢٧١ (طبع ٢٥١)
« حرية النقد عندهم ٤٤
« حفظة وخير القرون ٦١٧
« عدول لا معصومون ٣١
« ماعامه بعضهم دون بعض ٢٧٣
الصحف . تأثيرها في الاخلاق وانتقاد العربية منها ٥٠٧
الصحيحان . افادة متونهما لليقين وشرطه ٧٤٨
صفة العلو وتأويل الجهمية لها ٢٠٨
الصلاة . الاجتماع للذكر والدعاء بعدها ٥٤١
« على النبي عقب الاذان ٥٤٣
صلح الحديبية وحكمه ٦١٣
صندوق التوفير . ربحه ٥٢٧
الصوفية . خدمتهم للاسلام ٥٠١
« فرقهم وضلالاتهم ٥٠٢
الصيام . تاركوه صنفان ٨٥
« الجهر بتركه جناية على الامة ٨٨

ض - ط - ظ

الضر والمكروه النافع ٢٠٥
الضراء والبأساء ومقابلهما ٥١٩
ضعفاء المؤمنين . نهي الرسول عن طردهم ٥٩٠

الطرد من المدارس الدينية . حكمه شرعاً ٦٠٠
طفولية المسلمين ٩٠

صفحة
الطورانية التركية ٢٣٥ و ٥٠١ و ٥٥٥

الظلم بطرد ضعفاء المؤمنين ٥٩٦
« كونه سبب الهلاك ٥٢٥
ظلم الكذب على الله والتكذيب بآياته ٢٥٩
الظلمات المقابلة للنور وسبقها ٢٨

ع

عائشة . ارتيابها في بعض حديث أبي هريرة وغيره ٤٢
« انكارها رؤية الباري ٢٨٥
عاقبة الحرب ومكانة الانكليز منها (م) ٤٩٥
عبد الحميد الزهراوي . ترجمته ١٦٩
وفيها رأيه في الاتحاديين والعرب وصلبه ١٢٤
« « قول جريدة الاهرام فيه ١٨٣
« « كتاب سري منه للمنار ١٧٥
« « مكانة صاحب المنار عنده ١٨١
عبرة للمعتبرين وجناية المفسدين على المصلحين ٥٦٩
عترة الرسول (راجع ال)
عثمان . احداثه اذانا يوم الجمعة ٥٣٩
العدل بالشيء ٢٠
عذاب الآخرة والنجاة منه ٢٠٣
عذاب الاستئصال وعذاب الساعة مما لا يكشفه الا الله ٥١٨
عذاب الاستئصال خصوصيته ٥٢٥
العراق . استعمار قدماء العرب له ٣٧٨

صفحة
العرب . الآراء في المسألة العربية واستقلال الحجاز ١٤٤-١٦٨
« اخلاصهم للدولة ٧٨
« والاسلام والترك ٢٣٣ و٥٠١ و٥٦٢
« البلاغ الانكليزي الرسمي في اغرائهم بالاستقلال ١٨٨
« والترك . سعينا لوفاقهما ٧٦ و٢٣٣
« تفضيلهم بالعدل والرحمة ٣٤١
« حاجة الدولة اليهم ٨٠
« حكومتهم عند البعثة ٤٧٧
« خداع الاتحاديين لهم ٧٨ و١٥٠
« خصب جزيرتهم واعتدالها في فجر التاريخ وهجرة قدمائهم واستعمارهم العراق وسورية ومصر ونهضتهم الاخيرة بالاسلام ٣٦٣ و٣٧٧
« عداوة الاتحاديين لهم وسعيهم لمحوهم ٧٧ و١٤٨ و١٦٥ و٢٣٨ و٥٠٦
« في الآستانة ١٧٨
« مزاياهم ٣٤١ و٤٣٨
« « على جميع الامم في زمن البعثة ٤١٢ و٥٠١
« مكانهم في الاسلام ومكان الاسلام فيهم ٨١ و٤٣٨
العصبية الجنسية التركية ٧٥
علل الاحاديث الغريبة ٩٨
العلم . واليقين والظن ٣٤٥
« المنع من تحصيله ظلم ٦٠٠
علم الله . احاطته ٢٠٠
علم الغيب قسمان. حقيقي واضافي ونفيه عن الرسول وما يظهر

صفحة
الله عليه الرسل منه ٥٧٩
علم الجنس والشخص واسم الجنس (تفرقة) ٥٩٣
علماء الاسلام صنفان ومذاهبهم وخدمتهم للاسلام ٥٠
« بغداد في القرن السادس ٦١٩
« الدنيا والدين . أيهما خيروفء وقضاء ٢٩٩
« مصر والجرائد والجمعيات ٢٩٨
علو الله تعالى على خلقه ٢٤ و٢٠٧
علي يوسف . رأيه في المنار ٣٠٤
العمرة واجتماعها مع الحج ٢١٤
العمل لوجه الله ومرضاته وللثواب ٥٩٤
العمل بالحديث الصحيح ٢٦٦
عمل الناس ليس حجة في الدين ٥٤٣

ف — ق

الفاطر لغة وصفة لله ٢٠١
فتنة كبراء الكفار بضعفاء المؤمنين ٦٠٠
الفراق . درجات آلامه ٤٦٩
الفطر الشعاعي ٤٣٢
الفطرة . افسادها بالتقليد ١٩٨
الفقهاء . خدمتهم للاسلام ٥١
الفقه في الدين والاجتهاد ٢٦٧ (وطبع ٢٤٧ غلطاً)
فقه القرآن وغيره . المانع منه ٢٦٣
فقهاء الامصار . تفقههم ٢٧٤
الفلسفة وعلوم الدين ٢٦٨
فوائد شتى (م) ٢٦٦ (وطبع ٢٤٦ غلطا)

القرآن . اخباره بالغيب ١٠ و٢٦٤ و٤٠٢ و٤٨٠ و٦١٨
« ارشاده الى علمي الملك

صفحة
والحيوان ٤٥٣
القرآن . أسلوب السؤال والجواب فيه ١٩٤
« اعجازه ٦٦ و٦٨ و٢٠٥ و٤٠٢ و٤٨٢
« ايجابه الاستدلال وتحريمه التقليد (وراجع التقليد) ٧٠
« ايجازه ٧٢ و٢٠٥ و٢١٠
« بلاغته ودقة التعبير فيه ٦٩ و٧١ — ٧٣ و١٤٣ و٢٠٠ و٣٠٥ و٣٣٧ و٣٩٧
« بيان ماظاهره التناقض منه ٢٦٠
« تسمية النبي اياه ثقلا وحثه على الاستمساك به ٦١٦
« تناسب آيه ٦٦ و١٢٩ و١٩٤ و٢٦٢ و٣٢٠ و٤٤٩ و٥١٤ و٥٧٨
« « سوره وترتيبها ١٣
« حفظ الدين بحفظه ٧٠
« حيلولة التقليد دون فقهه ٢٦٢
« دعوة الرسول فمن لم يبلغه لم تبلغه الدعوة ٢١١ و٤٨٠
« دقائق العطف فيه ١٤٣
« والسنة . أسباب مخالفتهما ٢٧١ (وطبع ٢٥٢)
« سوره المبدوءة بالحمد ٤٧
« شهادته برسالة الرسول ٢٠٩
« شهادته للمسيح حجة للمسيح وشبهة عليه ١٠٨
« قولهم أساطير الاولين ٢٦٣
« كونه آية مشتملة على آيات تثبت نبوته (ص) ٤٠٢ و٤٨٢
« كونه كلام الله لا يستطيع النبي مثله ٢٦٢
« نهيهم عنه ونأيهم عنه ٢٦٤
« هيمنته على الكتب الالهية وأصول الاصلاح الديني

صفحة
والمدني فيه ٤٧٨
القرن . معناه وتحديده ٧١
قريش ، اصطفاؤهم ٤١٥
« الامامة والخلافة فيهم ٤٣٨
« مناهضتها للنبي ٤٨٣
« وثنيتها ٥٩٧
قصة الكنز المفقود ٥٧٦
القلاع ٤٣٣
القهر وتفسير (وهو القاهر فوق عباده) ٢٠٧
القلوب. الاكنة عليها ٢٦٢
القياس الفقهي. الخلاف في حجيته ٥٨٦

ك

كتاب ثورة العرب ٥٧٥
« الجمع بين الصحيحين ٢٩٩ (وطبع ٢٤٩ غلطاً)
« الحرب الاوربية وفلسفتها ٥٧٤
« شرح البيع ٣٧٤
« كيون كاهون في الترك ٢٣٨
« مدارج السالكين ٥٠
« المذابح في أرمينية ٥٧٦
« منازل السائرين ٥٠
كتب الاعمال. نشرها في الآخرة وتمثيله بعرض الصور المتحركة ٣٢٦
الكذب على الله والتكذيب بآياته ٢٥٩
الكشف والالهام ١٣٩
الكفر باتخاذ ولي من دون الله ٢٠١
« أسباب الاصرار عليه ٢٦٢
« درؤه ولو بالشبهات ٣٥١
« والعلم والدين ١٩١
الكفار . شبهاتهم على الرسالة

صفحة
واقتراحهم الآيات ١٣٠
الكفار. وقفهم على النار وتمنيهم العود الى الدنيا ٣٢٢
كنانة . اصطفاؤه ومزاياه ٤١٥

م

المال والنفس . بذلهما في سبيل المصلحة ٠٩١
المؤتمر العربي الاول ٧٨
المؤمن المصلح. أمنه من الخوف والحزن ٥٢٥
المؤمنون . كونهم لا يملكون حساب الرسل ٥٩٨
« ليسوا عبيدا للرسل ٥٩٥
مبايعة شريف مكة على ملك العرب (م) ٤٣٥
« وفود الاقطار الحجازية (م) ٤٤١
المبشرون. تأثير دعوتهم في المسلمين ١٠٧
« تحريفهم لما ينقلون عنا ٠٤٣
« حالنا معهم وإكبارهم لمشروع الدعوة والارشاد وطعنهم في السنة والشريعة ٢٥ و٩٧ و٢٥٣
« عدم الثقة بفهمهم وبعلمهم ٢٦ و٣٢ و٤٣ و٤٦
« نصيحة المنار لهم ١٠٨
متى يذكر الوطن النوّم (قصيدة) ٤٤٦
المتفرنجون والمقلدون . اضاعتهم للدين ٣ و٧٠ و٠٨٥ و١٢٦
« منا . خواصهم ٩٣
مجلة الاحكام الشرعية ٣٨٤

صفحة
المجمع اللغوي المأمول ١١٠
محاسبة النفس ٥٧٠
المحدثون. ضبطهم للاخبار ٣٤٦
محمد توفيق افندي علي ٥٦٤
محمد نصيف. ضيافته لنا ٥٦٦
« محمد وجيه الكيلاني . وفاته وسيرته ١٢٥ و٣١٧
مدرسة الدعوة والارشاد ٠٩٢
المدنية المادية . مفاسدها ٣٤٠
المذاهب . ردها الى النصوص دون العكس ٢٦٧ (وطبع ٢٤٧ غلطاً)
مروان. امتحانه لابي هريرة ٠٤٣
المس الحسي والمعنوي ٢٠٤
المسلمون . اتباعهم سنن من قبلهم واضاعتهم للدين والملك ٧٠
« احصاؤهم ١٠٠
« افتتانهم بالمدنية المادية ٢ و١٠٨
« كونهم أمة وحالهم الاجتماعية الآن وكونها طفولية وفضائلهم ورذائلهم وأغنياؤهم وملاحدتهم وسائر أصنافهم ٨٩—٩٩ و١٢٦ و٢٤٤
« لا يكونون نصارى ١٠٦
« ملاحدتهم ٣ و٠٨٥ و٥٦٩—٥٧٤
المسيح . تبغيضه للمسلمين وكون بغضه كفرا وعد ثناء القرآن عليه شبهة ١٠٨
« طعنه في بطرس وفي التلاميذ ٤٩
« ونبينا (ص) أيهما أفضل ١٠٧
مسيح الهند ٤٠٦

صفحة

مشيئة الاصلاح والهداية ٤٦٢
المشركون . الاحتجاج عليهم بفطرتهم وحالهم ٥١٤و٥٢٤
« أصنافهم وتفاوتهم ٢٦٢
« انكارهم واعترافهم في الآخرة ٢٦٠
« عداوتهم وحربهم للنبي ٦١٣
« رأيهم في الرسالة ٥٧٨
مصابنا بالزهراوي ١٢٤
مصر . خير رجالها ٣٠٠
المصلحة. رعايتها في أحكام الله تعالى وأفعاله ٤٥
المعراج روحي وجسدي ٢٧٩
« أحاديثه ورواية البخاري في كونه رؤيا منامية ٥٣٢
المفسرون. خطأهم في الواضحات ٥٩٧
المقابلة بين الضر والخير ٢٠٥
المقتدر بالله العباسي . استقباله رسول ملك الروم ٦٣٤
المقتطف. حفلة تكريم له ١١٠
المقلد الاعمى وذو الحجة . عدم استوائهما ٥٨٣
المقلدون. الحجة عليهم ٥٧٠
« مثال لهم ٢٦٣
الملائكة. استمداد الالهام والتثبيت منهم ١٣٨
« اقتراح انزالهم على الرسل ١٣٢
« تفضيلهم على الرسل ٥٨٤
« بم ينزلون على البشر وعدم استعداد عامة البشر لرؤيتهم الأن يتمثل الملك رجلا ١٣٢
الملاحدة. كيدهم للاصلاح ٢٠٨
« المنافقون. تركهم للصيام ٨٧
الملاريا. أطوارها وعلاجها ٥٤٥

صفحة

ملك الالهام ٥٣٦
المنار . أخلاق صاحبه ومعاداته ٥٧٠
« الانتقاد على ادارته ١٩٠
« « عليه بالطعن في الحكومة التركية وتأييد الحركة العربية الحجازية وبضد ذلك ٦٣٩
« بيانه لحقيقة حال المسلمين ٩٠
« تاريخه وثباته على المقاومة ٣٠٥
« تحذيره خطر عصبية الجنس على الدولة قبل وقوعه ٧٥
« أغلاطه ٤٠٧ و٢٦٥
« خاتمة المجلد وفيه بيان حاله في أيام الحرب ٦٣٨
« دعوة الى انتقاده ٥٧٠
« دعوته الى انتقاده وحجته ومباحثه ٦٤
« سعي صاحبه للتأليف بين العرب والترك ٢٣٣
« سياسته مع الاتحاديين ١٤٩
« عدم قبول صاحبه التبرع وانحصار مساعدته في اداء حقه والدعوة اليه، ومساعدوه في بعض الاقطار وهاضمو حقه ، ورأي الاستاذ الامام والشيخ علي يوسف فيه ٣٠٥
« فاتحة المجلد وفيه التذكير والعبرة بما نزل بأقوى الامم والدول من آثار العزة والقهر الالهي وبما طرأ على سير الاصلاح من كيد الملاحدة والمنافقين وحال ملاحدة بلادنا ١—٨
« وصفه بأنه حجة الله ورأي كاتب في مكانه ومكان صاحبه من الاصلاح ٢٥٢

صفحة

المنار . وصيته بالاخلاص للدولة ٧٩
« وقوع ما توقعه في الدولة ٧٥
مناسك الحج ٢١٣
منشور شريف مكة الاول ٢٤١
« « « الثاني ٣٦٩
« « « الثالث ٤٨٩
المولد النبوي. الاحتفال به ٤١٠

ن

النابتة العربية . تهاون بعض أفرادها بالدين ٥٦٩
الناس معادن والعلم والجاه كالصقال ٢٩٨
النبي . نقله عن غيره ٩٩
نبينا . اجتهاده في الاحكام ٥٨٧
« الاحتفال بمولده ٤١٠
« اخباره بالغيب ٦١٧
« أخلاقه ٦١٠
« اسلام شيطانه ٥٣٥
« اصطفاء أصوله وقومه وآل بيته ٤١٤—٤١٨
« اقتراح الآيات عليه ١٣٢، و٣٩٥ و٥٧٨
« أقوال كبراء المشركين فيه ٣٨٨
« انكار عائشة رؤيته لربه ٥٨٥
« أول من أسلم ٢٠٢
« بعثته وسيرته قبلها ٤٧٣
« تاريخ ولادته ونشأته ٤٢١
« تبليغه الدعوة وخلاصتها ٤٧٧
« تعجيبه وحزنه لكفر قومه وتسليته على ذلك ١٣٠ و١٤٢ و٣٨٦ و٣٩١ و٤٠١
نبينا. ثبوت نبوته بالبرهان العقلي العلمي الدائم ١٠١ و٢٠٨، و٤٠٢

صفحة
نبينا . خوفه عذاب عصيان ربه ٢٠٣
« خصائصه ٥٩٥
« رجوع الشمس أو وقوفها له ٢٨١
« رؤيته بيت المقدس بمكة ٢٧٩
« « المذنبين يعذبون ٢٨٠
« روايته عن غيره ٩٩
« سيرته مع المؤمنين والكفار ٦١٠
« شق صدره وتطهير قلبه ٥٢٩
« شهادة الله له وأنواعها ٢٠٨
« « « للاجابه وأنواعها ٢١٠
« العمل بسنته وتقديمها ٢٦٦ (وطبع ٢٤٦ غلطاً)
« كون قومه لا يكذبونه ٣٨٧
« مدة بعثته ٦١٥
« مزايا شريعته ١٠١
« مساواته لامته ٢٠٢ و٥٩٥
« معرفة أهل الكتاب له ٢٥٨
« المفاضلة بينه وبين المسيح ١٠٧
« مناهضته ٤٨٣ و٦١٣
« نسبه ٤١٩
« نفي ملكه لحساب المؤمنين ٥٩٠
« « التصرف وعلم الغيب عنه ٥٧٩

صفحة
نبينا . نفي استطاعته الاتيان بالآيات ٣٩٥
« نهيه عن طرد ضعفاء المؤمنين ٥٩٠
« هجرته ٦٠٧
« وصيته بالقرآن وبعترته ٦١٦
« وفاته ٦١٦
النساء. رفع الاسلام شأنهن ١٠٣
« فرنجة الاتحاديين لهن ٣٧٢
نسب النبي (ص) ٤١٩
النعم . الغرور بها وتوهم دوامها وتفضيل الله لاصحابها في الآخرة كالدنيا وبيان أن العبرة بشكرها لابها فبه تبقى وتزيد وبالكفر تزول ٦٠١
النعيم المنوي . تفضيله على النعيم الجسدي ٢٨٢
النقل بالمعنى . مفسدته ٣٣٨
النور الحسي والمنوي ومقابلهما ١٨

هـ ـ ى

الهداية والاضلال ٤٦٢

الوثنية . باتخاذ الوسطاء والشفعاء ٥١٧
وجه الله ومعنى ارادته بالعمل ٥٩٤
وحدانية الافعال ٣٥٠

صفحة
وحدة الوجود ٥٣
الوحي. من مقتضى الربوبية ٦٧
الوداع. بحث فلسفي شعري ٤٦٦
وظائف الرسول ٥٧٨ و ٥٨٠ و٥٩٧
الوعيد بالسين وسوف في معنى واحد ٦٩
الوقوف على الرب بالآخرة ٣٢٩
الولد. أوهام العزاب وفاقدي النسل فيه ٠٤٧٠
الولد . تهذيبه للطباع ٤٧١
الولي. اتخاذه من دون الله ٢٠١

اليقين لغة واصطلاحاً ٣٤٥
اليهود ومعاملة النبي لهم وغدرهم به ٦١٢

استدراك وتصحيح

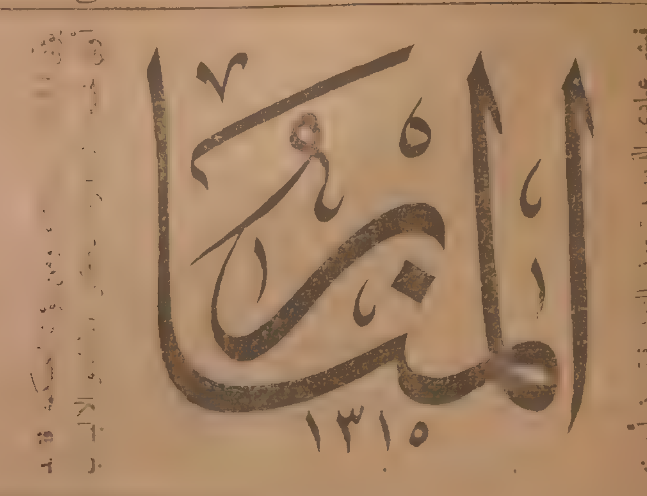
آل اسماعيل وآل اسحاق . اصطفاؤهما ٤١١
الاذكار البدعية ٥٦٥
الاسلام. نفي الرياسة الدينية منه ٥٩٩

تصحيح فهرس

صفحة	سطر	خطأ	صواب
ح (٨)	٢٠	١٤١	٢٤١

تصحيح أغلاط عثرنا عليها أثناء جمع الفهرس

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣	٤و٦و٢١و٢٢	الطوال	الطول
٢١١	٣	وبالالوهية	بالالوهية
٣٣٤	١٩	يطلق	يطلق أحياناً
٣٣٥	٤	لهوا ولعبا أو كاللهو واللعب	لعبا ولهوا أو كاللعب واللهو
«	١٢	موقتاً	ازالة موقتة
٣٣٦	٢٣	الصفة للموصوف	الموصوف او الصفة
«	٢٥	طريقة	اطراده وطريقة
٣٣٨	١٨	وهو	وهي
٣٤١	٢٤	أحدا	أحد
٣٤٤	٧	ان	انه
«	٨	اصطلاحي	اصطلاح
«	١١	مأخذ	مأخذه
٣٧٢	١٨	أى لا	أن لا
٣٩١	١	ويوضحه	وما في معناه ويوضحه
«	١٣	منهم عنادا	ظلما وعنادا
«	١٩	مما نذكر قريباً من الشواهد في	كالشواهد التى نراها في
٣٦٣	٧	الخصمين	الخصمين سائر
٣٩٦	١٧	فانهم	وقد كانوا
٣٩٨	٤	واحتيج	وحسن
٥٣٦	١٨	وليس متنه	ولكن معناه



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٢٩ شعبان ١٣٣٤ — ٨ السرطان (ص) ١٢٩٤ هـ ش ٣٠ يونيو ١٩١٦

فاتحة السنة التاسعة عشرة للمنار



سبحانك اللهم وبحمدك أنت المحمود على كل حال ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، قوي المحال عظيم النوال، تعطي من تشاء ولو بغير سؤال ، وتحوّل ما شئت من حال الى حال ، قوة بعد ضعف ، وغنى بعد فقر ، وعز بعد ذل ، وكل ضد يعقبه ضد ، فما رفع الله شيئا الا وضعه ، ولا وضع شيئا الا رفعه، وكل شيء عنده بمقدار (١٣ : ١٢ إنّ الله لا يُغيّرُ ما بقومٍ حتى يُغيّرُوا ما بأنفسهم وإذا أرادَ الله بقومٍ سوءًا فلا مَردَّ له وما لهم مِن دُونِهِ مِن والٍ)

نحمدك اللهم بالغدوّ والآصال ، ونصلي ونسلم على محمد خاتم رسلك وآله

وصحبه خير صحب وآل، وعلى من تقدمه وتقدمهم من النبيين والمرسلين، ومن تأخر عنهم من الصديقين والشهداء والصالحين، واهدنا اللهم صراطهم المستقيم في الدنيا من الاخلاق والاعمال، (١٤ : ٢٣ مِن قَبل أن يأتيَ يوم لا بَيعٌ فيه ولا خِلال)

أما بعد فان المنار يذكر قراءه على رأس عامه التاسع عشر، بأن يعتبروا بما نزل بأقوى أُمم البشر، من آثار عزته تعالى وقوته، ومظاهر عدله وحكمته، الدالة على انه هو الذي يغير ولا يتغير، ويبدل ماشاء بماشاء ولا يتبدل، وأن الامن من مكره غرور ووبال، والقنوط من رحمته كفر وضلال، وأن القوة لا تغلب الحق، ولكنها قد تكون بالحق وللحق ومن الحق، وان الحق ليس بمجرد دعوى اللسان، ولا بمجرد ما يجري عليه الناس من عرف واصطلاح، فحق الملك وسياسة العباد، لا يجب أن يورث عن الآباء والاجداد، وانما أحق الناس بأمر الناس، من كان أنفعهم للناس، واقامة سنن الله تعالى في الاجتماع (١٣ : ١٨ أَنزل من السماء ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدَرها فاحتملَ السيلُ زبَدًا رابيًا، ومما يُوقدون عليه في النار ابتغاءَ حِليةٍ أو متاعٍ زَبدٌ مثله، كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ، فأما الزبدُ فيذهبُ جُفاء وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الارضِ، كذلك يضربُ الله الامثال)

ثم يذكرهم على عادته بما طرأ على سير الاصلاح، بعد أن خفتت أصوات المعارضة في جميع الاقطار، وهو شيء حدث في هذه الديار، ذلك بأن فيها كغيرها أناسا اغتروا بمظاهر القوة المادية، فاحتقروا قوى العقائد والفضائل الروحية، وفتنوا بتقليد الاقوياء بما هو من آفات القوة

ومفاسدها، لا من أسبابها ولا من محامدها، كالسرف في الزينة والترف، والانغماس في الشهوات واللذات، وأعجب أمرهم أن منهم من يدعون الدعوة الى الاصلاح، والصعود بالضعفاء الى مستوى الاقوياء، أولئك هم الملاحدة المتفرنجون، الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون، وانما حجتهم على عامة المسلمين، سوء حال كثير من المعممين، وتذللهم للامراء والحاكمين، وذمهم بعصبية الدين، وان لهؤلاء الملاحدة لقوةً من غيرهم لا من أنفسهم ولكنهم يعتزون بها، وإن منهم من يكيد للمؤمنين مكايد لا يفطنون لها، وان للمؤمنين لقوة ذاتية ولكنهم غافلون عنها، وانما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه، فاذا قذف عليه دمغه، وان بقاء الباطل لإلى زوال (٤٠: ٢٥ وما كيد الكافرين الا في ضلال)

قد كان ملاحدة قطرنا هذا أجبن ملاحدة المسلمين وأخوفهم من اظهار الكفر، على كونهم أجرأهم على الجهر بالفسق، ثم تجرأ أفراد منهم منذ سنين على التصريح به أو ببعض لوازمه في الجرائد، بعد طول العهد على تصريح الكثيرين بذلك في المجالس، ومنهم من الف كتبا أو رسائل في ذلك، ثم بلغنا في العام الماضي أنهم ألفوا جمعية لاجل التعاون على تشكيك الناس فى الإسلام وجذبهم الى الإلحاد، والطعن في عقائد الدين وآدابه وأحكامه ولا سيما الآداب والاحكام الخاصة بالنساء. وأنشأوا لهم صحيفة لدسّ الدسائس، وبث الوساوس، وتوجيه العناية فيها الى نابتة المدارس، وبناء دعوتهم على قاعدة التشويه للقديم والصد عنه، والتنويه بالجديد والترغيب فيه، وان لهم لأنصارا في القصور والدواوين، وفي المدارس واكبر معاهد الدين، وقد استفادوا من تقييد

حرية المطبوعات بسبب الحرب، بما كفوا به أقلام من تصدى لاحباط بعض دسائسهم من أهل الحق، وانهم ليخلبون ألباب المختبلين من الشبان والشابات، بما ينمقون من زخرف الشبهات، (٢: ٢٠٣ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهدُ الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام ٢٠٤ واذا تولى سعى في الارض ليُفسدَ فيها ويهلك الحرثَ والنسلَ والله لا يحب الفساد)

فبهذا قد وجب على أهل الاصلاح أخذ الاهبة لجهاد جديد، هو أشد من جهاد أصحاب الخرافات والتقاليد، فان أصحاب الخرافات عُزْلٌ وهؤلاء الملاحدة مسلحون، وأولئك ضعفاء متفرقون، وهؤلاء أقوياء مجتمعون، وأولئك غافلون متواكلون، وهؤلاء أيقاظ حذرون، فاذا جاهد أهل الاصلاح أباطيلهم بمثل ما يجاهدون به الحق، من الاجتماع والتعاون والحزم، كانوا حزبَ الله الغالبين (ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ إن اللهَ لقويٌّ عزيز ٤٠: ٥١ إنّا لَنَنْصُرُ رسلَنا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الاشهادُ ٥٢ يومَ لا ينفعُ الظالمين معذرتُهم ولهمُ اللعنةُ ولهم سوءُ الدار)

إن هؤلاء الملاحدة لا يخافون من الازهر وما يتبعه من المعاهد الدينية ما داموا يدعون الاسلام بألسنتهم، بل لا يعدمون هنالك أولياء وأنصاراً لهم، لما بين نفاق الاعتقاد وفرق العمل. ومن رابطة التناسب والاتصال، ويقال ان لجمعية الالحاد الجديدة ركناً في الازهر ركيناً، وانهم بذلك أوشكوا أن يحدثوا فيه حدثاً مبيناً، ولكنهم لم يصيبوا به الا خذلاناً وفشلاً مهيناً، ولان كلاً منهما يؤثر المنافع الخاصة، ويتوسل اليها بما في يده من المصالح العامة، ولان أكثر الازهريين، لا يُعنون بالنظر في مكتوبات المتفرنجين، وما كل من ينظر فيها، يفهم المراد منها، وما

كل من يفهم أن فيها طعناً على الدين يهتم بالدفاع عنه، وما كل من يهتم منهم بذلك يقدر عليه، وما كل من يقدر عليه يقوم به. — **لأجل ذلك** كله لايحسب هؤلاء الملاحدة للازهريين حسابا، وقد يكذّب الازهر ظنهم فيه كِذّابا؛ وانما يخافون من رجال الاصلاح سواء كانوا من الازهر أو من غير الازهر لأنهم أقدر الناس على اظهار عوارهم، وتقليم أظفارهم، ولأن كل مايزعمونه ويتقربون به الى الامة من السعي الى ترقيتها وتمدينها، قدسبقهم اليه طلاب الاصلاح الاسلامي مع المحافظة على مقوّمات الامة ومشخصاتها، وإنما أركانها الدين واللغة والعادات والازياء، وهم يحاولون هدم ذلك كله بلا استثناء.

واضرب لهم مثلا ماقاله أحد الظرفاء مفاكها للاستاذ الامام — وهو في مرض موته — قال: ان طريقتك في تفسير القرآن قد أضرت الامة أعظم الضرر: قال الاستاذ لماذا؟ قال لانها أبانت للناس أن الدين موافق للعقل والعلم وركن من أركان المدنية، فتعذر علينا ما كنا نحاول من هدمه بدعوى أنه عقبة في سبيل ترقينا في دنيانا. فمن هذه الجملة التي عرقائلها عن خدمة الاستاذ الامام العليا للدين وللمسلمين، ينجلي لنا رأي هؤلاء الملاحدة في الاصلاح والمصلحين (١٤: ٢٧ يثبّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)

من أجل هذا كانت مدرسة الدعوة والارشاد قذى في أعينهم، وشجى في حلوقهم، وطخا على قلوبهم، وما زالوا يكيدون لها، حتى حالوا دون أعظم اعانة كانت تنتظرها، وقد كان أشدهم سعيا وسعاية، أشدهم استهزاء بالدين وزراية، ذلك الذي كلما عنّ مطعن يلوي عنقه ويهز اكتافه،

وينغض رأسه ويثني أعطافه، ويتبسم ساخرا، او يغرب ضاحكا — ذلك الذي يعلم رئيسه الآن، أنه يأكل لحم الخنزير جهرا في نهار رمضان،ولو زدنا في وصفه لعرفه كثير من الناس، وانما الغرض بيان الصفات والاعمال وعلى هذه الشاكلة كل اولئك الضلال، الذين لم يرضوا بسكوت المسلمين لهم على الضلال، حتى تصدوا للعدوان والصيال، (١٤:٥٨ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم، وان كان مكرهم لتزول منه الجبال)

فهم على ماهم، (٤٧:٣١ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول) وفيما يوجهون اليه القوة والحول، فمنهم من يحاول هدم الاسلام، بالدعوة الى استبدال لغة العوام بلغة القرآن، ومنهم من يبتغي التشكيك فيه بنشر آراء الماديين، من القدماء والاوربيين، ومنهم من يصد عن محجته، بتفضيل ماعرفوا من القوانين على ماجهلوا من شريعته، ومنهم من ينفر عما حرمه من آدابه الروحية والاجتماعية، تلذذا بما حرمه من الشهوات الضارة والعادات البهيمية، ومنهم من هم أقصر من هؤلاء نظرا، وأظلم بصيرة وأفسد ذوقا، وهم الذين يحتقرون مشخصات أمتهم (كالجبة والعمامة) ويهزؤن بها، ويرغبون في الاستعاضة بالازياء الغربية عنها، ويتوهمون أنهم قد عرجوا بذلك الى مستوى من فلسفة الذوق والجمال، لا يعرفه الا من حلق في جو الخيال الى أوج الكمال، كمخترعات الازياء الجديدة (المودة) من ربات الغنج والدلال، ولو عقلوا ما تجره هذه الفلسفة النسائية أو الصبيانية من الخزي والنكال، أو قرؤا وفهموا ما قاله الدكتور سنوك الهولندي في خطبته في مستقبل الاسلام، لودوا لو كانوا من ربات الحجال، راجعين عن مذهب السفور ومخالطة نسائهم للرجال، وانما يلوذ هؤلاء وأولئك بخلابة

المقال (٢:٢١١ زُيِّنَ للذين كفروا الحياةُ الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب)

وجملة القول اننا بعد ان فرحنا بنصر الله تعالى لحزب الاصلاح على المبتدعة والدجالين، قد ابتلينا بتكوين حزب للملاحدة المارقين، يواليه أفراد من أغرار الشبان وكهول المنافقين، فاذا ترك هؤلاء وشأنهم، وسكت لهم أهل الحق على ما ينفثون من سموم أباطيلهم، تعظم جرأتهم، وتنتشر دعوتهم، وتكبر فتنتهم، وليس الاستظهار عليهم بالامر العسير، فان حجتهم داحضة، وغواياتهم متناقضة، وغاياتهم متعارضة، ويخافون الردة الصريحة، ان تحرمهم احترام الامة وبعض مناصب الحكومة، فالجريء منهم على التصريح بالكفر على رءوس الاشهاد قليل، وانما يصرحون غالبا بما يظنون أنه يحتمل التأويل، كزعمهم أن النبي عليه الصلاة والسلام، أقرَّ العرب على بعض عباداتهم الوثنية لاجل استمالتهم كما فعل بعض البابوات، وهذا من أقبح البهتان، فان ما أقره الاسلام من مناسك الحج كان من شريعة ابراهيم عليه الصلاة والسلام، فهو الذي بنى بمساعدة ولده اسماعيل البيت العتيق، وطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأذن في الناس بالحج فلبوه من كل فج عميق ومن دعائه عليه الصلاة والسلام، (١٤: ٣٥ رَب اجعلْ هَذا البلدَ آمِناً واجنبني وَبَنِيَّ أن نَعْبُدَ الاصنام)

هذا وإن سواد المصريين الاعظم يغار على دينه، ويذبّ عنه بشماله ويمينه، حتى ان اكثر المتعلمين فى المدارس المتفرنجة والافرنجية، ليتعصبون له عصبية سياسية اجتماعية، لا يشعر بمثلها المتعلمون في المعاهد الدينية، فهم يمقتون من يجعل نفسه داعية للكفر، ويلفظونه كما تلفظ النخامة

من الفم، ويعلمون أن ما يتوخاه هؤلاء من نباهة الذكر عند الاوربيين، والتشبه بمن ناهضوا الكنيسة ورجال الدين، ليس بالغرض الصحيح الذي يعذرون فيه، ولا العمل المفيد للدنيا فيساعدهم من لا يؤمن بالآخرة عليه، فهم لا يجدون في الاسلام ولا في رؤسائه تلك الاسباب التي حملت بعض كتاب أوربة وجمعياتها السياسية، على مجاهدة الكنيسة ورجالها والطعن في نفس النصرانية، فالاسلام نفسه أرشد البشر الى العلوم العقلية والكونية، وأوجب الفنون والصناعات المدنية، وأخرج البشر من رق رؤساء الدين والدنيا الى فضاء الحرية، وأما رجال الدين الرسميين في مصر فلا مجال لاتهامهم بعصبية دينية، ولا بمقاومة الحرية العلمية ولا العملية، لأن شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية، وشيخ مشايخ طرق الصوفية، قد اشتركوا في جمع الاعانة لجمعية الصليب الاحمر، حتى فرضها الاول على جميع أصحاب الرواتب في الجامع الازهر، وحضروا ما كانوا يتحامون من المحافل، في معاهد التمثيل والفنادق، وقد حضر المفتي حفلة الصلاة على روح لورد كتشنر في هذه الايام، كما حضر الصلاة على روح بطرس باشا منذ أعوام، فلم يبق لهؤلاء الملاحدة ما ينقمونه من هؤلاء العلماء، الا عدم مشايعتهم إياهم على السفور ومخالطة النساء، ولعلهم لا يرضونه منهم الا أن يغيروا هذه الازياء (٣:٧ رَبَّنا لا تُزِغ قلوبَنا بعدَ اذ هديتَنا وهَبْ لنا من لدُنك رحمةً انك أنتَ الوهّاب ٨ ربنا انك جامعُ الناسِ ليوم لاريب فيه ان الله لا يُخلف الميعاد)

منشئ المنار ومحرره
محمد رشيد رضا

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

سورة الانعام - ٦

(وهي السورة السادسة ، وآياتها ١٦٥ عند القراء الكوفيين — وعليه فلوجل — و ١٦٦ عند البصريين والشاميين ، و ١٦٧ عند الحجازيين)

هي مكية — قيل الا آية واحدة هي قوله تعالى « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة» فانها مدنية رواه ابن المنذر عن أبي جحيفة — وقيل الا آيتين نزلتا في المدينة في رجل من اليهود قال : ما أنزل الله على بشر من شيء . فنزل فيهم « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء » الآيتين — رواه أبو الشيخ عن الكلبي وسفيان — وقيل هما « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم » الخ الآيتين ، رواه اسحق بن راهويه في مسنده عن شهر بن حوشب . وما قبله أقوى من جهة معنى الآيتين فانه في محاجة اليهود الذين كانوا في المدينة . وأما « قل تعالوا » الآيتين فمعناهما من موضوع السور المكية، وهما متصلتان بما بعدهما، وقيل ان الآية الثالثة بعدهما مدنية أيضاء رواه ابن النحاس عن ابن عباس — وقيل الا ست آيات (وما قدروا الله حق قدره) الى آخر الآيتين بعدها ، و (قل تعالوا) الى آخر الآيتين بعدها. وهذا جمع بين الاقوال السابقة كلها .

وقال السيوطي في الاتقان : قال ابن الحصار استثني منها تسع آيات، ولا يصح به نقل خصوصا مع ما قد ورد انها نزلت جملة (قلت) قد صح النقل عن ابن عباس باستثناء (قل تعالوا) الآيات الثلاث كما تقدم. والبواقي (وماقدروا الله حق قدره) لما أخرجه ابن أبي حاتم انها نزلت في مالك بن الصيف ، وقوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) الآيتين — نزلتا في مسيلمة ، وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) وقوله (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) اه

أقول قد ثبت ان بعض الآيات كانت تصدق على وقائع تحدث بعد نزولها أو قبله فتذكر للاستشهاد أو الاحتجاج بها في الواقعة منها فيظن من سمعها حينئذ من الصحابة ولم يكن سمعها من قبل أنها نزلت في تلك الواقعة، وكثيرا ما كان يقول الصحابي ان آية كذا نزلت في كذا — وهو يريد أنها نزلت في اثبات هذا الامر أو حكمه أو دالة عليه — فيظن الراوي عنه انها نزلت عند حدوث ذلك الامر والصحابي لا يريد ذلك، وقد نقل السيوطي هذا المعنى عن ابن تيمية والزركشي، والتحقيق أن مثل هذا يعد من التفسير لا من الحديث المسند . ولما كان وجود آيات مدنية في سورة مكية أو آيات مكية في سور مدنية خلاف الاصل فالمختار عدم قبول القول به الا اذا ثبت برواية صحيحة السند صريحة المتن سالمة من المعارضة والاحتمال. واننا لم نرهم صححوا مما رووه من الاستثناء الا رواية ابن عباس في استثناء ثلاث آيات هن من موضوع السور المكية ولعلهم لو ذكروا لنا الرواية بنصها لما وجدنا فيها حجة على ما قالوا

وأما ما روي في نزول الانعام جملة واحدة فقد أخرجه غير واحد من المحدثين عن غير واحد من الصحابة والتابعين — ففي الاتقان انه أخرجه أبو عبيد والطبراني عن ابن عباس، والطبراني من طريق يوسف بن عطية — وهو متروك — عن ابن عمر مرفوعا وعن مجاهد وعطاء، وفي كل رواية من هذه الروايات انها نزلت يشيعها سبعون ألف ملك إلا أثر مجاهد فانه قل فيه خمسمائة ملك . قل السيوطي فهذه شواهد يقوي بعضها بعضا . ثم نقل عن ابن الصلاح انه روى ذلك من طريق أبي ابن كعب بسند ضعيف وقال : ولم نراه اسنادا صحيحا وقد روي ما يخالفه فروي انها لم تنزل جملة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا في عددها فقيل ثلاث وقيل ست وقيل غير ذلك . اه وعزاه في الدر المنثور الى آخرين أخرجوه أيضا عمن ذكر وعن أنس وأبي بن كعب مرفوعا وعن ابن مسعود واسماء بنت يزيد وأبي جحيفة وعلي المرتضى، فكثرة الروايات في مسألة لا مجال فيها للرأي فتكون اجتهادية، ولا للهوى فتكون موضوعة، ولا لغلط الرواة فتكون معلولة — لا بد ان يكون لها أصل صحيح

ونقول انه لم يرو أحد انهـا لم تنزل جملة واحدة بهـذا اللفظ المناقض لتلك الروايات المصرحة بنزولها جملة واحدة كحديث ابن عمر « نزلت عليّ سورة الانعام

جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك » وانما مراد ابن الصلاح بذلك ماروي من استثناء بعض الآيات وقد علمت انه ليس فيه نص صحيح صريح يدل على ذلك، فرواية نزولها جملة واحدة أرجح بموافقتها للأصل وبكونها مثبتة وروايات الاستثناء نافية والمثبت مقدم على النافي . وقد جمع بينهما من قال انها نزلت جملة واحدة واستثنى كابن عباس [والاستثناء معيار العموم] . وإذ كان ما صححه السيوطي من استثناء ثلاث آيات عن ابن عباس هو ما رواه ابن النحاس عنه في ناسخه فقد انحل الاشكال فان نص عبارته : سورة الانعام نزلت بمكة جملة واحدة فهي مكية الا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة (قل تعالوا أتلُ) الى تمام الآيات الثلاث . فقد صح بهذه الرواية اذاً أن هذه السورة الطويلة نزلت جملة واحدة، وهذا نص توقيفي عرف أصله المرفوع فهو لا يحتمل التأويل، على أن استثناء الآيات الثلاث فيه يحتمل التأويل كما تقدم، وابن عباس لم يكن بمكة ممن يحفظ القرآن ويروي الحديث فانه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين أو خمس وانما روي ذلك عن غيره فيحتمل ان يكون الاستثناء من رأيه أو رأي من روى هو عنه، وان يكون مرويا عنه بالمعنى ويكون بعض الرواة هو الذي عبر بالاستثناء. واذا كان هذا الاستثناء صحيحا فقصاراه أن السورة بعد أن أنزلت جملة واحدة ألحق بها ثلاث آيات مما نزل بالمدينة، فبطل بذلك ما قد يتوهم من كلام ابن الصلاح وما يظنه كثير من الناس من أنه لم ينزل شيء من السور الطوال ولا سور المئين جملة واحدة لان ما صرحوا بنزوله جملة واحدة غير هذه السورة كله من المفصل [وسور المفصل من ق أو الحجرات الى آخر المصحف في الاشهر] . وقد روى أبو هريرة ما يدل على أن قوله تعالى (وانذر عشيرتك الاقربين) نزل بالمدينة وقد ثبت عن ابن عباس أنه نزل بمكة وأنه لما جمع النبي (ص) بطون قريش وأنذرهم عملا بالآية قال له أبو لهب تبت يداك سائر اليوم ألهذا دعوتنا — فأنزل الله عز وجل (تبت يدا أبي لهب) السورة، وانما يروى ابن عباس وأبو هريرة مثل هذا مرسلا اذ لم يكن لهما رواية مرفوعة الا بعد الهجرة بسنين . وقد صرح الحافظ ابن حجر في الفتح بأن روايتهما لنزول هذه الآية مرسلة وكلتاهما في البخاري

وقد مال السيد الآلوسي في روح المعاني الى القول بضعف ما ورد في نزولها جملة واحدة ونقل عن الامام حكاية الاتفاق على القول بنزولها جملة وانه استشكل ذلك بأنه كيف يمكن ان يقال حينئذ في كل واحدة من آياتها ان سبب نزولها الامر الفلاني مع انهم يقولونه. ثم أشار الى ضعف حكاية الامام الاتفاق

ويمكن ان يدفع الإشكال (أولا) بأنه لم يقل أحد بأن لكل آية من آيات هذه السورة سببا وانما قيل ذلك في زهاء العُشر من آياتها (وثانيا) أن ما قيل في أسباب نزول تلك الآيات بعضه لا يصح والبعض الآخر لا يدل على نزول تلك الآيات متفرقة، وانما قالوا ان آية كذا نزلت في كذا أو في قول المشركين كيت وكيت. وهذا هو الاكثر، فاذا صح كان معناه ان تلك الآيات نزلت بعد تلك الوقائع والاقوال مبينة حكم الله فيها، وهذا لا ينافي نزولها دالة على ذلك في ضمن السورة

وقال الامام الرازي في أول تفسيره لهذه السورة: قال الاصوليون هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة — أحدهما انها نزلت دفعة واحدة، والثاني انها شيعها سبعون ألفا من الملائكة. والسبب فيه انها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وابطال مذاهب المبطلين والملحدين. وذلك يدل على أن علم الاصول في غاية الجلالة والرفعة، وأيضا فانزال ما يدل على الاحكام قد تكون المصلحة أن ينزله الله تعالى قدر حاجتهم وبحسب الحوادث والنوازل، وأما ما يدل على علم الاصول فقد أنزله الله تعالى جملة واحدة، وذلك يدل على أن تعلم علم الاصول واجب على الفور لا على التراخي. اه

ومراده بالاصول عقائد الدين وانما يجب تعلمها على طريقة القرآن، لا على طريقة المتكلمين وفلاسفة اليونان. ولم يذكر في الكلام عن السورة في أولها ما نقله عنه الآلوسي فلعله ذكره في أثناء تفسير السورة، فان لقب «الامام» اذا أطلق في كتب من بعد الرازي من المفسرين والمتكلمين والاصوليين والمنطقيين فانما ينصرف اليه

وفي فتح البيان: قال القرطبي: قال العلماء هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضي انزالها جملة واحدة لانها في معنى واحد من الحجة وان تصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بنى المتكلمون أصول الدين اه

مناسبة هذه السورة لما قبلها

من نظر ترتيب السور كلها في المصحف يرى انه قد روعي في ترتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة، ومن حكمته ان في ذلك عونا على تلاوته وحفظه، فالناس يبدءون بقراءته من أوله فيكون الانتقال من السبع الطوال الى المئين فالمثاني فالمفصل (*) انفى الملل وأدعى الى النشاط، ويبدءون بحفظه من آخره لان ذلك أسهل على الاطفال، ولكن في كل قسم من الطوال والمئين والمفصل تقديما لسور قصيرة على سور أطول منها، ومن حكمة ذلك أنه قد روعي التناسب في معاني السور، مع التناسب في الصور، أي مقدار الطول والقصر،

وقد تقدم هذه السورة أربع سور طوال بعد الفاتحة التي لا يراعى مناسبتها لما بعدها وحده، اذ هي فاتحة القرآن كله، وهذه السور الاربع مدنية وبينها من التناسب في الترتيب ما بيناه، وقد جاء بعدهن سورتا الانعام والاعراف المكيتان، وبعدهما سورتا الانفال والتوبة المدنيتان، ويقعان في أوائل الربع الثاني من القرآن وما بعدهما من سور النصف الاول من القرآن كله مكي، وسور الربع الثالث كلها مكية أيضا الا سورة النور فانها مدنية والا سورة الحج فهي مختلف فيها والتحقيق انها مختلطة. وأما الربع الرابع فهو مختلط وأكثره سور المفصل التي تقرأ كثيرا في الصلاة. فينبغي بيان مناسبة جعل سورتي الانعام والاعراف بعد الاربع المدنية الاولى وقبل السورتين المدنيتين اللتين بعدهما ثم مناسبة الانعام للمائدة خاصة:

سورة البقرة أجمع سور القرآن لاصول الاسلام وفروعه ففيها بيان التوحيد والبعث والرسالة العامة والخاصة وأركان الاسلام العملية، وبيان الخلق والتكوين وبيان أحوال أهل الكتاب والمشركين والمنافقين في دعوة القرآن ومحاجة الجميع وبيان احكام المعاملات المالية والقتال والنساء. والسور الطوال بعدها متممة لما فيها فالثلاث

(*) قالوا ان السبع الطوال أولها البقرة وآخرها التوبة وسور المئين ما كانت آياتها أكثر من مئة أو قريبا منها والمثاني ما كانت آياتها أقل من مئة مما قبل المفصل سميت مثاني لانها ثانية المئين أو لانها تثنى كثيرا في التلاوة — وسميت الفاتحة المثاني لهذا المعنى وسمي المفصل مفصلا لكثرة الفصل بين سوره وتقدم تحديده

الاولى منها مفصلة لكل ما يتعلق بأهل الكتاب، ولكن البقرة أطالت في محاجة اليهود خاصة، وسورة آل عمران أطالت في محاجة النصارى في نصفها الاول ، وسورة النساء حاجتهم في أواخرها . واشتملت في أثنائها على بيان شؤون المنافقين مما أجمل في سورة البقرة، ثم أتمت سورة المائدة محاجة اليهود والنصارى فيما يشتركان فيه وفيما ينفرد كل منهما به . ولما كان أمر العقائد هو الاهم المقدم في الدين، وكان شأن أهل الكتاب فيه أعظم من شأن المشركين ، قدمت السور المشتملة على محاجتهم بالتفصيل ، وناسب ان يجيء بعدها ما فيه محاجة المشركين بالتفصيل ، وتلك سورة الانعام لم تستوف ذلك سورة مثلها، فهي متممة لشرح ما في سورة البقرة مما يتعلق بالعقائد ، وجاءت سورة الاعراف بعدها متممة لما فيها ومبينة لسنن الله تعالى في الانبياء المرسلين وشؤون أممهم معهم، وهي حجة على المشركين وأهل الكتاب جميعاً، ولكن سورة الانعام فصلت الكلام في ابراهيم الذي ينتمي اليه العرب وأهل الكتاب في النسب والدين، وسورة الاعراف فصلت الكلام في موسى الذي ينتمي اليه أهل الكتاب ويتبع شريعته جميع أنبيائهم حتى عيسى المسيح عليهم الصلاة والسلام

ولما تم تفصيل ما أجمل في سورة البقرة من العقائد في الإلهيات والنبوات والبعث بهذه السورة ناسب أن يذكر بعدها ما يتمم ما أجمل فيها من الاحكام ولا سيما أحكام القتال والمنافقين ، وكان قد فصل بعض التفصيل في سورة النساء ، فكانت سورتا الانفال والتوبة هما المفصلتين لذلك وبهما يتم ثلث القرآن

وقد علم بما شرحناه أن ركن المناسبة الاعظم بين سورتي المائدة والانعام أن المائدة معظمها في محاجة أهل الكتاب والانعام معظمها بل كلها في محاجة المشركين، ومن التناسب بينهما في الاحكام أن سورة الانعام قد ذكرت أحكام الاطعمة المحرمة في دين الله والذبائح بالاجمال ، وسورة المائدة ذكرت ذلك بالتفصيل وخصت بالذكر طعام أهل الكتاب . وهي قد أنزلت أخيرا كما هو معلوم . ومن التفصيل في هذه المسألة ما في سورة الانعام من الكلام على محرمات الطعام عند المشركين ، وما في المائدة من الكلام على طعام أهل الكتاب .

هذا ما أراه من وجوه التناسب في الكليات بين هذه السورة التي شرعت

في تفسيرها و بين ما قبلها مباشرة وما قبلها وما بعدها مطلقا. ثم رجعت الى ما ذكر في كتب التفسير من ذلك دون تصفح آيات السورة فرأيت في روح المعاني مانصه :

« ووجه مناسبتها لآخر المائدة على ما قاله بعض الفضلاء انها افتتحت بالحمد وتلك اختتمت بفصل القضاء وهما متلازمان كما قال سبحانه (وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) وقال الجلال السيوطي في وجه المناسبة : انه تعالى لما ذكر في آخر المائدة (لله ملك السموات والارض وما فيهن) على سبيل الاجمال افتتح جل شأنه هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله ، فبدأ سبحانه بذكر خلق السموات والارض وضم تعالى اليه أنه جعل الظلمات والنور وهو بعض ما تضمنه مافيهن ، ثم ذكر عز اسمه انه خلق النوع الانساني وقضى له أجلا وجعل له أجلا آخر للبعث ، وأنه جل جلاله منشىء القرون قرنا بعد قرن ، ثم قال تعالى (قل لمن ما في السموات) الخ فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرف المكان ، ثم قال عز من قائل (وله ما سكن في الليل والنهار) فأثبت انه جل وعلا ملك جميع المظروفات لظرف الزمان ، ثم ذكر سبحانه خلق سائر الحيوان من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة والموت، ثم اكثر عز وجل في أثناء السورة من الانشاء والخلق لمافيهن من النيرين والنجوم وفلق الاصباح وفلق الحب والنوى وانزل الماء واخراج النبات والثمار بأنواعها وانشاء جنات معروشات وغير معروشات الى غير ذلك مما فيه تفصيل ما فيهن

« وذكر عليه الرحمة وجها آخر في المناسبة أيضا وهو انه سبحانه لما ذكر في سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الخ وذكر جل شأنه بعده (ماجعل الله من بحيرة) الخ فأخبر عن الكفار انهم حرموا أشياء مما رزقهم الله تعالى افتراء على الله عز شأنه، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئا من ذلك فيشابهوا الكفار في صنعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الايجاز — ساق جل جلاله هذه السورة لبيان حال الكفار في صنعهم فأتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل، ثم جادلهم فيه وأقام الدلائل على بطلانه وعارضهم وناقضهم، الى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة ، فكانت هذه السورة شرحا لما تضمنته تلك السورة من ذلك على سبيل الاجمال وتفصيلا و بسطا واتماما واطنابا ، وافتتحت بذكر

الخلق والملك لان الخالق المالك هو الذي له التصرف في ملكه ومخلوقاته اباحة ومنعا وتحريما وتحليلا ، فيجب أن لا يعترض عليه سبحانه بالتصرف في ملكه ،

« ولهذه السورة أيضا اعتلاق من وجه بالفاتحة لشرحها اجمال قوله تعالى (رب العالمين) و بالبقرة لشرحها اجمال قوله سبحانه (الذي خلقكم والذين من قبلكم) وقوله عز اسمه (الذي خلق لكم ما في الارض جميعا) وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله جل وعلا (والانعام والحرث) وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) الخ و بالنساء من جهة مافيها من بدء الخلق والتقبيح لما حرموه على أزواجهم وقتل البنات، و بالمائدة من حيث اشتمالها على الاطعمة بأنواعها ،

« وقد يقال انه لما كان قطب هذه السورة دائرا على اثبات الصانع ودلائل التوحيد حتى قال أبو اسحق الاسفرايني ان في سورة الانعام كل قواعد التوحيد ناسبت تلك السورة من حيث ان فيها ابطال ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام وتوبيخ الكفرة على اعتقادهم الفاسد وافترائهم الباطل

« هذا — ثم انه لما كانت نعمه سبحانه وتعالى مما تفوت الحصر، ولا يحيط بها نطاق العد ، الا أنها ترجع اجمالا الى ايجاد وابقاء في النشأة الاولى وايجاد وابقاء في النشأة الآخرة وأشير في الفاتحة التي هي أم الكتاب الى الجميع وفي الانعام الى الايجاد الاول وفي الكهف الى الابقاء الاول وفي سبأ الى الايجاد الثاني وفي فاطر الى الابقاء الثاني — ابتدئت هذه الخمس بالتحميد، ومن اللطائف أنه سبحانه وتعالى جعل في كل ربع من كتابه الكريم المجيد سورة مفتتحة بالتحميد » اه

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١) اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمٰتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (٢) هُوَ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَنْتُمْ

تَمْتَرُونَ (٣) وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ

﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ﴾ الحمد هو الثناء الحسن والذكر بالجميل — كما تقدم شرحه في سورة الفاتحة — واسناد الحمد الى الله تعالى خبر منه تعالى على المختار، والعبد يحكيه بالتلاوة مؤمنا به فيكون حامدا لمولاه ، ويذكره في غير التلاوة إنشاءً للحمد وتذكرا له، ويجوز أن يكون الحمد هنا انشاء منه تعالى؛ وان إنشاء الحمد بالجملة الخبرية جمع بين الخبر والانشاء، أثنى سبحانه على نفسه بما علم به عباده الثناء عليه ، فأثبت ان كل ثناء حسن ثابت له بالاستحقاق وبما هو متصف به من الخلق والايجاد والإعداد والإمداد ، فذاته تعالى متصفة بجميع صفات الكمال وجوبا فالكمال الاعلى داخل في مفهوم حقيقتها أو لازم بين من لوازمه ، وقد وصف تعالى نفسه في مقام هذا الحمد بصفتين من صفاته الفعلية التي هي من موجبات الحمد له وهما خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور

أما خلق السموات والارض فمعناه إيجاد هذه العوالم العلوية التي نراها فوقنا وهذا العالم الذي نعيش فيه ايجادا مرتبا منظما، وقد تقدم القول في معنى الخلق لغة وشرعا

وأما جعل الظلمات والنور فهو في الحسيات بمعنى ايجادهما لان هذا هو معنى الجعل المتعدي الى مفعول واحد وسيأتي بيان معناه في المعنويات . قال الزمخشري في الكشاف: جعل يتعدى الى مفعول واحد اذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله (وجعل الظلمات والنور) والى مفعولين اذا كان بمعنى صيّر كقوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) والفرق بين الخلق والجعل ان الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين كإنشاء شيء من شيء ، أو تصيير شيء شيئا، أو نقله من مكان الى مكان؛ ومن ذلك (وجعل منها زوجها * وجعل الظلمات والنور) لان الظلمات من الأجرام المتكاثفة والنور من النار (وجعلنا لهم أزواجا[1] أجعلَ الآلهةَ إلها واحدا) اه وقد أخذه الرازي من غير عزو وزاد عليه قوله : وانما حسن لفظ الجعل هنا لان النور

(١) في الاصل: وجعلنا لكم أزواجا . ولا يوجد هذا اللفظ في القرآن فصححناه بأقرب مايحتمله

والظلمة لما تعاقبا صار كل واحد منهما كأنما تولد من الآخر. اه وقال أبو السعود : والجعل هو الانشاء والابداع كالخلق خلا أن ذلك مختص بالانشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية ، وهذا عام اه -- كما في الآية الكريمة — والتشريعي أيضا كما في قوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة) الآية . اه المراد منه. وفيه كلام آخر فيما يلابس مفعوله من الظروف. وقد بينا في تفسير قوله تعالى (٥: ١٠٠ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) ان الجعل فيها خلقي تكويني وأمري تكليفي معا. وقد بين الراغب في مفرداته وجوه استعمال الجعل فكانت خمسة فليراجعها في مفرداته من شاء.

والظلمة الحالة التي يكون عليها كل مكان ليس فيه نور، لا عدم النور — أي فقده — كما يوهمه كلام كثير من العلماء مع قولهم ان الظلمة هي الاصل كما سيأتي ، قال الراغب : الظلمة عدم النور . وقال النور الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار ، وقال : الضوء ما انتشر من الاجسام النيرة، و يقال ضاءت النار وأضاءها غيرها. اه وفرق بعضهم بين الضياء والنور بما لا محل لذكره هنا . ولا يوجد شيء في العالم أظهر من النور والضوء ولا أغنى عن التعريف ، وحسبك انه هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره من المبصرات، فهو أعظم المظاهر الحسية للرب تبارك وتعالى . على ان بيان حقيقته العلمية من أعسر الامور ، وكثيرا ما كان الخفاء من شدة الظهور ، وأقرب ما نعرفه به للجمهور ان نقول هو اشتعال يحدث في أجسام لطيفة منبثة في الهواء وفي الاجسام الكثيفة التي تستوقد بها النار

والنور قسمان حسي صوري وهو ما يدرك بالبصر ، ومعنوي عقلي أو روحي وهو ما يدرك بالبصيرة ، وقد أطلقت كلمة النور في التنزيل على القرآن ، وعلى النبي عليه الصلاة والسلام ، كما تقدم في سورتي النساء والمائدة .

وقد أفرد النور وجمعت الظلمة هنا وفي كل آية قوبل فيها بين النور والظلام سواء كان ذلك في الحسي أو المعنوي. بل لم يذكر النور في القرآن الا مفردا والظلمة الا جمعا ، وحكمة ذلك ان النور شيء واحد وان تعددت مصادره ولكنه يكون قويا ويكون ضعيفا، وأما الظلمة فهي تحدث بما يحجب النور من الاجسام غير النيرة وهي كثيرة جدا ، وكذلك النور المعنوي شيء واحد في كل نوع من أنواعه أو جزئي من

جزئياته، ويقابل كلا منها ظلمات متعددة، فالحق واحد لا يتعدد والباطل الذي يقابله كثير، والهدى واحد لا يتعدد والضلال الذي يقابله كثير، مثال ذلك توحيد الله تعالى وما يقابله من التعطيل والشرك في الالوهية بأنواعه والشرك في الربوبية بأنواعه، — وفضيلة العدل وما يقابلها من أنواع الظلم. وقد بينا ذلك في تفسير سورتي البقرة والمائدة.

وقدمت الظلمات في الذكر على النور لان جنسها مقدم في الوجود فقد وجدت مادة الكون وكانت دخانا مظلما — أو سديما كما يقول علماء الفلك — ثم تكونت الشموس بما حدث فيها من الاشتعال من شدة الحركة كما يقولون، ويشير اليه أو يؤيده حديث عبد الله بن عمرو عند احمد والترمذي «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره — وفي رواية ثم ألقى عليهم من نوره — فمن أصابه نوره اهتدى ومن أخطأه ضل» والظاهر ان هذا النور هو المعنوي من حيث انه مشبه بالنور الحسي في تكوينه. وأما حديث عائشة عند مسلم «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم» فالظاهر أن النور فيه هو الحسي، ولا يقتضي ذلك أن ترى الملائكة كما يرى النور فالفرق بين الشيء وما خلق منه أصله عظيم كما نراه في أنفسنا. ويجوز أن يكونوا من نور غير هذا العرض الذي نراه بأعيننا

وسبق الظلمات المعنوية للنور المعنوي أظهر، فان نور العلم والهداية كسبي في البشر، وما كان غير كسبي في ذاته كالوحي فتلقيه كسبي وفهمه والعمل به كسبيان، وظلمات الجهل والاهواء سابقة على هذا النور، فالرسول لا يولد رسولا وانما يؤتى الرسالة اذا بلغ أشده واستوى، والعالم لا يولد عالما ولا الفاضل فاضلا «انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم» (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون)

وقد اختلف مفسرو السلف في المراد من الظلمات والنور هنا فأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس: «وجعل الظلمات والنور» قال الكفر والايمان. وأخرج هو وغيره عن قتادة أنه قال في الآية: خلق الله السموات قبل الارض والظلمة قبل النور والجنة قبل النار.» الخ وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: الظلمات ظلمة الليل والنور نور النهار. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال نزلت

هذه الآية في الزنادقة .... قالوا ان الله لم يخلق الظلمة ولا الخنافس ولا العقارب ولا شيئا قبيحا ، وانما خلق النور وكل شيء حسن ، فأنزل الله فيهم هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا ان قوله تعالى (خلق السموات والارض) رد على الزنادقة المنكرين لوجود الله تعالى ، وقوله (وجعل الظلمات والنور) رد على المجوس الذين زعموا ان الظلمة والنور هما المدبران— وقوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) رد على مشركي العرب ومن دعا دون الله إلهـا .

وجملة القول ان بعضهم قال بأن المراد بالظلمات هنا الظلمات الحسيـة وبالنور النور الحسي ، و بعضهـم قال بمـا يقابل ذلك ، وفي القول الاول ردّ على المجوس أو الثنوية الذين زعموا أن للعالم ربين أحدهما النور وهو الخالق للخير والثاني الظلمة وهو خالق الشر . ويجوز الجمع بين ارادة الحسيّ والمعنوي من كل من اللفظين— وقال الواحدي: الاولى حمل اللفظين عليهما— واستشكله الرازي لانه مبني على القول بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز والمختارعندنا جوازه وجوازاستعمال المشترك في معنييه أو معانيه اذا احتمل المقام ذلك بلا التباس كما هنا ، والتعبير بالجعل دون الخلق يلائم هذا ، فان الجعل يشمل الخلق والامر —أي الشرع —كما تقدم، فيفسر جعل كل نور بما يليق به فجعل الدين شرعه والقرآن إنزاله والرسول إرساله والعلم والهدى تهيئة أسبابه

وقدم ذكرخلق السموات على خلق الارض لأنه أعظم وأشرف ، وقيل لانها خلقت قبل الارض كما ذكر عن قتادة آنفا، والاول أظهر وفي الثاني خلاف معروف.

﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة «الحمد لله» أو على جملة « خلق السموات والارض» وقد عطفت بثم الدالة على بعد ما بين مدلولي المعطوف والمعطوف عليه لافادة استبعاد ما فعله الكافرون وكونه ضد ما كان يجب عليهم للاله الحقيق بجميع المحامد لكونه هو الخالق لجميع الكون العلوي والسفلي وما فيه الظلمات الحسية والمعنوية، والهادي لما فيه من النور الذي يهتدي به الموفقون في كل ظلمة منها ، كأنه قال : وهم مع ذلك يعدلون به غيره، أي يجعلونه عِدلا له أي عديلا مساويا له في كونه يُعبد و يدعَى لكشف الضر وجلب النفع،فهو بمعنى يشركون به و يتخذون له أندادا. وقيل يعدلون بأفعاله عنه وينسبونها الى غيره ممن لم يجعله سببا

لتلك الافعال كالمعبودات التي ينسبون اليها ماليس لها أدنى تأثير فيه ، وادنى من هذا أن تنسب الى الاسباب مع نسيان فضل الله الذي سخر لهم تلك الاسباب ، وانما الواجب معرفة السبب والخالق الواضع للاسباب رحمة منه بالعباد . وقيل معناه يعدلون عن الحق وهو التوحيد وما يستلزمه من حمد الخالق وشكره ، من قولهم عدل عن الشيء عدولا اذا جار عنه وانحرف ، ومال الى غيره وانصرف .

﴿ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴾
هذا كلام مستأنف جاء على الالتفات عن وصف الخالق تعالى بما دل على حمده وتوحيده الى خطاب المشركين الذين عدلوا به غيره في العبادة يذكرهم به بما هو ألصق بهم من دلائل التوحيد والبعث . وهو خلقهم من الطين وهو التراب الذي يخالطه الماء فيكون كالعجين ، وقد خلق الله آدم أبا البشر من الطين كما خلق أصول سائر الاحياء في هذه الارض إذ كانت حالتها مناسبة لحدوث التولد الذاتي ، بل خلق كل فرد من أفراد البشر من سلالة من طين ، فبنية الانسان مكونة من الغذاء ومنه ما في رحم الانثى من جراثيم النسل ، وما يلقحه من ماء الذكر ، فهو متولد من الدم والدم من الغذاء ، والغذاء من نبات الارض أو من لحوم الحيوان المتولد من الارض ، فمرجع كل الى النبات ، وانما النبات من الطين . ومن تفكر في هذا ظهر له ظهورا جليا أن القادر عليه لا يعجزه أن يعيد هذا الخلق كما بدأه اذا هو أمات هذه الاحياء بعد انقضاء آجالها التي قضاها لها في أجل آخر يضرب به لهذه الإعادة بحسب علمه وحكمته

والأجل في اللغة هو المدة المضروبة للشيء أي المقدار المحدود من الزمان ، وقضاء الاجل يطلق على الحكم به وضرب به للشيء ، وعلى القيام بالشيء وفعله ، اذ أصل القضاء : فصل الامر قولا كان ذلك أو فعلا — كما قال الراغب — مثال الاول ان شعيبا عليه السلام قضى أجلا لخدمة موسى له ثماني سنين وأجلا آخر اختياريا سنتين ، فهذا قضاء قولي ، وقد قضى موسى عليه السلام الاجل المضروب كما قال تعالى (فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله) الآية — وذلك قضاء فعلي . والقضاء قد يكون نفسيا بأن يضرب الانسان في نفسه أجلا لعمل يعمله بأن يكون في نهار أو ساعة من نهار ، و يعد هذا من القضاء القولي ، لانه من متعلق الكلام

النفسي — على ان الكلام انما يكون على مقتضى العلم — وقد يقضيه و يفصل فيه كتابة ؛ فالقضاء القولي يشمل الكلام النفسي وماهو مظهر له من لفظ أوكتاب أو غير ذلك

وقد أخبرنا عز وجل أنه قضى لعباده أجلين — أجلا لمدة حياة كل فرد منهم ينتهي بموت ذلك الفرد — وأجلا لاعادتهم و بعثهم بعد موت الجميع وانقضاء عمر الدنيا، وقيل ان الاجل الآخر هو أجل حياة مجموعهم الذي ينقضي بقيام الساعة وقيل غير ذلك : جاء في تفسير الحافظ ابن كثير في تفسير الاجلين ما نصه : قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : « ثم قضى أجلا » يعني الموت « وأجل مسمى عنده » يعني الآخرة . (وعزاه أيضا الى ١٠ من التابعين) وقول الحسن في رواية عنه : « ثم قضى أجلا » وهو مابين أن يخلق الى أن يموت «وأجل مسمى عنده» وهو ما بين أن يموت الى أن يبعث — هو يرجع الى ما تقدم وهو تقدير الاجل وهو عمر كل انسان. وتقدير الاجل العام هو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهاؤها وقضاؤها وزوالها والمصير الى الدار الآخرة . وعن ابن عباس ومجاهد « ثم قضى أجلا » يعني مدة الدنيا « وأجل مسمى » يعني عمر الانسان الى حين موته. وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا (وهوالذي يتوفاكم بالليل و يعلم ماجرحتم بالنهار) الآية[1] وقال عطية عن ابن عباس «ثم قضى أجلا» يعني النوم يقبض الله فيه الروح ثم يرجع (أي الروح) الى صاحبه عند اليقظة «وأجل مسمى عنده» يعني أجل موت الانسان. وهذا قول غريب اه ماأورده ابن كثير. وهذا القول الذي استغربه مأخوذ من قوله تعالى في سورة الزمر (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى) ولكن الاجل المسمى هنا هو الموت ولم يسمّ التوفي الاول وهو النوم أجلا، على أن القرآن استدل على البعث بالنوم واليقظة في آية الانعام الآتية وآية الزمر وغيرها كقوله في سورة النمل (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا)

هذا وان من تتبع ذكر الاجل المسمى في القرآن في سياق الكلام عن الناس يراه قد ورد في عمر الانسان الذي ينتهي بالموت فراجع في ذلك سورة هود ١١ : ٣ والنحل ١٦ : ٦١ وطه ٢٠ : ٢٧ والحج ٢٢ : ٥ والعنكبوت ٢٩ : ٥٣ وفاطر ٣٥ : ٤٥ والزمر

(١) تتمة الآية وهو محل الشاهد (ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم)

٣٩:٣٩ وغافر ٤٠: ٦٧ ونوح ٧١: ٤ وقد ذكر بعضها آنفا. فاذا عدهذا مرجحا يتسع مجال تأويل الاجل الاول في الآية وهو الذي لم يوصف بالمسمى، فيحتمل ماتقدم من أنه النوم وغير ما تقدم من الاقوال التي قالها مفسرو الخلف ومنها ماعزاه الرازي الى حكماء الاسلام من « أن لكل مسلم أجلين أحدهما الآجال الطبيعية والثاني الآجال الاخترامية . أما الآجال الطبيعية فهي التي لو بقي ذلك المزاج مصونا من العوارض الخارجية لانتهت مدة بقائه الى الوقت الفلاني، وأما الآجال الاخترامية فهي التي تحصل بسبب من الاسباب العارضة كالغرق والحرق ولدغ الحشرات وغيرهامن الامور المعضلة » اه ومنها انه ما انقضى من عمر كل أحد ، ومنها قول أبي مسلم انه ما انقضى من آجال الامم الماضية، والمسمى عنده أجل من يأتي من الامم لانه لايزال غيبا

ومعنى مسمى عنده أي لا يعلمه غيره ، كذا قالوا وهذا انما يظهر اذا أريد بهذا الاجل الساعة أي القيامة، لانها هي التي لم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا. واما اذا أريد به الموت فالاظهر ان يكون معنى كونه مسمى عنده أنه مكتوب عنده في الكتاب الذي كتب به مقادير السموات والارض وفيما يكتبه الملك عند ما ينفخ الروح في الجنين كما ثبت في حديث الصحيحين « ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد » فمعنى العندية اذاً اختصاص ذلك بالعالم العلوي الذي لا يصل اليه كسبنا ، فهي عندية تشريف وخصوصية . وهذه الكتابة كالعلم الإلهي بالشيء لاتقتضي الجبر ولا سلب اختيار العبد ، كما بيناه في مواضع كثيرة

وقوله تعالى « ثم انتم تمترون » هو كقوله قبله « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » في دلالته على استبعاد الامتراء وهو الشك في البعث من الاله القدير الذي خلقكم وقدر آجالكم فدل ذلك على قدرته وحكمته دلالة لا تبقي لاستبعاد البعث وجها ، فاذا كان سبب الاستبعاد عدم رؤية مثال لهذا البعث — وهو الواقع — فمثله انكم لا ترون مثلاً لخلق أصلكم وجدكم الاول من تراب ولا لخلق غيركم من أنواع الحيوان ، فان التولد الذاتي لايقع في هذه الازمان ، خلافا لما كان يتوهمه علماء القرون الماضية من تولد دود الفاكهة والجبن والفيران

﴿ وهو الله في السموات وفي الارض ﴾ اسم الجلالة « الله » علم لرب العالمين

خالق السموات والارض ، وقد كان هذا معروف عند مشركي العرب . قال تعالى في سورة العنكبوت (٢٩ : ٦١ ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ الله فأنى يؤفكون) ومثلها في سورة الزمر (٣٩ : ٣٩) وفي معنى هذا السؤال والجواب آيات كثيرة وردت في سياق اثبات التوحيد والبعث — راجع من آية ٨٠ الى ٩٠ من سورة المؤمنين ومن آية ٦١ الى ٧٠ من سورة النمل . فمن هذه الآيات تعلم أن اسم الجلالة يشمل هذه الصفات أو يستلزمها، فمعنى الآية أن الله تعالى هو الله تعالى المتصف بهذه الصفات المعترف له بها في السموات والارض . كما تقول ان حاتما هو حاتم في طيّ وفي جميع القبائل — أي هو المعروف بالجود المعترف له به في كل قومه و في غيرهم، وان فلانا هو الخليفة فى مملكته وفى جميع البلاد الاسلامية. وفي معنى هذا قوله تعالى في أواخر الزخرف (٤٣ : ٨٤ — وهو الذي في السماء إلـه وفي الارض إلهٌ وهو الحكيم العليم) الخ الآيات. وجعل بعضهم المعنى الاشتقاقي في الاسم الكريم إما المعبود وإما المدعو، وهذا هو معنى « الإله » وهو داخل في مفهوم الاسم الاعظم، والمعنى على هذا : كمعنى آية الزخرف أي وهو المعبود أو المدعوّ في السموات والارض . وقال الحافظ ابن كثير إنه الاصح من الاقوال. وفي الآيات وجوه أخرى: فمنها انه المعروف بالالهية أو المتوحد بالالهية فيهما — ومنها أنه الذي يقال له الله فيهما لا يشرك به في هذا الاسم . وقيل إن « في السموات وفي الارض » متعلق بما بعده وفيه اشكال نحوي واشكال معنوي

وزعمت الجهمية أن المعنى أن الله تعالى كائن في السموات والارض ، ومنه اخذوا قولهم انه في كل مكان، والله أعلى وأجلّ مما قالوا فهو بائن من خلقه غير حالّ فيه كله ولا في جزء منه ، وما صح من اطلاق كونه في السماء ليس معناه أنه حالّ في هذه الاجرام السماوية كلها أو بعضها ، وانما هو إطلاق لاثبات علوه على خلقه غير مشابه لهم في شيء ، بل هو بائن منهم ليس كمثله شيء .

أما جملة ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ فهي تقرير لمعنى الجملة الاولى لان الذى استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده، والا فهو كلام متبدأ بمعنى: هو يعلم سركم وجهركم، أو خبر ثان قيل أو ثالث ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ من الخير والشر فيجازيكم عليه

السنة وصحتها والشريعة ومتانتها

رد على دعاة النصرانية بمصر

تمهيد في بيان حالنا مع المبشرين

لا يزال هؤلاء (المبشرون) في مصر يتعرضون لمجادلتنا بما ينشرون من الرسائل والمقالات ، وانني أتعمد ترك قراءة ما يصل الي من مجلاتهم ورسائلهم حتى لا أفتح على نفسي باب الرد عليهم : اذ رد الشبهات الموجهة الى الاسلام انما يجب على من علمه وجوبا كفائيا ، وقد كنت أكره الرد عليهم لولا ذلك وان كانوا يظنون أنه من مقاصد المنار ومشروع الدعوة والارشاد الذي اكبروا أمره ، على أنه لم ينلهم منه أذى بقول ولا فعل ، وجميع الطلبة في دار الدعوة والارشاد من قسم المرشدين الذين يُعدُّون لارشاد العوام لمقاومة الشرور والمعاصي الفاشية فيهم ، فقد كثرت في هذه البلاد جناياتهم في الانفس والاموال والزروع ، وفشا فيهم السكر والقمار والفحش ، نعم ان من مقاصد المنار رد الشبهات عن الاسلام مقاومة للشك والتشكيك فيه ، وإنما أكره الجدل ، وأكره تعمد مناقشتهم أو فتح بابها عليّ لأنهم هم الذين يتعرضون لها و ينتفعون بها ، وما أكثرت من محاجة أهل الكتاب في سنتي المنار الاخيرتين الا في التفسير اذ اتفق بلوغي فيه الى سورتي النساء والمائدة المدنيتين ، وأكثر ما في القرآن من محاجة أهل الكتاب في هاتين السورتين وأقله فيما قبلهما . على ان فيه أيضا ما أوجبه الاسلام من إنصافهم والعدل فيهم ، و بيان مودة النصارى منهم . وقد انتهينا من ذلك ، ووصلنا الى تفسير السور المكية التي خوطب بها المشركون وقلما يذكر فيها أهل الكتاب الا في سياق بيان سنة الله تعالى في الرسل وأممهم .

لهذا كنا نظن أن باب محاجة أهل الكتاب يكون مقفلا في المنار الى ماشاء الله ، ولكن مجلة المبشرين العربية (الشرق والغرب) نشرت في العدد الذي صدر منها في أول الشهر الماضي (ابريل) مقالة عنوانها (السنة وصحتها) طعنت فيها على السنة

النبوية وزعمت أن طعنها يوجب الريب في الشريعة وترك العمل بها، وأنها لا قيمة لها في نفسها ، وقد جاءتنا المجلة فلم نفتحها، ثم علمنا بتلك المقالة فلم نقرأها ، ثم رأينا لهذه المقالة تأثيرا سيئا في المسلمين حتى إن منهم من نقلها عن المجلة وطبع كثيرا من نسخها بمطبعة الجلاتين ووزعت على الناس ووصلت الينا نسخة منها ، واقترح علينا كثيرون أن نرد عليها فوجب شرعا اجابة طلبهم

ومما أكد وجوب الرد ما رأيناه في المقالة من مطالبة ثلاث مئة مليون من أهل السنة بالجواب عنها ! فلا ندع لهم مجالا أن يقولوا للمسلمين إنه لم يستطع أحد من علمائكم أن يدافع عن سنتكم وشريعتكم ، ولا أن يرد شيئا من حججنا عليها !

فها نحن أولاء نرد عليهم رداً يعلمون ويعلم الناس به أنهم لم يتحروا الامانة فيما نقلوا من كتبنا، ولم يفهموا ما قرؤا منها وما نقلوا عنها ، وأن طعنهم في أبي هريرة رضي الله عنه خطأ ، وأنه لو صح لم يترتب عليه بطلان الثقة بالسنة ، ولاما رتبوه على ذلك من عدم وجوب طاعة الشريعة ، وانما قصاراه أنهم افتجروا دعاوى نسبوها الى الاسلام ، وردوا عليها بما لا يصلح أن يكون ردا

وقد رأينا أن ننقل كلامهم برمته على ما فيه من الركاكة واللغو والضعف ، واطلاق بعض الكلم على غير المعاني التي نطلقها عليها ، ولكن لا نناقشهم في شيء من الالفاظ لذاتها ، ولا في العبارة من حيث ضعفها ، بل في المسائل والمعاني ، وقد كان الغرض الاول من نقل عبارتهم بنصها، وعدم تلخيص مسائلها والرد عليها، أن لا يتوهم أحد منهم أو من غيرهم أننا تصرفنا في التلخيص تصرفا يخل بالمعنى المراد ، أو حذفنا منه ما لا يمكن ردّه بنقض ولا انتقاد ، واستتبع ذلك بيان أن القوم لا يوثق بنقلهم ولا بفهمهم ، ومن المعلوم بالضرورة أنهم ليسوا كالفلاسفة الذين يبحثون في المسائل لأجل استبانة الحق في ذاته ، وانما يتحرون بالبحث ما يرون فيه سبيلا للطعن والاعتراض، ومجالا للتشكيك واثارة الشبهات، كما يعلم مما يأتي

﴿ الجملة الاولى من مقدمة الطاعن ﴾

افتتح طاعنهم مقالته بجملة تتضمن عدة دعاوى هذا نصها :

« ان صحة الشريعة قضية لا بد لكل مسلم سني من التسليم بها وذلك متوقف على صحة السنة . فاذا ارتاب أحد في صحة السنة فليس ثمة داع منطقي يوجب إطاعة الشريعة لأن جانبا قليلا منها فقط يتوقف على القرآن ، والجانب الا كبر يتوقف على السنة التي اجتمعت في الاحاديث . فاذا ثبت الريب في هذه الاحاديث تزعزعت أركان الشريعة وأركان تابعيها من حنفي ومالكي وشافعي وحنبلي . وعددهم لا يقل عن ثلاث مئة مليون من الاتباع » اه

نلخص هذه الجملة من كلامه في ثلاث قضايا ونبين ما فيها

القضية الاولى

﴿ زعمه اذا ارتاب أحد في السنة ينتفي وجوب طاعة الشريعة ﴾

هذه القضية بديهية البطلان فان الاطلاق في جزاء الشرط يدل على ان المراد من القضية الشرطية ان ارتياب فرد من الافراد في صحة السنة يستلزم انتفاء وجوب اتباع الشريعة على جميع الافراد . وانما المعقول الموافق للمنطق ان ارتياب الفرد أو ظنه أو علمه يترتب عليه ما يستلزمه في حق نفسه ولا يكون ذلك مؤثرا في غيره ممن لم يرتب ارتيابه أو لم يعلم علمه ، وكذلك ارتياب الافراد الكثيرين . وقد ارتاب بعض علماء أوربة الاحرار في وجود المسيح عليه السلام وزعموا أنه شخص خيالي — أو متخيل — لم يوجد ، كما زعم بعض المؤرخين مثل ذلك في هوميروس شاعر أساطير اليونان — فهو استلزم ارتياب أولئك المرتابين فيه انتفاء إيمان مئات الملايين من المسلمين والنصارى وغيرهم بوجوده عليه السلام ؟

القضية الثانية

﴿ زعمه ان أكثر الشريعة يتوقف على الاحاديث ﴾

هذه القضية غير مسلمة فان الشريعة عندنا تشمل العقائد والعبرة فيها بالدلالة القطعية وجميع العقائد التي تتوقف عليها صحة الاسلام ثابتة بنصوص القرآن وإجماع المسلمين ، وإثبات الالوهية والنبوة منها مؤيد بالبراهين العقلية ، ولا يوجد شيء منها يتوقف على أحاديث الآحاد التي يمكن الارتياب في بعضها. وكذلك أصول العبادات

كلها قطعية ثابتة بالقرآن والسنة العملية المتواترة التي لا تتوقف على أحاديث الآحاد. وما ثبت من احكام العبادات بأحاديث الآحاد ولم يجمع عليه أئمة العلم فلا تتوقف عليه صحة الاسلام وان كان صحيحا في نفسه ، وانما هو مزيد كمال في علم السنة . وأما أحكام الشرع في المعاملات فأكثرها مأخوذ من القواعد والاصول وكذا الفروع الواردة في القرآن إما بالنص وإما بدلالة النص ونحواه، ومن القياس الذي توسع فيه بعضهم كالحنفية فالشافعية ،والمصالح العامة التي توسع المالكية والحنابلة. وأقلها من حديث الآحاد . وما بقي من أركان الشريعة بعد العقائد والاحكام العملية الا الاخلاق والآداب ، وجميع ما ورد في الاحاديث من الحكم والفضائل والآداب فهو مستمد من القرآن الحكيم وشرح له ،بل السنة كلها بيان للقرآن لقوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل اليهم) وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها وصفت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقولها: كان خلقه القرآن .

وقد اختلف العلماء في أحكام السنة التي لا تستند الى نص من القرآن فقيل إنها بوحي من الله تعالى وان الوحي لا ينحصر في القرآن ولكن للقرآن مزايا ليست لغيره من وحي الله الى خاتم رسله ولا الى الرسل قبله ، أعظمها إعجازه والتعبد بتلاوته. وقيل ان الله تعالى أذن لرسوله بأن يحكم ويشرع برأيه واجتهاده

ومن تأمل كثيرا من الاحكام التي استدلوا عليها بالسنة وحدها يرى لها مآخذ من القرآن كتحريم الجمع بين المرأة وبين عمتها أو خالتها في الزواج وكتحريم الاكل والشرب فى آنية الذهب والفضة ،وقد بينا ذلك في المنار ، كما بينا تفاوت الافهام في الغوص على درر القرآن ، وأين أفهام الناس كلهم فيه من فهمه عليه الصلاة والسلام ، وقد ثبت مع ذلك انه صلى الله عليه وسلم كان يقضي في المسائل السياسية والادارية باجتهاده ، ويستشير فيها أصحابه

القضية الثالثة

﴿ زعمه أنه اذا ثبت الريب في الاحاديث تزلزلت أركان الشريعة ﴾

هذه القضية غير مسلمة أيضا وفيها إجمال وإبهام . فاذا أراد بثبوت الريب في

الاحاديث ما أفادته جملته الاولى من ارتياب بعض الافراد ولو واحدا — فقد بينا ان هذا لايترتب عليه الا ما يستلزمه الارتياب في نفس المرتاب وحده . واذا أراد ارتياب جميع الناس أو جميع المسلمين في جميع الاحاديث فهذا ماوقع ولن يقع ولا يعقل أن يقع، وسنشرح ذلك على وضوحه في نفسه، فإن فرضنا جدلا انه يقع فانما يترتب عليه حينئذ الاكتفاء في الدين بما في القرآن والسنة العملية المنقوله بعمل مئات الالوف وألوف الالوف منذ العصر الاول ككيفية الصلاة والصيام والحج وغير ذلك وبما ثبت بالاجماع والقياس الصحيح ، ولا ينقص من كتب الشريعة حينئذ الا الاحكام والحكم التي ثبتت بأحاديث الآحاد وحدها كما بيناه في الكلام على القضية الثانية

وبهذا وذاك يظهر لك بطلان قوله « تزعزعت أركان الشريعة وأركان تابعيها » فان أراد بأركان الشريعة أصول العقائد وقضايا الايمان التي يكون بها المرء مؤمنا فقد علمت انه لا يتوقف شيء منها على أحاديث الآحاد ، وان أراد أركان الاسلام الخمسة فكذلك ، فان معرفة هذه الاركان لا تتوقف على ثبوت الاحاديث الواردة فيها فانها مجمع عليها معلومة من لدين بالضرورة، سواء صح ما ورد فيها من الحديث أم لم يصح ، على انه صحيح ولله الحمد، وإن أراد بأركان الشريعة أو أركان تابعيها أصولها المستمدة منها عند الأئمة الاربعة فقوله أظهر بطلانا فان هذه الاركان أربعة — الكتاب والسنة والاجماع والقياس — وما ألحق بها عند بعضهم كالمصالح والاستحسان ، فالاحاديث جزء من السنة التي هي ركن من هذه الاركان ، فالارتياب في هذا الجزء لايوجب الارتياب في الجزء الآخر منها وهو ماثبت بالتواتر عملا أو قولا ، فكيف يوجب الارتياب في القرآن وكله متواتر ، وفي الاجماع والقياس ؟

قلنا ان ارتياب جميع الناس أو جميع المسلمين في جميع أحاديث الآحاد ما وقع ولن يقع ولا يعقل ان يقع . وبيان ذلك ان المعهود من البشر في كل زمان ومكان ان يصدقوا خبر كل مخبر — لان الاصل الغالب في أخبار الناس الصدق — الا اذا وجدت علة في الخبر أو المخبر تقتضي الارتياب . كأن يكون الخبر غير معقول أو يكون المخبر معروفا بالكذب . على أننا نرى الناس يصدقون أكثر أخبار الجرائد

السياسية والشركات البرقية على كثرة ما عرفوا من كذبهما ، واعتقادهم أن لاصحابهما أهواء سياسية يحاولون تأييدها بالحق وبالباطل . فاذا كان هذا شأن البشر في أمثال هذه الاخبار التي تحوم حولها الشبهات في أنفسها وفي سيرة رواتها ، فكيف يعقل ان يرتابوا في صحة جميع الاحاديث التي صححها حفاظ المحدثين بعد نقد متونها وإقامة ميزان الجرح والتعديل لكل فرد من أفراد رواتها ، وقد علم انهم لا يقبلون في الاحتجاج حديثا منقطع الاسناد ولا حديثا في رواته مجهول أو أحد ثبت عليه الكذب أو سوء الحفظ أو النسيان أو مخالفة الثقات الاثبات في روايته ؟

ها أنتم أولاء تصدقون أخبار أناجيلكم الاربعة وغيرها من كتبكم وليس عندكم سند متصل لشيء منها . وقد اختلف علماؤكم ومؤرخوكم في كتابها وفي اللغات التي كتبت بها ، وفي التواريخ التي كتبت فيها ، فلم يتوفر لكم فيها شيء من النقد والتمحيص الذي توفر لنا في نقل الحديث ، أفتعقلون مع هذا أن نرتاب في تصديق جميع الاحاديث التي نقلت لنا بدقة لم يعهد لها البشر نظيرا في تاريخهم القديم ولا الحديث — وأنتم ترون أنفسكم وسائر البشر يصدقون أكثر ما يروى لهم بلا سند ولا بحث في رواته ، بل كثيرا ما يصدقون أخبار من ثبت عليهم الكذب مرارا كثيرة كرواة البرقيات والجرائد ؟

﴿ الجملة الثانية من كلام الطاعن ﴾

قال : « وسنثبت في الفصول التالية ان من السهل اثبات الشبهات الملقاة على تلك الأحاديث . ونحن مثبتون في هذا الفصل وهن الاعتماد على بعض الصحابة التي تتوقف مئات من الاحاديث على شهادتهم حتى قامت عليها الشريعة ومنها نشأت السنة ، على ان البخاري الذي اشتهر بنقد رجال الحديث لم يخطر له ان يرتاب في صدق الصحابة لانهم كانوا في نظره معصومين من الكذب ، وهذا يدلك على ضعف حجته . فقد ثبت بوجه لا يقبل الشك ان أبا هريرة وابن عباس لم يكونا ممحصين في رواية الاحاديث . وغرضنا الآن ان نبين أن الريب في أحاديث أبي هريرة تسرب الى نفوس معاصريه ونفوس الذين جاؤا بعده ومع ذلك فقد نقل

عنه البخاري الاحاديث بالمئات فتداولتها ألسنة المجتهدين الذين اسسوا المذاهب الاربعة وبنوا عليها نظامهم الشرعي »

أقول نلخص هذه الجملة في قضايا تابعة في العدد لما تقدم ونبين ما فيها من الخطإ والاباطيل

القضية الرابعة

﴿ زعمه وهن الاعتماد على رواة المئات الاحاديث من الصحابة كأبي هريرة ﴾

هذه القضية باطلة فانها توهم القارئ ان الكاتب يثبت في هذا الفصل مطاعن في عدالة عدة من الصحابة الذين رووا المئات الكثيرة من الاحاديث — حتى اذا ما قرأ الفصل كله لم يجد فيه الا روايات في واحد منهم — وهو أبو هريرة رضي الله عنه — ويرى ان هذه الروايات لا تسقط عدالته كما نبسطه في هذا المقال . وهذا مما يؤيد قولنا ان هؤلاء الناس يكتبون ما لا يفهمون لانهم اعتادوا الجرأة على إلقاء المطاعن من غير تفكير ولا روية ، فهم ينقضون ما يبنون ولا يشعرون

القضية الخامسة

﴿ زعمه أن البخاري لم يخطر بباله الارتياب في صدق الصحابة لاعتقاده عصمتهم ﴾

هذه القضية باطلة أيضا لا لانها حكم بعموم السلب ، على شيء يتعلق بالقلب ، لا يعلمه الا الرب ، فان مثل هذا الكاتب لا يناقش في مثل هذا التعبير لانه لا يفرق بينه وبين القول بأن البخاري لا يتهم أحدا من رواة الصحابة بالكذب ، ولا بغيره من العلل القادحة في الرواية . وانما نريد بيان بطلان زعمه ان البخاري كان يرى أن رواة الصحابة معصومون . والصواب انه كان يرى ويقول إنهم عدول صادقون لا معصومون ، وما قال هذا القول هو وغيره من نقاد المحدثين الا بعد تتبع تاريخهم كغيرهم من الرواة ، وقد نقل عنه الطاعن ما أراد أن يسقط به عدالة أبي هريرة وشيئا من تمحيصه لما يرويه ، فالبخاري كان أعلم من الطاعن بكل ما قيل في أبي هريرة وبما رواه أبو هريرة ولم يره مسقطا لعدالته ، ولو رآه مسقطا لها لما روى عنه في صحيحه . وقد كان البخاري من أئمة أهل السنة الذين لا يقولون بأن أحدا

من البشر معصوم من الكذب الا الانبياء عليهم السلام . وصدق الرواية لا يتوقف على العصمة والا لما قبل أحد من البشر قول أحد بعد تبليغ أنبيائهم الوحي . وانما يكتفى في تصديق الرواية بالعلم بعدالة الراوي وجودة حفظه وضبطه لما يرويه، ولم ينقل عن أحد من مؤرخي البشر ونقله الاخبار مثلما نقل عن البخاري من شدة التحري في كتابه الجامع الصحيح ، فليأتنا هذا الطاعن بمثله أو بما يقرب منهم من علمائهم ؟ كيف وكتبهم المقدسة تنسب الكذب وغيره من كبائر المعاصي الى الانبياء برأهم الله تعالى وصلى الله عليهم وسلم، وهؤلاء المبشرون وأهل نحلتهم لايقولون بعصمة الانبياء دع عصمة ناقلي كتبهم بغير أسانيد متصلة ولكنهم يقبلون ما عزي اليهم . وسنشير الى المقابلة بين رجالنا ورجالهم في هذا المقال ، ولا حاجة الى تفنيد قوله بضعف حجة البخاري الذي بناه على زعمه أن البخاري يعتقد عصمة الصحابة ، فهو ساقط في نفسه وأضعف منه وأسقط ما بناه عليه

القضية السادسة

﴿ زعمه أن الائمة الاربعة أسسوا مذاهبهم على مارواه البخاري عن أبي هريرة ﴾

هذه القضية الباطلة تدل على مبلغ علم المبشرين الناشرين لهذا المقال وعلى درجة تحريهم وصدقهم فيما يقولون وينقلون

الحافظ البخاري متأخر عن الائمة الاربعة أدرك رابعهم الامام أحمد ابن حنبل وتلقى الحديث عنه. وقدجاء في تهذيب التهذيب عن العقيلي أن البخاري لما ألف كتابه الصحيح عرضه على علي بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل (وكلهم من كبار شيوخه) وغيرهم فامتحنوه وكلهم قال : كتابك صحيح الا أربعة أحاديث . قال العقيلي والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة . والشاهد في هذا النقل أن البخاري أخذ عمن أدرك من الأئمة الاربعة ولم يأخذ أحد منهم عنه شيئا ، ولم يكن أحد من المجتهدين يقلد أحدا في رواية ولا دراية ، وانما يأخذ كل منهم بما صح عنده من الرواية

ولد الامام أبوحنيفة سنة ٨٠ وتوفي سنة ١٥٠ وولد الامام مالك سنة ٩٣ وتوفي

سنة ١٧٩ وولد الامام الشافعي سنة ١٥٠ وتوفي سنة ٢٠٤ وولد الامام احمد ١٦٢ وتوفي ٢٤١ وولد الامام محمد بن اسماعيل البخاري سنة ١٩٤ وتوفي سنة ٢٥٦ وقد رحل من بلاده لطلب العلم سنة ٢١٠ أي بعد وفاة الامام الشافعي ببضع سنين وبعد وفاة مالك باحدى وثلاثين سنة و بعد وفاة أبي حنيفة بستين سنة

فكيف اجاز لهذا الطاعن في السنة والشريعة دينه وعقله أن يقول ان الائمة الاربعة أخذوا عن البخاري مارواه من الاحاديث عن أبي هريرة وبنوا عليه نظامهم الشرعي ؟ وكيف توهم أنه جاء بعلوم وحقائق تزعزع هذه الشريعة التي هي أثبت من الجبال الرواسي ؟ أبمثل هذه الدعاوى المخترعة تهدم الحقائق الثابتة ؟

﴿ الجملة الثالثة من كلام الطاعن ﴾

الشبهات في أبي هريرة

الشبهة الاولى

(١) قال الطاعن: الارتياب العام في أبي هريرة (بشهادة نفسه) حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله ...عن أبي هريرة قال « ان الناس يقولون أكثر أبو هريرة » ولولا آيتان من كتاب ما حدثت حديثا ... ان إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالاسواق وان اخواننا من الانصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ، وأن أبا هريرة كان يلزم رسول الله (صلعم) بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون .
(البخاري جزء أول كتاب العلم صفحة ٣٧) وكتب في الحاشية ما نصه :
(جاء في الاصابة لابن حجر جزء ٧ : ٢٣ قوله « انكم تزعمون ان أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله» وقد علل هذا الاكثار برواية غريبة) اه كلام الطاعن

الجواب عن هذه الشبهة

استدل الطاعن بهاتين الروايتين على ما سماه الارتياب العام في أبي هريرة ، ويفهم من هذا أنه يوهم قارئ مقالته أن جميع أهل عصره أو أكثرهم كان يرتاب في صحة روايته . وهذه دعوى باطلة ، ولفظ الناس يصدق بالقليل والكثير قال الله تعالى (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) روي في التفسير

المأثور أن الذي قال ذلك هو نعيم بن مسعود قال ان أبا سفيان يجمع لكم الجيش الخ وقيل ان القائل ركب عبد القيس . فالناس اسم جنس يطلق على الواحد كما يقال : فلان يركب الخيل . وان لم يركب الا فرسا واحدا ، ويطلق على الكثير .

وقد ثبت أن بعض الصحابة أنكروا اكثار أبي هريرة من التحديث كما هو صريح هذا الحديث الذي اختصره الطاعن من البخاري · وقد صرح في رواية أخرى له بزيادة «ويقولون ما للمهاجرين والانصار لا يحدثون مثل حديثه» ووجه الانكار أن أبا هريرة من متأخري الصحابة فينبغي ان يكون أقل سماعا منهم . ومن المعلوم بالبداهة المتفق عليه من العقلاء الذي يقضون به في محاكمهم ان الاستنكار والاستغراب في مثل هذا لا يقتضي الاتهام بالكذب ، وأن التهمة لا تقتضي بمجردها سلب العدالة ، لان من التهم ما يبنى على شبهات وأوهام ، ومنه ما هنا

وقد أجاب أبو هريرة عن الاكثار هنا بأنه كان يلزم الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكاد يفارقه اذ لا تجارة له كالمهاجرين ولا حرث له كالانصار فيشغله هذا أو ذاك ، فكان بهذه الملازمة يسمع ما لا يسمعون ويحفظ ما لا يحفظون . ويضاف الى هذا الجواب أنه حدث بما سمعه وبما رواه ، وأجوبة أخرى سيأتي بيانها — وأجاب عن أصل التحديث بالآيتين الدالتين على وجوب اظهار العلم وحرمة كتمانه ، وهما قوله تعالى (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله) الى قوله (التواب الرحيم) وقد حذف ذلك الطاعن

وأما الرواية الثانية وهي مانقله الطاعن في الحاشية عن الاصابة لابن حجر فهي رواية أخرى لهذا الاثر نفسه رواهما البخاري عن الاعرج (عبد الرحمن بن هرمز) عن أبي هريرة، وقال الطاعن انه علل الاكثار برواية غريبة؛ أي علل كثرة تحديثه بعلة غريبة أي عند الطاعن، ولم يذكر هذه العلة! وهي عين العلة التي في الرواية الاخرى مع زيادة تعد من آيات النبي صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته — ولذلك لم يذكرها الطاعن وهي : فحضرت من النبي صلى الله عليه وسلم مجلسا فقال « من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه اليه فلن ينسى شيئا سمعه مني » فبسطت بردة علي

حتى قضى حديثه ثم قبضتها الي فوالذي نفسي بيده ما نسيت شيئا سمعته منه بعد.
وروى هذا الحديث احمد ومسلم والنسائي وغيرهم من طرق. وقد فهم أبو هريرة من الحديث عموم السلب المطلق وصدق عليه ذلك ، وان كان لفظ الحديث يحتمل تقييد العموم بما يقوله صلى الله عليه وسلم مدة بسط الرداء . وسنذكر بعض ماقاله الأئمة النقاد في حفظ أبي هريرة ، ولم يروعنه في الصحيح انه نسي شيئا حدث به الا حديث « لا عدوى » فانه أنكره بعد ان روى ما يدل على ثبوت العدوى، (*) ولعله كان من مراسيله لا من سماعه ، فلا يتعارض مع قوله انه ما سمع شيئا ونسيه أي بعد مسألة الرداء ، أو كان من سماعه قبل بسط الرداء

الشبهة الثانية

(٢) قال الطاعن : تهمة أبي هريرة بالكذب (بشهادة نفسه) : « عن أبي الرزين قال خرج الينا أبو هريرة فضرب بيده على جبهته فقال : ألا إنكم تحدثون أني أكذب على رسول الله لتهتدوا وأضل ألا واني أشهد لسمعت رسول الله (صلعم) يقول اذا انقطع شسع أحدكم فلا يمشي في الاخرى حتى يصلحها » (جزء ٤ : ٤٤٠) (لا يخفى ما في هذا من الضعف)

(٣) ونقل ابن حجر عن احمد بن حنبل (جزء ٧ صفحة ٢٠٥) قوله « قيل له ا كثرت فقال لو حدثتكم بما سمعت لرميتموني بالقشع أي الجلود » وقد أردف هذا بشكوى أخرى وهي قوله « أ كثر علينا أبو هريرة »

(٤) نقل ابن حجر عن عائشة (جزء ٧ صفحة ٢٠٥) ما يأتي : قالت عائشة لأبي هريرة « إنك تحدث بشيء ما سمعته » فأجابها أبو هريرة بما مؤداه انها كانت مهتمة بزينتها فلم تسمع ما سمعه هو

(٥) عبدالله بن عمرو بن العاص جاء في كتاب أخبار مكة للازرقي صفحة ١٣٥ قوله : حدثنا أبو الوليد ... عن عبيدالله بن سعد انه دخل مع عبدالله بن عمرو ابن العاص المسجد الحرام والكعبة محرقة حين ادبر جيش الحصين بن نمير والكعبة تتناثر حجارتها فوقف ومعه ناس غير قليل فبكى حتى اني لا نظر الى دموعه تحدر

(*) راجع ص ٧٨١ م ١٨ أي مجلد سنة المنار الماضية

كحلافي عينيه... فقال ياأيها الناس والله لو أن أبا هريرة أخبركم نكم قاتلوا ابن نبيكم بعد نبيكم ومحرقو بيت الله ربكم لقلتم مامن أحد أكذب من أبي هريرة »

(٦) عبدالله بن عمر. جاء في الترمذي جزء ١ صفحة ٢٨١ قوله : حدثنا ابن عمر ... فقال ان رسول الله (صلعم) أمر بقتل الكلاب الا كلب صيد أوكلب ماشية. قيل له إن أبا هريرة كان يقول أو كلب زرع . فقال ان أبا هريرة له زرع » (ولا يخفى ما في هذا من التقريع اللطيف)

(٧) — عن الاصابة لابن حجر جزء ٧ صفحة ٢٠٥ . كان أبو هريرة قد روى حديثا عن الصلاة لم يعجب مروان فسأل عبد الله بن عمر فقال عبدالله : لقد أكثر أبو هريرة . فقالوا له أتنكر شيئا مما يقولون ؟ فقال لا ولكن أجرأ وجبنا . وبلغ ذلك أبا هريرة فقال : ما ذنبي ان كنت حفظت ونسوا ؟

ولا نظن قوله « أجرأ وجبنا » من قبيل الازدراء فان ابن عمر ما كان ينسب الجبن الى نفسه . اما الجرأة التي نسبها الى ابي هريرة فمعناها التهجم والتحدي . ولعل في هذا ما يميط لنا اللثام عن مصادر الاحاديث فانه يدلنا على عظم الاستسلام الى رواة الاحاديث غير المدققين . والارجح ان عبد الله لم يكن ليجسر على مقاومة أبي هريرة وإنما جاهر برأيه بلهجة الازدراء

(٨) جاء في الاصابة لابن حجر جزء ٧ صفحة ٢٠٥ ان مروان استاء من كلمة قالها أبو هريرة فاتهمه بالاكثار من الرواية وأردف ذلك بقوله : انما قدم أبو هريرة قبل وفاة رسول الله ... بيسير. فقال أبو هريرة : قدمت ورسول الله ... بخيبر وانا يومئذ قد زدت على الثلاثين فأقمت حتى مات »

[ملاحظة — كان محمد في خيبر في سنة سبع هجرية أي قبل موته بنحو أربع سنوات . فالحادثة المذكورة هنا تبين ان معاصري أبي هريرة أنفسهم كانوا يرون المدة قصيرة جدا لا تعلل إكثاره من رواية الاحاديث التي كان يستشهد بها كلما شاء]

اه كلام الطاعن بحروفه وإشاراته ورموزه وحذفه من الروايات وغلطه فيها وهو كثير، ومنه قوله « أتنكر شيئا مما يقولون » وصوابه « مما يقول » يعني أبا هريرة، وقوله « أجرأ وجبنا » وصوابه « اجترأ وجبنا » ولعل هذا الخطأ من الطبع لا من

تحريف الناقل ، ولكن بعض غلطه من سوء الفهم قطعاً كقوله بعد الحديث الذي عزاه الى احمد : وقد أردف هذا بشكوى أخرى الخ والصواب ان هذه الزيادة ليست من حديث احمد . ومنه ما فهمه من كلام ابن عمر

الجواب عن هذه الشبهة

نقول — (أولا) ليس في هذه الروايات التي أوردها الطاعن تصريح من أحد بأن أبا هريرة قد ثبت عليه الكذب

— وثانيا — ان التهمة لاتثبت الا بالبينة والدليل، باتفاق الشرائع والقوانين، وعرف أهل العقل والعدل من البشر أجمعين ، ولم يقم أحد دليلا ولا بينة على أن أبا هريرة كذب ، وانما عرض لبعض الصحابة شبهة في رواية أبي هريرة ، ولو ثبتت الشبهة وظلت مجهولة وسببا خفيا لصح أن تجعل علة لعدم إلحاق روايته برتبة الصحيح احتياطا ، ولكن سبب الشبهة معروف وهو لا يقتضي سلب العدالة ولا عدم الثقة بالرواية

— وثالثا — ان لتلك الشبهة سببين (أحدهما) خاص بكثرة الرواية وفيه ورد اكثر الروايات، وحاصلها أن مدة صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين وأشهر وهي لا تتسع للاحاديث الكثيرة التي كان يرويها (والثاني) خاص ببعض متون الاحاديث ، وهي التي كان يتوقع التكذيب بها ، أو الايذاء أو القتل اذا حدث بها ، لأنها من أخبار الفتن التي أخبره بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل وقوعها ، وهي ما يسميه النصارى بالنبوات . ولما عرف أهل الحديث سبب الشبهة ظهر لهم أنها لا تدل على ادنى طعن في عدالة أبي هريرة ، وبيان ذلك من وجوه

أسباب كثرة حديث أبي هريرة

لكثرة حديث ابي هريرة رضي الله عنه اسباب استخرجناها من عدة روايات

(احدها) انه قصد حفظ أقوال الرسول (ص) وضبط أحواله لاجل ان يستفيد منها ويفيد الناس ، ولاجل هذا كان يلازمه ويسأله ، وكان اكثر الصحابة لايجترؤن على سؤاله الا عند الضرورة ، وقد ثبت انهم كانوا يسرون اذاجاء بعض

الاعراب من البدو واسلموا لانهم كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم . ومن الدلائل على هذا السبب ماروا‌ه عنه البخاري قال : قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال « لقد ظننت أن يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث » وما رواه أحمد عن أبي بن كعب: ان أبا هريرة كان جريا على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره.

(ثانيها) انه كان يلازم النبي صلى الله عليه وسلم ويتبعه حتى في زيارته لنسائه وأصحابه ليستفيد منه ولو في أثناء الطريق ، فكانت السنين القليلة من صحبته له كالسنين الكثيرة من صحبة كثير من الصحابة الذين لم يكونوا يرونه صلى الله عليه وسلم الا في وقت الصلاة أو الاجتماع لمصلحة يدعوهم اليها أو حاجة يفزعون اليه فيها ، وقد صرح بذلك لمروان، وكما سنبين ذلك في كلامنا على الشاهد السابع من شواهد الطاعن

وأخرج البغوي بسند جيد — كما قال الحافظ ابن حجر — عن ابن عمر انه قال لأبي هريرة : أنت كنت ألزمنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلمنا بحديثه. وفي الاصابة عنه انه قال: أبو هريرة خير مني وأعلم بما يحدث، وعن طلحة بن عبيد الله : لا أشك ان أبا هريرة سمع من رسول الله (ص) مالم نسمع

(ثالثها) انه كان جيد الحفظ قوي الذاكرة ، وهذه مزية امتاز بها أفراد من الناس كانوا كثيرين في زمن البداوة وما يقرب منه اذ كانوا يعتمدون على حفظهم، ومما نقله التاريخ لنا عن اليونان أن كثيرين منهم كرهوا بدعة الكتابة عند ما ابتدؤا يأخذونها وقالوا ان الانسان يتكل على مايكتب فيضعف حفظه، وانا نفاخر بحفاظ أمتنا جميع الامم وتاريخهم ثابت محفوظ ، قال الامام الشافعي : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره . وقال البخاري مثل ذلك الا أنه قال عصره بدل دهره . وأعظم من ذلك ما رواه الترمذي عن عمر (رض) انه قال لابي هريرة : أنت كنت ألزمنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحفظنا لحديثه

(رابعها) بشارة النبي صلى الله عليه وسلم له بعدم النسيان كما ثبت في حديث بسط الرداء المتقدم وهو مروي من طرق متعددة في الصحاح والسنن

(خامسها) دعاؤه له بذلك كما ثبت في حديث زيد بن ثابت عالم الصحابة

الكبير (رض) عند النسائي . وهو ان رجلا جاء الى زيد بن ثابت فسأله فقال له زيد: عليك بأبي هريرة فاني بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ندعو الله ونذكره اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس الينا فقال « عودوا للذي كنتم فيه » قال زيد فدعوت أنا وصاحبي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمّن على دعائنا ، ودعا أبو هريرة فقال: إني أسألك مثل ماسأل صاحباي وأسألك علما لا يُنسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «آمين» فقلنا يارسول الله ونحن نسألك علما لاينسى . فقال « سبقكم بها الغلام الدوسي »

(سادسها) انه تصدى للتحديث عن قصد لانه كان يحفظ الحديث لاجل ان ينشره ، وا كثر الصحابة كانوا ينشرون الحديث عند الحاجة الى ذكره في حكم أو فتوى او استدلال ، والمتصدي للشيء يكون اشد تذكرًا له ويذكره بمناسبة وبغير مناسبة لانه يقصد التعليم لذاته ، وهذا السبب لازم للسبب الاول من اسباب كثرة حديثه

(سابعها) انه كان يحدث بما سمعه وبما رواه عن غيره من الصحابة كما تقدم فقد ثبت عنه انه كان يتحرى رواية الحديث عن قدماء الصحابة فروى عن أبي بكر وعمر والفضل بن العباس وأبي بن كعب وأسامة بن زيد وعائشة وبصرة الغفاري، أي انه صرح بالرواية عن هؤلاء ، ومن المقطوع به ان بعض أحاديثه التي يصرح فيها باسم صحابي كانت مراسيل لانها في وقائع كانت قبل اسلامه ، ومراسيل الصحابة حجة عند الجمهور ، وقد روى أيضا عن كعب الاحبار وهو من علماء يهود أسلم في أيام أبي بكر وقيل في ايام عمر ، ووثقه المحدثون ولكن روى البخاري عن معاوية انه قال فيه : ان كان لمن أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن اهل الكتاب وان كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . ولم يرو البخاري في صحيحه شيئا لكعب. وقد كان في نفسي شيء من رواية كعب قبل ان أرى ما قاله فيه معاوية، وأعلم ان كثيرًا من الناس يتهمونه بالكذب. ثم رأيت للحافظ ابن كثير كلاما في ذلك

فمن تدبر هذه الاسباب لم يستغرب كثرة رواية أبي هريرة ولم ير استنكار افراد من أهل عصره لها موجبا للارتياب في عدالته وصدقه ، اذ علم أن سبب

ذلك لاستنكار، عدم وقوف على هذه الاسباب،

على أن جميع ما أخرجه البخاري في صحيحه له ٤٤٦ حديثا بعضها من سماعه وبعضها من روايته عن بعض الصحابة، وهي لو جمعت لأمكن قراءتها في مجلس واحد لأن أكثر الاحاديث النبوية جمل مختصرة. فهل يستكثر عاقل هذا المقدار على مثل أبي هريرة أو من هو دونه حفظا وحرصا على تحمل الرواية وادائها فيجاري هذا الطاعن في الشريعة على الطعن في الامام البخاري لتخريجها ؟؟ كيف وهذا الطاعن لا يوثق بنقله ولا بفهمه ولا بقصده الى بيان الحقيقة بل نعلم علم اليقين أنه يريد التشكيك والطعن لان هذا هو عمله الذي يعيش له وبه ؟

سبب استنكار بعض حديث أبي هريرة

نقل الطاعن في الشاهد الثاني عن أبي رزين أن أبا هريرة قال على مسمع منه « ألا إنكم تحدثون أني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم » وعزى هذا الى (جزء ٤: ٥٠) ولم يذكر اسم الكتاب وظاهر عزوه الشاهد الذي قبله الى البخاري انه يعني ان هذا في البخاري أيضا، ونحن نعرفه من رواية مسلم. وذكر في الشاهد الثالث انه قال لو حدثتكم بما سمعت لرميتموني بالقشع . وصوابه : لو حدثتكم بكل ماسمعت، وذكر في الشاهد الخامس عن كتاب أخبار مكة للازرقي أنه قال حين رأى الكعبة محرقة بعد انصراف جيش الحصين بن نمير : يا أيها الناس لو أن أبا هريرة أخبركم انكم قاتلوا ابن نبيكم بعد نبيكم ومحرقو بيت ربكم – لقلتم ما من أحد اكذب من ابي هريرة. يعني لو حدثهم قبل إحراق بني امية للكعبة بذلك لكذبوه لان الخبر مما يستبعد تصديقه . فعلم من قوله أنه كان يعلم بهذا الحدث قبل وقوعه لانه سمعه من الرسول (ص) ودليل هذا انه قرنه بخبر مثله في بعده عن الوقوع ولم يكن قد وقع وهو انهم سيقتلون ابن نبيهم يعني الحسين عليه السلام وقد وقع ذلك بعد وفاته رضي الله عنه

كان أبو هريرة يعلم أن كثيرا من الناس لا يصدقون الروايات التي تستبعدها عقولهم وقوعها، وان كانت جائزة في نفسها، فيتوقع أن يكذبوه اذا هو حدث بها، ويظنون أنه عزاها الى الرسول لاجل قبولها، وكان يعتقد ان بني أمية يقتلونه اذا هو حدث بكل ماسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم عن احداثهم ومفاسدهم، وهذا

هو مراده بقوله الذي رواه عنه البخاري في صحيحه : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين من العلم فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم . — يشير الى عنقه

قال الحافظ في الفتح : وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الاحاديث التي فيها تبيين أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم ، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضه ولا يصرح خوفاً على نفسه منهم ، كقوله : أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان . يشير الى خلافة يزيد بن معاوية لانها كانت سنة ستين من الهجرة ، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة . وستأتي الاشارة الى شيء من ذلك في كتاب الفتن . اه

وقد وفى الحافظ بوعده هذا في شرح حديث أبي هريرة في أوائل كتاب الفتن من صحيح البخاري وهو قوله لسعيد بن العاص ومروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية : سمعت الصادق المصدوق يقول « هلكة أمتي على يدي غلمة[1] من قريش — وفي رواية أحمد والنسائي « ان فساد أمتي على يدي غلمة سفهاء من قريش » فقال مروان : لعنة الله عليهم غلمة . فقال أبو هريرة : لو شئت ان أقول بني فلان وفلان لفعلت . أي ولم يكن مروان يعلم حين لعنهم أنهم قومه وأبناؤه ولكن أبا هريرة هو الذي يعلم ولم يصرح .

وذكر الحافظ في شرحه لهذا الحديث حديثاً آخر له من المرفوع في بيان معناه أخرجه علي بن معبد وابن أبي شيبة عنه وهو « أعوذ بالله من امارة الصبيان — قالوا وما امارة الصبيان ؟ قال — ان أطعتموهم هلكتم في دينكم وان عصيتموهم أهلكوكم في دنياكم »

فتبين بهذا أن الأحاديث التي كان يتوقع أبو هريرة تكذيب بعض الناس له فيها هي ما كان من هذا النوع ، وظهر بهذا أن ما أورده الطاعن من الشواهد على اتهامه بالكذب لا يفيد شيء منه اثبات التهمة . وقد بينا آنفاً أن رواية أبي

(١) هو جمع غلام ولم يقولوا غامة مع كونه القياس استغناء عنه بغلمة كما في الفتح وفي رواية اغيلمة تصغير غلمة . والغلام الصبي من حين يولد ان يحتلم قال الحافظ وقد يطلق الصبي والغليم بالتصغير على الضعيف العقل والتدبير والدين ولو كان محتلما وهو المراد هنا فان الخلفاء من بني أمية لم يكن فيهم من استخلف وهو دون البلوغ وكذا من أمروه على الاعمال اه المراد منه

رزين عند مسلم والرواية التي عزاها الى أحمد وهي من طريق يزيد بن الاصم عن أبي هريرة ورواية عبد الله بن سعد عند لازرقي — كلها صريحة في أن أبا هريرة كان يعتقد أو يظن أن بعض الناس يكذبونه في بعض أحاديث الفتن إذا هو حدث بها قبل وقوعها لغرابة موضوعها .

بقي من شواهد الطاعن أربعة (أحدها) قول عائشة له: انك لتحدث بشيء ماسمعته. وقد عزا الحافظ هذا الى تخريج ابن سعد وكتابه ليس في أيدينا فلاندري أذكر سببه بعينه أم لا، والظاهر من جواب أبي هريرة أنها أنكرت حديثا رواه لانها لم تسمعه هي من النبي (ص) ومثل هذا وقع لها في أحاديث غير واحد من الصحابة لهذه العلة كارتيابها في حديث المعراج وفي حديث الرؤية في الآخرة وفي حديث عبد الله ابن عمرو في موت العلماء واتخاذ الرؤساء الجهال الذين يضلون و يضلون، ففي صحيح مسلم أن عروة بن الزبير سمع هذا الحديث من عبد الله بن عمرو فأخبر به خالته عائشة فأعظمت ذلك وأنكرته وقالت له : أحدثك أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول هذا ؟ على أنها هي التي أرسلته اليه ليأخذ عنه الحديث قال « قالت لي عائشه : يا ابن أختي بلغني أن عبد الله بن عمرو مارٌّ بنا الى الحج فالقه فسائله فانه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علما كثيرا » ثم انها مع هذا ومع ما تعلم و يعلم كل الصحابة من ورع عبد الله وعدالته قد ارتابت في هذا الحديث و بقيت مرتابة فيه مدة حول كامل — قال عروة : فلما كان قابل (أي العام الذي بعد ذلك العام) قالت له: ان ابن عمرو قد قدم فالقه ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذي ذكر لك في العلم . قال فلقيته فساءلته فذكره لي نحو ما حدثني به مرته الاولى . فلما أخبرتها بذلك قالت : ما أحسبه الا قد صدق اراه لم يزد فيه شيئا ولم ينقص . والجواب المشهور عند العلماء في مثل هذه المسألة ان من حفظ حجة على من لم يحفظ

(ثانيها) حديث عبد الله بن عمر في قتل الكلاب ، نقله الطاعن عن الترمذي وهو في صحيح مسلم وسنن النسائي وابن ماجه أيضا . وقد قال العلماء ان مراد ابن عمر بقوله « ان لأبي هريرة زرعا » هو أن أبا هريرة كان محتاجا الى معرفة حكم اتخاذ الكلب للزرع لان له زرعا فسأل عن ذلك وحفظه وعمل به . ويؤيد هذا

ويفند زعم الطاعن أنه يريد التقريع ما صح عن ابن عمر من تفضيل أبي هريرة على نفسه وتقدم بعض كلامه في ذلك، ومنه الشاهد الآتي الذي عده الطاعن تكذيبا لابي هريرة وهو عين التصديق والتعديل — وهو —:

(ثالثها) مانقله عن الاصابة — وهو الشاهد السابع — من ان مروان سمع من ابي هريرة حديثا لم يعجبه الخ ما تقدم، وقد حرف الطاعن الرواية. وهذا نصها:

وروينا في فوائد المزكي تخريج الدارقطني من طريق عبد الواحد بن زياد عن الاعمش عن ابي صالح عن ابي هريرة رفعه « اذا صلى احدكم ركعتي الفجر فليضطجع على يمينه » فقال مروان: أما يكفي أحدنا ممشاه الى المسجد حتى يضطجع على يمينه؟ قال لا. فبلغ ذلك ابن عمر فقال: أكثر أبو هريرة. فقيل لابن عمر هل تنكر شيئا مما يقول؟ قال لا ولكنه اجترأ وجبنا اه بحروفه (١)

وعبارة المبشر الطاعن توهم ان ما أورده هو نص ما في الاصابة ولعله يريد بقوله في الحديث « لم يعجب مروان » ايهام القارئ أن موضوع الحديث قبيح أو منكر أدبا. ثم انه فسر الجرأة التي وصف ابن عمر بها أباهريرة بالتهجم والتحدي. وهذا من أكبر الجرأة على القول بغير علم فالتحدي معناه المباراة والمعارضة ولا محل له هنا، فالطاعن أثبت بهواه معنى غير صحيح، ونفي معنى صحيحا، وهو وصف ابن عمر نفسه بالجبن، والمراد به كما تقدم في بيان السبب الاول من أسباب كثرة حديث أبي هريرة انه كان جريئا على سؤال النبي صلى الله عليه وسلم وكان أكثر الصحابة يهابون سؤاله فلا يكادون يسألونه الا لضرورة. فهذا معنى قول ابن عمر اجترأ وجبنا. وهو قد صرح هنا بأنه لا ينكر شيئا من قول أبي هريرة. ولكن القسيس المبشر يريد أن يقنعنا مع هذا التصريح بأنه أنكر كلامه و كذبه!! وقد فسر ابن الاثير « اجترأ وجبنا » بقوله: يريد انه أقدم على الاكثار من الحديث عن النبي (ص) وجبنا نحن عنه فكثر حديثه وقل حديثنا اه

هذا وان هذا الحديث عن أبي هريرة مطعون في سنده فان راويه عبدالواحد ابن زياد ليس ثقة فيما يرويه عن الاعمش عن أبي صالح كما صرح به الذهبي في

(١) براجع نقل الطاعن لهذا الحديث وتحريفه في ص ٣٦

الميزان وذكر هذا الحديث من منا كيره عنه

وأما جملة التحدي التي كتبها الطاعن بغير فهم فهي مصحفة عليـه من أثر في الاصابة عن عبد الله بن عمر. قال الراوي: كان ابن عمر اذا سمع أبا هريرة يتكلم قال: انا نعرف ما تقول ولكنا نجـبن وتجتري. أي نجبن عن كثرة التحـديث وتجترئ أنت عليه. فيكون هذا بمعنى رواية عبـد الواحد على الوجه الذي فسرها به ابن الاثير. ولكن كلمة تجتري صحفت في طبعة الهند للاصابة هكذا «نحتزي» ولعل الطاعن رآها في طبعة مصر مصحفة أيضا بفعل من التحدي أو ما يقرب منه، وأنى له ان يعرف الاصل ؟

وهذا يثبت قولنا ان هذا الطاعن يكتب ما لا يفهم وانه لاثقة بنقله ولا بفهمه، ومن الغريب انه ترجى أن يكون هذا التفسير الباطل لتلك الكلمة المحرفة من تلك الرواية المنكرة أصلا للطعن في جميع الاحاديث لا لتكذيب أبي هريرة وحده فقال « ولعل في هذا ما يميط لنا اللثام عن مصادر الاحاديث فانه يدلنـا على عظم الاستسلام الى رواة الاحاديث غير المدققين، والارجح ان عبد الله لم يكن ايجسر على مقاومة أبي هريرة وانما جاهر برأيه بلهجة الازدراء » اه

فليهنأ المسلمون بهذا الطاعن بشر يعتهم بمثل هذا الخبط والخلط والتحريف والدعاوي المضحكة. ومن ذا الذي لا يضحك من ادعاء هذا المبشر أن عبد الله ابن عمر بن الخطاب أمـير المؤمنين القرشي ما كان يجسر على تخطئة أبي هريرة الدوسي الضعيف ؟

كان ينبغي لك أيها القس المحترم أن تلمّ قبل تصديك لتشكيك المسلمين في دينهم، وتهجمك على الطعن بشريعتهم، أن تلمّ قليلا بتاريخهم، فاننا نرى عوام نصارى بلادنا العربية يعلمون كخواصهم ان حرية النقـد واستقلال الرأي عنـد الصحابة رضي الله عنهم قد بلغت أوج الكمال، وان أرقى الاوربيـين حرية كالانكليز لم يبلغوا درجتهم في ذلك، انهم يعلمون ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كانت تخشى بأسه ملوك الارض وتهابه الانس والجن كان يقول الكلمة على المنبر في المسجد الجامع فتخطئه بها المرأة أو الأعرابي فيعترف بخطئه اذا كان

مخطئا، فهل يقال في هؤلاء أن أعظمهم مكانة في العلم والشرف لايجسر أن يصرح برأيه في تخطئة أضعفهم ؟؟ على انه كان يكفيك ان تفهم شاهدك الآتي — وهو — (رابعها) ما نقله عن الاصابة محرفا ناقصا كالذى قبله — وهو الشاهد الثامن — ونحن ننقله بنصه ليقابله القراء بما نقله(١) ويروا درجة أمانته . قال الحافظ :

« وأخرج ابن سعد من طريق الوليد بن رباح : سمعت أبا هريرة يقول لمروان حين أرادوا ان يدفنوا الحسن عند جده : تدخل فيما لا يعنيك . — وكان الامير يومئذ غيره — ولكنك تريد رضا الغائب . فغضب مروان وقال ان الناس يقولون أكثر أبو هريرة الحديث وانما قدم قبل وفاة رسول الله صلى [الله عليه] وسلم بيسير . فقال أبو هريرة قدمت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر و[أنا] يومئذ قد زدت على الثلاثين فأقمت معه حتى مات و (كنت) أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه وأغزو معه وأحج، فكنت أعلم الناس بحديثه، وقد والله سبقني قوم بصحبته فكانوا يعرفون لزومي له فيسألونني عن حديثه ، منهم عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، ولا والله لا يخفى علي كل حديث كان بالمدينة ، وكل من كانت له من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة. ومن أخرجه من المدينة أن يساكنه. قال فوالله ما زال مروان بعد ذلك كافا عنه »

فخلاصة هذه الرواية أن مروان بن الحكم غضب لانكار أبي هريرة عليه أمرا كان لاهل بيته (بني أمية) فيه سياسة — والدولة دولتهم — فلم يجد كلمة يشفي بها غيظه الا قول بعض الناس : أكثر أبو هريرة ، فلما بين له أبو هريرة سبب اكثاره أذعن له ولم يعد الى مثل ذلك ، أليس من العجائب أن يعمد هذا القس المبشر الى هذه الرواية فيحرفها ليستدل بها على كذب أبي هريرة أو تكذيب الناس له ، وما هي الاحكاية لشبهة الاكثار التي فندها أبو هريرة وأجبنا نحن عنها بما استنبطناه من مجموع الروايات المبينة لاسبابها وهي سبعة ؟

وجواب ابي هريرة يدل على جرأته وعلى سعة حرية العرب حتى في عهد معاوية أيضا ، فانه ذكر لمروان نفي النبي (ص) لوالده الحكم ، وسيأتي بيان ذلك

(١) براجع نقل الطاعن لهذا في ص ٣٦

﴿ الجملة الرابعة من كلام الطاعن ﴾

«شبهات أخرى في أبي هريرة»

قال: «١ جاء في مجموعة الرسائل للغزالي في كتاب المؤمل للرد الى الامر الأول صفحة ٣٢ قوله: «أقلد جميع الصحابة ولا أستجيز خلافهم برأيي الا ثلاثة نفر انس بن مالك وأبو هريرة وسمرة بن جندب ... وأما أبو هريرة كان يروي كلما سمع من غير أن يتأمل في المعني ومن غير أن يعرف الناسخ من المنسوخ»

«اقتبس كولد زير هذا القول في كتابه «الظاهرية» صفحة ٧٩ ولكن بدون اشارة الى القيد المذكور فأبو حنيفة لم يرتب في وثائق أبي هريرة ولكنه ارتاب في قيمة أحاديثه باعتبارها اركانا للشريعة»

«٢ حلقة ابي حنيفة: على ان ارتياب ابي حنيفة واتباعه في قبول كلام ابي هريرة كان مبنيا على ارتيابهم في وثائقه. فقد نقل الدميري في كتاب الحيوان انه وقع خلاف بين بضعة من رجال الافتاء في جامع ببغداد فأنكر الحنفيون الاستشهاد بابي هريرة لاشتباههم في صدق روايته، وكان الخليفة هارون الرشيد في جانب الفريق المرتاب» اه هذا ما قوله الطاعن بنصه على ما فيه من الغلط والتحريف والابهام من وجوه:

(منها) أن مجموعة الرسائل ليست للغزالي وانما هي رسائل لكثير ممن قبله وبعده

(ومنها) أن كتاب المؤمل في الرد الى الامر الاول ليس للغزالي كما توهمه عبارته

(ومنها) ان قوله «أقلد جميع الصحابة» الخ منقول في كتاب المؤمل عن ابي حنيفة وظاهر عبارة الطاعن أنه للغزالي لانه هو الذي سبق ذكره في كلامه. ولهذا يتعجب من يرى لاحق كلامه وذكره فيه لابي حنيفة

(ومنهـا) أن الاصـل «يروي كل ما سمع» لا «كلما سمع» كما كتب الطاعن والفرق بينهما معروف لكل من له إلمام بالعربية

(ومنها) أنه أورد شبهة واحدة، وإنما عقد العنوان لشبهات متعددة، ولكنه قسم هذه الشبهة الى قسمين (أحدهما) ادعاؤه أن أبا حنيفة لا يحتج بالاحاديث التي يرويها أبو هريرة (والثانية) أن أتباعه كذلك لا يحتجون بها

ولعلنا لو راجعنا عبارة حياة الحيوان لاستخرجنا من نقله لها بالمعنى الذي اراده اغلاطا وتحريفات اخرى ، والغرض من هذا بيان مافيه اولا من انه لا يوثق بنقله ولا بفهمه، مع القطع بأنه يقصد الطعن لتشكيك المسلمين في الاسلام لا تمحيص الحقيقة ، ولكن بعض خطئه مما لا يهتدي عاقل الى تعليله ، كنسبته كتاب المؤمل ومجموعة الرسائل الى الغزالي !!

أما الجواب عن هذه الشبهة فهي أن أبا حنيفة لم يطعن في رواية أبي هريرة بهذه العبارة ولا بغيرها ولم يتهمه بالكذب ، وهذه العبارة التي فسرها الطاعن بهواه لا بما تدل عليه في عرف الفقهاء لا تنهض حجة له ، فالتقليد عند علماء الشرع هو العمل برأي المقلَّد (بفتح اللام) لا بروايته ، لا خلاف بين المذاهب في هذا . فأبو حنيفة يقول في هذه الرواية عنه انه يقدم رأي الصحابي على رأيه — أي رأيه الذي يستنبطه من الكتاب أو السنة بالقياس — الا رأي هؤلاء الثلاثة ، وعلل ذلك بقوله « أما أنس فاختلط في آخر عمره وكان يفتي من عقله وانا لا أقلد عقله ، واما أبو هريرة فكان يروي كل ما سمع من غير ان يتأمل في المعنى ومن غير ان يعرف الناسخ والمنسوخ » فقد صرح بأنه كان يروي ماسمعه وهذا ينفي اتهامه بأنه يكذب. وصرح بأنه ماكان يقصد من الرواية استنباط الاحكام منها بالتأمل في معاني الاحاديث والبحث عن الناسخ والمنسوخ منها ليقدم الاول عند التعارض ، وحاصل ذلك انه راو غير مستنبط فيؤخذ بروايته لا برأيه وفهمه . وهذا صحيح فان ابا هريرة كان يقصد بحفظ الحديث اولا روايته والاهتداء به بنفسه، وثانيا نشر السنة وايصالها الى الناس ليهتدوا بها بحسب اجتهادهم عملا بوصية النبي صلى الله عليه وسلم المشهورة فى خطبة حجة الوداع اذ قال « ليبلغ الشاهد الغائب فان الشاهد عسى أن يبلغ من هو اوعى له منه » وفى رواية « رب مبلَّغ اوعى من سامع » وكلاهما فى البخاري وغيره . وفى معنى هذا الحديث مارواه الترمذي والضياء من حديث زيد بن ثابت مرفوعا « نضر الله امرءا سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه »

والرواية الاخرى عن أبي حنيفة وهي الاشهر انه قال : أقلد من كان من القضاة

المفتين من الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمن وعلي والعبادلة الثلاثة ولا أستجيز خلافهم برأيي الا ثلاثة نفر . — وذكرهم — والمراد بالعبادلة الثلاثة عبد الله بن مسعود وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر . وقد ترك الطاعن نقل هذه الرواية من كتاب المؤمل ، لانها أظهر في المراد الذي بيناه ، وأبعد عن التحريف الذي ادعاه .

وما زعمه من رد الحنفية الاستشهاد بحديث أبي هريرة لاشتباههم في صدق روايته اعتمادا على حكاية محرفة نسبها الى حياة الحيوان فهو باطل ، وهذه كتب الحنفية في الحديث والفقه تكذب هذه الدعوى ، وصاحب الدار أدرى . ومذهب السواد الاعظم من الفقهاء المجتهدين ان رأي الصحابة ليس بحجة في الشريعة سواء كانوا فقهاء مستنبطين أو رواة ناقلين ، وانما الحجة في الرواية اذا صحت .

خلاصة الطعن فى أبي هريرة والاجوبة عنه

ينحصر طعنه في أبي هريرة في ثلاثة أشياء — ١ — استكثار بعض الصحابة لروايته، وقد بينا أسبابها المزيلة لاستغرابها، — ٢ — توقع أبي هريرة لتكذيب بعض الناس له اذ هو صرح بكل ما سمعه ، وقد بينا ان هذا خاص بما سمعه من أخبار الفتن التي اسرّ اليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئا كثيرا منها ، ومثله في ذلك حذيفة ابن اليمان ، وقد ذكر كل منهما بعض ما سمع تصريحا أو تلويحا فوقع كما قالا فكان من دلائل النبوة التي لاتحتمل التأويل — ٣ — ان الحنفية لا يحتجون بروايته وإنهم يعتقدون انه كان كاذبا - وهذه دعوى باطلة تكذبها الالوف من كتب المذهب والملايين من أتباعها

ويعارض هذه الشبهات الباطلة إجماع أئمة الفقه ومنهم الاربعة المشهورون على الاحتجاج بما صح عندهم من أحاديث أبي هريرة المرفوعة — وكذا المرسلة عند الجمهور — وثناء كثير من الصحابة ومن بعدهم على سعة حفظه وجودة ضبطه ، وقد ذكرنا بعضها

ومن الغريب ان أبا هريرة اغضب مروان بن الحكم الاموي — الذي كان أمير المدينة ثم صار أمير المؤمنين — وعرض أمامه تعريضا يقرب من التصريح بأن عشيرته هي التي تفسد على المسلمين أمرهم ، ولم يجد مروان كلمة يقولها فيه الا حكاية

قول من قال : أ كثر أبو هريرة . ولما جبهه بتذكيره بنفي النبي صلى الله عليه وسلم لوالده (الحكم) من المدينة لم يعد الى تلك الكلمة ولا غيرها ، ولو وجد فيه مطعنا لما قصر في التشنيع عليه به

وقد ورد ان مروان امتحنه لعله يعثر عثرة يؤاخذه بها . قال الحافظ في الاصابة : وقال أبو الزعيزعة كاتب مروان : أرسل مروان الى أبي هريرة فجعل يحدثه وكان اجلسني خلف السرير اكتب ما يحدث به ، حتى اذا كان في رأس الحول أرسل اليه فسأله وأمرني ان أنظر فما غير حرفاً عن حرف . اه

فياليت شعري ماذا كان يقول هذا الطاعن لو نقل أن أبا هريرة غير أو بدّل أو زاد أو نقص في الاحاديث التي حدث بها مروان — واذاً لعاقبه مروان وشهر به حتى لا يقبل أحد حديثه — أو لو طعن في دينه وإيمانه غير مروان ؟ بل ماذا يقول هو وسائر دعاة النصرانية لو نقل ان النبي صلى الله عليه وسلم طرده كما طرد المسيح عليه السلام بطرس وسماه شيطانا وهو كبير تلاميذه ورسله؟ ففي الفصل ١٦ من انجيل متى انه طوبه وجعله الصخرة التي يبني عليها كنيسته وقال له (١٩ واعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الارض يكون مربوطا في السموات وكل ماتحله على الارض يكون محلولا في السموات (قال متى) ٢٠ حينئذ أوصى تلاميذه ان لا يقولوا لأحد انه يسوع المسيح ٢١ من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه انه ينبغي ان يذهب الى أورشليم ويتألم كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل وفي اليوم الثالث يقوم ٢٢ فأخذه بطرس اليه وابتدأ ينتهره قائلا حاشاك يارب

٢٣ فالتفت وقال لبطرس اذهب عني ياشيطان ، أنت معثرة لي لأنك لاتهتم بما لله لكن بما للناس .)

فهذه الشهادة على بطرس وهذا اللقب كان على رواية متى بعد تلك المنحة والخصوصية التي خصه بها ، فهل نسختها أم يجوز الجمع بينهما ؟ نحن نجل حواريي المسيح ولا نؤمن بهذه الرواية حتى نحتاج الى الجوب عنها . وفي متى (١٤ : ٣١) ان المسيح قال لبطرس أيضا « ياقليل الايمان » وفي ١٧ : ٢٠ وصف التلاميذ كلهم

بعدم الايمان وانه ليس لهم منه ولا مثل حبة خردل . ومثل هذه الشهادة متعددة في غيره من الاناجيل . حتى ان منها ما جاء بصيغة المستقبل كقوله لهم بعد ما رأوا آية إطعام خمسة آلاف من خمسة ارغفة « انكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون » (يوحنا ٦: ٣٦) وكما وصفهم بعدم الايمان وصفهم بأنهم أشرار ، روى ذلك لوقا في (١١ :١٣) من انجيله

ثم ياليت شعري لو وصف النبي صلى الله عليه وسلم أبا هريرة بمثل هذين الوصفين — أو لو وصف بذلك في كتاب الله المجيد — ماذا كان يقول فيه وفي روايته هذا المبشر المحترم والقس الجدل الذي وضعته جمعيته في أشهر البلاد الاسلامية بالعلم لينصّر المسلمين فيها؟ وهل يقبل منا أن نقول له لماذا تقبل رواية تلاميذ المسيح بلا سند مع وصف المسيح لهم بما ذكر وهو المعصوم من الخطأ — ولا تسمح لنا بقبول رواية أبي هريرة ولم يجرحه من دون المسيح بمثل ذلك ؟ (للرد بقية)

التعريف بكتابي

منازل السائرين ومدارج السالكين

وترجمة مؤلفيهما

(بيان وجه الحاجة الى تحرير التصوف ومكانة الكتابين والشيخين منه)

علماء الاسلام أربعة أصناف : أهل الأثر والمتكلمون والصوفية والفقهاء . والتفسير مشترك بينهم ففي كل صنف منهم مفسرون . ونقول باعتبار آخر : ان علماء الاسلام صنفان علماء الأثر وغيرهم ، أو علماء المنقول وعلماء المعقول ، ومن كل صنف مفسرون وفقهاء . ولا يكاد يكون الأثري متكلما ، وقد يكون صوفيا في النادر . والأثري الفقيه اذا احتج بالقياس فانما يحتج بما كانت علته ثابتة في الكتاب أو السنة

ثم إن علم الأثر ينقسم الى علم الرواية وعلم الدراية ولا يتم نفع أحد العلمين الا

بالآخر، فمن اتقن علم لرواية بحفظ الأثر أو الحديث وضبطه ومعرفة رواته وعلله والتمييز بين الصحيح وغيره منه ولم تكن له دراية تامة بفهمه والاستنباط كان جل النفع بعلمه لغيره ، وهو اذا خاض في معاني الحديث بغير استعداد تام للفهم فانه ربما يَضل ويُضل كثيرا ، وفي مثله ورد الحديث الصحيح « نضر الله امرءا سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه » رواه الترمذي والضياء من حديث زيد بن ثابت . وفي معناه حديث « نضر الله امرءا سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلَّغ أوعى من سامع » رواه احمد والترمذي وابن حبان من حديث ابن مسعود . وأما من لم يتقن علم السنة من المتكلمين والفقهاء والصوفية فضلالهم وإضلالهم أشد

وقد وجد في كل طائفة علماء أعلام خدموا الاسلام أجل خدمة ، فصالحو المتكلمين خدموه بدفع شبهات الملاحدة وكثير من المبتدعة ، على ان بعض الشبه والبدع ما جاءت الا من علمهم المبتدع ، وانما ينتفع بعلمهم من جمع بينه وبين علم السنة .

وصالحو الصوفية خدموا الاسلام ببيان حكم الشريعة وأسرارها وتربية الاخلاق والآداب ، ولكن البدع التي حدثت من قبلهم أكثر وأرسخ من سائر البدع التي حدثت في الاسلام ، وسببُ ذلك الجهل بالسنة .

والفقهاء خدموا الاسلام باستنباط أحكام العبادات والحلال والحرام والاحكام المدنية والسياسية والتأديبية ، وقد جنى الجاهلون بالسنن منهم على الاسلام جناية عظيمة بما أحدثوا بأقيستهم البعيدة عن نصوص الشريعة ومقاصدها من الاحكام الكثيرة المنافية ليسر الدين ورفع الحرج منه

تفرق المسلمون بهذه العلوم الى فرق وأحزاب كثيرة كل ينتحل مذهبا ينتصر له ويدافع عنه ، فكانت جناية الخلاف على الاسلام وأهله أشد ضررا مما أخطأ به كل فريق منهم . وقد رد بعضهم على بعض ردودا كان يعدها كل منهم من التعصب أو من باب « من جهل شيئا عاداه » والحق انه قلما يخلو رد طائفة على أخرى من ذلك. ومنشأ الخطإ والضرر الاكبر هو التزام مذهب والرد على مخالفه ، فان هذا هو اتباع الهوى، وأهله هم أهل الاهواء، وان سموا أنفسهم بأفضل الاسماء

أما أهل الحق الذين لا يدخلون في عموم (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) فهم الذين يجعلون كتاب الله تعالى وما بينه من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فوق الخلاف، بل هو الحكم العدل في الخلاف، لانه تعالى أخبرنا انه أنزل الكتاب (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه — وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم — فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)

وأجدر هؤلاء المهديين ببيان التحقيق الذي يزيل الخلاف من كان جامعا بين المنقول والمعقول غير متعصب لمذهب من المذاهب التي تعزى الى أفراد العلماء . ولم نر في هذا الصنف أوسع علما وأنهض حجة وأقوى عارضة من شيخ الاسلام احمد ابن تيمية. وتلميذه الامام المحقق محمد بن أبي بكر الشهير بابن القيم أوابن قيم الجوزية، فقد جمع الله لكل منهما بين الرسوخ في علوم السنة حفظا وفهما واستحضارا واستنباطا وبين التمكن من سائر العلوم التي دونت بالعربية ومذاهب الفرق وأدلتها ، فبينا في كتبهما الممتعة ما أخطأ فيه الذين انحرفوا عن الكتاب والسنة من أهل هذه المذاهب، وقد كان ابن تيمية السابق الى تحرير تلك المسائل، وتلاه ابن القيم فكان الموضح المكمل لها ، والمستدرك المدرك لما فاته منها

وأهم ما انفرد به ابن القيم فيما نعلم الاطالة بتحرير علوم الصوفية ووضع الموازين القسط لمعارفهم وأذواقهم ومقاماتهم وأحوالهم بشرحه لكتاب [منازل السائرين] لشيخ الاسلام أبي اسماعيل الهروي

الصوفية ثلاث: صوفية الارزاق وصوفية الرسوم وصوفية الحقائق، وبدع الفريقين المنلدين يعرفها كل من له إلمام بالسنة والفقه . وإنما الصوفية صوفية الحقائق الذين خضعت لهم رءوس الفقهاء والمتكلمين ، فهم في الحقيقة علماء حكماء ، ولكن ضل بما دخل في الاسلام من باب فلسفتهم الروحية، أضعاف من ضل بما دخل على المتكلمين وغيرهم من باب الفلسفة العقلية ، من إلهية وطبيعية ، وسبب ذلك ما بيناه آنفا من جهل بعض شيوخهم بالسنة النبوية، فمن أصول الضلالة التي دخلت على المسلمين من باب التصوف المقابلة بين الحقيقة والشريعة . وجعل الامر الكوني القدري كالامر

الشرعي في كون كل منهما يجب الرضاء به والاذعان والاستسلام له ، ومن مفاسد هذا الأصل قولهم « من نظر الى الخلق بعين الشريعة مقتهم ، ومن نظر اليهم بعين الحقيقة عذرهم » ، ومن مفاسده الرضاء بعدم مقاومة الامراض والظلم وهضم حقوق الافراد وحقوق الامة ، ومن مفاسده الجبر وسلب الاختيار وناهيك بما يتبعه من المفاسد والمضار

ومن أصول الضلالة التي دخلت من ذلك الباب جعل الذوق والحال من قبيل دلائل الشريعة وأصولها ، بل هو عند كثير من غلاتهم الركن الاعظم المقدم على كل ما يعارضه ، ومن فروع هذا الاصل ما ابتدعوه من الاذكار والاوراد والسماع وتعظيم القبور وجعلوه من شعائر الاسلام فان عمدتهم فيه انهم ذاقوا ما أثمره لهم من الحب والوجد والخشوع والبكاء والرغبة في الآخرة ، ومن أمثالهم « من ذاق عرف » وجهلوا ان مثل هذا الذوق حاصل للكفار فيما يأتونه في عباداتهم من الاغاني والاناشيد وآلات الطرب ، وما يشاهدونه في معابدهم ومقابرهم من الصور والتماثيل التي وضعت لسلفهم من النبيين والكهنة وغيرهم من الصالحين عندهم ، فاذا كانت العبادة تشرع بالذوق ، فقد هضم حق الوحي وهدم أساس الشرع

ومن أصول تلك الضلالات دعوى ان للدين ظاهرا وباطنا مخالفا لما يفهمه الجمهور منه . وهذه الضلالة من ابتداع زنادقة الباطنية وقد كانت سببا لارتداد كثير من المسلمين فكونت منهم طوائف الاسماعيلية والنصيرية والدروز والبابية البهائية والازلية وغيرهم

ومنها أصل الاصول عند غلاتهم ، وهو ما يعبرون عنه بوحدة الوجود بالمعنى الذي يمثله الكتاب المسمى [بالانسان الكامل] وأمثاله وهذا الاصل مخالف لنصوص القرآن الصريحة ، ولنصوص السنة الصحيحة ، وفيه مفاسد كثيرة جدا ، ولكن من الناس من يفهم وحدة الوجود على غير هذا الوجه .

قد افتتنت كل فرقة انشقت من جماعة المسلمين وأهل كل مذهب خالفوا السنة وما جرى عليه سلفها الصالح بفتنة تأويل ما يخالف مذاهبهم وآراءهم من آيات الكتاب العزيز ومتون الاحاديث ، حتى انهم ليؤولون السنن العملية أو يعارضونها بروايات قوليه شاذة أو منكرة . وغلاة الصوفية ابرع الفرق في التأويل وأشدهم اسرافا

فيه بعد الباطنية الذين يشتبهون بهم كثيرا ، ذلك بأنهم لا يلتزمون في التأويل ما يلتزمه المتكلمون والفقهاء من عدم الخروج باللفظ عن حقيقته الا الى ضرب من ضروب المجاز أو الكناية ، بل يزيدون على ذلك باب الكشف وباب الاشارة وباب الرموز ، ولذلك نرى كلامهم ممزوجا بالآيات والاحاديث محرفة عن معانيها الصحيحة التي تدل عليها في اللغة ، ولاجله ترى كلامهم مقبولا عند الجماهير من غير تأمل ولا تفكر ، حتى ان المتكلمين والفقهاء ما عادوا ينكرون عليهم شيئا كما كان السلف ينكرون على كل من يخالف ظواهر النصوص أو يبتدع في الدين ما لم يكن في الصدر الاول

فمن تدبر ما ذكرنا علم ان تحرير علم التصوف شيء لا يستطيعه الا من كان راسخا في علم الكتاب والسنة أتم الرسوخ ، وعارفا بالتصوف معرفة علم وذوق وعمل، وقد ادخر الله تعالى هذا للعالمين العاملين العارفين الذائقين المفسرين المحدثين — شيخ الاسلام أبي اسماعيل الهروي الانصاري، ومحقق الاسلام ابن القيم الدمشقي -- فالاول عالم أثري غلب عليه التصوف ، والثاني صوفي ذائق غلب عليه علم السنة ، جمع الاول زبدة التصوف جمعا موجزا في كتابه [منازل السائرين] وشرحه الثاني وبين ماله وما عليه في كتابه [مدارج السالكين] وها نحن أولاء ننقل من كتب العلماء ترجمة وجيزة لكل من الشيخين ، ونقفي عليها بالتعريف بكل من الكتابين :

﴿ ترجمة شيخ الاسلام الهروي ﴾

جاء في حوادث سنة ٤٨١ من كتاب (شذرات الذهب) ما نصه :

وفيها توفي أبو اسماعيل شيخ الاسلام الانصاري الحنبلي عبد الله بن محمد بن علي الهروي الصوفي القدوة الحافظ أحد الاعلام ، توفي في ذي الحجة وله ثمانون سنة وأشهر

سمع من عبد الجبار الجراحي وأبي منصور محمد بن منصور الازدي وخلق كثير وبنيسابور من أبي سعيد الصيرفي واحمد السليطي صاحبي الاصم ، وكان قذى في أعين المبتدعة وسيفا علي الجهمية. وقد امتحن مرات. وصنف عدة مصنفات، وكان

شيخ خراسان في زمانه غير مدافع ، قاله في العبر

ومن شعره

سبحان من أجمل الحسنى لطالبها حتى اذا ظهرت في عبده مدحا
ليس الكريم الذي يعطي لتمدحه ان الكريم الذي يثني بما منحا

وجاء في أول حرف العين من (الكواكب الدرية) في طبقات الصوفية للمناوي :

«عبد الله بن محمد بن علي شيخ الاسلام ابو اسماعيل الانصاري الهروي الحافظ العالم العارف الصوفي صاحب [منازل السائرين] كان اماما في التفسير والحديث ، حسن السيرة[1] في التصوف والعربية والتاريخ والانساب وغير ذلك. وكان لا يخاف في الله لومة لائم ولذلك ....[2] في هلاكه مرارا فحفظ منهم . وكان آية في التذكير والوعظ. مات سنة احدى وثمانين وأربعمائة » اه

وذكره الحافظ الذهبي في كتاب العلو وجعل عنوانه «شيخ الاسلام الانصاري» ولقبه بالامام الكبير، على كونه لم ينقم منه سوى تأليفه لكتاب المنازل وقال فيه ما نصه:

« كان ابو اسماعيل آية في التفسير، رأسا في التذكير، عالما بالحديث وطرقه ، بصيرا باللغة ، صاحب أحوال ومقامات ، فياليته لا ألف كتاب المنزل ففيه اشياء منافية للسلف وشمائلهم، قيل انه عقد على تفسير (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) ثلاث مئة وستين مجلسا . وقد هدد بالقتل مرات ليقصر من مبالغته في إثبات الصفات ، وليكف عن مخالفيه من علماء الكلام ، فلم يرعو لتهديدهم، ولا خاف من وعيدهم ، ومات في سنة احدى وثمانين وأربعمائة ، وله خمس وثمانون سنة ، سمع من عبد الجبار الجراحي وابي سعيد الصيرفي وطبقتهما »

﴿ ترجمة محقق الاسلام ابن القيم ﴾

قال العلامة السيد نعمان خير الدين ابن الآلوسي البغدادي في كتابه (جلاء العينين) :

العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي

(١) لعله سقط شيء من هنا (٢) ههنا كلمة ممحوة في الاصل لعلها : سعى علماء الكلام

ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي المفسر النحوي الاصولي المتكلم الشهير بابن قيم الجوزية. قال في الشذرات: بل هو المجتهد المطلق. قال ابن رجب: ولد شيخنا سنة احدى وتسعين وستمائة ولازم الشيخ تقي الدين ابن تيمية وأخذ عنه وتفنن في كافة علوم الاسلام وكان عارفاً في التفسير لا يجارى فيه. وبأصول الدين واليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لايلحق في ذلك، وبالفقه والاصول والعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام والتصوف. حبس مدة لانكاره جد الرحيل الى قبر الخليل، وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة الى الغاية القصوى، ولم أشاهد مثله في عبادته وعلمه بالقرآن والحديث وحقائق الايمان، وليس هو بالمعصوم ولكن لم أر في معناه مثله. وقد امتحن وأوذي مرات وحبس مع شيخه شيخ الاسلام تقي الدين في المرة الاخيرة بالقلعة منفردا عنه ولم يفرج عنه الا بعد موت الشيخ؛ وكان في مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القرآن وبالتدبر والتفكر ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الاذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والخوض في غوامضهم وتصانيفه ممتلئة بذلك؛ وحج مرات كثيرة وجاور بمكة. وكان أهل مكة يتعجبون من كثرة طوافه وعبادته؛ وسمعت عليه قصيدته النونية في السنة وأشياء من تصانيفه غيرها، وأخذ عنه العلم خلق كثير في حياة شيخه والى أن مات وانتفعوا به. قال القاضي برهان الدين الزرعي: ما تحت أديم السماء أوسع علما منه؛ ودرس بالصدرية وأم بالجوزية، وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة، وصنف تصانيف كثيرة جدا في أنواع العلوم وحصل له من الكتب ما لم يحصل لغيره

فمن تصانيفه: تهذيب سنن أبي داود وايضاح مشكلاته. وسفر الهجرتين. ومراحل السائرين. والكلم الطيب. وزاد المسافرين، وزاد المعاد أربع مجلدات، وهو كتاب جليل. وكتاب نقد المنقول. وكتاب أعلام الموقعين عن رب العالمين، ثلاث مجلدات. وكتاب بدائع الفوائد مجلدان. النونية الشهيرة بالشافية الكافية. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. حادي الارواح الى بلاد الافراح. ونزهة المشتاقين. وكتاب الداء والدواء. وكتاب مفتاح دار السعادة مجلد ضخم غريب

الاسلوب . واجتماع الجيوش الاسلامية . وكتاب الطرق الحكمية . وكتاب عـدة الصابرين وكتاب اغاثة اللهفان. كتاب الروح . وكتاب الصراط المستقيم. والفتح القدسي. والتحفة المكية. والفتاوى، وغير ذلك . توفي ثالث عشر رجب سنة احدى وخمسين وسبعمائة ، ودفن بمقبرة الباب الصغير بعد ان صلي عليه بمواضع عديدة ، وكان قد رأى قبل موته شيخه تقي الدين في النوم وسأله عن منزلته فأشار الى علوها فوق بعض الاكابر ، ثم قال له : وأنت كدت تلحق بنا ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة ، رحمهم الله تعالى . انتهى باقتصار

مكانة كتاب منازل السائرين

جاء في كشف الظنون مانصه :

(منازل السائرين) أوله « الحمد لله الواحد الاحد » الخ . وهو لشيخ الاسلام عبد الله بن محمد بن(علي أبو) اسماعيل الانصاري الهروي الحنبلي الصوفي المتوفى سنة ٤٨١ إحدى وثمانين وأربعمائة.وهو كتاب في أحوال السلوك قال فيه : هذه المقامات يجمعها رتب ثلاث : الاولى اخذ المريد في السير، الثانية دخوله في الغربة ، الثالثة حصوله على المشاهدة الجاذبة الى عين التوحيد . الفه حين سأله جماعة من الراغبين في الوقوف على منازل السائرين الى الحق من أهل هراة فأجاب ، ورتبه لهم فصولا وأبوابا ، وجعله مائة مقسومة على عشرة أقسام ، كل منها يحتوي على عشرة مقالات ،

« وقد شرحه جماعة منهم الشيخ كمال الدين عبد الرزاق الكاشي المتوفى سنة ٧٣٠ ثلاثين وسبعمائة لغياث الدين محمد بن رشيد الدين محمد بن محمد بن طاهر الوزير ، أوله « الحمد لله الذي خص العارفين بمعرفة ما لا يعرفه الا هو » الخ . وذكر الكاشاني ان النسخ كانت مختلفة وألفاظها متباينة حتى ساق اليه القدر نسخة مقروءة على المصنف موشحة بإجازة بخطه ، قال وهو كتاب فاق على كل ما صنف في هذه الطريقة. وشرحه المولى شمس الدين محمد البتادكاني الطوسي المتوفى سنة ٨٩١ احدى وتسعين وثمانمائة وهو شرح ممزوج بالفارسية سماه (تسنيم المقربين في شرح منازل السائرين) وشرحه محمود بن محمد الدركزيني المتوفى سنة ٧٤٣ ثلاث وأربعين وسبعمائة سماه تنزل السائرين) ولاحمد بن ابراهيم الواسطي المتوفى سنة ٧١١ احدى عشرة وسبعمائة شرح نافع

« ولشمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١ احدى وخمسين وسبعمائة شرح سماه (مدارج السالكين) وهو شرح مبسوط . وعلق عليه أبو طاهر محمد بن احمد الفيشي المتوفى سنة ٧٤٧ سبع وأربعين وسبعمائة ؛ وترجمه الشيخ مصلح الدين المعروف بابن نور الدين المتوفى سنة ٩٨١ احدى وثمانين وتسعمائة بالتركية؛ واختصرته الشيخة عائشة بنت يوسف الدمشقية وسمته(الاشارات الخفية في المنازل العلية) وشرحه الشيخ الامام عبد الغني التلمساني . وشرحه أيضا الشيخ الامام سليمان بن علي بن عبدالله التلمساني الصوفي المتوفى سنة ٦٩٠ تسعين وستمائة بأمر الشيخ الزاهد ناصر الدين أبي بكر بن فليح وهو شرح أوله « الحمد لله الذي روحنا بالحمد » الخ اه

مكانة كتاب مدارج السالكين

مصنفات ابن القيم في كتب علماء الاسلام نادرة ، وكتاب مدارج السالكين في كتب ابن القيم نادرة ، فاذا كان كل كتاب منها ممتازا بتحقيق واحاطة في مباحث العلوم فلا يستغني عنه بغيره في الجملة ، فكتاب المدارج أولى بأن لا يستغنى عنه بغيره في الجملة ولا في التفصيل. ذلك بأن مباحث كل كتاب من تلك الكتب قد توجد مجملة أو مفصلة في كتبه الاخرى أوكتب شيخه وغيرهما من المحققين. وأما مباحث المدارج فما يوجد منها في تلك الكتب قليل جدا، فهو الكتاب الذي قد انفرد بتحرير علوم الصوفية ، ووزنها بميزان الكتاب العزيز والسنة النبوية ، وما كان عليه صفوة المسلمين في الصدر الاول . قدر الله تعالى أن يجمع مباحثها له امام من أكبر أئمتهم المعتدلين في أوجز عبارة، وألطف اشارة، يعز على غيره الحكم لها وعليها ، بل يقل في الناس من يفهم الغايات التي ترمي اليها ، وانما أحجم غير ابن القيم من علماء السنة الاعلام عن شرح كتاب المنازل بمثل ما شرحه به ، أو إنشاء كتاب مستقل في موضوعه ، لان الصوفي القح منهم — وهو قليل — لا يرجى منه احسن مما جاء به الهروي ، والبعيد عن التصوف منهم لايفهم رموزهم ومقاصدهم ، ولا يدرك أحوالهم وأذواقهم ، فهو اما أن يحكم عليهم بالتضليل ، أو يعذرهم بضرب من التأويل ؛ ألم تر الى الحافظ الذهبي كيف تمنى لو لم يؤلف الانصاري كتاب المنازل ، ولو لم

يكن من أكبر علماء التفسير والحديث، ومقاومي الجهمية وغيرهم من أهل التعطيل والتأويل، لضلله بهذا الكتاب تضليلا

اذا كان لكتاب المدارج عيب يوقيه من العين فعيبه أن اكثر ما فيه من الاحاديث غير معزو الى مواضعه من دواوين السنة، خلافا لعادة مؤلفه وأمثاله كأن العدوى سرت الى مصنفه من كتب التصوف، ولكن لم يصل فعلها فيه الى ايراد الاحاديث الموضوعة، أو الاستدلال بالاحاديث المنكرة والضعيفة، فان هذا لا يأتي من أثري محقق مثل ابن القيم

وجملة ما نقول في هذا الكتاب أنه أفضل ما عرفنا وسمعنا به من كتب التصوف والاخلاق الدينية، وقد فند ما ذكرنا وما لم نذكر من دخائل كتب التصوف وبدعها فهو غاية الغايات في هذا الباب، والله أعلم بالصواب. والحمد لله الذي وفقنا لطبعه ونشره، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه م ؟

أعظم معركة بحرية بين أعظم أساطيل العالم

نشرت الحكومة الانكليزية في ٣ يونيو ١٩١٦ بلاغا رسميا في مصر هذا نصه: كما نشر في المقطم وغيره:

أعلنت وزارة البحرية البريطانية أنه بعد ظهر يوم الاربعاء في ٣١ مايو حاول الاسطول الالماني الاكبر أن يخترق نطاق الحصر البحري الذي ضربناه على المانيا فجاء من جهة بحر كاتغات قاصدا دخول البحر الشمال وكان هذا الاسطول مؤلفا من أساطيل الدردنوطات والطرادات الكبرى والطرادات والمدمرات الخ

فانبرى له أسطول من الطرادات البريطانية الكبرى تعززه الطرادات والمدمرات واحتدم القتال بين الفريقين وأسفرت المعركة عن خسارة عظيمة من الجانبين

وبعد مدة وجيزة وصل أسطول الدردنوطات البريطانية الى مكان المعركة فكف العدو عن القتال وعادت بوارجه قاصدة الموانئ الالمانية

وقد اغرقت البوارج الالمانية التالية وهي

بارجة دردنوط من طرز « كيزر » نسفت نسفا و بارجة أخرى من الطرز عينه أغرقت بنار المدافع

أما الطرادت الالمانية الثلاثة الكبرى التي قاتلت في المعركة (و بينها الطراد العظيم لتزوف والطراد العظيم درفلنجر على ما يظن) فقد نسف واحد منها وعطل الثاني ووقف عن الحركة ورؤي الثالث مصابا بعطل كبير

ورؤي طراد الماني من الطرادات الخفيفة وهو يغرق ، ومما يجدر ذكره أن الالمان اعترفوا بضياع ثلاثة من طراداتهم الخفيفة وهي فرونلوب وفسبادن و بومون وغرقت ست مدمرات المانية ونطحت غواصة المانية فاغرقت

هذه الخسارة التي أرسل القائد العام للاسطول البريطاني خبرها كما رؤيت ولكن ثلاث بوارج ألمانية من البوارج الكبرى أصيبت بعطب كبير والمرجح أن العدو أصيب بخسارة أخرى لم يستطع اسطولنا رؤيتها بسبب صعوبة الرؤية من جراء الاحوال الجوية

والظاهر أن المعركة دارت في آخر الامر والبوارج الالمانية تجد في السير وقد ساقها البريطانيون أمامهم من السكو الى مصب نهر الالب

أما خسارة الاسطول البريطاني فهي من الطرادات الكبرى « كوين ماري » و « اندفيتجابل » و « وأنفنسبل » ومن الطرادات « دفنس » و « بلاك برنس » وهذه البوارج الخمس أغرقت، والطراد « واريور » وقد تعطل فتركناه وشأنه، ومن المدمرات « تبراري » و « تربيولنت » و « فرنشون » و « وسبرهوك » و « أردنت » وثلاث مدمرات أخرى ضاعت . ولم يغرق للبريطانيين شيء من بوارج الدردنوط ولا من الطرادات الخفيفة

وقد وقع عبء القتال قبل وصول الاسطول البريطاني الاكبر على قسم من أسطول الطرادات الكبرى البريطانية فقاتل هذا القسم أسطول العدو الاكبر وأصيب بالخسارة المتقدمة وهو يقاتل أسطولا يفوقه كثيرا في قوة البوارج وعددها اه

وقد شرح كل من المقطم والاهرام هذا البلاغ شرحا صرحا فيه بأن الطرادت الكبرى التي غرقت من نوع الدردنوط أيضا وقد آثرنا شرح الاهرام للخسائر وهذا نصه

خسائر الالمان

جاء في البلاغ البريطاني ان الالمان فقدوا بارجتين من طراز « كيزر »[1] احداهما نسفت نسفاً والاخرى اغرقت بنار المدافع

ومحمول كل بارجة من هذه البوارج ٢٤٧٠٠ طن وهي من بوارج الدردنوط الالمانية وسلاحها ١٠ مدافع قطر ١٢ بوصة و ١٤ مدفعا قطر ٦ بوصات و ١٢ مدفعا ثقل ٢٤ رطلا و ٤ ثقل ٢٤ رطلا وهي لمقاومة الطيارات وفيها ٥ انابيب للطوربيد (الواحدة ٢٠ بوصة) مغمورة بالمياه ٤ منها في جانبها وواحدة في المؤخرة

وقد بنيت بوارج الدردنوط الالمانية التي من طراز « كيزر » (لقب الامبراطور) سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ وعددها خمس وهي « كيزر » و « فردريك درجروس » و « كيزرين » و « برنس رجنت لويتبولد » و « كوينج البرت » فاذا كانت اثنتان قد دمرتا على ما جاء في البلاغ يكون الباقي عند الالمان من هذا الطراز ثلاث

وليس عند الالمان أكبر من هذه البوارج سوى ثلاث محمول الواحدة منها ٢٨ الف طن وهي « ارز تس فردريك الثالث » و « ارزاتس ورث و « T » وأربع محمول الواحدة ٢٥ الف طن وهي « ارزاتس براندنبرج » و « كوينج » و « جروس كورفرست » و « مرجراف »

وأما الطرادات الالمانية التي يقول البلاغ ان منها لتزوف ودرفلنجر فهي من طرادات القتال الكبرى وليس لدى ألمانية منها سوى ثلاثة وهي « در فلنجر » و « لتزوف » و « أرزاتس هرثا » ومحمولها ٢٨ ألف طن وسلاحها ٨ مدافع قطر ١٢ بوصه و ١٢ مدفعا قطر ٦ بوصات و ١٢ مدفعا ثقل ٢٤ رطلا و ٥ أنابيب للطوربيد (٢٢ بوصة) مغمورة بالمياه أربعة منها في الجوانب وواحدة في المؤخرة

أما الطرادات الثلاث التي يعترف الالمان بضياعها فهي

١ — بومرن ومحمولها ١٢٢٠٠ طن وسلاحها ٤ مدافع قطر ١١ بوصة و ١٤ مدفعا قطر ٧ر٦ بوصة و ٢٠ مدفعا ثقل ٢٤ رطلا و ٤ ثقل رطل [illegible] (أي ثقل

(١) المنار : تعريب كيزر قيصر ، والالمان يطلقون لقب قيصر على عاهلهم [illegible]

مقذوفها) وأربع مدافع رشاشة و ٦ أنابيب للطور بيد مغمورة بالمياه في جوانبها وفي المقدمة والمؤخرة . وللامان من هذا الطراز أربع بوارج أخرى وهي « دنشلند » و « هنوفر » و « شاسويج هولستين » « و شلسين »

٢ — فرونلوب وهوطراز صغير محموله ٢٧١ طنا وسلاحه ١٠ مدافع قطر ٤ بوصات و ١٠ مدافع ثقل رطل و ٤ مدفع رشاشة وأنبوبان للطور بيد مغموران تحت الماء

٣ — « وستفالن » وهي دردنوط كبيرة ومن طراز « نساو » ومحمولها ١٨٠٠ طن وسلاحها ١٢ مدفعا قطر ١١ بوصة و ١٢ قطر ٦ بوصات و ١٦ ثقل ٢٤ رطلا و ٦ انابيب للطور بيد في المقدمة والمؤخرة والجانبين مغمورة تحت الماء

ولالمانيا من هذه الطراز أربع بوارج فقط وهي [وستفالن . ونساو . و بوزن . ور ينلاند]

وخسر الالمان عدا ما تقدم ست مدمرات لم تذكر أسماؤها

هذه خسارة الاسطول الالماني ولا نستطيع تقدير خسارة الانفس لعدم التحقق من عدد البوارج والطرادات التي اغرقت تماما بمن فيها على انا اذا سلمنا بأنه لم يغرق سوى بومرن وفرونلوب ووستفالن وهي الثلاث التي اعترف الالمان انفسهم بضياعها فلا تقل خسارتهم في الرجال عن الف رجل في وستفالن و ٨٠٠ في بومرن و ٢٥٠ في فرونلوب (أي ٢٠٥٠)

***

خسارة البريطانيين

أما خسارة الاسطول البريطاني فاذا بحثنا فيها فانما نذكر أمورا صحيحة اعتمادا على البلاغ الذي لدينا فلا وجه للحدس والتخمين ولا للظن والشك وهذا بيان الخسائر على ماجاء في البلاغ وقد ذكرنا سلاحها منذ يومين فلانعود الى ذكره اليوم

	محمولها طن	سرعتها عقدة	عدد رجالها
كوين ماري	٢٨٠٠٠	٢٨	١٠٠٠

	محمولها	سرعتها	عدد
	طن	عقدة	رجالها
انديفا تجبل	١٨٧٥٠	٢٥	٧٩٠
انفنسبل	١٧٢٥٠	٢٦	٧٨٠
دفنس	١٤٦٠٠	٢٣و٥	٨٥٠
بلاك برنس	١٣٥٥٠	٢٢،٦٥	٧٠٤
ور يور	١٣٥٥٠	٢٢و٩	٧٠٤
			٤٨٢٨

والبارجة كوين ماري هي من احدث الدردنوطات الكبرى . ولا يوجد أكبر منها في الاسطول البريطاني من حيث المحمول سوى ثلاث قطع وهي البارجة «ثيجر» ومحمولها ٢٨ الف طن والبارجة « وورسبيت » والبارجة « فليانت» والبارجة «كوين اليزابث » ومحمول كل منهما ٢٧٥٠٠ طن على ان « كوين ماري » تمتاز عن الثلاث بوارج الاخيرة بسرعتها فهي تجتاز ٢٨ عقدة في الساعة بينما « كوين اليزابث » و « وورسبيت » و « فليانت » سرعة الواحدة منها لا تزيد على ٢٥ عقدة مثل « كوين ماري » وقد كانت البارجة « كوين ماري » من فرقة الطرادات الكبرى في الاسطول الاكبر

ويظهر ان عبء القتال في هذه المعركة وقع على الاسطول البريطاني الذي كان في البحر الابيض المتوسط وهو الآن في البحر الشمالي فان الطرادات [انديفاتجبل] و [انفنسبل] و [دفنس] و [بلاك برنس] و [وور يور] جميعها كانت من هذا الاسطول واضباط هذه البوارج اصدقاء عديدون في الاسكندرية و بور سعيد والسويس وغيرها من موانئ البحر المتوسط سيحزنون لما أصابهم و يأسفون أشد الاسف لفقدهم. وقد ظل (بلاك برنس] مدة طويلة في مياه البحر الاحمر وخليج السويس بعد شبوب هذه الحرب واسر جملة بواخر من بواخر الاعداء في أوائلها

أما المدمرات الانكليزية التي غرقت وهي [فرتشون] و [سباروهوك و [اردنت] و [تيبراري] فهذه جميعها من المدمرات الاوقيانوسية وقد بنيت عا

١٩١٣ وطول الواحدة منها ٢٦٠ قدما ومحمولها ٩٣٥ طنا وسرعتها ٣٢،٧ عقدة في الساعة وسلاحها ٣ مدافع قطر ٤ بوصات وانبوبان للطوربيد وعدد رجال الواحدة منها مئة رجل

ولعل الثلاث المدمرات الاخرى التي ضاعت ولم يذكر اسمها في البلاغ من نوعها أيضا فتكون خسارة البريطانيين من الرجال في المدمرات نحو ٧٠٠ اه شرح الاهرام

[المنار] ظاهر البلاغ الرسمي ان خسارة الاسطول الانكليزي أكبر من خسارة الاسطول الالماني . وقد ورد في البرقيات ان الالمان تبجحوا وافتخروا بهذه المعركة وخطب قيصرهم خطبة قال فيها الآن ألقينا الرعب في أعماق قلوب أعدائنا. ثم وردت برقيات أخرى بأن خسارة الالمان كانت أعظم مما ورد في البلاغ الانكليزي وفي بلاغاتهم الرسمية . وقد قال ناظر البحرية البريطانية إنه جازم بأن خسارة العدو لم تكن أقل من خسارتهم وان لم يسهل بيان ذلك بالتفصيل . وصرح هو وغيره بما لا مراء فيه وهو ان الاسطول البريطاني لا يزال صاحب السلطان الاعلى على البحار

المنار

الدعوة الى انتقاده

جرت عادتنا بأن ندعو قراء المنار في أول كل سنة الى انتقاد ما يرونه منتقدا فيه بالشروط التي كررنا بيانها ، ونعني بقراء المنار هنا كل من اطلع عليه وقرأ شيئا فيه لا المشتركين خاصة ، ونعد بأن ننشر كل ما يكتب الينا في ذلك بشروطه وأهم الشروط ان ينتقد القارئ للكلام ما يراه خطأ ويبين ذلك بالدليل من غير استطراد ولا تطويل

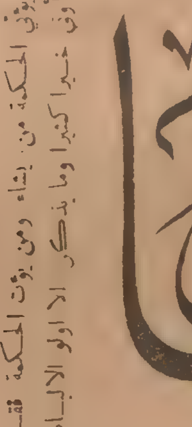
حجم المنار في هذه السنة

ذكرنا في الجزء الماضي أن قلة الورق اضطرتنا الى ان نجعل كل جزء من أجزاء هذه السنة ثمانية كراريس (ملازم) واننا اذا ظفرنا في أثناء السنة بورق كاف نجعل السنة اثنى عشر شهرا فيكون حجم مجلد هذه السنة من سني الحرب كمجلد التي قبلها

مباحث هذا الجزء

ضاق هذا الجزء عما وعدنا به فيما قبله من كتابة مقالة في حال المسلمين الاجتماعية وحال أغنيائهم وسائر أصنافهم في التعاون على الاعمال النافعة ، وسننشر المقالة ان شاء الله في الجزءين الثاني والثالث





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و« منارا» كمنار الطريق

مصر ١٥ رمضان ١٣٣٤ — ٢٣ السرطان (ص١) ١٢٩٤ هـ ش ١٥ يوليو ١٩١٦

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٤) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
(٥) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ
عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ

أرشدت الآيات الثلاث السابقة الى دلائل وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وأنها مع ذلك لم تمنع الكافرين من الشرك في الالوهية ؛ وأرشدت الى دلائل البعث والى انها لم تمنع المشركين من الشك فيه ؛ وبينت الثالثة ان الله تعالى المتصف بالصفات التي يعرفونها ولا ينكرونها هو الله في عالمي السموات والارض ، المحيط علمه بكل شيء ، فلا ينبغي ان يتخذ معه إله فيهما . ولكن المشركين جهلوا ذلك فجوزوا ان يكون غير الرب إلها وعبدوا معه آلهة أخرى ، فبين لهم الوحي الحق في ذلك وان الله الذي يعترفون بأنه هو رب السموات والارض وما فيهن هو الإله المعبود بالحق فيهن — ثم أرشدت هذه الآيات الثلاث اللاحقة سبب عدم اهتدائهم بالوحي، وأنذرتهم عاقبة التكذيب بالحق، ويتلو ذلك في الآيات التي بعدهن كشف شبهاتهم على الوحي و بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، فيكون الكلام في أصول الدين كلها وكل السورة تفصيل له. قال عز وجل :

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين﴾ أي لم يكن كل أمرهم انهم لم يستدلوا بما ذكر في الآية الاولى من البينات على التوحيد ، ولا بما ذكر في الثانية على البعث ، ولم ينظروا فيما يستلزمه كونه سبحانه هو الله في السموات وفي الارض ، المحيط علمه بالسر والجهر وكسب العبد ، بل يعطف على هذا ويزاد عليه أنهم أضافوا الى عدم الاهتداء بالآيات الثابتة الدائمة التي يرونها في الآفاق وفي أنفسهم، عدم الاهتداء بالآيات المتجددة التي تهديهم الى تلك وتبين لهم وجه دلالتها ، وهي آيات القرآن ، المرشدة الى آيات الاكوان ، والمثبتة لنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وفي معناها كل ما يدل على نبوته (ص) من المعجزات، وذلك انهم لا تأتيهم آية من هذه الآيات من عند ربهم — ولا يقدر عليها غيره — الا كانوا معرضين عنها، غير متدبرين لمعناها، ولا ناظرين فيما تدل عليه وتستلزمه فيهتدوا به؛ واصل الاعراض التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المتولى المدبر عنه . أي فهم لهذا الاعراض عن النظر في الآيات المنزلة وما فيها من الاعجاز العلمي واللفظي يظلون معرضين عن الآيات الكونية الدائمة الدالة على ان هذا الرب الواحد الذي بيده ملكوت كل شيء هو الحقيق بالالوهية وحده ، وأنه لا يجوز أن يدعى غيره

ولا أن يعبد سواه ، لان الربوبية والالوهية متلازمان . فالآيات الدالة على ان الرب واحد دالة أيضا على انه هو الإله وحده ، ولولا إعراضهم عن النظر في ذلك والتأمل فيه عنادا من رؤسائهم ، وجمودا على التقليد من دهمائهم ، المانع من النظر والاستدلال ، لظهر لهم ظهورا لا يحتمل المراء ولا يقبل الجدال ، فالآية معطوفة على ما قبلها متممة لمعناه ، والمضارع المنفي فيها على إطلاقه دال على التجدد والاستمرار ، أو على بيان الشؤون وشرح الحقائق — كقوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل انثى) — فلا يلاحظ فيه حال ولا استقبال ، وفي معنى هذه الآية آية أول سورة الشعراء وستأتي قريبا ، وآية في أول سورة الانبياء وهي (٢١ : ٢ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون ٣ لاهية قلوبهم)

وقوله « من آية » يدل على استغراق النفي أو تأكيده . وإضافة الآيات الى الرب تفيد ان أنزاله الوحي و بعثه للرسل وتأييدهم وهدايته للخلق بهم من مقتضى ربوبيته أي مقتضى كونه هو السيد المالك المربي لخلقه المدبر لأمورهم على الوجه الموافق للحكمة . وانه لا يقدر عليه غيره — فالذين يؤمنون بالرب ولا يؤمنون بكتبه ورسله . يجهلون قدر ربوبيته وكنه حكمته ورحمته . وقيل ان المراد بالآيات هنا الدلائل الكونية الثابتة ، وهو ضعيف فان هذه لا يكاد يعبر عنها بالاتيان ، لانها ماثلة دائما للبصائر والابصار ، وانما يعبر بالاتيان عن آيات الوحي التي تتجدد وعما يتجدد مثلها من المعجزات ، ومصداق الاخبار بالغيب ، كالاخبار بنصر الرسل وخذلان أقوامهم وآيات الساعة . مثال ذلك آيتا الانبياء والشعراء المشار اليهما آنفا وقوله تعالى (أوَ لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها * أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله)

ولما بين أن شأنهم الاعراض عن الآيات المنزلة وسائر ما يؤيد الله به رسله رتب عليه قوله ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ أي فبسبب ذلك الشأن الكلي العام — وهو استمرارهم على الاعراض عن النظر في الآيات — قد كذبوا بالحق الذي جاءهم لما جاءهم فلم يتريثوا ولم يتأملوا ، وانما كذبوا ما جهلوا ، وما جهلوا الا لانهم سدوا على أنفسهم مسالك العلم ، وهذا الحق الذي كذبوا به هو دين الله الذي

جاءهم به خاتم رسله (ص) من العقائد والعبادات والآداب ، وأحكام الحلال والحرام والمعاملات ، وقد دعاهم أولا بمثل هذه السورة الى كلياته مجملة ثم مفصلة ، وانما كان يكون التفصيل بقدر الحاجة ، الى ان تم الدين كله فأكمل الله به النعمة .

والحق في أصل اللغة الموافقة والمطابقة كما قال الراغب ، أوالامر الثابت المتحقق بنفسه ، فهو كلي له جزئيات كثيرة ، وكلما اطلق في مقام يعرف المراد منه بالقرائن اللفظية أو المعنوية، وقد أطلق في القرآن بمعناه اللغوي المطلق وعلى البارئ تعالى وعلى القرآن وعلى الدين،وذكر الدين مضافا الى الحق إضافة بيانية كقوله تعالى (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) وقوله (ولا يدينون دين الحق) وأطلق بمعاني أخرى تفهم من السياق في كل موضع .— فالاظهر عندنا ان المراد بالحق هنا الدين المبين في القرآن ، وروي عن قتادة تفسيره بالقرآن هنا وفي مثله من سورة (ق) ولا فرق بينه وبين ما قبله في المعنى، فان تكذيبهم بالدين الذي نزل به القرآن هو عين التكذيب بالقرآن الذي نزل بهذا الدين ، ولكن الاظهر في توجيه اللفظ والتناسب بين هذه الآية وما قبلها وعطفها عليها بفاء السببية ان يقال: إن إعراضهم عن آيات القرآن الدالة باعجازها على كونها من عند الله وعلى رسالة من أنزلت عليه — وبمعانيها على دلائل التوحيد والبعث ، وعلى أحكام الشرائع والآداب ، قد كان سببا ترتب عليه تكذيبهم بالحق الذي أنزل القرآن لبيانه وهو تلك المعاني التي هي دين الله عز وجل. واذا فسر الحق هنا بالقرآن نفسه يكون المعنى انهم أعرضوا عن كل آية من القرآن فكان ذلك سببا لتكذيبهم بالقرآن، وان المعرَض عنه والمكذَّب به واحد ، ووجهه أبو السعود ، بضرب من تكلفه المعهود ، وقد يتخرج على القول بأن فاء السببية تأتي بمعنى لام العلة فتدل على ان ما بعدها سبب لما قبلها ، وفي هذا القول مقال ، وفي التخريج عليه ما لا يخفى من الخفاء ، ولكن يظهر ذلك على القول بأن الآيات التي شأنهم الاعراض عنها هي دلائل الاكوان أو المعجزات مطلقا ، اذ يقال حينئذ في تقدير الربط — : ان كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية ، وأظهر دلالة ، وهو الحق الذي تحدوا به ، فعجزوا عن الاتيان بسورة من مثله ، وقد علمت ان المختار في الآيات الاول . وقيل ان الحق هنا هو النبي

(ص) قوله ابن جرير الطبري ? وقيل الوعد والوعيد

﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون ﴾ أي فعاقبة هذا التكذيب انه سوف يحل بهم مصداق الاخبار العظيمة الشأن مما كانوا يستهزءون به من آيات القرآن . والمراد بهذه الانباء ما في القرآن من الوعد بنصر الله لرسوله واظهار دينه ووعيد أعدائه بتعذيبهم وخذلانهم في الدنيا ثم بهلاكهم في الآخرة . وقد أتاهم ذلك فكان من أوله ما نزل بهم من القحط ، وما حل بهم في بدر ، ثم تم ذلك في يوم الفتح ، وقد دلت الآية على ما جاء مصرحاً به في سور أخرى من استهزاء مشركي مكة — والكلام فيهم — بوعد الله ووعيده، وكذا بآياته ورسله، ولاحاجة الى تقدير ذلك في الكلام، فهو وان لم يقدر من بدائع ايجاز القرآن، وقد تكرر في القرآن ذكر استهزائهم واستهزاء من قبلهم من الكفار بالرسل وبما جاءوا به من الوعد والوعيد ، وانذارهم عاقبة هذا الاستهزاء في آيات، وبيان نزول العذاب بهم في آيات أخرى كقوله (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) وهو في سورة هود والنحل والانبياء والزمر واكثر الحواميم

جاء الوعيد على الاستهزاء هنا بحرف التسويف، وجاء في آيتين مثل هاتين الآيتين في أول الشعراء بحرف التنفيس، وذلك قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزءون) وقد حذف هنا معمول كذبوا ، وذكر السيد الآلوسي في روح المعاني تعليل ذلك بما نصه : وفي البحر أنما قيد الكذب بالحق هنا وكان التنفيس بسوف وفي الشعراء «فقد كذبوا فسيأتيهم» بدون تقييد الكذب ، والتنفيس بالسين ، لأن الانعام متقدمة فى النزول على الشعراء ، فاستوفي فيها اللفظ، وحذف من الشعراء وهو مراد احالةً على الاول، وقد ناسب الحذف الاختصار في حرف التنفيس فجيء بالسين اه

أقول ويحسن أن يزاد على ذلك أنه لما كان فعل الاستقبال المقرون بسوف أبعد زماناً من المقرون بالسين تعين الاول فيما نزل أولا والثاني فيما نزل آخرا .

وقال الرازي في تفسير الآية: اعلم ان الله تعالى رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب (فالمرتبة الاولى) كونهم معرضين عن التأمل فى الدلائل والتفكر

في البينات. (والمرتبة الثانية) كونهم مكذبين بها، وهذه المرتبة أزيد مما قبلها، لان المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبا به، بل يكون غافلا عنه غير متعرض له، فاذا صار مكذبا به فقد زاد على الإعراض (والمرتبة ثالثة) كونهم مستهزئين بها لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به الى حد الاستهزاء، فاذا بلغ الى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الانكار، فبين تعالى ان أولئك الكفار وصلوا الى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب. اه

وفي هذه الآيات عبرة لنا في حال الذين أضاعوا الدين، من أهل التقليد الجامدين، وأهل التفرنج الملحدين، فهي تنادي بقبح التقليد، وتصرح بوجوب النظر في الآيات والاستدلال بها، وبأن التكذيب بالحق والحرمان منه معلول للاعراض عنها، وتثبت ان الاسلام دين مبني على أساس الدليل والبرهان، لا كالاديان المبنية على وعث التقليد للاحبار والرهبان أو الرؤساء والكهان، وماذا فعل المسلمون بعد هذا التبيان؟ اتبع جماهيرهم سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، وأضاعوا حجة دينهم بتقليد فلان وعلان، وعكسوا القاعدة المأثورة عن سلفهم وهي اعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال، ولولا حفظ الله جل وعلا لهذا القرآن، وتوفيقه سلف الامة للعناية بتدوين سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وأخذ طائفة من أهل النظر بهديهما في كل زمان، لضاع من الوجود هذا الاسلام، كما ضاعت من قبله سائر الاديان، ولم يغن عن ذلك وجود الالوف المؤلفة من كتب الفقه وكتب الكلام

كان عاقبة ذلك أن الحق صار مجهولا في نفسه عند الاكثرين. فاتخذ الناس رؤساء جهالا للدنيا وللدين، فتواطأ الفريقان على اضطهاد حملة الحجة من العلماء المستقلين، وظنوا ان ذلك من الكياسة، التي تقتضيها السياسة. ويحفظ بها أمر الملك والرياسة، وما كان الا فتنة لهم، أضاعوا بها دينهم وملكهم، على أيدي أقوام من أمم الشمال، اقتبسوا من الاسلام وأهله الاولين ذلك الاستقلال، فنسخوا ما كانوا فيه من ظلمات التقليد بنور الاستدلال، فبلغوا من العزة والسيادة أوج الكمال،

ثم استدار الزمان فافتتن بعض المسلمين، بما رأوا عليه هؤلاء المستقلين،

ولكن داء التقليد العضال، لم يفارقهم في هذه الحال ، فطفقوا يقلدونهم في الازياء والعادات وظواهر الاحكام والاعمال ، فازدادوا بذلك خزيا على خزي وضلالا على ضلال ، اذ هدموا مقوّمات أمتهم ومشخصاتها ، ولم يستطيعوا ان يكوّنوها بمقومات ومشخصات غيرها ،

فهذه الآيات الكريمة حجة على مقلدة المسلمين ، وعلى مقلدة الاوربيين، فانهم هم الذين أضاعوا الدنيا والدين ، وأعجب أمر هؤلاء المتفرنجين أنهم يدعون الاستقلال ، ويظنون ان ما يهذون به من الشبهات الدينية والاجتماعية ضرب من الاستدلال ، فهلم دلائلكم على ماتركتم من هداية ، وما استحدثتم من غواية، فاننا لمناظرتكم مستعدون ، وكم دعوناكم اليها وأنتم لا تجيبون ؟

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض مالم نمكن لكم﴾

الرؤية هنا علمية ، و(القرن) من الناس القوم المقترنون في زمن واحد، جمعه قرون ، وقد استعمل في القرآن بهذا المعنى مفردا وجمعا ، واختلف في الزمن المحدد للقرن فأوسط الاقوال انه سبعون أو ثمانون سنة ، وقيل مئة أو أكثر وقيل ستون أو أربعون ، والمعقول انه مقدار متوسط أعمار الناس في كل زمان . وذهب بعضهم الى تحديد القرن بالحالة الاجتماعية التي يكون عليها القوم ، فقال الزجاج انه عبارة عن أهل عصر فيهم نبي أو فائق في العلم ، أي أو ملك من الملوك ، وهذا أقرب الى استعمال القرآن ، فالظاهر أن قوم نوح قرن وان امتدّ زمنه فيهم زهاء ألف سنة ، وقوم عاد قرن وقوم صالح قرن . ويطلق القرن على الزمان نفسه والمشهور في عرف الكتاب اليوم أن القرن مئة سنة.و (التمكين) يستعمل باللام وفي . يقال : مكن له في الارض — جعل له مكانا فيها ، ونحوه أرض له . ومنه (إنا مكنا له في الارض) ويقال : مكنه في الارض — أي أثبته فيها ومنه (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) كذا في الكشاف قال ولتقارب المعنيين جمع بينهما في هذه الآية . وقيل إن مكنه ومكن له كوهبه ووهب له، وقال ابو علي اللام زائدة كردف له، وسيأتي تحقيق معنى الاستعمالين — والسماء المطر، والمدرار المغزار فهو صيغة مبالغة من الدّر، وهو مصدر: رد اللبن درا، أي كثر وغزر ، ويسمى اللبن الحليب درا كالمصدر.

والارسال والانزال متقاربان في المعنى لان اشتقاق الارسال من رسل اللبن وهو ما ينزل من الضرع متتابعا ، وقال الراغب : أصل الرّسل الانبعاث على التؤدة ويقال ناقة رِسلة سهلة السير ، وإبل مراسيل — منبعثة انبعاثا سهلا ، ومنه الرسول المنبعث . ثم ذكر ان الارسال يكون ببعث من له اختيار كارسال الرسل ، وبالتسخير كارسال الريح والمطر ، وبترك المنع نحو قوله (أرسلنا الشياطين على الكافرين) ويستعمل فيما يقابل الامساك نحو (وما يمسك فلا مرسل له)

والكلام استئناف لبيان ما توعدهم به ، وكونه مما سبقت به سنته في المكذبين من أقوام الانبياء. والمعنى ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون — بالحق كم أهلكنا من قبلهم من قوم أعطيناهم من التمكين والاستقلال في الارض وأسباب التصرف فيها ما لم نعطهم هم مثله ثم لم تكن تلك المواهب والنعم مانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر) ؟ لا هذا ولا ذاك ، فاما الايمان واما الهلاك —

وكان الظاهر ان يقال : مكناهم في الارض — أي القرون — ما لم نمكنهم — أي الكفار المحكي عنهم المستفهم عن حالهم . فعدل عن ذلك بالالتفات عن الغيبة الى الخطاب لما في إيراد الفعلين بضميري الغيبة من إيهام اتحاد مرجعهما وكون المثبت عين المنفي ، فقيل ما لم نمكن لكم : وإنما لم يقل « مالم نمكنكم » أو : « ومكنا لهم مالم نمكن لكم » — وهو مقتضى المطابقة — لنكتة دقيقة لا يدركها لا من فقه الفرق بين مكنه ومكن له وقد غفل عنه جماهير أهل اللغة والتفسير، والتحقيق ان معنى مكنه في الارض أو في الشيء — جعله متمكنا من التصرف تام الاستقلال فيه . وأما مكن له فقد استعمل في القرآن مع التصريح بالمفعول به ومع حذفه ، فالاول كقوله تعالى (وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم) وقوله (أولم نمكن لهم حرما آمنا) والثاني كقوله تعالى (كذلك مكنا ليوسف في الارض) وقوله في ذي القرنين (إنا مكنا له في الارض وآتيناه من كل شيء سببا) فلا بد في مثل هذا من تقدير المفعول المحذوف مع مراعاة ما يناسب ذلك من نكت الحذف ككون المفعول في هاتين الآيتين عاما يتناول كل ما يصلح للمقام، كان

يقال مكنا ليوسف ولذي القرنين في الارض جميع أسباب الاستقلال في التصرف،

اذا فقهت هذا فاعلم ان في هذه الآية احتباكا تقديره « مكناهم في الارض مالم نمكنكم ، ومكنا لهم ما لم نمكن لكم » ومعنى الاول انهم كانوا أشد منكم قوة وتمكنا في أرضهم ، فلم يكن يوجد حولهم من يضارعهم في قوتهم ، ويقدر على سلب استقلالهم ، ومعنى الثاني أننا أعطيناهم من أسباب التمكن في الارض وضروب التصرف وأنواع النعم مالم نعطكم . فحذف من كل من المتقابلين ما أثبت نظيره في الآخر ، وهذا من أعلى فنون الايجاز ، الذي وصل في القرآن الى أوج الاعجاز ، ويصدق كل من التمكينين على قوم عاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم كما يعلم من قصص الرسل في القرآن ومن التاريخ العام

ثم عطف على هذا ما امتازت به تلك القرون على كفار قريش من النعم الالهية الخاصة بمواقع بلادهم من الارض فقال ﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ﴾ إرسال السماء

عبارة عن إنزال المطر ، والمدرار الغزير كما تقدم ﴿ وجعلنا الانهار تجري من تحتهم ﴾ أي وسخرنا لهم الانهار — وهي مجاري المياه الفائضة — وهديناهم الى الاستمتاع بها بجعلها تجري دائما من تحت مساكنهم التي يبنونها على ضفافها ، أو في الجنات والحدائق التي تتفجر خلالها ، فيتمتعون بالنظر الى جمالها ، وبسائر ضروب الانتفاع من أمواهها ،

﴿ فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ أي فكان عاقبة أمرهم لما كفروا بتلك النعم وكذبوا الرسل أن أهلكنا كل قرن منهم بسبب ذنوبهم التي كانوا يقترفونها ، وأنشأنا أي أوجدنا من بعد الهالكين من كل منهم قرنا آخرين يعمرون البلاد ويكونون أجدر بشكر نعم الله عليهم فيها ، والذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الامم قسمان (أحدهما) معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به (وثانيهما) كفر النعم بالبطر والاشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ، ومحاباة الاقوياء ، والاسراف في الفسق والفجور ، والغرور بالغنى والثروة ، فهذا كله من الكفر بنعم الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام ، والآيات

الناطقة بتلك الذنوب مجتمعة ومتفرقة كثيرة كقوله تعالى (٢٨ : ٥٨ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مسا كنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ٥٩ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون ۞ ١١ : ١٠٢ وكذلك أخذ ربك القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد ۞ ١٦ : ١١٢ ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ۞ ١٧ : ١٧ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) والعذاب الذي يعذب الله به الامم ويهلك القرون ويديل الدول قسمان أيضا: الجوائح والاستئصال، وفقد الاستقلال، وقد بينا هذا وذاك في مواضع من هذا التفسير[١]

وفي هذه الآية رد على كفار مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بازاء ضعف عصبية النبي (ص) وفقره ، وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين)

أما القوم أو القرن الآخرون الذين يخلفون من نزل بهم عذاب الله تعالى فهم لا بد ان يكونوا مخالفين لهم في صفاتهم ، وان كانوا من جبلتهم وأبناء جيلهم ، فالشعوب التي نكبت بالحرب الاوربية المشتعلة الآن في أوربة لا بد أن يخلف الهالكين فيها خلف يتركون كثيرا مما كانوا عليه من الكفر بالله وكفر نعمه ويكونون أقل منهم بطرا وقسوة وانغماسا في الترف والسرف وما ينشأ عنهما من الفسق والفجور، قال تعالى في آخر سورة القتال (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ۞ ثم لا يكونوا أمثالكم)

﴿ استدراك ﴾

زدنا في تفسير أول سورة الانعام بعد طبعه في الجزء الماضي من المنار جملة هذا نصها:

افتتح الله تعالى كتابه بالحمد ، ثم افتتح به أربع سور مكيات أخرى مشتملة كل منها على دعوة الاسلام ومحاجة المشركين فيها ، الاولى الانعام وهي آخر سورة

---

(١) تراجع في فهارس التفسير وفهارس مجلدات المنار كلمة « الامم » وكلمة « عذاب » ،

كاملة في آخر الربع الاول من القرآن، والكهف وهي أول سورة في أول الربع الثالث، وسبأ وفاطر وهما آخر الربع الثالث، وليس في الربع الثاني ولا الرابع سورة مفتتحة بالحمد. وقد قرن الحمد في الاولى بخلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور، وفي الثانية بانزال القرآن على عبده وكل منهما سمي نورا بل هما أعظم أنوار الهداية، وفي الثالثة بخلق السموات والارض وبحمده تعالى في الآخرة وبصفات الحكمة والخبرة والعلم بما ينزل من السماء وما يعرج فيها — والرابعة بخلق السموات والارض وجعل الملائكة رسلا أولي أجنحة ووصفه بسعة القدرة، والملائكة من الانوار الالهية التي تنزل من السماء وتعرج فيها. فظهر بهذا ان السور الثلاثة مفصلة لما اجمل في الاولى (الانعام) مما حمد الله عليه كما انها مؤيدة لما فيها من اثبات التوحيد والرسالة والبعث

العصبية الجنسية التركية

(وعاقبة قتل نابغي العرب بسوريه)

لعلنا قد سبقنا جميع الكتاب الى بيان خطر العصبية الجنسية على الدولة العثمانية في عصر الدستور فاننا أشرنا الى ذلك في أول مقالة كتبناها عند حدوث الانقلاب واعلان الدستور اذ كان جميع العثمانيين يصفقون طربا ويحسبون انهم نالوا السعادة صفوا من كل كدر، آمنين من كل خطر. تلك المقالة التي جعلنا عنوانها (عيد الامة العثمانية بنعمة الدستور والحرية) ونشرناها في (ج ٦ م ١١) الذي صدر في ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ (٢٨ يوليو و ١٥ تموز) أي بعد اعلان الدستور بأربعة أيام. وقد جاء فيها بعد بيان مزايا هذه النعمة ما نصه:

« ان امامنا عقبات كثيرة (منها) ما يتوقع من مقاومة بعض الحكام الظالمين للحرية الجميلة التي يرقص لها طلاب الدستور طربا، ويهيمون بها شغفا (ومنها) ما هو أقرب الى الوقوع — كالنزاع بين الاحرار المستقلين، وبين المتعصبين والمقلدين،

(ومنها) مسألة الجنسية العثمانية ، وما يقف في طريقها من جنسيات الشعوب التي يتألف منها جسم الدولة العلية ، فمن المطالب بالنظر في ذلك ؟ »

ثم أنشأنا بعد شهر مقالة أخرى نشرناها في (ج ٧ م ١١) أوضحنا فيها خطر اختلاف الاجناس وشدة الحاجة الى تكوين جنسية عثمانية تتحد فيها جميع الاجناس والملل ، وبينا ان الواجب على أحرار الترك وعقلائهم ان يبدؤا بالدعوة الى ترك العصبية الجنسية (اللغوية) ولا سيما زعماء جمعية الاتحاد والترقي منهم .لان دعوتهم هي التي يرجى ان تسمع ويستجاب لها . ثم كررنا الكتابة في ذلك كثيرا

وقد رأى الاتحاديون عقب الانقلاب باظهار الرغبة في الوحدة العثمانية وكراهة العصبية الجنسية فحمدنا ذلك لهم كتابة وخطابة.ولكنهم ماعتموا ان نزعوا ثوب الرياء الشفاف بعد ان استقرت سلطتهم ، فنبذوا الجنسية العثمانية وراء ظهورهم ، ونهضوا بالجنسية التركية بغلو واسراف وعجلة خارجة عن طور العقل . فنصحنا لهم أولا بالكتابة وبينا لهم أن تحويل العربي عن عربية والألباني عن ألبانيته والارمني عن أرمنيته والرومي عن روميته مما يستحيل في هذا العصر ، وانه لو كان ممكنا لعذرناهم في محاولة تتريك جميع الشعوب العثمانية سياسة لادينا

ثم قصدت الى الاستانة للسعي الى منع التفرق بين العرب والترك وتأسيس مدرسة الدعوة والارشاد فيها ، ونشرت في جرائدها مقالات (العرب والترك) المعروفة لقراء المنار فجعلتها تمهيدًا للسعي في الوفق ومنع سريان التفرق الجنسي ، اذ بينت فيها ضرورة اتحاد هذين العنصرين مع محافظتهما على لغتهما ، وانه يجب أن يكونا كعنصري الهواء أو الماء في تكوينهما لحقيقة واحدة—اعني الجنسية السياسية العثمانية — وبينت فيها أسباب الخلاف ومثاراتها في الآستانة وما أخطأت به وزارات الدولة وجرائد العاصمة وجمعياتها في ذلك فنقم العرب منها . فكان اول من شكر لي هذا السعي واهتم به ووعد ببذل نفوذه لتلافي الخلاف حسين حلمي باشا الصدر الاعظم في ذلك العهد، وكان من سوء الحظ ان اجل صدارته لم يطل، فصرت أراجع في هذه المسألة طلعت بك ناظر الداخلية الذي كانت — ولا تزل — ازمة الحكومة بيده فكان يعدني بتخصيص وقت للبحث معي في هذه المسألة

وانقضت السنة التي قضيتها في الآستانة ولم يف بوعده ، على انه وفى لي بعدة جلسات في داره وفي الباب العالي للنظر في المسألة الاخرى -- أي مشروع العلم والارشاد ، ولكن لم يكن لذلك ثمرة

وقد علمت في اواخر ايامي في الآستانة ان الاتحاديين قد صمموا على حل مسألة الجنسيات بالقوة القاهرة وانهم بدأوا بالتنكيل بالارنؤط وسيتلوهم الارمن والعرب والاكراد . وقد كان هذا احد الباعثين لي على تلك الحملات الشديدة التي حملتها على جمعية الاتحاد والترقي في المنار ، والباعث الثاني هو الديني ولا ابحث فيه الآن

لم اكن انا الذي قاومت الجمعية بالكلام وحدي بل كانت المقاومة لهم بالقول والعمل على اشدها في الآستانة وسائر بلاد الترك حتى آلت الى تسلل الالوف من جمعيتهم ، ثم الى قيام الاحزاب في مجلس الامة عليهم ، ثم الى تأييد الجيش لحزب الحرية والائتلاف في اسقاط وزارتهم ، ومما يجب ان يذكر انهم اعترفوا في اثناء ذلك الجهاد و بعده بأنهم كانوا يريدون تتريك جميع عناصر الدولة وانهم رجعوا عن ذلك

ولما عادت الوزارة اليهم باغتيال ناظم باشا ناظر الحربية في الباب العالي والقبض على كامل باشا الصدر الاعظم فيه هالنا الامر وخفنا من وقوع الفوضى في الآستانة والدولة في حال حرب مع البلقان غلبت فيه على أمرها ، ولكن وزارة كامل باشا لم يكن لها حزب يؤيدها ، اذ كان حزب الحرية والائتلاف غير متفق معها ، ثم عقدت الوزارة الاتحادية الصلح وأنشأت تعقد مع الدول الكبرى الاتفاق تلو الاتفاق على جعل البلاد العثمانية مناطق نفوذ اقتصادي لهن ، وتقترض عشرات الملايين منهن ، وبدأت بالعراق العربي فاعترفت للانكليز فيه بما طلبوا من النفوذ والحقوق ، فانكرنا ذلك عليهم أشد الانكار ، ولم يمنعهم ذلك طبعا من الاتفاق مع فرنسة على نفوذها في سورية الخ

على أننا لما رأينا البلقانيين قد انتصروا على الدولة في الحرب حتى كادوا يستولون على الآستانة علمنا ان الخطر على الدولة أقوى وأسرع مما كنا نخشى ، وان الدولة اذا كانت قد عجزت عن حفظ الروملي وهو سياج الآستانة وحصنها امام البلقان ، ومعظم قوتها الحربية هنالك و باقيها على حدود الروس ، فلابد أن تعجز بالاولى عن الدفاع عن بلادنا العربية اذا هجمت عليها دولة قوية ، اذ ليس في بلادنا حصون ولا سلاح ، وكان

هذا الامر منبها لكثير من أهل الغيرة والفهم من العرب الى ما سبقهم بعض أذكياء الترك الى الدعوة اليه وهو وجوب جعل ادارة الدولة من نوع اللامركزية لان ذلك ادعى الى عمران كل قطر واستعداده للدفاع عن نفسه عند عجز المركز العام عن الدفاع عنه

تأسس حزب اللامركزية بمصر في أثناء حرب البلقان وسرت دعوته في المملكة العثمانية كلها ولم يكن للحكومة الاتحادية وجه للشكوى منه لانه حزب عثماني يحاول الوصول الى غايتـه من الطريق القانوني الذي ينتهي الى مجلس الامة، وتأسست في أثناء ذلك الجمعية الاصلاحية في بيروت باذن الحكومة فشذت في موضوع ما طلبته من تعيين مستشارين ومراقبين للحكومة من الاجانب وأنكرنا عليها شذوذها في المنار، ثم أنشئت جمعية أخرى في البصرة صارح رئيسها طالب بك النقيب حكومة الاتحاديين بالإنكار بل بالعداء؛ وقد كادت الجمعية له فحاولت اغتياله فلم تظفر، ثم حاسنته وكلفته السعي للتوفيق بينها و بين الامير ابن سعود فبذل جهده في ذلك

ثم تعلقت رغبة كثير من أذكياء العرب بعقد مؤتمر عربي في باريس لاظهار مطالب العرب الاصلاحية للعالم كله، وعهدوا بذلك الى حزب اللامركزية فعقد المؤتمر وحضره مندوبون من البلاد العربية والجمعيات العربية واختير لرياسته السيد عبد الحميد الزهراوي أحد مندوبي حزب اللامركزية، وكان المؤتمر في غاية الاعتدال في مباحثه وقراراته

حينئذ اهتمت جمعية الاتحاد والترقي وحكومتها بأمر العرب وأوفدت مندوبا من زعمائها الى باريس للاتفـاق مع رئيس المؤتمر على إجابة العرب الى ما يطلبونه من الاصلاح المعقول، وعقدا ذلك الاتفاق المشهور، ثم قرر مجلس الوكلاء وصدرت الارادة السلطانية ببعض مواد ذلك الاتفاق مع الوعد بأن تعطى العرب حقوقا أخرى بالتدريج، وكل ذلك مدون في كتاب (المؤتمر العربي الاول) ونشر في المنار وفي الجرائد العربيـة المشهورة. ولكن ما تقرر من ذلك لم يرض جمهور المطالبين بالاصلاح من العرب، وقد عده أكثرهم خديعة مؤقتة من الاتحاديين، وكان فريق منهم أشهرهم الزهراوي وعبد الكريم قاسم الخليل يرجحون اخلاص الاتحاديين وعزمهم على ارضاء العرب دائما. وقد كان من اظهار الاتحاديين الميل الى العرب أن صار أكبر زعمائهم كطلعت بك يحضرون الاحتفالات التي يقيمها أعضاء المنتدى الادبي في الآستانة

هذه خلاصة ما كان من أمر الخلاف والوفاق بين العرب والترك أو الاتحاديين منهم خاصة قبل هذه الحرب ، فلما وقعت الحرب بين الدول الكبرى وعلم طلاب الاصلاح من العرب أن دولتهم تريد أن تستفيد منها وتوقعوا أن تدخل فيها، كفوا جميعاً عن المطالبة بالاصلاح، وأظهروا الميل الى تأييدها في كل ما تقرره وان لم يعتقدوا أنه الصواب، حذرا من المنازعات الداخلية ، وقد حبذنا عملهم هذا بمقالة نشرناها في جريدة الاهرام التي صدرت في سادس ذي القعدة ١٣٣٢ (١٦ سبتمبر سنة ١٩١٤) أي قبل دخول الدولة في الحرب ، ثم في منار ذي الحجة أي بعد دخول الدولة في الحرب . وقد قلنا في أول تلك المقالة وهي خطاب لمسلمي سورية ما نصه:

« ثم أشكر لكم ما أظهرتموه من النجدة والهمة» في الاخلاص والطاعة للدولة، وبذل الانفس والاموال والثمرات لها ، والكف المؤقت عن طلب الاصلاح منها » وتقديركم الحال الحاضرة قدرها ، حتى انكم ساهمتم في هذا أرقى أمم الارض التي سكتت عن جميع مطالبها ومنازعاتها الداخلية » الخ

وماذا جرى بعد ذلك ؟ ولى الاتحاديون جمال باشا أحد زعمائهم منصب القيادة العامة في سورية فأظهر الميل التام الى العرب وصار يقرب اليه أذكياء المتعلمين منهم ويحثهم على الاستمساك بعروة عربيتهم وعثمانيتهم معا ، فصدقوه وازدادوا حماسة ورغبة في بذل دمائهم وأموالهم في سبيل الدولة، حتى اذا ماتم له ما أراد من الاختبار، نزع عنه ثوب الرياء والمكر ، ولبس لهم جلد النمر ، وقتلهم تقتيلا ، ونكل بهم وبغيرهم تنكيلا

جاءتنا الاخبار في العام الماضي بأن جمال باشا شنق في بيروت احد عشر شابا من خيار شبان المسلمين منهم النابغة محمد المحمصاني وأخوه وعبد الكريم قاسم الخليل الذي كان رئيس المنتدى الادبي في الاستانة ثم اتصل بالاتحاديين وجعل جل سعيه اقناع العرب بالاخلاص لهم — فلم نصدق الخبر الا بعد ان وصل الى مصر بعض الفارين من الشنق و بعض الاسرى من الجيش واثبتوا لنا الخبر . ولكننا مع ذلك لم نكتب كلمة انكار على جمال باشا ولا على شيعته لاجل العلة التي أشرنا اليها آنفا

ثم تواترت الانباء بشنق اناس آخرين من دمشق وغيرها بتهمة السياسة وقتل آخرين بالرصاص ونفي بيوت كثيرة الى الاناضول ، فثبت عندنا حينئذ ان

الاتحاديين اغتنموا فرصة الاحكام العرفية في البلاد، والقبض على الارزاق والاعناق، لاجل القضاء المبرم على النهضة العربية وإكراه العرب بالقوة القاهرة على ترك لغة أمتهم ودينهم ، وعدم المطالبة بحق من حقوقهم. ولكن الثابت في سنن الاجتماع وتاريخ الامم ان هذه الطريقة من الاضطهاد تؤدي الى ضد ما يراد منها . وقد كنا قلنا من قبل ان الاسلام قد امات العصبية الجنسية في بلاد العرب الحضرية فلا يقدر على احيائها أحد الا حكومة الاستانة ، ويمكننا ان نقول الآن انها قد كونت الجنسية العربية الجديدة وجعلتها خالدة، لانها زرعتها في البدو والحضر وسقتها بالدم، وبالدم استقل من استقل من جميع الامم، وكنا نخاف منهم هذه العجلة في هذه الايام، لئلا تجيء منافية لمصلحة الاسلام، إذ يخشى ان تكون هذه القسوة في اضطهاد العرب في سورية سببا ليأس الامة العربية كلها من الدولة وجزمهم بأنه يستحيل عليهم ان يحافظوا على وجودهم تحت سيادتها ، وان يحمل ذلك عرب الجزيرة على الخروج عليها ، خوفا ان يحل بهم شر مما حل بغيرهم، فان الترك يحاربون اليمن وعسير ونجد منذ قرون وكل حكامها الحاضرين قد قوتلوا ، وأمير مكة لاينسى لهم مافعله معه وهيب بك قبل هذه الحرب اذ حاول الفتك به وسلب امتياز الشرفاء من الحجاز وجعله كولايات الشام ، ولما ظهر عليه الامير ظهرت الدولة لاستيائها مما حصل ونسب الى الدفتردار. واسترضى الصدر الاعظم الشريف بالاعتراف له بجميع حقوق امراء مكة التي كانت في عهد السلطان سليم، ولكن الشريف يعرف ظواهر هذه الامور وبواطنها ، بل لا يخفى على أحد من العقلاء ان الدفتردار لا يجرأ على احداث أمر كبير في الحجاز بدون أمر رئيسه (الوالي) وان الوالي لايجرأ عليه بدون أمر الاستانة ، وأوامر الآستانة في عهد الاتحاديين قسمان — أوامر الجمعية وهي الحاكمة، وأوامر الحكومة وهي المنفذة، على انه يقيس وفاء الحكومة بما كتبه اليه الصدر الاعظم على وفائها العرب بالاتفاق الذي عقد مع رئيس المؤتمر العربي وما قررته في مجلس الوكلاء وصدرت به الادارة السلطانية من المطالب العربية

كان يجب على دولة الاتحاديين في هذا الوقت ان تتودد للعرب أكثر مما كانت تتودد اليهم بعد حرب البلقان، وان تتم بالفعل ما بدأ به أنور باشا من استمالة

امراء الجزيرة بالكتابة . وذلك بارسال السلاح والذخيرة والضباط من العرب اليهم لاجل ان يكونوا ذخرا لها اذا استظهر الروس عليها في الاناضول . فاذا كان مثل انكلترة وألمانية تحسب الحساب لوصول أعدائها الى بلادها وتعد الآلات والجيوش لاجل الدفاع عنها ، أفليس الترك أجدر بذلك وهم لولا الالمان لم يستطيعوا حربا في ميدان ما من ميادين هذه القتال ، وحسبهم انهم فقدوا بحرب البلقان كل ما كان عندهم من ذخيرة وسلاح ، وهل يوجد لهم ملجأ يلجئون اليه اذا غلبوا في بلادهم الا العرب وبلاد العرب، بل العرب وبلاد العرب هي الملجأ للاسلام. ولذلك جاء في الحديث الصحيح « اذا ذلت العرب ذل الاسلام » وأنى يبالي بالاسلام وعز الاسلام ، من يفترون في دار سلطنتهم امثال كتاب [قوم جديد] و [صوك كتاب] التي يفضلون فيها زعانفهم الغاوين، على الخلفاء الراشدين، وعلى من دونهم من الاولياء الكرام ، ومن فوقهم من الانبياء حتى خاتمهم عليهم الصلاة والسلام

وأما العرب الذين أوجد الله بهم الاسلام ، فانهم أجدر الناس بالغيرة على المسلمين ودار الاسلام ، ولولا ذلك لما سكتوا على الضيم كل هذا الزمان، ونخشى ان يكون قد زال ما كانوا يحذرون ، ويئسوا من كل خير كانوا يرجون ، فيبدو للمنافقين ما كانوا يحذرون ، كما نخشى ان تكون عاقبة ذلك لغيرهم وهم لا يشعرون

انما يحرص سواد المسلمين الاعظم على حياة هذه الدولة لانه يهم كل مسلم أن يكون للاسلام دولة مستقلة قوية وهي امثل دول المسلمين في ذلك، وان كانت لا تقوم بدعوة الاسلام ولا تحيي علومه ولا تحمي شعوبه ولا أفراده ممن يريد بهم سوءا . ولكن لا يرضي أحدا من المسلمين ان تجني على لغة القرآن ، وان تضطهد العرب وتذلهم وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام « اذا ذلت العرب ذل الاسلام» (رواه ابو يعلى من حديث جابر بسند صحيح) وهذا الحديث من معجزات النبي (ص) ظهرت في هذا الزمان ظهورا بينا، فان الدولة قد تعرضت لخطر الزوال وفقد الاستقلال غير مرة، وانما كان يقيها منه تنازع أوربة على اقتسامها ، فاذا زال التنازع بزوال التوازن عقب هذه الحرب زالت الدولة بزواله . وأكبر المصائب على الاسلام حينئذ ان تعد بلاد العرب تابعة لها، ومعدودة فيما يقسم بين الغالبين من تراثها اذ

يكون المسلمون حينئذ أدنى حالا من اليهود ، اذ يزول استقلالهم الديني والسياسي وهم في فقر مدقع لا يستطيعون معه عملا ، ولا توجد بقعة في الارض تمثل استقلال الاسلام غير بلاد العرب . ولولا جعل جزيرة العرب تحت سيادة الدولة العثمانية بعضها بالاسم وبعضها بالفعل لما تسنى لها ان تجعل نفسها دولة الخلافة ويعترف لها الناس والدول بذلك

فجملة القول أن مصلحة المسلمين عامة أن تكون بلاد العرب قوية بنفسها ، غير محتاجة الى قوة من خارجها لحمايتها ، (وقد بينا ذلك مرارا) ولاخطر في ذلك على الدولة اذا كان فيها من جرائيم الحياة ما يكفي لبقاء استقلالها ، وانما الخطر كل الخطر في إضعاف العرب وجعل بلاد العرب عالة على غيرها، وستظهر الايام صدق هذا الكلام ، ونسأله تعالى أن يكون بما فيه عز الاسلام .

(حاشية) كتبنا هذه المقالة لجزء الشهر الماضي فلم يتيسر نشرها فيه. ثم جاءنا روتر بنبأ اظهار أمير مكة الشريف حسين الاستقلال في الحجاز وسنفصل القول فيه في الجزء التالي لهذا ان شاء الله

حكم الصيام

وجناية تاركيه على أنفسهم وعلى المسلمين والاسلام

الصيام عبادة روحية جسدية، قد شرع لما فيه من المنافع الشخصية والاجتماعية، فهو يروّض الاجساد ، كما تعطش الزروع وتضمر الجياد ، فيفني الرطوبات والمواد الرواسب فيها ، التي تصلّب الشرايين وتعيق حركة الدم فيها ، ويعيد المعد المصابة بالتمدّد الى تقلصها وتغضنها ، حتى قال بعض الاطباء ان صيام شهر واحد (كرمضان) يصلح ما أفسده التمدد طول العام ، ويمرن المرء على احتمال الجوع والعطش بالاختيار، فيسهلان عليه اذا ألجأه اليهما الاضطرار، في سفر أو سجن أو مجاعة أو قتال ، ويشعر الاغنياء المترفين بحاجة الفقراء المعوزين ، ويساوي بينهم في هذه العبادة وآثارها كما يساوي بينهم في سائر شعائر الدين

وهو فوق ذلك المربي الاعظم للارادة ، وانما يتفاضل أعاظم الرجال بما في الارادة من قوة العزيمة ، فلولاها لما استسهل صعب ، ولا ثبت شجاع في حرب ، ولما أقدم المصلحون على تغيير المنكرات ، ولاسيما مقاومة الظلم والاستبداد ، ولما ثبت عامل على عمل حتى يتقنه ، ولما صبر ذو مصاب على مصابه حتي يأمن خطره ، ولما احتفظ أمين بالامانة ، الا بقدر ما يخاف في الدنيا من عقوبة الخيانة ، وناهيك بأمانة الاعراض ، والمحافظة على شرف النساء

وهو فوق ذلك مراقبة لله عز وجل ، وتقرب اليه بما يرضه من تزكية النفس ، وتوجه الى الكمال الاعلى ، والحياة الروحية الفضلى ، حياة النبيين والصديقين ، بل الملائكة المقربين

ان الصائم المسلم هو الذي يحكم سلطان الارادة بقانون الايمان على هوى النفس فيمنعها من التمتع بأعظم الشهوات شأنا عندها ، فينال منه الجوع والطعام بين يديه ، ويبرح به الظمأ والماء البارد أمام عينيه ، و يشتد شوقه الى ملامسة زوجه وهي منه على طرف الثمام وحبل الذراع ، فيعرض عن كل ذلك ويتركه بوازع الايمان ، ابتغاء لمرضاة الله تعالى وتحصيلا للفوائد التي شرع لها الصيام

ألم تر أن الذي يربي ارادته ويحكمها في أشد شهواته وأقواها مدة شهر كامل في كل عام على الاقل جدير بأن لا تنازعه نفسه أكل شيء من أموال الناس بالباطل ولا العبث بشيء من أعراضهم ؟ أو ليس الذى يقدر على ترك أعظم ضروريات الحياة مما أحل الله له وقرب منه متناوله يكون أقدر على ترك ما حرم الله عليه من جنسها ومما هو أدنى منها ، وأجدر بأن يغلب هوى النفس الذي يغريه بها؟ بلى! وإن من الامثال الاسلامية المشهورة في بعض الاقطار « ان الذي يزكي لا يسرق » وهذا أمر معقول كسابقه ، فان الذي يخرج المال من جيبه أو صندوقه طائعا مختارا ويؤتيه الفقراء والمساكين ويضعه في غير ذلك من المصارف الشرعية لوجه الله وابتغاء مرضاته بنفع عباده — جدير بأن لا يعصي الله تعالى بتكلف سرقة مال غيره وهو يعلم أن ذلك سبب لسخط الله تعالى ، ولو كان لا يبالي بسخط الله ولا برضوانه بل يؤثر عليه حب المال لحفظ ماله في صندوقه ولم يخرج زكاته فذلك أسهل من إحراز المال بالسرقة

علل الله تعالى فرض الصيام علينا ، بأنه هو الذي يعدنا و يؤهلنا للتقوى ، فقال (كُتبَ عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) وانما التقوى ملكة يقدر صاحبها بوازعها النفسي على اتقاء كل ما يدنس نفسه و يدسيها من ترك واجب ، أو اقتراف محظور ، ولذلك قالوا انها عبارة عن القيام بالواجبات وترك المحرمات ، وهذه الملكة كسائر الملكات ، تكتسب بالاعمال النفسية والبدنية التي يقوى بها سلطان الارادة على نزعات الاهواء كما سبق القول . وقد فطن لهذا بعض حكماء الغرب فقال في كتاب صنفه في (تربية الارادة) انه لا مربي للارادة كالصيام ، ولأجل هذا شرع في جميع الاديان

ان أحق الناس بتحصيل هذه الملكة و بسائر فوائد الصيام الروحية والاجتماعية والجسدية من جمعوا بين حُكم الله وحكمته فيه ورعوا ذلك حق رعايته ، فالاسلام علمٌ وتربية ، بنيا على أساس الحكمة والفلسفة ، وذلك نص قوله تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا و يزكيكم و يعلمكم الكتاب والحكمة و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) وقد يستفيد كثير من الناس حكمة العبادة ويجنون ثمرتها ، وان لم يتلقوا بالتعليم أن ذلك هو المصلحة التي شرعت لاجلها ، كما يستفيد بعض الناس من شيء يأكله أو يشربه ، فيكون من حيث لا يدري شفاء من مرض ألم به ، أولئك هم الذين أخلصوا دينهم لله فكان لهم من العلم بكل عبادة انها ترضي الله تعالى وان تركها يؤدي الى سخطه واستحقاق عذابه

ومن الناس من يؤدي العمل تقليدا ومجاراة لمن نشأ فيهم فيكون عادة له كسائر العادات الشخصية والاجتماعية ، لا ينوي به قربة ، ولا يشعر له بفائدة ، ولا يفكر في حكمة الشارع فيه ، فلا يكون لصيامه أثر كبير في عباداته ولا معاملاته ولا عاداته ، قد يصوم ولا يصلي ، وقد يصوم و يصلي وهو مصر على المعاصي ، فهو الذي يصدق على صيامه ما قاله بعض الاوربيين في تعريف الصيام ، من أنه عبارة عن تغيير مواعيد الطعام ، بجعلها في الليل بدلا من النهار ، وانما كان الصيام بجعله جنة ووقاية من جميع الآثام ، قال صلى الله عليه وسلم « الصيام جُنَّة فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فان شاتمه أحد أو قاتله فليقل اني صائم اني صائم » رواه

الشيخان في الصحيحين وأصحاب السنن الاربعة. والرفث صريح الكلام في الوقاع أو ما يتحدث به الزوجان في تلك الحال، والصخب الجلبة والصياح ، فاذا كان مثل هذا مما يمنع في الصيام، فما شأن اقتراف كبائر الآثام ؟ على أن مثل هذا الصائم خير من تارك الصيام ولاسيما المجاهر به ، فاذا كان مثله كمن يبني قصرا ويهدم مصرا ، فان مثل تاركي الصيام من امثاله الفساق كمثل من يهدمون القصور والامصار

***

يترك الصيام في هذه البلاد أناس كثيرون من طبقتين أو ثلاث طبقات ، تتفق وتختلف في بعض الاعمال والصفات : طبقة تحوت الغوغاء الارذلين ، وطبقة أسرى الشهوات المترفين، وطبقة أدعياء المدنية المقلدين، فأما أولئك التحوت السفهاء فانهم لايشعرون بقيمة لانفسهم يشاركون بهاسائر طبقات الامة في شعائرهم الدينية، دع ماهوأرقى من ذلك كالشعور بما يجب من شكر رب العالمين الرحمن الرحيم والتقرب اليه والاستعداد للرضوان الاكبر في دار الكرامة عنده ، وغاية ما ورثوه من تقاليد الاديان التي كان عليها آباؤهم الاولون والآخرون تعظيم بعض الموتى ذوي الاضرحة التي خذلت سنة الدين بتشريف بنائها ، وجعلها مساجد يصلى اليها ويطاف بها ، وبناء القباب عليها — واحتفالات الموالد التي هي أعياد ومواسم يحشر الناس اليها بجوار تلك القباب ، وزيارة الجماهير للمقابر في ليالي الاعياد وجمع رجب وأيام أخرى من السنة ، يرحل فيها الى القرافات النساء والرجال والاطفال ، مشاة حفاة وركبانا على الحمير والجمال ، وما في ذلك من المنكرات الكثيرة المعروفة

وأما هؤلاء المترفون (فمنهم) ملاحدة المهنجين الذين هم شر على هذه الامة من كل عدو لها (ومنهم) أسرى الشهوات الذين ليس لهم من قوة الارادة ما يقدرون به على مغالبة الهوى وعصيان داعي اللذة ، أو حبس النفس على عمل شاق ، وهم أشد الناس حاجة الى الصيام ، فان هذا الافراط في الترف يضعف البدن كما يضعف النفس . واذا كثر هؤلاء في أمة فقدت الاستعداد لدفع الاعداء عنها ، وللقيام بالاعمال المتعبة التي ترقي بها الامم والثبات عليها، وقضي عليها أن تكون مستعبدة لغيرها ، وأي عار على الفتى الجذع، أو الكهل والشيخ الذي لم يدركه الهرم، اكبر من عار

الاعتراف بعدم الطاقة على احتمال الجوع والعطش بضع عشرة ساعة يعدُّ له بعدها الشراب المبرد وألوان الطعام الفاخرة؟ أيها الجذع الناشيء، أيها الكهل القارح، أولى لك فأولى، وغير هذا كان بك أولى، كان أولى بك أيها الفتى أن تفخر بالتربية على صفات الرجولية، واعتياد القشف الاختياري في المعيشة، ومنه أن لا تسرف في النعيم المباح في ليالي رمضان، وأن تصوم من كل شهر عدة أيام، كان أولى بك أيها الكهل أن تكون قدوة صالحة لولدك وأولاد المسلمين، في المحافظة على شعائر الدين، وعلى الآداب والاعمال، التي يبلغون بها درجة الكمال، وأهمها ركوب الصعب، واكتساب ملكة الصبر، وتوطين النفس على مصارعة الحوادث، ومقارعة الكوارث، ألا وان الصيام جد الصيام أول مقدماتها، وأيسر وسائلها

وأما أدعياء المدنية المقلدون فهم الذين يفطرون جهرا ليقول فيهم غير المسلمين والمنافقون من المسلمين انهم « متمدنون » وهذه الطبقة أخسّ الطبقات فلا ينتحل لها عذر ولا يوجه اليها برهان .

عذر الملحد المارق عند نفسه في ترك الصيام أنه فقد الباعث الديني، ولم يترجح عنده باعث تهذيبي، وعذر المترف الشهواني عند نفسه، عجزه عن كبح جماح لذاته، لتحكم الهوى فيها، وضعف الوازع الديني عنها. والجهول السافل من نحوت الناس له عذر هذين الفريقين وعذر آخر وراءهما — وهو انه لا يخطر في باله ولا يصل علمه الى ما يعلمه كثير من أفرادهما من معنى كون الصيام ركنا للدين الذي ينسب اليه، وشعارا للامة التي هو منها، وان العاقل الذي يرى لنفسه قيمة في الوجود يرى شرفه بشرفهما، وذله بمهانتهما، وانه مطالب دينا وعقلا بحقوق لهما عليه، وان دين الامة من مقوّمات وجودها، فمن فاته الايمان الباعث على اقامة أركانه لاجل سعادة الآخرة، لم يسقط عنه احترام شعائره التي هي أقوى روابط الامة؟ فبهذا العلم يؤاخذ و يطالب كل من أوتي نصيبا منه، وترتفع المؤاخذة عمن كان نصيبه منه الجهل المطلق حتى ان نفسه لا تتوجه الى طلبه، ومنهم من يعتذر بأن الصيام يضره وان كانوا أصحاء الاجسام، بترك ما اعتادوا من النظام في مواعيد الطعام، والصواب ان ما يتوهمون من الضرر في ذلك هو عين النفع، لان التزام تلك العادات أضعف أبدانهم

وأنفسهم، حتى صار تغييرها يؤلمهم أو يضجرهم، وانما هذا الالم والضجر عرضان لمرض الترف، والصيام علاج له لا « مضاعفة »

اذا صح أن يكون في الالحاد عذر للملحد، وفي ضعف الارادة عذر للمترف، وفي تغيير العادة ايلام للمهفهف، فياليت شعري بم يعذر نفسه أو يعتذر عنها من يجاهر منهم بالفطر؟ المجاهرة بالذنب شر من ارتكاب الذنب، لان ارتكابه سرا يجعل ضرره قاصرا على من اقترفه، وأما المجاهرة به فضررها يتعدى المذنب الى غيره، لانه يكون قدوة سيئة لمن كان مستعدا لاقتراف ذلك الذنب تجرئه على اقترافه. ولان في الجهر به اذا كان من الشعائر الملية — كالصيام — احتقارا للملة والامة التي ينسب المفطر اليها، واضعافا لرابطة قوية من الروابط التي تمتاز بها الامة على غيرها

ها هنا يضحك القارئ من هؤلاء الملحدين، لا تضحكوا الا على أنفسكم بل ابكوا عليها ان كنتم تعقلون: يقولون ان الملحد ليس من أهل الملة ولا من أفراد الامة فيرمى بهذا اللوم ويطالب بالاعتذار عن عمل لا يراه واجبا عليه، وانه يعد الجهر بالافطار في رمضان من الشجاعة الادبية والاسرار به من الضعف والنفاق. ونقول: كيف يصدق هذا الكلام على ملاحدة بلادنا وكلهم منافقون يدعون الاسلام ويلتزمون من احكامه وشعائره وعادات أهله ما لا ينافي أهواءهم، ولا يعارض شهواتهم، كالاحكام والشعائر وكذا العادات المتعلقة بالزواج والموت والاعياد، ويخضعون لشريعته في أحكام الزواج والارث، فاذا ادعى أحد منهم الشجاعة المعنوية بهتك شعار الصيام، فقل له كذبت في دعواك، فان كنت شجاعا فصرح على رءوس الاشهاد بالردة عن الاسلام واترك كل ما هو اسلامي، ولا تتزوج نساء المسلمين ولا تأكل تراثهم، ولا تتولّ الاعمال والوظائف الخاصة بهم بدعوى أنك منهم. وأما اخفاء معصية الافطار فليست مع صحة العقيدة من النفاق، بل من اخفاء العيوب والعورات

قد يقول بعضهم ان الاسلام جنسية اجتماعية كجنسية اللغة وجنسية النسب، وان العقائد الدينية والعبادات البدنية من الشؤون الشخصية التي يجب ان يكون الناس أحرارا فيها، ولا ينبغي ان يتوقف عليها تحقق الجنسية بعد ان ينالها صاحبها بالوراثة أو بتسمية نفسه مسلما

ونحن نقول ان هذا الكلام مغالطة بديهية البطلان فان الاسلام في الحقيقة دين وهو جنسية لمن يدينون الله به ولو في الظاهر كاقامة أركانه من صلاة وصيام وزكاة وحج وتحليل حلاله وتحريم حرامه ، فهو من حيث هو دين لا تحقق له الا بصحة العقيدة وما يتبعها من الاعمال، ومن حيث هو جنسية يتحقق بالتزام شعائره وأحكامه الظاهرة الا ما يقع من الاخلال بها شذوذا كما كان المنافقون يعملون في الصدر الاول. فمن لا يؤمن بما جاء رسوله ولا يقيم شيئا من أركانه فلا حظ له من جنسيته ، فكيف اذا كان مع هذا مجاهرا بهدم هذه الاركان بلا خوف من الله ولا احترام لاهل هذه الجنسية .

على أن كل منتم الى جنس يجب عليه ان يعد جميع من يشاركونه فيها اخوانا له، وان يحترم كل ما يشترك فيه معهم من مقومات الجنسية ومشخصاتها، والا كان عاقا لها، مستحقا للطرد والابعاد عنها ، بدلا من مشاركة أهلها في منافعها الصورية والمعنوية، وهؤلاء المجاهرون بالفطر في رمضان لا يشعرون بمعنى الاخوة الاسلامية العامة ، ولا يقومون بشيء من حقوقها ، كما انهم لا يحترمون الشعائر والاعمال التي لا تعرف الجنسية الاسلامية الا بها .

الحق أقول : ان لبعض الذين يفطرون في رمضان عذرا طبيعيا، ولا يحمد عذر طبعي الا ان يكون شرعيا ، (كعذر المريض والمسافر والعاجز عن الصيام لهرم مثلا) ولكن لا عذر لاحد في الجهر بالافطار ، لانه احتقار للاسلام واهانة لاهله، لا تصدر اختيارا الا من عدو له ولهم ، أو ممن لا شعور له بمعنى الامة والملة وشرفهما كبعض الكناسين والزبالين — لا كلهم — وكم يوجد من أمثالهم في المتعلمين المتفرنجين الذين يظنون انهم ممتازون في الامة بارتقائهم في الشؤون الاجتماعية، وانهم يشعرون من ذلك بما لا يشعر به الجمهور ، وان الخير للامة ان تكون مثلهم في ترك أركان الدين وامتهان شعائره والاهتمام بالتمتع بالشهوات، وحسبهم شرفا وارتقاء ما يتوهمون من عد غير المسلمين لهم من « المتمدنين » أو « المتنورين » ! وياشقاء أمة يكثر فيها أمثال هؤلاء المفتونين ، فانها لا ترتقي بهم الا الى أسفل سافلين

حال المسلمين الاجتماعية

ومكانة الاغنياء وسائر الطبقات منها [1]

١

الانسان عالمَ اجتماعي لا يصل فرد من أفراده ولا شعب من شعوبه الى كماله المقدر له الا بالاعمال الاجتماعية التي يتعاون عليها أفراد العشيرة وأهل البلد والوطن وسائر الناس، وعلى قدر هذا التعاون يكون القرب من الكمال الاجتماعي والبعد عنه، فالامم بالافراد والافراد بالامم، فهنيئا للامة التي تتسنم بسعي أفرادها غارب العز والسيادة، وتتنسم ريح القوة والسعادة، و « ياويح الرجل الذي ليس أمة » [2] وما كل جمع كبير يستحق أن يسمى أمة، لولا سعة المجاز في الكلام، كقولنا في صور الناس وتماثيلهم هذا فلان وهذا فلان

المسلمون جمع كبير يطلق عليه اسم « الامة الاسلامية » بحسب صورته أو باعتبار ما كان عليه وان كان لا يقوم بالاعمال الاجتماعية التي تتحقق بها مقومات الامم ومشخصاتها ، وتحفظ بها مصالحها ومنافعها ، وللمنار مقالات كثيرة في بيان هذا الموضوع يطلب أقدمها عهدا من المجلد الاول منه. ومن أشهرها مقالة في المجلد التاسع عنوانها (حال المسلمين في العالمين ، ودعوة العلماء الى نصيحة السلاطين) كان لها تأثير في الشرق والغرب ، وترجمها بالتركية أحد فضلاء الآستانة وطبعها في رسالة مستقلة باللغتين

وقد نطلق على المسلمين اسم الامة باعتبار ما نرجو أن تؤول اليه حالهم، فباعتبار ان ذلك الاستعمال من مجاز الكون بينا غير مرة في تلك المقالات أن الاصلاح الاسلامي ينحصر في كلمة « تكوين الامة » اذ لا أمة في الحقيقة ، وباعتبار أن ذلك الاستعمال من مجاز الأول يتسع مجال الاطلاق . وكثيرا ما بنينا الكلام على تحقق الرجاء ، وصرحنا بأن الامة قد ولدت ولادة جديدة ، وأنها الآن في سن الطفولة ، وان ما تتصدى له من الاعمال الاجتماعية انما كان صغيرا وعرضة للفشل في الاكثر لانه من

(١) هذه المقالة الموعود بها (٢) هذه الكلمة لشيخنا الاستاذ الامام

قبيل أعمال الاطفال ، وقد شرحنا هذا الموضوع في مقالات نشرت في المجلد الثاني وغيره (* وذكرنا في المجلد الرابع أمثلة لطفولية الامة ، وقد حدث بعد ذلك ما هو أعظم منها ، وناهيك بسقوط جريدة اللواء العربية وأختيها الفرنسية والانكليزية ، وموت مصطفى كامل باشا مؤسسهن بأموال الامراء والاغنياء غارقا في الدين ، وبيع أثاثه وريشه بالمزاد ، ثم سقوط جريدة المؤيد وموت صاحبها غارقا في الدين أيضا ، ثم سقوط (الجريدة) وهي جريدة حزب كبير من الاغنياء

فهذه أكبر الجرائد التي أسسها المسلمون في مصر ، وكان لكل منها شركة وحزب ورأس مال مؤلف من ألوف الجنيهات وأنصار من أغنياء الامة وأصحاب الاقلام فيها ، وقد بينا وجه العبرة في شأن هذه الجرائد بعد موت الاولى وتبريح الداء بالأخريين في ترجمة الشيخ علي يوسف من المجلد السابع عشر (ص ٦٩)

وما لي لا أذكر وأذكر في هذا المقام بتلك الفاتحة الوجيزة للمنار التي كانت أول ما كتب منه ، ونحمد الله تعالى أنها كانت صورة مصغرة له ، قد ارتسمنا مارسمناه له فيها فلم نخرج عنه . وقد أشرنا فيها الى سوء حال المسلمين ورغبة سوادهم الاعظم عن ما نقصد اليه بانشاء المنار من الجد والاصلاح ، والى وجود أفراد تنبهت أنفسهم لاصلاح الخلل ، وتوجهت هممهم لمداواة العلل ، والى ان الغرض من انشاء المنار ان يكون لسان حال هؤلاء وحادي ركبهم في سبيل التجديد المطلوب . ثم ظهر لنا ان رجاءنا في هذه الفئة كان أكبر منها في نفسها

تيسر لنا بهذا المنار أن نختبر حال المسلمين اختبارًا لا يكاد يتيسر بوسيلة أخرى ، وقد كان هذا الاختبار الطويل والعلم التفصيلي مؤيدا لما كنا عليه قبلهما من الوقوف بين الخوف والرجاء ، وترجيح الامل على اليأس ترجيحا يبعث على الجهاد والثبات على العمل ، وهو ما صرحنا به في فاتحة المنار في العدد الاول للسنة الاولى

كان موضوع ذلك الامل الاول من أيقظتهم حوادث الزمن ، وأثرت في قلوبهم آثار حكيم مصر وحكيم الافغان ، ومن على مشربهما من دعاة الاصلاح ،

---

*) راجع مقالة (طفولية الامة وما فيها من الحيرة والغمة) في ص ٧٣٧ م ٢ ومقالة (الحيرة والغمة ومناشئهما في الامة) في ص ٧٥٣ م ٢

ثم زاد عدد هؤلاء المحبين للاصلاح بتأثير المنار ، ومنهم صاحب الرسالة التي نشرناها في آخر الجزء الماضي فاستتبعت كتابة هذا المقال، فهو قد اشترك في المنار منذ أنشئ وكان تلميذا في المدارس، وقد اشرب قلبه حب الاصلاح، فهو فيه على علم ووجدان واخلاص، ولكنه على علمه وسعة اختباره لما في هذه البلاد من الفسق وفساد الاخلاق، أقوى منا رجاء في مسلميها وفي غيرهم. واننا نخشى ان يضعف ويضمحل هذا الرجاء أو يزول ويحل محله اليأس اذا رأى أن رسالته لم تؤثر، ودعوته لقومه لم تجب، فأحببنا أن نذكره بما أشرنا اليه آنفا مما نشرنا في خوالي السنين ، ونؤيده بما في معناه من بيان حقيقة حال المسلمين ، لعله يذهب بغرور المبالغ في التفاءل ، ويمسك رمق الرجاء على المهوي الى اليأس ، وينفخ نسمة الرجاء في اليائس ، فنقول :

ان في المسلمين كثيرا من بقايا الفضائل الموروثة ، التي هي تعد من دلائل الحياة الاجتماعية ، وكثيرا من الرذائل والامراض الروحية الموروثة والحادثة التي هي سبب ما حل بدولهم وأممهم من الرزايا التي يئن منها كل من شعر بها بقدر شعوره ، وقد استيقظ في بعضهم هذا الشعور منذ مئة سنة أو أكثر، وتصدى بعض حكامهم وبعض أفرادهم الى إصلاح ما فسد ، وتجديد ما اخلولق وبناء ما انهدم ، كما بينا ذلك في فاتحة المجلد السابع عشر ، وانما لم يفلح أحد منهم لان الحكام القادرين على تنفيذ الاصلاح لا يعرفون طريقه ، والافراد الذين يعرفون كنه الاصلاح لا يقدرون على تنفيذه

إنما تنهض الامة بالاصلاح اذا وجد الاستعداد في الجمهور، ووجد الزعيم القادر على استخدام ذلك الاستعداد ، ويمكن بيان هذا الاستعداد العظيم بكلمة واحدة من اصطلاح كتاب الجرائد وغيرهم من المعاصرين وهي (التضحية) وما التضحية الا بذل الاموال والانفس في سبيل المصلحة العامة وهو ما يعبر عنه القرآن بكلمة الجهاد

ما قام أمر اجتماعي عظيم كالدين والدولة الا ببذل المال والنفس فمن لم يبذل في سبيل دينه أو دولته ووطنه ما يحتاجان اليه من مال أو نفس فلا دين له ولا دولة ولا وطن . ولذلك جعل الله تعالى هذا الجهاد آية الايمان بمثل قوله (٢٩ : ١٥ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل

الله أولئك هم الصادقون)

نحن لسنا بصدد إصلاح يحتاج فيه الى بذل النفس، والتعرض لإراقة الدم، وانما الاصلاح الذي أسس له المنار ثم مدرسة الدعوة والارشاد اصلاح علمي تهذيبي يقوم بالمال، وانما أنشأنا هذه المقالة لبيان حال من دعاهم ذلك المخلص الغيور في رسالته الى النهوض بمشروع الدعوة والارشاد ومساعدة المنار

الا وان الاغنياء أول من يخطر بالبال، في كل مقام يذكر فيه بذل المال، وان أكثر اغنياء بلادنا بل أمتنا كلها أغبياء سفهاء الأحلام، مسرفون في الفسق، بخلاء حتى بما وجب من الحق، أشحة على الخير، لايكاد يخرج المال من أيديهم الا على مائدة قمار، أو في حانة خمار، أو لبغي وقواد، أو رشوة لحاكم شرير، أو تزلفا الى سلطان او أمير أو مدير، فأكثر ما بذله أغنياؤنا في هذا العصر للجمعيات الخيرية أو المدارس أوجمعية الهلال الاحمر أو جمعية الصليب الاحمر فهو رياء، وتزلف للحكام والامراء، وهذا مما يعلمه الكاتب وغير الكاتب علما ضروريا أو كالضروري.

وأما غير الفساق المرائين من الاغنياء فهم كسائر الناس، والناس فيما نحن بصدده فريقان: فريق لايرجى منه خير للاسلام بل يخشى شره، وفريق قلما يرجى الخير من غيره. فأما الفريق الاول فثلاثة أصناف: ملاحدة المتفرنجين، ومنافقو المعممين، وتحوت الفقراء الجاهلين، الذين لايكادون يفقهون حديثا، ولا يعقلون للامة والملة معنى، وقدبينا في فاتحةهذه السنة من الجزء الاول ان من أولئك الملاحدة والمنافقين من تصدى لمقاومة مدرسة الدعوة والارشاد، بنفث سموم السعاية لمنع إعانة وزارة الاوقاف وغير الاوقاف، كما سعى أمثالهم وأقتالهم من قبل في الجمعية الخيرية الاسلامية، حتى زعموا أنها تمد مهدي السودان بالمال لقتال مصر والدولة البريطانية

وأما الفريق الثاني وهو الوسط في شؤونه العقلية أو النفسية، أوشؤونه الاجتماعية أو المعاشية. فيتألف من أصناف يقل فيها الغنى الموسع، كما يقل فيها الفقر المدقع، والاغنياء منه ثلاثة أصناف:

صنف تربى تربية اسلامية بحسب ما عليه جمهور المسلمين في القرون الاخيرة من مزج السنن بالبدع، والخرافات بالحقائق، فهم لا يفقهون من بذل المال في سبيل

البر الا بناء مسجد ولو في مكان تزيد فيه المساجد على حاجة المصلين ، (وإنما يكون هذا من الخير اذا لم يبن المسجد على قبر أحد من الصالحين، والا كان صاحبه ملعونا على لسان خاتم النبيين) — أو وقف أرض تنفق غلتها على تشييد القبور والبناء عليها أو حولها وما يكون من المواسم عندها في الاعياد وجمع رجب ، وكل ذلك من المعاصي وبدع الضلالة المنكرة التي لا يجوز الوقف عليها وان تضمنت إطعام بعض الفقراء الطعام المبتدع لاجلها ، فهذا الصنف قلما يرجى منه الآن فائدة للاعمال الاصلاحية كمشروع الدعوة والارشاد

وصنف آخر تربى أفراده على التفرنج ولكن لم يكونوا كجماهير المتفرنجين الذين لاحظ لهم من حياتهم الا تقليد الافرنج في عاداتهم الخاصة بالزينة والطعام والشراب والتمتع باللذة واللهو واللعب كتربية الكلاب والسير بها والركوب معها، بل أودع في نفوسهم الميل الى الاقتداء بهم في بذل المال للمنافع العامة، لا رياء للجمهور، ولا تزلفا لحاكم أو أمير، بل لان ذلك عندهم من اللذات النفسية، أو الشرف والكمال الانساني ، وبهذا ارتفعوا عن جمهور الاغنياء الاغبياء السفهاء ، ولعل هذه البلاد لا تخلو من افراد منهم ، ومن عساه يوجد منهم فقد يبذل المال للمساعدة على تعليم الموسيقى والتصوير أو الالعاب الرياضية ، وقلما يحفل بالإصلاح الديني العلمي الا ان كان له نزعة دينية أو تهذيبية ، وأنى لجماعة الدعوة والارشاد بالاهتداء الى مثل هذا واقناعه بأن مقصدها الاول من مدرستها بث المرشدين في انحاء البلاد لتعليم العوام ما يزجرهم عن المعاصي والمنكرات ، ويزكيهم من أدران البدع والخرافات ، حتى تستفيد المدرسة من مساعدته ؟

وصنف ثالث هم الوسط الصحيح وهم الذين أوتوا نصيبا من التربية الدينية والعلم الاسلامي الصحيح ، ونصيبا من حال هذا العصر وما يحتاج اليه المسلمون فيه من الاصلاح، والغنيّ في هذا الصنف أندر منه في سائر الاصناف ، والرجاء في مثله لمساعدة الدعوة والارشاد ، أقوى وأشد منه في سائر الناس ،الا أن يغلبه على دينه وعقله البخل الفاحش والشح المطاع، وايثار وعد الشيطان بالفقر على وعد الله بالمغفرة والاخلاف،واذا كان الصنفان المذكوران قبل هذا — وهما كالطرفين له - مما يصعب

اقناع افرادها بوجوب المساعدة على الاصلاح الديني العلمي فهذا الصنف لايحتاج الى اقناع ، ولا يخفى عليه وجود ما يوجد منه في البلاد ،

ومن اغنياء هـذا الصنف من غلب عليهم الترف ودب الى دينهم الوهن ، فضعفت غيرتهم على اسلامهم الديني ، دون اسلامهم الاجتماعي والسياسي. فهم يودون اصلاح حال المسلمين، و يعتقدون أن ذلك لايرجى الامن طريق الدين، وإنما يودون أن ينهض بالاصلاح غيرهم ، ولا تسمو بهم الهمة الى المساعدة عليـه باموالهم ولا بانفسهم .

تلك أصناف الاغنياء، الذين يصح أن يتعلق بهم الرجاء ، بما في أنفسهم من هدي الدين أوعلو الهمة ، أو العناية بامر الامة، وقد علم أن من يوجد في هـذه البلاد منهم قليل، وان الرجاء في هذا القليل ضعيف .

فلم يبق من فريق المعتدلين الذين يرجى رفدهم الا المستورون الذين لايقدرون على مساعدة الاصلاح الابما يوفرون من كسبهم بالاقتصاد في النفقة الملائقة بامثالهم، كصاحب الرسالة التي دعتنا الى كتابة هذا المقال ، ولا غناء في مساعدة هذا الصنف الا اذا كثر أفراد الباذلين منه ، وفاقا للقاعدة المقررة : [القليل من الكثير كثير] وما أظن أن الظفر بهذا الكثير عندنا ميسور ،

فعلم مما شرحناه أن من يرجى منهم بذل شيء من فضول أموالهم في سبيـل الاصلاح الديني والاجتماعي قليلون، وان ما يرجى بذله من هؤلاء القليلين في بلادنا قليل لاغناء فيه، لان اكثر الانفس أحضرت الشح، واستحوذ عليها الصغار والذل، وكذبت وعد الله بالاخلاف على المنفق ، وصدقت وعد الشيطان له بالفقر. ثم إن بذل المال الكثير في هذه السبيل انما يصدر عن عرفان ووجدان — عرفان بالمصلحة فيه وشدة الحاجـة اليها ، ووجدان ايمان راسخ تنال به سعادة الدنيا والآخرة ، أووجـدان شرف باذخ تنال به سـعادة الاولى فقط ، على ان باعث الشرف وباعث الايمان ، قد يتلاقيان و يتصافحان، وانني أوضح هذا المقام بأمثال، أشير بها الى أعظم من رجوت هنا من الرجال

كان أرجى أغنياء مصر عندي لمشروع الدعوة والارشاد ثلاثة أصرح باسم

واحد منهم وهو رياض باشا تغمده الله برحمته، ذلك الرجل الذي انفرد في كبراء مصر وأغنيائها بأنه لم يكن يخيب فيه رجاء، ولا يفوته مساعدة عمل من أعمال الخير، ولو عرف كنه مشروع الدعوة والارشاد لما اكتفى بالتبرع له بمئة جنيه، وانما عرف منه انه مدرسة خيرية ؛ فنفحه بمثل ما نفح به مدرسة محمد علي الصناعية ، وهي المدرسة التي تولى رياسة جمع الاعانات لها ، على ان الخديو وارث ملك محمد علي التي أنشئت المدرسة احياء لاسمه وتذكارًا لمرور مئة سنة على ملكه لم ينفحها بأكثر من ذلك . فهذا عذر رياض باشا في عدم صدق رجائي كله في مساعدته لهذا العمل

وأما اللذان لا أصرح باسمهما فقد كان رجاؤنا في أحدهما اكبر من رجائنا في رياض باشا، وهو أوسع منه ثروة، وفهم من كنه المشروع ما لم يفهمه ، بل قال فيه كلامًا يؤثر ويدوّن له، (منه) انه طالما فكر فيه ، وتعجب من احجام المسلمين عن القيام به الى اليوم ، وانه يود لو يكون عضوا عاملا فيه ، وانما يمنعه من وضع يده في أيدي أعضاء ادارته عدم ثقته بثباتهم، اللهم الا واحدًا منهم ، وعلل ذلك بأن أهل بلادنا هذه يقولون ولا يفعلون، و يبدؤن بالاعمال ولا يثبتون، (ومنه) أن هذا العمل سيلقى صعوبات، وتوضع في طريقه العقبات . وانه لا يقول هذا تثبيطا (أي) بل تنبيها ، ولا تنصلا من المساعدة فانه سيساعد بالمال ، ثم انه اكد هذا الوعد غير مرة لنا ، وذكره لغيرنا، وقد كان آخر عهدنا بالسعي لاستنجازه شهر رجب الماضي

وأما الثالث فهو غني معروف بالعلم والفضل والتدين، وقد كان منَّانا أحد أصدقائه بأنه سيتبرع للمدرسة بمئة جنيه غير ما يفرضه على نفسه من الاشتراك السنوي ، وذكر لنا صديق آخر له عزمه على المساعدة من غير تحديد. وقد بلغنا ان ما يجب عليه من زكاة النقد كل سنة أضعاف ما يملكه صاحب الرسالة التي نتكلم في موضوعها، وقد ذكرناه في هذا العام بشدة حاجة المدرسة الى ما تنتظر من مساعدته لانقطاع اعانة الاوقاف عنها ، ونفاد ماقد جمع لها ، فاعتذر بما يعتذر به أكثر الناس في هذا العهد ، وهو العسرة التي جاءت بها هذه الحرب

فاذا كان وعد أرجى من نرجو من أغنى أغنيائنا ، واشتراك من يشترك في مثل هذا المشروع من أفضل فضلائنا، لا يوثق بهما ولا يتكل عليهما في استئجار دار

لمدرسة خيرية ، فهل يظن (م . ن) صاحب تلك الرسالة أن ماجاء به من النصيحة والتذكير يبسطان الايدي المغلولة ، وينبهان[1] الانفس المفسولة[2] ، فتتدفق الدنانير على مدرسة الدعوة والارشاد اليوم كما تدفقت على جمعية الصليب الاحمر بالامس ، وعلى جمعية الهلال الاحمر من قبل ؟ ان كان يظن ذلك فما نحن بظانين ؛ ولا نحن من فضل الله وحياة المسلمين بيائسين . ولكننا بعد طول الاختبار لانغتر بوعد واعد ، ولا بثبات متبرع ولاواهب ، وإن كان هذا أو ذاك ، ممن اشتهروا بالسخاء ، فان أكثر أصحاب هذه المظاهر ، مصداق لقول الشاعر

يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما لكنها خطرات من وساوسه

كلا انه لا يرجى في هذا القطر جمع مال كثير بالتبرع يكون رأس مال لمدرسة كمدرستنا أو مدرسة دونها الا بنفوذ الامراء والحكام ، وقد كان بعض هذا ممكنا لنا من قبل ولم نطرق بابه ، وأما اليوم فلا يرجى كله ولا بعضه ، فأما سبب بذل المال تقربا الى الامراء والحكام فمعروف ؛ وأما إمساكه عن المصالح العامة فسببه ضعف الايمان ، وضعف وجدان الشرف وحب الكمال . والحرمان مما يولدان من المقاصد العالية والآمال العظيمة ، وليس في تربية الامة ما يحيي ذلك في نابتتها

هذا واننا بعد هذا البيان نقول لصاحب تلك الرسالة وغيره من أهل الغيرة ان هذا المشروع لا يرجى أن ينفذ بحسب نظامه المعروف الا اذا نجحنا فيما سعينا اليه في الآستانة ثم في مصر من تقرير اعانة له كبيرة ثابتة من وزارة الاوقاف فبهذا يستقر ويوثق بثباته واستمراره ويشتهر نفعه في الامصار والاقطار ، ويرجى بعد ذلك أن يتبرع له ويقف عليه العقار والاراضي كثير من أهل الخير ، ولا سيما بعد أن يتخرج في مدرسته من يحسنون القيام بما فرضه الله تعالى على المسلمين بقوله : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) فاذا ظفرنا باعانة ثابتة من وزارة الاوقاف فذاك ، والا جعلنا المدرسة خارجية ، وأنفقنا عليها مما آتانا الله من كسب ومساعدة أهل المروءة والاخلاص مهتدين بقوله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدِر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لايكلف الله نفسا الا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا)

١) للتنبيه هنا معنيان أحدهما جعل الخامل نبيه الشان وثانيهما ايقاظ النائم
٢) المفسول الضعيف الخامل الذي لامروءة له

السنة وصحتها والشريعة ومتانتها

رد على دعاة النصرانية بمصر



﴿ تتمة واستدراك — استنكار المتأخرين لبعض متون أبي هريرة ﴾

قد علم مما تقدم أن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه راوية ثقة عدل وانه من نوابغ البشر في الحفظ والضبط لما يحفظ وقوة الذُّكر (الذاكرة) وعلم أيضا أنه انفرد بأحاديث كثيرة كان بعضها موضع الانكار أو مظنته لغرابة موضوعها كأحاديث الفتن وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم ببعض المغيبات التي تقع بعده؛ ويزاد على ذلك أن بعض تلك المتون غريب في نفسه، ولو انفرد بمثله غير صحابي لعدّ من العلل التي يتثبت بها في روايته، كما هو المعهود عند نقاد الحديث أهل الجرح والتعديل، ولذلك نرى الناس ما زالوا يتكلمون في بعض روايات أبي هريرة كما رأى القراء في [دروس سنن الكائنات] للدكتور محمد توفيق صدقي، وأول كلمة طرقت سمعي في ذلك كانت من تلميذ مسلم في مدرسة غير اسلامية ببلاد الشام، وكان ذلك في أوائل العهد بطلبي للعلم. ومن عرف ترجمة أبي هريرة معرفة تامة يجزم بعدالته وبراءته من الكذب على أحد من الناس، بله الكذب على رسول الله (ص) الذي روى هو وغيره عنه انه قال «من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» وقد صرحوا بأن هذا الحديث متواتر

ولعل قراء المنار يتذكرون ما علقته على كلام محمد توفيق صدقي في حديث الذباب - وتطرقه فيه الى الارتياب في رواية أبي هريرة — اذ بينت بالايجاز انه لا مجال للطعن في أبي هريرة نفسه وأن حديث الذباب وأمثاله مما يستبعد أن يكون مسموعا من النبي (ص) لا يظهر علة نقلها عن أبي هريرة الااذا أحصيت تلك

الروايات ولا سيما ما انفرد به ابو هريرة منها ، ودُقق النظر في أسانيدها ومتونها ، وما يمكن طروءه من الاحتمالات فيها ، وامهات هذه الاحتمالات أربعة :

(أحدها) أن يكون في رجال السند الى أبي هريرة من هو مجروح وان صُحح

(ثانيها) أن يكون ذلك الحديث أو الأثر مرويا عنه بالمعنى وقد وقع الغلط من أحد الرواة في فهمه فنقله كما فهمه

(ثالثها) أن يكون ما روي حديثا رأيا لأبي هريرة أوغيره ممن روى عنه وعده بعض الرواة حديثا لاجتهاده بأن مثله لا يقال بالرأي ، فما قاله العلماء من أن قول الصحابي اذا كان لا يقال مثله بالرأي له حكم المرفوع الى النبي (ص) لا يصح على إطلاقه ، والناس يتفاوتون في فهم ذلك، فما يعده بعضهم منه لا يعده الآخر منه ،

(رابعها) ان يكون رواه عن أهل الكتاب بالسماع ممن أسلم منهم ككعب الاحبار أو رآه في كتبهم وهو مما لا مجال للرأي فيه فيعده من قبيل المرفوع من يأخذ ذلك القول قاعدة عامة ، وقد ثبت ان أبا هريرة روى عن كعب الاحبار وأن معاوية قال في كعب الاحبار انهم كانوا يبلون (أي يختبرون) عليه الكذب، وقد تقدم ذلك في هذا المقال نقلا عن البخاري ، وانني كنت أسيء الظن في روايات كعب الاحبار قبل أن أرى ماورواه البخاري عن معاوية فيه، وكذا وهب بن منبه.

ثم انني بعد كتابة ما تقدم وقبل طبعه رأيت في تفسير سورة النمل من تفسير الحافظ ابن كثير بعد ذكر عدة روايات عن الصحابة في قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام ما نصه :

« والاقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى فيما نقلاه الى هذه الامة من أخبار بني اسرائيل من الاوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة » اه

فجملة القول في هذه الاحاديث المشكلة اذا كانت مرفوعة الى النبي (ص) أو موقوفة على أحد رواة الصحابة (رض) أبي هريرة أو غيره ان يدقق النظر في أسانيدها أولا فاذا كان في الاحتجاج ببعض رجالها مقال كفينا أمرها وكذا اذا

كان فيها انقطاع أو ارسال، والا نظرنا في غير ذلك من الوجوه التي يكون بها المخرج كغلط الرواة بسبب النقل بالمعنى أو غيره من الاسباب ، وأدهى الدواهي أن يكون الحديث مأخوذاً عن بعض أهل الكتاب بالقبول ولم يعز اليه ، ولا يغرنك قولهم ان مراسيل الصحابة حجة وان الموقوف الذي لامجال للرأي فيه له حكم المرفوع ، فاذا ثبت ان أبا هريرة مثلا كان يروي عن كعب الاحبار وأن الكثير من أحاديثه مراسيل فالواجب أن يتروّى في كل غريب لم يصرح فيه بالسماع من النبي (ص) فاذا كان من الاسرائيليات أو ما في معناها احتمل ان يكون قد رواه عن كعب وكان هذا الاحتمال علة مانعة من ترجيح اسناد كلام الى النبي (ص) يوقع في الاشكال .

لا يتسع هذا الموضع لتحرير هذا البحث بالتفصيل ولكننا نذكر أهل العلم بحديث يرون فيه اكبر عبرة في هذا المقام وهو حديث الجساسة الذي حدّث به تميم الداري رسول الله (ص) واخرجه مسلم في صحيحه مرفوعا من طرق يخالف بعضها بعضا في متنه ، فهذا الخلاف في المتن علته من بعض رواة الصحيح، ولا يظهر حمله على تعدد القصة ، ثم ان رواية الرسول (ص) له عن تميم الداري إن سلم سندها من العلل هل تجعل الحديث ملحقا بما حدث به النبي (ص) من تلقاء نفسه فيجزم بصدق اصله ، قياسا على اجازته (ص) اوتقريره للعمل اذيدل حله وجوازه؟ الظاهر لنا ان هذا القياس لا محل له هنا ، والنبي (ص) ما كان يعلم الغيب فهو كسائر البشر يحمل كلام الناس على الصدق اذا لم تحف به شبهة، وكثيرا ما صدق المنافقين والكفار في احاديثهم، وحديث العرنيين واصحاب بئر معونة مما يدل على ذلك ، وانما كان يعرف كذب بعض الكاذبين بالوحي او ببعض طرق الاختبار او اخبار الثقات ونحو ذلك من طرق العلم البشري، وانما يمتاز الانبياء على غيرهم بالوحي، والعصمة من الكذب وما كان الوحي ينزل الا في امر الدين ومايتعلق بدعوته وحفظه وحفظ من جاء به، وتصديق الكاذب ليس كذباً . وحسبك ان تتأمل في هذا الباب عتاب الله لرسوله إذ أذن لبعض المعتذرين من المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك وما علله به، وهو قوله (عفا الله عنك لِمَ اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلمَ الكاذبين)

واذا جاز على الانبياء المرسلين ان يصدقوا الكاذب فيما لا يخل بأمر الدين ولا

يترتب عليه حكم شرعي ولا شيء ينافي منصب الرسالة ، افلا يجوز على من دونهم ان يصدقوا الكاذب في اي خبر لا تقوم القرينة على كذبه فيه ؟ ومن صدق شيئا يجوز أن يحدث به من غير عزو الى من سمعه منه . ولكن هذا كان قليلا في الصدر الاول من الاسلام، فقد ظل المسلمون عدة قرون ينقلون كل شيء بالرواية وإن كان بيت شعر او كلمة مجنون

﴿ تنبيه مهم ﴾

ان الاحاديث المشكلة الصحيحة الاسناد قليلة فما رواه ابو هريرة منها قليل من قليل، وما انفرد به منه اقل ذلك القليل ، ولا يتوقف على شيء منها اثبات اصل من اصول الدين ، والحمد لله رب العالمين

﴿ الجملة الخامسة الخاتمة لكلام الطاعن ﴾

﴿ استنتاجه من جملة دعاويه أن الشريعة لاقيمة لها في نفسها ولا في روايتها ﴾

قال بعد سرد ما تقدم عن الشبهات على رواية ابي هريرة ما نصه :

هذا هو الرجل الذي وضع مع ابن عباس اساس الشريعة . ولكن ما هي قيمتها ؟ ان السؤال مهم جدا، ويطلب الجواب عليه من الثلاث مئة مليون سني الموجودين في العالم . اه بحروفه

اشتملت هذه الخاتمة على دعوى باطلة ، واستفهام إنكاري تهكمي ، ووجه هذا السؤال فيها الى ثلاث مئة مليون سني (١) أي الى كل فرد من أفراد أهل السنة الذين يسكنون في جميع الاقطار ، ويتكلمون بعشرات من اللغات ، ولماذا ؟ لان السؤال مهم جدا في نظر القسيس المبشر المتصدي هو وجمعيته لتنصير كل هؤلاء المسلمين بعد عجزهم عن هذا السؤال المهم جداً !! بخ بخ

الجواب عن الدعوى

هذه الدعوى ظاهرة البطلان عند المسلمين وعند من له أدنى إلمام بشريعتهم

(١) قد اشتهر منذ عشرات من السنين ان المسلمين ثلاث مئة مليون وأول أوربي اشتهر عنه هذا القول عاهل ألمانية غليوم الثاني ، والظاهر ان أهل السنة وحدهم صاروا يبلغون هذا العدد كما قالت مجلة الشرق والغرب ، وثم عشرات الملايين من الشيعة وغيرهم

وتاريخهم من النصارى وغيرهم ، سواء أراد بأساس الشريعة أصول أدلتها التي تستنبط منها - وهو الاقرب - أو أصول مقاصدها وهي العقائد والاحكام والآداب ، ونستغني عن بيان ذلك بما قلناه في مسألة أركان الشريعة الذي فندنا به القضية الثالثة من قضايا الجملة الاولى من مقاله (راجع ص ٢٨ ج ١) ثم نقول :

إن أبا هريرة وابن عباس ما وضعا أساس الشريعة ولا أركانها ، ولا أصولها ولا فروعها ، وانما رويا لنا كغيرهما من الصحابة الكرام الكثير الطيب من سنة الرسول ، وهي ثابتة الاسس والاصول

وقد بينا أن البخاري خرج لأبي هريرة ٤٤٦ حديثا في صحيحه ، ونقول هنا انه خرج فيه لابن عباس ٢١٧ حديثا . وهذا القدر من روايتهما للاصول الموصولة من الاحاديث لم ينفردا به وانما شاركهما في رواية الكثير منه غيرهما ، ولو أحصينا ما انفرد بروايته أبو هريرة وحده من أحاديث الاحكام الشرعية لرأيناه قليلا جدا ، وعلمنا انه لو لم يروه لما نقصت كتب الاحكام شيئا كثيرا ، وان ما عسى أن تنقصه يمكن أن يعرف حكمه من قواعد الشريعة الثابتة وأصولها القطعية ، كقاعدة رفع الحرج والعسر ، واثبات اليسر وترجيحه ، وقاعدة كون الاصل براءة الذمة ، وكون الاصل في كل الخبائث والمضرات الحرمة ، وفي كل الطيبات الحل ، وكون الضرورات تبيح المحظورات ، وغير ذلك مما لا مجال لتفصيله في هذا الرد

﴿ قيمة الشريعة الاسلامية ﴾

الجواب عن الاستفهام التهكمي

لا أرى شبها لسؤال القس الطاعن عن قيمة الشريعة الاسلامية الا السؤال عن الشمس ما فائدتها للدنيا ؟ وعن العافيــة ما فائدتها للناس ؟ وعن الماء والهواء ما فائدتهما للنبات والحيوان ؟ سواء كان السؤال سؤال انكار وتهكم أو سؤال استفهام ، وإننا نجيب عن هذا السؤال بجواب مجمل وجيز ، لان التفصيل لا يأتي الا بتصنيف كتاب كبير ، فنقول :

(١) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي ثبتت نبوة من جاء بها

بالبرهان العقلي العلمي الثابت الدائم ، وملخصه أنه رجل أمي نشأ بين قوم أميين بلغ الكهولة ولم يقرأ كتابا ، ولم يكتب سطرا ولا حرفا ، ولا قال شعرا ولا ارتجل خطبة ، ولا رأس قبيلة ولا ساس قرية ، ولا انتحل كهانة ولا عرافة ، ولا عرف شيئا من شرائع الامم واديانها - ثم قام في سن الكهولة بدعوى النبوة ، وأيد دعواه بكتاب اشتمل على اخبار الغيب الماضية والمستقبلة ، وسنن الله في الدين والمدنية ، وعلى أصح علوم العقائد الالهية ، المؤيدة بالبراهين العقلية والعلمية ، وأصلح علوم الاخلاق والفضائل النفسية ، والعبادات الجامعة بين المنافع الروحية والجسدية ، وأعدل قواعد الشرائع السياسية والمدنية الخ ثم انه اجتث بهداية هذا الكتاب جراثيم الوثنية ، وطهر الامم من الخرافات التقليدية واخلاق الجاهلية ، فكان للناس بذلك دين كامل وشريعة عادلة وأمة مؤلفة من جميع الشعوب والقبائل ، ودولة احيت الحضارة وامتدت من المشرق الى المغرب في جيل واحد

فكان مثل محمد النبي الامي صلى الله عليه وسلم كمثل رجل جاء بلدا مصابا بالاوبئة المجتاحة والامراض المعضلة ، وادعى انه طبيب وايد دعواه بكتاب في الطب والعلاج طهر به ذلك البلد كلها من الامراض والاوبئة ، فأصبح أهله متمتعين بكمال الصحة والعافية

فكما يجزم كل عاقل بأنه يستحيل على غير الكامل في علم الطب أن يؤلف كتابا في الطب يزيل بالعمل به الاوبئة ويشفي المرضى -- كذلك يستحيل بالاولى أن يقدر رجل أمي على الاتيان بأخبار الغيب وعلوم الدين والشرائع والآداب فيصلح بها أديان أمم كثيرة وآدابها وأخلاقها وأحكامها وسياستها ، الا أن يكون نبيا مؤيدا بوحي الله وعنايته العليا ، بل يستحيل صدور مثل هذه العلوم والأعمال من واحد أو من جماعة تعلموا جميع علوم البشر وعلوم الأديان في أعلى مدارس هذا العصر الجامعة . دع إعجاز القرآن ببلاغته وأسلوبه وسائر معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة الجامعة بين هداية الدين الالهي الحق ، وبين ثمرات عقول العلماء المجتهدين ، الواقفين على مصالح البشر وما يقوم به العدل بينهم ، وما سواها فاما ديني محض لا مجال فيه لعقل ولا راي ، واما

وضعي ناقص لا يحترم في السر كما يحترم في الجهر

(٣) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي تواتر كتابها تواترا حقيقيا ، ورويت سنتها رواية متصلة الاسناد ، ودُوّن تاريخ رواتها تدوينا مبنيا على ركني النقد والتمحيص ، الذي يميز به بين الصحيح وغير الصحيح ،

(٤) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي حررت البشر وأعتقتهم من رق رؤساء الدين ، الذي أرهق الغابرين ، فلم تجعل لأحد سيطرة روحية على أحد ، فليس فيها كهنة ولا قسيسون يمتازون بمناصبهم الدينية على غيرهم ، أو تتوقف اقامة شيء من أمر الدين عليهم ، وانما خوطب البشر بها على سواء ، فهم يتفاضلون فيها بعلومهم وأعمالهم الكسبية ، لا بمناصبهم الموروثة ولا أنسابهم الشريفة ،

(٥) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي أعتقت البشر من رق الملوك المستبدين الذين انتحلوا لانفسهم حق الحكم بمحض الهوى والارادة ، وحق وضع الشرائع والقوانين بالذات أو بالنيابة ، وحق الامتياز في الحقوق الشرعية على غيرهم من أفراد الامة ، فجعلت أمر الامة شورى بين أهل الحل والعقد ، من أهل العلم والرأي ، الذين يولون عليها من يرونه أصلح لتنفيذ شريعتها ، ولم تجعل للخلفاء أو السلاطين ، امتيازا على أحد من الفقراء والصعاليك ، لا في حكم من الاحكام المدنية ، ولا في عقوبة من العقوبات الجزائية ، وقد وافقتها بعض الامم في بعض هذه الاصول أو اقتبستها منها ، بعد أن ترك المتغلبون على المسلمين اقامتها ، ولكن لم يبلغ احد شأوها الى هذا اليوم ، وإنما صار بعضهم أقرب اليها ، ممن يسمون أنفسهم أهلها .

(٦) هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي ساوت بين اهلها المؤمنين بها ، وبين الكافرين بها اذا تحاكموا اليها ، سواء كانوا من اهل ذمتها ، او من الاجانب المعاهدين لحكومتها ، او الحربيين الداخلين في امان احد من اهلها ، فلا فرق في احكامها القضائية بين أبناء الرسول وامراء المؤمنين ، وبين أضعف أهل الكتاب أو الوثنيين ، ونحن نرى أرقى الافرنج وأشهرهم بالعدل يميزون أنفسهم على غيرهم ، فلا يرون المصري والهندي مساويا للانكليزي ، ولا الاسيوي مساويا للامريكي

(٧) ان هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي رفعت شأن النساء وأعطتهن

حقوق الاستقلال التام في التصرف بأموالهن ، وساوت بينهن وبين أزواجهن في جميع الحقوق بالمعروف، الا رياسة المنزل وزعامة الاسرة ، وان كلمة وجيزة من كلمات القرآن الحكيم في ذلك لأبلغ من كثير من الاسفار التي ألفت في المطالبة بحقوق النساء أو ما يسمونه تحرير المرأة ، الا وهي قوله عز وجل

﴿ وَلَهُنَّ مثلُ الَّذي عليهنّ بالمعرُوفِ وللرّجال عليهنّ دَرَجةٌ ﴾

وهذه الدرجة التي أعطيت للرجل بحق—وهي رياسة البيت— لِانه أقدر على الكسب والحماية ، والمطالب بجميع النفقة ، تشبه الرياسة العامة فيما شرع فيها من الشورى كما يدل عليه قوله عز وجل في مسألة ارضاع الولد وفطامه (فإن أرادَا فِصالاً عَن تراضٍ منهما وتشاوُرٍ فلا جناح عليهما) وقد اهتدى كثير من الامم ببعض هدي هذه الشريعة في هذه المزية ولم يبلغ أحد منها شأوها ، ولكن أهلها قصروا في إقامتها ، حتى صاروا حجة عليها عند من يجهلها

(٨) هذه الشريعة هي الشريعة الوحيدة التي وضعت للحرب نظاما حرم فيه العدوان والتمثيل والتخريب . وقتل من لا يقاتل من النساء والشيوخ والاطفال والمنقطعين للعبادة. فجعلتها ضرورة تتقدر بقدرها، وأمرت بالجنوح للسلم أن جنح العدوّ لها ، وقد بين المنار فضلها في ذلك على قوانين أوربة وفضل أهلها في حروبهم على الاوربيين في مقالة نشرت في مجلد السنة الماضية. وقد انصفنا أحد حكماء الافرنج بقوله « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب »

فأين منها شريعة التوراة التي بين أيدي اليهود والنصارى وهي التي أوجبت في الفصل العشرين من سفر تثنية الاشتراع استعباد جميع أفراد الشعب المسالم الذي يختار الصلح على الحرب ، وقتل جميع ذكور الشعب الذي يحارب عند الظفر به وجعل جميع نسائه وأطفاله وما يملكه غنائم — هذا اذا كان من المدن البعيدة جدا عن شعب التوراة التي لا يسهل عليه سكناها؛ وأما الشعوب القريبة التي يسهل عليه امتلاك بلادهم فهذا نصها فيهم « ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيبك فلا تستبق منها نسمة مّا »

(٩) هذه هي الشريعة الوحيدة التي فرضت على الاغنياء نصيبا معلوما مما يزيد من أموالهم عن نفقاتهم يصرف لإعانة الفقراء والمساكين العاجزين عن كسب يكفيهم ، ولمساعدة الغارمين على ما يحملون من الغرامات للاصلاح بين الناس ، ولابناء السبيل الذين يسيحون في الارض فتنفد نفقاتهم قبل عودتهم الى أوطانهم ، ولغير ذلك من المصالح العامة ، ولو أقام المسلمون في هذا العصر هذا الركن كما كان يقيمه سلفهم الصالح لما وجد فيهم فقير مهين ، ولكانت حالهم الاجتماعية أفضل من حال أرقى الأمم ، ولكان السائحون منهم لاكتشاف مجاهل الارض وخرت بقاعها والاعتبار بأحوال الامم فيها أكثر من سائحي غيرهم من الامم ، اذ حثهم الله في كتابه العزيز على السياحة النافعة بمثل قوله في سورة الحج (أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) وقوله في سورة المؤمن (أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) وقوله في سورة آل عمران (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا) الخ

(١٠) ان هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع الالهية ، وحكمة ذلك أن الله تعالى قد أكمل بها الدين الحق ، فجعلها جامعة بين مصالح الروح والجسد ، ومنح الامة حق الاجتهاد واستنباط الاحكام ، بما وهب لها من فضيلة الاستقلال ، بعد ان أعدها لذلك بسنة الارتقاء ، وبهذين كانت موافقة لمصالح البشر في كل زمان ومكان ، خلافا لما يجنيه عليها الصديق الجاهل ، وما يتجناه عليها العدو العاقل ، وقد بيناهذه المسألة في التفسير وفتاوى المنار ومقالاته مرارا ، كمقالات المصلح والمقلد ، والفتاوى البارزية ، وتفسير (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) وتفسير (اليوم أكملت لكم دينكم) وتفسير (لاتسألوا عن أشياء ان تُبْدَ لكم تسؤكم) وطالما فندنا شبهات المنكرين لذلك

فهذه بعض مميزات هذه الشريعة التي يعرف قيمتها المنصفون من غير أهلها . فان أمكن لهذا المجادل فيها أن يشكك أهلها فيها بما زعمه من ارتياب بعض الناس في رواية أبي هريرة رضي الله عنه أو بغير ذلك من الدعاوي (ولن يمكن) فلايجني من ذلك الا انصراف ثلاث مئة مليون سني ربما يتبعهم زهاء ثلاثين مليونا من الشيعة

وسائر الطوائف الاسلامية عن الايمان بأن المسيح عليه السلام رسول الله المعصوم وكلمته التي ألقاها الى مريم الطاهرة البتول، الى مثل اعتقاد ملاحدة الاوربيين من الانكليز وغيرهم كمؤلف كتاب (نشوء فكرة الله) ومؤلف كتاب (اضرار تعليم التوراة والانجيل) وغيرهم من الماديين الذين يطعنون فيه وفي أمه الطاهرة ، ويزعمون ان آداب انجيله مفسدة للبشر لانها تعلم الناس لذل بالخضوع لكل سلطة وإن كانت أجنبية جائرة ، وادارة الخدين لكل من يريد صفعهما ، وتدفعهم الى الفقر بتحريم الادخار والاهتمام بالمستقبل وحرمان الاغنياء من ملكوت السماء.. (مت١٩: ٢٣)

لو كان الشك في الشريعة الاسلامية يفضي الى تنصر الشاك فيها حتما لكان للطاعن المشكك فيها — وهو داعية لدينه — عذر ظاهر في التشكيك ، ولكن لا تلازم بين الامرين ، بل علمنا بالتجارب والاختبار أن اكثر الذين يمرقون من الاسلام يكونون ملاحدة معطلين ، وأن الافراد القلائل من المسلمين الذين دخلوا في النصرانية لايكاد يوجد واحد منهم كان مسلما حقا ثم صار نصرانيا ظاهرا وباطنا ، بل هم في الغالب من العوام الفقراء الكسالى الذين يظهرون النصرانية للمبشرين لاجل أن يطعموهم ، وهم على جهلهم بحقيقة الاسلام لا يفضل أحد منهم تقاليد النصرانية على ماعرف من تقاليد قومه، وقلما يفتح لاحد منهم باب للرزق عند المسلمين الا ويفرّ اليه مفضلا له على الارتزاق بالنفاق ، وطالما سعوا الى ذلك وطرقوا له الابواب وكلما فتح لاحد منهم باب منها تاب وأناب، فأين هؤلاء الغوغاء ممن يدخلون في الاسلام من كبراء الانكليز وفضلائهم وغيرهم من نصارى الغرب والشرق كاللورد هدلي

قال حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني : ان المسلم لا يمكن أن يصير مسيحيا — وعلل ذلك بقوله — لان الاسلام مسيحية وزيادة ، أي يتضمن الايمان بالمسيح (ص) وبما جاء به بالاجمال ، والايمان بمحمد (ص) وبما جاء به بالتفصيل. وعللناه نحن بأن دين الله واحد في أصوله من التوحيد والاخلاص والفضيلة ، الا أنه سار كسائر الشؤون المتعلقة بالبشر على سنة النشوء والارتقاء فكان كماله في آخره (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) فالمسلم

ينظر الى ملة كل من نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كما ينظر الانكليزي الى القوانين التي كان عليها قومه في القرن السادس عشر والسابع عشر — الى القرن العشرين ، ولكنه لا يترك ما ارتقى اليه من القوانين المناسبة لحال زمنه هذا الى ما ارتقى عنه من قوانين القرون الخالية، ولا يعدّ نفسه بما ارتقى اليه قد خرج عن كونه انكليزيا . وكذلك المسلم يؤمن بجميع الانبياء وبحقية أديانهم وشرائعهم ومناسبتها لازمانهم وبأن الشريعة المحمدية كانت هي الخاتمة المتممة المكملة الناسخة ، والمسلمون يعظمون جميع الرسل (لا نفرّق بين احد من رسله) ولكنهم يتبعون الاخير منهم

وانا نرى المبشرين يحاولون اقناع المسلمين بدلالة القرآن على تفضيل عيسى على محمد عليهما الصلاة والسلام ، ولو تم لهم هذا لما أفادهم شيئا ، فان المسلمين لا يفرقون بين الرسل من حيث انهم رسل ، وانما فضل الله بعضهم على بعض بكثرة المزايا ودرجة انتفاع البشر برسالتهم ، وقد فَضَلَهُم خاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعموم بعثته وإكمال الدين المطلق بما جاء به وكثرة من اهتدى به ؛ ونعتقد أن عيسى لم يبعث الا الى خراف إسرائيل الضالة كما قال عن نفسه(مت١٥: ٢٤)ولو فرضنا ان عيسى أفضل بما امتاز به في خلقه وخصائصه لما كان ذلك موجبا لترك الثابت عندنا من شريعة محمد صلى (ص) العامة المكملة الخاتمة الناسخة لما قبلها الى ما لم يثبت عندنا من شريعته الخاصة المنسوخة ، وعلماء الاصول منا يفضلون ابراهيم على موسى وعيسى (ص) ولكنهم لا يقولون انه كان يجب على بني اسرائيل ترك شريعة التوراة الى ما خالفها من شريعته كما أن من يفضل محمد علي باشا الكبير على أحفاده بخصائصه الفطرية لا يرى ذلك موجبا لترك قوانينهم الى قوانينه ، على أن القاعدة عندنا أنه قد يوجد في المفضول من المزايا مالا يوجد في الفاضل كما يفضل بعض أحفاد محمد علي جدهم بالعلم وبعض الاخلاق والاعمال

الحق أقول لكم أيها المبشرون المحترمون ان مجادلاتكم وطريقتكم في دعوة المسلمين الى دينكم قد جاءت الى اليوم بضد ما تريدون وتريد جمعياتكم ، فهي تزيد المسلمين استمساكا بدينهم وبعدا عن دينكم ، وأكبر ضررها الديني في

المسلمين أنها حملت كثيرا منهم على ضد ما يجب عليهم شرعا من حب سيدنا عيسى وأمه وحواريه والثناء عليهم بما أثنى الله تعالى ورسوله (ص) فان كثيرا من العوام صاروا يعتقدون مما يسمعون منكم ويقرءون أو يقرأ عليهم من كلامكم ضد ما يقرره الاسلام من كون الرسل اخوة يجب الايمان بهم وحبهم جميعا ، بل أرى هذا التأثير قد دب الى خواص المتعلمين على الطريقة الافرنجية حتى المشهورين منهم بالتساهل الديني

ومن العجيب ان واحدا من كبار هؤلاء علما ورتبة صرح أمامي بأنكم بغضتم اليه المسيح ... فقلت له لا ينبغي لمثل سعادتك ان يسترسل مع وجدانه الى هذا الحد ، ولا يخفى عنك ان بغض المسيح عليه السلام كفر ، فقال ان هذا قد ثبت في نفسه ولا يستطيع دفعه

أيها المبشرون المحترمون انكم تريدون تشكيك الناس في الشريعة الاسلامية بالطعن في عدالة أبي هريرة ، وقد علمتم ان الطعن في أبي هريرة لو كان صادقا ماحط من قدر هذه الشريعة شيئا فكيف وهو باطل ، ولو لم يخلق أبو هريرة لما نقصت الشريعة شيئا، ولكن كثيرًا من المسلمين المتعلمين على المنهج الافرنجي يرون ان أكبر الشبهات على الاسلام، ما أثنى القرآن والرسول (ص) به على المسيح وأمه عليهما السلام ، حتى انني قلت متدسنين ان أقوى الحجج للمسيح شهادة القرآن له، وأقوى الشبهات على القرآن شهادته للمسيح، فهل رأيتم قول القرآن فيه (انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) قليلا حتى طمعتم باقناع المسلمين بأن يقولوا كلمة أكبر من ذلك، ورأيتم قوله فيه (وأيدناه بروح القدس) قليلا أيضا فطمعتم بأن نقول فيه كما تقولون وان لم نعقل ذلك ولم يقم عليه برهان مبين

أيها المبشرون الغيورون انكم تعلمون أن اشتغال الناس بالفلسفة المادية والمدنية المادية قد فتن كثيرا من المسلمين بملاحدة الاوربيين الماديين الذين مرقوا من النصرانية وطعنوا فيها أشد الطعن لان تعاليم الاناجيل أشد التعاليم وأقساها على الماديين اذ هي روحانية محضة ، وأما الاسلام فهو دين وسط ، جامع بين حقوق الروح وحقوق الجسد ، فلا تؤثر فيه دعوة النصرانية، لانه كما تقدم مسيحية وزيادة،

وانما يخشى على الجاهلين بحقيقته من تيار المادية، وحرية الشهوة الحيوانية، فمدارسكم الافرنجية الدينية منها وغير الدينية ، هي التي تكفل لكم التشكيك فى الاسلام ، لا الطعن فى أبي هريرة ولا ابن عباس ؛ فتعالوا نتعاون على مجاهدة هذه المطامع المادية، التي كانت آفتها شديدة على الاسلامية ولكنها على النصرانية أشد ، ودليل ذلك انها لم تمنع كثيرا من المتعلمين الباحثين من ترك النصرانية الى الاسلام ، وان الملاحدة منا أقل من الملاحدة منكم

ما رأيت كلاما لاحد من الاوربين المستشرقين في الاسلام والمسلمين بني على الخبرة والمعرفة ككلام الدكتور سنوك الهولندي ، وقد بين في خطبته التي ألقاها منذ سنين في مدرسة كليفورنية الجامعة في الولايات المتحدة أن القضاء على الاسلام الديني بالتبشير المسيحي محال ، وان المسلمين لن يكونوا نصارى أبدا ، وان طريقة اللاتين في بث التعليم المادي في المسلمين، افعل في زلزال الاسلام من طريقة البروتستانت في بث دعوة الدين ، واعتبروا مع هذا ما ترونه من تفضيل أكثر المسلمين للانكليز والامريكان على اللاتين

انا لا أخاف على المسلمين من مجلاتكم ولا من كتبكم ورسائلكم ، وانما أخاف على المسلمين من الفلسفة المادية والمدنية الشهوانية ، ومن منافقيهم وعباد الشهوات منهم ، فهم الذين يجنون على دينهم ودنياهم، وانما أوصيكم بأن تتجنبوا فيما تقولون في مجامعكم التبشيرية، وما تطبعون في رسائلكم وصحفكم الدورية، كل ما يثير العصبية، ويخدش المودة الوطنية ، (٥ : ٥٢ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم فينبئكم فيما كنتم فيه تختلفون ١٧ : ٨٤ قل كلٌّ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا)

المجمع اللغوي المأمول

دعوة الى هذه الامنية وخطوة جديدة على ذكرى بلوغ المقتطف سن الاربعين من حياته المفيدة

طالما تشوفت انفس أهل العلم والادب من المشتغلين بالتصنيف والانشاء والترجمة بلسان العرب الى انشاء مجمع لغوي للتعاون على خدمة اللغة العربية بالطرق التي تقتضيها حال هذا العصر . وطالما تحدثوا بهذا في انديتهم وسمارهم . وكثر ما هموا ولم يفعلوا، وما اقدموا ثم احجموا، وما بدأوا ثم لم يثبتوا. وقد كان عدم تيسر المكان اللائق بهذا العمل من الموانع العائقة لكثير من الذين تمنوه وتحدثوا بشأنه عن مواصلة المذاكرة فيه ومعاودة الاجتماع لاجله . فلما انشأ الاساتذة المتخرجون من مدرسة دار العلوم ناديهم منذ سنين قليلة تعلقت آمال كثير من الناس بهم ، وكان اختيار حفني بك ناصف رئيسا لناديهم، مقويا للرجاء فيهم، ثم ما عتم هذا النادي ان خبت ناره ، واطفئت انواره ، ولكن بعد ترك حفني بك لادارته، ومغادرته مدينة القاهرة مرتقيا في منصبه

لاح لنا أمس بارق أمل جديد، عسى أن نصل في نوره الى ما نريد ، فيكون ذلك من بركات المقتطف المفيد

صدر الجزء الاول من مجلة المقتطف في مثل هذا اليوم – أول مايو –(١) من سنة ١٨٧٦ فتم له امس أربعون سنة. وقد كان مما يخطر ببال كثير من أهل العلم وانصار النهضة العربية ان يجعلوا هذا اليوم عيداً للمقتطف يحتفلون به الاحتفال اللائق بخدمته للعلوم والفنون بهذه اللغة الشريفة التي لا حياة لنا الا بحياتها العلمية والفنية ولكن الحرب الاوربية العامة جعلت العالم كله في مأتم ولا تكون المآتم اعياداً

وقد كان في مقدمة الذين شعروا بوجوب الاحتفال بالمقتطف صديقنا الاديب الخطيب الشهير اسماعيل بك عاصم المحامي وقد رأى ان ما يمنع من اقامة الاحتفالات

(١) كتبت هذه المقالة في أول شهر مايو الموافق ٢٨ جمادى الآخرة ونشرت في المقطم وله كتبت ، ثم في المقتطف ولاجله أنشئت ، وكان المنار موقوفا لعدم الورق ولم يتيسر نشرها في الجزء الماضي منه

العامة، لا يمنع من اجتماع خاص لتهنئة خاصة، فأعد أمس في داره الزاهية مأدبة لصاحبي المقتطف دعا اليها صاحب الدولة رئيس الوزارة حسين رشدي باشا وصاحب المعالي عدلي باشا يكن وزير المعارف وصاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية وصاحبي السعادة يحيى باشا ابراهيم رئيس الاستئناف الاهلي واحمد زكي باشا كاتب سر مجلس النظار وحضرة صاحب العزة احمد بك لطفي السيد مدير دار الكتب السلطانية [١] وبعض اصحاب المجلات العربية المشهورة

انتظم عقد هذه الجماعة عشاء في تلك الدار، المتألقة بالانوار فكانت سامراً علمياً من أرقى السمار، افتتحها حضرة صاحب الدعوة بهذه الابيات

يابدوراً قد تجلى في سما العليا سناكم
حاكت الافلاك داري حين حياها نداكم
فاقبلوا مني دعاء اسعد الله مساكم

وبعد مسامرات كان جلها في مناقب العرب وما سبق لهم من ترقية العلوم والفنون تحلقوا حول تلك المائدة، فأصابوا مما طيف عليهم به من ألوانها الفاخرة، ثم نهض الداعي الوفي الكريم فألقى خطبة نفيسة في الثناء على المقتطف المفيد، وعلى منشئيه الفيلسوفين الكبيرين الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر، بين فيها خدمته الجليلة للعلم والعربية وذكر انه انشئ في بيروت ثم جذبته مصر اليها، وذكر مقالتين نشرتا في الجزء الاول كانتا كالمرآة التي تجلى فيها كماله - مقالة في عمل الزجاج ومقالة في القمر وتشكله منذ يبدو هلالا الى ان يكون بدراً كاملا (قال) وكذلك كان المقتطف فانه كالزجاج في صفائه وبهائه، وهو كالقمر بدأ هلالا ثم صار بدراً كاملا وأسأل الله حفظه من المحاق

ثم ذكر بدء معرفته لمنشيء المقتطف من زهاء ثلاثين سنة وذكر من فضلهما وأخلاقهما ماهو معروف، وأشار في خطابه الى ما سبق من احتفاله المشكور ببلوغ مجلة المنار عشر سنين، وذكر المنار في سياق الاستدراك على وصف المقتطف بالسبق في

(٢) انما ذكرنا الالقاب الرسمية لهؤلاء الكبراء مخالفين لسنة المنار لان المقالة كتبت للمقطم كما تقدم

خدمة العلوم. ثم قام كاتب هذه السطور فاستأذن الوزير الاكبر بالقاء كلمة في الموضوع هذه خلاصتها :

ورد في الحديث الشريف « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » وقد رأيت صديقنا الفضل اسماعيل بك عاصم استدرك على وصفه المقتطف بأنه المجلة العربية الوحيدة التي قامت بما قامت به من خدمة العلم فذكر المنار وقرنه بالمقتطف وقال ان للمقتطف فضيلة السبق ، وذكر انني اعترف له بذلك ، كما اعترف لابن معط ابن مالك ، اذ قال في فاتحة الالفية :

وهو بسبق حائز تفضيلا . مستوجب ثنائي الجميلا

نعم اني اعترف للمقتطف بالسبق والتبريز في العلم، وأزيد على ذلك الاعتراف بأنني قد استفدت من المقتطف من أول عهدي بطلب العلم ولا أزال استفيد منه . انني لما دخلت المدرسة الوطنية في طرابلس الشام وذلك أول عهدي بطلب العلم رأيت أستاذنا الشهير الشيخ حسيناً الجسر مشتركا في المقتطف ومواظباً على قراءته، فكانت تلك أول معرفتي بالمقتطف وصرت استعيره بعد ذلك واقرأه، فاستفدت من مباحثه فوائد عقلية وصحية واجتماعية ، ولا أزال اعتمد على ما يكتبه في معرفة أطوار التجدد العلمي العصري

ان المقتطف في نظري مدرسة جامعة سيارة يستفيد منها العالم العربي في كل بلد يقرأ فيه. فان الذين يتعلمون مبادئ العلوم العصرية باللغة العربية، يحتاجون الى الوقوف على ما يتجدد فيها بالبلاد الغربية . ولا سبيل الى هذا الا بالاطلاع على الكتب والمجلات الاوربية التي تصدر في كل عام وهذا لا يتيسر الا لبعض الاغنياء المتقنين لبعض لغات العلوم الاوربية — فالمقتطف يلخص لنا في كل شهر مالا يستغني عنه قراء العربية

من حق المقتطف على الامة العربية ان تحتفل به في الوقت المناسب ونرجو ان يكون ذلك على رأس الخمسين من حياته النافعة

احتفل فريق من المصنفين ببلوغ مطبعة المعارف سن العشرين في خدمة الصناعة واتقانها فاذا جرينا على سنتهم كان علينا ان نقيم للمقتطف عشرات من

الاحتفالات . كان على مروجي الصناعة ان يقيموا للمقتطف مثل هذا الاحتفال لا لأن له مطبعة أخرجت للناس من المطبوعات النافعة ما لم يخرجه غيرها فحسب، بل لان للصناعة باباً في المقتطف فهو مرشد الى ترقيتها بجميع فروعها. وكان على المجتهدين في ترقية الزراعة ان يقيموا له احتفالا آخر لان للزراعة باباً فيه مثل باب الصناعة ، ومثل هذا يقال في كل علم وفن، ولكن صديقنا اسماعيل بك عاصم جمع لنا في هذه الليلة صورة مجملة لما يجب على الامة مفصلا

ان أكبر منقبة للمقتطف ومنشئيه انهما حجة اللغة العربية على من يتوهمون أنها لا تتسع لجميع العلوم العصرية ولا يسهل تعليمها بها . فهذان العالمان الكبيران تعلما العلوم باللغة العربية واشتغلا بالكتابة والتأليف فيها مدة اربعين سنة فأفادا العلم ما لم يفده أحد من المتعلمين منا باللغات الاجنبية

هذا ملخص ما قاله . ثم ألقى أحمد زكي باشا خطبة نفيسة في فضل المقتطف ومنشئيه في خدمة العلم باللغة العربية افتتحها بما هو معروف في الفقه الاسلامي من تقسيم الواجب الى فرض عين وهو ما يطلب من كل فرد من الافراد كالصلاة والصيام، وفرض كفاية وهو ما اذا قام به بعض الافراد سقط الطلب عن الباقين (كالفنون والصناعات التي لا يستغني الناس عنها في معايشهم) . وقال ان صاحبي المقتطف هما اللذان قاما بفرض الكفاية من خدمة العلوم والفنون (١) . ثم ذكر أول عهده بالمقتطف وانه أرسل اليه سؤالا الى بيروت ثم عهده برؤية منشئيه وما يحمد من صحبته لهما

وقام أيضا الشاب النجيب اميل افندي زيدان صاحب مجلة الهلال الغراء فأثنى على المقتطف وذكر انه تلميذ تلاميذ منشئيه العلامتين وذكر ان والده وهو استاذه الاول كان تلميذهما وكذلك كان اساتذته في المدرسة الكلية من تلاميذهما

ثم قام صاحب مجلة المفتاح الغراء توفيق افندي عزوز فخطب خطبة اثنى فيها على المقتطف بما هو أهله وذكر استفادته منه كغيره وقال ان منشئيه العلامتين

(١) ان ما يجب على المسلمين وجوبا كفائيا لا يسقط عنهم بقيام غير المسلمين به بل يأثمون بتركه وان كان من الواجبات المعاشية كالطب والصناعات

الفاضلين قد افادا بأخلاقهما كما أفادا بمجلتهما فهما باتفاقهما وتكافلهما واخائهما قدوة صالحة لهذه الامة التي تشكو من التفرق والاختلاف وقلة الثبات ما هو أعظم عائق لها عن القيام بالاعمال النافعة

وبعد ذلك قام العلامة الدكتور فارس نمر فألقى خطاباً بليغا قال في فاتحته إنه بلسانه ولسان شريكه واخيه الدكتور صروف يشكر أولا لسعادة اسماعيل بك عاصم عنايته بهذه الدعوة ويعتب عليه انه جعلها بصورة احتفال ومما قاله :

« ان حضرة رب هذه الوليمة شرف ادارتنا منذ بضعة أيام وهنأنا بمرور أربعين عاماً على مجلتنا المقتطف ودعانا الى تناول الطعام مع جماعة من علماء مصر وأرباب المجلات العربية الذين دعاهم احتفالا بذلك فأبنا لحضرته ان الوقت لا يصلح للاحتفالات ولا خدمتنا تستحق هذه العناية ولكن ابت مكارمه ومكارمكم أيها السادة الا ان تخصونا بالنصيب الاوفر من محاسن هذه الليلة وان تتحفونا بهذا المدح الذي لا نستحقه فلحضرة صديقنا الفاضل صديق العلم والادب رب هذه الدار ولدولة الوزير الكبير رئيس الوزراء وللمالي وزير المعارف ولفضيلة مفتي الديار المصرية ولسعادة رئيس الاستئناف الاهلي ولسعادة سكرتير مجلس النظار وسائر الذين تكرموا بالثناء على المقتطف وذكروه بالخير ولبوا هذه الدعوة اكراما له جزيل الشكر من هذين العاجزين

ثم قال : «ان المقتطف وان كان قد انشيء في القطر السوري فقد كان معظم انتشاره في القطر المصري وقد لقي من أعاظم مصر أعظم عضد وأرحب صدر حتى ان وزير مصر الشهير المرحوم رياض باشا كان يكاتبه منذ بدء انشائه ولما نقلناه من سورية الى مصر رحب به رحمه الله كما رحب به الوزير الكبير شريف باشا والعالم المرحوم شفيق بك منصور وغيرهم من أعاظم مصر وأكابر علمائها . والامل وطيد ان خدمة المقتطف على ما بها من الضعف تجد من تأييدكم أيها السادة ما يقويها ويزيدها اضعافاً مضاعفة بمؤازرة سائر المجلات والجرائد العربية في عصر مولانا السلطان المعظم الذي حق لنا ان نباهي به سلاطين الشرق والغرب معاً على حبه للعلم واكرامه للعلماء ورغبته في اعلاء منار الادب وغيرته على نشر المعارف وجوده في سبيل التربية

أدامه الله للامة العربية فخراً وأدامكم للغة العربية ذخراً

ثم دارت بعد ذلك المذاكرة في مسائل علمية ولغوية أفضت الى الكلام في شدة الحاجة الى انشاء مجمع لغوي في مصر فقال احمد لطفي بك السيد مدير دار الكتب السلطانية ان احمد زكي باشا كان قد اقترح عليَّ ان اخصص مكاناً من دار الكتب لذلك . واني اجبت الى ذلك فلديَّ الآن في المكتبة مكان لائق كانت الجرائد ذكرت اننا فرشناه واعددناه لراغبات المطالعة من السيدات وليس عندنا سيدات يغشين دار الكتب للمطالعة فنعد لهنَّ مكاناً

فسر جميع الحاضرين بهذا وقابلوه بالثناء ورأوا ان قد زالت به عقبة من عقبات الشروع في تأسيس المجمع اللغوي الذي بينا مكانته من النفوس في أول هذه المقالة وزادهم سرورا ما رأوه من ارتياح الوزير الاكبر ووزير المعارف للشروع في تأسيس المجمع اللغوي بدار الكتب السلطانية . وأرجو ان نبشر قراء العربية في مقال آخر بتأسيس هذا المجمع بالفعل

وقد امتد هذا السمر المفيد الى منتصف الليل فانصرف السامرون مثنين على رب المنزل اطيب الثناء

جمال باشا السفاك

كان جمال باشا من آحاد الضباط الكثيرين المنتمين الى جمعية الاتحاد والترقي فلم يلبث ان ترقى فوق الهام والرؤوس الى مقام الزعماء على حين قد تدهور أمير الالاي صادق بك عن منصة الزعامة العليا لها وسقط كثير من الضباط وغيرهم من مكاناتهم العالية . وانما ترقى جمال بك ببراعته وجرأته على سفك دماء خصوم الجمعية، فهو الذي دبر مكيدة المذبحة الاولى في أدنه اذ كان واليا لها بعد الدستور، وهو الذي قتل الجم الغفير من كبراء الآستانة المخالفين للجمعية عقب اغتيال محمود شوكت باشا . ولاجل هذا اختارته الجمعية لقيادة فيلق سورية بعد الحرب على كونه لا يزال ناظرا للبحرية . وما سمعنا في أخبار دولة من الدول أن أحد وزرائها يعطى

وظيفة دون الوزارة في بلاد بعيدة عن العاصمة فيكون فيها عدة سنين في أشد أوقات الحاجة الى قيامه بشؤونها وناهيك بوزيري الحربية والبحرية في وقت الحرب، ولكن زعماء الجمعية يأخذون المناصب العليا بعلوهم في الجمعية لا بخدمتهم للدولة

نعم ان الجمعية اختارت جمال باشا لأجل ان يتم تنفيذ ما توعدت به سورية من بضع سنين في جريدتها طنين وعبرت عنه (بالدش البارد) وإنما كانت مذبحة الكرك وتعذيب العرب برضخ رؤوسهم بالصخور هي الرشة الاولى من هذا (الدش) واننا — على علمنا بهذا الانذار وبما هو أشد منه وأوضح وعلى ذكرنا بعض تلك النذر في مقالات (العرب والترك) وغيرها في المنار — قد ارتبنا في أول خبر بلغنا عن شنق جمال باشا لبعض نابتي المسلمين في بيروت . ولا يزال أكثر المصريين يكذبون أخبار التقتيل والنفي التي تكررت بل تواترت . وقد ظفرت جريدة المقطم ببيان لجمال باشا نفسه نشرته في اليوم السابع من شهرنا هذا يصرح فيه بعمله ويحتج له . وهذا ما نشرته :

(بيان من جمال باشا)

نشر جمال باشا القائد العثماني في سورية البيان التالي بامضائه في ٥ رجب سنة ١٣٣٤ لموافق ٧ مايو سنة ١٩١٦ وهذا هو نصه العربي كما نشر بحروفه — :

لما جرى القصاص على بعض الاشخاص المنتسبين الى الحزب المتشكل في مصر والممالك العثمانية تحت تمويه عنوان « حزب اللامركزية» والذين حوكموا في ديوان الحرب العرفي بعاليه كنت كتبت في البيان الذي نشرته في أوائل اوغستوس سنة ١٣٣١ ان التحقيقات جارية بصورة دقيقة بحق اعوانهم الاشرار الذين لم يكن قبض عليهم قبلا

ان الوثائق السياسية التي عثرنا عليها واعتراف عبد الغني العريسي صاحب المفيد الذي ألقي القبض عليه أخيراً بعد ان ذكرنا في البيان فراره واعتراف سيف الدين الخطيب عضو محكمة بداية حيفا السابق ورفيق رزق سلوم ضابط الاحتياط ورفقائهم الآخرين قد نورّ المسألة من جميع اطرافها وسيق الى ديوان حرب عاليه الاشخاص الذين ظهر ان لهم علاقة في هذه المسألة بدرجات متفاوتة مع من تبين

ان لهم دخلا في المسعى الخائنة بتنفيذ ترتيبات الجمعية وتشبثاتها وأعمالها وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان العرفي في عاليه صدرت الاحكام المقتضاة بحق المظنون فيهم من الموقوفين وفارين كل على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها امارة مستقلة . فحكم على شفيق بن احمد مؤيد العظم والامير عمر بن الامير عبد القادر . وعمر بن مصطفى حمد . ورفيق بن موسى رزق سلوم . ومحمد بن حسين الشنطي . وشكري بن بدري علي العسلي ، وعبد الغني بن محمد العريسي . وعارف بن محمد الشهابي . وتوفيق بن احمد البساط . وسيف الدين بن ابي النصر الخطيب ، والشيخ احمد بن حسين طباره ، وعبد الوهاب ابن احمد الانكليزي ، وسعيد بن فاضل عقل . و بترو باولي . وجرجي بن موسى الحداد . وسليم ابن محمد سعيد الجزائري . وعلي بن محمد حاجي عمر . ورشدي بن احمد الشمعة . وامين لطفي بن محمد حافظ . وجلال ابن سليم البخاري . بالاعدام لثبوت اشتراكهم في هذه التشبثات بالدرجة الاولى و بصورة فعلية . وعلى من تبين دخولهم في الدسيسة بصورة فرعية . سالم بن مصطفى مظلوم بالاعتقال بالقلعة خمس سنين وتوفيق بن محمد الناطور و يوسف بن نجيب سليمان بعشر سنين ، وحسين بن خليل حيدر بخمس عشرة سنة ، وعلى رياض ابن رضا الصلح بنفي مؤبد . وعلى الامير طاهر بن أحمد الجزائري بعشر سنين في انكريك . وعلى الذين مع كونهم لم يفهموا المقصد والتشبث الحقيقي وثبت وجود مساع لهم مع هذه الجمعية بصورة محسوسة اما بسائق الجهل أو التصلف وانما لم يوجد عليهم وثائق تنور وجدان الهيئة الحاكمة وتثبت مجرميتهم واشتراكهم وهم رضا الصلح وأسعد حيدر باعادتهما الى منفاهما . وأعطي القرار بمنع محاكمة وبراءة كل من محمد أفندي كامل الهاشم ، ابراهيم القاسم . سامي العظم . الشيخ جمال الدين الخطيب . عبد الحميد معلم الرسم . محيي الدين فريحه . البيطار حسين صبري . رشدي الغزي . عاصم بسيسو الغزي . عزت الاعظمي ، مصطفى الكيلاني . عبد الرحيم حنون ، الدكتور حسام الدين . نجيب شقير . الشيخ فتح الله . الدكتور أحمد قدري سليم الطيارة . جميل الحسيني . المفتي سعيد أفندي الباني . سليم الشمعة .

سليم البخاري .فائز الخوري . رشيد الخشيمي . عمر لاتامي . البكباشي على رضا . الدقتور أمين قازما، سعيد عدره . الدقتور عبد الحفيظ. اليوز باشي جميل . فريد باشا اليافي .عثمان العظم

ومن الذين صدر بحقهم حكم الاعدام وهم شفيق المؤيد . الامير عمر . شكري العسلي . عبد الوهاب الانكليزي. رشدي الشمعة. رفيق رزق سلوم، جرى اعدامهم هذا الصباح في الشام . والآخرون جرى اعدامهم في بيروت، وسائر المجرمين صار سوقهم الى منفاهم وحبوسهم وعلى هذه الصورة تقرر اذاً في سورية وفلسطين السكون والامن المحتاج اليهما الى الابد

وها أنا ذا انشر الآن من الوثائق المهمة التي كانت اساساً لهذه التحقيقات ما يكشف الغطاء عن حزب اللامركزية احقيقي وسينشر كتاب حاو جميع الوثائق على حدة مع اعترافات المجرمين المهمة وتاريخ صغير لهذه المسألة

ومن امعان النظر في هذه الوثائق يفهم أولا: ان هؤلاء الاشخاص قد ضحوا بلا تردد جميع مالديهم من المقدسات الدينية والوطنية لقاء منافعهم الخسيسة والمادية. ان هؤلاء الاشخاص قد اشركوا مساعيهم ونفوذهم وقدرتهم اعداء الدولة وسعوا في اعداد الطاعة في الداخل تجاه تجاوزات الاعداء في الخارج

ومما هو جدير بالتقدير ان ادارة هذه التشبثات لم تتسع بالنظر لما جبل عليه العنصر العربي النجيب من الصداقة والطاعة والصلابة الدينية العارية عن شوائب الظنون والشكوك بأسرهم، بل حصرت بين بعض اشخاص مسلمين ومسيحيين لاأهمية لهم ولايكاد يتجاوز عددهم المائتين من المحكوم عليهم حديثاً وقديماً وجاهاً وغياباً

و بناء على الصلاحية التي تخولني اياها المادة الثانية من القانون المؤرخ في ١٤ مايو سنة ١٣٣١ المتضمن التدابير التي ينبغي للجهة العسكرية التوسل بها في وقت النفير العام ضد الخارجين على الحكومة واجرآتها فاني ساع في ابعاد اولئك الاشخاص الذين يتخذون حقوق الدولة ومقدساتها ملعبة في سبيل منافعهم الشخصية مع من لهم علاقة معهم من اسرهم وعائلاتهم من قريب أو بعيد الى بعض ولايات الاناضول . وقد اتخذت الاسباب الكافلة لإعاشة هذه العائلات ورفاهيتهم في

المحال التي ينفون اليها تحت عناية الحكومة السنية وعاطفتها، وسيعطون هناك أراضي وأملاكا قيمتها تعادل أملاكهم وأراضيهم التي يملكونها في سورية . واني أوصي جميع الاهلين في سورية وفلسطين بالسكينة والطمأنينة. على انه من الآن فصاعدا لم يبق محل لاجراء التعقيبات والابعاد الى الولايات العثمانية في حق احد مطلقا مالم تظهر وثائق قوية تدل على خيانته

قومندان الفيلق الرابع وناظر البحريه
أحمد جمال

[المنار] كل ما احتج به جمال باشا لسفكه الدماء واجلائه الناس عن أوطانهم أباطيل . وقد قتل بعد من ذكرهم هنا عددا ليس بقليل، منهم السيد عبدالحميد الزهراوي الشهير ، وأول أباطيله تسمية القتل برأيه ورأي ديوانه العرفي قصاصاً ! وانما القصاص في شرع الله أن يقتل الجاني بمن قتله بغير حق . ومعناه في اللغة يدل على المساواة والمماثلة .

ثم انه يقول ان التهمة الموجبة للقتل والنفي هي الاشتراك في جمعية غايتها جعل العراق وسورية وفلسطين مملكة مستقلة بعد سلخها من راية الدولة، ونحن نعتقد بطلان هذه التهمة بأدلة كثيرة (منها) أن الحزب الذي جعله أصلا لتهمة التي رمى بها هؤلاء الناس له برنامج معروف مطبوع ينطق بكذب تلك التهمة (ومنها) أن هؤلاء الذين اعترف الباشا بقتلهم في هذا البيان لايوجد فيهم الا واحد أو اثنان من الداخلين في هذا الحزب (ومنها) اننا نعلم باختبارنا لبعضهم واختبار من نثق به للآخرين انهم لا يجمعهم رأي ولا مودة ولا سكنى ولا معرفة فكيف يتفقون مع ذلك على أمر عظيم كالذي اتهموا به؟ وانما الجرم الاكبر الذي يجمعهم وبه استحقوا العقاب هو أنهم من أذكياء العرب الذين يقولون بوجوب محافظة قومهم على لغتهم وأن يكون لهم حظ من مشاركة الحكومة في ادارة بلادهم، وان لبعضهم ذنوبا سابقة لا يغفرها الاتحاديون كاهانة شفيق بك لطلعت بك، والسعي لعدم اقراض أوربة للاتحاديين عشرات من الملايين، يضيعونها وتبقى البلاد رهينة بها للدائنين ، وتوثيق أعضاء المنتدى الادبي في الاستانة عرى الاخاء بين طلبة العرب في مدارس الحكومة فيها، واهانتهم لصاحب جريدة اقدام التركية في نشر تلك المقالة التي قال فيها كاتبها ان الطريقة المثلى للتنكيل بعرب الجزيرة اغراء بعضهم بقتال بعض بالمال « لان العرب تبيع كل شيء بالمال حتى العرض والناموس »

ثم انه يصرح بأنهم أخذوا بالظن فلم تثبت عليهم تلك التهمة باليقين ، ولو ثبتت لماجاز قتل أحد منهم بها شرعا ولا قانونا لانها عبارة عن رأي سياسي لم يدع قاتلهم انهم شرعوا في تنفيذه بالخروج على الدولة في أثناء النفير العام الذي حاكمهم بقانونه . وكيف يعقل أن يقوم نفر قليل كهؤلاء بالخروج على الدولة والسواد الاعظم من قومهم يخالفهم فيه باعتراف جمال باشا نفسه والدولة تحكم بلادهم بالاحكام العرفية القاسية وجميع شبان الامة وكهولها جنود مسلحون بين يديها ؟ وياليت شعري ما تلك المنافع المادية الخسيسة التي ضحى أولئك الاذكياء الفضلاء دينهم ووطنهم لاجلها ؟ ان كانت ما ذكره من غاية جمعيتهم المزعومة، فتلك غاية سياسية عالية لامادية خسيسة ، وان كانت غيرها فما هيه ؟

باب المراسلة والمناظرة

الكتب المعزوة الى غير مصنفيها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد فكثيرا ما طبعت كتب ونسبت الى أكابر علماء الاسلام - وهم براء منها - إما غلطا وإما قصدا ، لتكون نافقة في البيع أو لإدخال أشياء في دين الاسلام ليست منه ، ولا يكون لقائلها من ثقة المسلمين به ما يؤهله قبول قوله عندهم ، فيختبئ وراء اسم أحد الأئمة المقبولين عند المسلمين ، وينحله كتابه ، وذلك لما ضاق بالزنادقة الامر وحصرت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في دواوين معروفة ، وبين فيها الصحيح من غيره ، فلم يتمكنوا من وضع الاحاديث عليه كما كانوا يفعلون في أول الاسلام قبل تدوين الحديث ، ومفسدة هذه الكتب ظاهرة للعيان

رأيت كل هذا فعزمت بحول الله تعالى وقوته على بيان الاغلاط الواقعة في نسبة بعض الكتب المطبوعة الى غير أهلها نصيحة للمسلمين ، وتزكية لأئمة الدين ، وخدمة للتاريخ ، فكلما عثرت بشيء منها نشرته في مجلة المنار الغراء .

ثم اني لا أقصد ببياني هذا طعنا في أحد من طابعي هذه الكتب فلا يحرجنهم ذلك فانما قصدي بها وجه الله تعالى والله الموفق لا هادي الا هو

(١) من الكتب الدخيلة الموضوعة قصدا كتاب يسمى (سر العالمين) (١) ألفه أحد الزنادقة من الفرقة الباطنية . ونحله حجة الاسلام أبا حامد الغزالي رضي الله عنه ، وأدخل فيه كثيرا من عقائد الباطنية التي كان الغزالي أشد أعدائها ، ومن أكثر العلماء ردا على معتقديها ، وأدخل فيه كثيرا من علوم السحر ، ثم أراد أن

---

(١) طبع في الهند ثم طبع في مصر سنة ١٣٢٧

يحقق نسبة الكتاب الى الغزالي فصار دائما يحيل في بعض المسائل على كتب الغزالي كالاحياء والرد على الباطنية وغيرهما، ويقول «فيما كتبناه في كتاب كذا» أو نحوه، ويذكر كتابا من تصانيف الغزالي، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يفضحه ويبين كذبه كرامة للغزالي وغيرة على حجة الاسلام فانه قال في صحيفة (٨٣) من الطبعة المصرية «أنشدني المعري لنفسه وأنا شاب» الخ وهذا كذب فاضح، فان أبا العلاء المعري مات سنة تسع وأربعين وأربعمائة، أي قبل أن يولد الغزالي بسنة أو سنتين، فانه ولد سنة خمسين وقيل سنة احدى وخمسين وأربعمائة فليحذر الناس من الثقة بهذا الكتاب وأمثاله فهي مفسدة للدين، وليتق الله طابعوها ولا يغرروا بعامة المسلمين، وليتحر أحدهم صحة نسبة الكتاب الى المنسوب اليه

(٢) ومن الكتب المنسوبة قصدا للنفاق كتاب يسمى (كتاب الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان) [1] نسب الى الامام الجليل شمس الدين ابن القيم رضي الله عنه، وهو كتاب لا بأس به فيه فوائد أدبية، ونكت بلاغية، فصيح العبارة، ويظهر أن مؤلفه كان من الكتاب المنشئين، لا العلماء المحققين — أمثال إمامنا ابن القيم — فان له في بعض المسائل تحقيقات واختيارات سخيفة لا يقولها من شام للعلم بارقة

لولم يكن لشمس الدين ابن القيم بين أيدينا كتب غير هذا لقلنا كاتب يتسخف ويظن أنه محقق، وأحمق يتكايس ويظن أنه عاقل، ولكن كتب ابن القيم تنادي بقوة نظره، ودقة بحثه، وكثرة علمه، وبعد غوره، ولله دره من امام جليل، وحاش لله أن يقول في اعجاز القرآن كما قال مؤلف هذا الكتاب فانه قال في صحيفة (٢٥٥) بعد أن حكى الاقوال في وجه الاعجاز مانصه: «قال المصنف عفا الله عنه: والاقرب من هذه الاقاويل الى الصواب قول من قال ان اعجازه بحراسته من التبديل والتغيير والتصحيف والتحريف والزيادة والنقصان، فانه ليس عليه ايراد ولا مطعن» هذا اختياره وحكاية مثل هذا تغني عن رده وضرب الامثال على بطلانه [2]

(١) طبع أيضا في مصر سنة ١٣٢٧ (٢) المنار: مزية حفظ القرآن من التغيير لم تظهر الابمرور الزمن، فلا يتحدى النبي (ص) بها العرب

وأغرب من هذا القول قوله في الصحيفة نفسها بعد أسطر : «وقال قوم اعجازه من جهة أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة قائمة بالذات وأن العرب اذا تحدّوا بالتماس معارضتهم له وللاتيان بمثله أو بمثل بعضه كلفوا ما لا يطاق ومن هذه الجهة وقع عجزهم وهذا القول أيضا حسن » هذا كلامه بنصه واني أترك للقارئ فهم معنى التحدي بالصفة القديمة فذلك مما يقصر عقلي عن دركه

وقد اتصل بي أن النسخة الخطية التي طبع عنها هذا الكتاب كانت نسبته فيها الى ابن القيم مكتوبة عليها بخط جديد غير خط الاصل فقيل لطابعه لا تنسبه لابن القيم فلعل كاتب هذه لم يتحر النسبة خصوصا وان الكتاب غير معروف في كتب ابن القيم ، فأبى ونسبه اليه» فحسبنا الله ونعم الوكيل

(٣) ومما يلحق بهذا وان لم يكن منه تماماً ما وقع في مختصر البخاري للزبيدي المسمى « التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح » فقد كتب على طرته في النسخ المطبوعة بالمطبعة الاميرية والمطبوعة بالمطبعة الخيرية والمطبوعة بالمطبعة الميمنية مانصه « للحسين بن المبارك الزبيدي» وهذا غلط فان مؤلفه هو أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي المتوفى سنة ٨٩٣ هجرية . وأما الحسين بن المبارك الزبيدي فشيخ ذكره المؤلف نفسه في خطبة كتابه في اسناده الى البخاري ، وبين المؤلف وبينه ثلاثة شيوخ . والغريب أن كاتب الحواشي التي بهامش النسخة الاميرية ذكر في أول صحيفة منها اسم المؤلف على الصواب ، فلا أدري كيف كتب هذا وغفل عما في طرة الكتاب . وأما المطبعتان الاخيرتان فتبعتا المطبعة الاميرية من غير تحرٍ ولا نظر . وحصل مثل هذا في نسخة شرح الشرقاوي عليه الذي طبع بالمطبعة الميمنية فانهم طبعوا بهامشه المتن ونسبوه في طرته الى الحسين بن المبارك الزبيدي مع أن الشارح في أول الخطبة ذكر اسم المؤلف على الصواب انتهى

كتبه

ابو الاشبال

عفا الله عنه

دعوة اللجنة التحضيرية

﴿ لمشروع جمعية آداب اللغة العربية بلندن ﴾

تتشرف اللجنة التحضيرية لمشروع « جمعيـة آداب اللغة العربية » بلندن بتوجيه نظركم الى منافع هذا العمل المسطورة بايجاز في (ذيل) هذا الكتاب آملا من غيرتكم التعضيد المادي والادبي قدر جهدكم حتى اذا اجتمعت الاعانات الضامنة للنجاح منكم ومن أمثالكم أبرز المشروع الى حيز الوجود في القريب العاجل تحت رعاية « الجمعية الملوكية الأسيوية » التي هي من أعظم الهيئات العلميـة الباحثة في آداب الشرق . ولا يخفى على حضرتكم المظهر الجليل والفائدة الكبرى من تحقيق هذه الامنية في أكبر عواصم العالم. وقد لاحظنا أن للمعضدين ميولا مختلفة مابين عامل أدبي أو علمي أو وطني أو ديني ، فلعلكم مدفوعون بعامل أو أكثر من هذه العوامل لخدمة آداب اللغـة الفصيحة العربية ، والسعي في نشرها بواسطة هـذه الجمعية الدولية التي تعمل اللجنة على تأسيسها وتوطيد دعائمها .

هذا ولو أن الظروف الحاضرة الاستثنائية ربما عدت غير ملائمة، الآن فلاح مثل هذا العمل كما تبين لنا بعد درسه يستدعي بذل مجهولات كثيرة تستغرق زمنا غـير وجـيز فمن الصواب اذن عدم التأجيل . فحبـذا لو ظفرنا بموازرتكم لنا ، فجلائل الاعمال انما تقوم بمساعي الجماعة وتساند الافراد ؟

رئيس اللجنة التحضيرية	كاتب سر اللجنة
د. س. مرجليوث	احمد زكى أبو شادى

﴿ مقاصد الجمعية ﴾

(١) أن تخدم آداب اللغة العربية بجميع الوسائل التي تسمح بها مالية الجمعية

(٢) أن تشجع تعلم العربية السليمة في بريطانيا العظمى وأن تنمي في أعضاء الجمعية ملكة الترجمة من والى العربية وسواها من اللغات حبا في الفائدة العامة .

(٣) أن تكون واسطة تعارف بين الناطقين بالضاد في بريطانيـا العظمى والمستعربين بها ، وكذلك بينهم وبين علماء العربية في جميع أقطارهـا وبين المستعربين في الممالك الأخرى لتبادل المنفعة الادبية . اه

مصابنا بالزهراوي والكيلاني

فجعتنا الجرائد المصرية في يوم واحد بنعي الصديقين الوفيين المصلحين السيدين الجليلين عبد الحميد الزهراوي شهيد بغي الاتحاديين ، ومحمد وجيه الكيلاني شيخ اسلام الفيلبين . جاءتنا بذلك في أثر تلك الانباء التي شقت المرائر ، واستنفدت الدموع من المحاجر ، أنباء تقتيل جمال باشا لصفوة أبناء سورية وأركان النهضة الاجتماعية فيها ، فالآن الآن قد صار الفؤاد في غشاء من نبال ، فاذا اصابته سهام أخرى تكسرت النصال على النصال

خسرت أمة الاسلام وديار الشام وحزب الاصلاح بالزهراوي والكيلاني رجلين من أفضل رجال العصر عقلا وذكاء وأخلاقا وعلما وأدبا واهتماما بالمصالح العامة، وتقديما لها على المصالح الخاصة ، وبهذه المزايا تنهض الامم ؛ وبفقدها تسقط في مهاوي العدم

نبت كل منهما في بيت من أكرم بيوتات القطر السوري شرفا وسؤددا وعلما ومجدا ، وتربى كل منهما في نشأته الاولى تربية علمية دينية ، وأوتي نصيبا من العلوم والفنون العصرية ، واختبر حال الزمان وأهله ، وعرف شدة حاجة بلاده الى التأليف بين المختلفين فيها بالاديان والمذاهب والآراء والمشارب ، فكانا ركنين من أركان الوفاق ، وعاملين من أنفع عوامل الاصلاح ،

فهذا ما اتفق معنا فيه هذان الصديقان الكريمان . وأما ما اختلفت فيه نشأتهما وسيرتهما فهو ان السيد الزهراوي قد تمرس بالسياسة في حداثته فغلبته على الاشتغال بغيرها مما كان مستعدا له كالتوسع والتصنيف في الفلسفة وعلوم الاخلاق والاجتماع ، فكان أفضل مايرجى نفعه فيه ما وصل اليه من انتخاب أهل بلاده إياه نائبا عنهم في مجلس المبعوثين . ولا أقول ثم تعيين الحكومة إياه عضوا في مجلس الاعيان ، لان هذا قد كان بعد جعل الاتحاديين مجلس الامة بقسميه آلة لجعل ما تقرره جمعيتهم قوانين نافذة ، وأعمالا منسوبة الى الامة ، وكان الغرض منه خديعته وخديعة العرب به ، الى أن تسنح الفرصة لتنفيذ ما قررته الجمعية من قبل من التنكيل

بالعرب والفتك بزعمائهم كما أشرنا اليه في موضع آخر وسنعود الى بيانه

وأما السيد الكيلاني فقد تخرج بالاعمال الادارية الشرعية فكان من موظفي مشيخة الاسلام في الآستانة ، وبهذا وما سبق من مزاياه كان أفضل من يختار لما اختير له من جعله شيخا للاسلام في جزائر الفيلبين، وكان يتقي شر السياسة بالمداراة حتى أنه لما عرج على مصر في ذهابه الى الفيلبين تجاهل معرفة المنار وصاحبه، وهو على مذهبه الاصلاحي ومشربه . لانه كان يرجو المساعدة من الخديو وحكومته ، وكان الخديو مغاضبا لصاحب المنار من بضع سنين . وقد اخبرني بعد ذلك أنه كان يفضل طلب المنار من صديقنا السيد محمد بن عقيل المقيم في سنغافوره على طلبه من مصر، وانه قد تجدد له من الحاجة اليه في منصبه الجديد ما لم يكن يعلمه من قبل. وسنعود الى الكلام في سيرة هذين الصديقين ان شاء الله .

مسألة الازياء والعادات

من مشخصات الامم

زي الامة من مشخصاتها ينبغي لها أن تحافظ عليه وتحترمه وتحتقر من يحتقره كما تحترم العلم الذي هو شارة حكومتها، فالعلم لا يحترم لشكله ولا للونه أو ألوانه، وليس من العقل ولا من الحكمة أن تذم الاعلام أو تمدح لاشكالها أو ألوانها، وكذلك أزياء الامم من حيث هي أزياؤها ، ولكن بين الزي والعلم فرقا واحدا وهو أن الزي يقصد به من المنفعة ما لا يقصد بالعلم ، فاذا اشترك مع العلم في أن كلا منهما مشخص للامة مهما يكن شكله ولونه وصفته فانهما يفترقان في أن بعض الازياء لا تفي بما يقصد بها من وقاية الجسم من أذى الحر أو البرد أو سهولة القيام بالاعمال العسكرية والصناعية والزراعية .

ومن الناس من يرجع في اختيار الازياء الى مراعاة الذوق والجمال ، ولكن هذا ليس له قاعدة ثابتة ، وانما يستحسن جماهير الرجال في كل أمة ما يختاره كبراؤها وحكامها، وانما يُعنى بالذوق والجمال في الزي النساء وهن في كل آونة يستحدثن

زيا جديدا يبطلن به ماكان قبله مستحسنا ، ولا يرجع ذلك الى فضيلة في زي اليوم على زي أمس تثبت بدليل علمي أو عقلي . وانما فائدة الجديد لهن جذب الانظار الى السابقات اليه ، وفائدته المالية لتجار الانسجة وصناعة الخياطة لاتخفى ، ويقابل ربح هؤلاء من الازياء خسارة المسرفات فيها، فكم من بيوت خربت بمثل هذا الاسراف

من أكبر جنايات الافراد على أمتهم أن يحتقر أحد منهم زيها ، ويستبدل به زي أمة أخرى تقليدا وتفضيلا لها ، فاذا كان بعض أزيائها ضارا بها ، فالواجب في استبدال غيره به أن يكون برأي أهل الحل والعقد فيها ، الذين يراعون في التغيير المنفعة دون التقليد الذي يبث في الامة الشعور بمهانتها وتفضيل غيرها عليها . وقد وفينا هذا الموضوع حقه من البيان في المنار وقبل المنار في كتابنا (الحكمة الشرعية) الذي كتبناه في عهد طلب العلم ، واقتبسنا منه نبذا في المنار اذ طرقنا باب هذا البحث مرارا .

ولست أبحث الآن في أزيائنا هل يحسن تغيير شيء منها وكيف ينبغي أن يكون التغيير ، وانما أريد أن أقول ان بعض الافرنج ينفرون من أزياء الشرقيين ويكرهون أن يأكل في مطاعمهم الخاصة بهم وبالاغنياء المتفرنجين منا من لايلتزم عاداتهم وآدابهم في الطعام، ومنهم من يرى ان كل من لا يلبس الزي الافرنجي لا ينبغي أن يأكل في تلك المطاعم ، ولهم في ذلك أعذار ومارب ، وقد روت جريدة (وادي النيل) الاسكندرية أن اثنين من المعممين دخلا مطعما افرنجيا فطردا منه لانهما معممان ، وقالت في لومهما انه لا يبعد ان يكونا ذهبا منه الى آخر مثله لعله يقبلهما . وأشارت أيضا الى انتقاد صاحب المطعم الافرنجي . أما نحن فاننا نخص باللوم فريقين من أمتنا : فريق الذين يتصدون لمؤاكلة الافرنج في مطاعمهم، وهم لايلتزمون آدابهم وعاداتهم . ومنهم من لا يلتزم الآداب الاسلامية التي هي أرقى الآداب ، وفريق المتفرنجين الذين يحتقرون زيّ أمتهم وعاداتها وآدابها، ويستبدلون بها غيرها تقليدا للاغيار وتفضيلا لهم على أنفسهم، ويكونون آلة لإضعاف مشخصات أمتهم ومقوماتها وهم لايشعرون ماوراء ذلك كما يشعر به غيرهم. ومن أراد أن يعرف رأي الافرنج في ذلك فليقرأ خطبة الدكتور سنوك المستشرق الهولندي في

الاسلام ومستقبله التي ألقاها في جامعة كولومبيا من الولايات المتحدة، وقد نشرنا ترجمتها في المجلد السابع عشر من المنار مع تعليق طويل عليها (١) ومن أراد أن يعرف قيمة هؤلاء المتفرنجين في نفس الافرنج فليقرأ ما كتبه في شأنهم لورد كرومر في كتابه (مصر الحديثة)

من أهان أمته باحتقار شيء من مقوّماتها أو مشخصاتها بازاء احترام مايقابل ذلك من أمة أخرى فقد احتقر نفسه أشد الاحتقار، وما قيمة الرجل الذي ليس له أمة محترمة في نفسه، ومن ذا الذي يكرم من يحتقر نفسه باحتقار أمتــه * ومن لم يكرم نفسه لم يكرم *

اذا ما أهان امرؤ نفسه   فلا أكرم الله من يكرمه

يجب على كل من أوتي نصيباً من الفهم أو حظا من الشرف أن يقاوم جهد طاقته كل ما فيه احتقار لأمته مهما يكن رأي المحتقر وقصده، ومن ذلك ان لا يأكل احد من المصريين في مطعم يهين اصحابه مصريا از يه أو عادته أو غير ذلك، ولا ان يشتروا شيئا من تاجر يهين مصريا، ويجب على أمثال هؤلاء ان يبذلوا جهدهم لمنع الاهانة عن أمتهم وإغنائها عن معاملة كل من يقصر في احترامها، وانما يتيسر هذا بتعاضد الاندية والجمعيات الادبية والشركات التجارية

كانت شركات البواخر الافرنجية في الخط الذي بين الهند وخليج فارس وشط العرب تحتقر المسافرين فيها من العرب والفرس ولا تسمح لهم بالاكل على مائدة الدرجة الاولى فلما أنشأ تجار العرب في بومبي شركة البواخر العربية زال ذلك الاحتقار وبطلت تلك المعاملة

واتفق لي منــذ بضع عشرة سنة أنني دخلت مطعما سوريا في القاهرة وقت العشاء وجلست الى مائدة من موائده فطلب رجل انكليزي أن أترك تلك المائدة لانه يجلس اليها للطعام ولا يحب ان يأكل مع شيخ أزهري، فلم أبال بطلبه، فطلب من صاحب المطعم ذلك فاعتذر اليه بأنه لا يمكنه ذلك. وقد سألت عن اسم الرجل وعمله وذكرت ذلك لصديقي مستر متشل أنس الذي كان وكيلا لنظارة الماليــة

(١) راجع ص٢٠١ و ٢٦٨ م ١٧

وقتئذ فستاء من ذلك وكتب كتابا الى رئيس ذلك الرجل في مصلحة السكة الحديدية كلفه فيه أن يلزمه الاعتذار الي، وأخذت الكتاب بنفسي وعدت راضيا مكرما

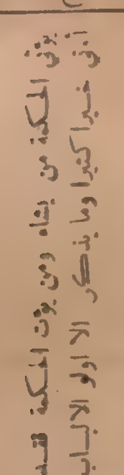
ولا يخفى على عاقل أن ما نحتاج الى اقتباسه من علوم أوربة وفنونها وصناعاتها لا يقتضي هذا التفرنج الذي نذمه ولا يأتي من طريقه بل ينافيه، لان التفرنج تقليد في الازياء والعادات يحدث التفرق في الامة وانحلال روابطها، واقتباس العلم النافع والعمل الرافع يجب ان يكون بطريق الاستقلال لا التقليد [illegible] يراعي فيه حاجة الامة في العمل ويقصد به ترقية ثروتها وعزة دولتها، ولم نر هؤلاء المتفرنجين من الترك والمصريين ساروا على ذلك الدرب ووصلوا الى هذه الغاية، بل هم الذين نسفوا ثروة بلادهم وقطعوا روابطها حتى وصلت الى ماهي عليه، وليس في بلادهم شيء من العمران الا وقد كان بعمل الاجانب ومعظم فائدته لهم، وانما سار على ذلك شعب اليابان الذي شرع في اقتباس الفنون الاوربية بعد الترك والمصريين منا، فكان طلاب العلوم منهم في أوربة يتلقون العلوم العملية، اذ يتلقى الطلاب منا العلوم النظرية والسياسية، وكانوا مثال الجد والعمل والاقتصاد، اذ كان أكثر طلابنا مظهر الفسق والسرف والفساد

واليك من العبرة هذا المثال : كان بعض الاوربيين والاوربيات مع بعض اليابانيين في بلاد اليابان فخلع ياباني نعله في المجلس، فأنكر عليه ذلك بعض الاوربيين لان خلع النعال أو الجلوس بغير نعلين مستهجن في عاداتهم ولا سيما حيث يوجد النساء. فقال الياباني : انا ياباني لا أوربي وهذه البلاد يابانية لا أوربية فبأي حق تطالبوننا باتباع عاداتكم في بلادنا والواجب عكسه؟ أوقال كلاما بهذا المعنى فهذه هي الوطنية لا مايتشدق به المتفرنجون الذين لا يعقلون عاقبة ما يأتون ومايدعون

قلنا ان اقتباس الفنون النافعة من الغربيين — وكذا ما يستلزمه من اعترافنا بجهلنا وبحاجتنا الى علمهم - لا يعد احتقارا للأمة بل اصلاحا، ونقول أيضا اننا في حاجة الى الإصلاح في كثير من العادات الضارة، وأن ذلك لا يعد احتقارا للامة وطالما كتبنا في ذلك . ومن أبواب المنار الواسعة باب (البدع والخرافات والتقاليد والعادات) وانما الواجب أن نعتمد في هذا الاصلاح على شريعتنا وهي أكمل الشرائع وآداب ديننا وهي أكمل الآداب

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ شوال ١٣٣٤ — ٦ السنبلة (ص٣) ١٢٩٤ هـ ش ٢٩ اغسطس ١٩١٦

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٧) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٨) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٩) وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ

بينا في تفسير الآيات السابقة أن الثلاث الاولى منها قد أرشدت الى ما دعا اليه الرسول (ص) من التوحيد والبعث والآيات الدالة عليهما ، وان الثلاث التي بعدها أرشدت الى سبب تكذيب قريش بذلك وهو الحق المبين بالدليل،وأنذرتهم

عاقبة هذا التكذيب، وهو ما يحل بهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وانه لا يحول دونه ما هم مغرورون به من قوتهم وضعف الرسول (ص) وتمكنهم في أرض مكة وهي أم القرى وأهلها قدوة العرب . وقد بين تعالى في هذه الآيات الثلاث شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحي وبعثة الرسول (ص) فتم بها بيان أسباب جحودهم بأركان الايمان كلها كما سبقت الاشارة الى ذلك . وقد روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن اسحق ما قد يعد سببا لنزول الآية الثانية من هذه الثلاث قال : دعا رسول الله (ص) قومه الى الاسلام وكلمهم فأبلغ اليهم فقال له زمعة بن الاسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلدة وعبدة بن عبد يغوث وأبي بن خلف بن وهب والعاصي بن وائل بن هشام : لو جعل معك يامحمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك — فأنزل الله في ذلك من قولهم « وقالوا لولا أنزل عليه ملك » ولا تصح هذه الرواية في سبب نزول الآية ، وقد ذكرها السيوطي في الدر المنثور ولم يذكرها في (لباب النقول في أسباب النزول) واقتراح معاندي المشركين إنزال الملك مع الرسول ذكر في الفرقان وهود والاسراء ، وقد روي ان هذه السور الثلاث نزلت قبل الانعام ، والانعام نزلت جملة واحدة — على ماتقدم بيانه في أول تفسيرها — فما فيها من الرد عليهم في هذه المسألة انما هو رد على شبهة سبقت لهم وحكيت عنهم ، وكذلك اقتراح إنزال كتاب من السماء وإنزال القرآن جملة واحدة فهو في سورة الفرقان .

كان الرسول (ص) يتعجب من كفر قومه به وبما أنزل عليه مع وضوح برهانه ، وظهور اعجازه ، وكان يضيق صدره لذلك وينال منه الحزن والاسف كما قال تعالى في سورة هود (١١ : ١٢ فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك) وما في معناه — وكان الله عزوجل يبين له أسباب ذلك ومناشئه من طباع البشر وأخلاقهم واختلاف استعدادهم ليعلم ان الحجة مهما تكن ناهضة ، والشبهة مهما تكن داحضة ، فان ذلك لايستلزم الايمان بما قامت عليه الحجة ، وانحسرت عنه غمة الشبهة ، الا في حق من كان مستعدا له ،

وزالت موانع الكبر والعناد أو التقليد عنه ، فقوله تعالى ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا في

قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا لا سحر مبين ﴾ جاء بعد تلك الآيات البينات الواردة بأسلوب الحكاية وضمائر الغيبة مبينا هذا المعنى للرسول بأسلوب الالتفات الى خطابه صلى الله عليه وسلم، كأنه يقول: قد علمت ان علة تكذيبهم بالحق انما هي اعراضهم عن الآيات ، وما أقفلوا على أنفسهم من باب النظر والاستدلال ، لاخفاء الآيات في نفسها ، ولا قوة الشبهات التي تحول دونها ، ألم تر ان آيات التوحيد في الانفس والآفاق هي أظهر الآيات وأكثرها ، ولم يمنعهم من الكفر بها مبالغة الكتاب المعجز في تقريرها، ولو اننا نزلنا عليك كتابا من السماء في قرطاس كما اقترحوا فرأوه نازلا منها بأعينهم، ولمسوه عند وصوله الى الارض بأيديهم ، لقال الذين كفروا منهم كفر العناد والاستكبار: ماهذا الذي رأينا ولمسنا الا سحر بين في نفسه ، ثابت في نوعه ، وانما خيل الينا اننا رأينا كتابا ولمسناه ، وما ثم كتاب نزل ، ولا قرطاس رؤي ولا لمس . وكذلك قال أمثالهم في آيات الانبياء من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

الكتاب في الاصل مصدر كالكتابة ويستعمل غالبا بمعنى المكتوب فيطلق على الصحيفة المكتوبة وعلى مجموعة الصحف في مقصد واحد ، والقرطاس بكسر القاف (وتفتح وتضم لغة) الورق الذي يكتب فيه وقيل هو مخصوص بالمكتوب منه ، وقوله تعالى «في قرطاس» صفة له أو متعلق به. واللمس كالمس ادراك بظاهر البشرة كما قال الراغب وقال الجوهري المس باليد ، والصواب ان الاصل فيه المس بظاهر البشرة ولذلك يطلق بمعنى الوقاع كالملامسة ، ولكن لما كان أكثر اللمس باليد وقلما يقع بالقدم أو الساعد مثلا توهم انه خاص بمس اليد. وتقييد اللمس في الآية بالايدي يعين المراد منه بدفع احتمال التجوز به، اذ اللمس يستعمل مجازا بمعنى طلب الشيء والبحث عنه، يقال لمسه والتمسه وتلمسه — بهذا المعنى، ومنه (وأنا لمسنا السماء الدنيا) ويستلزم لمسه بالايدي رؤيته بالابصار ؛ قال قتادة: فعاينوه ومسوه بأيديهم . وقال مجاهد : فمسوه ونظروا اليه . والرؤية واللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها عن الخداع ولا سيما اذا اجتمعا، والثقة باللمس أقوى لان البصر قد يخدع بالتخييل. وقد قال تعالى في سورة الحجر (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا

انما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) ولكن مكابرة الحس بعد اجتماع أقوى إدراكيه — وهما الرؤية واللمس — وتقوية أحدهما الآخر قلما يقع الا من جاحد معاند مستكبر أو من مقلد أعمى لا تتوجه نفسه الى معرفة شيء يخالف ما تقلده من آبائه وقومه. وقال ابن المنير : الظاهر ان فائدة زيادة لمسهم بأيديهم تحقيق القراءة على قرب أي فقرءوه وهو بأيديهم لا بعيد عنهم لما آمنوا . اه والاول هو الظاهر المختار

والآية تدل على أن السحر خداع باطل ، وتخييل يري مالاحقيقة له في صورة الحقائق ، ويقول بعض المتكلمين ان السحر من خوارق العادات ، وان الفرق بينه وبين المعجزات انما هو في اختلاف حال من تصدر الخوارق على أيديهم لا في كون آيات الانبياء حقا وكون السحر باطلا ، والآية تبطل هذا القول ولا تقوم الحجة بها عليه ، اذ يكون معنى دفع المشركين حينئذ : ما هذا الكتاب الذي نزل على الوجه الذي اقترحنا الا خارقة من خوارق العادات لا ريب فيها ولكنها صدرت على يد ساحر فهي اذاً من السحر، لا على يد من ادعى النبوة حتى تسمى آية أو معجزة ، فيكون حاصله الطعن في شخص النبي (ص) وانكار ادعائه النبوة . وهذا المعنى مخالف للواقع على كون عبارة الآية تتبرأ من احتمال دنوه منها أو دخوله عليها من أحد الابواب الثلاثة (الحقيقة والمجاز والكناية) ولعله لم يخطر على بال أحد يفهم العربية وان كان من شيعة ذلك المذهب الكلامي الذي فسر السحر بما ذكر خلافا لظواهر الكتاب والسنة ، فقد نص القرآن على أن السحر تخييل لما ليس واقعا ، وأنه كيد ومكر ، وأنه يتعلم تعلما ، والخوارق لا تكون بالتعلم ، وقال تعالى على لسان كليمه موسى (ماجئتم به السحر ان الله سيبطله) وقال في آية أخرى (ليحق الحق ويبطل الباطل) فتعين أن يكون السحر باطلا لاحقا

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا يُنظرون ﴾

اقترح كفار مكة أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيرا مؤيدا له أمامهم اذ يرونه ويسمعون كلامه كما في سورة الفرقان (٢٥ : ٧) وما هنا ، وما هنا

حكاية لما هنالك فلذلك لم يقل « ملك فيكون معه نذيرا » اكتفاء بما سبق . بل اقترحوا أيضا أن ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم، بل طلبوا أكبر من ذلك : طلبوا أن يروا ربهم ويخاطب كل واحد منهم بما يريد من إرسال الرسول اليهم، كما في سورة الفرقان أيضا (٢٥ : ٢١) وقد قال الله في هؤلاء (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّا كبيرا) نعم ان هذا منتهى الكبرياء والعتو لانه تسامٍ واستشراف من أضل البشر وأسفلهم روحا الى ما لم يصل اليه أعلاهم مقاما في هذه الحياة الدنيا ، وأما اقتراحهم نزول الملك على الرسول فهو مبني على ضد ما بني عليه طلبهم لنزول الملائكة عليهم أو رؤية ربهم — هو مبني على اعتقاد أن أرقى البشر عقلا وأخلاقا وآدابا وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ليسوا أهلا لأن يكونوا رسلا بين الله وبين عباده لانهم بشر يأكلون ويشربون ويمشون في الاسواق — هذه شبهة المتقدمين منهم والمتأخرين : قال تعالى في هود وقومه (٢٣:٣٣ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا : ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون (٣٤) ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذاً لخاسرون) وحكى تعالى مثل هذا عن غيرهم في هذه السورة (سورة المؤمنين) وفي غيرها .

ومثل هذا التناقض والتضاد في حكم البشر لانفسهم وعليها معهود في كل زمان وكل مكان ، فهم يرفعون أنفسهم تارة الى ماهو أعلى من قدرها بما لا يحصى من الدرجات والمسافات البعيدة السحيقة ، ويهبطون بها تارة الى ما هو دون استعدادها بما لا يعد من الدركات العميقة . يتسامون تارة للبحث في عالم الغيب من الازل الذي لا يعرفون أوله ، الى الابد الذي لا يدركون نهايته ، وللكلام في كنه الخالق ، وفي كيفية صدور الوجود الممكن عن الوجود الواجب، ويعترفون تارة بالعجز عن معرفة كنه أنفسهم، والقصور عن الاحاطة بأنواع الجِنَّة[1] التي تعيش في بنيتهم ، وتؤثر في جميع المواد المحتاجين اليها في معيشتهم . يقولون تارة ان هذا الانسان سيد الاكوان، ومصداق قول الغزالي: ليس في الامكان أبدع مما كان ،

(١) الاحياء الدقيقة التي لاترى بالبصر المجرد المعروفة بالميكروبات

ويقولون تارة انه مظهر الظلم والخلل والفساد ، وانما يعظم أحدهم نفسه أو جنسه في مرآة نفسه ، ويحقر غيره أو نفسه متمثلة في مرآة جنسه ، ومن هذا الباب انكار الكفار لبعثة الرسل، وكانوا تارة يكتفون بجعل البشرية علة للانكار كما ترى في سورة هود وابراهيم والاسراء والمؤمنين ويس والقمر والتغابن — وتارة يصرحون بما في أنفسهم من الكبر واستثقالهم تفضيل الرسل على أنفسهم باتباعهم اياهم ، وعلى هذا بنوا اقتراح نزول الملائكة عليهم مباشرة أو على الرسل مؤيدة لهم كقول قوم نوح (٢٣: ٢٤ ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة)

جمع مشركو مكة بين الاقتراحين — كما تقدم آنفا — اقتراح نزول الملائكة عليهم، واقتراح نزول ملك على النبي يرونه بأعينهم، ولولا هذا القيد لم يكن للاقتراح فائدة، لأن النبي (ص) كان أخبرهم بأنه ينزل عليه الملك ، وكأنهم ظنوا ان مساواتهم له (ص) في البشرية تقتضي مساواته في الاستعداد لرؤية الملائكة وتلقي العلم عنهم ، وهذه أقوى شبهة للكفار على الوحي ، فانهم لغرورهم بأنفسهم ينكرون كل ما لا يصلون اليه بأنفسهم

وقد رد الله تعالى عليهم الاقتراحين من وجهين (أحدهما) أنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا لقضي الامر باهلاكهم ثم لا ينظرون أي لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا بل يأخذهم العذاب عاجلا كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم . قال ابن عباس في تفسير الآية: ولو أتاهم ملك في صورته لأهلكناهم ثم لا يؤخرون ، وقال قتادة يقول: لو أنزل الله ملكا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب . ولكن قال مجاهد في قوله لقضي الامر : أي لقامت الساعة . وذكر المفسرون في تفسير قضاء الامر هنا عدة وجوه (١) ان سنة الله في أقوام الرسل الذين قامت عليهم الحجة انهم كانوا اذا اقترحوا آية وأعطوها ولم يؤمنوا يعذبهم الله بالهلاك والاستئصال الذي تتولى تنفيذه الملائكة، والله تعالى لا يريد ان يستأصل هذه الامة ، التي بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة ، فالرحمة العامة تنافي هذا العذاب العام (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) (٢) ان المراد انهم لو شاهدوا الملك بصورته الاصلية كما يطلبون لزهقت أرواحهم من هول مايشاهدون (٣) ان رؤية الملك بصورته آية ملجئة يزول بها الاختيار الذي هو

قاعدة التكليف - وهذا على قاعدة المعتزلة، وعبارة الزمخشري في هذه المسألة من تعليلات قضاء الامر : واما لإنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة فيجب إهلاكهم (٤) انهم لما اقترحوا ما لا يتوقف عليه الايمان— اذ يتوقف على المعجز مطلقا وقد حصل لا المعجز الخاص الذي طلبوه — فاذا أعطوه كانوا على غاية الرسوخ في العناد المناسب للاهلاك وعدم النظرة. وأول هذه الاقوال أقواها وأضعفها آخرها . وفي معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة الحجر (ماننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذاً منظرين) أي ماكان شأننا الذي مضت به سنتنا أن ننزل الملائكة الا بالامر الحق وهو الرسالة للرسل أو العذاب للامم الذين يعاندون الرسل فيقترحون عليهم الآيات المخصوصة ويعلقون إيمانهم عليها ثم يصرون على جحودهم وكفرهم بعد ان يعطوها ، فلو نزلت الملائكة عليهم ما كانوا اذ تنزل الا هالكين لا ينظرون أي لا يمهلون طرفة عين . وما كان الله ليهلك هذه الامة ، ولا من أعدهم لهدايتها من قوم نبي الرحمة . باجابة اقتراحات أولئك المستكبرين المعاندين منهم ، وهم انما يقترحون الآيات ، لاجل التعجيز دون استبانة الاعجاز . وهو يعلم انهم ان أعطوها ما كانوا بها مؤمنين ، وبذلك مضت السنة في أمثالهم من الغابرين

ومن نكت البلاغة ما بينه الزمخشري من حكمة العطف بثم وهي إفادة ما بين قضاء الامر وعدم الانظار من البعد: جعل عدم الانظار أشد من قضاء الامر ، لان مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

(الوجه الثاني) في الرد عليهم قوله تعالى ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ أي لو جعل الرسول ملكا لجعل الملك متمثلا في صورة البشر ، ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن الله تعالى ، ولو جعله ملكا في صورة البشر لا عتقدوا أنه بشر لانهم لا يدركون منه الا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها ، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرا ، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكا ، وقد كانوا في غنى عن هذا ، وانما شأنهم فيه شأن أكثر الناس حتى العلماء منهم فيما يوقعون

فيهم أنفسهم من المشكلات بسوء اختيارهم، وما يخترعونه من الشبهات بسوء فهمهم، ثم يحارون في أمر المخرج منها . مادة ل ب س تدل على الستر والتغطية . يقال لبس الثوب يلبسه (بكسر الباء في الماضي وفتحها في المضارع) وهو من الستر الحسي ، ويقال لبس الحق بالباطل يلبسه (بفتح باء الاول وكسر باء الثاني) بمعنى ستره به أي جعله مكانه ليظن انه الحق ، ولبست عليه أمره أي جعلته بحيث يلتبس عليه فلا يعرفه — وهذا كله من الستر المعنوي

وقد عال جمهور المفسرين جعل الملك بصورة البشر في هذه الحالة بأن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة في صورتهم الاصلية ، وتقدم في تفسير الآية السابقة قول من علل بذلك قضاء الامر بهلاكهم بمجرد نزول الملك ، واستدلوا على ذلك بتمثل الملائكة لابراهيم ولوط بصورة الناس وتمثل جبريل لمريم بشرا سويا ، وظهوره للنبي (ص) بصورة دحية الكلبي غالبا وبصورة غيره احيانا كما في حديث الايمان والاسلام وغيره، وذكر بعضهم من خصائص النبي (ص) انه رآه في صورته الاصلية مرتين فقط . وقد نازع آخرون في عد هذا خصوصية له (ص) اذ لا يثبت ذلك الا بنص ولا نص في المسألة وانما ورد من حديث ابن مسعود عند الامام احمد وحديث عائشة عند الترمذي انه لم يره في صورته التي خلقه الله عليها الا مرتين. وقد ورد ان من الصحابة من رأى الملائكة في غير صورة البشر كرؤية اسيد بن حضير لهم في مثل الظلة فيها أمثال المصابيح كما رواه الشيخان عنه ، ولكن هذا تمثيل أيضا

والمختار عندنا ان البشر في حالتهم العادية غير مستعدين لرؤية الملائكة والجن في حالتهم التي خلقوا عليها كما قال تعالى في الشيطان (انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) لأن أبصار البشر لا تدرك كل الموجودات بل تدرك في عالمها هذا بعض الاجسام كالماء وما هو أكثف منه من الاجرام الملونة دون ما هو ألطف منه كالهواء وما هو ألطف منه كالعناصر البسيطة التي يتألف منها الماء والهواء، والملائكة والجن من عالم آخر غيبي . وهذا العالم مما يعده المتكلمون في الفلسفة وراء عالم المادة، وليس عند المسلمين عالم غير مادي ، ولذلك يعدون الملائكة والجن من الاجسام اللطيفة، ويقولون انهم قادرون على التشكل في صور الاجسام الكثيفة، فمثل تشكلهم

كمثل تشكل الماء في صورة البخار اللطيف والبخار الكثيف وصورة المائع السيال وصورة الثلج والجليد ، ولكن الماء يتشكل بما يطرأ عليه من حر وبرد بغير اختيار منه، وذانك يتشكلان باختيارهما اذ جعل الله لهما سلطانا على العناصر التي تتركب منها مادة العالم أقوى من سلطان البشر الذين يتصرفون فيها بأيديهم لا بأنفسهم وماهياتهم ، فهم لا يقدرون على تحليل أبدانهم وتركيبها مع غيرها من المواد. فاذا تمثل الملك أو الجان في صورة كثيفة كصورة البشر أو غيرهم أمكن للبشر أن يروه. ولكنهم لا يرونه على صورته وخلقته الاصلية بحسب العادة وسنة الله في خلق عالمه وعالمهما، فاذا وقع ذلك كرؤية النبي (ص) لجبريل مرتين كان من خوارق العادات ، والخوارق لا تثبت الا بنص، لانها خلاف الاصل، وقد يقال ان رؤيته بصورته لا ينافي التشكل، اذ يجوز ان تكون مادة صورته اللطيفة التي لا ترى قد ظهرت بمادة كثيفة فيكون التشكل في هذه الحالة بمادة جديدة مع حفظ الصورة الاصلية ، والتشكل في غيرها بالمادة والصورة معا ، على ان لأرواح الانبياء من التناسب مع أرواح الملائكة ما ليس لغيرها ، ففي الحال التي تغلب بها روحانيتهم على جثمانيتهم يكونون كالملائكة فيجوز ان يروهم بأي صورة وشكل تجلوا لهم فيه

هذا وان ما لا يرى قد يدرك بضرب من ضروب الادراك غير الرؤية فاذا كان الملك مخلوقا عاقلا عالما وكان في لطافته من قبيل الارواح البشرية التي هي محل العلم والادراك في البشر فلم لا يجوز أن يكون لهذين النوعين من الارواح الموجودة في هذا الكون نوع من الاتصال يقتبس به أحدهما من الآخر شيئا من العلم، كما يقتبس البشر بعض العلم البشري من الجو اذ يبث الاخبار فيه بعضهم بالآلات الكهربائية (المعروفة بالتلغراف اللاسلكي — أو الاثيري والهوائي) و يقتبسها آخرون؟ بل ثبت ان الانفس البشرية يقتبس بعضها العلم من الموجودات — بشرا كانت أو غير بشر — بغير واسطة الحواس والاستنباط العقلي كما روى بعض الاطباء الماديين الذين كانوا ينكرون مثل هذا عن مريض كان يعالجه في القاهرة انه قال ان فلانا — وذكر قريبا له في الاسكندرية — يريد أن يسافر الآن الى مصر لاجل عيادتي ، ثم انه عين القطار الحديدي الذي ركب فيه ثم الوقت الذي وصل فيه الى

محطة مصر، ثم لم تكن الا مسافة سير المركبة بين المحطة ودار المريض الا وقد وصل هذا القريب، وكان ينتظره لاستبانة المكاشفة ذلك الطبيب، وروى عنه غير ذلك من المكاشفات، ومثل هذا يقع كثيرا في كل عصر، فلم لا يجوز أن يقتبس البشر العلم بمثل هذه المكاشفة عن الملائكة وأرواح البشر الميتين كما يقتبسونها من احياء البشر ومن غير البشر من الاشياء ؟

نقول ان هذا جائز عقلا ومروي نقلا، ولكنه كغيره يتوقف على الفاعل والقابل، فاذا تدبرنا ماورد في الكتاب والسنة من خبر الوحي والالهام يظهر لنا منه أن الانسان ليس له سلطان على ملائكة السماء، كسلطانه على ما في الارض من أبناء جنسه وسائر الاشياء، فلا يستطيع كل فرد من أفراده أن يدرك هؤلاء الملائكة ويقتبس منهم العلم شاؤا أم أبوا، ولكن بعض الارواح البشرية قد تصل بطهارتها وعلو مكانتها الى قابلية التلقي عن الملائكة، لمابينها و بينهم من القرب والمناسبة، وهذه القابلية نوعان

(النوع الاول) ما يختص به الله تعالى أنبياءه ورسله بدون سعي منهم ولا كسب، فيؤهلهم لنبوته ورسالته، و ينزل عليهم الملائكة بالروح من أمره، فلا القابل الذي يتلقى عن الملك يكون له كسب أو اختيار فيما يوحى اليه، ولا الفاعل وهو الملك الذي ينزل بالوحي يكون له اختيار فيما يوحيه، بل يفعل ما يأمره الله تعالى به ولا يستطيع ان يعصيه. ولكمال استعداد الانبياء وعلو أرواحهم يرون الملائكة في صورهم الاصلية قليلا. و يتمثل الملك لهم بصورة البشر أو يلابسهم ملابسة روحية فيلقي في أرواحهم ماشاء الله ان يلقيه وهو الاكثر، وهذا النوع قدختم وتم ببعثة محمد خاتم النبيين، عليه أفضل الصلاة والتسليم، وما هو من شؤون البشر الكسبية، فيبقى ببقائهم

(النوع الثاني) ما يمنحه الله تعالى من التثبيت في الحق والالهام لمن دون الانبياء من خيار خلقه الذين سلمت فطرتهم، وصفت سريرتهم، وزكت بالعمل الصالح أنفسهم، حتى غلبت فيها الصفات الملكية، على النزعات الحيوانية والنزغات الشيطانية، فالارواح البشرية العالية، قد تقوى المناسبة بينها و بين الملائكة،

فتستفيد من أرواح الملائكة قوة في الخير والحق ، وثباتا على الصلاح والجهاد ، (اذ يوحي ربك الى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقد تستفيد منها علما بالحق وبشارة بالخير ، وهو ما يسمى التحديث والإلهام ، ومنه بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام وتمثل جبريل لها عند ما أراد الله ان تحمل بنفخه فيها ، وقد ثبت في الحديث الصحيح ان عمر بن الخطاب كان من المحدَّثين الملهمين ، وقد عبر النبي (ص) عن ملك الالهام بأنه « واعظ الله في قلب كل مؤمن » في حديث النواس بن سمعان عند احمد والترمذي ، ويوضحه حديث ابن مسعود « إن للشيطان لَمَّةً بابن آدم وللملك لمة ؛ فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله تعالى فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » رواه الترمذي والنسائي في السنن الكبرى وابن حبان في صحيحه . وعلم عليه في الجامع الصغير بالصحة .

وقد أطال الامام الغزالي في ايضاح هذا المطلب في كتاب شرح عجائب القلب من الاحياء ، وتقدم في تفسير سورة البقرة من الجزء الاول بحث فيه . والماديون المحجوبون ينكرون مثل هذا « ومن جهل شيئا عاداه » ولو قيل لمن كان على شاكلتهم قبل اكتشاف هذه الجنة (الميكروبات) ان في العالم أنواعا كثيرة من المخلوقات الخفية التي لا يمكن ان يراها أحد بعينيه هي سبب الادواء والامراض التي لا تحصى ، وهي سبب التغيرات والاختمارات التي نراها في المائعات والفواكه وغيرها — لقالوا انما هذه خرافة من الخرافات . وقد كان غير المؤمنين يعدون من هذا القبيل حديث أبي موسى « الطاعون وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة » رواه الحاكم وصححه ، ثم صاروا بعد اكتشاف باشلس الطاعون يتعجبون منه بصدق كلمة ابن على ميكروب الطاعون كغيره ، وقد ورد ان الجن أنواع منها ما هو من الحشرات وخشاش الارض كما في الفتاوى الحديثية لابن حجر الفقيه

وقد بين الاستاذ الامام النوع الاول في رسالة التوحيد أكمل بيان ، وبأوضح برهان ، واختصر في بيان النوع الثاني فقال :

« أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم

من مراتب الانبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الانس ، بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس ، لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقيتها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله عليهم . ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف ، ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الاثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم ، المتلالئ في بصائرهم ، الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ، ومآل من غرّروا به ، ولا يكون لهم الا سوء الاثر في تضايل العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزؤا بهم ، الا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار = فلم يبق بين المنكرين لاحوال الانبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبؤا به بل وبوقوعه الاحجاب من العادة ، وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة »

---

(١٠) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ

بعد ان بين الله تعالى لخاتم رسله سنته في شبهات الكفار المعاندين على الرسالة ، واصرارهم على الجحود والتكذيب بعد إعطائهم الآيات التي كانوا يقترحونها وعتابه تعالى إياهم على ذلك — بين له شأنا آخر من شؤون أولئك الكفار مع رسلهم وسنته تعالى في عقابهم عليه فقال

﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾

(اللفظ) ظاهر كلام نقلة اللغة ان الهزء (بضمتين وبضم فسكون) والاستهزاء بمعنى السخرية، وأن قولهم هزئ به واستهزأ به مرادف لقولهم سخر منه، ويفهم من كلام بعض المدققين ان الحرفين متقاربا المعنى ولكن بينهما فرقا لا يمنع من استعمال كل منهما حيث يستعمل الآخر كثيرا، قال الراغب: الهزؤ مزح في خفية (كذا ولعل صوابه في خفة) وقد يقال لما هو كالمزح، فما قصد به المزح قوله (اتخذوها هزوا ولعبا * واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا * واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا) ... والاستهزاء ارتياد الهزؤ وان كان قد يعبر به عن تعاطي الهزؤ. كالاستجابة في كونها ارتيادا للاجابة وان كان قد يجرى مجرى الاجابة، قال (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون * وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) الخ – وقال: وسخرت منه واستسخرته للهزؤ منه. وقال الزمخشري في أوائل تفسير سورة البقرة: والاستهزاء السخرية والاستخفاف، وأصل الباب الخفة من الهزء وهو القتل السريع، وناقته تهزأ به أي تُسرع وتخف اه. وقال في الاساس: واستخف به استهان. وقال فيه: فلان سُخرة سُخَرة: يُضحك الناس ويَضحك هو منهم

أقول فيؤخذ من هذا ومن استعمال الناس لكلمة الهزؤ والاستهزاء الى اليوم ان معنى الاستهزاء بالشيء الاستخفاف والاستهانة به، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم الاهتمام بأمره، وكثيرا ما يصحب ذلك السخرية منه وهي الضحك الناشئ عن الاستخفاف والاحتقار، أو ما شأنه أن يثير هذا الضحك من قول وعمل، فمن حاكى امرءا في قوله أو عمله أو زيه أو غير ذلك من شؤونه محاكاة انتقاد واحتقار فقد سخر منه، فالسخرية تستلزم الهزؤ والاستخفاف، وهي خاصة بالاشخاص دون الاشياء، وقد يوجد الاستهزاء بغير سخرية، فأكثر ما حكاه الله تعالى عن استهزاء الكفار بآيات الله معناه الاستهانة بأمرها، وانهم لم يقدروها قدرها، ولم يرد قط بمعنى أنهم كانوا يضحكون منها. ولما أمر موسى بني اسرائيل بذبح بقرة (قالوا أتتخذنا هزؤا) ويظهر في معنى الهزؤ هنا ما قاله الراغب من انه المزاح الذي سببه الاستخفاف، وقال تعالى (فاتخذتموهم سخريًا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون) وقال في نوح (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه)

الآية . روي أنهم كانوا يضحكون من فعله و يستجهلونه به .

وحاق به المكروه يحيق حيقا وحيوقا أحاط به فلم يكن له مخرج منه

(المعنى) أخبر الله تعالى رسوله خبرا مؤكدا بالقسم أن الكفار قد استهزؤا برسل كرام عظام من قبله ، — فتنكير « رسل » في الآية للتعظيم فلا ينافي عموم الاستهزاء المبين في قوله تعالى (ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون) — فما يراه من استهزاء طغاة قريش به واستخفافهم بأمره ليس ببدع جديد بل اتبعوا به سنن من قبلهم من أعداء الرسل المعاندين لهم ، — وأن الذين انتهى بهم ذلك الاستهزاء الى السخرية والضحك من الرسل فكانوا يعبثون بهم و يضحكون منهم ، استخفافا بأمرهم وتكذيبا لنذرهم ، قد حاق بهم عقب اتخاذهم الرسل سخريا جزاء ذلك الامر الذي كانوا يستهزءون به ذلك الاستهزاء ، الذي أفضى بهم الى ضحك الازدراء ، بما فقدوا من قابلية الاهتداء ، اذ أحاط بهم العذاب الذي أنذرهم إياه الانبياء ، أو حاق بهم نفس ذلك الامر الذي كانوا يستهزئون به بمعنى انه كان سبب تعذيبهم وإهلاكهم — فالآية تعليم للنبي (ص) وتسلية له عن إيذاء قومه ، وبشارة له بحسن العاقبة ، وما سيكون له من إدالة الدولة ، وقد كان جزاء المستهزئين بمن قبله من الرسل عذاب الخزي بالاستئصال ، ولكن الله كفاه المستهزئين به فأهلكهم ولم يجعلهم سببا لهلاك قومهم ، وامتن عليه بذلك في سورة الحجر اذ قال (انا كفيناك المستهزئين) والمشهور أنهم خمسة من رؤساء قريش هلكوا في يوم واحد.

ولما كان كون أمر المستهزئين بالرسل الى الهلاك بحسب سنة الله المطردة فيهم مما يرتاب فيه مشركو مكة الذين يجهلون التاريخ ، ولا يأخذون خبر الآية فيه بالتسليم ، أمر الله تعالى رسوله بأن يدلهم على الطريق الذي يوصلهم الى علم ذلك بأنفسهم فقال

﴿ قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي قل أيها الرسول للمكذبين بك من قومك الذين قالوا : لولا أنزل عليه ملك : سيروا في الارض كشأنكم وعادتكم، وتنقلوا في ديار أولئك القرون الذين مكناهم في الارض ومكنا لهم فيها ما لم نمكن لكم ، ثم انظروا في أثناء كل رحلة من رحلاتكم آثار ما حل بهم من الهلاك ، وتأملوا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم، وما تسمعون

من أخبارهم ، وانما قال «عاقبة المكذبين» ولم يقل «عاقبة المستهزئين» أو الساخرين — والكلام الاخير في هؤلاء لا في جميع المكذبين — لان الله تعالى أهلك من القرون الاولى جميع المكذبين ، وان كان السبب المباشر للاهلاك اقتراح المستهزئين الآيات الخاصة على الرسل ، فلما أعطوها كذب بها المستهزئون المقترحون وغيرهم من الكافرين الذين كانوا مشغولين بأنفسهم ومعايشهم عن مشاركة كبراء مترفيهم بالاستهزاء والسخرية ، واذا كان المكذبون قد استحقوا الهلاك وان لم يستهزءوا ولم يسخروا فكيف يكون حال المستهزئين والساخرين ؟ لا ريب انهم أحق بالهلاك وأجدر، ولذلك أهلك الله المستهزئين من قوم نبي الرحمة ولم يجبهم الى ما اقترحوه لئلا يعم شؤمهم سائر المكذبين معهم ، ومنهم المستعدون للايمان الذين اهتدوا من بعد

ومن نكت البلاغة في الآية انه قال فيها « ثم انظروا » وقد ورد الامر بالسير في الارض والحث عليه في آيات أخرى من عدة سور وعطف عليه الامر بالنظر بالفاء (راجع ٩٩ من سورة النمل و ٤٢ من سورة الروم و ١٠٩ من سورة يوسف و ٤٤ من سورة فاطر الخ) قال الزمخشري في نكتة الخلاف بين التعبيرين : (فان قلت) أي فرق قوله « فانظروا » وقوله « ثم انظروا » (قلت) جعل النظر مسببا عن السير في قوله « فانظروا » فكأنه قيل سيروا لاجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين . وأما قوله « سيروا في الارض ثم انظروا » فمعناه إباحة السير في الارض للتجارة وغيرها من المنافع وايجاب النظر في آثار الهالكين ، ونبه على ذلك بثم لتباعد مابين الواجب والمباح اه

وقال احمد بن المنير في الانتصاف : وأظهر من هذا التأويل ان يجعل الامر في المكانين واحدا ليكون ذلك سببا في النظر ، فحيث دخلت الفاء فلاظهار السببية وحيث دخلت ثم فللتنبيه على ان النظر هو المقصود من السير ، وان السير وسيلة اليه لا غير ، وشتان بين المقصود والوسيلة . والله أعلم اه

وفي روح المعاني عن بعضهم ان التحقيق انه سبحانه قال هنا « ثم انظروا » وفي غير ما موضع « فانظروا » لان المقام هنا يقتضي «ثم» دونه في هاتيك المواضع ، وذلك لتقدم قوله تعالى فيما نحن فيه (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم

في الارض) مع قوله سبحانه وتعالى (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) والاول يدل على ان الهالكين طوائف كثيرة ، والثاني يدل على ان المنشأ بعدهم أيضا كثيرون، فيكون أمرهم بالسير دعاء لهم الى العلم بذلك ، فيكون المراد به استقراء البلاد ،ومنازل أهل الفساد على كثرتها ، ليروا الآثار في ديار بعد ديار ، وهذا مما يحتاج الى زمان ومدة طويلة تمنع من التعقب الذي تقتضيه الفاء ، ولا كذلك في المواضع الاخر. انتهى

قال الآلوسي بعد إيراده : ولا يخلو عن دغدغة ، واختار غير واحد ان السير متحد هناك وهنا ولكنه أمر ممتد يعطف النظر عليه بالفاء تارة نظرا الى آخره، وبثم أخرى نظرا الى أوله ، وكذا شأن كل ممتد اه ما أورده الآلوسي ، والظاهر في الاخير ان يكون العطف بالفاء نظرا الى الاول وبثم نظرا الى الآخر عكس ماذكره فتأمل

ثم أقول: ولعل من يتأمل ماوجهنا به الكلام في تفسير الآية ، قبل النظر في هذه النكت كلها يرى أنه هو المتبادر من النظم بغير تكلف ، وانه يشبه ان يكون مستنبطا من مجموع تلك النكت ، مع زيادة عليها تقتضيها حال المخاطبين بالامر بالسير هنا وهم كفار مكة المعاندون الكثيرو الاسفار للتجارة الغافلون عن شؤون الامم والاعتبار بعاقبة الماضين وأحوال المعاصرين

آراء الخواص فى المسألة العربية

﴿ واستقلال الشريف في الحجاز ﴾

في ليالي رمضان وأيام عيد الفطر تيسر لي أن أعرف من آراء أهل العلم والرأي بمصر في المسألة العربية واستقلال الشريف أمير مكة في الحجاز ما لم يكن يتيسر في وقت آخر من السنة ، لكثرة التزاور في هذه الليالي والايام ، وتوسع الناس فيها بالكلام كتوسعهم بالطعام ، وقد جرت فيها بيننا وبين كثير من أساتذة الازهر والمدارس العليا وكبار القضاة والمحامين والاطباء وغيرهم من أهل الرأي مذاكرات

ومحاورات طويلة في هذه المسألة جديرة بأن تنشر وتدوّن لانهـا ربما كانت أهم مسائلنا الحاضرة ، ووقائع تاريخنا التي نحفظها لأعقابنا الآتية ، فرأينا ان ننشر في المنار أطول محاورة منها وأجمعها للمقاصد ، ثم نلخص في الخاتمة صفوة الآراء كلها، وبذلك تتم الفائدة من تلك الاحاديث بغير تكرار ولا عبث . وهذه المحاورة كانت بيننا وبين استاذ معروف باعتدال الفكر واستقلال الرأي ، وقد وقعت في اليوم الثاني بعد عيد الفطر ، وها هي ذي — ونعبر عن الاستاذ بحرف ذ وعن نفسنا بحرف د :

د — ما رأي الاستاذ في استقلال الشريف أمير مكة بالحجاز ، فاني رأيت كثيرا من إخواننا ومعارفنا لا يعد ذلك أمرا ذا بال ، ومنهم من لم يصدق أخبار الجرائد. حتى ان أخانا الشيخ .أ. قال لي في احدى ليالي رمضان عقب نشر البلاغ الرسمي عن استقلال الشريف إنه لا يعرف أحدا صدّق هـذا الخبر من قبل ، وانه هو لم يصدقه أيضا الا بعد نشر البلاغ الرسمي ، وان من الناس من لا يصدق البلاغ الرسمي نفسه ! وما أظن ان الاستاذ على رأي هؤلاء ، ولا انك تقول ان هذا الامر ليس بذي بال

ذ — صدقت، ان هذا الامر لذو بال، وانه قد شغل مني البال وهيج البلبال . واني مخالف لهؤلاء الناس الذين أصبحوا لايهتمون بشيء من الا شياء ، ولا يصدقون من الانباء الا مايلذ لهم ، ولا يقبلون من الآراء الا ما يوافق أهواءهم ، ولذلك راج بينهـم رأي تلقوه بالقبول ، وهو ان الشريف لم يعلن الاستقلال الا لضرورة إنقاذ البلاد من المجاعة التي أوقعها فيها الحصر البحري أو كاد ، فقد امتنع بذلك وصول الاقوات اليها من مصر والسودان والهند وجلّ قوتها من هذه البلاد، حتى قيل ان أردب القمح صار في مكة ببضعة جنيهات ، فعـذر الشريف في إظهار دعوى الاستقلال جلي ظاهر ، وهو لا يزال مخلصا للحكومة التركية في الباطن، وليس له غرض في ايجاد حكومة عربية . ولا طمع في خلافة قرشيـة ، ولولا ذلك لقاتلته الدولة . هذا هو الرأي الرائج في البلد

أما أنا فلا أجزم بقبول هـذا الرأي ولا برده ، وان كان معقولا في نفسه ، لاني أعلم أنه قد وجد في عالم السياسة مسألة تسمى المسألة العربية، ولكن لم أقف على

كنهها ومبلغ قوتها ، ولا على مكانها من الشريف ومكان الشريف منها ، وأعلم أيضا ان الحجاز ليس فيه الاستعداد المطلوب لإنشاء دولة ، ولا القوة التي يتوقف عليها استقلال الخلافة ، وحياة أهله موقوفة على الدولة التي تملك التصرف في البحار ، والدولة ذات السيادة على بلاد الشام ، فاذا منع عنه القوت من هنا وهنك مات أهله جوعا، ثم ان المشهور ان أمراء جزيرة العرب وزعماءها متحاسدون متباغضون « بأسهم بينهم شديد » ولولا سيطرة الدولة العثمانية عليهم لأفنى بعضهم بعضا . والشريف — اذا كان يأمن بطش الدولة الآن فهو لا يجهل انها اذا بقي لها استقلالها بعد هذه الحرب أمكنها الانتقام منه و إزلة إمارة الحجاز وجعله ولاية عثمانية محضة ، واذا زال استقلالها وفرضنا انه أمن على استقلاله من صاحب عسير وصاحب نجد فانه ليس بالذي يكوّن الملك المستقل الذي يطلبه العرب ، ولا بالذي يجدد الخلافة الاسلامية التي يحرص على استقلالها جميع مسلمي الارض . لان الاستقلال بأمر الملك والخلافة يتوقف على الثروة والقوة وأين هما من الحجاز وأين الحجاز منهما ؟

فلهذه الافكار تراني مضطربا في هذه المسألة ، وانا أعلم ان عند (السيد) من أخبار هذه المسألة والاختبار فيها ما ليس عندي ولا عند أحد من المصريين ، فهو أعلم منا بشؤون جزيرة العرب وشؤون أمرائها ، واعلم منا بظاهر الحركة العربية وباطنها وأحوال أحزابها وجمعياتها . كما أنه أوسع منا علما بأحوال الدولة العلية وأوسع اختبارا لها وأكثر تتبعا لما يتجدد من أخبارها ، يعترف له بهذا من يقرأ بروية وامعان ما يكتبه في هذه المسائل في مجلته ، وانني أود أن أقف على ما عنده في مسألة الحجاز من رأي ورواية بالتفصيل ، وقد تعرضت لهذا غير مرة فلم تكن حالة المجلس أو الوقت مما يسمح للسيد بالافاضة في ذلك ، فعسى ان نستفيد الآن ما فاتنا من قبل

د — لم أنس ان باب الحديث في هذه المسألة قد فتح بيننا مرتين قبل هذه المرة ، فكان الكلام فيها وجيزا لضيق وقته ، على أن الحديث شجون ، والإنسان يتذكر في وقت ما ينساه في آخر ، فاذا ذكره محدثه تذكر ، وانني لا أبخل على الاستاذ بما عندي في هذه المسألة من رأي أو خبر أرى فيهما فائدة له ، فاذا حدثته بشيء لم يره كافيا فله أن يستزيدني من الحديث بالسؤال عما يريد منه ، ولا بأس

باعادة شيء مما كنا ألممنا به من قبل . وأبدأ ببيان ما عندي في مسألة استقلال الشريف فأقول :

ان الشريف لم يدع ملكا ولا خلافة فلا كلام لنا في ذلك وما ذكرته لي من الرأي الذي دار بين كثير من المصريين في سبب استقلاله في الحجاز وتلقوه بالقبول قد سمعته من غيرك أيضا . وهو رأي كما قلت معقول ، وعذر الشريف فيه مقبول، ولا سيما ان كان الاستقلال صوريا كما تظنون ، فانه مسؤول عند الله وعند الناس عن إنقاذ سكان حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم من الهلاك . وازالة الموانع التي منعت أكثر المسلمين من الحج الى بيت الله الحرام ، ولا سبيل الى هذا وذاك الا بازلة الحصر البحري عن ثغور الحجاز ، الذي كان سببه وجود الجنود التركية فيها ، فان دولة انكلترة كانت صرحت باستثناء سواحل الحجاز من الحصر البحري الذي ضربته على جميع السواحل العثمانية ، وسمحت بنقل الاقوات من الهند وغيرها الى تلك البلاد المقدسة ، ثم انها لما علمت بارسال أنور باشا لكثير من الجنود التركية الى الحجاز منعت إرسال الاقوات اليه لان الجنود يستفيدون منها ، وقد كان من المستغرب تموينها لبعض بلاد أعدائها ولكن تموينها لجيوشها غير معقول ، وانما المعقول ضده ، ولولا احترامها للبلاد المقدسة لضربت سواحلها بمدافع أسطولها وجعلتها من ميادين الحرب أيضا ، ولكن إزالة الشريف أمير مكة للسبب الذي أوجب الحصر ، ومنع القوت والحج ، مناواة للدولة التركية أو الاتحادية لانه تصدى لقتال جنودها ، ورفع سيادتها عن البلاد التي هو أميرها ، فالشريف قد اضطر الى الاستقلال بالامر في الحجاز ونبذ سيادة هذه الحكومة الاتحادية ظهريا .

ونحن نخالف من يرى من المصريين ان هذا الاستقلال صوري وانه كان بالتواطؤ بينه وبين الدولة ، ومن يرى أنه لا يزال مخلصا لهذه الحكومة وأنها هي راضية عن فعله وعاذرة له فيه ، لاننا نعلم أن إزالة منع القوت ومنع الحج ليس هو الباعث على هذا الاستقلال ولكنه من لوازمه . وهنالك بواعث وأسباب أخرى له سنلم بها في حديثنا

ذ — اذاً لماذا لم تجرد الدولة جيشا لقتاله؟ ولماذا حاصرهو الجيش التركي حصارا ولم يناجزه القتال ؟

د - أما الشريف فيمنعه دينه من الاقدام على سفك الدم في ارض الحرمين الشريفين من غير ضرورة ملجئة لامندوحة عنها . وأما الدولة فالمانع لها من ارسال جيش جديد لقتاله إما العجز وإما العقل، أما العجز فهو الآن غير بعيد ، لان جنود الدولة متفرقون في عدة ميادين من أوربة وعدة ميادين في الاناضول وايران والعراق وسورية وسيناء فهي لاتستغني عن جيش كبير يصلح ماعطل من سكة حديد الحجاز ويبقى قسم منه في مواضع متفرقة من الطريق لحمايتها، و يسير قسم منه لانقاذ حامية المدينة ثم الزحف منها الى مكة مع حفظ طرق مواصلاته من مركز تموينه وإمداده في الشام الى مكة . وأما العقل فيقتضي عدم التصدي لقتال الشريف الآن حتى في حال القدرة وانتفاء العجز، لان قتاله يضعف الدولة في الميادين الاخرى وربما يستتبع خروج عرب الجزيرة كلهم أو جلهم عليها فيتسع الخرق على الراقع ، والسكوت عنه لايضر الدولة الآن فان انتهت الحرب بظفرها مع أحلافها أمكنها أن تتصرف في الحجاز بما تشاء، وان انكسرت مع أحلافها فلامعنى لاهتمامها بأمر استقلال الحجاز اذ يفرق المنتصرون حينئذ شمل وحدتها، ويخشى ان يزيلوا ماكان من استقلالها ، بل المعقول أن يتمنى كل مسلم من ترك الدولة كهربها أن تسلم بلاد الحجاز وسائر بلاد العرب من الوقوع تحت تصرف الحلفاء المنتصرين في هذه الحالة ، ولولا أن الدولة في أيدي الاتحاديين لرجحنا أن العقل يمنعها من قتال الشريف ان لم يمنعها العجز ، وأما الاتحاديون فقد جعلوا من أصول سياستهم اضعاف العرب حتى لايكون لهم حقوق مع الدولة ان بقيت ، ولا استعداد للاستقلال بأنفسهم ان سقطت ، ولسان حالهم مع العرب في هذه الحالة يقول :

أقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي

وقد سمع من أفواههم كثير من طلاب الاصلاح من العرب ما يدل على مثل هذا من مقاصدهم عند ما كانوا يتكلمون معهم في حقوق العرب في الدولة وفي أحوال أخرى ؛ ألا ترى انهم اتخذوا حالة الحرب ذريعة لتنفيذ مقاصدهم في العرب ، فكان المعقول أن يثبتوا لعرب الولايات صدق وعودهم بالاصلاح ويفوا لهم بعهودهم التي عقدوها مع السيد الزهراوي عقب عقد المؤتمر العربي، ويزيدوهم على ذلك من

الاصلاحات الداخلية ما يملكون به قلوبهم كما ملكوا أبدانهم وأموالهم فاستعملوها في هذه الحرب كما شاؤا ، وفي أمثالنا العربية * عند الشدائد تذهب الاحقاد * ولكن أمثالنا لا تصدق على طباعهم وأخلاقهم بل تضادها وتناقضها ، فالشدائد كانت عندهم مظهرة للاحقاد في أقبح مظاهرها وأشنع مناظرها ، فبعد أن جندوا جميع شبان سورية والعراق وفرقوهم في الميادين البعيدة عن بلادهم كالدردنيل والبلقان والاناضول - و بعد ان صادروا الاموال والغلال في تلك البلاد ، طفقوا يقتّلون أولي العلم والعرفان وكبار الضباط وسائر أرباب العقول والافكار في كل من القطرين (السوري والعراقي) وينفون الكبراء والاغنياء ويستولون على ديارهم وأموالهم

و بعد أن رأوا مأربهم هذا قد تحقق بغير معارضة ولامقاومة ، ولوا وجوههم شطر الحجاز ، لا لاجل الصلاة الى المسجدالحرام، ولا لاجل الطواف بين الركن والمقام ، فانهم لم يكونوا من الطائفين ولا المصلين، ولكن ليفعلوا في الحجاز ما فعلوا في العراق والشام، حتى اذا تم لهم هذا الارب ، أجهزوا على بقية جزيرة العرب ،

ذ - اني أعلم ان السيد سيء الاعتقاد في دين هؤلاء الاتحاديين وفي سياستهم ، وقد قرأت كل ما كتبه في السنين الخالية عنهم ، ولكنني رأيته قد سكت عن ذلك الطعن الشديد فيهم بعد حرب البلقان ، ثم تنسمت عطفه عليهم من بعض ما كتبه قبيل دخولهم هذه الحرب وفي اثنائها ، وكنت أظن أنه كجمهور المصريين لم يصدق أخبار المقطم والاهرام ، عن فظائع جمال باشا في بلاد الشام ، حتى قرأت المقالة التي نشرتموها في الشهر الماضي فعلمت أنكم مصدقون لتلك الاخبار ، وتتوقعون أن يكون لها تأثير سيء في الحجاز وسائر جزيرة العرب

د - نعم إنني تركت تلك الحملات على الاتحاديين بعد حرب البلقان وفي أثناء هذه الحرب لان الحملة عليهم تعد حملة على الدولة ولا ينبغي ذلك في أثناء الحرب وان كان بنية صالحة و بقصد الاصلاح كما بينت ذلك في المقالة التي نصحت بها بمثل هذا لمسلمي سورية قبيل دخول الدولة في الحرب، ثم انني صدقت ما أتوه من التنكيل بالعرب في الشام ، لانه ثبت عندي بالتواتر فكتبت تلك المقالة وأطلعت عليها

بعض اخواننا قبل أن تجيئنا البرقيات بنبإ استقلال الشريف وان نشرت بعد ذلك، ثم علمت بعد نشرها أن أنور باشا مازار سورية والحجاز في أوائل هذا العام الا ليتولى بنفسه ارسال الجند والسلاح الى الحجاز للقضاء على سلطة الشرفاء فيه — وان قيل انه جاء بصنيعه جمعيته الشريف علي حيدر من الآستانة الى الشام أو المدينة ليجعله خلفا للشريف حسين أو اميرا للحجاز في المدينة — فاذا صح هذا الخبر فالغرض الصحيح منه أن يضربوا الحديد بالحديد لما في ذلك من المفاسد الكثيرة التي يطلبونها، فاذا أمكن للشريف حيدر وأخيه الشريف جعفر أن يؤلبا بعض عرب الحجاز على الشريف حسين بمال الدولة الذي يؤيدان به نفوذهما سهل على قائد الجنود التركية بعد اضعاف عرب الحجاز أن يستبد بالنفوذ في الحجاز من غير خسارة تذكر، ولاصيت قبيح ينشر، ثم انهم بعد الفتك بالشريف حسين وأولاده يفتكون بالشريفين حيدر وجعفر، كما فتكوا بصديقي الشريف حيدر (عبد الكريم قاسم الخليل والسيد الزهراوي) إذ لولا وساطة هذا الشريف لما أمكن لعبد الكريم أن يقنع الزهراوي بالمجيء من باريس الى الآستانة بعد أن أنذر المرة بعد المرة بأن في ذهابه اليها خطرا على حياته، ولم يكن الشريف ضامنا له الأمن على حياته فقط بل كان ضامنا له الاصلاح الذي وعد به الاتحاديون وأكثر مما وعدوا، وقد رغب الي هو وعبد الكريم أن أكتب الى الشريف حيدر كتاب شكر لحسن سعيه في هذه السبيل

اني على ما أعلم من سوء نية الاتحاديين وخبث ما أضمروه للعرب قد كنت أحسنت الظن بأنور باشا عندما جاءنا المقطم بخبر زيارته لسورية والمدينة المنورة، ولعل الاستاذ يتذكر انني قلت له حينئذ: أظن ان أنور باشا ماجاء سورية وفلسطين والمدينة الا ليصلح ما أفسده جمال باشا حتى لا يصل سوء تأثيره الى جزيرة العرب، وليستميل بعرب الحجاز وغيرهم على هذه الحرب، فان أنور باشا هو الذي تولى في أول هذه الازمة استمالة عرب الجزيرة بما كتبه الى أمرائهم وزعمائهم من المكتوبات العربية، المزينة بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية، وقد اطلعت على صور بعض هذه المكتوبات العامة والخاصة، ومنها الكتاب الذي حمله رسول خاص الى عدوهم الذي لم يعترفوا له بصفة رسمية قط — أعني السيد الادريسي — وهو يعظمه فيه و يبجله

ويظهر الثقة به، ثم علمت في هذه الايام أنه كان طلب من الشريف أمير مكة المكرمة نجدة عربية لمساعدة حملة سيناء على مصر ، وان الشريف أرسل الحملة الى المدينة المنورة وهي التي تحاصرها الآن ، فان الشريف لما رأى الجنود التركية ترسل الى الحجاز بعشرات الالوف وتوزع في مدنها وثغورها وهو يعلم كما نعلم وتعلم الدولة أن الحجاز ليس عليه أدنى خوف من الدول الاوربية ، فلم يبق لارسال الجنود اليه سبب يعقل – والدولة في أشد الحاجة الى الجنود – الا التنكيل بعربه والفتك بشرفائه اتماماً لبرنامج جمعية الاتحاد والترقي الذي يعرفه الشريف كما نعرفه ، وقد كانوا حاولوا البدء بالشريف قبل هذه الحرب اذ أرسلوا الضابط وهيب بك أحد غلاتهم المتحمسين خفية الى الحجاز ، وبعد وصوله الى مكة أظهر التقليد الرسمي الذي معه بولاية الحجاز وقيادة حاميتها ، وكان من أمر خذلان عسكره في التحرش بقتال العرب ومحاولة الفتك بالشريف ما هو مشهور ، فلهذا تحولت الحملة الحجازية التي ألفت اجابة لطلب أنور باشا للقتال مع جنوده في سيناء الى حملة تحاصر جنوده في المدينة المنورة وتقاتلهم اذا قاتلوها

ذ – اذا كان الشريف عالما من قبلُ بما تضمره جمعية الاتحاد والترقي للعرب عامة ، وله ولأهل بيته خاصة ، فلماذا كان ينصر الاتحاديين حتى انه حارب السيد الادريسي لأجلهم وكاد يحارب أمير نجد ابن السعود كذلك

د – لاأدري متى عرف ذلك معرفة لاتحتمل التأويل، وقد كان أولا يتأول للاتحاديين ويرجو صلاحهم حتى كان بعض رجال النهضة العربية يتهمونه بمشايعتهم وبكراهة السيد الادريسي أن يكون ذا سلطة في عسير ؛ وينقل عنه وعن أهل بيته انهم يقولون انهم لايؤيدون الاتحاديين فيما تقوم به جمعيتهم من الاعمال وانما يؤيدون الدولة نفسها فيما تقرره ويرون أن الاعتصام بها وان جارت على العرب وغيرهم أرجح من مقاومتها ولو سرا لئلا تفضي المقاومة الى التفرق الذي يضيع به العرب مع الترك ، وان الطريقة المثلى لتلافي ما يرى ضارا من أعمالها انما هي طريقة السعي لديها والاجتهاد في اقناعها بضرر الضار ونفع النافع ، وهذا الرأي والمسلك لم يكن مرضيا عند الاحزاب السياسية العربية من كل وجه ، بل كانوا

يرون انه يجب أن يكون الشريف أمير مكة مخلصا للدولة ومؤيدًا لها فيما صار في حيز الامور التنفيذية فقط الاقتال العرب ، وأما مالم يصل الى حيز التنفيذ فينبغي أن يكون حزبه فيه معارضا لحزب الاتحاديين بعد ظهور عصبيتهم الجنسية وظلمهم للعرب، ولكن نجله مبعوث مكة المكرمة كان مع سائر مبعوثي الحجاز من الاتحاديين، وكذلك أخوه الشريف ناصر العضو في مجلس الاعيان من حزبهم ، ولم يغن كل هذا شيئا، ولا صد الاتحاديين عن محاولة تنفيذ ما كانوا يضمرون للشريف الاكبر وأهل بيته ، وانما يكرهون هذا الشريف وأولاده لان لهم من النفوذ في عرب الحجاز ما ليس لغيرهم من الشرفاء ، قلت آنفا اننا لاندري متى عرف الشريف الاكبر حقيقة حالهم ويئس من صلاحهم ، وقد ظهر لنا أنه يئس من بقاء الدولة العثمانية أيضا ولعله لولا هذا اليأس مانهض بهذا الامر

ذ — ان من الناس من يرى ان الدولة ما سلمت من خطر اليأس وعظم الرجاء فيها الا بدخولها في هذه الحرب، اذ صارت به ركنا من أركان أحد الحلفين العظيمين اللذين تتألف منهما الدول الاوربية الكبرى ومشايعاتها من الدول الصغرى ، وقد نقل الينا المقطم ان من شروط محالفتها لألمانية ان لا تقبل هذه صلحا الا بشرط حفظ استقلالها ، والصلح لا بد فيه من رضاء الفريقين وان كان أحدهما مغلوبا، فاستقلال الدولة العلية مضمون على كل حال ، فكيف يعقل ان ييأس منه الشريف وهو من أركان الدولة الذين هم أعلم منا بحالها وبشروط محالفتها التي منها ماذكر

د — اذا كان في الناس من يرى ان استقلال الدولة مضمون وإن غلبت مع أحلافها في هذه الحرب ، وكان أعداؤها هم المقررين لشرط الصلح ، فان في الناس من يرى ان هذا الاستقلال قد زال بالفعل ، وان انتصر الالمان مع احلافهم وتحكموا في شروط الصلح ، أما بقاء استقلال الدولة بعد انكسارها وانكسار أحلافها فغير معقول ، وأما الرأي الذي يقابله في الغرابة وهو زوال استقلالها في حال انتصارها وانتصارهم فلأصحابه وجه جدير بالتأمل . وهو أن الدولة قد غرقت في بحر لجي من الديون وخسرت أكثر الشبان العاملين في المملكة ، وأفقرت الامة كلها بمصادرة أموالها واستنزافها بأسماء متعددة ، وكان عجز ميزانيتها قبل حرب البلقان وهذه

الحرب اللتان افقرتاها وأفقرتا أمتها يسد باقتراض الملايين في كل عام، وقد زادت ديونها الآن زيادة كبيرة حتى صار ربا الديون يستغرق معظم الميزانية التي لا بد ان تنقص عما كانت نقصا فاحشا ، ومن البديهي أنها لا تجد بعد الحرب من يقرضها كما كانت تجد قبلها ، وليس امامها من الامم الغنية الا الامة الالمانية وقد ذهبت قروض الحرب لدولتها ودول احلافها بمعظم ثروتها، فلن تقرض دولة وصلت ماليتها الى حد الإفلاس مالم به شعثها الا اذا جعلت مالية الدولة وجميع موارد الثروة في المملكة تحت تصرف دولتها يديرها رجال الالمان الماليون والفنيون ، — فاذا تدبرنا هذا وعلمنا أيضا ان الدولة قد جعلت حربيتها وبحريتها في أيدي الالمان وجعلت تعلم لغتهم إجباريا في جميع مدارس المملكة الاميرية وغيرها ، وتذكرنا ان الالمان يملكون عشرين كيلو متر على جانبي سكة حديد بغداد في خط يمتد من ضفاف البوسفور الى بغداد ، فأي استقلال يكون للدولة بعد قبض الالمان على ادارة المالية والحربية والمعادن والمناجم مع امتلاك هذه الاراضي الواسعة التي تضاهي مساحة مملكتهم ؟

كان لبعض الالمان المقيمين في بلجيكة قبل الحرب ملعب أو ملاعب للكرة يلعب فيها أهل البيت والعيال ، فلما اقتحم الجند الالماني بلاد البلجيك المضمون استقلالها منهم ومن سائر الدول الكبرى ظهر ان ملعب الكرة انما بني بطريقة فنية هندسية ليكون مركزا للمدافع الضخمة المكتوم خبرها عن غير أركان الحرب من الالمانيين ، وان المسافة بين الملعب وبين الحصون البلجيكية هي مسافة مرمى تلك المدافع التي دمرت تلك الحصون . فاذا كنا قد استفدنا من عبر هذه الحرب ان ملعب الكرة لعيال ألماني في زمن السلم كان خطرا على الدولة التي ملك الالماني في بلادها ذلك الملعب مع ان دولته ضامنة لاستقلالها ، فهل نتصور أن تسلم من الخطر دولة يملك الالمان التصرف في جميع قواها المالية والحربية والعلمية والفنية ويملكون في قلب مملكتها تلك الالوف من الاميال التي هي محل العمران المنتظر فيها ؟

ولدينا عبرة أكبر من هذه العبرة وأظهر وهي ما نقله الينا المقتطف في جزء مارث من هذه السنة من مقالة للكونتس ورك (الاميرة الانكليزية) عنوانها (ملك الانكليز وأمبراطور الالمان) قالت فيها عن الملك ادوارد ما نصه :

[وزارني مرة قبل وفاته بثلاثة أشهر لتناول الشاي عندي وتكلم عن الادارة الالمانية فقال « لو كانت بلادنا تدار كما تدار ألمانية لاستفدنا فائدة كبيرة ويا حبذا لو حكّمنا الالمان المدة الكافية لاصلاح ادارتنا » قال ذلك وصمت قليلا ثم قال وهو يضحك « ولكن المصيبة أنهم اذا أتوا ليحكمونا تعذر علينا الخلاص منهم » وهذا آخر حديث جرى لي معه لأني لم أره بعد ذلك] اه واستدلت الاميرة بهذا الحديث على ان الملك لم يكن يضمر العداء لألمانية. واثبات هذه القضية هو الذي كتبت لاجله المقالة

فاذا كان هذا الملك السياسي العظيم يقول ان دولته التي هي أعز الدول وأعظمها دهاء وتدبيرا يتعذر عليها الخلاص من الالمان اذا دخلوا عاصمتها لتنظيم الادارة وهي في جزيرة يحميها أقوى أسطول عرفته البحار منذ خلقها الله تعالى فهل يتيسر للدولة العثمانية الضعيفة الخلاص منهم بعد ما ذكرنا من تصرفهم المنتظر بعد الحرب ان كان لهم الظفر، وما تصرفهم فيها الآن بقليل ؟ ؟

هذا وان علة الحرب الحقيقية هي التنازع الاستعماري ولم يبق في البلاد القابلة للاستعمار ما يشبع مطامع ألمانية و يتسع مجاله لشعبها الكثير وفنونها وصناعاتها الا البلاد العثمانية وقد كانت دول الاحلاف تعارضها في استعمارها الاقتصادي مع ابقاء الدولة العثمانية على استقلالها السياسي الصوري، فاذا انتصرت في هذه الحرب لم يبق لها معارض من الترك ولا من الاوربيين

ذ — والله ان هذا الكلام معقول في نفسه ولكن لا يعقل أن يجهله الاتحاديون، فكيف رضوا اذاً بموالاة الالمان ؟ أيعقل أن يكون في يد أناس ملك عظيم فيبذلوا دماءهم وأموالهم لاجل اضاعته ؟

د — لو كان رجال البيت السلطاني وكبراء علماء الدولة وسرواتها من قدماء الوزراء والاعيان هم الذين قرروا بالتشاور بينهم القتال مع ألمانية وتحكيمها في الدولة لكان هذا السؤال أكثر اتجاها والجواب عنه متعسرا ولا أقول متعذرا. أما وزعماء الاتحاديين هم القائمون بذلك وهم أوشاب لا تعرف لغير الاسرائيليي الاصل منهم أنساب وصلوا الى ما وصلوا اليه من الاستبداد بهذا الملك بمساعدة اليهود

الجرمانيين – فالجواب سهل وللناس فيهم رأيان يؤخذ من كل منهما جواب

سبب تسليم الاتحاديين الدولة للالمان

(الرأي الاول) رأي سمع كثيرا من خصومهم، وهو انهم جماعة من طلاب المال والثروة علمهم أعلم البشر بطرق تحصيلها– وهم اليهود– كيف يكونون من أغنى أهل العصر بسلب ثروة هذه الدولة ثم بيعها لدولة الالمان الغنية، ويستشهد أصحاب هذا الرأي على صحته بأنهم لو كانوا يريدون بقاء الدولة وتعزيزها لبدءوا عملهم فيها بوضع ماليتها على أساس ثابت يكثر به الدخل ويقل الخرج ، ولو أرادوا ذلك لكانوا أقدر الناس عليه بمساعدة أساتذتهم واخوانهم من اليهود الاصليين والدونمه (الذين منهم جاويد بك الذي جعلوه ناظر المالية وفوضوا اليه عقد القروض) ولكنهم اغتنموا فرصة ماسموه (حركة الارتجاع) فعزلوا السلطان عبد الحميد ونهبوا من أمواله وجواهره وتحفه ما تقدر قيمته بالملايين الكثيرة ، وقد حدثني الثقات من أهل الآستانة انهم كانوا يدخلون قصر (يلدز) فيملؤن جيوبهم من تحفه المرصعة بالجواهر حتى ان بعض ضباطهم رؤي بعد امتلاء جيوبه يضع العلب والمسدسات المرصعة وأمثالها في حذائه الطويل (جزمة السواري) ثم اغتنموا فرصة وصول جيش البلغار الى شطالجه فسلبوا ماهو أعظم من ذلك من جواهر ملوك آل عثمان وتحفهم المحفوظة في قصر قسطنطين اذ زعموا انهم انما يريدون اخراجها من مأمنها وارسالها الى الاناضول لئلا يدخل البلغار الاستانة فيغنموها ، وقد عقدوا القروض بعشرات الملايين ولهم من كل قرض سمسرة مشهور أمرها وكثر الكلام في الاستانة فيها ، ثم ان ما يصل الى الخزينة منها يتصرفون فيه بضروب من التصرف ، منها النفقات السرية التي لا تذكر في الميزانية وأعظمها ما يخصص للحربية والداخلية ، وهم يشترون السلاح والذخائر والثياب والاحذية للعسكر بثمن ويقيدونه في دفاتر الحربية بثمن آخر فيربحون من ذلك مبالغ كبيرة ، والدليل على هذا أنهم أنفقوا في نظارة الحربية خمسين مليونا من الجنيهات قبل حرب البلقان ثم كان أهم أسباب انكسار جيش الدولة في البلقان قلة الذخائر وقلة الطعام وسائر ما يتوقف عليه القتال . وقد أذكرتنا مصادرتهم للامة في هذه الايام بما كانوا

يصادرون به الاغنياء منذ صار أمر الدولة في أيديهم — اذ كانوا يهددون كل غني بالانتقام منه لانه من الحزب الحميدى الارتجاعي الآن يفتدي نفسه بما يناسب مقدار ثروته ، فأخذوا من علي رضا باشا الذى كان ناظر الحربية في العهد الحميدي مئتي الف ليرة ومن زهدى باشا ٣٠ أو ٤٠ الف ليرة وعلى ذلك فقس ، ثم انهم فرضوا على كل من دخل جمعيتهم دفع اثنين في المئة من جميع دخله وذلك فوق مافرضه الله من الزكاة على الاغنياء فيما فضل عن نفقاتهم و بلغ النصاب وحال عليه الحول، نعم ان الالوف من الذين انتسبوا الى الجمعية كانوا يكتمون عنهم مايمكن كتمانه من دخلهم، ومما لا يمكن كتمان شيء منه رواتب موظفي الحكومة وقد دخل كلهم أو جلهم في الجمعية، وقد باعوا البوسنه والهرسك وطرابلس الغرب بعدة ملايين

فالذين يعرفون سيرتهم هذه بالتفصيل يعتقدون أن زعماء الجمعية لاهم لهم من حياتهم الا جمع الثروة وهم لا يضمنون بقاء الدولة لهم ولذريتهم من بعدهم فلذلك باعوها للالمان بهذه الصفة التي استعملوا فيها جميع قوى الدولة في قتال أعدائهم، وستكون كذلك في أيدي الالمان ان انتصروا يستعملون نفوذ الاتحاديين وقوتهم على السلطان ودولته في استعمار المملكة العثمانية ويؤيدون الاتحاديين على خصومهم السياسيين من الترك والعرب الى أن تنشب براثنهم في كل شيء ويستغنون عن الاستفادة من اسم الدولة ونفوذها الديني ويأمنون معارضة الدول فيصرحون بازالة هذا الاستقلال الصوري الخادع

(الرأي الثاني) رأي أصدقاء الاتحاديين — وهو مبني على رواية لا يكاد يعرفها الا قليل منهم وسنذكرها في بيان هذا الرأي — وهو أنهم لم يبيعوا المملكة بيعا ولم يفرطوا بشيء من حقوقها، وكل ما أخذوه من الاموال للجمعية قصدوا به ان تكون الجمعية غنية لتتمكن بقوة الثروة من الفوز على خصومها من رجال العهد القديم المحافظين على التقاليد العتيقة المنافية لما يريدون من التجديد المدني للدولة والامة ، وخصومها من الاحزاب السياسية المخالفة لها في مذهبها السياسي والاجتماعي كتتريك العناصر وغير ذلك . واما ما أعطي لبعض زعماء الجمعية كالدكتور ناظم وأحمد رضا فهو تعويض عما خسروا في سبيل الجمعية، وماعدا ذلك كسمسرة القروض والامتيازات

فهو قانوني . ولما رأوا أن الدولة ضعيفة فقيرة لايرجى ان تنهض بنفسها، والامة التركية جاهلة متعصبة للقديم ولا سيما اذا كان من أمر الدين فلا يرجى ان يكون نهوض الدولة من قبلها، ولا يمكن ترقيتها هي أيضا من قبل الدولة والدولة على هذه الحالة — لما رأوا أن الدولة والامة كما ذكر جزموا بأن العلاج الوحيد للدولة التركية والامة التركية هو أن تتولى دولة أوربية قوية تنظيم الدولة وترقية الامة وجعلهما كالدول الاوربية والامم الاوربية من كل وجه ، ولم يجدوا دولة من الدول العظمى ترضى بأن تقوم بهذه الخدمة للترك الا ألمانية — وهي أرقاهن علما وقوة عسكرية — فما زالوا يخطبون ودها حتى عقدوا معها اتفاقا سريا قبل هذه الحرب بسنين على تكوين دولة تركية جديدة على طراز الحكومات الجرمانية تكون تابعة للاتحاد الجرماني في السياسة الخارجية والحروب وغيرها مما لم نعلم تفصيله ، وانما نعلم منه بالاجمال ان الترك يكونون من الالمان بمنزلة أبناء عمهم المجر من النمسة ، ولذلك تكثر جرائدهم من المقابلة بين الترك والمجر وتتساءل عما قدّم أولئك وأخرهم وهم من أصل واحد !

ومن المعلوم بالبداهة ان مثل هذا الاتفاق لا يمكن تنفيذه بصفة رسمية الا اذا صدق عليه مجلس الامة من المبعوثين والاعيان، وان الاتحاديين ما كانوا يتجرءون على عرضه على المجلس خوفا من انتقاض أكثر أفراد حزبهم عليهم وانضمامهم الى الاحزاب المعارضة وبذلك يقضى عليهم قضاء لا مردّ له. فكانوا يمهدون السبيل الى جعل مثل هذا رسميا بأعمال كثيرة لاتتم عادة الا في سنين كثيرة، لان السواد الاعظم من الامة يراه خطرا بل قضاء على استقلال الدولة وعلى دين الامة ، وقد كان المعارضون في المجلس أقوياء ومعظم الامة على مذهبهم ولذلك أسقطوا الاتحاديين وانتزعوا منهم السلطة ، ولكن حزب الحرية والائتلاف الذي انتزعها لم يتول أمرها ولا تيسر له ان يكفل وزارتي الشيخين مختار باشا وكامل باشا ، فلذلك تيسر للاتحاديين بقوة ثروتهم وتكافلهم ومساعدة اليهود وألمانية لهم أن يعودوا الى انتزاع السلطة من وزارة كامل . ومن الغريب ان انكلترة وروسية وفرنسة المعارضات لسياسة ألمانية في الدولة لم ينصرن الاحزاب المعارضة للاتحاديين ولا وزارتي مختار

باشا وكامل باشا فكان هذا ضعفا منهن من حيث هو رجحان للسياسة الالمانية في الدولة ، وقد كان الميالون الى تفضيل مودة انكلترة ومن عساه يكون معها من الدول على مودة ألمانية واحلافها أكثر عددا وأرسخ في الدولة قدما ، ولكنهم خذلوا بخذل الدول التي يميلون اليها للدولة في حرب البلقان .

والكلام في ايضاح هذا الرأي وتفصيل المسائل التي تتعلق به يطول فنكتفي منه بما لا نخرج به عن موضوعنا ، وملخصه ان الاتحاديين متفقون مع الالمان من قبل هذه الحرب بسنين على وضع زمام الدولة بأيديهم ليرقوها بعلومهم وفنونهم العسكرية وغيرها فكانت هذه الحرب وسيلة لتنفيذ ذلك الاتفاق السري الذى كان يظن انه لا يمكن تنفيذه الا بعد تمهيد السنين الطوال له كما قلنا آنفا . وانني قد سمعت خبر هذا الاتفاق السرى في الآستانة اذ كنت فيها سنة ١٣٢٨ ممن يظن اطلاعهم على مثل ذلك وهم قليل، والمخالفون منهم للاتحاديين كانوا يظنون ان تنفيذه مستحيل ، ولهذا كنت جازما عند وقوع الحرب بأن الدولة ستدخل فيها قطعا اذ كان سفير الانكليز في الآستانة ورجال حكومته في لندن يظنون ان بين زعماء الاتحاديين خلافا في ذلك وان بعضهم يميل اليهم والى أحلافهم — كما علمنا ذلك من الكتاب الابيض بعد، فكان خداعهم للاحلاف في هذه الحال وخداعهم لفرنسة قبله اذ أقرضتهم عشرات الملايين مما يفخرون به وما هم في هذا الفخر بملومين

مكان زعماء الاتحاديين من الدين

ذ — يظهر ان زعماء الاتحاديين قد أوتوا حظا عظيما من الذكاء فكيف خفي عنهم ما قررت من الخطر على الدولة في تسليم أزمة أمورها للالمان . وكيف خفي عنهم الفرق بين الترك والمجر حتى ظنوا انهم يمكن ان يكونوا من الالمان بمنزلة المجر من النمسة؟ ألم يعلموا أن المجر يشاركون النمسويين بأعظم المقومات الاجتماعية وهو الدين فلا يمكن ان يكون الترك المتعصبون في الاسلام الذين تمثل دولتهم الخلافة الاسلامية متحدين بالالمان المتعصبين في دينهم المجدين في تنصير المسلمين في مستعمراتهم الافريقية ومنع انتشار الاسلام فيها كما علم ذلك من الاوراق التي اكتشفها الانكليز هذا العام في تواصي الحكام الالمان بذلك ، وقد تذكرت بها كلاما لقيصر الالمان في هذا

المنى نشرته الجرائد منذ سنين أظن انه في الحث على اتفاق مبشرى الألمان البروتستنت مع الكاثوليك على تنصير المسلمين (*

د – اعلم أيها الاستاذ ان زعماء الاتحاديين الذين كلامنا فيهم ملاحدة لا يدينون دين الاسلام ولا غيره ، وهذا ثابت من أقوالهم وأفعالهم يعرفه جماهير العلماء والكبراء في الآستانة وغيرها وجميع السياسيين في أوربة ، وهم يتمنون خروج الشعب التركي من الاسلام ولو بالتدريج الممكن الى الوثنية بشرط ان يبقى تركيا ، لانهم يظنون ان الاسلام هو العلة المانعة من مساواته للشعب المجري وغيره من الشعوب الاوربية . ويشاركهم في هذا الرأي غيرهم من ملاحدة الترك . ولما كنت في الآستانة نشرت جريدة (إقدام) الشهيرة – وكانت معارضة للاتحاديين – مقالة في المقابلة بين الترك والمجر ، وتساءلت عن سبب ما بينهما من الفرق في العلم والمدنية مع الاتفاق في النسب ؟ ورغّبت الترك في التشبه بالمجر وسلوك طريقتهم والاتحاد بهم . . وقد رغبت يومئذ الى السيد الزهراوى رحمه الله تعالى في كتابة رد عليها يقال فيه ان أعظم الفروق بينهما الدين واللغة فهل تنصح للترك بأن يتركوهما معا ليكونوا كالمجر في كل شيء أو يتركوا الدين الاسلامي أو اللغة التركية لاجل ذلك ؟ فقال ان الحكومة لا ترضى بنشر مثل هذا . وكان الاتحاديون يتقربون الى الاوربيين بالالحاد وبمكاشفتهم باعتقادهم ان البقاء على الاسلام مانع من ترقي الترك . واجتهدوا في استمالة نصارى السوريين اليهم بهذا وبايهامهم ان العرب المسلمين لن يتفقوا معهم لتعصبهم الديني

*) المنار : اننا نشرنا في ص ٧٢٠ م ٧ انه كتب الينا من بعض المستعمرات الالمانية ان ألمانية تكره الناس هنالك على التنصر وتغرى العداوة بين العرب المهاجرين الى تلك المستعمرة و بين الاهالي لان العرب أشد تمسكا بالاسلام وجذبا اليه ، وجعلنا هذا العمل مرشدا الى تفضيل انكلترة على ألمانية . ثم نشرنا في ص ٧٩٩ منه انه كتب الينا من دارالسلام ان حكومتها الالمانية هدمت مسجدين للمسلمين وتضطهد العرب وتمنعهم من ركوب العربات الحسنة . ومن الغريب ان وكالة ألمانية السياسية بمصر بلغتنا بعد نشر ماذكر ببضعة اشهر أنها كتبت الى دار السلام تسأل حكومتها عن حقيقة ما عزي اليها وانها اجابت بأن منع العرب من ركوب المركبات لا أصل له وان هدم المسجد كان بطلب المسلمين لبعده عن بيوتهم وان الحكومة بدلتهم به مكانا آخر قريبا واعطتهم مالا وافرا . ولكنها لم تكذب خبر التنصير بالاكراه الذي نشر في جزء آخر

أما مذهب الاتحاديين السياسي فهوانشاء دولة تركية محضة متحدة بالتحالف الجرماني ، وان الترك لا يمكن أن يندغموا في الجرمان بسبب هذا الاتحاد بحيث يفنون فيهم لان المحافظة على اللغة التركية تمنع من فناء الشعب التركي المؤلف من عشرات الملايين في الشعب الالماني أو غيره

ذ — أين عشرات الملايين من الترك والمشهور انهم لا يكادون يبلغون في الدولة ستة ملايين ؟

د — انهم يعدون مسلمي القوقاس وتركستان منهم ويظنون انهم سيأخذون هذه البلاد بقوة ألمانية ، وأنهم لابد أن يكرهوا جميع الشعوب العثمانية على ترك لغاتهم الى اللغة التركية حتى العرب وبذلك يكون لهم أمبراطورية كبيرة منظمة على النمط الالماني ، ومن أمانيهم في هذا الخيال أن يملكوا مع الالمان الشرق كله أو العالم كله ، وأما الخلافة الاسلامية فيستخدمون نفوذها الديني في سياستهم وحروبهم الى أن يتم لهم افناء الامة العربية وتكثير النابتة التركية التي يربونها على الإلحاد وتحريف الاسلام عن أصله بجعل القرآن تركيا وتفسيره بمثل ما رأيناه في كتاب (قوم جديد) وغيره من كتبهم، ويستغنوا عن مخادعة المسلمين والاستفادة منهم باسم الخلافة والاسلام ، فعند ذلك ينبذونها نبذ النواة ، ويجعلون يوم إلغائها عيدا من الاعياد ، فحاجتهم اليها موقتة كحاجة أحد ظرفاء السوريين الى البرنيطة

ذ — بعيشك فكهنا بخبر برنيطة هذا السوري الظريف لعله يدفع عني الرعب الذي كاد يساورني من تصور هذا الخيال التركي الاتحادي الغريب

د — هو الدكتور ... قال انه يلبس البرنيطة لانها تزيد في ربحه وفي احترامه كما ثبت له ذلك بالتجربة ، وإنه يتمنى أن يستغنى عنها ، وقد وعد أصدقاءه بأن يدعوهم عند ما يثبت عنده ذلك الاستغناء الى احتفال عظيم حتى اذا ما انتظم عقد اجتماعهم يوقد نارا يحرق بها البرنيطة أمامهم ويرثيها بأحسن مما رثى به الفاريق حماره، ويسمي ذلك الاحتفال احتفال احراق البرنيطة

ذ — أود أن تخبرني ببعض مالديك من الدلائل التي لاتحتمل التأويل على كفر زعماء الاتحاديين ، فان بعض مايدل على ذلك قد يحتمل التأويل، وهذه

مسألة لا يجوز الاخذ فيها الا باليقين

د - ان ماعندي في ذلك كثير جدا اذا أردت بسطه ودفع ما يمكن أن يورد عليه من الشبهات فلا يتم لي ذلك الا بتأليف سفر كبير، واذا أردت أن أحصي في هذا الباب جميع ما أعلم من أقوالهم وأفعالهم المنافية للدين، وما نشروه في كتبهم الجديدة وصحفهم من العبارات المنفرة عن الاسلام أو الدالة على مذهبهم السياسي الذي ذكرته آنفا - فلا بد لي من تأليف عدة أسفار، ولا بد أن تكون قد قرأت ماترجمناه من كتاب (قوم جديد) في - ص٥٣٩ - ٥٤٤م١٧ - سنة ١٣٣٢ من المنار [1] ورأيت كيف حرف فيه القرآن وجعل الصيام والصلاة والحج والزكاة والعمل بكتب فقه الائمة الاربعة هو دين قدماء المسلمين الذين يعبر عنهم بكلمة (قوم عتيق) وصرح بعدم جواز العمل بتلك الكتب وعلل ذلك بأنها مملوءة بالنفاق والشقاق. وبين في مقابل ذلك أركان دين (قوم جديد) وهي العقل وكلمة الشهادة ولاخلاق الحسنة والجهاد مالا وبدنا والسعي لإعداد لوازم الحرب بالاتحاد تحت راية الخلافة الاسلامية العثمانية . وصرح بكفر جميع المسلمين من رعايا دول النصارى والذين تحت حمايتهم، وبأن المسلمين الحقيقيين هم الذين حاربوا في البلقان « تحت امرة أنور ورضا وأسعد وجاويد ورؤف صلى الله تعالى عليهم وبقية رجال جمعية الاتحاد والترقي المقدسة » ثم صرح بأن عدد الذين ينتمون الى الجمعية في حرب البلقان لا يتجاوز مئة الف وهم المسلمون الحقيقيون قال « أما الباقون فكانوا من المرتدين المنتمين الى الائتلاف (أي حزب الحرية والائتلاف) والبطر كخانات . وهو يفضل أنور وطلعت وجمال وغيرهم من زعماء الجمعية على الخلفاء الراشدين وجميع الأئمة والاولياء الصالحين، بل هو يقدس جميع الترك التابعين لهؤلاء الزعماء بمثل ماتراه في تلك النبذة المترجمة منه (ص ٥٤٤ م ١٧) فانه بعد مخاطبه للترك بأن الله قدسهم وبأن تعظيمهم لخلفاء العرب ووضع أسمائهم في المساجد يعد إذلالا لخلفاء الترك « الذين قدستهم الاحاديث

(١) نشر المقطم مقالة لبعض العرب العثمانيين في هذه السنة ذكر فيها بعض الجمل من هذا الكتاب فظن بعض الناس ان ذلك قول مخترع. وقد ذكر هذا الكتاب في الجزء الثاني من منار سنة ١٣٣٢ الذي صدر في يناير سنة ١٩١٤

النبوية بزعمه، و بعد انكاره عليهم تعظيم الاولياء من العرب كالجيلاني والبدوي وغشهم للترك بأنه سيخرج من العرب مهدي -- بعد تفصيل هذا وزعمه انه تحقير للترك قال « أما سمعتم الآية (والعاديات ضبحا) فان الله قدس بهذه الآية الجيوش التركية ، فخيل هذه الجيوش هي أشرف وأقدس أضعافا مضاعفة من شرافة وقداسة رؤساء وأشراف الشعوب الاخرى الذين تقدسونهم وتحترمونهم » اه وليس هنالك رؤساء شعوب كثيرة يحترمهم الترك بل رؤساء شعب واحد وهو الشعب العربي -- الذين ذكر انهم يعلقون اسماءهم في المساجد وهم : النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدون الاربعة والحسن والحسين رضوان الله عليهم .

وقد جعل الاتحاديون عبيد الله افندى مؤلف هذا الكتاب مدرسا في جامع آيا صوفية لينشر هذه الافكار في شهر رمضان وجعلوا حوله الجلاوزة والشرطة (البوليس والضابطة) يحمونه من اعتداء المسلمين عليه. ولكن من يطعن في جمعيتهم أو بعض زعمائهم فلاجزاء له الا القتل اغتيالا أو صبرا أو بمحاكمة قضائية أو عرفية.

ذ -- ان مؤلف هذا الكتاب مجنون أو معتوه ، وتحريفه للقرآن أشد تشويها وأظهر بطلانا من تحريف الباطنية ، فكيف يظن هو وزعماء الاتحاديين أن مسلمي الاتراك يتلقونه بالقبول فيؤثر في نفوسهم ؟

د -- حقا ان هذا الرجل يكاد يكون مجنونا ، ويحتمل أن يكون سبب غلوه هذا عن خبث ودهاء ، والذي يظهر لي أن لهم في مثله غرضين (أحدهما) فتح باب الجرأة للملاحدة الترك على التصريح بالكفر قولا وكتابة ليكون مجال القول عندهم واسعا في الطعن في النبي صلى الله عليه وسلم وفي الخلفاء الراشدين وأئمة آل البيت النبوي وأئمة الفقه والصوفية ، ولهم كتاب آخرون سلكوا غير هذه الطريقة في هذا الباب كالدكتور عبد الله بك جودت صاحب مجلة [اجتهاد] التركية وأحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي الاولى فانه ترجم بالتركية مطاعن [كايتاني] المؤرخ الايطالي في النبي صلى الله عليه وسلم ونشر كتابه في هذه السيرة التي شوه جمالها وانتقص كمالها ببهتانه وسوء تأويله، فكان له رواج وتأثير قبيح عند طلبة مدرسة الطب وغيرهم في الآستانة (والغرض الثاني) نشر ذلك بين عوام الترك الذين لا يعرفون من الاسلام

الا اسمه لعلمهم بأنهم يقبلون كل كلام يقرأ عليهم في كتاب، وتؤيد فيه المسائل بما يسند الى الله ورسوله من الآيات والاحاديث مهما تكن محرفة. والكلام في هذه المسألة يطول فأكتفي منه في هذا المجلس الذي طال عليك بروايتين عن علماء الآستانة وبعض القضاة الاتحاديين

(الرواية الاولى) كان اسماعيل حقي المناستري (رحمه الله تعالى) من أشهر علماء الترك في الآستانة وهو الذي ترجم [الرسالة الحميدية] بالتركية، وكان واعظا في جامع [آياصوفية] ومدرسا في دار الفنون (المدرسة الجامعة التركية) وهو الذي صلى بالسلطان محمد رشاد إماما للجمعة في [قصوه] عند زيارته لها. وكان استماله الاتحاديون بعد الدستور بجعله عضوا في مجلس الاعيان وجعل ولده كاتب السر لطلعت بك، فكان جمهور علماء الآستانة يصفونه بالنفاق بدعوى أنه مال الى الاتحاديين وأنه لا ينكر عليهم فيظن العوام أنه راض عنهم. ولكن هذا الشيخ الكبير لما عرفني حق المعرفة ووثق بي كان لا يعبر عن الاتحاديين في الحديث معي بداره الا بلقب «الملاحدة» وقد سألني عن رأيي في فطين أفندي: أمسلم هو أم زنديق ملحد؟ فقلت: ما الذي أثار هذه الشبهة في نفسك حتى شككت في إيمان رجل من أهل العلم؟ فقال: يا سيدي يظهر لنا أن الجمعية تثق به ثقة تامة. فهذا العالم الجليل المختبر لهم حق الاختبار كان يعتقد أنهم لا يثقون ثقة تامة بمؤمن مسلم أما فطين افندي هذا فهو من [الصفطاء] طلاب العلوم الدينية وقد عني بالعلوم الرياضية فصار مديرا للمرصد الفلكي الذي انشىء في ضواحي الآستانة وهو ذو همة ونشاط، وظني فيه أنه كان يريد استخدام نفوذ الجمعية لبعض المقاصد التي يراها نافعة فيخدمها لهذا خدما نافعة و يتوهم أنه قد يقوم بعض عوجها كما يعلم من الواقعة التي أقصها عليك:

لقيت فطين افندي مرة يتكلم مع [الدكتور ناظم] المرخص المسئول للجمعية وأعظم رجالها نفوذا فيها، فلما أقبلت عليهما قال للدكتور هذا فلان يحكم بيننا. ثم قص عليّ أنه اختلف مع الدكتور في مسألة مهمة قال: الدكتور يقول أنه يستحيل علينا الترقي المطلوب الا اذا نبذنا كل قديم واتبعنا خطوات فرنسة(؟) في تجديد شباب الدولة والملة (أي الامة) وأنا أقول اننا محتاجون الى اقتباس الفنون عن الاوربيين عامة لا عن فرنسة خاصة لاجل ترقيـة صناعتنا وحربيتنا وماليتنا، وأما الامور المعنوية كالآداب والفضائل والشرائع فاننا نقتبسها من ديننا وما عندنا فيه أكمل مما عنـد

غيرنا وهو خير لنا ، ولكن الدكتور قال ان هذا كله قد صار رثا باليا لا ينفع فلا بد من التجديد في كل شيء . هذا ملخص حديثهما ولا حاجة الى بيان ما أيدت به رأي فطين افندي بل أقول لك إنني أكبرته من ذلك اليوم . ولكن العبرة في شك الشيخ اسماعيل حقي في عقيدته لانه رأى أن زعماء الجمعية يثقون به وان لم يعرف درجة هذه الثقة، وقد عرفتَ رأي جمهور علماء الآستانة في اسماعيل حقي هذا . وكذلك رأيت كثيرا من المتدينين يعتقدون أن زعماء الجمعية كلهم ملاحدة لادين لهم، ومن هؤلاء كثيرون كانوا محافظين على الانتساب الى الجمعية يرون أن في هذا خيرا لهم أو مصلحة للدولة والامة . ومنهم ألوف تركوها الى حزب الحرية والائتلاف

(الرواية الثانية) لما جئت بيروت عائدا من الهند الى مصر من طريق العراق وسورية زارني قاض من قضاة الترك الاهليين ببيروت اسمه [شوكت بك] كان كثير اللهج بالجامعة الاسلامية وايهام مسلمي بيروت وغيرهم أن الاتحاديين يرمون بسياستهم الى هذه الجامعة ، وكان ذلك في عهد وزارة مختار باشا والناس يجاهرون بلعن الاتحاديين ولا سبيل الى استمالتهم اليهم الا بايهامهم انهم يخدمون الاسلام ويجتهدون في جمع كلمة أهله . فكان أول حديث شوكت بك معي — بعد مجاملة السلام — السؤال عن مسلمي الهند واظهار الاهتمام بشأنهم . وانتقل من ذلك الى مسألة الجامعة الاسلامية وما يزعمه من ميل الاتحاديين اليها . فقلت له : ان فاقد الشيء لا يعطيه، فاذا كان الاتحاديون أنفسهم ملاحدة غير مسلمين الا في الاسم فقط فكيف يقومون بهذه الخدمة في الاسلام . قال : ان الحكم عليهم جميعهم بالالحاد فيه مبالغة ولعل الملحدين منهم لا يزيدون على ثلاثين في المئة . قلت : الظاهر أنك أسوأ ظنا مني فيهم ، فأنا أعني بمن حكمت عليهم بالالحاد زعماءهم لا جميع من انتمى الى الجمعية ، فان لي أصدقاء كثيرين ممن دخلوا في هذه الجمعية لا ريب عندي في اسلامهم ولا في صلاحهم ، منهم من تركها بعد العلم بحقيقة حالها ، ومنهم من يرى من المصلحة العامة أو الخاصة بقاءه فيها ، وقد صرح لي بذلك كثير منهم . وذكرت له انني اختبرت أكبر أولئك الزعماء بنفسي في الآستانة ووقفت على ما كان من اختبار أصدقائهم وغير أصدقائهم لهم ، وذكرت له رأي الزعيم الاكبر الدكتور ناظم الذي ذكرته في الرواية الاولى

قال نعم! ان الزعماء لا دين لهم «دين سز» ولكن مسألة الجامعة الاسلامية تفيد الدولة فائدة سياسية عظيمة فهم لذلك يهتمون بأمرها. قلت: انني أعلم انهم يشتغلون بتأسيس جامعة تركية لا اسلامية عامة وقد بثوا دعاتهم لهذه الجامعة في القوقاس وتركستان... ولو كانوا يريدون الجامعة الاسلامية لاعتنوا بتعليم اللغة العربية ونشرها ولكنهم مجتهدون في إماتتها، وكيف يتعارف المسلمون بغير لغة يتفاهمون بها، انني طفت كثيرا من ممالك الهند فلم أدخل بلدا منها الا ووجدت فيه كثيرين يتكلمون معي بالعربية، ولا يكاد يوجد فيها أحد يعرف التركية، ولا توجد داعية تحفزهم لتعلمها، وأما اللغة العربية فداعية تعلمها الدين، وهي تزداد في هذه الايام انتشارا في الهند وجاوه الخ

﴿ خلاصة المحاورة وفصل الخطاب فيها ﴾

ذ — لقد أطلت عليك وأخذت حظا عظيما من وقتك، وقد اقتنعت مما سمعت منك بأن هؤلاء الاتحاديين ملاحدة لا يدينون بدين وأنهم متهورون يسوّل لهم الغرور أنهم يستطيعون أن يهدموا بناء هذه الدولة وهذه الامة ثم يبنونهما بناء آخر زينه لهم اليهود ووضع رسمه لهم الالمان، وأن ذلك يتم لهم في سنين معدودات، ولذلك لم يسلكوا طريقة التدريج التي مضت بها سنة الله في خلق الارض والسموات، وأحب أن تلخص لي كلامك بجمل مختصرة

د — : (١) ان الشريف أمير مكة المكرمة يعتقد أن الاتحاديين ملاحدة يكيدون للدين الاسلامي على مالهم فيه من المنافع السياسية والمالية فمثلهم كمثل المعتصم في حصن لعدوّ له وهو يرى أنه لابد له من تركه ويخشى أن يصير الى عدوه فهو على انتفاعه ببنائه و بما فيه من الخيرات يضع الالغام تحته لينسفه عند ارادة تركه

(٢) انه يعلم أيضا انهم أشد الناس عداوة للعرب وان بغضهم لهم أشد من بغضهم للروم والارمن لسببين، أحدهما انهم أعظم أركان الاسلام وأنصاره، وثانيهما انهم أكبر الشعوب العثمانية وأكثرها عددا، وانه قد وجد في بلادهم الحضرية كثير من أصحاب المعارف العصرية والافكار النيرة وما زالت بواديهم والبلاد التي هي أقرب الى البداوة ذات بأس شديد وقوة حربية لا يستهان بها، فلا يتم لهم ما يتخيلونه من تأسيس دولة تركية لا دين لها لأمة تركية محضة الا اذا

أبادوا هذا الشعب العربي الكبير الناصر للاسلام ، ولذلك عقدوا النية على تتريك بلاده الخصبة المتعادة بالقوة القاهرة ، وعلى اذلال أهل الجزيرة العربية الاشداء باضعافهم ونزع السلاح منهم وإلقاء العداوة بينهم، وجعل بلادهم المقدسة تحت سلطة عسكرية اتحادية لا دين لها حتى لا يستطيعوا أن يقوموا بعمل ديني ولا دنيوي

(٣) ان الشعب التركي غيور على الاسلام وشديد التعصب له وقد عرف عنه من المبالغة في التعصب ما لم يعرف مثله عن العرب ، ولكن خضوعه للقوة التي تسود عاصمة بلاده أتم من خضوع سائر الشعوب العثمانية ، بل هو شعب لا يعمل الا بالقوة العسكرية ولا تعمل به الا القوة العسكرية، وقد غلب حزب ملاحدة الاتحاديين حزب العلماء وجميع الاحزاب السياسية العثمانية بقوة الجند والمال كما علم من كلامنا السابق، فلم يعد الشريف يرجو من اسقاط قوة الاتحاديين أعداء الاسلام والعرب بقوة الاحزاب التركية ما كان يرجوه من قبل، فانحصر وجوب مقاومتهم في العرب وحدهم

(٤) ان الشريف يعلم كما يعلم العارفون وكل من له إلمام بأحوال الدولة ان ملاحدة الاتحاديين قد سلبوا سلطان الدولة وخليفتها نفوذه وجميع حقوقه حتى ما هو مدون في قانونهم الاساسي ، فأصبح المسلمون بغير امام شرعي لا حقيقي مستوف للشروط الشرعية، ولا متغلب يطاع لضرورة جمع الكلمة، وانما المتصرف في الدولة جمعية الاتحاد والترقي الملحدة، فالسلطان محمد رشاد لا نفوذ له الآن في المملكة ولا في قصره، و يسميه أهل الآستانة [المهردار] للجمعية، أي صاحب الختم الذي وظيفته أن يختم لها كل ما تأمر بختمه من الاوراق، وهم لا يسمحون له بأن يختار رئيس الكتاب وأمين السر له. حدثني سعدي بك أحد سراة الاستانة الكبار عن رجل من أعضاء البيت السلطاني انه كان بقرب السلطان في حفلة قراءة المولد النبوي الشريف في قصر [ضولمه بغچه] فرأى [الباشكاتب] قد جلس متكئا والسلطان منتصب بغاية الادب على سمنه وكبر سنه فلما رآه السلطان قد اتكأ قال متبرماً : اذا كان هذا ... (نسيت اللقب القبيح الذي ذكره به) لا يحترمني أفلا يحترم حضرة فخر الكائنات صلى الله عليه وسلم؟

(٥) ان الشريف يعلم ان هؤلاء المتهورين قد عرضوا استقلال الدولة للزوال، وان الخطر عليها في انتصار الالمان أشد من الخطر عليها في انتصار الحلفاء ، فان

الظاهر ان الحلفاء يرضون باستقلال بلاد العرب ، ويظن أيضا انهم يرضون بجعل الولايات التركية إمارة أوسلطنة تركية مستقلة، فغاية انتقامهم من هذه الدولة ان يجعلوها أجزاء بعضها مستقل بنفسه تمام الاستقلال و بعضها مستقل تحت حماية بعض الدول، كالولايات الارمنية، الظاهر انها تكون تحت حماية روسية . ويقال انهم لابد من أخذ شيء منها لانفسهم وتختلف الآراء في مصير الآستانة ... وليس هذا من موضوع حوارنا

(خ) ان ملاحدة الاتحاديين شرعوا في تنفيذ خطتهم باذلال العرب التي هي مقدمة أو علة لإذلال الاسلام كما ثبت في الحديث الصحيح عند أبي يعلى « اذا ذلت العرب ذل الاسلام » فبدؤا بالعراق والشام ثم مدوا براثنهم الى الحجاز، فاضطر الشريف الى دفع شرهم عن العرب بمقاومتهم في الحجاز . واستقلاله بالسلطة فيه من دونهم لمجموع ما تقدم من الاسباب

ذ - يظهر مما قررته انه لا يعد مقاومته للاتحاديين خروجا على السلطان ولا عداء للدولة نفسها لانه يرى انهم جانون على الدولة والسلطان قبل جنايتهم على العرب في الحجاز وغيره

د - نعم هذا هو الظاهر بل المتيقن ، ومن وقف على الحقائق يرى ان الشريف قام بأعظم خدمة للاسلام والمسلمين ، وذلك انه لما رأى الخطر قد أحاط بالدولة كما هو واضح مما شرحناه كان من الضروري ان يخاف وقوع القضاء بها فجأة فيكون حرم الله وحرم رسوله وسياجهما من جزيرة العرب مما يسقط بسقوطها ، وتزول السلطة الاسلامية عنهما وعن غيرهما مدة فترة السقوط أو مدة أطول منها يكون الحرمان وغيرهما فيها من قبيل التراث الذي يحكم فيه الفاتحون بما يشاؤن . فهو باستقلاله هذا قد جعل الحجاز تحت سلطة اسلامية خالصة ، ويوشك ان يكون هذا مقدمة لدولة عربية اسلامية كبيرة ، وما ذكره الاستاذ في أوائل حديثه من تعادي أمراء جزيرة العرب وكونه يحول دون تأسيس دولة عربية عزيزه غير مسلم ، فالموادة بين أمراء الجزيرة وزعمائها لم تكن منذ قرون كثيرة خيرا منها الآن، فلم يبق بين أحد منهم شيء من ذلك العداء الا ما بين امام اليمن والسيد الادريسي ، ويرجى أن يقدر الشريف على تلافي ذلك وعقد اتفاق بين الجميع على قاعدة [اللامركزية]

وصفوة القول ان استقلاله هذا لاضرر فيه على الدولة العثمانية ولا على الامة

التركية ، وانما هو كبح لجماح هذه الجمعية الباغية على الاسلام والدولة والعرب ، فان سقطت الدولة في هذه الحرب لم يكن استقلال أمير الحجاز أحد أسباب سقوطها وان سلمت من الحرب ومن هؤلاء الملاحدة وعادت دولة اسلامية قوية لم يكن ما تقدم من استقلال الشريف مانعا من العودة الى الوفاق والاعتصام ، هذا ملخص ما عندي في هذه المسألة ، فاذا كان لديك أسئلة أخرى فلتكن في زيارة أخرى .

انتهت المحاورة مع الاستاذ بما ذكرنا من الاقناع وكذلك المحاورات الاخرى في الجملة

فخلاصة ما وقفنا عليه من الآراء في المسألة العربية واستقلال الشريف الاكبر أن المسلمين هنا لا يرتاحون الى هذا الاستقلال الا اذا أمكن أن يستتبع تأسيس دولة عربية قوية مستقلة تمام الاستقلال لا نفوذ فيها لدولة أجنبية يضعف استقلالها ، ولكن منهم من يشك في امكان ذلك ومنهم من يشك في سهولة حصوله دون امكانه . ولكل منهم دلائل نظرية لا يتسع هذا الجزء لبسطها ان كان من الممكن نشرها

ثم ان كل فرد ممن تكلمنا معهم أنصف الشريف في استحسان وقوفه بهذا الاستقلال عند حد منع الضرر عن أهل الحرمين وغيرهم من العرب عملا بما ثبت عنده من سوء نية الاتحاديين بحيث كان استقلاله غير مضعف للدولة الا بقدر ما يجني عليها الاتحاديون اذا أرادوا الاستمرار على قتاله بجيوشها المنظمة وتيسر لهم ذلك . فعمل الشريف يصدق عليه أنه إما ان ينفع نفعا عاما أو خاصا بالحجاز وإما ان لا يضر ، ولا يوجد عاقل ينكر مثل هذا أو يذمه . وكل مسلم عرف كنه سياسة الاتحاديين في الاسلام صار عدوا لهم ، وأقدم أعدائهم في هذا علماء الآستانة والمتدينون فيها وفي سائر بلاد الترك — وما كان مسلمو العرب الا متأخرين عنهم في ذلك . وكل عربي مصري أو غير مصري عرف كنه سياستهم في العرب صار عدوا لهم ، وأقدم من عرف ذلك السوريون المسلمون ثم غيرهم منهم ومن العرب ، ولو كان المصريون يصدقون أخبار المقطم والاهرام عن فظائعهم في سورية لاجمعوا على ذلك وقد انفتحت لهم أبواب أخرى للاقناع . وقد قلت لاحد منهم ان ما أتاه جمال باشا من التقتيل والتصليب والتغريب عن الوطن ثبت عندي من طريق الاسرى العثمانيين ومن طريق أمريكة وأوربة ثم من طريق الحجاز لاقبلوه مذعنين ، ولعنوا جميع الاتحاديين . وسيأتي يوم يصدق فيه الجميع هذه الاخبار ولعله ليس ببعيد .

السيد عبد الحميد الزهراوي

كان هذا الشهيد السعيد نابغة من نوابغ السوريين ، لا يكاد يلزّ به في مجموعة مزاياه قرين ؛ ما عرفت بلاده كنهه ، ولا قدرته قدره ، على انها لم تقصر في تعظيمه وتكريمه ، وفي الاحتفال له والحفاوة به أيام سفره وأيام قدومه ، إذا عرف الجمهور منه في أواخرسني حياته كما كان يعرف الآحاد، انه أحد أشراف البلاد المنصرفين لخدمة الامة بكفاءة واستعداد ، من معرفة المصلحة وفصاحة اللسان، وقوة الحجة وجرأة الجنان، وما كان لعقل الجمهور ان يدرك كنه المزايا والفضائل التي بها كان الزهراوي في حقيقة جوهره من الحكماء الربانيين ، والفلاسفة الاجتماعيين، وان قضت عليه الايام بالانتظام في سلك السياسيين، تلك الفضائل التي عرفها له كل من عرفه من العقلاء المنصفين ، وهي استقلال الرأي وصدق القول وقوة الإرادة والإخلاص في العمل وإيثار الحق على الهوى ، وتوجيه الهم والهمة الى المصالح العامة ، وترجيحها عند التعارض على المنافع الخاصة، بل لم نعلم عنه انه اشتغل في طور من أطوار حياته لمنافعه الخاصة ، وانما نعلم عنه انه بدأ حياته العملية منذ بلوغ الرشد بانشاء (جريدة المنبر) السرية التي كان يطبعها في حمص بمطبعة الجلاتين ويوزعها في البلاد السورية سرًّا لخدمة جمعية الاتحاد والترقي الاولى والسعي معها لانقاذ الدولة من الادارة الحميدية المستبدة، فتعلق بالسياسة من ذلك الحين وظل مشتغلا بها طول حياته

كان بيننا وبين هذا الصديق العزيز تشابه في النشأة والتربية ، ومشاكلة في الاستعداد والغريزة ، وتقارب في الفكر والرأي، تعارفنا به بالمكاتبة قبل اللقاء ، ثم كان بعد اللقاء كالمحبة والوداد، لم يزدد بالمعاشرة الا ثباتا ورسوخا. كان كل منا ميالا الى الاشتغال بالاصلاح الديني والاجتماعي وعلاقة ذلك بالسياسة لا تخفى ، ولكن تيسر لكل منا من أمر الاشتغال بالسياسة أو الاصلاح ما لم يتيسر للآخر، اذ كانت هجرتنا الى مصر وهجرته الى الآستانة

وفي سنة ١٣١٥ التي أنشأنا فيها المنار كان هو محرراً في ادارة جريدة (معلومات) العربية في الآستانة ، وكان ما يكتبه فيها موافقا لمشرب المنار ، ووقع بيننا ما يشبه المناقشة في المسائل الاصلاحية (راجع ص ٩٥٠ من الطبعة الثانية لمجلد المنار الاول) ثم نفته أفكاره من الآستانة الى وطنه . وفي سنة ١٣١٩ كتب وهو في دمشق الشام تحت المراقبة السياسية رسائله الاصلاحية الثلاث (الفقه والتصوف) التي نشرنا أولها في المجلد الرابع من المنار ثم قرظنا فيه المجموع لما طبع على حدته في مصر. وقد كانت هذه الرسائل أشد مما كنا نكتبه في موضوعها نقدا على سعة الحرية هنا وشدة الضغط هنالك ، فهاجت عليه حملة العمائم في دمشق، وأشد ما أنكروا عليه فيها القول بالاجتهاد و بطلان التقليد . فهيجوا عليه الحكومة فاعتقلته في الشام ثم أرسل الى الآستانة ، ولم يكن سبب ذلك التشديد عليه ، والاغضاء عمن اتهموا بالقول بالاجتهاد وابطال التقليد معه، غيرة من الحكومة على الفقهاء والصوفية ان يوجه اليهما انتقاد ، ولا مجرد الارضاء لعصبية الحشوية الجامدين في الشام ، وانما سببه الباطن انه كان نشر في المقطم مقالة في الخلافة بامضاء (ع . ز) وهو إمضاؤه الرمزي لكل ماكان ينشره بمصر ، وقد وجدت تلك المقالة معه عند القبض عليه وحاول تمزيقها . وقد أشار الاستاذ الامام الى هذه الواقعة في فصل (الاسلام اليوم) من كتاب (الاسلام والنصرانية) واننا نذكر عبارته هنا لما فيها من تأييد هذا الصديق الشهيد وهي :

« ألم يسمع بأن رجلا في بلاد اسلامية غير البلاد المصرية كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ما ذهب اليه أئمة المسلمين كافة . ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفية وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزئ به، أو ما يقرب من هذا، وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله. فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الاثواب العباعب ، وقالوا انه مرق من الدين ، أوجاء بالافك المبين ، ثم رفع أمره الى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن ، فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان ان يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه بين يدي عادل لايجور، ومهيمن على الحق لايحيف، الى آخر

ما يقال في الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله، فقد صدر الامر هناك أيضا بسجنه، ولم يعف عنه الا بعد أشهر، مع انه لم يقل الا مايتفق مع أصول الدين، ولا ينكره القارئ والكاتب ، ولا الآكل والشارب » اهـ

أرسل الرجل الى الآستانة فاعتقلته السلطة الحميدية هنالك أشهرا ، بعد جعله تحت مراقبة الجواسيس زمنا ثم أرسل الى بلده (حمص) ليكون مقيما فيها تحت المراقبة لايبرحها (ويسمى مثله في عرف الدولة الرسمي «مأمور اقامة») فبقي فيها الى ان فرّ الى مصر سنة ١٣٢٤ وبقي فيها يشتغل بالتحرير في المؤيد ثم في الجريدة الى ان أعلن الدستور سنة ١٣٢٧ فعاد الى سورية فانتخب مبعوثاً عن لواء حماه وكان من أمره في المجلس وبعده ماكان .

لو كان الزهراوي من طلاب المنافع الشخصية لأمكنه ان ينال منها في عهد عبد الحميد ما نال من كانوا دونه من أرباب الافكار وحملة الاقلام الذين استمالهم السلطان عبد الحميد وأعوانه وغمروهم بالاموال والرتب وأوسمة الشرف ، ولم يكن جهاده القانوني للاستبداد الذي انقلبت اليه جمعية الاتحاد والترقي بعد الدستور بأضعف من جهاده للاستبداد الحميدي مع الجمعية في ابان صلاحها ومع غير الجمعية أيضا، نصرها في الايام الاولى من عهد الدستور كما نصرها قبله ، وجاهدها بعد أن صار أمر الدولة كله في يدها ، ولو كان من طلاب المنافع الشخصية لنال بمسايرة الجمعية منها ماكان يعلم انه لا ينال بمعارضتها ، وما كنت أرى — وأنا في الآستانة — أحدا من المعارضين للجمعية يرى قوتها فوق ما كانت عليه الا الزهراوي ، كان من أشدهم معارضة لحزب الجمعية في المجلس وفي جريدة الحضارة التي أسسها في الآستانة، على كونه من أشدهم اقتناعا بقوة الخصم وبعدا عن الغرور بما كان يروى من ضعفه،

فجملة القول فيه انه بدأ حياته بخدمة الامة والدولة وثبت على ذلك طول حياته، وان جل عمله كان مع جمعية الاتحاد والترقي، فهو بعد تلك المعارضة في زمن المبعوثية، اعتقد أن الدولة صارت بيد الجمعية ، وأنه لا يوجد في الامة حزب يرجى أن ينتزعها منها، فلم يبق من طريق لخدمة الدولة والامة الا طريقها، وهذا الاعتقاد هو الذي حمله على قبول منصب الاعيان أخيرا كما سنبينه بالبرهان، وكان جزاؤه من الجمعية التي أفنى

حياته في خدمتها ان قتلته شر قتلة ، وبقت جثته مصلوبة في الشام ١٢ ساعة، ليعلم كل عربي يراها أو يسمع خبرها كيف تكون عاقبة العربي العالم المفكر، والخطيب المؤثر ، والكاتب المحرر ، عند هؤلاء القوم الذين جعلوا من أصول سياستهم محو العربية من سورية والعراق ، وحتم البداوة على عرب الجزيرة وايقاع الشقاق الدائم بينهم الى ان يبيد بعضهم بعضا

كان قبول السيد الزهراوي لمنصب الاعيان من الحكومة الاتحادية مثيراً لاستياء جمهور طلاب الاصلاح ومحبي الاصلاح للامة العربية العثمانية ، وسببا لسوء الظن فيه، وكثر القول بأنه تحوَّل عن سيرته التي كان عليها طول عمره، فآثر منفعته الشخصية ، على مصلحة أمته العربية ، فتحول ذلك الجهور الذي كان ينوِّه به ويصفق له الى الخوض فيه ، ولو كان عقل الجهور يدرك كنه تلك الفضائل التي وصفناه بها بحق لما صدق ان مثله يتحول بعد سن الخمسين من عمره ، الى ضد ما ثبت عليه من أول نشأته ، وما الذنب على العامة في ذلك وانما الذنب ذنب خواص الاذكياء والمتعلمين الذين سارعوا الى الخوض فيه فتبعتهم العامة، وكان يجب عليهم التروي والتثبت في أمر هذا الحدث الجديد ألهذا العامل المستقل عذر فيه واجتهاد أم لا ؟ ثم التثبت والتروي في الطعن بمثل هذا الرجل منهم ان ثبت لهم أنه مجرم سياسي متعمد ، لا مجتهد مصيب أو مخطئ ، فان أول نتائج الطعن في مثله — وقل ان يوجد مثله في طهارة سيرته الشخصية والسياسية — هي زوال ثقة الامة من زعمائها بقياس أنزه الصادقين على أخس المنافقين . وما أولئك الطاعنون الا حاسد يذم من الزهراوي ما يتمنى مثله لنفسه ، أو نفعي ساء ظنه لسوء نيته وفعله، أو غيور شديد العصبية ، قليل الروية ، يبادر الى ارضاء حميته، ولا يحسب حسابا لعاقبة قوله وعمله،

لم يكن الزهراوي من أهل الاهواء الذين يجعلون مصلحة الامة والدولة تبعا للاغراض ، وعرضة للعواطف والاحقاد ، بل كان يحب العمل المبني على القواعد المعقولة، والرغائب المأمولة، فلما رأى أن الاتحاديين يحاولون إصابة أغراضهم — الضارة بالامة العربية وبوحدة عناصر الدولة — بقوة مجلس المبعوثين أحب أن يحاربهم بسلاحهم فكان من المؤسسين للحزب الحرّ المعتدل ثم لحزب الحرية والائتلاف الذي

تكون من هذا الحزب الذي أكثر أفراده من العرب، ومن حزب الاهالي الذي أكثر أفراده من الترك، وكان الزهراوي وكيل الرئيس في هذا الحزب، وقد ظفر هذا الحزب بالاتحاديين فجذب اليه الجم الغفير من مفكريهم وضباطهم، ثم أسقط وزارتهم واستبدل بها وزارة مختار باشا التي لم تكن هي ولا وزارة كامل باشا التي جاءت بعدها ائتلافية ولا اتحادية، وانما كانتا على كراهتهما اسيرة الاتحاديين، غير معتصمتين بعروة الائتلافيين، ولا موافقتين لهم في كل شيء، ولذلك سهل على الاتحاديين اسقاط وزارة كامل باشا، وقد أخطأ الائتلافيون بعدم جعل الوزارة من حزبهم

وقعت حرب البلقان في أيام وزارة مختار باشا فانكسرت الدولة فيها وألفت وزارة كامل باشا لتتدارك أمر الدولة بالصلح، وفي أثناء ذلك جاء الزهراوي مصر قاصدا الذهاب الى الآستانة لقرب موعد فتح مجلس المبعوثين، وقد اقنعناه بأن لا يتعجل السفر لما يخشي من وقوع الفتن بالآستانة، وقد وقع ما كنا نتوقعه بهجوم الاتحاديين على الباب العالي وقتلهم ناظر الحربية فيه واسقاطهم وزارة كامل باشا والقبض على أزمة الحكومة، ولكن صاحبنا كان يصر على السفر ويظن ظنا كاد أو كان يسميه يقينا بأن الاتحاديين لا يلبثون اسبوعا حتى تسقطهم الامة وتستبدل بهم غيرهم، فأقنعناه بأن يصبر حتى تصدق الايام ظنه أو تكذبه، وما اقتنع منا الا بإدلال الصداقة، على انه كان يرجع عن رأيه الى رأي صديقه هذا كما نص على ذلك في كتابه الآتي، وانما صرحت بهذا لانه من مقدمات الحجة التي أذكرها بعد نشر ذلك الكتاب.

وفي أثناء حرب البلقان تأسس حزب اللامركزية بمصر ولم يدخل هو في الحزب، لانه لم يكن ينوي الاقامة بمصر، وانما رشحه الحزب لرياسة المؤتمر العربي لمكانته العلمية والاجتماعية، وموافقته للحزب في مقاصده الاصلاحية — فانتخب رئيسا في باريس، وعقد معه الاتحاديون ذلك الاتفاق المشهور

كان في مدة إقامته في باريس أيام المؤتمر وبعدها يكاتب حزب اللامركزية ويعمل برأيه، ولم يسافر الى الآستانة الا بعد إذنه، فقد استشار الحزب فخيره بين مصر والاستانة، وكان هو يرجح الثانية والحزب يرجح الاولى، وكان يكتب

من الآستانة الى رئيس الحزب كل ما يدور هنالك في مسألة اعطاء العرب حقوقهم من الاصلاح والوظائف ، ويكتب الى صديقه (كاتب هذا) مثل ذلك، وما وراء ذلك مما كان يكتمه عن البعض أو عن كل أحدكما يعلم من كتابه المطول الآتي

كان من فضائل الزهراوي الشخصية التي تعد عيوبا في السياسيين أنه لحسن نيته وصفاء سريرته يبالغ في حسن الظن بكل أحد يظهر له ارادة الخير والحق ، فلما قال له الاتحاديون انهم يعترفون بما كان من خطأهم في تنفير العرب منهم وفي محاولتهم تتريك جميع العناصر العثمانية وانهم يرغبون في اصلاح ما أفسدوا في ذلك لتوقف تجديد قوة الدولة عليه — صدقهم في ذلك لانه معقول عنده ، وعد توجيههم منصب الاعيان اليه على ما كان من شدة معارضته لهم برهانا على صدقهم ، وصار يرى أنه ينبغي لطلاب الاصلاح المخلصين أن يمدوا أيديهم اليهم و يساعدوهم على الاصلاح، وانهم اذا أحجموا حل محلهم المنافقون وطلاب المنافع ، وكان متفقا مع صاحبه عبد الكريم الخليل على ذهاب صاحب المنار ورفيق بك العظم الى الآستانة لهذا الغرض . اما انا فكان يغلب على ظني أن جعله من الاعيان أحبولة يريدون بها اصطياد المخلصين من طلاب الاصلاح في خارج المملكة ليفتكوا بهم بعد جلبهم اليهم جملة واحدة ، وان وجوده وحده هنالك واق له . وفيه فوائد منها أنه تجربة للاتحاديين وحجة عليهم

قبل منصب الاعيان بتلك النية الصالحة من غير مشاورة للحزب ولا لأحد من أصدقائه ، وانما أخبرنا بما كان و بنيته فيه ، فلمناه على تعجله ، ولكن الحزب أجاز عمله ، واتفق الرأي على أن يمضي في هذه التجربة ، وأن لا ينضم اليه أحد من المقيمين خارج المملكة ، وكان أول ما كتبه اليّ في ذلك قوله من كتاب مؤرخ في ٦ صفر سنة ١٣٣٢ (٦ يناير سنة ١٩١٤) ما نصه :

« أخوكم عين بعون الله وعنايته عضوا لمجلس الاعيان فبشروني بأنكم راضون عن قبولي بها، والله يشهد اني انما قبلت لاتمام العمل وتعلمون قلة الرجال عندنا يا أخي . يعترض بعض المعجلين فالامر في هذا متروك لحكمتكم وهمتكم . بل أرى ان تقديم شكر للصدارة يكون مؤيدا لاتمام العمل ، ومن الله سبحانه التوفيق »

وقد كتب الى الحزب بنحو هذا فأجب طلبه لان غرض الحزب الاصلاح لا المشاغبة ولا عداوة الدولة، ولكن لم يكن يحسن الظن بالاتحاديين أحد . وقد دار بيننا وبين هذا الصديق في هذه المسألة وما يتعلق بها مكاتبات ومعاتبات . لم تخل من عدة مغاضبات، وانني انشر الآن منها كتابا مطولا كتبه في ١٦ صفر سنة ١٣٣٢ وكتب في أعلاه « مكتوم كله عن كل أحد » وهذا نصه بعد العنوان

﴿ كتاب سري من السيد الزهراوي ﴾

سيدي الاخ الرشيد　　الولي الحميم الحميد

تحية من الله ومن أخيك ولا برحت المكرمات تحييك . لقد عظم شوقي أيها الاخ ومضت الايام وأنا أمني النفس بقرب التلاقي وما زلت راجياً ذلك

يظهر يا عزيزي أن عتبك على تأخري هذا عظيم عرفت هذا من كتابك الى الاخ الاستاذ . . . ويظهر أن قطعك الكتاب عني عمد، استنبطت هذا من طول مدة القطع، وقد حملت هذا على كثرة عملك التي أعرفها، ثم تذكرت ما أعهد من وفرة نشاطك والحمد لله، وأن كثرة عملك مع تلك الوفرة من النشاط لاتقف في سبيل ماتعزم عليه، فاستنتجت من هذا القياس – سامحني الله على رأي ابن حزم – أنك تعمدت عدم العزم في الكتابة أو عزمت على عدم الكتابة، وقد ظهرت هنا شائعة أن اللامركزيين في مصر مشمئزون من بقائي هنا، وأنهم قطعوا علاقتهم بي ومكاتبتهم لي، أنا لم أصدق هذه الشائعة وانما خشيت أن يكون بعض المعجولين هناك يصرح ثمة مثل هذه التصريحات وكدت أخشى أن يكون . . . مثلا قد شاهد شيئا من تأففكم لتأخري فبنى على مشاهدته كلاما كتبه الى بعض معارفه هنا فشطّر ههنا وخمس

هذه كلها ظنون وأستغفر الله تعالى منها، وأرجوكم مسامحتي عليها، ومن الشرح يظهر لكم سر تقديمها بين يدي هذه التفاصيل المهمة التي جاء أوانها :

كنت قد فصلت لكم إذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فوضى وكيف تعبنا في ستر الامر وايجاد المؤتمر مرونقا بتوفيق من الله تعالى

فوق المأمول، و بعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذي لفق تلفيقا، ثم بعد قليل نفد صبر البيروتيين فذهبوا الى بلادهم عن طريق أستانبول، و بقيت ياعزيزي وحدي أمثل الفكرة، و بقي خليل زينية وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة، حتى ولا من الجامعة السورية، وانما همهما بيروت وحدها لا شريك لها ولكن لانهما متعلمان سايراني وسايرتهما وتوادينا جيدا حتى سفري، ولم يكن مثل هذا التواد ولا ربعه بينهما و بين رفقتهم البيروتيين المسلمين

لو عجلت تلك الايام ورجعت على الفور الى مصر لبقيت المسألة مقطومة بتراء، اذن يكثر استهزاء الافراد والجماعات والاقوام بأشخاصنا و بجماعتنا و قومنا، لكن الله عز وجل سلم من هذا . وأقدرني على الصبر هناك ممثلا للفكرة مدة خمسة أشهر — وما هي بالقليلة ولا الكثيرة — ونعمت المدة كانت ، وقفت فيها على كثير وعظم فيها اختباري لاوربا، وما أحوجنا الى مثل هذا الاختبار

جئت بعد ذلك الى استانبول لأرى ماجدّ فيها لان المعرفة بالقديم لا تغني ، والمعرفة عن بعد كثير من مآخذها غير صحيح ، وما أضرَّ العلم المبني على مأخذ غير صحيح !

بعد وصولي بقليل عرفت كثيرا من الاحوال الحاضرة هنا و بعد مدة أخرى عرفت أكثر وكدت أظنني اكتفيت واحطت كل الاحاطة ، ولكن الآن تبين لي أنه لولا الصبر والتأني اللذان مكنني الفاطر سبحانه منهما لرجعت بمعرفة غير كافية، ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول تمت احاطتي وانما أقول أصبحت يجوز لي أن أفصل وأشرح بشيء من الطمأنينة، وان تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع وجاء اليوم في وقته

الشرح ههنا يتعلق بثلاثة مواضيع (أو موضوعات) (١) أوربا والعثمانية (٢) الاتحاديون وغيرهم (٣) رجال الاصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الاخرى . واني أبدأ لكم بالاول لقصر البحث فيه وأشفع بالثاني وأخرت الثالث لطوله وطوّلته لتوقف التفاهم وكثير من أعمالنا على الاحاطة بهذه الحقائق المشروحة فيه

أوربا والعثمانية : لقد كشفت أوربا آخر ستار من سُتر السياسة في المسألة

العثمانية وقررت التداخل في سائر شؤونها وانما لا يزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التداخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم، وليس في أوربا اليوم موضوع مقدم على هذا الموضوع، ولا يمضي ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالي فتلد ذلك الشكل الجديد الذي يتفقون عليه، والذي أظنه ان الدولة ستبقى بعد ذلك وتعيش أحسن مما كانت عائشة لأن بعض التداخل طبٌّ ولستُ مغاليا اذا ذهبت الى أن الموت أقرب اليها مع عدم التداخل البتة منه مع شيء من ذلك، فانا اذا قلنا بعدم التداخل البتة فحينئذ تخلق كل واحدة سبباً لانشاب الحرب عليها فتؤخذ بداء السكتة دفعةً واحدةً

الاتحاديون وغيرهم : الاتحاديون معروفون فمن غيرهم ؟ لا يوجد الآن حزب سياسي آخر الا ان يكون خفيًا ولم أشمّ شيئا من هذا، وحينئذ لانجد مقابل الاتحاديين الا جماعات الاجناس كجماعات الروم وجماعات الارمن وجماعات العرب

نعرف أن للروم جماعات وللارمن جماعات فهل للعرب مثل هذا ؟ هلمّ ننظر :

أولا — الروم كلهم جماعة واحدة برأسهم البطرك ولكيلا يستبد ربطوه بمجلسين روحاني وجسماني، وهكذا الارمن، أما العرب فليس لهم مثل ذلك . وثانيا الروم والارمن لهم جمعيات سياسية منظمة مرتبة غنية وليس للعرب مثل ذلك، اللهم الا جماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت، اذن غير الاتحاديين هم الروم والارمن وجماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت .

فالاتحاديون هم أولياء الامر مباشرةً وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية وناوون نية قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف، ويشتهون أن يخلص اليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل، ويعترفون بخطيئاتهم الماضية، وينوون أن لا يعودوا الى مثلها بقدر الامكان، أنا مؤمن بنيتهم وأقوالهم هذه كل الايمان لأدلة كثيرة ظهرت لي، ولكنني مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم، ويرجى به أن تقوى قابليتهم، فان شئتم أن تخطئوني بتحسين الظن الى هذه الدرجة — كما أشرتم الى ذلك في كتاب ... فاني لا أخطئكم بالتخطئة لاني أجلّ رأيكم أكثر

من رأيي، وإنما أرجو أن يكون في خطأي شيء من البركة ، أرجو ذلك من مصداق قوله سبحانه « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .

هـذا وصف الاتحاديين بما هم عليه اليوم . أما الروم فقد قلوا في المملكة وقصاراهم أن يحافظوا على ما بيدهم من امتيازات البطركية وحق المبعوثية وسيقل الالتفات اليهم ، وأما الارمن فهم اليوم آلة بيد روسية وسيتم لهم في المبعوثية حظ قريب مما يأملون، وأما نحن معشر العرب فان أخاكم الآن يعتبر ممثل جماعتنا، وقد فصلت ما تم على يدي في الكتاب الذي أرسلته الى الاخ الرفيق في البريد الماضي وههنا سأزيد

(٣) رجال الاصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الاخرى :

ما أظنكم — أستغفر الله — ما أعتقد أنكم في حاجة الى بيان أن رجال الاصلاح الحقيقيين غير كثيرين، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، وأعني برجال الاصلاح الحقيقيين من جمعوا في موضوع الاصلاح بين صدق النظر وصدق العمل ، من كثرت تجاربهم ومرنت رويتهم وصحت عزيمتهم وشهد ماضيهم ، من كثر اختلاطهم بمختلف الطبقات، ووقوفهم على متباين النزعات، وصبرهم على متنوع العقبات ، من امتزجت روحهم بحب النظام الذي يحبه الله وكره الفساد الذي يكرهه الله، وامتزجت سيرتهم بأخبار معامع الجهاد الاصلاحي، من أشربت أفكارهم فهم معنى الرابطة وأفئدتهم محبتها وتعشقها، فنحن لقلة هؤلاء واقعون أمام حاجتين عظميين — الحاجة الى تكثيرهم ، والحاجة الى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطبيعتهم ، ثم نحن مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين ، الاول السبات الذي الامة فيه ، والثاني الجشع الذي أوربا فيه

أترك تفصيل هذا الاجمال لحكمتكم وحسبنا هي في كل موضوع، وآخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا لانكم علقتم الامل مرارا على صنف منهم ههنا

العرب هنا ثلاثة اصناف: متاجرون ومتعلمون ومأمورون، فالصنف الاول لافي العير ولا في النفير من جهة السياسة والاصلاح ، ثم هو في غاية القلة ، والصنف الثاني أولاد في ناشئة العمر لا يليقون للسياسة ولا تليق لهم، والصنف الثالث أربعة

أقسام الضباط والمأمورون المنصوبون في بعض الوظائف والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا والمأمورون المعزولون الذين جاءوا لينصبوا:

فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسالك البتة والاولى عدم دخولهم فيها، فان هذه التجربة القليلة التي سأقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا: ذلك ان . . . ناقم اليوم على الحكومة فيشتهي لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفا، وهو لاجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له لانه على زعمه يؤخر حركات العرب، ولاأدري ماهي حركات العرب وأين تسير وأين ترسي. وهذا يجتهد أن يجمع حوله بعض أولئك الاولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا ولكن لا ينجح بحوله تعالى، ومن جهة أخرى هو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا، وقد أردت اختباره فوجدته يجنح الى مصالحة أولياء الامور وحينئذ يرضى عن كل شيء. فانظر ياعزيزي الى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا.

وأما المأمورون المتقاعدون فمثلهم كمثل العجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء. وأما المأمورون المنصوبون فلا همّ لهم الا حفظ المنصب.

وأما طلاب المأموريات فجياع مساكين لا يفهمون من الاصلاح الا المأمورية، انجاءت فقد جاء الاصلاح وان لم تجيء فقد منع الاصلاح. ومن هذا التفصيل يظهر لك أن العاصمة في حالتها الحاضرة ليس فيها أبناء عرب تستطيع جماعتنا أن تعتمد على أحد منهم، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد منهم، اللهم الأأن يكون (فلان وفلان) وكل ما أخبركم عنه (فلان) فهو سراب بقيعة جاءه أخوكم الظمآن فلم يجده شيئا. وبعض أولئك الاولاد يحسدون الشاب عبد الكريم وبعضهم لم يتمكن من انالتهم اربا لابيهم أو أخيهم أو ابن عمهم مثلا، فمن ههنا أكثروا عليه من قيل وقال وكله هراء وهواء

وأما العرب في الجهات الاخرى فهم أهل سورية وأهل العراق وأهل الجزيرة الخلّص، فالسوريون والعراقيون حضرٌ قد ألفوا الذل وتعودوا الاستخذاء والاستكانة، لايفهمون ولا يريدون أن يفهموا، لايساعدون ولا ينوون أن يساعدوا، لا يُنبَّهون ولا يروق لهم أن يوقظوا، وأما أهل الجزيرة الخلّص فهم الاهل وفأم الله الخبر

وشدّ سواعدهم، أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها من الحضر على قلة غَنائهم. قد فهمت من كتاب الاخ (فلان) كثيرا واستنبطت كثيرا ولو كان في وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة لكانت روحي أوزاعا على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضرموت ولكن نظرية الصوفية في هذا الباب لا يمكن تطبيقها (١)

أنظر يا عزيزي أنا لازم لهناك كما تشير ولازم الى هنا فان هنا محل عمل ليس بقليل، فاني أرجو أن يكثر بوجودي هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم فان رضيت عن هذا الرأي فعليك عملان معجلان وعمل يمشي مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر ، فالاول من المعجلين تبشيري بتلغراف عن رضائك خاصة وهو الاهم ، ورضاء الرفاق عامة وهو مهم ، والثاني منهما حملك الرفاق على تقديم تلغراف للصدارة يحبذون فيه هذا التعيين ويجعلونه دليل اقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارة رقيقة تشويقية ، أما الثالث فهو ما بيننا من أمر ايجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والمكان لبث الاصلاح العلمي والعملي

وان لم ترض عن هذا الرأي فاكتب اليّ مفصلا ومبينا كل جهة من جهات الموضوع ، وأنا من عهدتَ من يدع رأيه أخيرا الى رأي وليه . . .

هذه هي الخلاصة المفصلة واليك خلاصة الخلاصة ، وهي أن اليأس لا يجوز بحال من الاحوال ، ولكن الامة في كل أطرافها ليست بحالة يعتمد عليها في شيء وأنه مع هذا لايجوز اهمالها، وكذا لا يجوز اهمال من بيدهم أمر المملكة وتركهم وحدهم، وأنه لابد لنا من رجال ههنا ، وأن أكثر ماينصرف به الرواة من الاخبار غير صحيح، وأني منتظر أمركم بسرعة، وأن شوقي عظيم

والسلام على الاخ السيد صالح وجميع المعارف سلم الله تعالى الجميع م؟

عبد الحميد الزهراوى

---

(١) كنت كتبت الى الاخ الذي أشار اليه ثم اليه هو ان عرب الجزيرة هم صفوة العرب وأعظمهم استعدادا فان كان هنالك إصلاح عربي فيجب ان يكون لهم حظ منه وان تعتني بشأنهم أكثر من غيرهم

[المنار] من هذا الكتاب وكتب أخرى بمعناه يعلم رأي الرجل الذي بنى عليه اجتهاده، ومنه انه مؤمن بحسن نية الاتحاديين وعنيهم الاتفاق مع العرب، وبهذا كان يحاول اقناعنا، ولم يكن يخفى هذا على الاتحاديين، ولذلك نجزم بأنهم قتلوه لانه من أنجب نجباء العرب لا لذنب آخر (والله عزيز ذو انتقام)

وإنما نشرت هذا الكتاب السري من كتبه بنصه فلم أحذف منه الا أسماء الاحياء ليكون حجة على فريقين من الناس — فريق الذين قد يظنون ان الاتحاديين ما قتلوا مثل هذا السيد الجليل بعد ان رفعوه الى مقام الاعيان الا لأنهم عرفوا له ذنبا كبيرا كالخيانة للدولة أو للجمعية المتصرفة في الدولة، وفريق الذين ظنوا انه خان قومه العرب بتركة الدفاع عن حقوقهم بمنصب الاعيان الذي رشاه به الاتحاديون، وإنما يتم ظهور هذه الحجة، ببيان ماكان بيني وبين هذا الصديق الصدّيق من الصلة والرابطة

يرى قارئ كتابه انه قال لي فيه عن نفسه «وانا من عهدتَ من يدع رأيه أخيرا الى رأي وليه» وقد أشرت الى هذه الكلمة في المقدمة التي قدمتها على هذا الكتاب وأقول انه يعني بهذا انني اذا حتمت بعد المناقشة معه في الموضوع وجوب تركه لمنصب الاعيان واشتغاله بعمل آخر في غير الآستانة فانه يقبل ذلك. وقد كانت طريقتنا فيما يختلف رأينا فيه ان يدلي كل منا بحجته فمن نهضت منا حجته قبلها الآخر، فاذا لم ترجح احدى الحجتين وكانت المسألة مما يترتب عليها عمل يرجع هو في العمل الى رأي أخيه. ويدل على مكانة هذا الاخ عنده جعله رضاه عنه في هذا الامر أهم من رضاء الحزب الذي كان سبب ذلك، وهو صادق في قوله هذا وقوله ذاك لاريب عندي في صدقه، وما قلت هذا في بيان كلمتيه الا ليعلم المطلع عليه ان الرجل لو كان يكذب ويخدع لم يكن يكذب عليّ ولا يخدعني، ولو كان يفعل ذلك لحاول إرضائي بأنه يعامل الاتحاديين بمثل ما يعاملوننا به من الخلابة السياسية ليستفيد منهم في طور ضعفهم وحاجتهم الى استرضاء العرب بعض الحقوق، وما كان يكتب الي — وهو معتقد انني ساخط عليه ومتعمد ترك الكتاب اليه— إنه مؤمن بحسن نية الاتحاديين وصدقهم في هذه المرة ولكنه كتب

هذا وهو يعلم انني أعده سذاجة منه وغلوا في حسن الظن

وأزيد على هذا انني عاتبته على بعض ما جاء في هذا الكتاب وغيره عتابا ثقيلا جاءت فيه كلمة جارحة فكتب الي رقعة أودعها كتابا له قال فيها مانصه

— كلمات بيننا —

« في كتابكم الاول كلمة لا أكتم عنكم أنها كسرت قلبي اذ لو كتمت هذا لكان خيانةً للإخاء النظيف الصافي ذلك أنكم بنيتم على نظرية إغراقي بحسن الظن بالقوم أن هواء الآستانة طمس على عقلي وقلبي

« أخوكم ياعزيزي قد عرفتموه بعد أن كان عاش في هذا البلد سنين وعرفتموه في الآستانة نفسها فلولا ذلك لرجعت الى نفسي لأرى تغلغل أثر اليوسفور فيها

« ولكن كما لم أكتمكم هذه الحقيقة أتحدث أمامكم بما منّ الله تعالى به من حمل حدتكم القلمية هذه على ما يشبهها من حدتكم اللسانية التي نأنس بها أنسنا بحلمكم الذي هو أغلب وأصدق دلالةً على كرم قلبكم. على انني أؤكد بشرفكم أن انكسار القلب الذي أشرت اليه كان آنيًا وأعقبه تذكر حقيقتكم العالية. أما تأخير كتبنا فقد كان عاما حتى شمل الوالد فلا تحملوه على ذلك السبب ولكن أبى كرمكم الا يطيب القلب فأخصكم بشكر على هذا » اه

فمن كان بينهما مثل هذه الحرية في الخطاب والعتاب لايغش أحدهما الآخر لو كان من دأبهما الغش، وأحمد الله تعالى انني لم أبتل بهذه الرذيلة، وانني أبرئ منها صديقي الشهيد السعيد كما أبرئ نفسي

هذا وانني لم أكتف بما دار بيني وبينه قدس الله روحه من المكاتبات في هذه المسألة بل دعوته الى زيارتنا بمصر فأجاب، وكنت أعقد معه مجلسين للمناقشة في كل يوم وليلة — مجلسا قبل النوم ومجلسا في الصباح — فرأيته بعد ذلك كله معتقدا ان الاتحاديين عازمون على إرضاء العرب وانه يجب مسايرة العقلاء منا لهم على ذلك، واننا ننال بهذا من الحقوق ما لا يرجى ان نناله بالسعي مع مجافاتهم — وقد وافقته على بقائه في منصب الاعيان والاستمرار على هذا السعي لانه اما ان ينفع واما ان لايضر

المشانق في سورية - شنق الزهراوي

جاء في جريدة الاهرام تحت هذا العنوان ما نصه :

تلقت المقامات التي يوثق بروايتها ان السيد عبد الحميد الزهراوي حوكم في دمشق امام المجلس العسكري فحكم عليه بالموت شنقا فشنق . ولربما خفف من لوعة الاسى عليه شنق من تقدموه من عظماء الامة السورية وأمراء المسلمين على وجه التخصيص كالامير عمر الجزائري ابن الامير عبد القادر وشفيق بك المؤيد من أكبر رجال سورية ورشدي بك الشمعة من صفوة أعيانها وشكري بك العسلي وعبد الوهاب بك ومحمد المحمصاني وسليم بك الجزائري وعبد الغني العريسي الخ ولكن الزهراوي كان يمثل طائفة خاصة وفكرة نابتة وحياة جديدة تتراوح بين طائفة علماء الدين الاسلامي وغيرها من الطوائف الراقية ، والبحث في شؤون طائفة الزهراوي في سورية وبلاد العرب من المباحث الخطيرة الجليلة التي تبين الصلة بين الماضي والحاضر والقديم والحديث، بل تظهر التدرج الذي كان ينتظر على يد أولئك الذين أزهقت الحبال أرواحهم ، وأودت بعملهم وعلمهم ، وأماتت غرسهم قبل أن ينبت وبما نبت منه قبل ان يزهر ويثمر

فالمسلمون في سوريا تأخروا عن اخوانهم النصارى واليهود والدروز في طلب العلم . لان القدماء من اكابرهم وأغنيائهم كانوا يعتقدون ان طلب العلم انما يراد لطلب الرزق ، والوجيه الكبير المتوافر رزقه كان يعد من العار على أبنائه أن يطلبوا العلم للارتزاق « من شق القصبة » وضاعف في ذلك أن المدارس كلها كانت نصرانية ، اما للاجانب واما للمسيحيين الذين تأدبوا بآداب الاوربيين فحذوا حذوهم وساروا في العلم سيرتهم . وقد لقيت هذه الفكرة تشجيعا من الحكومة بل ربما غرست الحكومة نفسها هذه الفكرة في الصدور حتى يظل المسلمون على حالهم فلا يطلبون اصلاحا ولا يطالبون بحق، وليس للمسيحيين وسواهم ممن يتعلمون تأثير أو نفوذ لانهم الاقلية، ولهذا السبب لم يتمتع أحد من أبناء مسلمي سورية بذلك الانعام الذي انعم به ابراهيم باشا بن محمد علي باشا على لبنان وسورية بأن يعلم طائفة

منهم في مدارس مصر العالية، وانحصرت تلك النعمة حتى عهد الاحتلال بابناء المسيحيين السوريين وحدهم

وظلت الحال على هذا المنوال ولا مدارس ولا مكاتب للمسلمين في سورية حتى ان دخل أوقاف المدارس والمكاتب فيها كان يجبى للاستانة . الى أن زاد احتكاك القوم بالاوربيين ورأوا بأعينهم ومسوا بأيديهم فائدة التعليم فطلبوه لأبنائهم اما في مدارس الاجانب في بلادهم واما في مدارس الاستانة حتى ان بعض طلبة العلوم الدينية سبقوا الى ذلك سواهم أو ماشوهم في هذا السبيل ولكن على غير رغبة الحكومة وارادتها، فكانت تسبغ النعم على من يذم العلم وعلماء الاجانب كالشيخ النبهاني الشهير بذم مدارس النصارى .

ومن هؤلاء الطلبة الدينيين السيد عبد الحميد الزهراوي من اشراف حمص وسلالة بيوتها الكبيرة . بدأ علمه في بلده واتمه في الاستانة وتعلم هناك من السفطاء الترك الاهتمام بالشؤون السياسية والاجتماعية فكان أول ظهوره برسالة الفها في المعتقد الديني لم ترق في عيون مشايخ الطرق فسعوا به الى السلطان عبد الحميد حتى نفاه واقصاه الى دمشق [1] ولكن الوسطاء توسطوا له — وكان الظلم في ذاك العهد يدفع بالوساطة خلافا لما نراه اليوم — فتركه حرًّا واطلقه من كل قيد فعاد السيد الزهراوي الى الاستانة واشترك بالمظاهرة الودية التي قام بها فريق من العلماء والكتاب امام السفارة الانكليزية بعد انتصار الانكليز على البوير في الترنسفال، فلم يغفر له ولرفاقه السلطان عبد الحميد تلك المظاهرة لا لانهم هنأوا انكلترا بنصرها، بل لانهم مثلوا الامة العثمانية والشعب ولم يكن يغضبه أمر كهذا الامر، حتى ان رقباء الصحف والمطبوعات « المكتوبجية » حذفوا من قواميس اللغة كلمة « وطن » و « شعب » و « امة » و « جمهور » الخ وما شا كل ذلك من الالفاظ، فصبر السلطان على اولئك المتظاهرين مدة ثم فرق شملهم وارسل كل واحد منهم الى جهة الى ان تمكن السيد الزهراوي من الفرار الى مصر كما فر قبله السيد عبد الرحمن الكواكبي وكل حر في تلك البلاد من عربي وتركي وغيرهم .

---

(١) (المنار) الصواب في هذه المسألة ما بيناه في هذا الجزء

ويمتاز الزهراوي وامثاله من رجال الدين المصلحين على سواهم من المتعلمين انهم خير صلة بين طوائف الشعب وفرقه فهم يحترمون التقاليد المقدسة لكل طائفة وهم في الوقت ذاته يؤيدون المصلحين في إصلاحهم، فقد كانت طائفة الاسماعيلية في سورية تجمع العشور والنذور وترسلها الى أغا خان في الهند لان معتقدها ومذهبها يقضي عليها بذلك، فحدث بعد اعلان الدستور ان هذه الطائفة الصغيرة جمعت ما تبلغ قيمته نحو عشرة آلاف ليرة فصادرتها الحكومة ولكن السيد الزهراوي الذي كان يومئذ من أعضاء مجلس النواب انتصر لتلك الطائفة وقاوم الحكومة وجاهد في هذا السبيل حتى قرر مجلس النواب أن تنفق تلك الاموال في تعليم تلك الطائفة ولا تصادر لخزانة الحكومة كما فعلت وزارة الداخلية ولكن القرار لم يتجاوز الورق

وكان السيد الزهراوي يقول باتحاد الطوائف العربية بعامل اللغة والمنفعة والاصل والسلالة فأنشأ جريدة الحضارة لهذا الغرض، وكان من محرري جريدته رزق افندي سلوم الذي شنق في دمشق وهو فتى من حمص كان قد ترهب ولكنه خلع ثوب الرهبنة وسار على آثار مواطنه بحتة ووحد الاثنان كلاهما في هذا السبيل فكانهما جمعا لسانين دينيين على دعوة واحدة وطنية. وكان الزهراوي ككل أديب في بلاده اتحاديا بحتا على مذهب الاتحاديين الاولين الذين نالوا الدستور «للاتحاد والترقي وللنجاح» ولكن لما ذهب أولئك الاتحاديون الاولون ومزق شملهم وخولفت مبادئهم ومذاهبهم اتفق مع الخوجه شكري افندي الذي توفي في مصر منذ عهد قريب على تأليف حزب الاهالي، ثم ضمت الفرق كلها وألف منها حزب الائتلاف على قواعد ومذاهب فرقة الاتحاد والترقي كما كانت هي عهد زعامة صادق بك واخوانه وأقرانه، الى أن فشلوا في مهمتهم، فوجه نظره شطر العرب حيث لا أحزاب ولا فرق بل مطالب اصلاحية قاعدتها انتفاع البلاد بما يجبى منها من الضرائب و باوقافها. فرأس المؤتمر العربي الذي عقد في باريز — لانه لم يسمح لهم بعقده في بلاد الدولة — وهناك كتب الوثيقة المشهورة مع مندوبي الاتحاديين وعاد الى الاستانة مع رسول الاتحاديين عبد الكريم قاسم الخليل الذي كان أول المشنوقين في سوريا والهادي الذي تلاه والشيخ أحمد طباره الذي حكم عليه بالاعدام، فعين الزهراوي

في مجلس الاعيان الى أن شنق

ومما امتاز به هؤلاء جميعا شدة عصبيتهم العربية ، وشـدة عصبيتهم الجنسية العثمانية ، حتى كان الزهراوي يقول عند ذكر مطمع دولة من الدول في أملاك الدولة العثمانية « ان هـذا ينال منا بعـد أن تزهق أرواحنـا » وله في ذلك مغاضبات شديدة مع أصدق أصدقائه (الصواب مع بعض معارفه لا أصدق أصدقائه)

نقول هذا لا تأييداً للسيد الزهراوي بل بياناً للحقيقة عن تلك البـلاد واهلها وميول زعمائها الذين ذهبوا جملة لاجريرة الا انهم طلبوا اصلاحا يقيهم البلاء واتقاء مطامع الطامعين في ارضهم و بلادهم . حتى ان الشيخ احمد طباره لما عاد من اوروبا غير منهج سياستة و بعد ان كان يمتعض لذكر المدينة الاوروبية اخذ يكتب و يحث امته على الاقتباس من محاسنها فكان يكرر قوله : « انا لا ننقذ بـلادنا ووطننا الا بالسير على منهاجهم » تلك طائفة ذهبت اليوم ولكن لهذه الطائفة مذاهب ومبادئ اذا بقي في قومها وعشيرتها من يحبها و يعمل بها فقد تكون نتيجتها خيراً والا فقد ذهبت الرؤوس و بقي القوم كالقطيع من الاغنام بدون راع تساق فتسير الى حيث يراد منها لا الى حيث تريد لانها بعد قطع رؤوسها باتت بلا ارادة

[المنار]

هذا ما نشر في جريدة الاهرام عنـد وصول نبإ شنق السيد الزهراوي الى مصر ، وفي بعضه نظر اوإبهام ، تختلف فيه الافهام ؛ وقد رأينا من حق صديقنا رفيق رزق سلوم الذي ذكرته الاهرام في كلامها عن السيد الزهراوي أن نقول في نشأته كلمة وجيزة تحفظ في تاريخه و يظهر بها سبب شنقه وشنق جورج الحداد من شبان نصارى سورية مع من شنق من زعماء المسلمين ونابغيهم بتهمة السياسة العربية

﴿ رفيق رزق سلوم المحامي ﴾

نبت هذا الفتى في بيت من أكرم بيوت الروم الارثوذكس في حمص وتلقى التعليم الابتدائي في احدى مدارس الطائفة فيها ، ثم أرسل الى دير البلمند بالكورة (لبنان) فألبس لباس خدمة الدين ودخل مدرسة الدير الدينيـة ولـكنه لم يخلق

مستعدا للرهبانية والخدمة الكنيسية ، وانما خلق كبير الاستعداد للحياة الاجتماعية السياسية ، فلم يتم مدة المدرسه بل خرج منها ودخل المدرسة الكلية الأميركية في بيروت ، ثم سافر الى الآستانة بعد الانقلاب العثماني فدخل أحد مدارسها الاعدادية ثم مدرسة الحقوق وقد أخذ الشهادة الدراسية منها واختار أن يكون محاميا

كان رفيق مريدا وتلميذا للزهراوي في أفكاره الاجتماعية ، عاشره فعلم منه وهو أنبغ رجل من أشرف بيت في حمص ان في مسلمي البلاد فئة تسعى للاصلاح الوطني سعيا لا شائبة فيه للعصبيات والاحقاد الدينية ، ولما جاء الآستانة بمساعدة الزهراوي رأى جميع طلبة المدارس الرسمية العاليـة وكلهم من المسلمين على هذا المشرب الذي شرب كأسه الاولى من يد الزهراوي ، فانتظم في سلك أعضاء المنتدى الادبي وانتخب وكيلا للرئيس فيه ، وكان حظه من اللغة العربية أوفر من حظوظ جمهور اخوانه أعضاء المنتدى الذين لم يتعلموا شيئا في غير مدارس الدولة فكان خطيبا مفوها وشاعرا مؤثرا ، ورغبه السيد الزهراوي في الكتابة انشاء وترجمة وكان يصحح له ما ينشره في جريدة الحضارة فحسنت كتابته

تمكنت النزعة العربية من نفس هذا الشاب المهذب بما كان يسقي غرسها في نفسه مما كان يسمعه من كلام مدرسي الترك وطلابهم في مدارس العاصمة من الحث على العصبية التركية ، وما يقولون في العرب والعربية ، وما كان يقرأه في جرائدهم وكتبهم ، وما يقف عليه من أخبار جمعياتهم ، فكان يقـابل غلو متعصبي الترك بجنكيز خان وهلاكو خان المفسدين اللذين دمرا المدنية العربية الاسلامية بنظم القصائد في مدح النبي العربي الاعظم صلى الله عليـه وآله وسلم وإنشادها في احتفال المولد النبوي الشريف في المنتدى الادبي ، فهذا هو السبب الحامل لجمال باشا السفاك الاتحادي على شنق رفيق رزق سلوم مع السيد الزهراوي واخوانه واخدانه من مصلحي العرب ، ولا نعلم له ذنبا الا هذا فانه قضى حياته السياسية كلها في الاستانة ، وكان على رأي استاذه الزهراوي في وجوب السعي الى ترقي العرب في حجر الدولة العثمانية . وكان جورج حداد على هذا المشرب أيضا ، ولـكنه كان من أعضاء حزب اللامركزية وكفى بذلك ذنبا عند جمال باشا يقتضي القتل والصلب .

البلاغ الانكليزى الرسمى

في شأن العرب والسلطة الاسلامية

أرسل قلم المطبوعات البلاغ الآتي الى الجرائد في القطر المصري

مصر في ٢٨ يوليو سنة ١٩١٦

نشر في لندن اليوم البلاغ التالي :

« منذ سنين والعرب المعذبون بسوء الحكم التركي ينتظرون اليوم الذي يتمكنون فيه من استرجاع حريتهم السابقة وقد قاموا في الماضي بثورات عديدة ضد الاستبداد التركي في البلاد العربية

« وقد أدى سوء تصرف الحكومة الحالية في الآستانة وخضوعها التام لسلطة الالمان الى دخول تركيا مضطرة في حرب مشؤومة أوصلت الاحوال فيها الى حد النهاية ، فرأى شريف مكة وغيره من الزعماء في البلاد العربية ان الاوان قد آن لخلع النير التركي عن اعناقهم والمناداة باستقلالهم

« وكانت بريطانيا العظمى تعطف دائما على العرب في أمانيهم ولكن صداقتها التقليدية لتركيا اضطرتها في الماضي الى البقاء على الحياد . أما الآن وقد انضمت تركيا الى صف الدول الوسطى فقد أصبحت بريطانيا العظمى حرة في اظهار عطفها على أولئك العرب الذين انخرطوا في جانب الحلفاء ضد العدو المشترك

« على ان بريطانيا العظمى ستبقى محافظة على سياستها الثابتة في الابتعاد عن أية مداخلة في الشؤون الدينية ، وعلى بذل جهدها في بقاء الاماكن المقدسة أمينة من كل طارئ خارجي

« ومن النقط التي لاتقبل التغيير والتبديل في سياسة بريطانية العظمى هو ان تبقى هذه الاماكن المقدسة في أيدي حكومة اسلامية مستقلة

« ولا يخفى ان أحوال الحرب الحاضرة تلقي العقبات الكثيرة والاخطار في سبيل الراغبين في القيام بفريضة الحج ولكن العمل الذي قام به شريف مكة يجعل

الامل كبيرا في اتخاذ التدابير اللازمة التي تمكن الحجاج في المستقبل من زيارة الاراضي المقدسة بسلام واطمئنان » اه

[المنار] قد أسمعتنا العاصمة البريطانية عدة أصوات في المسألة العربية والبلاد الاسلامية المقدسة كان أولها برقية لروتر يؤكد فيها أن انكلترة لا تنوي أن تأخذ شيئا من بلاد العرب ولا تسمح لأحد بالاعتداء على شيء من البلاد الاسلامية المقدسة . ثم دار في هذا المعنى وفي مسألة الخلافة كلام كثير بين أعضاء مجلس الاعيان والنواب ، ولكن لم يكن شيء من ذلك بلاغا رسميا في معنى قطعي يوثق بعدم الرجوع عنه كالبلاغ الذي نشرناه اليوم دون جميع ما سبقه مما هو جدير بأن يحفظ أيضا وان لم يبلغ درجة هذا البلاغ في الاعتبار

في هذا البلاغ تصريح قلما يصدر عن دولة ، وهو قد صدر عن أدق الدول في تحرير العبارات الرسمية وجعلها مقيدة لغيرها بقيود قلما يستطاع التفلت منها مع بقائها هي في عالم الاطلاق . الا وهو التصريح بأن من أصول السياسة البريطانية التي لا تقبل التغيير والتبديل بقاء الاماكن الاسلامية المقدسة في يد حكومة اسلامية مستقلة . ومعنى كون هذا لا يقبل التغيير والتبديل أنه متفق عليه من جميع أحزاب الامة لا أنه رأي الحكومة الحاضرة أو حزبها — حزب الاحرار — وحده فيكون عرضة للرجوع عنه بتغير الوزارة أو تحولها الى حزب المحافظين . وبهذا التفسير يظهر غلط الذين قالوا انه لا يوجد في السياسة شيء لا يقبل التغيير والتبديل فيكون هذا النص لغوا لا معنى له حتى نغتر به . ونقول لهؤلاء حسبنا أنه لا يتغير ولا يتبدل الا بتغير رأي الامة الانكليزية كلها وهي أثبت الامم وأبطأها تغيرا وتحولا في كل شيء

على أن أهم ما في هذا التصريح فحواه لا نصه ، وأعني بفحواه اعتراف الدولة البريطانية باستقلال الدولة الاسلامية التي تستولي على هذه البلاد اذا زالت سيادة الدولة العثمانية عنها بما يخشى أن يحل بها من قدر الله تعالى ، فهو يتناول مسألة السلطة الاسلامية في هذه الحالة وهي أهم ما يهم جميع مسلمي الارض، وسنكتب فيها مقالا نبين فيه ما يسمح لنا الوقت ببيانه ان شاء الله تعالى

الانتقاد على المنار

سيدي الاستاذ محرر « المنار »

اطلعتُ على دعوتكم الى نقد « المنار » وعلى فاتحة المجلد التاسع عشر فلم يسعني الا تحرير هذا الكتاب لفضيلتكم ورائدي الاخلاص وتعضيد ما ينفع الناس .

فأمّا عن نقد « المنار » فحسبي أن أقول إن المجلة التي كادت تبلغ ربع قرن من حياتها لا بد وأن تكون قد جمعت من أسباب الحياة ما فيه الكفاية وإن ما ألم بها أخيراً من العسر المالي الذي يرجع بعضه الى ازمة الحرب ليس غير مجرد مرض عادي اذا عولج علاجاً ناجعاً عادتْ الى المجلة نضرتها السابقة . وعندي انَّ هذا المرض محصورٌ في اضطراب ادارة المجلة وفي عدم تمشّيها مع الزمن بخلاف عادتها في سالف السنين ، ولبيان ذلك أقول ان ادارة المجلة على ما يظهر لي كثيرة التساهل مع المشتركين فاني لا أتذكر أني تلقيت أخيراً من حضرة مدير « المنار » طلباً بدفع الاشتراك كما هي عادة جميع المجلات الراقية عربية كانت أم أفرنجية. وقد كنتُ أباهي بشدة تدقيقي في حسابي ولكن شواغل الحياة متى تعددت أصابت الانسان بالنسيان وسلبته بعض نظامه مهما يكن يقظا ، فبتُّ ولا أدري بماذا أدين اليكم . والنفقة التي تنفقونها في سبيل تذكير كل مشترك مرة في السنة بموعد تجديد اشتراكه لا تساوي شيئا في جنب الفائدة المادية التي تحصلون عليها . ولولا أن هذه الطريقة الادارية ذات نتيجة محسوسة لما استمرت على اتباعها جميع الصحف المعتبرة، زد على ماتقدم أن المجلة لا ترسل اليّ بانتظام وهذا ضار بمصلحتها، لاني اذا كنت لا أتردد لحظة في دفع ما تطلبون الي دفعه حتى ولو استلمتُ عددا وحدا فقط منها في السنة كلها معتمدا على جمع بقية الاعداد منكم متى عدتُ الى القاهرة ، فلا شك عندي ان كثيرين غيري يتنصلون من الدفع بهذه الحجة فتكون خسارتكم حينئذ غير قليلة . هذه نقطة جوهرية يحسن بسيادتكم النظر فيها لان نظام العمل من أقوى الدعائم لنجاحه .

مباحث المجلة في تعريفكم ليست قاصرة على فلسفة الدين بل هي تشمل أيضا

شؤون الاجتماع والعمران، ولكنكم قلما تطبقون ذلك. لا أنكر أنكم أحسنتم كثيرا بنشر المقالات الصحية المفيدة التي وضعها الدكتور توفيق صدقي، كما أن لكم جولات رائقة في غير مباحث الدين، ولكني لا أعرف لكم أبوابا ثابتة في كل عدد سوى باب تفسير القرآن، بخلاف ما أشاهده في مثل «المقتطف» أو «رعمسيس» أو «الهلال»، وبخلاف ما أشاهده في المجلات الدينية المسيحية الراقية التي تصدر بالانكليزية، حتى كأن تلك المجلات الدينية تخوض في كل علم وترمي الى تطبيق العلم على الدين. ومثل هذا التطبيق في رأي بعض المفكرين تضليل، ولكني لا أرى ذلك اذا كان المطبق مخلصا في عمله، لان رجل الدين متى اعتقد أن العلم هو أحد أركان الدين وجب عليه أن يجمع بينهما حتى يخلص المعتقدات الدينية من خرافات الجهلاء المدعين الذين يتاجرون باسمها او يبنون شهرتهم الكاذبة على حسابها. وقد لاحظ كثيرون تحاشيكم ايضاح «المنار» بالصور حتى رسوم من توفوا من علماء الاسلام فعد ذلك دليلا على كره الاسلام للتصوير في العصر الحاضر أيضا

وأما عن دار الدعوة والارشاد التي تقصدون بها تربية أساتذة لتهذيب العامة ونشر المبادئ الادبية النافعة والقضاء على أباطيل الاولين، فلا يحار بها رجل بعيد النظر حتى ولا من أنكر ذات الخالق، لاني اذا قلت ان الطبقة المتعلمة من الامة قد تجد من تعليمها العالي المبادئ الادبية الكافية لصيانة أخلاقها ولو كانت غير متدينة بدين سماوي، فيصعب عليّ جدا أن أتصوّر جواز هذا الحكم على عامة الناس الذين لا تثمر مبادئ الالحاد بينهم الا فوضى أدبية مريعة. فيجب اذن تعضيد رؤساء الاديان الذين يسيرون بها دائما الى الامام وقصدهم التعليم والتربية. واذا عدّ نفرٌ من الناس ان صلاح العالم هو في القضاء على الاديان فلا أدري كم بعد مئات من السنين يتحقق هذا الحلم. فاذا فرضنا أن تحقيقه في حكم المستطاع — والناس كثيرا ما يختلفون حتى على البديهيات. وفي خلال كل هذا الزمن يلبث الدين قرين اللغة من مشخصات الامة ومظهر من مظاهرها — فحري بكل ذي وطنية صحيحة أن يمعن النظر في هذه المسألة الحيوية.

هذا وأني لا أذهب مذهب مكاتبكم الفاضل في خاتمة المجلد السابق بل لا

أشك في حسن مستقبل الشرق ، ولكل أمة دور من صعود وهبوط ، ولا خوف عندي على مثل « المنار » أو « دار الدعوة والارشاد » فلا بد أن يأتي وقت قريب يعطى فيه خليفة الامام محمد عبده حقه من الانصاف على ما خدم به الامم الاسلامية من الارشاد النافع حتى صارت فتاويه مرجع كل مصلح اجتماعي جريء ، وبات « تفسير المنار » معدودا أعظم تفسير للقرآن الشريف لجمعه بين علوم السلف والخلف ، ولما تضمنه من خلاصة العلوم الحديثة التي يجب أن تكون هدى المفسر لكتاب يمد قانون الله الذى خلق الكون ودبره . فما العلوم الطبيعية الا خلاصة ما وصل اليه العقل الانساني في درس سنن الكائنات بتدقيق وأمانة ، لهذا كانت تفاسير القرآن التي خطها الجاهلون بهذه العلوم أولى بالتلف منها بالصيانة فانها عار للعلم والدين معا

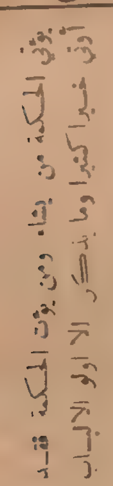
فاسمح لي اذن يا سيدى الاستاذ أن أهنئكم على استقبال « المنار » لسنة جديدة من سني حياته المباركة ، راجيا أن تكون فاتحة رقي متواصل له ونجاح ثابت ونصرة للفضيلة والآداب .

نادي مستشفى سانت جورج ... احمد زكى أبو شادى
بلندن ... (طبيب)

[المنار] نشرنا رسالتكم برمتها وان كان موضوع باب الانتقاد على المنار خاصا بانتقاد مسائله دون ادارته . ونشكر لكم تهنئتكم وثناءكم وكل ما كتبتم بمداد الاستقلال والاخلاص ، ولا أنكر ما عرض من الخلل على ادارة المنار ولا سيما اهمال التحصيل ، وأذكر من سببه خيانة بعض الوكلاء وتركي الاشراف عليها وتعدد من تولى أمرها منذ الانقلاب العثماني الذي فتح لي أبواب الاسفار الى سورية ثم الآستانة ثم الهند وعمان والعراق ، والاشتغال بمشروع الدعوة والارشاد ، وستعود الى الانتظام في هذا العام ان شاء الله تعالى .

وأما سبب قلة تنوع موضوعات المنار كتنوع غيره من المجلات فهو أن محرره واحد له أعمال كثيرة أخرى ومحرروها كثيرون . ولا يتسع هذا الجزء للخوض معكم في سائر المسائل التي أودعتموها في رسالتكم المفيدة





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

مصر ٣٠ ذي القعدة ١٣٣٤ — ٥ الميزان (خ١) ١٢٩٥ ه‍ ش ٢٨ سبتمبر ١٩١٦

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

---

(١٢) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٣) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٤) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٥) قُلْ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٦) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ

يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٧) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ
بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ
(١٩) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ؛
وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ
أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى؟ قُلْ لاَ أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي
بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ

بين تعالى في الآيات السابقة أصول الدين ومايدل عليها، وشبهات الكفار على الرسالة مع ما يدحضها، وهدى رسوله الى سنته في الرسل وأقوامهم لتسليته وتثبيت قلبه، المعين له على المضي في تبليغ دعوة ربه، ثم قفى سبحانه على ذلك بتلقينه أسلوبا آخر من إقامة الحجج على قومه، وهو أسلوب السؤال والجواب، في موضع فصل الخطاب، وان كان تكراراً لمعنى سبق أو اشتمل على التكرار، وحكمة ذلك ان التنويع في الاحتجاج والتفنن في أساليبه من ضروريات الدعوة الى الدين—والى غير الدين من المقاصد البشرية أيضا - لان التزام دليل واحد على المطلوب الذي لابد من تكرار ذكره أو إيراد عدة أدلة بأسلوب واحد قد يفضي الى سآمة الداعي من التكرار على رغبته في الدعوة وتفانيه في نشرها واثباتها، فكيف يكون تأثيره في المدعوين الكارهين له ولها، اذا لم يعقلوا الدليل الاول أولم تتوجه قلوبهم الى تدبر الاسلوب الواحد المشتمل على عدة أدلة؟ لا جرم أنهم يكونون في منتهى السآمة والضجر من سماع ذاك، وفي غاية النفور منه. كيف وقد كان المعاندون منهم ينهون عن هذا القرآن وينأون عنه على ما امتاز به في مقام التفنن والتنويع، والبلاغة المعجزة في كثرة الاساليب. قال عز وجل:

﴿ قل لمن ما في السموات والارض ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك الجاحدين

لرسالتك المعرضين عما جئتهم به من أمر التوحيد والبعث والجزاء. لمن هذه المخلوقات في العالم كله علويه وسفليه ؟ السؤال للتبكيت أو التقرير ، وقد بينا في تفسير الآيات السابقة ان العرب كانت تؤمن بأن الله تعالى هو خالق السموات والارض وان كل مافيهما ومن فيهما ملك وعبيد له . ولفظ ما يشمل العقلاء مع غيرهم ، وجزم في الكشاف بأن السؤال للتبكيت وان قوله تعالى ﴿ قل لله ﴾ تقرير لهم . أي هو لله لا خلاف بيني وبينكم في ذلك ولاتقدرون أن تضيفوا شيئا منه الى غيره . وقال غيره : تقرير للجواب نيابة عنهم أو إلجاء لهم الى الاقرار . وقال الرازي أمره بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا ، وهذا إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب فيه قد بلغ في الظهور الى حيث لايقدر على إنكاره منكر ، ولا يقدر على دفعه دافع . ثم بين ان هذا من هذا ، واحتج على أن كل ذلك لله بما في العالم المادي من آثار الحدوث والامكان ، على طريقة المتكلمين في الاستدلال

ونقول ان إتيان السائل بالجواب يحسن في غير الموضع الذي حصر الرازي الحسن فيه ، وهو ان يكون مايأتي به عين مايعتقده المسؤل وما يجيب به ان أجاب ، وانما يسبقه اليه ليبني عليه شيئا آخر من لوازمه هو مما يجهله المسؤل أو يغفل عنه أو ينكره لجهله أو غفلته عن كونه لازما لما يعرفه ويعتقده . وليس المسؤل عنه هنا مما لايقدر على انكاره منكر ولا على دفعه دافع ، فقد أنكره أهل الالحاد والتعطيل ، فالظاهر ان يقال ان الله تعالى أمره بالجواب وان يبدأ به لما كانوا يجيبون به كما علم من آيات أخرى[1] ليبني عليه قوله ﴿ كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه ﴾ والمعنى ان الله تعالى الذي تقرون معي بأن له ما في السموات وما في الارض قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه كما يعلم ذلك من إفاضة نعمه عليهم ظاهرة وباطنة . ومن مقتضى هذه الرحمة ان يجمعكم الى يوم القيامة حال كونه لاريب فيه - أو جمعا لاريب فيه - أي ليس من شأنه ان يرتاب فيه من تدبر دلائل رحمة الله وحكمته ، فان هذا الجمع لاجل الحساب والجزاء فهو رحمة بالمكلفين ينافي الفوضى والاهمال واستباحة الظلم ، والعلم به رحمة أيضا ، لانه وازع نفسي لا يتم

(١) راجع تفسير الآية الثالثة من هذه السورة

تهذيب النفس بدونه، بل الرحمة أعم من ذلك. فمن رحمته تعالى بالناس ما منحهم من هدايات الحواس والوجدان والعقل وهداية الدين القويم لما يجنونه على تلك الهدايات باستعمالها فيما يضرهم ولا ينفعهم، والمساعدة لهم على تكميل فطرتهم وتزكية أنفسهم

بيان ذلك أن من أصول دينه القويم — الذي هو مظهر رحمته العليا الموافق لفطرته التي فطر الناس عليها — أن لأعمال البشر جزاء فطريا هو أثر لازم للعمل بحسب سنته تعالى في تأثير الاعمال النفسية والبدنية في اصلاح الانفس أو إفسادها، وجزاء آخر شرعيا تابعا له هو إنشاء فضل أو عدل منه عز وجل، فالاول — وهو الاصل — ما يترتب على تزكية النفس بالعقائد الصحيحة والعلوم الثابتة والاخلاق الكريمة التي تطبعها فيها عبادة الله تعالى وحسن المعاملة مع خلقه من هناء المعيشة في الدنيا بالجمع بين لذة الحياة العقلية والروحية ولذة الحياة الجسدية المعتدلة وهو أدنى الجزاءين وأقلهما وغير المطرد منهما — وما يترتب على ذلك من النعيم المقيم في الآخرة — وهو الكامل المطرد — وما يترتب على تدسية النفس وافساد فطرتها بالعقائد الباطلة كخرافات الوثنية وأوهامها وبسفساف الاخلاق والملكات الرديئة التي تطبعها فيها تلك الاوهام السخيفة والاعمال القبيحة والعبادات الوثنية من شقاء المعيشة في الدنيا وعذاب الآخرة، وكل منهما من لوازم تلك العقائد والاخلاق والاعمال، فهي كالاعمال الضارة والوساوس العصبية (الهستيرية) التي تترتب عليها الامراض المعضلة والادواء القاتلة ، كما ان ما تقدم من مقابلها يشبه الاعمال البدنية والنفسية التي يرتاض بها البدن والعقل حتى يبلغ بهما المرء من الصحة والاعتدال، ما هو مقدر له من الكمال. فعلى هذا تكون هداية الدين للعقائد الصحيحة والفضائل والآداب والعبادات وزجره عن الوثنية والخرافات والرذائل والشرور — كل ذلك كبث الوصايا الصحية والعلوم الطبية في الناس، ليكون لهم وازع من أنفسهم يتقون به ما يضرهم ويقبلون على ما ينفعهم — وتلك رحمة عظيمة بهم، ولا ينافي كون ذلك من الرحمة ما يترتب على الباطل والشر من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، لانه جناية منهم على أنفسهم ، فمثلهم فيه كمثل المريض يخالف أوامر الطبيب ونواهيه الخاصة ويخالف الوصايا الصحية العامة فيزداد أمراضا وأسقاما ، ولا ينافي ذلك كون تلك الوصايا رحمة بالناس ونعمة عليهم

وأما الجزاء الثاني الذي هو انشاء من مقتضى الفضل أو العدل فهو مترتب على الجزاء الاول وتابع له وهو قسمان (أحدهما) ما يزيد الله المحسنين من الكرامة والنعيم بفضله، على ما استحقوه بإيمانهم وأعمالهم الصالحة بحسب وعده، ولما كانت الرحمة أعم وأوسع وأعظم كان هذا النوع من الجزاء خاصا بالمحسنين من عباده، فهو رحمة خاصة نسأله تعالى ان يجعلنا من خيار أهلها. (وثانيهما) القصاص في الحقوق وان قلت وما يقتص به تعالى في الآخرة للمظلومين من الظالمين بحسب عدله. ولما كان مقتضى الرحمة والفضل، أعم وأسبق من مقتضى العدل، كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم، ومنهم من يعفو الله عنهم. فالجزاء على الاساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة، ولكن لا يزاد فيه شيء قط. وانما الزيادة في الجزاء على الاحسان: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها * للذين أحسنوا الحسنى وزيادة * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما) وبيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضا فهو كبيان الحكومة العادلة للامة ما تؤاخذ عليه من الاعمال الضارة، وما ينال المحسنين من الامن والعز والترقي في خدمة الدولة روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ان النبي (ص) قال « ان الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش: ان رحمتي تغلب غضبي» وفي رواية «ان رحمتي سبقت غضبي» وانما السبق والغلب في أثري الرحمة والغضب وتعلقهما لا في الصفات أنفسها، وسنزيد هذا البحث بيانا في تفسير (ورحمتي وسعت كل شيء) من سورة الاعراف ان أحيانا الله تعالى

أما تعلق جمع الناس الى يوم القيامة بكتابة الرحمة من جهة نظم الكلام واعرابه فقيل ان كتابة الرحمة تأكيد لها في معنى القسم وجملة « ليجمعنكم » جواب لقسم محذوف حل محله ما في معناه. وقيل ان الجملة استئناف بياني. كأنه قيل وما مقتضى هذه الرحمة، وما موقعها من موضوع دعوة الرسالة؟ فقيل انه تعالى أقسم ليجمعنكم، اذ لو لم يجمعكم للحساب والجزاء لظل كثير من المحسنين منكم مغبونين محرومين، وكثير من المظلومين مهضومين. وكثير من الظالمين المسيئين غير مؤاخذين. ذلك بأن ما يترتب على الاعمال الحسنة في الدنيا من حسن الاثر وعلى الاعمال السيئة من

قبيح الآثر ليس عدا مطردا في جميع الافراد كما تقدم آنفا وهو يعلم من الاختبار ومن سنن الله الاجتماعية والكونية، وذلك ينافي الرحمة، كما ينافي العدل والحكمة، فمن مقتضى كتابته سبحانه الرحمة على نفسه ان يجمع الناس للفصل بينهم وجزاء كل منهم بما يقتضيه العدل في الكل والفضل في البعض. والجمع بمعنى الحشر ويتعديان بالى، يقال: جمعهم اليه وحشرهم اليه. وجمع الناس الى يوم القيامة معناه حشرهم الى موقفه أو حسابه، أو معناه ليجمعنكم منتهين الى ذلك اليوم. وقيل ان « الى » صلة وقيل انها بمعنى في، وكلاهما ضعيف

وأما قوله تعالى ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون ﴾ فمعناه أخص هؤلاء ممن يجمعون الى يوم القيامة بالذكر أو التذكير أو بالذم والتوبيخ فانهم لخسران أنفسهم في الدنيا لايؤمنون بالآخرة. ولا شك في أن هؤلاء أولى بأن يتعتعوا بالتذكير، أو بالذم المفضي الى التفكير، وقيل ان المعنى ليجمعنكم الى يوم القيامة أنتم أيها الذين خسروا أنفسهم الخ خاطبهم كافة ثم أبدل من الكل بعضه الاجدر بالخطاب الاحوج اليه - أو وصف أولئك المخاطبين بهذا الوصف الدال على أنه هو مناط الانذار والوعيد. وقيل ان الجملة مستقلة معناها ان الذين خسروا انفسهم لايؤمنون بهذا الجمع ولا ينتفعون بخبره. والاول أقوى وأظهر: وخسارة الانفس عبارة عن افساد فطرتها وعدم اهتدائها بما منحها الله تعالى من الهدايات التي أشرنا اليه آنفا. فالمقلدون قد خسروا أنفسهم لانهم حرموا أنفسهم من استعمال أشرف النعم الغريزية وهو العقل، وحرموا على أنفسهم أفضل الفضائل الكسبية وهو العلم والفهم، واذا كان بعض الأئمة قد صرح بأن المجتهد المخطئ أفضل من المقلد لمجتهد مصيب، فكيف يكون حال المقلد في الشرك والكفر والعياذ بالله تعالى. والحرمان من مضاء العزيمة وقوة الارادة خسران للنفس يضاهي خسرانها بفقد العلم الاستدلالي، فان ضعيف الارادة ان أوتي حظا من العلم لايقوم بحقه ولايعمل به كما يجب، لأن مايهدي اليه العلم الصحيح من وجوب نصر الحق وخذل الباطل ومجاهدة الاهواء الرديئة وعمل الخير والتعاون على البر — كل ذلك لا يخلو من مشقة لا يحملها الا ذو العزيمة الصادقة، والارادة الثابتة

فمن خسر نفسه بالتقليد لا ينظر ولا يستدل حتى يهتدي الى الايمان ، ومن خسر نفسه بوهن الارادة قلما ينظر ويستدل أيضا ، فان هو نظر وظهر له الحق بما قام من البرهان عليه قعد به ضعف الارادة عن احتمال لوم اللائمين ، واحتقار الاهل والمعاشرين ، لمن ترك دين آبائه وأجداده ، وصبا الى حزب أعدائهم وأعدائه. هذا ما يقال في مثل حال المشركين في عهد نزول هذه السورة . وان ضعف الارادة ليصد صاحبه في كل زمان ومكان عن الواجبات وسائر الاعمال التي لا بد فيها من احتمال مشقة بدنية أو نفسية وان كانت من أعمال الايمان ومصالح الامة والوطن، ولو بحثت عن خسران الافراد المتعلمين الذين يعرفون الحقوق والواجبات لكرامة أنفسهم ، وخسران الجماعات والامم التي تولى زعامتها أمثال هؤلاء الافراد لاستقلالها وصلاح أمرها — لرأيت سبب هذا وذاك وهن العزيمة وذبذبة الارادة . فالفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم الا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة الى العمل بالعلم ، فمن خسر إحدى الفضيلتين يصدق عليه انه خسر نفسه سواء كان فردا أو أمة ، فما بال من خسرهما كلتيهما والعياذ بالله تعالى

وقد لمح الزمخشري خسران النفس في الآخرة فأورد على الآية إشكالا وأجاب عنه على طريقة المتكلمين جوابا في غير محله. قال : (فان قلت) كيف جعل عدم إيمانهم مسببا عن خسرانهم والامر على العكس ؟ (قلت) معناه الذين خسروا أنفسهم في علم الله لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون .

﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ الظاهر المختار ان هذا عطف على ما قبله ، أي لله ما في السموات وما في الارض ، وله ما سكن في الليل والنهار ، واستظهر أبو حيان انه استئناف اخبار غير مندرج تحت السؤال والجواب ، وسكن من السكنى ، أو من السكون ضد الحركة . وفيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله ، أي له ما سكن وما تحرك ، على حدّ قوله « سرابيل تقيكم الحرّ » أي والبرد . ويجوز الجمع بين المعنيين على مذهب من يجوز ذلك في المشترك بما يحتمله المقام ، والحكمة في ذكر هذا الملك الخاص على دخوله في عموم ما في السموات والارض التذكير بتصرفه تعالى بهذه الخفايا فان السكنى والسكون من دواعي خفاء الساكن ، فاذا كان

في الليل كان أشد خفاء، ولذلك قدم ذكر الليل، لان ما يسكن فيه هو المقصود بالذات وعطف النهار عليه تكميل، ولما ذكرنا تعالى بأنه المالك لما ذكر المتصرف فيه بقدرته بما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة ذكرنا بأنه هو السميع العليم أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره، فهو يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . « وكل سميع غيره يصم عن لطيف الاصوات ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها » كما قال أمير المؤمنين علي المرتضى كرم الله وجهه . وهو المحيط علمه بكل شيء (يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور) واذا كان كذلك فلا يمكن أن تدق عن سمعه دعوة داع، أوتعزب عن علمه حاجة محتاج، حتى يخبره بها الاولياء، أو يقنعه بها الشفعاء، (يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء)

بعد كتابة ماتقدم راجعت التفسير الكبير فاذا فيه من نكت البلاغة في الآية ما نقله الرازي عن أبي مسلم الاصفهاني وقال انه احسن ما قيل في نظمها وهو : ذكر في الآية الاولى السموات والارض اذ لامكان سواهما، وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار اذ لازمان سواهما، فالزمان والمكان ظرفان للمحدثات . فأخبر سبحانه انه مالك للمكان والمكانيات، والزمان والزمانيات، (قال الرازي) وهذا بيان في غاية الجلالة . وأقول ههنا دقيقة أخرى وهو ان الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات ، وذلك لان المكان والمكانيات، أقرب الى العقول والافكار من الزمان والزمانيات ، لدقائق مذكورة في العقليات الصرفة . والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالاظهر فالاظهر مترقيا الى الاخفى فالاخفى اه

بعد هذا القول الذي أمر الله به رسوله للتذكير بأنه الرب المالك لكل شيء المتصرف بالفعل والتدبير في كل شيء حتى دقائق الاشياء والامور وخفاياها، وان تصرفه هذا عن علم محيط لا يعزب عنه مثال ذرة ولا دبيب نملة ، أمره بقول آخر بين فيه ما يستلزمه ما قبله من وجوب ولايته تعالى وحده والتوجه اليه دون سواه في كل ما هو فوق كسب البشر، والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم، ولا يتم به المراد بمحض سعيهم ، فقال

﴿ قل أغير الله أتخذ وليا ﴾ الولي الناصر ومتولي الامر المتصرف فيه، والاستفهام هنا لإنكار اتخاذ غير الله وليا لا لانكار اتخاذ الولي مطلقا ولهذا لم يقل: أأتخذ وليا غير الله، ولا: أأتخذ غير الله وكيلا. ومثله (أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) وانما يتحقق اتخاذ غير الله وليا في صورة واحدة وهو ان يطلب من غيره النصر أو غير النصر من ضروب التصرف في النفع والضر فعلا ومنعا فيما هو فوق كسب ذلك الغير وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، ولذلك فسر الولي بالمعبود في هذا المقام، وأما تناصر المخلوقين وتولي بعضهم لبعض فيما هو من كسبهم العادي فلا يدخل في عموم اتخاذ غير الله وليا أو اتخاذهم أولياء من دون الله. فقد أثنى الله تعالى على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض. وبين أيضا ان الكفار بعضهم أولياء بعض. وقد تقدم بيان هذا من قبل، وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله تعالى بمعنى انهم بندائهم ودعائهم والتوجه اليهم والاستغاثة بهم يشفعون لهم عند الله تعالى في قضاء حاجهم من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة في رزق وغير ذلك، فكان هـذا عبادة منهم لهم وجعلهـم شركاء لله باعتقاد كون حصول المطلوب من غير أسبابه العادية التي مضت بها السنن الالهية العامة قد كان بمجموع ارادة هؤلاء الاولياء وارادة الله تعالى، فمقتضى هذا الاعتقاد ان ارادة الله تعالى ما تعلقت بفعل ذلك المطلب الا بالتبع لارادة الولي الشافع أو المتخذ وليا شفيعا، والحق ان ارادة الله تعالى أزلية لا يمكن أن تؤثر فيها المحدثات، كما تقدم تقريره مرارا بشواهد الآيات القرآنية. ثم وصف الله تعالى بما ينافي اتخاذ غيره وليا فقال

﴿ فاطر السموات والارض ﴾ مبدعهما أي مبدئهما على غير مثال سابق، وروي عن ابن عباس انه قال ما عرفت ما فاطر السموات والارض حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: انا فطرتها. أي ابتدعتها. وأصل الفطر الشق، ومنه (اذا السماء انفطرت) بمعنى (اذا السماء انشقت) وقيل للكمأة فطر لانها تفطر الارض فتخرج منها. وايجاد البئر انما يبتدأ بشق الارض بالحفر. وقد كانت المادة التي خلق الله منها السموات والارض كتلة واحدة دخانية، ففتق رتقها وفصل منها

أجرام السموات والارض ، وذلك ضرب من الفطر والشق (أولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما) — الرؤية هنا علمية —

وصف الله تعالى بفاطر السموات والارض — وهو لانزاع فيه — يؤيد انكار اتخاذ غيره وليا يستنصر ويستعان به أو يتخذ واسطة للتأثير في الارادة الالهية، فمن من فطر السموات والارض بمحض إرادته من غير تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع يجب ان يتوجه اليه وحده بالدعاء . وإياه يستعان في كل ماوراء الاسباب، وأكد هذا بقوله ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ أي يرزق الناس الطعام ولا يحتاج الى من يرزقه ويطعمه لانه منزه عن الحاجة الى الطعام وغيره غني بنفسه عن كل ماسواه . وقرأ أبو عمرو « ولا يَطعم » بفتح الياء ، أي لا يأكل . وهذه الجملة حالية مؤيدة لانكار اتخاذ ولي غير الله، وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر بأنهم محتاجون الى الطعام لا حياة لهم ولا بقاء الى الاجل المحدود بدونه، وان الله تعالى هو الذي خلق لهم الطعام فهم عاجزون عن البقاء بدونه وعاجزون عن خلقه وايجاده فكيف يتخذون أولياء مع الغني الحميد ، الرزاق الفعال لما يريد ، كما قال في الاحتجاج على النصارى في عبادة المسيح وأمه عليهما السلام (ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدّيقة كانا يأكلان الطعام) وأما الاولياء المتخذة من غير البشر كالاصنام ، فهي أضعف وأعجز من البشر ، لاتفاق عقلاء الامم كلها على تفضيل الحيوان على الجماد ، وتفضيل الانسان على جميع أنواع الحيوان

﴿ قل اني أمرت أن أكون أول من اسلم ﴾ أي قل أيها الرسول بعد ايراد هذه الآيات والحجج على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره وليا : اني أمرت من لدن ربي الموصوف بما ذكر من الصفات أن أكون أول من أسلم اليه وانقاد لدينه من هذه الامة التي بعثت فيها ، فلست أدعو الى شيء لا آخذ به ، بل أنا أول مؤمن وعامل بهذا الدين ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أي وقيل لي بعد هذا الامر بالسبق الى اسلام الوجه له لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء يزعمون أنهم يقربونهم اليه زلفى. فأنا أتبرأ من دينكم ومنكم. وحاصل

المعنى أنني أمرت بالاسلام ونهيت عن الشرك. كذا قيل، والاولى أن يقال إن حاصله الجمع بين الاسلام والبراءة من الشرك وأهله

وبعد هذا القول المبين لاصل الدعوة وأساس الدين وكون الداعي اليه مأمورا به كغيره — أمر الله رسوله بقول آخر في بيان جزاء من خالف ماذكر من الامر والنهي آنفا وأنه عام لا هوادة فيه ولا شفاعة تحول دونه فقال ﴿ قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ قدم ذكر الخوف على شرطه الذي شأنه أن يتقدمه لانه هو الاهم المقصود بالذكر، وشرط «إن» لا يقتضي الوقوع، فالمعنى إن فرض وقوع العصيان مني لربي فانني أخاف أن يصيبني عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة، وصف بالعظم لعظمة ما يكون فيه من تجلي الرب سبحانه ومحاسبته للناس ومجازاته لهم. وحكمة هذا التعبير ما أشرنا اليه من أن هذا الدين دين الله الحق لا محاباة فيه لأحد مهما يكن قدره عظيما في نفسه. وأن يوم الجزاء لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة — بالمعنى المعروف عند المشركين — ولا سلطان لغير الله تعالى فيتكل عليه من يعصيه، ظنا أنه يخفف عنه أو ينجيه، (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) واذا كان خوف النبي (ص) من العذاب على المعصية منتفيا لانتفائها بالعصمة فخوف الاجلال والتعظيم ثابت له دائما

﴿ من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين ﴾ أي من يُصرف ويحوّل عن ذلك العذاب في ذلك اليوم العظيم حتى يكون بمعزل عنه، أو من يصرف عنه ذلك العذاب في ذلك اليوم — فقد رحمه الله بانجائه من الهول الاكبر، وبما وراء النجاة من دخول الجنة، لان من لا يعذب يومئذ يكون منعما حتما. وذلك الجمع بين النجاة من العذاب والتمتع بالنعيم في دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر. وقد حققنا في تفسير آخر السورة السابقة (المائدة) أن الفوز انما يكون بمجموع الامرين السلبي والايجابي، ولا ينافي ذلك ما قيل في أهل الاعراف على ما يأتي تحقيقه في سورتها. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (مَن يَصرِف عنه) بالبناء للفاعل، أي من يصرفه الله عنه أي عن العذاب الخ ويؤيدها قراءة

أبيّ (من يَصرف الله) باظهار الفاعل وحذف المفعول ، ولعله قال ذلك بقصد التفسير. ولا يمنعنا من الجزم بذلك الا أن يصح أنه كتب اسم الجلالة في مصحفه

وقد استدلت الاشعرية بالآية على أن الطاعة لا توجب الثواب والمعصية لا توجب العقاب لانها ناطقة بان ذلك من رحمة الله تعالى وفعل الواجب لا يسمى رحمة ، وضربوا لذلك الامثال في أفعال البشر . والحق أن من أفعال الرحمة البشرية ماهو واجب ومن الواجب على الناس ماهو رحمة أي واجب لانه رحمة، وأما الخالق عز وجل فلا يوجب عليه أحد شيئا اذ لا سلطان فوق سلطانه ، وله أن يوجب على نفسه ما شاء ، وقد كتب على نفسه الرحمة أي أوجبها كما نص عليه كتابه في هذا السياق . فهذه كتابة مطلقة ، وسيأتي في سورة الاعراف كتابتها للمتقين المزكين من مؤمني هذه الامة . ولو لم يكتب الرب على نفسه الرحمة لجاز أن لا يرحم أحدا وأن لا يكون رحيما بخلقه ، واذا أجاز بعض المتكلمين هذا فكتاب الله لا يجيزه . ولما بين سبحانه أن صرف العذاب والفوز بالنعيم بعده من رحمته في الآخرة بين أن الامر كذلك في الدنيا وان التصرف فيه لله الولي الحميد وحده فقال

﴿ وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ المس أعم من اللمس في الاستعمال. يقال مسه السوء والكبر والعذاب والتعب والضراء والضر والخير . أي أصابه ذلك ونزل به ، و يقال مسه غيره بذلك أي أصابه به . وقد وردت هذه المعاني كلها في القرآن، ولكن المس بالخير ذكر هنا في مقابل المس بالضر مسندا الى الله تعالى ، وفي سورة المعارج في مقابل المس بالشر غير مسند الى الله تعالى ، والضر بالضم والفتح — لغتان أو الضر بالفتح مصدر و بالضم اسم مصدر ، والاستعمال فيه أن يضم اذا ذكر وحده و يفتح اذا ذكر مع النفع . وهو ما يسوء الانسان في نفسه أو بدنه أو عرضه أو ماله أو غير ذلك من شؤونه. ويقابله النفع. وقال الرازي: الضر اسم للالم والحزن والخوف وما يفضي اليها أو الى أحدها ، والنفع اسم للذة والسرور وما يفضي اليهما او الى احدهما ،

والخير اسم للقدر المشترك من دفع الضر وحصول الخير. وقال الراغب الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلا والعدل والفضل والشيء النافع وضده الشر. وأقول ان الخير ما كان فيه منفعة او مصلحة حاضرة او مستقبلة، فمن الضار المكروه الذي يسوء ما يكون خيرا بحسن اثره او عاقبته، والشر ما لا مصلحة ولا منفعة فيه البتة او ما كان ما ضره أكبر من نفعه. قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم - وقال في النساء — فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا — وقال - ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم) والشر لا يسند الى الله تعالى ولكنه مما يبتلي به الناس ويختبرهم. وقوله تعالى (ولو يعجل الله للناس الشرَّ استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم) ليس من هذا الاسناد في شيء. وفي الحديث «الخير كله بيديك والشر ليس اليك»

ومن دقائق بلاغة القرآن المعجزة تحري الحقائق بأوجز العبارات وأجمعها لمحاسن الكلام مع مخالفة بعضها في بادي الرأي لما هو الاصل في التعبير كالمقابلة هنا بين الضر والخير، وانما مقابل الضر النفع ومقابل الخير الشر، فنكتة المقابلة ان الضر من الله تعالى ليس شرا في الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقا وآدابا وعلما وخبرة. وقد بدأ بذكر الضر لان كشفه مقدم على نيل مقابله، كما ان صرف العذاب في الآخرة مقدم على النعيم فيها، وهذه الآية مقابلة لما قبلها كما تقدم. ثم ذكر الخير في مقابل الضر دون النفع فأفاد ان ما ينفع الناس من النعم انما يحسن اذا كان ذلك النفع خيرا لهم بعدم ترتب شيء من الشر عليه فكأنه قال: ان أصابك أيها الانسان ضرٌّ كمرض وتعب وحاجة وحزن وذل اقتضته سنة الله تعالى فلا كاشف له أي لا مزيل له ولا صارف يصرفه عنك لا هو دون الاولياء الذين تتخذون من دونه ويتوجه اليهم المشرك لكشفه، فهو اما ان يكشفه عنك بتوفيقك للاسباب الكسبية التي تزيله، وإما أن يكشفه بغير عمل منك ولا كسب، ولطفه الخفي لا حدَّ له فله الحمد، وان يمسسك بخير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو قادر على حفظه عليك كما أنه قادر على إعطائك اياه لانه على كل شيء قدير، وأما أولئك الاولياء الذين اتخذوا

من دونه فلا يقدرون على مسك بخير ولا ضر . فالآية كما قال الرازي دليل آخر على انه لايجوز للعاقل أن يتخذ غير الله وليا . وقد تبين بها وبما قبلها أن كل ما يحتاج اليه المرء في الدنيا والآخرة من كشف ضر وصرف عذاب أو ايجاد خير ومنح ثواب فانما يطلب من الله تعالى وحده . والطلب من الله تعالى نوعان : طلب بالعمل ومراعاة الاسباب، التي تقتضيها سننه تعالى في خلقه، وطلب بالتوجه والدعاء اللذين ندبت اليهما آياته تعالى في كتابه وأحكامه الشرعية .

هذا ما فتح الله به، وبعد كتابته راجعنا كتاب روح المعاني فوجدنا فيه نقلا في نكتة البلاغة في المقابلة بين الضر والخير أحببنا نقلها إتماما للفائدة قال :

« وفسروا الضر (بالضم) بسوء الحال في الجسم (وبالفتح) بضد النفع [1] وعدل عن الشر المقابل للخير الى الضر على ما في البحر لان الشر أعم ، فأتى بلفظ الاخص مع الخير الذي هو عام رعاية لجهة الرحمة . وقال ابن عطية ان مقابلة الخير بالضر مع أن مقابله الشر وهو أخص منه من خفي الفصاحة للعدول عن قانون الصنعة وطرح رداء التكلف وهو أن يقرن بأخص من ضده ونحوه لكونه أوفق بالمعنى وألصق بالمقام كقوله تعالى (ان لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى. وأنك لاتظمأ فيها ولاتضحى) فجيء بالجوع مع العري وبالظمإ مع الضحو وكان الظاهر خلافه، ومنه قول امرئ القيس

كأني لم أركب جوادا للذة - ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسأل الزق الروي ولم أقل لخيلي كري كرة بعد اجفال

وايضاحه أنه في الآية قرن الجوع الذي هو خلو الباطن بالعري الذي هو خلو الظاهر، والظمأ الذي فيه حرارة الباطن بالضحى الذي فيه حرارة الظاهر ، وكذلك قرن امرؤ القيس علوه على الجواد بعلوه على الكاعب لانهما لذتان في الاستعلاء ، وبذل المال في شراء الراح، ببذل الانفس في الكفاح، لان في الاول سرور الطرب وفي الثاني سرور الظفر، وكذا هنا أوثر الضر لمناسبته ما قبله من الترهيب، فان انتقام العظيم عظيم، ثم لما ذكر الاحسان أتى بما يعم أنواعه، والآية من قبيل اللف والنشر، فان مس الضر ناظر الى قوله تعالى (اني أخاف) الخ ومس الخير ناظر الى قوله

(١) هذا تحكم لايصح نقلا والتحقيق ما تقدم

سبحانه (من يصرف عنه) » الخ

﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ فسر أهل اللغة القهر بالغلبة والاخذ من فوق وبالاذلال ، وقال الراغب القهر الغلبة والتذليل معا و يستعمل في كل واحد منهما . وقد جاءت هذه الآية بعد إثبات كمال القدرة لله تعالى فيما قبلها تثبت له جل وعلا كمال السلطان والتسخير لجميع عباده والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الامور ، ليرشدنا الى ان من اتخذ منهم وليا من دونه، فقد ضل ضلالا بعيدا لاشراكه و مقارنته بين الرب القاهر العلي الكبير الحكيم الخبير ، وبين العبد المربوب المقهور المذلل المسخر الذي لا حول له ولا قوة الا بالله العلي العظيم . فاذا كان هكذا شأن الرب وهذه صفاته فلا ينبغي للمؤمن به ان يتخذ وليا من عباده المقهورين تحت سلطان عزته ، المذللين لسنته التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير الامر في خلقه ، لان أفضل المخلوقات وأكملهم مساوون لغيرهم في العبودية لله والذل له ، وكونهم لاحول لهم ولا قوة بانفسهم ، ولم يجعل من خصائص أحد منهم ان يشركه في التصرف في خلقه ولا في كونه يدعى معه ولا وحده لكشف ضر ولا جلب نفع (فلا تدعو مع الله أحدا * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء * قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) الخ

وقد فسر ابن جرير الآية بقوله: والله الغالب عباده المذللهم العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه، وهو الحكيم في علوه على عباده وقهره إياهم بقدرته وسائر تدبيره ، الخبير بمصالح الاشياء ومضارها ، الذي لا تخفى عليه عواقب الامور و واديها ، ولا يقع في تدبيره خلل ، ولا يدخل حكمته دخل . اه

وذهبت المعتزلة والاشاعرة الى ان قوله تعالى « فوق عباده » تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقهر . صرح بذلك الزمخشري وتبعه بعض الاشاعرة (كالبيضاوي) بنقل عبارته بنصها ، و بعضهم (كالرازي) بنقلها و إطالة الدلائل النظرية باثبات مضمونها ، ومنع ارادة فوقية الذات واطلاق صفة العلو على الله ، اذ جعل ذلك قولا بتحيز الباري في جهة معينة وأطال في سرد الدلائل النظرية على استحالة ذلك ،

ولفظ الآية لا يأبى ما فسره به الزمخشري وأمثاله. لأن له نظيرا ذكروه في تفسيرها وهو قوله تعالى حكاية عن فرعون (وإنّا فوقهم قاهرون) وبديهي انه يعني فوقية المكانة المعنوية لا المكان، ولو اكتفوا بهذا لكان حسنا لأنه في معنى ما نقل عن مفسري السلف كابن جرير ولكن منهم من شنع على السلف الصالحين وسماهم حشوية لعدم تأويلهم الآيات والاحاديث الصحيحة الناطقة باثبات صفة العلو المطلق لله تعالى، فسلف الامة يمرون هذه الآيات بغير تأويل، ويقولون ان الله مستو على عرشه فوق السموات وفوق العالم كله، وانه بائن من خلقه، وإنه مع ذلك ليس كمثله شيء؛ فليس بمحدود ولا محصور ولا متحيز. فهذه اللوازم التي يبني عليها الجهمية وتلاميذهم تأويل صفة العلو مبنية كلها على قياس الخالق على المخلوق والقديم على المحدث؛ ومن المعلوم أن جميع ما أطلق على الله تعالى من الصفات حتى العلم والقدرة والارادة فانما وضع في أصل اللغة لصفات البشر وهي مباينة لصفات الله تعالى، فلماذا يخصون بعضها بالتأويل دون بعض. فالحق الذي مضى على سلف الامة ان الله تعالى يوصف بكل وصف به نفسه ووصفه به رسوله (ص) وان جميع تلك الصفات تطلق عليه مع تنزيهه عن مشابهة من تطلق عليهم ألفاظها من الخلق، فعلم الله وقدرته وكلامه وعلوه وسائر صفاته شؤون تليق به لا تشبه علم المخلوقين وقدرتهم وكلامهم وعلو بعضهم على بعض. وقد انتهى سخف بعض المتكلمين في التأويل الى جعل صفات الباري تعالى سلبية. وقد تقدم شيء من هذا البحث وسنعود اليه ان شاء الله تعالى

ثم ختم الله تعالى هذه الاقوال أو الاوامر القولية المبينة لحقيقة الدين ودلائله بشهادته لرسوله وشهادة رسوله له فقال

﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ أخرج ابن اسحق وابن جرير من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : جاء النحام بن زيد وقردم بن كعب وبحري بن عمرو [من اليهود] فقالوا : يامحمد ما نعلم مع الله إلها غيره. فقال « لا إله إلا الله، بذلك بعثت والى ذلك أدعو » فأنزل الله في قولهم (قل أي شيء أكبر شهادة) الآية -- كذا في لباب النقول : وهذه الرواية لا تصح

ففي سندها محمد بن محمد مولى زيد بن ثابت . قال الحافظ في تهذيب التهذيب : مدني مجهول تفرد عنه ابن اسحق اه وابن جرير رواه من طريق ابن اسحق . والتحقيق ان السورة نزلت بمكة دفعة واحدة الا ما استثني منها ولم يصح ان هذه الآية منه كما علمت مما كتبناه في مقدمة تفسير السورة

أما معنى الآية فهو ان الله تعالى أمر رسوله (ص) أن يسأل كفار قريش : أي شيء شهادته أكبر شهادة وأعظمها وأجدر بأن تكون أصحها وأصدقها ؟ ثم أمره بأن يجيب هو عن هذا السؤال بأن أكبر الاشياء شهادة الذي لا يجوز ان يقع في شهادته كذب ولا زور ولا خطأ هو الله تعالى وهو شهيد بيني و بينكم ، وأوحي اليّ هذا القرآن من لدنه لانذركم به عقابه على تكذيبي فيما جئت به مؤيدا بشهادته سبحانه، وأنذر من بلغه هذا القرآن في كل مكان وكل زمان ؛ اذ كل من بلغه فهو مدعو الى اتباعه حتى تقوم الساعة

شهادة الشيء حضوره ومشاهدته، والشهادة به الاخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبني على المشاهدة بالبصر أو بالبصيرة أي العقل والوجدان ومنه الشهادة بالتوحيد، وثبات الشيء بالدليل والبرهان شهادة به، وشهادة الله بين الرسول و بين قومه قسمان: شهادته سبحانه برسالة الرسول (ص) وشهادته بما جاء به . وشهادته عز وجل برسالة رسوله ثلاثة أنواع (أحدها) اخباره بها في كتابه بمثل قوله (محمد رسول الله ✿ انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ✿ وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ✿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ✿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين ✿ يس ، والقرآن الحكيم . انك لمن المرسلين) فهذه شهادات وردت بغير لفظ الشهادة وهو غير شرط في صحتها خلافا لبعض الفقهاء ، ولا يقتضي التلفظ به حقيتها فقد حكى الله عن اخوة يوسف أنهم (قالوا ياأبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا) وهم لم يقولوا: نشهد ان ابنك سرق . وقد سموا قولهم شهادة لانه عن علم بما ثبت عليه عند عزيز مصر، وان كان ذلك الاثبات مصنوعا . وقال تعالى (اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله. والله يعلم انك لرسوله، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) فانهم صرحوا بلفظ الشهادة ولما كانوا غير مؤمنين بها شهد الله تعالى

بكتبهم فيها وقوله تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه) فهذه شهادة صرح فيها باللفظ ، وكذلك قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) وهي بمعنى هذه الآية التي نفسرها

(النوع الثاني من شهادة الله تعالى لرسوله) تأييده بالآيات الكثيرة وأعظمها القرآن — وهو الآية العلمية العقلية الدائمة بما ثبت بالفعل عن عجز البشر عن الاتيان بسورة من مثله . وبما اشتمل عليه من الآيات الكثيرة كاخبار الغيب ووعد الرسل والمؤمنين بنصره تعالى لهم واظهارهم على أعدائهم وغير ذلك مما ثبت بالفعل عند أهل عصره ونقل الينا بالتواتر . ومنها غير القرآن من الآيات الحسية والاخبار النبوية بالغيب التي ظهر بعضها في زمنه وبعضها بعد زمنه عليه أفضل الصلاة والسلام كقوله في سبطه الحسن وهو طفل « ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين » وقوله في عمار بن ياسر « تقتله الفئة الباغية » وقوله « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : رجل بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، على رؤسهن كأسنمة البخت »

(النوع الثالث من شهادته لرسوله) شهادة كتبه السابقة له وبشارة الرسل الاولين به ، ولا تزال هذه الشهادات والبشائر ظاهرة فيما بقي عند اليهود والنصارى من تلك الكتب وتواريخ أولئك الرسل عليهم السلام على ماطرأ عليها من التحريف ، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير السور السابقة ولا سيما المائدة . ولا تنس هنا أخذه تعالى العهد على الرسل وقوله لهم (أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) [راجع ص ٣٤٩ ج ٣]

وأما شهادته تعالى لما جاء به رسوله من التوحيد والبعث — وهو ما كانوا ينكرونه دون الآداب والفضائل والاحكام العلمية فهو ثلاثة أنواع (احدها) شهادة كتابه معجز الخلق بذلك كقوله (شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم * ان الدين عند الله الاسلام) وقوله (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير)

(ثانيها) ما أقامه من الآيات البينات في الانفس والآفاق على توحيده واتصافه بصفات الكمال . وفي بيان ذلك في هذه السورة ما ليس في غيرها

(ثالثها) ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الايمان الفطري و بالالوهية وبقاء النفس وما هدى اليه العقول السليمة من تأييد هذا الشعور الفطري بالدلائل والبراهين . ولعلنا نشرح معنى الايمان الفطري الذي بيناه من قبل بيانا موجزا في تفسير آية العهد الإلهي الذي أخذه على بني آدم، وهي قوله تعالى في سورة الاعراف (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا)

علم مما بيناه أن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن، وآياته في الاكوان وآياته في العقل والوجدان ، اللذين أودعهما في نفس الانسان ، وهذه الآيات قد بينها القرآن وأرشد اليها ، فهو الدعوى والبينة ، والشاهد والمشهود له ، وكفى به ظهورا بالحق واظهارا له، أنه لايحتاج الى شهادة غيره له، على أن الشهود والادلة على حقيته كثيرة . وقد جاءت جملة « وأوحي اليّ هذا القرآن » معطوفة على جملة « الله شهيد بيني وبينكم » مصدرة بالفعل المبني للمفعول لان المراد بنصها بيان أن القرآن هو موضوع الدعوة والرسالة المقصود منها بالذات ، وتدل بوضعها دلالة ايماء على أنه أعظم شهادة لله تعالى

وقوله تعالى « لانذركم به ومن بلغ » نص على عموم بعثة خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام ، أي لانذركم به يا أهل مكة أو يا معشر قريش أو العرب وجميع من بلغه ووصلت اليه دعوته من العرب أو العجم، أو المعنى لأنذركم به أيها المعاصرون لي وجميع من بلغه الى يوم القيامة . قال البيضاوي وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم وأنه لايؤخذ بهامن لم تبلغه.اه يعني أن العبرة في دعوة الاسلام بالقرآن فمن لم يبلغه القرآن لا يصدق عليه أنه بلغته الدعوة، وحينئذ لا يكون مخاطبا بهذا الدين . ومفهومه أن الحجة لا تقوم بتبليغ دعوة الاسلام بالقواعد الكلامية والدلائل النظرية التي بني عليها ذلك العلم. ولكنا نرى المسلمين قد تركوا دعوة القرآن وتبليغه بعد السلف الصالح وترك العلم

به وعما بينه من السنة الى تقليد المتكلمين والفقهاء . والقرآن حجة عليهم وإن جعلوا أنفسهم غير أهل للحجة .

ومما روي عن مفسري السلف في الآية من الاحاديث والآثار ما أخرجه ابن مردويه وأبونعيم والخطيب عن ابن عباس قال «من بلغه القرآن فكأنما شافهته به — ثم قرأ — (وأوحي اليّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ)» ويؤيد الرواية أن القرآن لما كان متواترا بلفظه ومعناه كان من بلغه بعده صلى الله عليه وسلم كمن سمعه منه وان كثرت الوسائط ، لانه هو الذي بلغه بلا زيادة ولا نقصان . وليس الاحاديث المروي كثيرها بالمعنى هذه المزية . فهي موضع اجتهاد : وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي في الآية قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي (ص) وفي لفظ : من بلغه القرآن حتى يفهمه ويعقله كان كمن عاين النبي (ص) وكلمه . وأخرج أبو الشيخ عن أبيّ بن كعب قال أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسارى فقال لهم « هل دعيتم الى الاسلام - ؟ قالوا لا. فخلى سبيلهم ثم قرأ (وأوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) ثم قال — خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنهم لم يدعوا »

ثم أمر الله تعالى رسوله (ص) بالشهادة له بالوحدانية التي جحدها المشركون وبراءته من قولهم وشهادتهم بالشرك فقال ﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد ! قل انما هو اله واحد وانني بريء مما تشركون ﴾ قالوا ان الاستفهام هنا للتقرير مع الانكار والاستبعاد . وقد أمره تعالى أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون ، ثم أمره أمراً آخر بأن يشهد بنقيض ما يزعمون ويتبرأ منه وهو أن يصرح بأن الاله لايكون الا واحدا ، ويتبرأ مما يشركونه به من الاصنام وغيرها أو من اشراكهم مهما يكن موضوعه ، وانما قال «قل انما هو اله واحد» فأعاد الامر ولم يعطف المأمور به على ما قبله لافادة أن الاقرار بالوحدانية مقصود بذاته لا يغني عنه نفي الشهادة بالشرك .

مناسك الحج

أحكامه وحكمه

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (سورة آل عمران ــ ٣: ٩٦)

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا (سورة البقرة ٢. ١٥٣)

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ. وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (سورة البقرة ٢ : ٩٣)

أما بعد حمد الله والصلاة والسلام على خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم فيقول محمد رشيد بن علي رضا صاحب مجلة المنار: انني في شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٤ عزمت على أداء فريضة الحج في خدمة والدتي، وكنت أتمنى ذلك منذ سنين ولم يتيسر لي، لموانع بعضها من قبلها وبعضها من قبلي، وقد خطر لي قبل السفر من مصر بثلاث ليال أن أكتب شيئا مختصرا في أحكام المناسك وحكمها سهل العبارة، مأخوذا مما صح في السنة، مع الاشارة الي أقوى مسائل الخلاف، وأن أطبعهُ وأوزعهُ على

من أسافر بصحبتهم من الحجاج ، تعليما للجاهل ، وتذكيرا للغافل ، ولكن لم يتيسر لي الشروع فيه الا في منتصف النهار من اليوم الثاني والعشرين من الشهر — وموعد السفر ٢٤ منه —

﴿ الحج والعمرة ﴾

الحج أحد أركان الاسلام الخمسة ، وهو عبادة بدنية مالية ، والصلاة عبادة بدنية فقط وكذلك الصيام ، والزكاة عبادة مالية فقط ، ومعناه القصد الى بيت الله الحرام بمكة المكرمة لاداء النسك فيه وفيما جاوره من الاماكن الشريفة ، وهذا النسك منهُ أركان وواجبات ، وسنن مندوبات ومستحبات

والعمرة كالحج في أركانه وواجباته وسننه الا الوقوف بعرفة فانه ركن من الحج غير مشروع في العمرة ، وتكون في أشهره وفي غير أشهره كما سيأتي . وهي واجبة عند بعض أئمة العلم وسنة عند الآخرين

ويجوز الجمع بين الحج والعمرة بأن ينويهما ويلبي الله تعالى بهما معا عند الاحرام ، ويسمى هذا [قرانا] وأن ينوي الحج وحده ويلبي به ثم يُدخل عليه العمرة ، ويسمى [إفرادا] وأن ينوي العمرة وحدها أو مع الحج ثم يتحلل منها بعد أداء أركانها ، ثم يحرم بالحج بمكة ، ويسمى هذا [تمتعا] لان صاحبهُ يتمتع بعد التحلل من احرامه بها بما يتمتع به غير المحرم من لبس الثياب والطيب وغير ذلك من محرمات الاحرام ، وعليه فدية وهي ذبح شاة أو صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة أيام اذا رجع من الحج أو اطعام ستة مساكين من أوسط طعامه ، ككفارة اليمين وزكاة الفطر

واختلف علماء السلف والخلف في الافضل ، وأقوى الاقوال في ذلك أن التمتع أفضل مطلقا أو لمن لم يسق [الهدي] الى الحرم .

و [الهدي] ما يهدى الى الحرم من الأنعام ليذبح فيه تقربا الى الله تعالى، فمن ساقهُ من بلده أو طريقه فالأفضل له القِران. وعلى هذا يكون التمتع هو الافضل والايسر لامثالنا — من الحجاج المصريين وغيرهم ممن لايسوق معهُ هديا— أن نحرم بالعمرة وحدها أومع الحج ثم نأتي بأركان العمرة كما يأتي بيانه، ثم نحلل منها فنستبيح كل مايباح لغير المحرم، ونذبح شاة حتى اذا كان يوم [التروية]— وهو الذي قبل يوم عرفة— نحرم بالحج من مكة ؛ ولمن أحرم بالحج وحده أو بالحج والعمرة معا أن يتحلل بعمرة ثم يحرم بالحج كذلك

﴿ الاحرام والتلبية ﴾

لكل قطر من الأقطار مكان يسمى [ميقات الاحرام] لا يجوز تجاوزه بغير احرام لحاج ولا لمعتمر ، وفي غيرهما كقاصد الحرم للتجارة خلاف، فمتى بلغ الميقات أحرم عنده بأن ينوي الحج والعمرة أو أحدهما ، ويلبي بما نواه بأن يقول: لبيك اللهم عمرة أو بعمرة ، أو لبيك اللهم حجا، أو لبيك اللهم حجا وعمرة ، أو بحج وعمرة . وتقدم أن الافضل لامثالنا الاحرام بالعمرة فقط. ومن أحرم احراما مطلقا قاصدا النسك الذي فرضهُ الله تعالى في حرمه من حيث الجملة جاهلاً هذا التفصيل صح احرامه ، وعند اداء المناسك يأتي بواحد من الثلاثة التي ذكرناها. والاحرام بالمعنى الذي ذكرناه — وهو نية النسك من حج وعمرة فرض فيهما وهو ركن عند الجمهور وشرط على الراجح عند الحنفية

ويستحب الاغتسال للاحرام ولو لحائض ونفساء ، وكذلك التطيب قبله ، وأن يكون بعد صلاة إما صلاة فرض واما صلاة تطوع ، وأن

يحرم في ثوبين نظيفين — وكونهما أبيضين أفضل — وفي نعلين لا يستران الكعبين ، وان يكون أحد الثوبين ازارا يلف على النصف الاسفل من البدن والآخر رداءً يوضع على العاتق ويستر النصف الاعلى منه دون الرأس فان ستره حرام على الرجال. فلا يجوز للمحرم لبس العمامة ولا غيرها مما يوضع على الرأس ولا لبس القميص والقباء (القفطان) والبرنس والجبة والسراويل والخف والحذاء الذي يسمى الجزمة أو الكندرة . ولا ما في معنى ذلك من الثياب المفصلة المخيطة ومن لم يجد الازار والرداء أو النعلين لبس ما وجده، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب بعرفات يقول « السراويل لمن لم يجد الازار والخفان لمن لم يجد النعلين » ولا فدية عليه عند الشافعي وأحمد لانه لبس ذلك للضرورة فاذا زالت الضرورة في أثناء النسك بأن وجد الازار والنعلين وجب عليه نزع السراويل والخف ونحوهما، فان لم ينزعهما وجبت عليه الفدية وهي شاة يذبحها . وعند أبي حنيفة ومالك تجب عليه الفدية وان لبس ذلك للضرورة. ولا بأس بشد المنطقة أو الهميان الذي توضع فيه النقود في الوسط . ولا بأس بعقد الازار في وسطه أيضاً واذا كان يخاف سقوطه بغير عقد يتأكد العقد

والاصل في هذه المسألة حديث ابن عمر في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عما يلبس المحرم من الثياب فقال « لا يلبس القميص ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفاف الا أحد لا يجد نعلين فليلبس الخفين وليقطعهما أسفل الكعبين . ولا تلبسوا شيئا من الثياب مسه الزعفران ولا الورس » هذا لفظ مسلم . وفي حديث ابن

عباس المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم لم يشترط في ترخيصه بلبس الخفين لمن لم يجد النعلين قطعهما . فبعض العلماء حل هذا الاطلاق على حديث ابن عمر وقال لا بد من قطعهما، وبعضهم قال ان حديث ابن عباس ناسخ لحديث ابن عمر لانه بعده

ولا يجب على الرجل كشف غير الرأس من بدنه، ويجوز له أن يستظل بالمظلة (كالشمسية) وغيرها مما لا يمس رأسه، ولكن يستحب له أن يعرض رأسه للشمس مالم يتأذ بذلك، لان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم لم يكونوا يستظلون في الاحرام، وقد رأى ابن عمر رجلا ظلل عليه فقال له: ايها المحرم اُضحَ لمن أحرمت له . أي ابرز للشمس لاجل من أحرمت له. يقال ضحِيَ الرجل يضحى ضحًى، وضحا يضحو ضحوّا وضحيا اذا برز للشمس أو أصابته الشمس .

وأما المرأة فلم ينهها النبي صلى الله عليه وسلم الا عن وضع النقاب على الوجه ولبس القفازين في اليدين فاحرامها في وجهها ويديها . والنقاب ما تستر به المرأة وجهها فلا يبدو منه الا محاجر العينين ومثله البرقع . قال العلماء فان سترت وجهها بشيء لا يمسه فلا بأس . وأما ستره عن الرجال بمظلة ونحوها فلا شبهة في جوازه، و يجب اذا خيفت الفتنة من النظر. ومن أضره لباس الاحرام فله أن يتقي الضرر ولو بتغطية الرأس ومتى زالت الحاجة الى ذلك تركه

وأما التلبيـة فصيغتها المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لَبَّيْكَ اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك» وكان صلى الله عليه وسلم يلبي من حين يحرم يرفع بها

صوته ، فرفع الصوت سنة الرجل ، فيرفع المحرم صوته بحيث لا يجهد نفسه ، والمرأة ترفع صوتها بحيث تسمع نفسها وكذا جارتها

ومعنى التلبية المبالغة في إجابة دعوة الداعي الى الحج ، ولا يزال العرب يجيبون من يدعوهم الى شيء بكلمة لبيك ، وأول من دعا الناس بأمر الله الى هذه العبادة ابراهيم عليه وعلى آله الصلاة والسلام . وذلك قوله تعالى له (وأذّن في الناس بالحج يأتوك رِجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) والرجال هنا جمع راجل وهو الماشي على رجليه ، أي يأتوك مشاة وراكبين على الرواحل الضامرة البطون التي تأتي من الفجاج والطرق البعيدة . فمعنى « لبيك اللهم » انني أجيب الدعوة الى هذا النسك خاضعا لامرك متوجها اليك مقيما لخدمتك المرة بعد المرة . والتلبية واجبة عند المالكية ومسنونة عند الجمهور

وهذه التلبية المأثورة هي العبادة القولية التي تتكرر من أول الاحرام بالنسك الي الانتهاء منه . ويستحب تجديدها بتجدد الشؤون والاحوال كالصعود والهبوط والركوب والنزول واجتماع الناس وتلاقي الرفاق

﴿ دخول مكة والطواف ﴾

يستحب الاغتسال لدخول مكة ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يغتسل له ، وكان يبيت بـ[ذي طوى] وهو موضع عند الآبار التي يقال لها آبار الزاهر ، فمن تيسر له المبيت فيه والاغتسال فقد أصاب السنة . والافضل دخول مكة نهارا ، وان يقصد المسجد الحرام توًّا ، والافضل أن يدخل من باب بني شيبة ، وروي في حديث ضعيف ان النبي (ص) كان يقول اذا رأى البيت (أي الكعبة المعظمة) « اللهمّ زد هذا البيت

تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ، وزد من شرّفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفا وتعظيما وتكريما وبرا »وروي ان عمر رضي الله عنه كان اذا نظر الى البيت قال: اللهم انت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام»

واعلم أن ما يذكر في المناسك من الدعاء والثناء وما يلقنه المطوفون للحجاج قلما يصح فيه حديث مرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه ماهو من أقوال الصحابة وغيرهم من سلف الامة .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمع أصحابه يدعون الله تعالى ويثنون عليه في النسك بما يلهمهم الله تعالى فيقرهم على ذلك .فعلم من ذلك أن مالم يصح عن النبي (ص) من ذلك لا يكلّفه أحد ولا يمنع منه ، ولكن لا يجعل شعارا عاما يلقنه كل الحجاج ويلتزمونه دائما بصفة خاصة،لان الشعائر لا تثبت الا بنص الشارع ، والظاهر ان الشارع ترك هذا الامر للناس ليدعو كل منهم ويثني بما يلهمه الله ويخشع له قلبه. ويسن أن يصلي بعد الطواف ركعتين

والثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل المسجد الحرام يبدأ بالطواف ، والطواف الاول من الحاج أو المعتمر يسمى طواف القدوم وهو واجب عند المالكية وسنة عند الأئمة الثلاثة

ويراعي في الطواف شروط الصلاة كالوضوء وطهارة البدن والثياب وستر العورة لما رواه الشافعي والترمذي — واللفظ له — من حديث ابن عباس مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم « الطواف بالبيت مثل الصلاة الا انكم تتكلمون فيه فمن تكلم فيه فلا يتكلم الا بخير »ووردت آثار في النهي عن كثرة الكلام في الطواف أي وان كان بخير لم تمس اليه

الحاجة ، لانه يشغل القلب عن الخشوع في هذه العبادة

ولما كانت الطهارة شرطا لصحة الطواف امتنع الطواف على الحائض والنفساء فهي تؤدي جميع أعمال الحج سواه فتتربص به الى أن تطهر ، ويبتدئ من الحجر الاسود : يستقبله ويستلمه ويقبله ان أمكن من غير إيذاء نفسه أو إيذاء احد بالمزاحمة والا اكتفى باستلامه بيده — أي مسحه بها — . تقبيلها فان لم يمكن أشار اليه بيده . ثم يشرع في الطواف فيجعل البيت عن يساره فيطوف به سبعة أشواط أي مرات . ويستلم من الاركان الركنين اليمانيين لانهما على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام دون الشاميين لانهما في داخل البيت

والركنان اليمانيان هما الجنوبيان ويسمى الذي فيه الحجر الاسود منهما [الركن الاسود] اذا ذكر وحده واذا ذكر الآخر وحده قيل الركن اليماني. والشاميان هما الشماليان فاذا ذكر كل منهما وحده قيل [الركن الشامي] وهو المقابل لبلاد الشام [والركن العراقي] وهو المقابل لبلاد العراق ، وانما يقال في تثنيتهما اليمانيان والشاميان من باب التغليب

هذا وإن في الحج ثلاثة أطوفة : طواف القدوم الذي ذكرناه ، وطواف الافاضة وهو ركن من أركان الحج باتفاق الائمة ووقته بعد الوقوف بعرفة، وطواف الوداع وهو واجب عند الجمهور ومندوب عند المالكية. وللحاج وغيره أن يكثر من طواف التطوّع ما استطاع

﴿ السعي بين الصفا والمروة ﴾

السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة عند الجمهور ، وعند الحنفية واجب غير ركن ، ويشترط أن يكون بعد الطواف. وعند

المالكية يجب ذلك وليس بشرط ، ويجب عندهم الموالاة بينه وبين الطواف، وقال الجمهور انه سنة لا واجب. ويطلق على السعي اسم الطواف والتطوف كما ثبت في القرآن والاحاديث ، واختار الفقهاء اسم السعي للتفرقة بينه وبين الطواف بالبيت

وكيفيته أن يبدأ بالصفا فيصعد اليها ويستقبل البيت (الكعبة) فيهلل ويكبر ويدعو الله تعالى ثم ينزل ويذهب الى المروة فاذا انتهى اليها توجه الى جهة المسعى ليكون مستقبلا للبيت ويدعو الله تعالى كما دعاه عند الصفا ، فهذه مرة، ثم يعود الى الصفا ثم الى المروة الى أن يتم سبعة أشواط يرمل في ثلاثة منهن بين الميلين الاخضرين (وهما عمودان في جدار الحرم) والرَمل سرعة في السعي، ولا يشترط في السعي ما يشترط في الطواف من الطهارة ولكن يستحب ، ويجوز السعي راكبا وماشيا والمشي أفضل للقادر عليه .

روى مسلم وغيره من حديث جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم لما دنا من الصفا قرأ (ان الصفا والمروة من شعائر الله) وقال «أبدأ بما بدأ الله به (وفي حديثه عند النسائي « ابدؤا بما بدأ الله به ») فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى اذا رأى البيت استقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال : « لا إله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير : لا إله الا الله وحده . أنجز وعده ، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده » ثم دعا بعد ذلك فقال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل الى المروة » — الحديث، وفيه انه فعل في المروة كما فعل في الصفا . فينبغي ان يحفظ هذا وان يدعو الساعي بعده بما يفتح الله به عليه لنفسه وأهله واخوانه وأمته

(تذييه) ان المكان الذي كان يرقى النبي صلى الله عليه وسلم اليه على الصفا قد بني عليه . والصعود اليه ليس شرطا لصحة السعي فمن وصل الى أسفل البناء هنالك وسعى ولم يصعده أجزأه ذلك ولكن الافضل ان يصعده لموافقة السنة في الصعود

﴿ الوقوف بعرفه ﴾

يخرج الحجاج من مكة يوم التروية (وهو الذي قبل عرفة ويسميه العوام بمصر والشام [يوم العرفة] ويسمون يوم عرفة [يوم الوقفة] محرمين لان من كان متمتعا يحرم في ذلك اليوم كاحرامه من الميقات ، والسنة أن يحرم كل واحد من المكان الذي هو نازل فيه، وله أن يحرم من خارج مكة ان كان غير مكي فان المكي انما يحرم من أهله ، والسنة أن يبيتوا بمنى ولا يخرجوا منها حتى تطلع الشمس كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن يسيروا منها الى [نمرة] عن طريق [ضب] من يمين الطريق وهو موضع في حدود عرفة بـ[بطن عرنة] . فيقيموا فيها الى الزوال ثم يسيروا منها الى بطن الوادي وهو الذي صلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه الظهر والعصر قصرا وجمعا وخطب ، فيصليها الحجاج كذلك ويخطب بهم الامام . وهناك مسجد يقال له مسجد ابراهيم بني في أول دولة بني العباس ثم يذهبون الى عرفات والعدول عن هذه الطريق الى طريق [المأزمين] ودخول [عرفة] قبل الزوال كلاهما مخالف للسنة ولكن لا يجب به شيء لانه ليس تركا لشيء من واجبات الاحرام .

ويقفون بعرفات الى غروب الشمس فاذا غربت خرجوا من بين العلمين أو من جانبيهما . ويجتهد الحاج في الذكر والدعاء في هذه العشية فهي أفضل الاوقات لهما وأرجاها للمغفرة والرحمة. ولم يعين النبي صلى الله عليه وسلم لعرفة دعاء ولا ذكرا ليجتهد كل انسان في ذلك بقدر معرفتـه وحسب حاجته . فيهلل ويكبر ويدعو ماشاء الله من الادعية الشرعية . ويسن الغسل يوم عرفة ، ولا يسن الصعود الى الجبـل الذي هنـاك الذي يسمى جبل الرحمة ، -- وهو جبل إلال — ولا دخول القبة التي فوقه التي يقال لها قبة آدم ولا الصلاة فيها. والسنة أن يفيضوا من عرفات

عند الخروج على طريق [المأزمين] فان النبي (ص) خرج منها على هذه الطريق لانه دخلها من طريق [ضب] فسنته في المناسك كسنته في الاعمال والمواسم ، اذا جاء من طريق رجع من أخرى ، كما كان يدخل المسجد من [باب شيبة] ويخرج بعد الوداع من [باب حرورة]

﴿ المبيت بمُزْدَلَفَة ورميُ الجمار بمنى ﴾

يسن المبيت بمزدلفة بعد عرفة فهي المشعر الحرام الذي قال الله فيه (فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) والوقوف عند [جبل قزح] أفضل، ثم يفيضون من المزدلفة بعد صلاة الفجر فاذا أتوا منى رموا [جمرة العقبة] بسبع حصيات ولا يرمون يوم النحر غيرها · وكيفية الرمي ان يستقبل الجمرة بحيث يكون البيت عن يساره ومنى عن يمينه ويرفع يديه بالرمي ويكبر مع كل حصاة . وان شاء قال مع ذلك : اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا . ويستحب تكرار التلبية بين المشاعر كالذهاب من عرفة الى مزدلفة ومن مزدلفة الى منى، ولم يصح في السنة التلبية في عرفة ولا مزدلفة ، فاذا شرع في رمي الجمرة استبدل التكبير بالتلبية — أي جعل التكبير للعيد بدلا من التلبية للحج ، لانه حينئذ يشرع في التحلل الذي تنتهي به المناسك . ومتى رمى جمرة العقبة نحر هديه ان كان معه هدي . وكل ما سيق من الانعام من الحل الى الحرم فهو هدي بالاتفاق ويسمى أضحية أيضا ، وأما ما يذبح يوم النحر في الحل فانه أضحية وليس بهدي . وأما ما يشترى في منى أو غيرها من أرض الحرم ويذبح فيها فهو ليس بهدي عند المالكية وعند الائمة الثلاثة يسمى هديا . ويقول عند نحر الابل وذبح غيرها : بسم الله والله أكبر. اللهم منك ولك. اللهم تقبل مني كما تقبلت من ابراهيم خليلك .

﴿ الحلق أو التقصير ﴾

بعد رمي جمرة العقبة يحلق الرجل شعر رأسه أو يقصره بأن يقص منه مقدار الأنملة أو أقل أو أكثر ، وتقص المرأة ولا تحلق ولا تزيد على قدر الأنملة . والحلق أو التقصير ركن من أركان الحج لا يتم الا به في مذهب الشافعي وعند الجمهور

واجب لا ركن . وبالحلق أو التقصير يكون التحلل الاول من الاحرام فيحل به للمحرم ما كان محرما عليه بالاحرام الا النساء

وبعد هذا يأتي الحاج مكة فيطوف طواف الافاضة الذي هو طواف الركن كما تقدم فاذا طاف هذا الطواف حل له كل شيء مما ذكر حتى النساء

ثم يرجع الى منى فيرمي بقية الجمرات ، والافضل ان يرميها في أيام التشريق الثلاثة وله ان يرميها في يومين لقوله تعالى (واذكروا الله في أيام معلومات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى)

ويستحب في رمي الجمار ان يكون بعد الزوال وان يبدأ بالاولى وان يكبر مع كل حصاة . ويدعو فيطيل الدعاء . واذا قال في دعائه : اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا — فهو حسن

﴿ طواف الوداع ﴾

تقدم حكمه وينبغي ان يكون هذا الطواف آخر عهد حجاج الآفاق بمكة ليكون مسك الختام ؟

انتهت الاحكام ولم نشأ نشر [حكم المناسك واسرارها] في هذا الجزء من المنار لانها منشورة في [باب الفتوى] من المجلد السادس عشر فليرجع اليها من شاء في ص ٦٧٥

مدرسة دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١٣

الدرن Tuberculosis

يراد بهذا الداء تكوّن أجسام صغيرة في عضو أو أكثر من أعضاء الجسم (١) ويسمي الاطباء المحدثون هذه الجسيمات بالدرنات أو الدرن (٢) وهي تنشأ من باسيل اكتشفه العلامة الالماني كوخ سنة ١٨٨٢ ميلادية

أوصاف هذا الباسيل — هو عصيات مستقيمة أو منحنية قليلا طولها نحو ٣ ميكرونات وعرضها ٥ و٠ من الميكرن، ذات أطراف مستديرة في كل منها نقطة لامعة أوأكثر ظن سابقا انها حبيبات للميكروب ، والحقيقة انه لايتوالد الا بالانقسام وهو عديم الحركة ولاأهداب له (خلافاً لماذهب اليه بعض الباحثين) ويعيش في الهواء وفي غيره من الغازات بل في الفراغ ، وأحسن حرارة تناسبه ما كانت درجتها ٣٧ سنتجراد ولكن نموه بطيء جدا

تركيب الدرن — تتكون كل درنة من خلايا تحيط بها تشبه كريات الدم البيضاء وفي داخلها خلايا تشبه خلايا البشرة وفي مركزها خلية أو أكثر كبيرة ذات نويات عديدة . وقد يوجد بين هذه الخلايا منسوج آخر دقيق جدا يؤلف بينها . ويوجد الميكروب بين هذه الخلايا أو فيها خصوصا حول الخلية المركزية الكبرى أوفيها كما في درن الحيوانات. وفي بعض الاحوال تكون هذه الخلية

(١) قد يصيب أي عضو من الجسم أو أي جزء منه وتكثر اصابته للرئتين ويقل للشغاف (الغشاء المحيط بالقلب) (٢) أصل معنى الدرن في اللغة الوسخ

معدومة وفي البعض الآخر تكون الخلايا البشرية كذلك معدومة فتتكون الدرنة من خلايا كالكريات البيضاء فقط . وقطر الدرنة الواحدة عادة مليمتر واحد أو اثنان . وتشاهد الدرنات في هذا المرض بوضوح في الرئتين أو الكبد أو الكليتين

وكلما كبرت الدرنة مات وسطها وذلك اما لعدم وصول أوعية الدم إليه أو لسموم الميكروب أو للسببين معاً، فاذا مات الوسط صار مصفراً وقوامه كالجبن وهذا الوسط الميت يزداد اتساعاً بينما محيط الدرنة يُغيِّر على ما أحاط به من الانسجة وهلم جرا . وهذه الدرنات تنشأ بسبب تهيج العضو بالميكروب فتتكاثر الخلايا حوله بانقسامها الى عدة أقسام . وتهرع اليها الكريات البيضاء لمقاتلتها فتحيط بها فيصيبها ماذكر . وباجتماع هذه الدرنات بعضها مع بعض تتكون درنات كبرى فينشأ من ذلك أخرجة (جمع خراج) في العضو المصاب

وقد تتحول الدرنة الى مادة كلسية (جيرية) برسوب فسفات الكلسيوم فيها على الاكثر فيموت الباسيل و يشفى العليل

وهذه الدرنات تحدث تهيجاً في الاعضاء وقد يكثر حولها المنسوج الليفي الضام . ويجوز أن يغير هذا المنسوج على الدرنة ويطبق عليها فتضمر وتتناقص حتى تستحيل الى نقطة ليفية و بذلك يشفى الدرن أيضاً

أما اذا كانت قوى المريض ضعيفة فتلتهب الانسجة حول الدرنات وتزداد حالة العليل سوءاً فوق سوء . وفي آخر الامر تتقيح الدرنات وما حولها و يشترك مع هذا الميكروب ميكروبات أخرى فتتكون أخرجة وكهوف كما يحصل كثيراً في رئة المسلولين

الاسباب — ميكروب هذا الداء منتشر كثيراً بين الناس و بعض الحيوانات. ولمعرفة كيفية العدوى به يجب أن نقسم البحث هنا الى مسئلتين : —

(الاولى) الاستعداد الشخصي : للوراثة تأثير عظيم في العدوى بهذا الداء فانه يغلب حدوث هذا المرض في أولاد المسلولين . ولا يتوهم أحد أن الذي ينتقل من الوالد الى ولده هو الميكروب بل استعداد خاص فقط اللهم الا في أحوال نادرة جداً، ولذلك كثيراً مايولد الولد في صحة لا بأس بها أو جيدة ثم يصاب بعد ذلك بالدرن

وهناك مهيئات كثيرة للعدوى تسبب نهاكة القوى فيضعف الشخص عن مقاومة الميكروب فيقهره، وأهم هذه المهيئات (أ) الازدحام وفساد الهواء بأي سبب كان (ب) قلة الاغذية (ج) اجهاد قوى الجسم فوق طاقته بأي عمل كان ككثرة العدو أو الانهماك في الجماع أو في السهر أو جلد عميرة أو المطالعات الطويلة والمباحث العقلية العنيفة خصوصا اذا صاحبها الفقر وفساد الهواء (د) كثرة الحمل والولادة أو الارضاع (هـ) كثرة التردد الى الأماكن الرطبة المظلمة التي يندر دخول الشمس فيها (و) الحمى التيفودية (ز) الاسراف في شرب الخمور (ح) البُوال السكري (ط) الزهري اذا أهمل حتى أفسد البنية

هذه هي المهيئات العامة وهناك مهيئات أخرى خاصة بالعضو المصاب ويسمونها بالمهيئات الموضعية مثل كثرة النزلات الشعبية أو الرئوية وتهيج الرئة ببعض الغازات أو بغبار بعض المعادن وغيرها كما يحصل في المصانع

وللعمر تأثير كبير أيضا في العدوى فترى ان الدرن كثيرا مايصيب الصغار ففي الاطفال نشاهد كثيرا إصابتهم بدرن السحايا أو البريتون أو الغدد اللمفاوية أو العظام أو المفاصل، وفي الشبان كثيرا مانشاهد الدرن الرئوي (وهوالمسمى بالعربية السِّل أو الهُلاَس) وأما الاشخاص الذين عمرهم فوق الاربعين فتقل اصابتهم بالدرن ولا ينافي ذلك أنه يصيب الشيوخ أحيانا قليلة وفي تلك الحال يغلب أن تكون اصابتهم مزمنة أي ان المرض بدأ فيهم قبل الاربعين

(المسألة الثانية) مدخل الميكروب: يدخل الميكروب الجسم من طريق الجلد أو الرئتين أو القناة الهضمية

(أ) طريق الجلد وهو نادر الوقوع غير انه يشاهد أحيانا ثؤلول في أيدي المشرحين لجثث المسلولين، وفي هذا الثؤلول توجد ميكروبات الدرن وقد تنتشر منه الى الرئتين أو غيرهما

وهناك درن يصيب الجلد يسميه الافرنج [لوبس Lupus] اخذا من كلمة لاتينية معناها [الذئب] لان هذا الداء يصيب كثيرًا الوجه فتتأكل أجزاء كثيرة منه تأكلا يشبه نهش الذئب. ولكن هذا الدرن الجلدي قل أن ينتشر

ميكروبه في الاحشاء . وهذا الطريق الجلدي غير مهم في الغالب

(ب) طريق الرئة وهو طريق مهم جدا . ولا يكفي لحصول الداء من هذا الطريق مجرد استنشاق بعض نفس المسلول أحيانا ، ولكن يحدث المرض اذا كثر الاختلاط بالمريض والقرب منه حتى يستنشق الانسان الهواء المشتمل على ذرات تخرج من صدر المسلول أثناء سعاله فتنتشر في الهواء المحيط به ، أما نفسه الهادئ فلا يوجد فيه الميكروب . واذا بصق المريض على الارض أو غيرها وجف البصاق تطايرت منه أجزاء فيها الميكروب وتكون خطرا شديدا على مستنشقيها

ويكثر وجود الذرات التي فيها الميكروب على بعد نصف متر من فم المصاب فاذا بعدت عنه مترا ونصف متر فقل أن يصيبك منها شيء

وهناك بعض الحيوانات الداجنة التي تصاب بالدرن كالببغاء وتكون أيضا سببا في العدوى بهذا الداء من هذا الطريق

ومن الحيوانات الاخرى الداجنة التي تكثر اصابتها به الخيل ويقل وجوده في الكلاب والقطط

(ج) طريق القناة الهضمية وهو أهم الطرق فان كثيرا من الحيوانات التي تؤكل يوجد فيها هذا الداء اذ انه كثيرا ما يصيب البقر والخنازير والدجاج والارانب وخنازير الهند ، أما المعز فقل أن تصاب به وكذلك الضأن

ولبن هذه الحيوانات يشتمل كثيرا على باسيل الدرن اذا أصيبت ضروعها به، ولما كانت معرفة الضروع المصابة عسيرة في أول الامر كان من الواجب اتقاء شرب اللبن الا بعد غليه مدة خمس دقائق على الاقل . وقد يوجد الميكروب في لحم هذه الحيوانات وأحشائها . ونظرا لانتشار الدرن في البقر يشاهد هذا الداء كثيرا في بطون الاطفال الذين يربون بلبنها . وقد دلت التجارب أن الحيوانات الصغيرة اذا ابتلعت ميكروب الدرن نفذ في جدر أمعائها وأصاب غدد المساريقا فينشأ عنه مرض هذه الغدد أو تدرن معوي أو بريتوني وقد يصل بعد مضي زمن الى أجزاء الجسم الاخرى فيصيب الغدد العنقية ويحدث داء الخنازير وقليلا ما يصيب رئتي الصغار . أما الشبان فاذا نفذ الميكروب خلال أمعائهم لم يصبها بشيء حتى يصل

إلى الرئتين فيحدث السل الرئوي . وهذا الفرق يشاهد أيضا بين الصغار والشبان اذا حقنوا بذرات من الكربون (الفحم) فتبقى في بطن الصغار وتصل الى رئة الكبار. ومن ذلك استدل بعض العلماء على أن الرئتين قد تصابان بالسل من طريق البطن اذا أكل الشخص لحما أو لبنا مصابا بل رجح هؤلاء العلماء أن اصابة الرئتين بالسل من هذا الطريق هي أكثر حدوثا من طريق التنفس

وفي أكثر الاحوال تكون الاصابة بالدرن موضعية في أول الامر يعني أنها تكون قاصرة على عضو واحد ومن ثم قد تنتشر تدريجيا الى الاعضاء الاخرى إما بسير الميكروب خلال الانسجة أو بسيره في الاوعية اللمفاوية . وهناك درن عام تصاب به فجأة أعضاء كثيرة من الجسم دفعة واحدة ولكن يكثر في مثل هذا النوع أن يكون مسبوقا أيضا باصابة صغيرة موضعية كدرن الخصية مثلا أو غدد العنق أو غير ذلك

ومما سبق يعلم أن أهم أنواع الدرن اثنان — الدرن العام والدرن الرئوي :

الدرن العام أو الدخني

سمي هذا النوع بهذا الاسم لان الدرنات تكون منتشرة في جميع أجزاء الجسم تقريبا وتشبه حبات الدخن اذا نثرت فيها

الاعراض — هذه الاعراض تكون في أول الامر مبهمة فيشتكي المريض من ضعف عام ونحافة واقهاء (فقد شهوة الطعام) وصداع وحمى وقد يوجد أثر من الزلال في البول وتسوء حال المريض شيئا فشيئا ثم تظهر أعراض أخرى تعين إصابة الرئتين ككثرة السعال والبصق أو يصاب الشخص بأعراض تعين إصابة البطن كالاسهال المتعاصي والمغص أو بأعراض أخرى تعين إصابة السحايا كالتشنجات والشلل. والمراد بذلك ان تكون أعراض انتشار الدرن في الاعضاء المذكورة أظهر من انتشارها في غيرها وان كانت كلها مصابة به

ويحصل الموت في مدة تتراوح بين ٣ أسابيع الى ١٠ ولا يعلم باليقين أن أحدا أصيب بهذا الداء وشفي منه

المعالجة – عديمة الجدوى وانما تعالج الاعراض فقط ، ويعطى المريض السوائل المغذية وبعض المنعشات مع بعض مركبات الافيون لتسكين الألم والسعال، ومن المنعشات النافعة جدا النوشادر ، ويجب أيضا ان تكون سكنى المريض في الاماكن التي تكون طلقة الهواء وتتخللها الشمس كثيرا .

الدرن الرئوي أو السِّل

هذا الداء يصيب الرئتين بسبب تهييج باسيله لمنسوجها فتتكون الدرنات ويلتهب ما حولها فيتصلب منسوج الرئة ثم يتقيح ويتحول الى تجاويف ممتلئة بمدة وصديد تسمى بالكهوف . ويكون ميكروب الدرن مصحوبا بميكروبات أخرى من الانواع البزرية غالبا اذا حدثت هذه التغيرات المذكورة أخيرا فانها تساعده في احداثها

الاعراض – سير هذا الداء مختلف فبعضه يكون سريعا والبعض الآخر يكون بطيئا فيمكث عادة من ستة أشهر الى بضع سنين

وأهم أعراضه السعال وضيق النفس والبصق الصديدي والنحافة الزائدة والحمى ونزف الدم من الصدر

وتبدأ هذه الاعراض بطرق مختلفة ، ففي كثير من الاصابات تبدأ بالسعال وبصق المخاط مع الصديد زمنا ما، وكثيرا ما يتوهم الشخص أن داءه من البرد فلا يعبأ به كثيرا في أول الامر ، وفي حالات أخرى تبدأ بالنزف الرئوي، وفي هذه الحالات قد يكون الشخص متمتعا بالصحة فيندهش بمفاجأة النزف الرئوي له بعد سعال خفيف فيخرج منه بضعة دراهم أو أوقية وقد يزيد الدم الى نصف لتر و بعد زمن تظهر باقي الاعراض ، وقد يعاوده النزف عدة مرات . وفي حالات قليلة يبدأ المرض بشكل التهاب رئوي أو التهاب پليوراوي مع انسكاب في الصدر . وهناك بعض الحالات التي تبدأ باضطراب في الجهاز الهضمي فيصاب الشخص بالاقهاء مع القيء المتكرر والنحافة ثم تتم باقي الاعراض المذكورة

مضاعفات هذا الداء

الجهاز التنفسي – يصاب بالتهاب الحنجرة، فيبح صوت المريض وفي بعض

الاحوال النادرة قد يكون ذلك أول مايلاحظ على المريض. ويصاب هذا الجهاز أيضا بالتهاب البليورا كما سبق مع الانسكاب المصلي أو الانسكاب الصديدي أو الدموي أو تخترق الرئة فيدخل الهواء في تجويف الصدر وبذلك يبطل تنفس الرئة المصابة

الجهاز الدوري — يصاب القلب بالضعف والتمدد في الاحوال المزمنة. وقد يصيب الدرن بعض شرايين الرئة فيفجرها ويحصل بسبب ذلك نزف شديد قد يكون سببا في الموت العاجل

الجهاز الهضمي — يصاب كما قلنا بالإقهاء والغثيان والقيء وعسر الهضم والاسهال وهو كثير الحصول في درجات المرض الاخيرة. وقد يصاب الزيتون أيضا بالتدرن، وقد تصاب الكبد والطحال والكليتان والامعاء بتغير مخصوص في أنسجتها يسمى عند الاطباء [الارتشاح الشمعي Waxy degeneration] ويشاهد أحيانا ناسور في الشرج بسبب هذا الداء أيضا

الجهاز العصبي — قد يصاب بدرن في السحايا

وقد تصاب أعضاء أخرى بالدرن فتزيد المرض شدة فوق شدته

نهاية المرض — يحصل الموت بهذا الداء بالطرائق الآتية: نهاكة القوى أو النزف أو اختراق الرئة أو التهاب السحايا أو انثقاب الامعاء أو التسمم البولي.

الانذار — اذا اكتشف هذا الداء في أول درجاته فقد ينجح فيه العلاج ويشفي منه المريض غير أن أثر الدرنات يبقى في الرئة. وفي بعض الاحوال يسرع الموت الى المريض في أشهر قليلة وقد يمكث المصاب به عدة سنين قد تمتد الى الخمسين

المعالجة — لا يوجد دواء لهذا الداء محقق النفع، وانما يتلخص العلاج في الكلمات الآتية: يوضع المريض في أصح الاهوية وأجودها وأكثرها تعرضا للشمس، ويكثر من الراحة والنوم لتوفير قواه وكذلك يكثر من الاغذية الجيدة السهلة الهضم كاللبن والبيض والعسل واللحوم بأنواعها الى غير ذلك، واذا اشتدت الحمى أو أصاب المريض الاسهال وجب عليه الاقتصار على الاغذية السائلة. وبالاختصار يجب اتباع جميع القوانين الصحيحة حتى تتقوى البنية فتغلب على المرض ... [illegible]

ويعطى للمريض الادوية المقوية كزيت السمك والحديد (بشرط ان لا تكون حرارة المريض مرتفعة جدا) ولزرنيخ والكينين وغير ذلك، وهناك أدوية مطهرة للصدر يعرفها الاطباء فلا حاجة لذكرها هنا

ويجب أثناء المرض ان يبادر الطبيب بعلاج كافة الاعراض والمضاعفات بجميع الوسائل الممكنة السريعة التأثير حتى لا تنهك قوى المريض

الوقاية — تكون بما يأتي: —

(١) يتجنب المريض البصق على الارض أو في أي مكان يمكن أن يتصل منه الميكروب الى الاصحاء. ومن أحسن الوسائل أن يكلف المريض بالبصق في مباصق خاصة (منها ما يحمل في الجيب) ويوضع فيها محلول مطهر كحامض الفنيك بنسبة ١/٢٠ من الماء. واذا بصق في منديل وجب حرقه أو غليه غليا طويلا قبل أن يمسه أحد

(٢) يجب على كل شخص أن يتقي القرب من المريض حتى لا يكون في طريق الذرات التي تتطاير منه أثناء السعال وغيره، فلا يجوز النوم معه في الفراش أو الجلوس بالقرب منه. ويجب على المريض أن يتحاشى الزواج خدمة لنفسه حتى لا تضعف قواه ولا يأتي بنسل ضعيف وخدمة للامة بعدم عدوى النساء وبعدم ايجاد ولد له يكون ضعيفا أو مصابا بالسل مثله

(٣) يجب تهوية الاماكن التي يسكنها المسلولون وتعريضها لشعاع الشمس كثيرا وتنظيفها دائما بالمحاليل المطهرة وغلي كل مافيها من أواني ومُلاآت وغيرها

(٤) يجب ان تتقي الامهات المسلولات ارضاع أبنائهن

(٥) يجب على الناس كافة طبخ لحوم الحيوانات طبخا جيدا وتقطيع اللحم الى قطع صغيرة مع اطالة مدة الغلي حتى تصل الحرارة الى ما قد يكون في باطنها من ميكروب الداء، فقد ثبت أنه اذا زادت قطعة اللحم عن ستة أرطال فلا تكون درجة الحرارة في باطنها كافية لقتله. وكذلك يجب غلي اللبن غليا جيدا مدة خمس دقائق على الاقل. واذا علم أن حيوانا مصابا بالدرن وجب اجتنابه وتحاشي أكله أو شرب لبنه وابعاده عن الحيوانات الاخرى السليمة. وهناك طريقة لتمييز الحيوانات المصابة

باللبن عن غيرها ، وذلك باستعمال (التيوبركيولين) وسيأتي الكلام على ذلك تفصيلا . وليلاحظ عدم الغلو في غلي اللبن كأن يوضع في اناء مغلق وتطول مدة الغلي فانه قد ثبت أن ذلك يفسد بعض مواده الضرورية لحياة الجسم ، فاذا اقتصر الشخص على شرب مثل هذا اللبن المبالغ في تعقيمه كالاطفال مثلا فقد يصاب بداء السكساح أو بالاسكربوط ، فلذا يجب الاعتدال في تطهير اللبن

وللخوف على الطفل من هذين الداءين فيحسن تغذيته بالاشياء الآتية مع اللبن وهي القشدة وزيت السمك وعصير البرتقال المحلى بالسكر أو بالعسل ومرق اللحم ، وإذا كان للطفل بعض أسنان فلا بأس في اعطائه قليلا من الموز بعد عجنه ولو باليد النظيفة

(٦) يجب على كل شخص أن يتجنب كل ما ينهك القوى ويفسد الصحة كالسكنى في الاماكن الفاسدة الهواء أو الانهماك في الدخول الى الاماكن المكتظة بجماهير الناس كالمسارح و[دور الصور المتحركة] ونحو ذلك و يتجنب السهر الطويل وإجهاد الجسم أو العقل وكثرة الجماع أو جلد عميرة وإدمان الخمور ، وينبغي الاكثار من الرياضات البدنية مع الاعتدال و استنشاق الأهوية النقية — كالتي في الفلوات والبحار — وتعاطي الاغذية الجيدة السهلة الهضم والاكثار من النوم واتقاء شرب الدخان واستنشاق الغازات والابخرة المتصاعدة من النيران والمصانع وغيرها ، وبالجملة فالواجب التزام قواعد الصحة كافة وعدم التهاون في شيء منها .

العرب والاسلام

والترك الاتحاديون

ان قراء المنار بعد الانقلاب العثماني يعلمون أن الجرائد الاسلامية الهندية أول من رمى الاتحاديين بالكفر والإلحاد ، وان المنار كان أول الصحف الاسلامية دفاعا عنهم ، وما ذكر الخلاف في أمرهم رحلة الى الآستانة بعد تمهيد مع جمعية الاتحاد والترقي المركزية للقيام بمشروع الدعوة والارشاد في الآستانة وللسعي في التوفيق

بين الترك والعرب وكانت نواجم الخلاف والتخاصم قد نجمت وامتدت من العاصمة الى الولايات . وقد اقمت في الآستانة سنة كاملة اختبرت فيها الاتحاديين اختبارا تاما لا أزال أرى في كل سنة من الآيات ما يؤيده وتقنعني بأنني قد سبقت الى إدراك ما لم يدركه كله العثمانيون ولا لاجانب

ولو كنت ممن يبيع دينه وقومه بالمال والجاه كالشيخ عبد العزيز جاويش لامكنني ان أنال في الآستانة من الاتحاديين أنفسهم ما لامطمع لعربي في نيل مثله ، فقد مناني لاتحاديون أعظم الاماني لانهم كانوا يظنون انني مادافعت عنهم ورددت على من سبق الى رميهم بالكفر والالحاد وافساد هذه الدولة الا لان اسلامي سياسي يدور مع المنفعة الشخصية أنى دارت

ويعلم قراء المنار انني قد حملت على الاتحاديين بعد عودتي من الاستانة حملات منكرة لم يحمل عليهم أحد بمثلها في الشدة ، كما يعلمون انني لم أكتب شيئا ينافي مصلحة لدولة العثمانية نفسها ، ولا شيئا ينافي الإخاء الديني بين العرب والترك، فأنا لم أعاد الدولة ولا الترك ببيان فضائح الاتحاديين . بل أعتقد أن كل ماكتبته كان خدمة للاسلام وللدولة ، وان الموافقين لي عليه من علماء الترك وجمهور المتدينين فيهم أضعاف الموافقين لي عليه من العرب ، لان الذين كانوا يعرفون مقاصد الاتحاديين الالحادية من العرب قليلين جدا ولعلهم لم يكثروا الا بعد أن رأى من رأى من خواص العرب في سورية مصلوبين في أعظم مدنها عمرانا وسمع من سمع بأخبارهم ثم بما كان من أمرهم مع الشريف الاكبر أمير مكة المكرمة

وقد كتب بعض العرب العثمانيين من اسرى الحرب وغيرهم مقالات في مقاصد الاتحاديين وعداوتهم للعرب وللاسلام نشروها في المقطم والاهرام فظن كثير من المصريين انها مقالات مصنوعة اقترحها كتاب الجريدتين حتى ان منهم من لم يصدق ما نقل عن كتاب [قوم جديد] وكتاب [اتحاد اسلام] وانما لم يصدق هؤلاء هذه الاخبار لانهم لا يريدون ان يصدقوا ما لا يلذ لهم تصديقه . ولو كانوا ذوي غيرة على الدولة والدين وحرص على بقائهما كحرصهم على لذتهم وراحة بالهم لتحروا وبحثوا عن أصل كل ما يقال في هذا الموضوع ليكونوا على بصيرة من أمر

أعظم الاشياء موقعا من أنفسهم وأهمها لديهم

كان مقصد الاتحاديين خفيا ثم عرف رويدا رويدا ، ثم اشتهر وتواترت أخباره في جميع الامم . واننا ننقل من ذلك عن جريدة الاهرام ما يأتي :

الاسلام والجامعة الطورانية

كيف يسعى الاتحاديون للاشاة الحضارة الاسلامية (*)

كتب مراسل شركة [سنترال نيوز] الخاص يقول :

في خلال بضع السنوات الاخيرة بدت في بلاد تركيا طلائع حركة جديدة تعرف بنهضة «بني طوران» أو [الطورانية الحديثة] وغرضها هدم المدنية الاسلامية واحياء العصبية التركية على أنقاضها والجمع بين العناصر التركية التترية والشعوب المنتمية اليها ومنها الامة البلغارية. أما القائمون بهذه الحركة فهم قوم مشهورون بعدائهم للاسلام وتعصبهم عليه وكثيرا ما يجاهرون بأقوالهم وكتاباتهم بذلك الكره بحجة ان الاسلام يسعى لقتل العصبية القومية ويحول دون نشوء المدنية التركية ولذلك فهم يسعون لجعل الجنسية التركية مستقلة عن الاسلام كل الاستقلال

ومما يقولونه أيضا ان الاسلام لا محل له في المدنية ولا يمكن ان يعيش طويلا الا اذا أدخلت عليه تنقيحات عديدة تلائم المذاهب التركية القومية

ولهذه النهضة وجهتان احداهما أدبية والاخرى سياسية . فغاية الوجهة الاولى تمجيد الشعوب الطورانية ونشر تاريخها المجيد . وغاية الوجهة الثانية القضاء على العصبية العربية . فجنكيز خان هو في نظرهم نموذج الملوك ورجال السياسة فكل مملكة ينشؤونها يجب ان تقوم على المثال الذي رسمه . وأما العرب في نظرهم فهم مصيبة على الاترك . ولذلك يجب القضاء عليهم أو ادماجهم في العنصر التركي حتى ينسى العالم تاريخهم وتقاليدهم . أما لغتهم فلا بد من محوها واحلال اللغة التركية محلها في كل صقع وناد

(*) نشرت في العدد الذي صدر من الاهرام في يوم الخميس ١٦ ذي القعدة — ١٤ سبتمبر

والغريب ان كتاب الاترك الحالين الذين يدعون أنهم وطنيون بكل معنى الكلمة ينشرون اليوم المقالات الضافية ويحثون بني قومهم على الطوف بجميع أنحاء السلطنة للمناداة بهذه البدعة الجديدة ومن أغرب ما يروى من هذا القبيل ان أحد الاترك طاف حديثا بسوريا وهو ينادي بهذه الضلالة

والحكومة الاتحادية تؤيد الآن جمعية « بني طوران » وتعززها بالاعانات المالية العديدة وتسمي تلك الاعانات « باعانات الملية التركية » وجميع كبار الاتحاديين أعضاء فيها وهم بعيدون عن الاسلام بعد الارض عن السماء. والمسلمون ينكرونهم لما يرون منهم من الاعتداء على حدود الشريعة الغراء

ولا يخفى ان الالمان هم الذين يؤيدون الاتحاديين في هذه السياسة الخرقاء فقد ثبت لهم الآن انهم لا يستطيعون اخضاع الاسلام لسياستهم ولا هم نجحوا في اثارة المسلمين الخاضعين لفرنسا وانكلترا على هاتين الحكومتين. فانقلب زعمهم العطف على الاسلام الى كره شديد له وأخذوا يعمون ضده مستعينين على ذلك بالجامعة الطورانية الجديدة. وقد علم العالم أجمع ما كان من أمر المقررات الالمانية التي اكتشفها الجنرال [سمطس] في موشي والتي كان غرضها سحق الاسلام في المستعمرات الالمانية، ولذلك فألمانيا هي أكبر خطر على الاسلام مع انها تتظاهر بالغيرة على المسلمين

((*))

ليس من ينكر فضل الاسلام على العالم وما كان لمدنيته من الآثار الجيدة. أما الشعوب الطورانية فليس في التاريخ ما يدل على انها عملت عملا واحدا أفاد الانسانية بل بالعكس كانت جميع أعمالها تدميرا وتخريبا فالطورانيون لم يستنبطوا شيئا للمنفعة بل كانوا حيثما حلوا أخربوا معالم المدنية ومحوا آثارها واستعبدوا الشعوب التي يقهرونها بأساليب هي في غاية الهمجية

أما ادعاء دعاة الجامعة الطورانية بأن الاسلام قد حال دون نشوء المدنية التركية فغير صحيح. ولا يخفى ان المدنية العثمانية هي خليط من آثار المدنيات العربية والفارسية والبيزنطية والشعوب الطورانية التي لم تدخل في الاسلام لا مدنية لها على الاطلاق وانما هي استعارت شيئا من نمالة الحضارة الصينية ولو ان السلطنة العثمانية قد

استمدت على المدنية التركية لكانت قد أصبحت في خبر كان منذ أجيال عديدة لان المدنية التركية كما قلنا هي تخريبية لا تعميرية والشيء الوحيد لذي يفوق به الطوراني غيره هو الظلم والجور وضطهاد جميع العناصر التي لا تسبح بحمد الطورانية وتحمدل . وسبب ذلك اعتقاده بأن جميع تلك العناصر وقفت حائلا بينه وبين تركمان آذربيجان والقوقاز .

هذه رسالة شركة سنترال نيوز وقد نشرت الصحف الانكليزية كلها هذه الرسالة وبسطت فيها الكلام بسطا ضافيا

الاسلام والطورانية الحديثة

ما يفعله الاتحاديون لمقاومة الاسلام (*)

نشرنا منذ بضعة أيام فصلا عن الاسلام والطورانية الحديثة ضمناه ما نشرته الصحف الانكليزية نقلا عن شركة « سنترال نيوز » الصحافية . وقد وقفنا الآن على مقالة ضافية في هذا الموضوع نشرتها مجلة الشرق الادنى فرأينا أن نورد خلاصتها لحضرات القراء قال الكاتب :

بدت طلائع الطورانية الحديثة في الاستانة في عام ١٩١٣ ثم أخذت تمتد وتزداد جلاء حتى أصبحت نهضة عامة في جميع انحاء السلطة العثمانية . وخلاصة ما يعرف عن هذه النهضة أنها تركية محضة غرضها الاصلي الانفصال عن الاسلام ولها أغراض أخرى عديدة ينحصر أهمها في ما يأتي :

(١) جعل الجنسية التركية مستقلة عن الاسلام

(٢) ترقية الروح العسكري في الاتراك

(٣) انشاء علاقات تجارية وغيرها مع مسلمي اذربيجان وروسيا الاسيوية وروسيا الجنوبية

---

*) نشرت في العدد الذي صدر من الاهرام في يوم السبت ١٨ ذي القعدة – ١٦ سبتمبر

(٤) تطهير اللغة التركية من كل ماهو عربي أو فارسي

(٥) محو الجنسية العربية وادماجها في الجنسيات الاخرى

ويرمي القائمون بهذه الحركة الى جعل التركي يعتقد أنه تركي قبل كل شيء ومسلم بعد ذلك . ويقوم بمساعدة هذه النهضة جمعية « الملة التركية » التي تؤيدها الحكومة الاتحادية . بالاعانات المالية . ومن مبادئ هذه النهضة تربية الاجيال الحاضرة والمستقبلة على الروح الطوراني بانشاء مدارس طورانية بحتة . و بناء عليه يجب التوسع في تعليم التاريخ باللغة التركية وانشاء فرقة كشافة (سكوتس) من الاولاد الاتراك تحت إشراف أنور باشا . وقد أنشئت الآن هذه الفرقة وشرع الاولاد الذين فيها يتربون تربية عسكرية توطئة لدخولهم في الجيش . أما شارات الفرقة وراياتها فأخوذة عن رموز ترجع الى ما قبل الاسلام . والاولاد الذين لهم أسماء عربية تستبدل أسماؤهم بأسماء تركية بحتة

ولهذه النهضة وجهة لغوية أيضا ولذلك أخذ زعماؤها يترجمون كثيرا من المؤلفات العلمية والتاريخية الى اللغة التركية البسيطة وقد كان في نيتهم أن يترجموا القرآن أيضا ولكن علماء الاسلام قاوموا تلك الفكرة بكل عزم وحالوا دون تنفيذها

ويعزى نشوء هذه النهضة الى عدة أسباب نذكر منها السببين الآتيين وهما :

(١) اللغة

لايخفى أن أحرف اللغة التركية مأخوذة عن الاحرف العربية والاصطلاحات التركية تزداد كل يوم تعقدا وصعوبة في نظر الطبقة الساذجة

(٢) كتاب المسيو [ليون كاهون] عن تاريخ الترك والمغول من أقدم الازمنة الى سنة ١٤٠٥ للميلاد وقد توجت الاكاديمية الفرنسوية هذا الكتاب ، واتفق أن ناظم بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقي العام قرأ هذا الكتاب فوضع أساسات النهضة الطورانية التي نحن بصددها

ولا شك أن نهضة كهذه مما تهم العالم الاسلامي قاطبة وتهم أيضا انكلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا اللواتي يحكمن على الملايين من المسلمين . والذي يشجع الاتحاديين على ترويج هذه النهضة اعتقادهم صحة النظرية التي ابتدعها [فمبيري] وهي

أن الاسلام يناقض فكرة الجنسية . فالاتحاديون يقولون ان الاسلام بالاتحاد مع العوامل العربية والفارسية والرومية والبيزنطية قد جعل الاتراك « مسلمين ليفانتيين » وحال دون نشوء حضارتهم . على أن هذه الدعوى هي عكس الحقيقة تماما فان الاتراك الذين جاءوا أصلا من حدود الصين وانتشروا في مجاهل آسيا حتى ضفاف [الاوكسوس] لم يكن لهم دين معروف أو حضارة راقية لانهم كانوا قبائل رحل يؤجرون سيوفهم لكل من يطلب معونتهم . ولم يحاول أحد من قواد الاتراك أن يخضع جميع القبائل التركية. نعم ان [جنكيز خان] كان يحلم بنشر سلطته عليها ولكنه لم يفعل . وقد اشتهر بأنه كان يقتبس عن الصين والعجم والعربية و بيزنطة وجرمانيا كل ما كان يروقه فيها من آثار الحضارة . ولا شك أن أهم ما اقتبسه هو الاسلام فالاسلام لم يحل دون نشوء الحضار التركية اذ لم يكن للاتراك حضارة خاصة بهم وكل ما لدى الاتراك من حضارة هو بفضل الاسلام ، ولما كان التركي مشهورا بروح الخضوع العسكري لمن يقوده فقد جعل نفسه سيفا في قبضة الاسلام ان العنصر الطوراني لم يشتهر بشيء من قوة الابتداع . وما تاريخه سوى تاريخ وتدمير. فقبائل [بوشي] أخربت مستعمرات بكتريا اليونانية. وقبائل [الهون] اجتاحت رومة الشرقية ورومية الغربية اجتياحا همجيا وقبائل [أفار] سعت لسحق الشعوب السلافية في مهدها، و[هولاكور] ردم أقنية بابل وجعل أخصب بقاع الدنيا بلادا قاحلة حتى الان، والعثمانيون أبادوا الحضارة البيزنطية التى ربوا عليها واكتسبوا منها شيئا من العلم والمعرفة. هذه هي القبائل الطورانية التي تباهي « باتيلا » الذي كان نقمة الله على العالم، وجنكيزخان الذي سمى نفسه « غضب الله تعالى » ولما شرع الالمان يحاربون البلجيك وغيرها من دول أوروبا رأوا أن يقتبسوا أساليب جنكيز وأتيلا وتيمورلنك

***

ومما يدل على ان العقل التركي ليس عقلا مستنبطا انه لم يات بمستحدث في الاسلام، بل هو اتخذ الاسلام ودان به كما هو. ولو كان مخلوقا مفكرا لرايناه بعد انتحاله الاسلامية يزيد عليه أو ينقص منه ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك لعجز مخيلته عن الاختراع

[illegible] ...ورية حديثة انشاء أمبراطورية حربية واسعة الارجاء تضم تحت لوائها جميع قبائل التتر والمغول الخاضعة لروسيا أو لأية دولة اخرى. «أما الجنسية العربية فيجب ابادتها وادماجها في الجنسية التركية المحضة لأنها خطر كبير على الجنسية التركية. ومن أمثلة الاتراك من هذا القبيل قولهم: واذا لم نعامل العرب كما نريد عاملونا بما نستحق» لذلك تراهم يسعون «لتتريك» العناصر العربية بحسب الاساليب البروسية

ومما يستحق الذكر أن جلال نوري بك الكاتب التركي الشهير قال في كتاب حديث الفه ما يأتي: «ان بلاد العرب ولا سيما اليمن والعراق يجب تحويلها الى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية التي يجب أن تكون لغة الدين. ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الاقطار العربية الى اقطار تركية لان الجيل العربي الحديث قد صار يشعر الآن بعصبيته وهو يتهددنا بنكبة عظيمة فيجب أن نحتاط للامر من الآن»

وكتب أحمد شريف بك مقالة في [طنين] جاء فيها ما يأتي: «لايزال العرب يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلا تاما كأنهم ليسوا تحت حكم الاتراك. فمن واجبات [الباب العالي] أن يجعلهم ينسون لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الامة التي تحكمهم. فاذا أهمل الباب العالي هذا الواجب كان كمن يحفر قبره بيديه لأن العرب لن ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم. بل سيسعون لاسترجاع مجد مملكتهم واعادة ترميمها على انقاض دولة الاتراك»

وجاء في نبذة وزعها الاتراك في القوقاز. «ان العرب هم بلية علينا مع أن حصان التركي خير من أي نبي ظهر فى العالم»

هذا وقد علقت مجلة الشرق الادنى على هذه المقالة بتوجيه نظر العالم الاسلامي الى الخطر الذي يتهددهم ان هم تباطأوا عن الاحتياط لدرء ذلك الخطر

منشور شريف مكة واميرها

نشرت الجرائد المصرية اليوميـة في آخر الشهر الماضي منشور شريف مكة وأميرها الذي وجهه الى العالم الاسلامي ، وانه لمنشور كتب بمداد الحكمة واصالة الرأي وشرف الغاية . وملخصه ان الشرفاء (أمراء مكة المكرمة) كانوا أول من اعترف بسلطة سلاطين آل عثمان الكرام لما كانت أحكام دولتهم قائمة على أساس الشرع الاسلامي حبا في الوحدة الاسلامية وكراهة للشقاق وتفرق الكلمة ، وان صاحب المنشور نفسه قد بالغ في الاستمساك بعروة الدولة حتى انه حمـل بجنده من العرب على العرب وقاتلهم لاجل الدولة

ثم انتقل من ذلك الى سيرة فئة الاتحاديين الباغية فبين انها قد جنت على الدين والدولة والامة فانحرفت عن صراط الشريعة وأبطلت بعض أركان الاسلام وغيرت أحكام القرآن ، وحجرت على السلطان حتى منعته من التصرف بشؤون خاصته وقصره ، ونكلت بالامة ، فلم ترع حقوق الاسلام ولا عهود الذمة ، وخصت العرب بالاضطهاد فصلبت في الشام كثيرا من أهل العلم والرأي والفضل ، واستحلت مصادرة الاموال واخراج النساء المخدرات والاطفال من ديارهم وأموالهم ونفتهم الى بلاد الاناضول من غير ذنب وبغير قيم شرعي . ثم ذكر تقحمهم بالدولة في هذه الحرب وتعريضهم اياها للخطر وماجنوه على البلاد بذلك ، وذكر ما حل بالحجاز من جراء ذلك وان الضيق قد بلغ بأهل الدرجة الوسطى الى بيع أثاثهم ثم بيع خشب بيوتهم حتى الابواب والسقف

ثم بين ان بلاد الحجاز اضطرت بسبب تلك الجرائم والمفاسد العـامة التي اجترحها الاتحاديون الى اعلان استقلالها بنفسها دونهم حرصا على دينها وعلى جنسيتها العربية لان الاتحاديين يتعمدون افساد هذا الدين ومحو هذه الامة العربية من لوح الوجود . وذكر ان الحاميـة التي وضعها الاتحاديون بمكة أرادت الانتقام من أهل البلاد فألقت قذائف مدافعها من حصن جياد على الحرم الشريف فأصابت بيت الله عز وجل وقتلت كثيرا من الطائفين والمصلين فيه

قوله «وحسبنا برهانا على ما تكنه صدورهم نحو الدين والعرب رميهم للبيت العتيق الذي أضافته العزة الاحدية لذاتها سبحانية في قوله تعالى ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾ وهي قبلة المسلمين وكعبة الموحدين بقبلتين من قبل مدافعهم التي بحصن جياد أثناء قيام البلاد بالمطالبة باستقلالها وقعت احداهما فوق الحجر الاسود بنحو ذراع ونصف والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع التهبت بنارها أستار البيت حتى هرع الالوف من المسلمين لاطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب واضطرهم الحال الى فتح باب البيت والصعود الى سطحه لتمكن من اطفاء اللهيب، وما انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنين بثالثة في مقام ابراهيم، وهذا عدا ما وقع منها في بقية المسجد الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص، وما زالوا يقتلون الثلاثة والاربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذر على العباد القرب من البيت، وفي هذا من الاستخفاف والازدراء بالبيت وتعظيمه وحرمته ما نترك القول والحكم فيه أيضا لعموم المسلمين في مشارق الارض ومغاربها »

وهذا المنشور يؤيد ما شرحناه مرارا في المنار من سيرة هذه الجمعية الباغية في الدولة والامة، ومن اطلع عليه من قراء المنار يعجب اذ يرى أكثر مسائله في المحاورة التي نشرناها في الجزء الماضي ، وسبب ذلك انها حقائق يعرفها جميع خواص العثمانيين وكثير من عوامهم فكيف تخفى على أمير مكة المكرمة على مكانته في الذروة العليا من الامة والدولة، وأهل بيته منهم الاعضاء في مجلس المبعوثين كنجله الشريف عبد الله وفي مجلس الاعيان كأخيه الشريف ناصر

وقد أعجب أهل الفضل بنزاهة المنشور ومحافظته على كرامة الدولة العثمانية وسلاطينها العظام وكرامة الشعب التركي أيضا وحصره السيئات التي يشكو منها جميع العثمانيين وكل غيور على الدولة في سيرة الاتحاديين فيها

ومن حكم الروية والانصاف في سيرة الاتحاديين يستدل من موافقة هذا المنشور الكثير من المطاعن التي قيلت فيهم على أن أخبارها قد بلغت حد التواتر بكثرة مصادرها فالشريف الاكبر لم يستمد ماذكره في منشوره من الجرائد المصرية ولا الاوربية ولعله لم يطلع على شيء منها قبل كتابته ، بل يستمد بيناته من الاقوال

والاعمال الرسمية . مثال ذلك ما ذكره من الشواهد على جناياتهم على الدين وجرأتهم على هدم أركانه والعبث بأحكامه . فانه ذكر منه أمر سلطتهم العسكرية بالزام جنودهم المقيمة في الحجاز وغيره من الامصار الفطر في رمضان وأمرها قاضي مكة بعدم الاعتداد بشهادة المسلمين بعضهم على بعض الا ما كتب منها في محاكمه ، وأما أخبار فتكهم بأهل الفضل والنبل من مسلمي سورية تقتيلا وتصليبا ومصادرة الاموال ونفي النساء والاطفال فلا شك في أخذه إياه من الجرائد السورية الرسمية وغير الرسمية وان لم يصرح بذلك . ودليلي على ذلك ان أول كتاب جاءني من وكيل المنار في الحجاز قد نقل فيه عن تلك الجرائد اسماء من قتلوا وصلبوا في الشام من كبراء العرب ومنهم السيد الزهراوي وشفيق بك المؤيد وغيرهما

وقد تذكرت بهذا أنه لما ذكرت الجرائد المصرية أول نبإ عن صلب فضلاء العرب ببيروت وهم الاحد عشر الذين منهم النابغة محمد المحمصاني وعبد الكريم قاسم الخليل أرسل إليّ فؤاد الخطيب برقية من الخرطوم ذكر فيها ارتياعه واستفظاعه للخبر وشكه في صحته والرغبة اليّ في ارسال برقية اليه ببيان رأيي فيه وقال انه لا يثق به الا اذا كنت مصدقا له . فأرسلت اليه برقية قلت فيها انني لا أثق بشيء من ذلك . ثم جاءت جرائد أوربة فجرائد أمريكة تثبت الخبر ، وفي جرائد أمريكة العربية السورية نقل له عن جرائد سورية . ثم انني كنت مارا مرة بنظارة الحربية فرأيت فيها رجلا قد أسره الانكليز من سيناء فسألته عن بلده وعن أخبار سورية فقال انه من القدس ، وأخبرني بخبر الذين صلبوا في بيروت ، فقلت هل تعرفهم قال لا بل أعرف بعضهم بالاسم ، قلت ممن علمت بخبر شنقهم ؟ قال من جريدة القدس الرسمية . لاجل هذا قلت في المحاورة التي نشرت في الجزء الثالث ان خبر صلب من صلب في سورية قد ثبت عندي بالتواتر

لقيت أول من أمس صديقا لي من رجال القانون أعرف منه استقلال الرأي فتكلمنا في هذا الموضوع فقال انه يجب ان يجعل نفسه كالقاضي في هذه القضية فلا يحكم فيها . قلت بل يجب ان تجعل نفسك بمكان المؤرخ المنصف الذي يمحص الاخبار ، ثم يجزم بالنفي أو الاثبات ، فأنا لم أكن خصما للاتحاديين بل كنت صديقا

لهم قبل الدستور وبعده ، وكنت أول من دافع عنهم لما حملت عليهم جرائد الهند الاسلامية ورمتهم بالكفر والالحاد، واسقاط خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد لاجل ابطال الحكم الاسلامي ، ولما شاع أمر عبثهم بالدين وتعصبهم على العرب وغيرهم تثبت في الحكم عليهم وذهبت الى الآستانة فأقمت فيها سنة كاملة معهم ساعيا في خدمة الاسلام عامة وفي التأليف بين الترك والعرب وعلمت بالاختبار الطويل ان كل ما قيل فيهم دون الواقع كما بينته في المنار

وجملة القول ان منشور الشريف الذي كان قبل استقلاله في الحجاز أعظم الامراء العثمانيين هو أعظم الحجج على ملاحدة الاتحاديين ، كما أنه تأييد من سيد العرب لطلاب الاصلاح من العرب ، لانهم بنوا سعيهم على أساس المحافظة على الدولة العثمانية ، ومن قواعدهم ان لا يكونوا سببا من أسباب ضعف الدولة ولا تمزيق وحدتها . وقد انسلخ من الدولة عدة ممالك وولايات بسوء سياسة الاتحاديين : البوسنة وهرسك وطرابلس الغرب وألبانية ومكدونية وكريت وجزائر الارخبيل الرومي ، - دع ولاية البصرة . والولايات الارمنية والاناضولية التي ذهبت في هذه الحرب — ولم يكن العرب سببا في زوال شيء منها . فهذه أكبر حججنا على هؤلاء المخربين

باب المراسلة والمناظرة

حال المسلمين الاجتماعية

﴿ وفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾

للفاضل الغيور — م . ن — صاحب الرسالة التي نشرت (في ج ١٠ م ١٨)

حضرة حكيم الاسلام السيد الامام الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية !

السلام عليكم ورحمة الله . و بعـد فلست صحفيا ولا من المشتغلين بالتحرير ولا يسع وقت فراغي كتابة المقالات ، وتنسيق العبارات ، فان في أعمالي اليومية لشغلا شاغلا . فان اكتب اليكم فانما اكتب مدفوعا بعامل القيام بفريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » التي عفا أثرها من بين المسلمـين . اذ لولا صوت المنار الحي المرتفع الذي يدوي في الآفاق فيفتق أغشية الآذان ، ويرقق حجب القلوب و يفتح الاذهان ، و يوقظ النائم ، و ينبه الغافل — لولا ذلك الصوت المنعش للنفوس المحرك للهمم ، لصح أن يقال ، ولا عتب في المقال : ان الامة الاسلاميـة شبح بلا روح

كتبت رسالتي الماضية في موضوع الدعوة والارشاد ولم يكن لي غرض سوى العمل بهذه الفريضة واقامة الحجـة امام الله تعالى على المسلمين الذين تهاونوا فيه وفي كل عمل اسلامي . وانه وان لم يكن لديّ كبير أمل في أن يقدّم المسلمون في الحال ، ما يحتاج اليه لمشروع من المال ، فقد كان رجائي عظيما في النجاح التدريجي الذي يؤدي الى النجاح التام . ولكني ما كنت أظن أن يكون نصيب هذه الدعوة الصمت والجمود اللذان يدلان على شدة ما تعاني لامة الاسلاميـة من أدوائها الاجتماعية .

لذلك حدثتني نفسي بعد طول الانتظار بأن أبعث اليكم بهذه الرسالة الثانية زيادة في التذكير ، وتأكيدا للانذار والتحذير ، ولأبين ان المسلمين غير معذورين في البقاء في هذه البؤرة النتنة ، وان وسائل النجاة والحيـاة في أيديهـم والامر كله متعلق بمشيئتهم . وهذه هي الرسالة :

دعوت المسلمين في رسالتي الماضية لتنفيذ مشروع الدعوة والارشاد وما كنت لأدعوهم الا الى حق وأوضحت لهم خطورة الحالة التي نحن فيهـا وما كان لي أن أكذب . وأقمت لهم الدليل على أن المشروع كافل لاصلاح الحال ، وما كنت الا صادقا . وانتظرت ماذا يكون من أمر هؤلاء وأطلت الانتظار فألفيتهـم صموا عن النداء ، واختاروا البقاء في الشقاء ، وما كنت مكرها لهم على ما تثاقلت عنـه نفوسهم ولا اكراه في الحق

انه ليحزنني أن تخيب دعوتي وليس ذلك لانها صادرة مني فما هي الاصدى لاصوات صاحب المشرع ومن نصروه فيه من قبلي . وانما حزني وأسفي لحرمان الامة الاسلامية من الخير العظيم الذي كان ينتظرها ان هي أجابتها، ولكن ماحيلتي وقد دعوت ونصحت وما فرطت ، والامة أعرضت وجمدت واستكبرت . وقد فشلت دعوة الكثيرين من أهل الغيرة والاخلاص من قبل فلم ينقص إعراض الناس عنها من قدر الحق ولامن قيمة ما دعوا اليه شيئاً، اذ الحق حي بذاته لايضره أن يكفر الناس به كما لا يرفعه أن يغلوا فيه . وان في ضياع صوت أستاذنا العظيم في فضاء غفلة هذه لامة الجاهلة لعبرة وذكرى للمتشائمين المتسرعين

انه ليقع الانسان في الحيرة و يأخذه العجب لخيبة دعوة الحق بين المسلمين وفيها خيرهم وفلاحهم ونجاح دعوة الشر فيهم وفي اجابتها هلاكهم وشقوتهم. فما أشد ظلمهم لاهل الحق الذين يغارون على الامة و يريدون لها الرشاد، وظلمهم لانفسهم باتباعهم أهل الضلال الذين يسعون في الارض بالفساد ! . ولقد ود المصلحون لو أن الامة عرفتهم فأنزلتهم منزلتهم وسمعت لقولهم واقتفت أثرهم فنهضت بهم . لايسأل هؤلاء الامة أجرا على عملهم فالحق والعمل الصالح أعلامن أن يقوما بشيء من حطام الدنيا . وان أخذوا أجرا في الظاهر فليس هو في الحقيقة بأجر وما هو من قبيل ثمن لشيء مباع ولكنه مال يسدون به عوزهم و يستعينون به على عملهم الذي يقيمون به لخير الامة وسعادتها . انما أجرهم على الذي فطرهم وهو وحده الذي يقدر عملهم و يكافئهم عليه في دار غير هذه الدار . أما أهل الباطل والضلال فهم ينفثون السم في النفوس والارواح بما ينشرون من رأي، و يدعون اليه من عمل؛ و يسلبون أموال الامة أجرا على هذه الضلالات، انهم لايرجون عند الله ثوابا ولا بعد هذه الحياة حياة. فهم لذلك يحتالون على جمع المال بأي وسيلة تمكنهم منه، فهو غرضهم الذي اليه ينتهي الامل ، والسبب الوحيد الذي يحركهم للعمل . هؤلاء هم رسل الشهوات وأعوان الهوى وأولياء الشيطان، وأولئك هم دعاة الفضيلة وناصروا الحق وحزب الرحمن.

فياليت شعري أي الفريقين خير مقاما وأهدى سبيلا . ومن منهما أولى بالاتباع وأقوم عملا وأحسن قيلا ؟ فياخلف خير أمة أخرجت للناس أتستبدلون

الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ وتندفعون الى الاوهام والضلالات مختارين وتذللون الى الشر ؟

ود كثير من الناس لو يعرفون سبب هذا الجفاء بين المسلمين وأهل الحق والصلاح وهم المحبون الصادقون ، وعلة هذه المودة بينهم وبين أهل الباطل والفساد وهم الاعداء الظاهرون . فانه لابد لذلك من سبب ومتى عرف السبب زال العجب .

ليس العيب الذي تقدم ذكره هو الوحيد في المسلمين . والا فلماذا يعادي هؤلاء المسلمون أنفسهم و يعطفون على أعدائهم ؟ و لِمَ يعرضون عن مصالحهم ويسارعون الى هلاكهم ؟ وما الذي حسَّن اليهم الباطل و بغضهم في الحق ؟ وأي شيء سوّغ اليهم ارتكاب السيئات وترك الحسنات ؟ ولاي سبب يصالحون الشيطان ويغضبون الرحمن؟ وما السبب الذي هبط بهذه النفس الانسانية الى درك الحيوانية؟

انه يوشك أن تكون جميع تصرفات المسلمين مخالفة للعقل والنقل وأحوالهم مرذولة غريبة الشكل . وانما هذه التصرفات والاحوال هي أعراض للمرض العامّ الذي سكن في جسم هذه الامة وأضعف قوتها الحيوية وأسدل الحجب على بصيرتها ، فبحث ما ليس بالقبيح ورأت حسنا ما ليس بحسن . فمرض الامة هو سبب كل ما ننكر من ميولها وحركاتها وسكناتها . فاذا عرف المرض عرف السبب

المرض أو السبب هو كما قال السيد الامام هو ضعف استعداد الامة وحرمانها من الزعيم . وهو قول حق لاريب فيه ، اذ لو وجد الاستعداد والزعيم معا لنهضت الامة من كبوتها وحييت حياتها الطيبة ولفارقها الشقاء ، وزال عنها مانزل بها من البلاء ، ولكن الى متى نسكت على هذا الضعف فينا ولا نباشر علاج أنفسنا ؟ الآن وقد عرف كنه المرض الذي أصابنا وسبب الضعف الذي أنهك قوانا فمن السهل معرفة علاج هذه الحالة أيضا . إنه وقد أمكن تشخيص الداء فما علينا الا أن نصف الدواء .

لاعلاج لضعف استعداد الامة الا في أمر واحد وهو العلاج القديم الذي ثبت صلاحه وتأكد نجاحه واتبع في كل زمان وفي كل مكان وسار على سننه الانبياء عليهم الصلاة والسلام في تبليغ رسالات ربهم عز وجل ، وكذلك الصالحون من بعدهم . ذلك العلاج هو اقامة فريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

ان الناس أفلحوا وسعدوا ما عملوا بهذه الفريضة وخابوا وشقوا ما أهملوها .
فكما أن داءنا في تركها كذلك علاجنا في اقامتها . وقد جعل الله تعالى العمل بهذه الفريضة شرطا ضروريا لصحة الايمان وهي أعظم ما فرض العليم الحكيم على أتباع أنبيائه عليهم السلام ، فكانت ولا تزال اقامتها عنوانا على هداية الناس وسعادتهم، واهمالها دليلا على ضلالهم وخسرانهم واستحقاقهم للعنته « لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)

تركت الامة الاسلامية العمل بفريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » من عدة أجيال فتفقدت بذلك قوتها الحقيقية التي كانت تحمي بها الاموال والاعراض والعقول والقلوب والاخلاق والدين من فتك الشهوات وهجمات الشياطين . وماذا يفعل الاعزل من السلاح ، في ميدان النزال والكفاح ؟ صار أفراد المسلمين بعد ذلك — وقد خفت صوت الامة وارتفع صوت الشهوات والهوى والشيطان ، كالعقد الذي تبعثرت حباته أوكذرات الرمال التي تتجاذبها الرياح والاهواء المختلفة فضل الناس في الفهم والرأي والعمل ولا منكر ولا مرشد ، وانحلت الرابطة وتفرقت الكلمة ، وتناكرت العقول والقلوب ، وضاعت الفضيلة ، وحلت محلها الرذيلة، واستبدل الجهل بالعلم ، وأوشك أن يكون الدين المعمول به عند الجماهير الآن مجموعة خرافات وأوهام وضلالات ، وبدع ومنكرات وتقاليد وعادات ، وبالجملة ان الحال قد تحول الى ما يرى كل انسان، وليس الخبر كالعيان. تلك عاقبة الذين نسوا حظا مما ذكروا به باهمالهم هذه الفريضة فتولدت بذلك في الامة الامراض والعلل، التي أضعفت استعدادها للفهم والعمل ، فضل فيها صوت المصلح ، وخابت دعوة الحق ، وما ربك بظلام للعبيد

وان تعجب فعجب أن يعتذر القادرون على الاصلاح عن اغفالهم ذلك الواجب العظيم باعراض الامة عن الحق والخير وانصراف عقول أفرادها وقلوبهم الى الباطل والشر، ونسوا ان الامة ما سقطت في هذه الهوة السحيقة ، الا بسبب اهمال هذه

الفريضة ، كما غفلوا عن كونها أحوج الى الارشاد في هذه الحالة منها في سواها !

ان ما وقع من الامة من التفريط في جنب الله لا ينبغي أن يسئل عنه سواها وان عليها ان تتحمل وحدها أثقاله وتتجرع مرارته (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، فلا يصح ان يؤدي تفريط الامة في واجبها الى تفريط المؤمن في واجب « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » الذي فرضه الله عليه ، ولا يسقط عنه الا بأدائه ، سواء استجاب له الناس أم لم يستجيبوا . ماكان ضعف استعداد الامة للحياة أو بعبارة ثانية ضعف قوتها الحيوية الذي هو نتيجة طبيعية لما كسبت أيديها كما تقدم ليغير من موقف المصلح أمامها ، فهو مطالب على الدوام بأن يصدع بالحق وان كان غريبا عن عقول وقلوب أكثر سامعيه ، وان يقرر الحقيقة وان لم يفقهها الا نفر قليل منهم ، ولدعوته مع ذلك حجة على الطائع والفاسق ، وما الاخير لقلة استعداده بمعذور (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون * ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء * ما على الرسول الا البلاغ)

وقد دعا كثير من أنبياء بني اسرائيل قومهم الى الحق فكذبوهم وقتلوهم . وما كذبوهم وما قتلوهم الا لانهم لم يفقهوا دعوتهم أو لم يقبلوها . وكذلك كان شأن الناس مع كثير من المصلحين . فما من دعوة الى حق الا وصادفت في أول أمرها إعراضا عظيما ومقاومة كبيرة ممن جاءتهم ، حتى قيل انه لا أمل في قبولها . ومع ذلك لم يكن ذلك الاعراض وذلك التكذيب وتلك الشدائد لتؤثر في همة أولئك الهداة وعزمهم ، أو ترجعهم عن قصدهم . فمن ذا الذي يجسر ان يقول ان عملهم كان لغوا لان الناس لم يكونوا مستعدين له ؟ كلا بل هو كل الحق والصواب وعين ما أمر الله به وأوجبه عليهم وهو سبب كل ما جد وما يوجد من خير واصلاح في العالمين وعلة الحركة والحياة في الناس أجمعين .

ان كل دعوة لحق تصيب الغرض سواء أجيبت في الحال أم لم تجب وسواء أدرك لداعي نجاح دعوته في حياته ، أم حصل النجاح بعد وفاته ، فهي محدثة أثرها على كل حال . فمثل الكلم الطيب والعمل الصالح وتأثيرهما في النفوس كمثل التفاعلات الكيماوية سواء بسواء ، فان التفاعل الكيماوي حاصل وان كان أحيانا

يسير بطء تبعا لحالة المود وطبيعتها وقوة تأثيرها بعضها في البعض الآخر . وكثيرا ما تجري الحوادث الكونية بحيث لاتدركها الابصار ولا تتناولها الحواس، فاذا مضت الايام أو الشهور أو السنون أو القرون فوجئ الغافلون بالنتائج الصغيرة أو الكبيرة التي نشأت عنها . وبالجملة انه كما ان لكل حركة أثرا في مجموع ما يحيط بها من الاشياء كذلك لكل كلمة طيبة أو كلمة خبيثة فعلها في ردع الناس عن الشر أو اغرائهم به . أفليس من الوجوب علينا الاكثار من الكلم الطيب دعوةً للخير ومقاومةً لدعوة الشر التي كثرت واستفحل أمرها ؟

ان الباطل عدو الحق كما أن الحق عدو الباطل . وهذه العداوة قديمة من عهد ان عرف حق وباطل وستبقى مستمرة الى ما شاء الله تعالى . فعلينا ان نفهم هذه الحقيقة ولا يطمعن أحد في التوفيق بين عدوين هما أكبر خصمين في الوجود . انه لا ضرر على الحق من هذه العداوة أو الخصومة التي لامفرّ منها ، فالباطل أضعف من ان يقف امام حق والحق أقوى من ان ينازل باطلا وما كان لباطل ان يوجد مع حق في ساحة فأين وجد حق لايوجد باطل وان الباطل ليتضاءل أمام أشعة الحق كلما اقترب منه كما تتضاءل الظلمة أمام الضوء . ان الحق ثابت بنفسه والباطل ساقط بذاته أو بعبارة أخرى ان حياة الحق مستقلة باستقلال الحق ولا حياة للباطل الا باستناده الى الحق فهو أشبه بالخيال منه بالحقيقة . انه لا يغلب الباطل الا الحق فالباطل قوي ماغاب عنه الحق وكما انه لا سلطان لحق على حق كذلك لانفوذ لباطل على باطل وكما ان الباطل يذهب لقدوم الحق فانه لا يترك مكانه لباطل مثله . فيلزم مواجهة الباطل بالحق على الدوام فموت الباطل في قرب الحق منه وحياة الحق في خفاء الباطل . ان الحق حق ولا يمكن ان يكون الاحقا ، والباطل باطل ولا سبيل الى جعله حقا ، فلا بد من الخلاف والتصادم بينهما . ولما كانت مهمة الحق ازهاق الباطل ودأب الباطل الفرار من امام الحق والانتشار في الساحات التي لا سلطان له فيها ، وجب ان يتعقب الحق الباطل أينما حل وسار ، ليتم له الانتصار .

لا عيب في الحق وانما العيب فيمن يدعون انهم أهله اذا قصروا في القيام به ونصره ، والا ففيم يخشى أهلُ الحق أهلَ الباطل وهؤلاء ضعفاء بضعف ما لديهم

من باطل ، وأولئك أقوياء بما لديهم من الحق ؟ لا يجوز لاهل الحق ان يدعوا هؤلاء المبطلين آمنين مغرورين بزخرف الباطل مفتونين بظواهره الكاذبة حتى لا يكون ذلك اقرارا منهم لباطلهم ، بل ان الواجب اقلاق بالهم وقذفهم بالحق دائما بدون رأفة أينما ذهبوا أو حلوا أو وجدوا ، في غدوهم ورواحهم ، في نومهم ويقظتهم ، في أعمالهم وراحتهم ، الى ان يذهب نور الحق بظلمة الباطل ، ويعرفوا انهم لم يكونوا الا واهمين . ان نور الحق متى ظهر للناس لا يستطيعون نكرانه وان استطاعوا انكاره فلا يقدرون على المجاهرة به . وان الاصرار على الباطل بعد أن يفضحه الحق قليل في الناس ، وانما يصر الا كثرون منهم على ما يصرون جهلا منهم وتوهما أنهم على حق ، لاعذر في السكوت على الباطل فيجب أن لا يصد داعيا الى الحق صاد مهما عظمت المهمة وبعدت الشقة ، واذا بعد الناس عن الحق أوقل عدد الراغبين فيه منهم أو فقدوا في بعض الازمنة أو الامكنة فان ذلك لا يجعل الحق غير حق ، ولا ينبغي ان يكون مانعا من الدعوة اليه اذ الباطل لا يصح ان يُرضى به على أي حال .

ان الحالة قاضية بتنبيه المسلمين الى الخطر المحدق بهم ، وأن يقال لهم في وجوههم بصوت جهوري : انكم في هوة انحطاط سحيقة تجب المبادرة الى انقاذ أنفسكم منها . ولا يمكن أن يقال لهم غير ذلك . ينبغي أن يقال للمسلمين : « يامعشر النساء ويامعشر الرجال أنتم على باطل وضلال . وأن تقاليدكم وعاداتكم التي تدينون بها وتحرصون غاية الحرص عليها انما هي من مخترعاتكم ومخترعات آبائكم ، وأن العقل ينكرها وشرع الله يتبرأ منها . وهذه القبور وما حوت من عظام والاشجار والاحجار لا يمكن أن تتخذ وسيلة الى العليم العلام ، ولا سببا لقضاء الحاجات أو شفاء الاسقام ، وهذه الافكار الفلسفية والنزعات المادية التي اتبعتم فيها سفهاء الافرنج بدعوى المدنية لم تكن الا نزغات شياطين . وهذا الفسق والفجور والعصيان من عمل الشيطان ولا يتفق مع رضاء الرحمن . وأن خطتكم التي تسيرون عليها الخطة عوجاء وهي سبب ما نزل بكم من البلاء . فارجعوا الى أصل الدين تكونوا من المهتدين » يجب أن يقال ذلك وماشاكله للمسلمين وأن يبين لهم مايقال تقريبا للعقول والافهام . فمن قام بذلك فقد قام بواجبه وليس عليه أن يبحث في مبلغ تأثير

كلامه في نفوسهم فليس عليه هداهم وانما الهدى هدى الله .

قد يفقه المسلمون القول ويدركون الغرض المقصود منه في الجملة فيهمون أن يفتحوا عيونهم للنظر ويتحركوا للعمل ولكن قد تغلبهم الشهوات فيعرضون ، ويوسوس لهم الشيطان فينكصون ، وعن اتباع الحق يعدلون . انهم عصوا لضعف استعدادهم ولكن ما حيلة الداعي وأمر استعدادهم بأيديهم ان شاؤا أصلحوه وان شاؤا زادوه ضعفا ؟ وما ذنبه والمرء لا ينفعه زجر زاجر ما لم يكن له من نفسه وازع (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

ان الناس مسؤولون عن ضعف استعدادهم كما أنهم مسؤلون عن ضياع كلمة الحق بينهم . وان ضعف استعداد الامة ناشئ عما ارتكبته من السيئات ، فيكفي منها الاقلاع عنها وعمل الصالحات ليبدلها الله تعالى من فضله حسنات . ما عذر هؤلاء المسلمين في هذا الانحطاط الذي انفردوا به وفيهم كتاب الله تعالى ، وأمامهم سنة رسوله (ص) وبين أيديهم آثار أهل الحق ورجال الاصلاح ، وتحت أنظارهم الامثال الحسية على قيمة العمل وعلو الهم فيما يشاهدونه حولهم من المجهودات العظيمة التي تقوم بها الامم العزيزة القوية ؟ ان المريض وان اشتد به المرض قد يجد الى الشفاء سبيلا باتباع أوامر الطبيب والعمل بارشاده . فلماذا لا تطلب هذه الامة شفاءها في القرآن الذي ما فرط الله فيه من شيء ففيه شفاء للناس ؟ ولم لا تستوضح ما أشكل عليها من سنة الرسول (ص) والمأثور عن السلف الصالح ؟ كل ذلك ميسور لها سهل عليها . بل ما الذي يمنعها من الاصغاء لنداء أهل الحق والاصلاح الذين يمن الله تعالى بهم على المسلمين من وقت الى آخر رحمة بهم اذا اشتدت الحاجة اليهم وزاد الكرب وضاع اللب وبلغت الروح التراقي ؟ لقد رزق الله الامة الاسلامية من هؤلاء في أقل من نصف قرن ثلاثة أقطاب كل واحد منهم يكفي للنهوض بالامة واسعادها لو وجدوا منها سميعا وناصرا ومطيعا . انه قضى منهم اثنان وها هو ذا الثالث يقرع بالحجة ويصدع بالحق تسعة عشر عاما فهل وزن قوله بميزانه وعرف له حتى الآن قدره ؟ ان صوت المنار هو حجة الله الناطقة في الناس في هذا العصر وأنه وان ضاع حتى الآن بين أهل هذا الزمان فانه لا يضيع عند الله ولا في مستقبل الازمان

افلا ينظر المسلمون الى حالتهم ويرجعون الى أنفسهم ليجدوا أنهم ضلوا ضلالا بعيداً ! وهل شيء أدل على ضعف دينهم وانحلال قوتهم من قيام قسيس في هذين اليومين يطعن في السنة وأشهر رواتها وحملتها و ينشر شبهته في مجلة سيارة و يدعو الى الرد عليها ثلثمائة مليون من المسلمين ؟

فأي برهان على فقر الامة من الرجال أقوى وأظهر من سكوت علمائها عن رد مزاعمه وابطال شبهاته سوى رجل الاصلاح الاوحد ناصر الاسلام السيد الامام ؟ ان القسيس ماكان ليتحدى برسالته صاحب المنار فهو يعرف من هو، وكان يتمنى طبعا لو لم يرد عليه بحرف واحد. فهل الامة كلها صاحب المنار؟ وهل عدم المسلمون وهم يعدون بمئات الملايين من يستطيع ابطال الشبهة ورد الفرية سواه؟ قد يكون ذلك صحيحا وياللاسف وقد لا يكون صحيحا . ولكن الذي يلزم الاعتراف به هو ان الامة سكتت لمن ادعى انه هدم الاصل الثاني من اصول دينها وهو السنة النبوية وقد وقف أمامها يدعوا افرادها كافة الى الكلام، و يطلب منهم وهو فرد ضعيف الخروجَ جميعا الى الميدان ! فهل نصدق بعد هذا دعاوي من تصدروا لارشاد الامة وسموا أنفسهم رجال الدين وائمته؟ وهل يغتر الغافلون بتظاهر أهل العمائم والفرجيات من علماء هذا الزمان بالتقوى والصلاح والغيرة على الدين والعمل لمصلحة المسلمين؟ ألا ليت شعري بما ذا يعللون سكوتهم وقد وجب النطق واستنصر الحق؟ و باي شيء يؤولون اهمالهم فريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهم اولى الناس باقامتها ؟ لاجواب على ذلك الا ان الهمم مصروفة الى غير تلك السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل

لم تفقد الامة الاسلامية استعدادها للعمل فقدا تاما اذ هي لاتخلو من استعداد لقبول دعوة الخير الى حد ما والا لكانت شرا محضا . ولا يوجد في الكون محض شر والا لزال على الفور. فالذي نشكوه وعناه السيد الامام هو ضعف الاستعداد لا فقده تماما. وانما ترفض الامة الضعيفة الاستعدادِ دعوةَ الحق ولا تلبيها في وقتها لقصر في النظر وقلة في الفهم ، وضعف في القلب . وليست معذورة في ترك العمل لضعف استعدادها وحرمانها من الزعيم أو الزعماء كما تقدم ، فان ذلك الضعف وذلك الحرمان منها وهي التي ولدتهما كما تلد الام ولدها

ألا ان الاستعداد لا يوجد في الامة من نفسه ولا يوهب لها كما يوهب المتاع. ولكن الامة هي التي توجده بتمهيد الاسباب له كما ان وجود الزعماء تابع لحركة الحياة فيها، فهم أبناؤها وهي التي تلدهم. فالامة هي التي توجد استعدادها كما تلد زعماءها، وقد يكون الزعيم موجودا وهي لا تراه لعلة في باصرتها أو بصيرتها فاذا زالت العلة بتقوية الاستعداد للاصلاح والتوجه لطلبه وجدته بين يديها وأمام عينيها

فالامر كله راجع الى الامة وهي التي عليها أن تحضر الدواء وهي التي عليها أن تتعاطاه. فهي المريض ومنها الطبيب. وبعبارة ثانية أن الامة متى وجد فيها الاستعداد للحياة أوجدت طبيبها واستعدت لقبول دوائه، فهي المطالبة باعداد الطبيب أو الاطباء وهي المطالبة بتجهيز الدواء وباستعماله في مقاومة الداء. انها هي المطالبة وحدها باقامة فريضة «الامر بالمعروف والنهي عن المنكر» فان عجزت فقد عجزت عن الحياة ولا دواء ولا شفاء

لست أعني بهذا اني يئست من حياة هذه الامة، بل مرادي أن أقول ان حياتها لا تكون الا في العمل بهذه الفريضة التي هي العلاج الوحيد لمرضها.

انه ما كان للسيد الامام وهو طبيب الامة الاوحد أن يباشر علاجها الا من هذا الطريق الطبيعي الامين، وان يستعمل سلاحا لقطع عرق الفساد من أصوله غير ذلك السلاح الماضي. فلقد أحيا هذه الفريضة ونصرها بلسان المنار الذي أنشأه وبلسانه على منابر الخطابة وفي الجمعيات والحفلات وفي مجالسه العامة والخاصة وقد ربى المنار رجالا يحبون الاصلاح ولكنه على ارتفاع صوته وعظم قوته المستمدة من قوة الحق لا يزال عدد من رباهم قليلا واستعدادهم ناقصا. ولا يدل ذلك على تقصير المنار بل هو علامة على استفحال الداء في جسم الامة. ولما رأى الرجل زاده الله علما وهدى أن تيار الفساد يشتد اشتدادا، وأعوان الضلال وأولياء الشيطان يزدادون ازديادا، أدرك أن الامر يقضي بتربية فئة من المسلمين تربية علمية أخلاقية دينية عصرية ليجعل منهم سدا امام ذلك السيل الجارف الذي ينذر بأمر خطير وشر مستطير. انه أراد بتأسيسه [جمعية الدعوة والارشاد] أن يهب الامة كنزا ثمينا لا نفاد له لتأخذ منه على الدوام حاجتها من الرجال القادرين على اقامة

هذه الفريضة التي لاقوام لها بدونها .

انه كان حقيقا بالمسلمين وقد أصبحوا على حافة الهاوية ان يشتروا حياتهم باحياء هذا المشروع . ان الحياة أغلا من ان تقوّم بمال ، فهل كثر على المسلمين ان يشتروا حياتهم بفلس لو قُسّم على كل فرد منهم ما أصاب الفرد بارة واحدة ؟ انهم بخلوا بهذه الدريهمات ولذلك مات المشروع فماتت بموته آمال عظام. انه مات صدقا ولكن ذلك لا يفزعنا فسيخلقه الله خلقا جديدا وما ذلك عليه بعزيز . نعم مات المشروع بعد ان عاش أربع سنين عيشة مضطربة، ولكنه سيعود باذن الله تعالى على أيدي أناس آخرين جديرين باحراز فخر القيام به. انه مات ولكنه في الحقيقة لم يمت، فقد مات بشكله الذي انشئ عليه وعاد للحياة بعد تحوير في شكله الاول بقدر ماسمحت به الوسائل لصاحبه وسيبقى ما شاء الله تعالى حاكما على الامة بالضعف وللاستاذ بعلو الهمة والاخلاص. مات المشروع ليحيا المشروع . مات وحقيقة الامر انه حي لانه من الحق والحق لا يموت ابدا . ليكن مات في الظاهر ولكن صاحبه بفضل الله لم يمت وسيبقى بتوفيق الله تعالى بالرغم من حسد الحاسدين سيفا مسلولا فوق رقاب المفسدين ، وحجة لله تعالى على المجرمين ،

ليس غرضي الآن ان أعود فادعوكم الى نصرة المشروع وقد رفضتم الدعوة من قبل وما أغنتكم النذر ، وانما أدعوكم الى اقامة فريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » فانظروا ماذا أنتم صانعون . اني أطالبكم باقامة هذه الفريضة التي لا مجال فيها للتأويل، ولا للقال والقيل ، انه في اقامة هذه الفريضة علاجكم الوحيد فلا يصح ان تتوانوا في طلبه والا فقدتم حياتكم .

ان الحالة وان اشتدت وتعاظمت لا يجوز ان ييأس باشتدادها المؤمنون ، فانه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

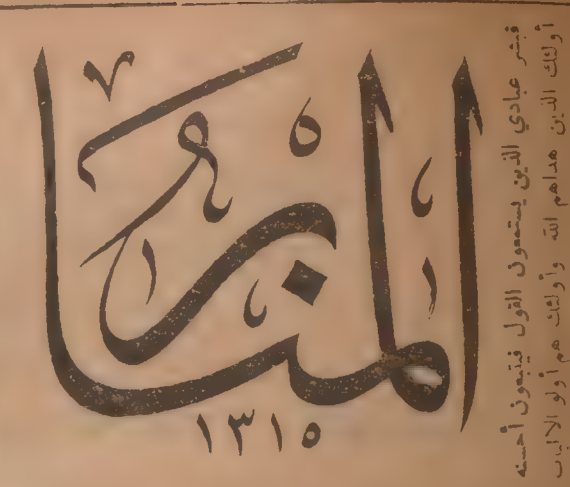
نعم انكم قطعتم في سبيل الضلال شوطا بعيدا وسقطتم في مهواة الخيبة والخسران سقوطا شديدا ، وصرتم أحط أهل الشرق والغرب ، وضجت من أعمالكم الارض واستغاثت السماء وغضب الرب ، ولكن العلاج لازال ممكنا وطريق السلامة أراه مفتوحا آمنا . ولا يعوزكم الا السرعة في العمل ، قبل ضياع الامل . فان نار الشهوات

والهوى التي أحرقت أجسامكم وأرواحكم تكاد تأكل مابقي من رمق فيكم، فاحفظوا هذا الرمق وانجوا بأنفسكم والا هلكتم كما هلك من كان قبلكم وما أنتم بمعجزين .

يؤلمني انه اذا دعا المسلمين داع لا يعرفون من المقصود منهم بالكلام فكل ينتحل لنفسه الاعذار ويرى انه غير معني بقول ولا مكلف بعمل ! ذلك بأنه لا جامعة تجمعهم ولا سائل ولا مسؤول ! ولكن الله يعلم ورسوله وملائكته وأهل الحق يعلمون ان لا وظائف في الاسلام ولا رسوم ، فكل مسلم مخاطب بكلمة الحق مطالب بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والامة كلها متضامنة في مسؤولية الرضاء بالحالة الحاضرة ، وعلى ذلك فأنا أوجه خطابي الى الامة جميعها ، وأعني به كل فرد من أفرادها . واقصد بنوع خاص أهل العقل والفهم الذين لهم آذان يسمعون بها وقلوب يفقهون بها ، اني أدعو هذه الامة الى اقامة فريضة « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » وأخاطب في شخصها المسلمين كافة صغيرهم وكبيرهم سواء منهم المعمم والمطربش ، الكبير والحقير ، الغني والفقير ، التاجر والصانع ، صاحب الملك والمزارع ، الخاصي والعامي ، البدوي والحضري ، العربي والعجمي ، اني اطالبكم جميعا باقامة هذه الفريضة فان أجبتم فان الله يعدكم من لدنه مغفرة وأجرا عظيما وان يرفع عنكم هذا البلاء ، ويفيض عليكم رزقا ورحمة من السماء ، وان تولوا فحسبكم ما أنتم فيه جزاء في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى

أدعوكم أيها المسلمون الى اقامة هذه الفريضة ولا أخيركم بين اجابة الدعوة ورفضها لانه ما كان لي أن أخيركم بين الصحة والاعتلال ، والهدى والضلال . ولكم فيما عدا ذلك أن تعددوا وسائل العمل بحسب ما يروق لكم . ولكن ذلك لا يمنعني أن أكرر النصح لكم بأن أقرب الطرق الى اقامتها على وجهها هو تنفيذ مشروع [الدعوة والارشاد] الذي دعوتكم الى تعضيده في رسالتي الماضية . فان كنتم في ريب منه فأتوا بمشروع خير منه أو مثله للقيام بهذا الواجب الاكبر ، وتخليص الامة من هذا الكرب العظيم ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا وان تفعلوا فاعلموا أن مادعاكم اليه امامكم هو الحق المبين واني لم أكن في ترديد دعوته غير ناصح أمين .

نشرنا هذه الرسالة ومنشيء المنار قد ذهب الى اداء فريضة الحج فنوجه اليها نظر المسلمين ونخص صاحب (الانتقاد على المنار) ص ١٩٠ ج ٣ صالح رضا



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٢٩ ذي الحجة ١٣٣٤ — ٤ العقرب (خ ٢) ١٢٩٥ هـ ش ٢٧ اكتوبر ١٩١٦

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

---

(٢٠) اَلَّذِينَ آتَيْنٰهُمُ الْكِتٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ،
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيٰتِهِ ؟ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظّٰلِمُونَ (٢٢) وَيَوْمَ
نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ
كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٣) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللّٰهِ رَبِّنَا
مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٤) أُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

روي ان قريشا أرسلت الى المدينة من سأل اليهود عن النبي (ص) ورجعوا الى مكة فزعموا ان اليهود قالوا ليس له عندنا ذكر . فلما صار لهم عهد باليهود كان مما رد الله تعالى به عليهم في هذه السورة قوله بعد ماتقدم من الحجج ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ أي يعرفون محمداً النبي الامي خاتم الرسل (ص) كما يعرفون أبناءهم لان نعته في كتبهم واضح ظاهر . وقد تقدم نص هذه الجملة في سورة البقرة كآيات أخرى في معناها و بينا في تفسيرها مايؤيدها من شواهد التوراة والانجيل . ثم بين تعالى علة انكار المكابرين منهم لما يعرفونه من أمر نبوته (ص) فقال ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون ﴾ قيل ان « الذين » هنا بيان للذين الاولى أو بدل منها ، ويجوز ان يكون مبتدأ ، أي الذين خسروا أنفسهم منهم فهم لا يؤمنون به بل يكفرون كبرا وعنادا فهم لذلك ينكرون ما يعرفون . وقد بينا قريبا معنى هذه الجملة إذ وردت بنصها في الآية الثالثة عشرة من هذه السورة والعهد بها قريب ، وموقعها هنا ان علة أنكار من أنكر نبوة محمد (ص) من علماء اليهود كعلة انكار من أنكرها من المشركين بعد ظهور آياتها وأنكر ما هو أعظم منها وأظهر وهو وحدانية الله تعالى ، وهي أنهم خسروا أنفسهم فهم يؤثرون ما لهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم ، على الايمان بالرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم ، لعلمهم بأن هذا الايمان يسلبهم تلك الرياسة ويجعلهم مساوين لسائر المسلمين في جميع الاحكام ، وكذلك كان بعض رؤساء قريش يعز عليه ان يؤمن فيكون مرءوساً وتابعا [ليتيم أبي طالب] فكيف وهو يكون بعد ذلك مساويا لبلال الحبشي وصهيب الرومي وغيرهم من فقراء المسلمين ، فخسران هؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية لانفسهم هو من قبيل ضعف الارادة لا من نوع فقد العلم والمعرفة لان الله تعالى أخبر انهم على معرفة صحيحة في هذا الباب . وروي ان خسران النفس هنا عبارة عن خسرانها في الآخرة فقط بخسران أمكنتهم التي كانت معدة لهم في الجنة لو آمنوا بالرسول واعطائها للمؤمنين ، ولما كان هذا الخسران أعظم ظلم ظلم به هؤلاء الكفار أنفسهم قال تعالى فيهم

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ ﴾ أي لا أحد، أظلم ممن افترى على الله كذبا كزعم من زعم ان له ولدا أو شريكا أو ان غيره يدعى معه أومن دونه ويتخذ وليا له يقرب الناس اليه زلفى ويشفع لهم عنده، أوزاد في دينه ماليس منه – أو كذب بآياته المنزلة كالقرآن المجيد ، أوآياته الكونية الدالة على وحدانيته والتي يؤيد بها رسله ، واذا كان كل من هذا التكذيب وذلك الكذب والافتراء يعد وحده غاية في الظلم ويطلق على صاحبه اسم التفضيل فيه فكيف يكون حال من جمع بينهما فكذب على الله وكذّب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة ؟

ثم بين سوء عاقبة الظالمين فقال ﴿ انه لايفلح الظالمون ﴾ هذا استئناف بيانيّ وقع موقع جواب السؤال أي الحال والشأن ان الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله تعالى ولا بنعيم الجنة مهما يكن نوع ظلمهم ، فكيف تكون عاقبة من وصف بأنه لا أحد أظلم منه لافترائه على الله تعالى أو لتكذيبه بآياته ؟ ثم كيف تكون عاقبة من جمع بين هذين الامرين الاقبحين فكان أظلم الظالمين ؟

الآية نزلت في الكافرين فلهذا يغفل الناس عن صدقها على من كذب على الله تعالى وهو يسمي نفسه أو يسميه الناس مؤمنا أو مسلما ، كأن يقول بقول أولئك المشركين فيتخذ غير الله وليا ويدعوه ليشفع له عنده ، أويزيد في دين الله برأيه فيقول : هذا واجب، وهذا حلال وهذا حرام فيما لم ينزل الله به وحيا ولا كان مما بلغه رسوله (ص) من دينه

ثم بين تعالى مافي نفي الفلاح من الاجمال فقال ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ﴾ أي واذكر لهم أيها الرسول يوم نحشرهم جميعا على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم بأنواعه وظلم غيرها بأنواعه ثم نقول للذين أشركوا منهم وهم أشدهم ظلما : أين الشركاء الذين كانوا يضافون اليكم لاتخاذكم اياهم أولياء فيكم الذين كنتم تزعمون في الدنيا انهم شركاء الله يُدعَون ويستعانون كما يدعى ويستعان، وانهم يقربونكم الى الله زلفى ويشفعون لكم عنده؟

فأين ضلوا عنكم فلا يرون معكم ؟ كما قال في آية أخرى (٦ : ٩٥ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وقد قرأ يعقوب (يحشرهم جميعا ثم يقول) بالياء والمعنى ظاهر . والاستفهام للتوبيخ والاحتجاج

﴿ ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وحفص « لم تكن فتنتُهم » بالتاء والرفع ، ونافع وأبو عمر وأبو بكر عنه بالتاء والنصب ، والباقون « لم يكن فتنتَهم » بالياء والنصب. ولا فرق بين هذه القراآت في المعنى فان بعضها يقدم اسم تكن عليها و بعضها يؤخره . و بعضهم يذكّر الفعل و بعضهم يؤنثه ، وكل ذلك جائز في العربية . وقرأ حمزة والكسائي « ربَّنا » بالفتح على النداء أي يا ربنا . والباقون بالجر على الصفة . والفتنة الاختبار وفسرت هنا بالقولة والكلام والجواب و بالشرك، وقدر بعضهم مضافا محذوفا فقال : ان المعنى ثم لم تكن عاقبة هذا الاختبار أو الشرك الا اقسامهم بالله يوم القيامة إنهم ما كانوا مشركين . ظاهر الآية انهم ينكرون في بعض مواقف الحشر شركهم بالله توهما منهم ان ذلك ينفعهم أي و يعترفون به في بعضها كما يعلم من آيات أخرى ، واستشكل بعض المفسرين هذا المعنى ، واحتجوا بأن الانكار في القيامة متعذر و بأن اعترافهم بالشرك ثابت في بعض الآيات كقوله تعالى حكاية عنهم (١٦ : ٨٧ هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) وقوله (٤ : ٤٢ ولا يكتمون الله حديثا) وروي أن ابن عباس سئل عن الآية وعن قوله تعالى (ولا يكتمون الله حديثا) فقال : أما قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فانهم لما رأوا انه لا يدخل الجنة الا أهل الاسلام فقالوا تعالوا لنجحد (قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم (ولا يكتمون الله حديثا) وذهب بعضهم الى ان المعنى ما كنا مشركين في اعتقادنا لاننا ما كنا ندعو غيرك استقلالا بل توسلا اليك ليكون من ندعوهم شفعاء لنا عندك يقربوننا اليك زلفى ، لاننا كنا نستصغر أنفسنا ان تتسامى الى دعائك كفاحا بلا واسطة وما هذا الا تعظيم لك . وقد أورد على هذا التفسير انه لا يلتئم

مع قوله بعد هذه الحكاية عنهم ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ وأجيب عن الايراد بأن المراد أنهم كذبوا على أنفسهم في دار الدنيا بزعمهم انهم اتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله وأن هذا تعظيم لله لا كفر به . ويرد هذا القول تصريح مشركي قريش بأن ما كانوا عليه شرك ولكن بعضهم كان يرى أنه لا بأس به لانه بمشيئة الله ، وهؤلاء كجبرية المسلمين ، وقد أنكر القرآن عليهم هذه الشبهة في قوله من هذه السورة (وقال الذين أشركوا لو شاء ما أشركنا) الخ نعم ان كثيرا ممن يسمون مسلمين يدعون غير الله تعالى حتى في حال الشدة والضيق التي كان مشركو العرب يخلصون فيها الدعاء لله تعالى ولكنهم لا يسمون هذا شركا كما كان يسميه المشركون بل توسلا أو استشفاعا أو وساطة

وقوله تعالى هنا « أنظر » من النظر العقلي ؛ وكذب الكفار في الآخرة ثابت بمثل قوله تعالى (٥٨ : ١٩ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا انهم هم الكاذبون)

قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه الا من وقف على معاني كلام العرب ، وذلك أنه تعالى بين كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين في حبه ، فذكر أن عاقبة كفرهم — الذي لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه وافتخروا به وقالوا إنه دين آبائنا — لم تكن الا الجحود والتبرؤ منه والحلف على عدم التدين به . ومثاله أن ترى انسانا يحب شخصا مذموم الطريقة فاذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له : ما كانت محبتك — أي عاقبة محبتك — لفلان الا أن تبرأت منه وتركته . فعلى هذا تكون فتنتهم هي شركهم في الدنيا كما فسرها ابن عباس ، ولكن لا بد من تقدير مضاف وهو العاقبة .

---

(٢٥) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاؤُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

(٢٦) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

كان المشركون أصنافا متفاوتين في الفهم والعقل وفي الكفر وأسبابه، وقد بين الله أحوال كل فريق منهم في كتابه فمنهم أصحاب الذكاء واللوذعية الذين كانوا يسمعون هذا القرآن و يعقلون أنه لا يمكن أن يكون من كلام محمد (ص) ولا هو بالذي يستطيع الاتيان بمثله في نظمه وفصاحته و بلاغته ، ولا في علومه وحكمه ومعارفه ، اذ لو كان مثله مما تصل اليه قدرته لظهر على لسانه شيء من مثله أو ما يقرب منه فيما مضى من حياته – وهو أربعون سنة ونيف – . وقد أمره الله تعالى أن يقيم عليهم هذه الحجة بقوله (١٠ :١٧ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) وما كان كفر أمثال هؤلاء الا عن كبر وعناد ومكابرة للحق. ومنهم من كان يعرض عن سماع القرآن خشية أن يؤثر في قلبه ، و ينتزعه من الدين الذي ألفه طول عمره ، ومنهم من كان يصغي سمعه الى القرآن بقصد الاكتشاف والاختبار ، ولكنه لا يعقل المراد منه ، ولا يفقه حججه و بيناته ، إما لعدم توجه ذهنه الى ذلك لعراقته في التقليد والانس بما درج عليه الآباء وهو الاكثر ، و إما للبلادة وانحطاط الفكر عن التسامي الى هذه المعارف العالية فيه ، وكان هذا قليلا في العرب ولاسيما أهل مكة وهم أفصح قريش التي هي أفصح العرب . وقد بين الله تعالى حال هذا الفريق الذي لم يكن حظه من الاستماع الى النبي (ص) الا كحظ النعم من سماع أصوات البشر فقال ﴿ ومنهم يستمع اليك ﴾ أيها الرسول اذا تلوت القرآن داعيا الى توحيد الله منذرا يوم القيامة ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ﴾ أي وجعلنا على آلة الفهم والإدراك من أنفسهم -- وهي قلب الانسان ولبه أغطية حائلة دون فقهه ، ونفوذ الافهام الى أعماق علمه ، وفي آذانهم وقرا أي ثقلا أو صمما حائلا دون سماعه بقصد التدبر واستبانة الحق منه . ومعنى هذا الجعل ما مضت به سنة الله الله تعالى في طباع البشر من كون التقليد الذي يختاره الانسان لنفسه يكون مانعا له باختياره من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق ، فهو لا يستمع الى متكلم

ولا داع لاجل التمييز بين الحق والباطل ، واذا وصل الى سمعه قول مخالف لما هو دين له أو عادة لايتدبر ولا يراه جديرا بأن يكون موضوع المقابلة والتنظير مع ما عنده من عقيدة أو رأي أو عادة . وجعل الاكنة على القلوب والوقر في الآذان في الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية ، بالحجب والموانع الحسية ، فان القلب الذي لايفقه الحديث ولايتدبر كالوعاء الذي وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لايدخل فيه شيء ، والآذان التي لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالاذان المصابة بالثقل أو الصمم لان سمعها وعدمه سواء . والاكنة جمع كنان كالاسنة جمع سنان ، والوقر بالفتح الثقل في السمع والصمم وبالكسر الحمل، يقال وقر سمعه يقره فهو موقور، اذا كان لا يسمع ، وأوقر الدابة فهي موقرة

﴿ وان يروا كل آية لايؤمنوا بها ﴾ يقول الله تعالى في هؤلاء الذين لايسمعون ما يتلو عليهم الرسول سماع تدبر ولا يفقهون كنه ما يدعو اليه : وان يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك وحقية ماتدعو اليه لايؤمنوا بها لانهم لايفقهونها ولا يدركون كنه المراد منها ، لوقوف اسماعهم عند ظواهر الالفاظ ﴿ حتى اذا جاؤك يجادلونك ﴾ أي حتى اذا صاروا اليك أيها الرسول مجادلين لك في دعوتك ﴿ يقول الذين كفروا : ان هذا الا أساطير الاولين ﴾ أي يقولون لاصرارهم على كفرهم وانتفاء فقههم: ما هذا القرآن الا أساطير الاولين من الامم ، أي قصصهم وخرافاتهم . يعني انهم لا يعقلون مما في القرآن من أنباء الغيب في قصص الامم مع رسلهم الا أنها حكايات وخرافات تسطر وتكتب كغيرها ، فلا علم فيها ولا فائدة منها ، وربما جعلوا القرآن كله من هذا القبيل ، قياسا لما لم يسمعوا على ما سمعوا ، أو لغير القصص على القصص . وهكذا شأن من ينظر الى الشيء نظرا سطحيا لا ليستنبط منه علما ولا برهانا ، ويسمع الكلام جرسا لفظيا لايتدبره ولا يفقه أسراره ، فمثل هذا وذلك كمثل الطفل الذي يشاهد ألعاب الصور المتحركة يديرها قوم لا يعرف لغتهم فكل حظه مما يرى من المناظر ومن المكتوبات المفسرة لها لا يعدو التسلية . ولو عقل هؤلاء المقلدون الغافلون قصص القرآن وتدبروا معانيها

لكان لهم منها آيات بينة على صدق دعوة الرسول (ص) ونذر عظيمة مما فيها من بيان سنن الله تعالى في الامم، وعاقبة أمرهم مع الرسل، وغير ذلك من الحكم والعبر.

وان في أهل هذا العصر من لايفكر في إتيان الامي الناشئ بين الاميين بخلاصة أخبار أشهر الرسل مع أقوامهم لانه يرى أو يسمع ان ما في القرآن من ذلك يشبه ما في غيره من كتب اليهود والنصارى وكتب التاريخ ولا يرى في هذا ما يبعثه الى البحث في الفرق بين مافي القرآن وما في غيره وهو من وجوه أهمها في باب اثبات نبوته (ص) كونه ظهر على لسان رجل أمي لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ، وقد احتج بهذا على قومه فلم يستطع أحد ممن انتصبوا لعداوته ان يرفع في الانكار عليه رأسا أو ينبس في الرد عليه بكلمة، (١١: ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا)

فاذا كان في أهل هذا العصر من لايفكر في هذه الآية البينة على نبوة محمد (ص) وهي خاصة بقصص القرآن لما ذكرنا من السبب، ومن لا يفكر في إعجاز القرآن ببلاغته بعد ان عاش النبي ثلثي عمره قبله ولم يكن في كلامه ما هو معجز — فان كفار قريش لم يكونوا يستطيعون انكار كون محمد (ص) كان أميا مثلهم وانه لم يكن يعرف شيئا من أخبار الرسل مع أقوامهم، ولا كان ممتازا بالبلاغة والفصاحة فيهم، ولكن كان بعضهم يجهل ما يعرفه أهل هذا العصر من كون تلك القصص كانت صحيحة لا من أساطير الاولين وأوضاعهم الخرافية التي لا يثبت لها أصل. ولاجل هذا سأل بعضهم اليهود عنها. كما كان بعضهم يجهل مافيها من الآيات والعبر لعدم تدبرها،

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: الاسطارة لغة الخرافات والترهات، وهي التي تجمع على أساطير، وقال الاخفش واحد الاساطير أسطورة

﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ ضمير «وهم» عائد الى المشركين المعاندين للنبي (ص) الجاحدين لنبوته الذين ورد هذا السياق بطوله فيهم. لا الى الفريق الذي ذكر أخيرا في قوله «ومنهم من يستمع اليك» والمعنى انهم ينهون الناس عن سماع القرآن من النبي (ص) وينأون أي يبعدون عنه ليكونوا ناهين منتهين.

وتنأي عنه يشمل الاعراض عن سماعه والاعراض عن هدايته . وقيل ان المعنى ينهون عن النبي (ص) أي ينهون العرب عن حمايته ومنعه وعن اتباعه والسماع له جميعه ويبعدون عنه بعد جفاء وعداوة ﴿ وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وما يهلكون بذلك الا أنفسهم وما يشعرون بذلك بل يظنون انهم يقضون عليه صلوات الله وسلامه عليه. وهذا من معجزت القرآن واخباره بالغيب فقد هلك جميع الذين اصروا على عداوة الرسول (ص) بعضهم بالنقم الخاصة وبعضهم في بدر ثم في غيرها من الغزوات ، ويلي هذا الهلاك الدنيوي هلاك الآخرة ، ولفظ الآية يشملهما وهو في هلاك الدنيا أظهر

يقول صالح رضا : وقع اغلاط في رسالة المناسك التي طبعناها على حدة ثم نشرناها في الجزء الرابع من المجلد ١٩ وقد طبعت الكراسة (الملزمة) الاولى ليلا من غير أن يطلع عليها صاحب المنار فجاء فيها غلط في السطر الـ ٥ و ٦ من الصفحة الـ ٤ ونشر في المنار كما هو لذلك وضعنا جدولين للخطإ والصواب هنا وهاهما :

جدول الاغلاط الموجودة برسالة المناسك المطبوعة على حدة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٥و٦	أو اطعام الخ السطر الـ ٦	بحذف
٧	١	حل	حمل
٧	١٢	عيه	عليه
٩	١٢	عته	عنه
١١	١١	تثنيتها	تثنيتهما
١١	٢	قان	فان
١٤	٨	لرفة	لعرفة
١٤	١٧	بمزدلفة	بمزدلفة
«	١٩	قاذا	فاذا
١٥	١	يديه	يده
١٧	١٢	وتقوله	وتقول
٣٢	٣	عيونك	عيناك

اصلاح غلط في الجزء الرابع م١٩ من المنار

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢١٤	١٩	أو طعام الخ	حذف جميع السطر الـ ١٩
١٧٣	٢	حل	حمل
٢٢٣	٥	بمزدلفة	بمزلفة
«	١٠	يديه	يده

فوائد شتى (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالحديث الصحيح

قال السندي في حواشيه على فتح القدير من كتب الحنفية : الحديث حجة في نفسه ، واحتمال النسخ لا يضر فان من سمع الحديث الصحيح فعمل به وهو منسوخ فهو معذور الى ان يبلغه الناسخ ، ولا يقال لمن سمع الحديث الصحيح : لايعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وفلان ، فانما يقال له : انظر هل هو منسوخ أم لا . أما اذا كان الحديث قد اختلف في نسخه فالعامل به في غاية العذر ، فان تطرق الاحتمال الى خطإ المفتي أقوى من تطرق الاحتمال الى نسخ ما سمعه من الحديث. قال ابن عبد البر: يجب على كل من بلغه شيء أن يستعمله على عمومه حتى يثبت عنده ما يخصصه أو ينسخه، وأيضا فان المنسوخ من السنة في غاية القلة حتى عده بعضهم احدا وعشرين حديثاً ، واذا كان العامي يسوغ له الاخذ بقول المفتي بل يجب عليه مع احتمال خطإ المفتي كيف لا يسوغ له الاخذ بالحديث اذا فهم معناه وان احتمل النسخ ، ولو كانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسوغ العمل بها بعد صحتها حتى يعمل بها فلان وفلان لكان قولهم شرطا في العمل بها وهذا من أبطل الباطل ، وقد أقام الله تعالى الحجة برسوله صلى الله عليه وسلم دون آحاد الامة ولا يعرض احتمال الخطإ لمن عمل بالحديث وأفتى به بعد فهمه الا وأضعاف أضعافه حاصل لمن أفتى بتقليد من لا يعلم خطؤه من صوابه ويجري عليه التناقض والاختلال ويقول القول ويرجع عنه ويحكى عنه في المسألة عدة أقوال

وهذا كله فيمن له نوع أهلية أما اذا لم يكن له أهلية ففرضه ما قال الله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) واذا جاز اعتماد المستفتي على ما يكتبه له المفتي من كلامه أو كلام شيخه وان علا فلأن يجوز اعتماد الرجل على ما كتبه الثقات من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بالجواز ولو قدر أنه لم يفهم

(*) من جمع الشيخ أحمد شاكر بن الشيخ محمد شاكر والحواشي والعناوين من وضع صاحب المنار

الحديث فكما لو لم يفهم فتوى المفتي يسأل من يعرفها فكذلك الحديث . انتهى كلام السندي ملخصا وقد أطال من هذا النفس العالي رحمه الله تعالى ورضي عنه

الفقه في الدين والاجتهاد

قال الامام تقي الدين ابن دقيق العيد من أئمة الشافعية في خطبة [شرح الالمام] كما نقله عنه السبكي في طبقاته في ترجمته : ان الفقه في الدين منزلة لا يخفى شرفها وعلاها ، ولا تحتجب عن العقول طوالعها وأضواها ؛ وأرفعها بعد فهم كتاب الله المنزل ، البحث عن معاني حديث نبيه المرسل، اذ بذلك تثبت القواعد ويستقر الاساس ، وعنه يقوم الاجماع ويصدر القياس ، لكن شرط ذلك عندنا أن يحفظ هذا النظام ، ويجعل الرأي هو المأموم والنص هو الامام ، وتردُّ المذاهب اليه ، وتردُ الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه ، واما ان يجعل الفرع أصلا ويرد النص اليه بالتكلف والتحيل ، ويُحمل على أبعد المحامل بلطافة الوهم وسعة التخيل ، ويرتكب في تقرير الآراء الصعب والذلول ، ويحتمل من التأويلات ما تنفر منه النفوس وتستنكره العقول، فذلك عندنا من أردَأ مذهب وأوسأ طريقة، ولا نعتقد أنه يحصل معه النصيحة للدين على الحقيقة ، وكيف يقع أمر مع رجحان منافيه ؟ وأنى يصح الوزن بميزان مالَ أحد الجانبين فيه ؟ ومتى ينصف حاكم ملكته غضبةُ العصبية ، وأين يقع الحق من خاطر أخذته العزّة بالحمية الخ (الفتوى في الاسلام صحيفة ٤٤)

السؤال عما لم يقع

قال الحافظ البيهقي : وقد كره بعض السلف للعوام المسألة عما لم يكن ولم يمض به كتاب ولا سنة ، وكرهوا للمسؤل الاجتهاد فيه قبل ان يقع لان الاجتهاد انما أبيح للضرورة ، ولا ضرورة قبل الواقعة وقد يتغير اجتهاده عند الواقعة فلا يغنيهم ما مضى من الاجتهاد، واحتج في ذلك بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » انتهى (الفتوى في الاسلام صحيفة ٤٥)

معنى حديث ان الله خلق آدم على صورته

سئل أحمد بن عطاء أبو عبد الله الروزبادي المتوفي سنة ٣٦٩ قال الحافظ ابن

عساكر وفي مروياته أحاديث وهم فيها وغلط غلطا فاحشا عن قول النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله خلق آدم على صورته » فقال : ان الله جل ثناؤه خلق الخلق مرتبة بعد مرتبة ونقله من حال الى حال كما قال (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين — الى قوله — فتبارك الله أحسن الخالقين) وخلق آدم ليس على هذه الاحوال وانما خلق صورته كما هي ثم نفخ فيه من روحه فلأجله قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته اه (مختصر تاريخ ابن عساكر جزء ١ صحيفة ٣٩٤)

نشوء علم الفلسفة

قال الامام الذهبي في تذكرة الحفاظ في آخر الكلام على الطبقة السادسة من طبقاتهم : وكان في زمان هؤلاء خلائق من أئمة الحديث ومن أئمة المقرئين كورش واليزيدي والكسائي واسمعيل بن عبيدالله المكي القسط ، وخلق من الفقهاء كفقيه العراق محمد بن الحسن وفقيه مصر عبد الرحمن بن القاسم ، وخلق من مشايخ القوم كشقيق البلخي وصالح المري الواعظ والفضيل والدولة لهرون الرشيد والبرامكة ثم بعدهم اضطربت الامور وضعف أمر الدولة بخلافة الامين رحمه الله فلما قتل واستخلف المأمون على رأس المائتين نجم التشيع وأبدى صفحته وبزغ فجر الكلام وعربت حكمة الاوائل ومنطق اليونان وعمل رصد الكواكب ونشأ للناس علم جديد مردٍ مهلك لا يلائم علم النبوة ولا يوافق توحيد المؤمنين قد كانت الامة منه في عافية ، وقويت شوكة الرافضة والمعتزلة وحمل المأمون المسلمين على القول بخلق القرآن ودعاهم اليه فامتحن العلماء فلا حول ولا قوة الا بالله ؛ ان من البلاء أن تعرف ما كنت تنكر وتنكر ما كنت تعرف ، وتقدم عقول الفلاسفة ويعزل منقول اتباع الرسل ، ويمارى في القرآن ويتبرم بالسنن والآثار وتقع في الحيرة ، فالفرار الفرار قبل حلول الدمار واياك ومضلات الاهواء ومجاراة العقول ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم (تذكرة الحفاظ جزء ١ ص ٣٠٠)

كتاب المهذب للذهبي

وجدت بدار الكتب المصرية كتاب [المهذب] للذهبي بخطه وعلى ظهر الجلد

الاول مانصه بخطه رحمه الله تعالى ,, المجلد الاول من كتاب المهذب في اختصار السنن الكبير تأليف الامام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي رحمه الله تعالى اختصار كاتبه محمد بن أحمد بن عثمان ابن الذهبي غفر الله له،، وتحت ذلك بخطه رضي الله عنه أيضا ما نصه .

,, قال ابن الذهبي : لم أختصر من أحاديث الكتاب شيئا بل اختصرت الاسانيد فان بها طال الكتابُ ، وبقيت من السند ما يُعرف به مَخرج الحديث وما حذفتُ من السند الا ما قد صح الى المذكور فاما مُتونه فأتيتُ بها الاّ في مُواضع قليلة جدًّا من المكرر قد أحذفها اذا قرُب البابُ من الباب وآتي ببعض المتن وقد تكلمت على كثير من الاسانيد بحسب اجتهادي والله الموفق،وقد رمزتُ على الحديث بمن خرّجه من الائمة الستة [خ م د ت س ق] ولم أتمم هذا فان فسح الله في الاجل طالعت عليه الاطراف لشيخنا أبي الحجاج الحافظ ان شاء الله تعالى، وهذا أمر بين هين كل من هو محدث فانه يقدِر على رُمز أحاديث الكتاب من الاطراف وما خرج عن الكتب الستة فقد بينت لك اسنادَه وَمَخرجه فاكشف عليه ان شئت من كُتب الجرح والتعديل، فالرجال ثلاثة اما مُوثق مقبول واما مضعف غير حجة واما مجهول، لكن كل قسم من الثلاثة على مراتب في القوة واللين والجهالة،، انتهى . والنسخة نفيسة جدا كلها بخطه خمسة مجلدات تنقص الثاني والموجود منها أربعة وفق الله لنا من يطبعه وينشره آمين

كتاب الجمع بين الصحيحين

وجدت بدار كتب رواق الاروام بالازهر جزءً من الجمع بين الصحيحين للحميدي وهو السادس وقد أحببت نقل خاتمته لما فيها من النفائس قال رحمه الله تعالى : —

« تم جميع الكتاب بحمد الله وعونه ، نسأل الله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه انه ولي التوفيق وهو على كل شيء قدير وهو حسبي ونعم الوكيل » ثم قال عقب ذلك

« وهذه الاصول تتصل بآخر ما في الصحيحين من مسند الصحابة رضي الله عنهم

وهو آخر ما قصدنا اليه من الجمع بين الصحيحين وتمييز ما اتفقا عليه من المتون المخرجة فيهما وما انفرد به أحدهما منها مستقصى على شرطنا مرتبا على ما بدأنا به وبيناه مع الاختصار المعين على سرعة الحفظ والتذكار ، ولم يبق للباحث المجتهد الا النظر فيها والتفقه في معانيها ومراعاة حفظها واقامة الحجة بها، فالى هذا قصد المتقدمون من أئمة الدين في حفظ اسنادها للمتأخرين لتكون حاكمة بين المختلفين وشواهد صدق لمتناظرين رضي الله عنهم أجمعين ووفق التابعين لهم باحسان الى يوم الدين . فأما اسنادنا في هذين الكتابين فقد روينا كتاب الامام أبي عبد الله البخاري بالمغرب عن غير واحد من شيوخنا بأسانيد مختلفة تتصل بأبي عبدالله محمد ابن يوسف بن مطر الفربري عن البخاري، ثم قرأته بمكة أعزها الله على المرأة الصالحة كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزي غير مرة لعلو اسنادها فيه كأنا قرأناه على أبي ذر عبد بن أحمد الهرَوي عن أبي الهيثم بن المكي بن محمد بن زُرّاع الكشميهني عن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشير بن ابراهيم الفربري عن أبي عبد الله محمد بن اسمعيل البخاري رحمة الله عليه وأما كتاب الامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري فسمعناه بالفسطاط قراءة على الشيخ الصالح أبي عبدالله محمد بن الفرَج بن عبدالولي الانصاري وهو روايته عن أبي العباس أحمد بن الحسن الحافظ الرازي سمعه منه بمكة سنة ست وأربعمائة قال : ثنا أبو أحمد محمد بن عيسى بن عَمرويه بن منصور الجلودي قال : أنا الفقيه أبو اسحق ابراهيم ابن محمد بن سفيان النيسابوري، قال: سمعته من الامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري رضي الله عنه

فصل

«وقد استشرف بعض الطالبين الى معرفة الاسباب الموجبة للاختلاف بين الائمة الماضين رضي الله عنهم أجمعين مع اجماعهم على الاصل المتفق المستبين حتى احتيج الى تكلف التصحيح في طلب الصحيح وقرّبتُ على هذا الطالب معرفة بعض العذر في اختلاف المتأخرين لبعدهم عن المشاهدة وانما تعذّر عليه معرفة الوجه

في اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم مع مشاهدتهم نزول التنزيل وأحكام الرسول صلى الله عليه وسلم وحرصهم على الحضور لديه والكون بين يديه والاخذ عنه والاقتباس منه ؛ وهذا الذي وقع لهذا الطالب الباحث قد وقع لمن قبله الخوض فيه والبحث عنه ، وخرج في هذا المعني بعض الأئمة من علماء الامة فصلا رأينا اثباته ههنا (كذا)[1] هذا الشبه عن هذا الطالب الباحث وعن غيره ممن يخفى ذلك عليه ويتطلع الى معرفة الوجه فيه وبهذا الفصل يتصور (كذا) لك كل[2] صورة وقوع ذلك منهم وكيفية اتفاقه لهم، حتى كانه شاهده معهم »

وهذا أول الفصل المخرج في ذلك أوردناه بلفظ مصنفه رحمة الله عليه: « قال لنا الفقيه الحافظ أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد اليزيدي الفارسي رضي الله عنه في بيان أصل الاختلاف الشرعي وأسبابه »

سبب القول والفتيا بما يخالف القرآن أو السنة

« تطلعت النفس بعد تيقنها أن الاصل المتفق عليه المرجوع اليه أصل واحد لا يختلف وهو ماجاء عن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم اما في القرآن واما من فعله أو قوله الذي لا ينطق عن الهوى فيه لما رأت وشاهدت من اختلاف علماء الامة في ماسبيله واحدة وأصله غير مختلف فبحثت عن السبب الموجب للاختلاف ولترك من ترك كثيرا مما صح من السنن فوضح لها بعد التفتيش والبحث أن كل واحد من العلماء ينسى كما ينسى البشر ، وقد يحفظ الرجل الحديث ولا يحضره ذكره حتى يفتي بخلافه وقد يعرض هذا في آي القرآن

« ألا ترى أن عمر رضي الله عنه أمر على المنبر ألاّ يزاد في مهور النساء على عدد ذكره ميلا الى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزد على ذلك العدد في مهور نسائه حتى ذكرته امرأة من جانب المسجد بقول الله عز وجل (وآتيتم احداهن قنطارا) فترك قوله وقال: كل أحد أعلم منك حتى النساء. وفي رواية أخرى: امرأة أصابت ورجل أخطأ . علما منه رضي الله عنه بأن النبي صلى الله عليه وسلم وان كاد لم يزد

---

(١) ربما سقط من الاصل كلمة هي « لازالة » أو ما في معناها وان « هذا » محرف عن « هذه »
(٢) لعل كلمة « كل » زائدة من النساخ

في مهور النساء فانه لم يمنع مما سواه والآية أعم، وكذلك أمر رضي الله عنه برجم امرأة ولدت لستة أشهر فذكره عليٌّ قولَ الله تعالى (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) مع قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) فرجع عن الامر برجمها وهم أن يسطو بعيينة بن حصن اذ جفا عليه حتى ذكره الحر بن قيس بقول الله عز وجل (وأعرض عن الجاهلين) فأمسك عمر. وقال رضي الله عنه يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله مامات رسول الله ولا يموت حتى يكونَ آخرنا حتى قرئت عليه (انك ميت وانهم ميتون) فرجع عن ذلك، وقد كان علم الآية ولكنه نسيها لعظيم الخطب الوارد عليه فهذا وجه عمدته[1] (كذا) الخلاف للآية أو للسنة بنسيان لا بقصد

«وقد يذكر العامل الآية أو السنة لكن يتأول فيها تأويلا من خصوص أو نسخ أو معنىً ما، وان كان كل ذلك يحتاج الى دليل ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا بالمدينة حوله عليه السلام مجتمعين، وكانوا ذوي معايش يطلبونها وفي ضنك من القوت فمن متحرف في الاسواق ومن قائم على نخله ويحضره عليه السلام في كل وقت منهم طائفة اذا وجدوا أدنى فراغ مما هم بسبيله، وقد نص على ذلك أبو هريرة رضي الله عنه فقال: ان اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالاسواق وان اخواني من الانصار كان يشغلهم القيام على نخلهم وكنت امرأ مسكينا أصحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على مِلءِ بطني. وقد قال عمر رضي الله عنه: ألهاني الصفقُ بالاسواق في حديث استئذان أبي موسى، فكان عليه السلام يُسأل عن المسئلة ويَحكم بالحكم ويأمر بالشيء ويفعل الشيء فيحفظه من حضره ويغيب عن من غاب عنه فلما مات عليه السلام وولِيَ أبو بكر رضي الله عنه كان اذا جاءت القضية ليس عنده فيها نصٌّ سأل من بحضرته من الصحابة فيها فان وجد عندهم نصا رجع اليه والا اجتهد في الحكم فيها، ووجه اجتهاده واجتهاد غيره منهم رضي الله عنهم رجوع الى نص عام أو الى أصل اباحة متقدمة أو الى نوع من هذا يرجع الى أصل، ولا يجوز أن يظن أحد أن اجتهاد أحد منهم هو أن يشرع شريعة

(١) ربما كان الاصل « فهذا وجه ما عمدته الخلاف » الخ

باجتهاده أو يخترع حكما لا أصل له، حاشى لهم من ذلك، فلما ولي عمر رضي الله عنه فتحت الامصار وتفرق الصحابة في الاقطار فكانت الحكومة تنزل بمكة أو بغيرها من البلاد فان كان عند الصحابة الحاضرين لها نص حكم به والا اجتهدوا في ذلك — وقد يكون في تلك القضية نص موجود عند صاحب آخر في بلد آخر — وقد حضر المدني ما لم يحضر المصري وحضر المصري ما لم يحضر الشامي وحضر الشامي ما لم يحضر البصري وحضر البصري ما لم يحضر الكوفي وحضر الكوفي ما لم يحضر المدني

كل هذا موجود في الآثار وتقتضيه الحالة التي ذكرنا من مغيب بعضهم عن مجلسه عليه السلام في بعض الاوقات وحضور غيره ثم مغيب الذي حضر وحضور الذي غاب فيدري كل واحد منهم ما حضره ويفوته ما غاب عنه، وقد كان علم التيمم عند عمار وغيره وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا : لا يتيمم الجنب ولو لم يجد الماء شهرين، وكان حكم المسح على الخفين عند علي وحذيفة ولم تعلمه عائشة ولا ابن عمر ولا أبو هريرة على أنهم مدنيّون، وكان توريث بنت الابن مع البنت عند ابن مسعود وغاب عن أبي موسى، وكان حكم الاستئذان عند أبي موسى وأُبَيّ وغاب عن عمر، وكان حكم الاذن للحائض في أن تنفر قبل أن تطوف عند ابن عباس وأم سلمة ولم يعلمه عمر وزيد بن ثابت، وكان حكم تحريم المتعة والحمر الاهلية عند علي وغيره ولم يعلمه ابن عباس، وكان حكم الصرف عند عمر وأبي سعيد وغيرهما وغاب ذلك عن طلحة وابن عباس وابن عمر؛ وكذلك حكم اجلاء أهل الذمة من بلاد العرب كان عند ابن عباس وعمر فنسيه عمر سنين فتركهم حتى ذكر بذلك فذكره فأجلاهم. ومثل هذا كثير. فمضى الصحابة رضي الله عنهم على هذا

ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم وكل طبقة من التابعين في البلاد التي ذكرنا فانما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة فكانوا لا يتعدون فتاويهم، لا تقليدا لهم، ولكن لانهم أخذوا ورووا عنهم، الا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة رضي الله عنهم، كاتباع أهل المدينة في الاكثر فتاوى ابن عمر، واتباع أهل مكة فتاوى ابن عباس، واتباع أهل الكوفة في الاكثر فتاوى ابن مسعود،

ثم أتى من بعد التابعين فقهاء الامصار كأبي حنيفة وسفيان وابن أبي ليلى بالكوفة وابن جريج بمكة ومالك وابن الماجشون بالمدينة وعثمان البتي وسوار بالبصرة والاوزاعي بالشام والليث بمصر فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد عن التابعين من أهل بلده وتابعوهم عن الصحابة رضوان الله عليهم في ما كان عندهم وفي اجتهادهم فيما ليس عندهم وهو موجود عند غيرهم ولا يكلف الله نفسا الاوسعها. وكل من ذكرنا مأجور على ما أصاب فيه أجرين ومأجور فيما خفي عليه ولم يبلغه أجرا واحدا. قال الله تعالي (لِأُنذركم به ومن بلغ)

وقد يبلغ الرجل ممن ذكرنا نصان ظاهرهما التعارض فيميل الى أحدهما بضرب من الترجيحات ويميل غيره الى النص الذي ترك الآخر بضرب من الترجيحات أيضا كما روي عن عثمان في الجمع بين الاختين: أحلتهما آية وحرمتهما آية. وكما مال ابن عمر الى تحريم نساء أهل الكتاب جملة بقوله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ) وقال: لا أعلم شركا أعظم من قول المرأة ان عيسى ربها. وغلب ذلك على الاباحة المنصوصة في الآية الاخرى، ومثل هذا كثير

فعلى هذه الوجوه ترك بعض العلماء ماتركوا من الحديث ومن الآيات، وعلى هذه الوجوه خالفهم نظراؤهم فأخذ هؤلاء ما ترك أولئك وأخذ أولئك ما ترك هؤلاء، لا قصدا الى خلاف النصوص ولا تركا لطاعتها كذا، ولكن لأحد الاعذار التي ذكرنا — إما من نسيان واما أنها لم تبلغهم واما التأويل مّا واما لاخذ بخبر ضعيف لم يعلم الآخذ به ضعف رواته وعلمه غيره فأخذ بخبر آخر أصح منه أو بظاهر آية

وقد يشتبه بعضهم في النصوص الواردة الى معنى ويلوح له حكم بدليل مّا ويغيب كذا غيره . ثم كثرت الرّحل الى الآفاق وتداخل الناس وانتدبت أقوام لجمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم وضمه وتقييده، ووصل من البلاد البعيدة الى من لم يكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شيء منه، وجمعت الاحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأولة في الحديث، وعرف الصحيح من السقيم، وزيف الاجتهاد المؤدي الي خلاف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم والى ترك عمله، وسقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن ببلوغها اليه، وقيام

الحجة بها عليه، فلم يبق الا العناد والتقليد

وعلى هذه الطريقة كان الصحابة رضوان الله عليهم وكثير من التابعين يرحلون في طلب الحديث الايام الكثيرة طلبا للسنن والتزاما لها، وقد رحل أبو أيوب من المدينة الى مصر في طلب حديث واحد الى عقبة بن عامر، وقد رحل علقمة والاسود الى عائشة وعمر، ورحل علقمة الى أبي الدرداء بالشام، وكتب معاوية الى المغيرة اكتب الي بما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومثل هذا كثير.

(قال أبو عبد الله) فقد بينا والحمد لله وجه من ترك بعض الحديث والسبب الموجب للاختلاف وشفينا النفس مما اعترض فيها ورفعنا الاشكال عنها والله عز وجل المعين على البحث والهادي الى الرشد بمنه

وبهذا البيان الذي كشف به هذا الامام في هذا الفصل صورة الحال في أسباب الاختلاف الواقع بين الصحابة فمن دونهم صح للأئمة المتقدمين رضي الله عنهم أجمعين وجوب طلب التصحيح للنصوص الواردة في شرائع الدين، لتقوم الحجة بما صح منها على المختلفين، وقد قام الكل منهم في ذلك بما قدر عليه، وانتهت استطاعته اليه، الى أن انفرد بالمزية في الاجتهاد، والرحلة الى البلاد، في جمع هذا النوع من الاسناد، بعد التتبع والانتقاد، الامامان أبو عبد الله البخاري وأبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري رضي الله عنهما، فحازا قصب السبق فيه في وقتهما، ولفرط عنايتهما وبلوغهما غاية السعي والتشمير فيه قويت هممهما في الاقدام على تسمية كتابيهما بالصحيح، وعلم الله عز وجل صدق نيتهما فيه ومشقة قيامهما به وحسن انتقادهما له، فبارك لهما فيه ورزقهما القبول شرقا وغربا، وصرف القلوب الى التعويل عليهما والتفضيل لهما، والاقتداء في شروط الصحيح بهما، وتلك عادة الله فيمن أحبه أن يضع له القبول في الارض كما جاء في الخبر الصادق عن المبعوث الحق صلى الله عليه وسلم، فهنيئا لهما، ولمن اهتدى في ذلك بهداهما، والواجب علينا وعلى من فهم الاسلام، وعرف قدر ما حفظ من الشرائع والاحكام، أن يخلص الدعاء [1] لهما، ولسائر الأئمة الناقلين اليهما والينا قواعد هذا الدين، وشواهد أحكام المسلمين. ونحن

(١) في نسخة الاصل «لدعاء»

نبتهل الى الله تعالى في تعجيل الغفران لها ولهم ، وتجديد الرحمة والرضوان عليهما وعليهم ، وأن يبوّئ الكل منهم في أعلى درجات الكرامات ، من غرفات الجنات، وأن يوفقنا أجمعين للاقتداء بهم،والسلوك في سبيلهم،والدعاءاليه والى رسوله، والانقياد لمحكمات تنزيله، والتفقه في دينه ، والاخلاص في عبادته ، والانقطاع اليه ، وصدق التوكل عليه، حتى يتوفانا مسلمين مسلَّمين، غير مبدلين ولا مغيرين، وأن يغفر لنا ولآبائنا ولجميع المسلمين .

تم الجزء السادس وبتمامه تم الكتاب . والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه . وافق الفراغ من نسخه لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بماشاء من الألقاب ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(س ١ - ٧) من صاحب الامضاء بأبي زعبل (من القليوبية)

استاذي الفاضل الشيخ محمد رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله أما بعد فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو وقد علمنا وعلم الناس انكم حفظكم الله خليفة الاستاذ الامام في القيام بأمر الدين الخالص ودحض الباطل عنه ، فان العلم الدليل ، وليس العلم بالكمّ الطويل ، وقد طوحتني

لمقادير الى بلدة ألعن بلاد الله تربة، يسكنها قوم أحلامهم دقاق، ودينهم نفاق، يأخذون من العلم القشور، ومن الاخبار الموضوعة ومن العقائد الخرافية، فهم أشباه رجال ولا رجال، يكفرون من قال بالمعراج بالروح، ومن أنكر وجود الجنة والنار، ومن نفى رؤية الإله في الآخرة، ومن منع رجوع الشمس بعد مغيبها عند إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بقدوم العير، وعدم مجيء بيت المقدس بين يديه (ص) وعدم وجود الزناة وأكلة الربا بين مكة وبيت المقدس ورؤية النبي (ص) لهم ليلة الاسراء كل ذلك لحجج عنده من أن هذه عقائد لا تثبت الا بالقطع، وبعض هذه الاشياء لم يجد (كذا) فيه دليل أصلا، وبعضها قام عليه دليل غير يقيني مع قيام دليل العقل على خلافه، ولما كنتم بارك الله فيكم أوقفتم أنفسكم على تحقيق مثل هذه المسائل نفعا للامة وخدمة للدين وقد شاهدنا غزارة علمكم وسعة فكركم وكثرة اطلاعكم ورسوخ ملكتكم العلمية التي قل ان توجد لاحد من معاصريكم — رجوت أن تكشف لي بقيت أبدا (؟) عن غطاء هذه المسائل وترجعها الى أصولها وتبرزها في صورها الحقيقية غير مشوبة بخرافات المخرفين، بأدلتها من العقل أو الكتاب أو السنة المتواترة أو المشهورة كما هو شأنكم في جميع المسائل، لازلت ينتفع به الاسلام والمسلمون

تحريرا في يوم الثلاثاء ٥ شعبان سنة ١٣٣٤ هـ   كاتبه

ولدكم محمد عليوه

[المنار] يؤخذ من هذا الكتاب بضع مسائل ينبغي بيان الحق فيها، وها نحن أولاء نتكلم عليها واضعين لكل واحدة منها عنوانا

﴿١ — تكفير المسلم بما لم يصح عنده من مسائل الدين﴾

قد اعتاد الناس الجرأة على التكفير بغير علم حتى ان بعض المؤلفين في الفقه توسعوا في المكفرات فزادوا الناس جرأة على تكفير من يخالف مذاهبهم وتقاليدهم وان لم تكن من الدين في شيء. وقد بينا من قبل أن الاصل في ارتداد المسلم عن دينه هو جحده أو تكذيبه شيئا أو شكه في حقية شيء يعلم أن النبي (ص) جاء به من أمر الدين، اذ يكون بذلك غير مؤمن بما جاء به الرسول (ص) ولما كان الجهل في

دار الاسلام غير عذر جعل العلماء أمور الدين قسمين [أحدهما] ما لا يعذر أحد في دار الاسلام بجهله وان كان عاميا وهو المجمع عليه المعلوم من أمر الدين بالضرورة كفرضية الصلاة والزكاة والحج وكتحريم الفواحش ماظهر منها وما بطن كالقتل والزنا وشرب الخمر والسرقة والكذب والخيانة . فمن جحد من هذا القسم شيئا كفر وعد مرتدا عن دين الاسلام . وانما يعذر بجهل بعض هذه المسائل من كان قريب عهد بالاسلام لم يمر عليه من الزمن بعد اسلامه ما يكفي لوقوفه على ذلك، ومن نشأ بعيدا عن دار الاسلام كشاهق جبل (كما يقولون)

[الثاني] ما شأنه أن لا يعرفه الا المشتغلون بعلم الدين من فروع المسائل وأصول الاحكام وأدلتها ، فهؤلاء العلماء يؤاخذون بحسب علمهم ، فمن جحد منهم شيئا من الدين يعلم أنه ثبت في كتاب الله أو سنة رسوله أو أجمع عليه الصحابة ولم يكن متأولا في جحده كان بذلك مرتدا كما هو ظاهر

واما من جحد او أنكر شيئا مختلفا في أصله أودليله أوفي دلالة ذلك الدليل عليه لانه لم يصح عنده أو لمعارض رآه أرجح منه بضرب من التأويل فلا يعد مرتدا بذلك، ولكنه اذا انتهى به التأويل الى مخالفة جماعة السلف الصالح من أهل الصدر الاول عدّ مبتدعا وان كان موحدا مقيما لاركان الاسلام

ولم يكفر أهل السنة من أنكر خبر المعراج ولا من قال إنه كان الروح فقط بل قال بذلك بعض أهل السنة ولا من قال إن الجنة والنار لم يخلقا بعد وانما يخلقان يوم القيامة ، ولا من قال ان المؤمنين لايرون ربهم في الجنة، فقد قال بذلك جمهور من الجهمية والمعتزلة ولم يكفرهم علماء السلف به كما ترونه في أشهر كتب العقائد التي تدرس في الازهر وغيره من المدارس الاسلامية في جميع الاقطار

واذا كان لا يكفرون من ينكر أصل المعراج الا اذا انكر الاسراء المنصوص في القرآن ولا يكفرون من ينكر رؤية الباري تعالى في الآخرة المصرح بها في الاحاديث المتفق عليها فكيف يكفرون من ينكر رجوع الشمس للنبي (ص) بعد غروبها والحديث فيه غير صحيح أوينكر مجيء بيت لمقدس الى الحجاز وكون المذنبين الذين رآهم النبي (ص) يعذبون كانوا موجودين باجسادهم بين مكة وبيت

المقدس ولا نص على هذا في كتاب ولا سنة وما عهدنا احدا من علماء المسلمين يجعله من عقائد الدين ، وسترى معنى ذلك في المسائل الآتية

(٢ - المعراج روحي أم جسدي)

قد فصلنا القول في مسألة المعراج في المجلد الرابع عشر من المنار فيراجع في ص ٦٦٤ و٧٣٢ منه وفيه ان عمدة من قال ان المعراج كان في المنام حديث شريك عند البخاري

(٣ - رؤية النبي (ص) بيت المقدس)

ان رؤية النبي (ص) لبيت المقدس ووصفه اياه للمشركين وهو بمكة ليس معناه ان بيت المقدس انتقل الى مكة وانما معناه أنه مُثل له كما مثلت له الجنة في عرض الحائط ولفظ الحديث في ذلك كما ورد في حديث جابر في الصحيحين أنه سمع رسول الله (ص) يقول «لما كذبني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه» هذا نص حديث الشيخين ومعنى جلاه أظهره، وقال بعض العلماء : معناه كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته. قال الحافظ في الفتح: ووقع في حديث أم هانئ عند ابن سعد «فخيل الي بيت المقدس[1] فطفقت أخبرهم عن آياته» فان لم يكن مغيرا من قوله «فجلي» وكان ثابتا احتمل أن يكون المراد انه مثّل قريبا منه كما قدم نظيره في حديث «أريت الجنة والنار» وتأول قوله «جيء بالمسجد»[2] أي جيء بمثاله — والله أعلم . ووقع في حديث شداد بن أوس ما يؤيد الاحتمال الاول ، ففيه «ثم مررت بعير لقريش» — فذكر القصة — ثم أتيت أصحابي قبل الصبح فأتاني أبو بكر فقال : أين كنت الليلة ؟ فقال «اني أتيت بيت المقدس» فقال انه مسيرة شهر فصفه لي ، قال «ففتح لي صراط كأني أنظر اليه لا يسألني عن شيء الا أنبأته عنه» اه المراد من عبارة الفتح . وأما لفظ حديث أم سلمة عند مسلم «فرفع الله لي بيت المقدس أنظر اليه» فيتفق مع

(١) خيل اليه بمعنى مثل له أي رأى خياله ومثاله . وفي رواية لها عند ابي يعلى وابن عساكر «فأتاه جبريل فصوره له في جناحه» (٢) أي في حديث ابن عباس الذي ذكره قبل ذلك وهو عند أحمد والنسائي والبيهقي وفيه انه جيء بالمسجد حتى وضع دون دار عقيل

ماتقدم بمعنى انه رفع اليه مثاله ، وقد غفل من زعم أن بيت المقدس نقل من مكانه الى مكة عما يترتب على ذلك من استحالة وجوده عند دار عقيل كما ورد في رواية ابن عباس لان وضع الجسم الكبير في المكان الصغير الذي لا يبلغ عشره محال، ومن كون وجوده بمكة يستلزم أن يراه جميع الناس ولو وقع ذلك لتواتر ، ومن كون نقله يستلزم علم جميع أهله ومن حولهم به ولو وقع ذلك لتواتر نقله عنهم . وقد غفل من مال الى ترجيح ذلك اللفظ على ما هو أصح منه وأقرب الى المعقول عن كل ذلك واكتفى بأن هذا أبلغ في المعجزة وأن الله قادر عليه ، وهو لم يكن مما وقع به من التحدي ولا ترتب عليه ايمان أحد . فهل يبطل الله تعالى سنته في الكون عبثا؟

وهذا التوجيه يحتاج اليه في رؤية بيت المقدس من اعتمد قول الجمهور ان الاسراء فقط أو الاسراء والمعراج معا كانا في حال اليقظة بالروح والجسد كمن قال ان ذلك رؤيا منامية أو مشاهدة روحية وقعت حال اليقظة ، لأن سؤال قريش النبي (ص) أن يصف لهم بيت المقدس انما كان في اليقظة قطعا بغير خلاف

﴿ ٤ - رؤية النبي (ص) المذنبين يعذبون ﴾

اذا كانت رؤية النبي لبيت المقدس من قبيل الكشف الذي يحصل بادراك النفس للشيء بغير واسطة العينين أو بجعل الله تعالى مثال ذلك أمام العينين فالظاهر ان رؤية من رآهم يعذبون بذنوبهم من قبيل رؤية المثال بالاولى ، لان بيت المقدس من عالم الشهادة وعذاب المذنبين بما روي في الحديث من عالم الغيب ليس له مكان في الدنيا يشاهد بين مكة وبيت المقدس . وكل ذلك من آيات الله التي أراه اياها في ليلة الاسراء . ومن هذا القبيل رؤيته الجنة والنار وهو يخطب كما روي في الصحيحين. وتعبيره عن ذلك في بعض الروايات بأنهما مثلتا له في الجدار. وقد وصفت الجنة في القرآن بقوله تعالى (كعرض السموات والارض) فهل تجتمع هي والنار في جدار المسجد ؟ وورد أن من أولئك المعذبين من تتثاقل رؤوسهم عن أداء الصلوات — والصلاة لم تكن شرعت — فقد تمثل له (ص) عذابهم قبل وقوعه بالنسبة الى أمته

ان رؤية البشر الروحية لبعض الموجودات الغائبة عن أبصارهم قد ثبتت بالتجارب الكثيرة في جميع الاقطار ، ومنها ما ثبت للدكتور شبلي شميل من علماء العصر الماديين ، وقد ذكرنا في بعض مجلدات المنار خبره مع المريض الذي كان يعالجه ويسمع منه الاخبار الكثيرة عما يدركه بنفسه غائبا عن حسه كاخباره عن قريب له في الاسكندرية بأنه سافر منها الى القاهرة في القطار الذي يتحرك من الاسكندرية في ساعة كذا ثم إخباره بوصوله الى محطة القاهرة وركوبه العربة منها قاصدا دار المريض ثم بوصوله الى باب الدار ، وكان الامر كما قال

وأذكر مما وقع لي من ذلك في الصغر أني هربت مرة من الكتّاب واختبأت في بستان لجدتي أم والدتي وكنا نحن مصطافين في بستان لنا يبعد عن هذا البستان مسافة زهاء ربع ساعة وكانت جدتي في بستاننا فتمثلت لي خارجة منه حتى كأني نظر اليها متتبعا خطواتها من أول الطريق الى آخره حتى إنني ناديتها عند ماوصلت الى مدخل بستانها وقبل أن تدخله ويقع بصري عليها فأجابتني وكنت أعتقد أنها تحمل الي ما يطيب لي أكله فكان كذلك . ومثل هذا كثير

ولكن مايقع للانبياء من ذلك فوق مايقع لبعض البشر كذلك المريض وبعض الصوفية وأكمل منه لانه يشمل عالم الغيب وما لا يصل اليه غيرهم من عالم الشهادة

﴿ ٥ — رجوع الشمس بعد غروبها أو وقوفها للنبي (ص) ﴾

يرى السائل تفصيل القول في هذه المسألة في ص ٧٠ من مجلد المنار التاسع وحسبك منه قولنا هنالك « ان مسألة رد الشمس له صلى الله عليه وسلم قد ورد في رواية ضعيفة من أحاديث المعراج ، وورد في رواية أقوى منها في مناقب علي كرم الله وجهه . وهذه الرواية وثقها الطحاوي في [مشكل الآثار] وتبعه القاضي عياض في الشفاء وقد تكلم فيها بعض الحفاظ بل أوردها ابن الجوزي في الموضوعات وتعقبه في اللآلئ » فان شئت الزيادة وما قيل في الطعن في الرواية فارجع الى المجلد التاسع أو الى الفوائد المجموعة في الاحاديث الموضوعة للامام الشوكاني

﴿ ٦ — وجود الجنة والنار ﴾

ظواهر نصوص الكتاب العزيز والاحاديث الصحيحة المتفق عليها تدل على

أن الجنة والنار داري الجزاء للابرار والفجار هما عالمان مخلوقان ، ولا نرى ما يعارض هذه الظواهر من الدلائل العقلية ولا النقلية ، فان كان لدى السائل ما يعارض ذلك فيلذكره لنا لنبين رأينا فيه

﴿ ٧ – رؤية الباري سبحانه وتعالى في الآخرة ﴾

إن من أصول العقائد القطعية المعلومة من الدين بالضرورة ان نعيم الآخرة قسمان روحاني وجسماني لان البشر لا تنقلب حقيقتهم في الآخرة بل يبقون بشرا أولي أرواح وأجساد ولكن الروحانية تكون هي الغالبة على أهل الجنة، فيكون النعيم الروحاني عندهم أعلى من النعيم الجسماني. ومن الثابت بالاختبار والتجارب أن العلماء الراسخين والحكماء الربانيين والفلاسفة الماديون [1] والرؤساء السياسيين كلهم يفضلون اللذات العقلية الروحية والحياة المعنوية، على اللذات المادية الجسدية، فترى أحدهم يزهد في أطايب الطعام، وكؤوس المدام ، ويتجافى جنبه عن مضجعه ، ذاهلا عن حقوق حليلته ؛ تلذذا بحل مشكلات المسائل واكتشاف أسرار الكون ، أو بالنفث في عقد السياسة ، وما تقتضيه أعباء الرياسة ؛ ألا وان أعلى العلوم العقلية والمعارف الروحية في هـذه الدنيا هو معرفة الله سبحانه وتعالى والعلم بمظاهر أسمائه وصفاته في خلقه والوقوف على سننه وأسراره فيها، وكشف الحجب عما أودع فيها من الجمال والجلال، وفي النظام الذي قامت به من آيات الكمال، التي هي مجلى صفات بارئها منتهى الجمال والجلال والكمال ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ،

وما زال أصحاب الهمم العالية من العلماء والحكماء يستدلون بما ظهر لهم من تلك السنن والآيات على كمال مبدعها ومبدئها ومصرفها ، وتتطلع عيون عقولهم الى كيفية صدور الوجود الممكن الحادث، (وهو مجموع هذه العوالم العلوية والسفلية) عن الوجود الازلي الواجب، ويهتمون بارتقاء الاسباب للوصول الى معرفة أول موجود ممكن منها، وكيف ابتدأت سلسلة الاسباب بعد ذلك بتحول البسائط وتولد بعضها من بعض ، قبل وجود هذه المركبات المعروفة من السماء والارض ، طمعا في معرفة حقيقة ذلك

(١) أي وكذا الفلاسفة الماديون. وهو استعمال يعد بليغا اذا كان لما رفع خصوصية في السياق ككون الماديين هنا مظنة لمخالفة الروحيين . ويقابل هذا الاستعمال في نصب ما هو في مقام الرفع ما نصب على الاختصاص أو المدح والذم

الوجود الاعلى ، على عجزهم عن ادراك كنه أدنى هذه الموجودات السفلى ، وقد اختلف الحكماء في امكان وصول العلم البشري الى حقيقة الوجود الاول الازلي وكيفية صدور الموجودات الممكنة عنه - فقال بعضهم بامكان ذلك وتوقع حصوله في يوم من الايام ، وقال آخرون بأنه فوق استعداد الانام ،

والحق في ذلك ما هدانا اليه دين الله الحق، وهو أن ادراك أبصار الخلق له سبحانه وتعالى وإحاطة علمهم به من المحال الذي لامطمع فيه (لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) ولكن العجز عن الادراك والاحاطة ، لا يستلزم العجز عما دون ذلك من العلم والمعرفة ، التي ترتقي الى الدرجة التي عبر عنها بالتجلي والرؤية ، فان كانت ظواهر الآيات في ذلك متعارضة ، فالاحاديث والآثار الصحيحة المبينة له جلية واضحة

انما وقع المراء بين المتكلمين والمتفلسفين وبين علماء الآثار في كلمة «الرؤية» فأثبتها أهل الأثر لدلالة ظواهر القرآن ونصوص الاحاديث عليها، ومنعوا قياس رؤية الباري تعالى على رؤية المخلوقات، بدعوى استلزامها التحيز والحدود وغير ذلك من صفات الاجسام، وقالوا اننا لا نبحث في كيفيتها كما اننا لا نبحث في كيفية ذاته ولا صفاته تعالى ، فاننا نجزم بأن له علما وقدرة وسمعا و بصرا ولكن علمه ليس كعلمنا ناشئا عن انطباع صورة المعلومات في النفس،ومكتسبا لها بالحواس أو الفكر ، وكذلك قدرته وسائر صفاته، فنحن نجمع بين الايمان بالنصوص في أسماء الله وصفاته وأفعاله وسائر شؤونه، و بين تنزيهه عما لايليق به من مشابهة خلقه المنوعة بدلائل النقل والعقل، كما قال عز وجل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

ونفاها أهل الكلام والفلسفة بناء على قياس الخالق سبحانه وتعالى على المخلوق ودعوى منافاة الرؤية للتنزيه الذي هو أصل العقيدة وركنها الركين . ولكنهم لا يستطيعون انكار الحقيقة التي أثبتها أهل السنة والجماعة اذا عبر عنها بغير لفظ الرؤية كأن يقال ان أعلى نعيم أهل الجنة لقاء الله تعالى بتجليه عليهم تجليا يحصل لهم به أعلى ما استعدت له أنفسهم وأرواحهم من المعرفة ، وأن أعظم عقاب لاهل النار حجبهم عن ربهم وحرمانهم من هذا التجلي والعرفان، الخاص بدار الكرامة والرضوان،

فانهم لا يعتنون بتأويل مثل قوله تعالى في المتقين (تحيتهم يوم يلقونه سلام) وقوله في الكافرين (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) كما يعتنون بتأويل قوله (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) بأن النظر معناه الانتظار والرجاء، ومارد به بعضهم على بعض في الآية يطلب من الكشاف والبيضاوي وحواشيهما وسائر كتب التفسير ومن كتب الكلام وشروح الاحاديث

وكم بين حذاق الجدال تنازع   وما بين عشاق الجمال تنازع

ومن غرائب جدلهم ان كلا منهم يستدل على مذهبه بطلب موسى عليه السلام رؤية ربه وقوله تعالى (لن تراني . .) الآية، فأهل السنة يستدلون على جواز الرؤية بسؤال الكليم اياها وعدم انكار الباري تعالى عليه هذا السؤال كما أنكر على نوح عليه السلام سؤاله نجاة ولده الكافر بناء على أنه من أهله الذين وعده بنجاتهم — وبتعليق الرؤية على جائز وهو استقرار الجبل، والمعتزلة يستدلون بالآية على عدم الرؤية بعدم اجابة الكليم اليها وتعليقها على ما علم الله أنه لا يكون

واذا كانت الآيات التي استدل بها كل فريق ليست نصا قاطعا في مذهبه ففي الاحاديث المتفق عليها ما هو نص قاطع لا يحتمل التأويل في الرؤية وتشبيهها برؤية البدر والشمس في الجلاء والظهور وكونها لامضارّة فيها ولاتضامّ ولا ازدحام. وفي كتاب التوحيد من صحيح البخاري احد عشر حديثا في ذلك، وجمع ابن القيم في[حادي الارواح] ماورد في ذلك من الاحاديث فكان ثلاثين حديثا . قال الحافظ ابن حجر عند اشارته الى ذلك : وأكثرها جياد . وزاد ابن القيم ما ورد عن الصحابة والتابعين وأئمة علماء الامصار في ذلك وحملهم اياه على ظاهره مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، ولكن بعض مثبتي الرؤية من أهل السنة اختلفوا في معناها فكان بعض ما قالوه تأويلا أبعد من تأويل المنكرين

قال الحافظ في الكلام على تفسير (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) من شرح كتاب التوحيد من البخاري ما نصه: واختلف من أثبت الرؤية في معناها فقال قوم يحصل للرائي العلم بالله تعالى برؤية العين كما في غيره من المرئيات، وهو على وفق قوله في حديث الباب « كما ترون القمر » الا أنه منزه عن الجهة والكيفية وذلك

أمر زائد على العلم . وقال بعضهم ان المراد بالرؤية العلم ، وعبر عنها بعضهم بأنها حصول حالة في الانسان نسبتها الى ذاته المخصوصة نسبة الإبصار الى المرئيات . وقال بعضهم: رؤية المؤمن لله نوع كشف وعلم الا أنه أتم وأوضح من العلم . وهذا أقرب الى الصواب من الاول اه

ثم ذكر ماتعقب به من قال ان المراد بالرؤية العلم. وانما قال في القول الاخير انه أقرب الى الصواب لمافيه من التفويض وعدم التحديد، وهذا المعنى هوالذي قال به الغزالي وأوضحه في كتاب المحبة من الاحياء بما يعهد من قرأ الاحياء من بيانه وفصاحته

هذا وان احصاء ما ورد في هذا الباب مما استدل به على الرؤية اثباتا ونفيا من الآيات والاحاديث وسرد كلام المثبتين والنفاة وبيان الراجح منه والمرجوح يستغرق عدة أجزاء من المنار ، ولن يرضى ذلك منا أكثر القراء ، وجملة القول في المسألة ان الآيات القرآنية فيها ليس فيها نص قاطع لا يحتمل التأويل ، ولكن الاحاديث الصحيحة والحسنة صريحة في ذلك لا تحتمل التأويل ، والمرفوع منها مروي عن أكثر من عشرين صحابيا دع الموقوف والآثار ، ولم يرد في معارضتها شيء أصرح من حديث عائشة المتفق عليه عن مسرق قال قلت لعائشة (رض) يا أمتاه هل راى محمد (ص) ربه ليلة المعراج؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ! أين أنت من « ثلاث من حدثكهن فقد كذب » من حدثك أن محمداً (ص) رأى ربه فقد كذب ، وفي رواية « فقد أعظم على الله الفرية » ثم قرأت (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير * وماكان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثك أنه كتم (أي أن النبي (ص) كتم شيئا من الدين) فقد كذب ، ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) — الآية — ولكن رأى جبريل في صورته مرتين . اه

وقد ذكر النووي في شرح مسلم ان عائشة لم تنف وقوع الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته وانما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية وقد خالفها غيرها من الصحابة الخ وذكر الحافظ في الفتح انه قال ذلك تبعا لابن خزيمة

ذاهلا عما ورد في صحيح مسلم الذي شرحه ، وذكر ان في حديث مسروق عنده زيادة عماذكرناه من لفظ البخاري وهي :— قال مسروق وكنت متكئا فجلست وقلت ألم يقل الله (ولقد رآه نَزلةً أخرى) فقالت أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله (ص) عن ذلك فقال « إنما هو جبريل » الخ

فعلم من هذا ان عائشة تنفي دلالة سورة النجم على رؤية النبي (ص) لربه بالحديث المرفوع وتنفي جواز الرؤية مطلقا أو في هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله تعالى (لا تدركه الابصار) وقوله (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب) ويعارض هذا الاستدلال انه ليس نصا في النفي حتى يرجح على الاحاديث الصريحة في الرؤية وقد قال بها بعض علماء الصحابة. وقال بعض العلماء ان عائشة ليست أعلم عندنا من ابن عباس الذي أثبت الرؤية للنبي ليلة المعراج، وفي هذا القول بحث فان ابن عباس استنبط اثبات الرؤية في الدنيا من الآيات وقد انفرد بذلك دون سائر الصحابة. وأما من روي عنهم إثبات الرؤية في الآخرة فليس فيهم أحد يقال انه أعلم من عائشة الا والدها الصديق وعلي المرتضى وزيدا بن ثابت وقد يذكر في طبقتها منهم العبادلة. ولكن الحديث عن أبي بكر وزيد بن ثابت في هذا الباب ضعيف وعن علي موضوع حتى ان ماروي عنها نفسها فيه أقوى سندا . ويقول النفاة لو رأى النبي (ص) ربه ليلة المعراج لما خفي نبأ ذلك عن عائشة مع ماعلم من حرصها على العلم ، وسؤالها اياه عن آية النجم؟ وقد يقول النفاة أيضا: لو كانت الرؤية في الآخرة عقيـدة يطالب المسلمون بالايمان بها لما جهلتها عائشة . ولكن هذا القول لا ينهض لمعارضة اثبات المثبتين لها بالاحاديث الصريحة ، وانما قصاراه أن يعد دليلا على أن المسألة من أمور الآخرة التي كان يذكرها النبي (ص) أحيانا لبعض الخواص اذ لا يضر العامة جهلها ، فلم يقصد أن تكون عقيدة يدعى اليها مع التوحيد .

وأحسن مايجاب به عن استنباط عائشة وأقواه عند المثبتين أن يقال أنها تريد به نفي الرؤية في الدنيا كما قال بذلك الجمهور ولا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شؤونهم في الدنيا لان لذلك العالم سننا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى في الامور المادية كالاكل والشرب والمأكول والمشروب. فماء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما

يخالطه أو يجاوره في مقره أوجوه، وخمرها ليس فيها غَول يغتال العقل ولا يصدهون عنها ولا ينزفون ، ولبنها لا يعتريه فساد ولا تخالطه (ميكروبات) أمراض ، وكذلك فاكهتها وثمراتها هي على كونها أعلى وأشهى مما في الدنيا لا تفسد . قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة الا الاسماء . وكذلك أمزجة أهلها ، هي أصح وأسلم من أمزجة أهل الدنيا حتى انهم يأكلون ويشربون فيكون هضمهم بالتبخر ورشح العرق ، ففي الحديث الصحيح انه جُشاء ورشح لهما ريح المسك . ولا عجب في ذلك فان علماء العصر الذين يظنون ان في كوكب المريخ أحياء عقلاء كالبشر يجزمون بأنهم لا بد ان يكونوا أكبر منا أجساما وأسرع من الخيل العادية في حركتهم العادية ، هذا وعالم المريخ لا يعرف فيه من الحياة الروحانية العالية مثل ما ورد في حياة الجنة ، ولكن ما ذكره علماء العصر في شأنه يقرب تصور ما ورد في صفة الآخرة من الاذهان المقيدة بالمألوفات ، فان بعض الناس انما ينكرون أخبار الآخرة لانها مخالفة لما جمدوا عليه من المألوفات، ولوانهم أخبروا بما اكتشف من أسرار الكون في هذا العصر كخواص الكهرباء والراديوم قبل ان يصير مشهودا مقطوعا به لما صدقوه،

قال الله عز وجل في بيان جزاء المؤمنين القائمين بأعمال الايمان حق القيام (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قُرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) ووضح ذلك رسوله (ص) في حديث قدسي رواه الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة قال (ص) « قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وروى أهل الكتاب مثل هذا عن سيدنا عيسى (ص) فاذا ثبت لنا ان كل ما في دار الكرامة أعلى وأسمى مما في الدنيا حتى الاجسام وصفات الناس وغرائزهم وانه لا يشارك ما في الدنيا الا بالاسم. الذي عبر به لضرورة تقريب تلك المعاني الغيبية من الفهم ، فهل يصح بعد ذلك أن نعمد الى أعلى ماهنالك من الشؤون الالهية المعنوية فنشبهه بشؤون الدنيا فنجعل تجلي الرب سبحانه وتعالى لاولئك العباد المكرمين الذين رقاهم وكملهم وأهلهم لكمال معرفته تحيزا ومشابهة الخلق ؟ ونجعل ما يحصل لهم من ذلك التجلي من العلم الاكمل والمعرفة العليا التي تستغرق أرواحهم وجميع مشاعرها الظاهرة والباطنة إدراكا لكنهه عز وجل واحاطة

علم به تعالى عن ذلك ؟ ثم نعذر أنفسنا على هذا الجهل بأن ذلك قد سمي رؤية ومعاينة ولا بد ان تكون الرؤية هنالك كرؤيتنا التي نعهدها هنا ؟

سبحان الله ! أيكون كل ماهنالك من أعيان المخلوقات وصفاتها وأحوالها مخالفا لما له اسمه منها هنا الا مايتعلق بشأن الخالق عز وجل فهو الذي يجب ان يكون مشابها لشؤون المخلوقين بعضهم مع بعض ؟ أهذا هو المذهب الذي يدعي أصحابه اتباع المعقول ، ويسخرون من أهل السنة بزعمهم انهم جمدوا على بعض أحاديث الآحاد من المنقول؟ وهم الذين قد جمدوا على مادون ذلك من الالفاظ العربية التي استعملت في صفات الباري تعالى وشؤونه وأخبار عالم الغيب فتراهم يصرفونها عن معانيها ويعطلون مدلولاتها المقصودة لتوهمهم انها لاتكون صحيحة الا اذا كانت مدلولاتها في عالم الغيب كمدلولاتها في هذا العالم من كل وجه. ثم تحكموا فأثبتوا بعض صفات الباري تعالى بدون تأويل كالعلم والقدرة والارادة وأوّلوا أكثرها كالكلام والرحمة والمحبة والغضب والرضا والعلو والوجه واليدين الخ وهذا عين التشبيه ، وهذا عين التعطيل — وأهل السنة يثبتون له تعالى كل ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله (ص) وينزهونه فيه كله عن مشابهة خلقه ولا يرون فرقا بين العلم والرحمة والكلام فكلها من صفات الكمال الثابتة له مع التنزيه — فعلمه ليس كعلم البشر منتزعا من صور المعلومات بالحس أو الفكر — وكلامه ليس كيفية عرضية تحصل بتموج الهواء بتأثير الصوت الذي يخرج من الفم — وكذلك سائر شؤونه تعالى ، فتجليه لخواص خلقه في دار كرامته ليس كظهور بعضهم لبعض ، وما يحصل لهم من رؤيته ومعرفته وسماع كلامه لا يشابه ما يكون من بعضهم لبعض ، واذا كنا قد عرفنا بالمشاهدة في عالم الحس ان إيقاد مصباح زيت الزيتون أو زيت البترول لا يشبه ايقاد مصباح الكهرباء بوجه من الوجوه ولا يشترط في الثاني ما يشترط في الاول — ونجزم بأن هذا الفرق لا يمكن ان يتصوره من لم يعرف الكهرباء البتة — فيجب علينا ان لا نستغرب ما هو أبعد من هذا الفرق بين عالم الغيب والشهادة في اختلاف الكيفية الحقيقة واحدة كالرؤية. ومن كان له حظ من معرفة الله تعالى في الدنيا لا يحتاج الى الامثال ، وحسب المحروم منها ان ينتفع بالامثال ، (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون)

مدرسة

دار الدعوة والإرشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١٤

التيوبركيولين Tuberculin

زيادة الياء والنون في هذا اللفظ اللاتيني هي — كما قلنا — للدلالة على المادة أو الأصل الفعال في الدرن [Tubercle] أعني أنه اسم لخلاصة تستخرج من باسيل الدرن نفسه أو مما يربى فيه . فهي نوعان نوع يسمى بالتيوبركيولين العتيق والآخر بالتيوبركيولين الجديد . وأول من أدخل هذا الصنف من العلاج في الطب هو العلامة كوخ سنة ١٨٩٠ محاولا بذلك ايجاد دواء شاف للدرن بكافة أنواعه ، ولكنه لم يتحقق غرضه الى الآن

أما التيوبركيولين العتيق فهو عبارة عن السموم التي يفرزها ميكروب الدرن في السائل الذي يربى فيه كالمرق مع الجلسرين، ويتحصل عليه بالتصفية خلال المرشحات لفصل الميكروب عنه فهو في الحقيقة سموم الميكروب التي تخرج من جسمه في السائل المذكور، ويكون لونه أصفر أدكن وقوامه غليظا. وفائدة الجلسرين حفظه من الفساد

واذا حقن هذا السائل في الشخص السليم لا يحدث منه شيء ، ولكن اذا حقن في انسان أو حيوان مصاب بدرن في أي عضو من جسمه ارتفعت حرارته وأصابته رعدة وأحس بتوعك وآلام في مفاصله وقد يفرز زلال في بوله أو يظهر طفح على جلده ويلتهب المكان المصاب بالدرن . ونظرًا لشدة هذه الاعراض لم يستحسن الاطباء معالجة الدرن بهذه الطريقة ، واقتصر بعضهم على استعمالها في معالجة الدرن الجلدي المسمى لوپس (داء الذئب) لان ما يصيب الجلد من الحقن

يمكن مراقبته وتلافيه . زد على ذلك ان تنبيه الجلد المريض بهذا الداء قد يكون نافعا فيه ، ومع ذلك يأبى كثير من الاطباء استعماله حتى في هذا الداء، فاقتصرت فائدة التيوبركيولين على استعماله في تشخيص الدرن في الانعام كالبقر فان السليم منها اذا حقن به لم يصبه شيء ، ولكن اذا حقنت البقرة المسلولة ارتفعت حرارتها أي أصابتها الحمى . واستعماله لتشخيص الدرن في الانسان لامسوغ له مع ان هناك طرقا أخرى تفضله

أما التيوبركيولين الجديد فهو عبارة عن خلاصة تستخرج من نفس جسم الميكروبات الدرنية، وبعبارة أخرى هو السم الكامن في أجسامها فهو غير السم الذي تفرزه في السائل الذي تربى فيه . واذا حقن هذا التيوبركيولين الجديد أيضا في السليم لايحدث منه شيء واذا حقن في المريض حدثت أعراض كالاعراض المذكورة آنفا غير أنها لا تكون عادة مصحوبة بالانفعال الموضعي في مكان الدرن فلا يتنبه ولا يلتهب . وهو قليل الاستعمال لتشخيص مرض الانعام ، ولكن بعض الاطباء يستعملونه في معالجة الدرن الانساني وان خالفهم لآخرون في نفعه، بل منهم من يرى ان ضرره أكبر من نفعه

واذا حقن تحت الجلد حدث منه خراج، ولذلك اضطر بعض المصانع الى ازالة بعض المواد التي تشبه الدهن منه وهي التي يظنون انها السبب في التقيح وفي عسر امتصاصه

وهناك عدة طرائق لاستعمال التيوبركيولين العتيق للتشخيص أشهرها أربع وهي :—

(١) الحقن تحت الجلد (٢) وضعه على الملتحمة عند الموق ويبقى الجفنان مفتوحين بضع دقائق فاذا كان في جسم الشخص أي درن احمرت ملتحمة الجفن الاسفل وكذلك اللحيمة الدمعية التي في الموق بعد ثلاث ساعات ويزداد الاحتقان بعد ست ساعات وترم اللحيمة ويكثر الدمع وتغطى العين ببعض الافراز (الرمص) ويصل هذا الالتهاب الى أقصاه بين ٦ ساعات و١٣ ساعة ثم يأخذ في الزوال بعد يومين أو أكثر، وهذه الطريقة ليست خالية من الخطر على العين. ومحلول التيوبركيولين الذي

يستعمل فيها يكون بنسبة ٥ ر. في المائة من الماء المقطر المعقم

(٣) بطريق الجلد وذلك بتلقيح الجلد كما يلقح لاجل الوقاية من الجدري فيحصل التفاعل باحمرار الجلد وتورمه في ٢٤ ساعة ويشتد بعد يومين ، وفي اليوم الثالث يبدأ في الزوال ويتم ذلك في اليوم الرابع . وهذه الطريقة تستعمل كثيرا في الاطفال الذين يقل عمرهم عن خمس سنوات

(٤) يعمل مرهم من التيوبركولين مع [اللانولين Lanoline] [1] (دهن يستخرج من صوف الغنم) بنسبة (١ الى ١) ويدهن به جزء من الجلد فيلتهب بعد يوم أواثنين وقد يظهر فيه دمّل أو بثرة. واعلم انه قد يتأثر الحيوان من التيوبركولين ويكون سليما اذا سبقت اصابته بالدرن وشفي منه. واذا حقن تحت الجلد بمقدار كبير (١. ر. السنتيمتر المكعب) ولم يحصل انفعال دل على السلامة من المرض مطلقا أو على الاقل من المرض الفعال في البنية فلا ينافي ذلك وجود مرض سابق شفي منه المحقون

الجمرة الخبيثة Anthrax

يعرف هذا المرض في الحيوانات باسم (الحمى الطحالية) وهو يصيب الانسان أيضا . وينشأ من ميكروب باسيلي يوجد في العضو المصاب وفي الدم والاحشاء والافرازات ، ولاحركة له ، وطوله يختلف من ٥ مك [2] الى ٢٠ مك وقد يكون مستقيما أو منحنيا قليلا ويتكاثر بالانقسام ويتكون في داخله أبضاحبيبات، وهذه اذا انفصلت منه استطالت ونشأ منها الباسيل ، ولكن التكاثر بهذه الطريقة الحبيبية لايحصل الا في خارج أجسام الحيوانات . وهذه الحبيبات تقاوم درجات كبيرة جدا من الحرارة فلا يسهل قتلها ولو بالغلي الا بعد بضع دقائق

يصيب هذا الداء الحيوانات اذا لقحت بالميكروب بالعض أو بلدغ الحشرات، وقد تصاب أيضا به اذا أكلت من مرعى تلوث ببراز الحيوانات المريضة

أما اصابة الانسان به فتكون اما من الحيوانات الحية، ولذلك تصاب به الرعاة كثيرا، واما من جثث الموتى بهذا الداء —وهو الاكثر— كما يحصل للقصابين (الجزارين)

(١) كلمة لاتينية معناها حرفيا « دهن الصوف » (٢) مك مختصر كلمة ميكرون

والدباغين بتلقيح أجسامهم بالميكروب اذا مست شيئا من جثة الحيوان . وقد تحصل العدوى من أكل اللحم المصاب أو من مس الصوف والشعر المأخوذين من الحيوانات المريضة، وقد يصل أيضا هذا الداء بطريق التنفس بأن يستنشق ميكروبه مع التراب والغبار الذي يتطاير من البضائع الصوفية ونحوها اذا لم يطهر الصوف قبل صناعته

ومن النادر ان ينتقل هذا المرض من انسان الى آخر بمجرد اللمس ، وقد شوهد المرض بين تجار الخرق البالية التي تستعمل في صناعة الورق

والحيوانات التي تصاب به هي الانسان والغنم والمعز والارانب وخنازير الهند والفيران وكذلك الخيل والخنازير، أما الكلاب والقطط فلا تصاب به

الاعراض — لهذا المرض ثلاثة أشكال (١) الشكل الموضعي (٢) الشكل الداخلي الرئوي (٣) الشكل الداخلي المعدي المعوي. وفي كلا الشكلين الاخيرين قد يصاب ظاهر الجسم أيضا، وإنما نشأت هـذه الاشكال المختلفة بحسب مدخل الميكروب فانه قد يدخل من الجلد أو من الرئة في الهواء المستنشق أو من الجهاز الهضمي مع الطعام أو الشراب

أما الشكل الاول فيشاهد كثيرا في الوجه أو العنق أو الايدي بعد جرح أو سحج (خدش) فبعد زمن التفرخ الذي يتراوح بين بضعة أيام و بضع ساعات يحدث أكلان ولهيب في المكان الملقح ، ويظهر دمل صغير يمتلئ بسائل رقيق ثم ينفجر وتموت قاعدة هذا الدمل فتكون سوداء اللون ويتلهب ما حولها من الجلد فيحمر ويرم ويتصلب ويمتد تورمه الى [بوصة] ونصف أو بوصتين أو أكثر، ويتكون حول البقعة السوداء فقاعات صغيرة تشتمل على مصل ، وتضخم الغدد اللمفاوية القريبة وتلتهب . وقد يستمر الشخص في عمله ثلاثة أيام أو خمسة ثم يشعر بالحمى مع الضعف والانحلال. وقد يعتريه الهذيان أو العرق الغزير أو الاسهال وينتهي أمره بالموت الذي يسبقه همود شديد

أما الشكل الداخلي فتختلف أعراضه باختلاف الجهاز المصاب ، ويتقدمه اضطراب وضيق تنفس واضمحلال وآلام في الاطراف ، ثم ترتفع الحرارة فجأة مع اعراضها المعروفة . فان كانت الرئتان مصابتين اصابه ضيق شديد في التنفس مع

احساس بالاختناق، ويزرقّ جسمه ، وتخور قواه ، ولكن يكون السعال خفيفا ، واذا بصق فقد يكون البصاق ملوثا بالدم، ثم يعتريه الهذيان والغيبوبة فيموت . وفي بعض الحالات قد يبقى ادراك المريض الى النهاية . واذا كان الجهاز الهضمي هو المصاب حدث قيء وألم بالبطن واسهال وخرج بالبراز دم وقد يحصل عسر في الازدراد أو نزف من الحلقوم والفم ، وتكون الحمى غير عالية ، ويزرقّ جسم المريض أيضا ويضيق نفسه ويصاب بالضجر وقد يتخبط كالمصروع قبيل الوفاة

الانذار — هو سيئ جدا خصوصا في الاشكال الباطنية

المعالجة — تعالج الجمرة الظاهرية باستئصالها كلها وكيّ موضعها إما بالنار وإما بالادوية الكاوية مثل كلوريد الزنك (الخارصين) أو بالفنيك النقي فتتحسن حالة المريض وقد يشفى سريعا

أما الشكل الداخلي فعلاجه قليل الجدوى . ويعالج بالكينين والمنعشات والسوائل المغذية

الوقاية — تكون بالابتعاد عن المصاب وحرق أوتطهير مفرزاته وكل ما لامسه خصوصا صوف الاغنام وملابس المرضى ، وبقتل الحيوانات المصابة بأيسر الطرق ثم احراق جثثها أو دفنها في مكان عميق مع وضع الجير حولها

ومما تجب العناية به ان لا يؤذن للعمال في مصانع الصوف أو الجلود بمس شيء منهما الا بعد تطهيره بالطرق الطبية كأن يطهر الصوف مثلا في أفران البخار وتطهر الجلود بوضعها في بعض المحاليل المطهرة التي لا تضر بها . واعلم ان كلامنا هذا في مس الجلود قبل دبغها فان الدبغ وحده كاف لتطهيرها

ويجب على المرض ومن شاكله تطهير يديه جيدا قبل الطعام والشراب وتغيير الملابس قبل ذهابه الى منزله أو مخالطته الاصحاء

السقاوة والسراجة Glanders

مرض عرف قديما حتى وصفه أطباء اليونان والرومان في كتبهم وهو يصيب الخيل والبغال والحمير و بعض الحيوانات الاخرى الداجنة ومنها ينتقل الى الانسان

أيضا . وسببه ميكروب مستقيم الشكل اكتشف سنة ١٨٨٢ م

يعيش هذا الميكروب في الهواء وفي غيره، وطوله يختلف من ميكرونين الى خمسة

وهـذا الداء قلما يصيب الانسان وأكثر من يصاب به خدمة الخيـل أو الاصطبلات . وكيفية العدوى به أن يلقح أي جزء من جلد الانسان بميكروب هذا الداء في أثناء تنظيف الخيل المصابة أوكشط جلود الموتى منها، وقد يصاب الشخص بسبب عض حيوان له وتلقيحه بلعابه ، أو يصاب بسبب عطاس الحيوان في وجهه فيدخل جزء من مخاط أنفه في عين الانسان أو أنفه أو فمه . وقيل إنه ينتقل أيضا بأكل اللحوم النيئة من الحيوانات المصـابة . ومن الجائز أن ينتقـل هذا الداء من شخص الى آخر

الأعراض — لهذا الداء شكلان : —

(الشكل الاول) الحاد وهو المسمى بالعربية السقاوة . يبتدئ ظهور أعراضه بتوعك وصداع وغثيان وآلام في الاطراف حتى قد يظن أن الداء هو الرثيـة [الروماتزم] أو الحمى التيفودية وقد يوجد ألم بالجنب وضيق في التنفس . واذا كان الميكروب دخل من الجلد التهب مدخله وورم وصـار مؤلما حتى يشبه الجلد مرض الحمرة ثم يتقرح وتتضخم الغدد اللمفاوية القريبة، وبعد اسبوع أو أكثر يظهر طفح من دمامل صغيرة حمراء تعلوها فقاعات ، وهذه تكبر حتى تصير نفاخات كبيرة أو بثور مختلفة الحجم يسيل منها دم ومدة وصديد، وتلتهب قاعدة هذه البثور وما حولها ثم تسقط قشورها فيتكون منها قروح . وقد تتكون عقـد تحت الجلد تستحيل الى خراجات غالبا . وكثيرا ما تظهر هذه العقد أيضا في العضلات

وقد يصيب الداء أيضا الاغشية المخاطية وتكون أعراضه سيلان مخاط رقيق في أول الامر ثم يغلظ وتصحبه المدة أو الدم وتكون رائحته منتنة ، ويكون في الاغشية أيضا عقـد تتقرح حتى تثقب بعض الاجزاء أو تأكل بعض العظام الرقيقـة كما يحصل في داخل الانف . وقد تصاب أيضا الملتحمة أو الحنجرة أو أغشية الشعب وغير ذلك . وتكون حرارة المريض عالية جدا مصحوبة بأعراض الحمى المعتادة ، ولكن ارتفاعها قد يتذبذب، ويفرز زلال في البول ويصـاب المريض بالهـذيان

والارتعاش فالغيبوبة فالموت . ومدة الداء من أسبوعين الى ثلاثة

ويكثر وجود باسيل المرض في العقـد المذكورة وفي القروح وما يسيل منها ، فأعظم الخطر منها في العدوى

(أما الشكل الثاني) فهو المزمن ويسمى بالسراجة وتكون أعراضه قاصرة على الاصابات الموضعية على الاكثر كأن تظهر قروح أوخراجات حول المفاصل أوتلتهب مواضع مختلفة تحت الجلدأو في العضلات. واذا حدثت بثور كان تكونها بطيئا. وقد تصب اغشية الانف المخاطية . وفي بعض الحالات ينحف المريض ويبح صوته ويصيبه السعال أو النزف الرئوي. ومدة هذا الشكل المزمن قد تكون أربعة أشهر

الانذار — غير حميد . وفي الاحوال الحادة لا ينجو الا القليل ، ويشفى نحو نصف الحالات المزمنة

المعالجة — لا يوجد لهذا الداء دواء مقطوع بنجاحه وانما تعـالج الاعراض كالمعتاد

الرثية السيلانية أو الروماتزم السيلاني

سبق الـكلام على مرض السيلان في الجزء الاول وإنما نريد أن نصف هـذا ميكروبه واعراض اصابته للمفاصل

أما ميكروبه فهو من الشكل البزري ويسمى بالافرنجية [Gonococcus] ومعناها حرفيا في اليونانية [بزور المني] فهي من الاسماء التي أخطأوا في أصل وضعها. يوجد هذا الميكروب كثيرا في افراز الاحليل اذا كان الشخص مصابا بالسيـلان يشاهد على الاكثر داخل الكريات الصديدية البيضاء وهو من الميكروبات التي تعسر زرعها في الخارج، ويعيش بوجود الهواء أو بغيره، وفي البيئة القلوية قليلا أو الحمضية ولكنه لايعيش خارج الانسان الا ببعض الوسائل الصناعية العلمية الدقيقة. لا يصيب هذا الداء غير الانسان . ويشاهد ميكروبه في افراز الاحليل والفرج يقل مشاهدته في إفراز الرحم ويندرأو لا يشاهد مطلقا وجوده في افراز المهبل. أما في الذكر فيوجد أولا في إحليله وقد يمتد منه الى الخصيتين أو المثانة أو الغدد الاربية

(فينشأ منه الخبرجل) وفي بعض الحالات قد يصل الميكروب في الذكر والانثى الى الاعضاء الباطنية كالمبيضين أو البليورا أو البريتون أو الغشاء المبطن للقلب أو الاغشية الزلالية المبطنة للمفاصل وغير ذلك كثير

واصابة المفاصل هي المقصودة بالكلام هنا

تبدأ هذه الاصابة بعد ١٤ يوما أو ٣ أو ٤ أسابيع من مبدإ ظهور سيلان الاحليل حينما يكون هذا السيلان قيحا أو حينما يكون صديدا (رقيقا) وهو الاكثر أي في زمن [النقطة العسكرية] (١)

الاعراض — في الحالات الحادة تصاب عدة مفاصل في أول الامر بالألم والورم، وبعد قليل يقتصر المرض على مفصل واحد وهو المرفق في الغالب وقد يكون الركبة أو الرسغ أو غير ذلك . ويمتد احمرار المفصل الى مسافة بعيدة وترم المنسوجات في تلك المسافة كلها حتى قد يظن أن بها خراجا . ويتألم المريض ألما شديدا عند أقل حركة ولكن تكون الحمى غير شديدة . ويزول الالتهاب بالتدريج البطيء جدا ويترك وراءه يبسا في المفصل . وقل أن يتقيح . ومن النادر أن تصاب أغشية القلب . وهذا الداء يصيب الذكور والاناث على حد سواء

وهناك اصابات بهذا المرض أخف مما ذكر فيكون احمرار المفاصل فيها أقل وكذلك ورمها، ولكن تصاب عدة مفاصل في وقت واحد خصوصا الركبتين والمرفقين والرسغين وكثيرا ما يكون هناك آلام في الصفاقات وفي الاغشية المغلفة لأوتار العضلات ، وتغلب اصابة صفاق اخمص القدم . وقد تصاب أيضا الملتحمة بالالتهاب وكذلك الصلبة وغيرهما. وفي تلك الحالات الخفيفة يكون زوال لالتهاب أيضا تدريجيا وقد تطول مدته الى ثلاثة أسابيع أو اكثر ويخلفه كذلك يبس في المفاصل

وسبب تلك الالتهابات كلها هو وجود ميكروب السيلان في الاعضاء الملتهبة وقد تصاحبه أيضا ميكروبات الصديد وذلك اذا وجدت المدة

(١) اصطلاح يراد به السيلان المزمن كما يحصل لكثير من الجنود وهو عسير الشفاء جدا يكاد يكون متعذرا

حال المسلمين الاجتماعية

ومطالبة الاغنياء وسائر الطبقات منها (*)

وفيه بيان حال مشتركي المنار ومساعديه ورأي الاستاذ الامام والشيخ علي يوسف فيه

٢

قد فصلنا القول في المقالة الاولى في الغرض الاول الذي رمى اليه (م.ن) في رسالتـه وهو اعانة جماعة الدعوة والارشاد . واما الغرض الثاني مما رمي اليه وهو مساعدة المنار فقد علم رأينا فيه مما علقناه على رسالته ، وهو أننا لا نقبل تبرعه للمجلة ولاتبرع غيره لانفسنا ، فمساعدة المنار تنحصر في أمرين أدناهما أن يؤدي كل مشترك ماعليه من قيمة الاشتراك في كل سنة ، وأعلاهما الدعوة الى الاشتراك فيه واقتناء مجلداته وأداء حقه الذي هو عبارة عن قيمة الاشتراك

وقد وجد أفرادٌ قاموا بما تيسر لهم من أعلى المساعدة كالنابغة الشهير السيد محمد بن يحيى بن عقيل في سنغافورة، وشهيد العربية السيد الزهراوي الشهير وصديقه الشيخ أحمد نبهان من علماء حمص وفضلائها في بلاد سورية، والكاتب اللوذعي الهادي السبعي في تونس ، والفاضل الغيور محمد افندي عمر في القطر المصري . وانما ذكرت الهادي السبعي وقد كان وكيلا للمنار بالعمولة لأنه من الأفراد الذين يقل نظيرهم في علو الهمة وقوة التأثير، واننا لم نأسف لاضطرارنا الى ترك معاملة أحد أسفنا لاضطرارنا الى ترك معاملته لتأخيره المحاسبة والمكاتبة عن أوقاتها زمنا طويلا، على أننا لم نهتد بعده سبيلا الى تحصيل حقوق المنار من أكثر التونسيين ، على ما تفضل به من التبرع بتحصيلها الوجيه الامثل عبد الجليل الزاووش

وأما أدنى المساعدة وهي أداء حق المنار فمن المشتركين السابقون بالوفاء وهم الذين يؤدون الاشتراك في كل عام وأفضلهم الذين يؤدونه في أوائل السنين وإن لم يطالبوا أو يذكروا ، ويليهم الذين اذا ذكروا أو طولبوا أدوا ، وان تركوا نسوا أو

*) تابع لما نشر في الجزء الثاني ص ٨٩

تناسوا ، ومنهم الذين يلوون و يمطلون، ومنهم من لا يخرج الحق من يده الى أمثالنا في حسن التقاضي الا نكدا ، وقد يكون أبسط الناس لمن يخاف أذاه أو هجوه يدا ، وقد بينا من قبل أحسن أقطار المسلمين وأصنافهم وفاء وأشدها مطلا

وانما انقباسي من مطل النـاس أو هضمهم للحق ما هو أوضح برهان على انحطـاط أمتنا، وضعف تأثير العلم الديني والدنيوي في نفوس أفرادها ، فلا ينبغي أن يغترّ أحد بشهرة أحد في علم ولا فلفسة، ولا بظهوره في مظهر صلاح ولاعدالة، بل يجب أن يزن الجميع بميزان النقد ، فالناس — كما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم — معادن كمعادن الذهب والفضـة ، أي والنحاس والحديد والزنك وغير ذلك ، فالمظاهر العلمية أو العملية كالصقال قد يجعل النحاس أو الحديد المصقولين أبهج من الذهب أو الفضة غير المصقولين ، ولكنهما اذا تركا زمنا طويلا بغير صقل علاهما الصدأ ، وأفسدهما الطبَعُ ، ولا يضر الحجرين الكريمين ترك صقلهما ، فان صقلا كان مزيد كمال في جمالهما و بهائهما . وأنشد الغزالي في الاحياء أبياتا في اختبار مدعي الزهد والتصوف بالمال :

لا يَغُـرَّنْكَ من المر ء قميص رقعـه
أو إزار فوق عظم السـاق منه رفعه
أره الدرهم تعرف حبـه أو ورعـه

فان شئت مثلا من عبر المنار ، وما اتفق لنا من مبكيات الاختبـار ، فأعظم الامثـال التي يجب أن تضرب في هذا المجال رجل من الاغنيـاء العلماء الشرفاء ، يشرح الكتب الشهيرة ، و يتحلى بالحجارة الكريمة ، و يركب المركبـات الفاخرة ، تجرها الخيول المطهمة ، ثم هو يلوي و يسوف في اشتراك المنار عدة سنين ، ثم يقول لوكيل التحصيل بعد المطل الطويل ، إنه لا يدفع قيمة الاشتراك لانه عالم من علماء الدين ! فيالله العجب هل يوجد خزي أخزى من وصف العلم أو الدين بأنه يقتضي هضم حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل ، أليس الجهل أفضل من مثـل هذا العلم ؟ بلى وأستغفر الله من الزيادة على ما قلت

هذا وان صنف العلماء المعممين في مصر قلما يشترك أحد منهم في جريدة أو مجلة

أو جمعية خيرية، ويقل فيمن يشترك في صحيفة لغرض ما ان لا يسعى في السماح له بنصف قيمة الاشتراك أو ما دون النصف ، كأنهم يرون أن الصحف يجب أن تهدى اليهم ، وإن لم يفيدوا أصحابها بعلمهم ولا بجاههم ، ان كان لهم علم ينفع ، أوجاه يشفع ، ولكن يقل فيهم أيضا من يأكل حقا ثابتا عليه لأحد

ومن أغرب ما وقع لنا معهم أن واحدا منهم كان قد أعجبنا حياؤه وتدينه ، فساعدناه في مصلحة من مصالحه مساعدة ذات شأن عنده، ففرض علينا جزاءها أو مكافأة عليها عدة جنيهات ، فقلنا اننا لا نأخذ أجرا على المساعدة فاشترى بها مجلدات من المنار ، ثم انه تأخر عليه اشتراك عدة سنوات فلما طولب بها في هذا العام قال إنه كان دفع الاشتراك عنها سلفا في تاريخ كذا ، فقيل له ان مادفعته يومئذ انما كان ثمن المجلدات السابقة فقال — ويالله العجب مما قال — بل كانت تلك المجلدات هدية من صاحب المنار !! فان كان قد قال هذا القول معتقدا صحته فهل تفكر في السبب الذي حمل صاحب المنار على مساعدته مساعدة تستحق المكافأة وعلى ترك أخذ ما عرضه عليه منها ثم على اهدائه عدة مجلدات من المنار ؟ لعله يتفكر فيعلم ان لاسبب يقتضي ذلك ثم ينصف من نفسه. !! على اننا مع العلم بهذا الشذوذ من هذا العالم الحيي ، وذلك المؤلف الغني ، نقول ان علماء الدين أمثل من علماء الدنيا وفاء ، وأسهل قضاء :

ذكرت في بعض مجلدات المنار السابقة أن علماء الحقوق من القضاة والمحامين احسن وفاء من غيرهم ، وان اقل المتعلمين وفاء كتبة الدواوين، وكم من كاتب صغير ، خير من قاض أو محام كبير ، وانما الناس معادن، يتفاضلون بالاخلاق لا بالعلم ولا بالمناصب ، أضرب لذلك مثلا قاضيا اشتهر بدقة الفهم ، واستقلال الرأي ، وحسن الذوق ، وانتظام الفكر ، وفصاحة القول ، وسلاسة الانشاء ، والجمع فيه بين إقناع الفلسفة وتأثير الخيال ، حتى صار يعده المدنيون من رجال الاصلاح ، وكان مع هذا كله يمنع ما عليه من حقوق الافراد والجمعيات عامدا متعمدا : طلب الاشتراك في المنار بلسانه ، ومات وعليه اشتراك عدة سنين اعيا وكيل المنار تحصيلها منه ، وكان مشتركا في الجمعية الخيرية ومن كبار أعضائها فأمر الاستاذ الامام رئيس الجمعية بمحو

اسمه من دفاترها بعد امتناعه من دفع قيمة الاشتراك عدة سنين .

وان لنا الآن عند بعض القضاة والمحامين اشتراك عدة سنين يئس جابي المنار منهم، وطلب من الادارة قطع المنار عنهم ، وقد ساءني ذلك لان منهم من أجل نبوغه ومروءته ، والتمس له عذرا فيما شكا الجابي منه ، و يعز علي ان يحشر في زمرة الماطلين ، أو يدوّن فى سجلّ الماضين ،

وأما الماطلون من الاغنياء الذين لم يصقلهم العلم الديني ولا الدنيوي فهم كثيرون ومطلهم خشن مشوه . مثاله قول غني من الفيوم عليه اشتراك بضعة عشر سنة لجابي المنار في القاهرة: انني ابتليت بمصائب منعني من المطالعة منهاموت امرأتي، ومجموعات سني المنار محفوظة عندي في الفيوم فاعطني أجرة البريد لاحضرها لك !!

ولا يسعني السكوت في هذا المقام عن كلمة ثناء على فضل من أنبتت أرض في مصر فى هذا العصر ، بل على من يندر وجود مثلهم في اي مصر واي عصر، وهم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده والوزير الكبير مصطفى رياض باشا والنابغة الهمام حسن باشا عاصم، فأما الوزير فقد بينت في فاتحة المجلد الخامس عشر انه كان أول من أراد التبرع للمنار فاشترك بعشر نسخ توزع على الفقراء ثم جعلها خمس عشرة نسخة، وقد أقرها بعده ولده محمود باشا سنة ثم قطعها، وفضل رياض باشا على الاهرام والمؤيد والمقتطف والمقطم مما يعرفه جمهور الادباء، وأما حسن باشا عاصم فقد كان على وقف حياته على خدمة الامة احسن الناس وفاء، حتى انه كان يتحرى أن يكون أول من يدفع الاشتراك للجمعية الخيرية في كل عام على أنه أكثر أعضائها خدمة لها ، وكان يدفع اشتراك جميع الجرائد في أول كل عام أيضا وكان يجيء في ادارة المنار في بعض السنين حاملا الدراهم بيده .

وأما الاستاذ الامام رحمه الله تعالى فقد كان أحرص الناس على مساعدة المنار بكل ما تصل اليه طاقته، وكان كثير من الناس يظن في مساعدته له الظنون البعيدة حتى ان منهم من كان يظن أنه هو الذي يكتب ويحرر أكثر ما ينشر فيه، وقد علمنا هذا مما كاشفنا به بعض القراء حين كتبنا في المجلد الرابع ان كل ما ينشر في المنار غير معزوّ الى أحد فهو لمنشئه، ومن الناس من لم يرجع عن هذا الظن الا بعد وفاة الاستاذ

بعد كتابة ما تقدم نظرت في مذكراتي التي كتبتها قبل انشاء المنار فاذا فيها اني جئته على موعد في مساء اليوم السادس من شعبان سنة ١٣١٥ فعلمت منه ان سليم افندي الانسي أخبره بأن بعض الناس جاؤ من طرابلس ... جريدة . وأنه أجابه بقوله : هل علموا ان الجرائد هنا قليلة ? وكتبت يومئذ في ذلك ما يأتي :

« فعند ذلك كاشفته بعزمي وأخبرته انه جاءني خبر من طرابلس بان والي بيروت بلغه اني جئت مصر لانشئ جريدة أطعن فيها بوكلاء (وزراء) الدولة . وقلت له : المقصد أعلى من الكلام في الشخصيات وان وكلاء الدولة مدحوا كثيرا وذموا كثيرا فماذا كان من نتيجة المدح والذم ?

« فشرح لي الاستاذ حالة الجرائد في مصر (كما فهمته واختبرته) وقال ان المصريين أقامتهم الظروف في حالة جعلت أفكارهم موجهة الى شيء واحد من الجرائد وهو أخبار الحكومة المحلية وماذا يقال عن الخديو وعن الانكليز ولا يلتفتون الى ماوراء هذا . وهذا الامر قد قامت به ثلاث جرائد المقطم والمؤيد والاهرام ... (١) واذا كتبتَ في المواضيع الادبية كالتربية والتعليم أو آداب اللغة لا يلتفت الى كلامك الناس فاني لا أعرف أحدا في مصر من طلبة الازهر أو المدارس مشتغلا باللغة وآدابها الا ان يكون في الزوايا من لم يعرف . نعم ان هذا الامر مهم ومفيد لكنه لا يأتي منه ما يكفي لنفقاته ولا ينبغي التعب وانفاق المال هكذا ...

(وفيها انني ذكرت له هنا ما ذكره لي صاحب الهلال من كثرة مشتركيه وأنه ارتاب في ذلك وقال ان المشتركين الذين يدفعون الدراهم قليلون وما كل من يكتب اسمه في دفاتر أصحاب الصحف كذلك . ثم كتبت ما نصه) :

« ثم انتقلنا الى موضوع الامة ومرضها وان أنفع الوسائل في معالجتها التربية والتعليم ونشر الافكار الصحيحة ، فقلت هذا ماحدا بي لانشاء الجريدة ، واني أسمح ان انفق عليها سنة وسنتين من غير ان أكسب شيئا ... فقال ان كان هكذا

(١) هذا نص ما في المذكرة بحروفه ونقطه وأتذكر انه ذكر لي مشرب هذه الجرائد فأشرت اليه بالنقط لانه لا ينسى

فهو حسن ، وهذا أشرف الاعمال وأفضلها ، وأنا اذا كنت على ثقة من مشرب الجريدة فاني أساعدها بكل جهدي » اه

ولما كتبت فاتحة العدد الاول أعجبه ما بينته فيها من خطة المنار ومقاصده ولم ينتقد منها الا كلمة واحدة في حقوق « الامة على الامام » قال إن المسلمين ليس لهم الآن إمام إنما امامهم القرآن. فتركت تلك الكلمة لاجله. ولم أطلعه على شيء قبل طبعه مما لا يتعلق بشخصه والحكاية عنه الا تلك الفاتحة. ثم كانت تزداد ثقته بالمنار وصاحبه (ولا محل لشرح ذلك هنا) ولكنه لعزة نفسه ومحافظته على قيمة كلامه كان يكتفي من الترغيب في المنار غالبا بمدحه، والشهادة بفائدته ونفعه، دون التصريح بالدعوة الى الاشتراك فيه ، وقلما كان ذلك يجدي لبعد أكثر الناس الموسرين عن الاهتمام بأمر الاصلاح الديني والاجتماعي، قد اشترك في المنار عند ظهوره الافراد من أصدقائه ومريديه بترغيبه، و شترك المئات من غيرهم بغير ترغيب من احد ولم يكن في ذلك غناء ، وما زاد دخل المنار على نفقاته الا في السنة الخامسة، وقد كان لمقالاته (الاسلام والنصرانية) تأثير في ذلك . ولم أعلم أن عشرات من المشتركين طلبوا الاشتراك بتأثير ثنائه عليه الا في تلك السنة وكان هؤلاء المشتركون من مديرية الدقهلية وما جاورها، سمعوا منه ذلك الترغيب في بلادهم أيام كان فيها يوزع الاعانات على الذين نكبوا بالحريق ، ولا أتذكر انني طلبت منه المساعدة تصريحا ولا تلميحا الا في أوائل تلك الايام ، فانني كتبت اليه كتابا أشرت فيه الى الشكوى من قلة الاقبال على المنار – وكان في المنصورة – فكتب الي كتابا قال فيه هذه الكلمة التي كانت أحب الي من كل ما تجدد من طلب الاشتراك ، لانها بينت رأيه في المنار كتابة وهي :

«الناس في عماية عن النافع وفي انكباب على الضار، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل الى تغيير الحاضر، بما هو أصلح للآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا، والفقراء لا يستطيعون الى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لا يضعف الامل ، في نجاح العمل »

وأذكر أيضا أن وجيها من أسرة كبيرة غنية في بعض المديريات كان يعد من حزب الاستاذ طلب مني بحضرته ارسال المنار الى بضعة عشر مشتركا من أقاربه وأصحابه على انه هو الكافل لهم، والملتزم لتحصيل قيمة الاشتراك منهم، فأرسلناه اليهم، وبقي عدة سنين لا يدفع عن نفسه ولا عن أحد منهم شيئا حتى في حياة الاستاذ، ثم بعد تكرار المطالبة وصل الينا منه ومن غيره اشتراك بعض السنين من بعضهم، ويئسنا من الآخرين فمحونا أسماءهم.

وأما أصحاب النفوذ والوجاهة من أصدقائه — الذين كانوا أقدر منه على نشر المنار لو أرادوا لتصريحهم بما لا يصرح هو بمثله — فلم أعلم لأحد منهم مساعدة تذكر الان مصطفى بك الباجوري رحمه الله تعالى طلب المنار لجماعة في طنطا أكثرهم من أصدقائه المحامين. على أن كثيرا من جماعة الاستاذ ما كانوا يدفعون قيمة الاشتراك ولا كنا نحن نطالبهم بها لاجله، وهو لم يأمر بارساله الى أحد بغير ثمن الا الى اثنين من أصدقائه (أحدهما) شيخ صوفي صالح مشهور في الوجه القبلي (وثانيهما) قاض شرعي من اخوانه مريدي السيدجمال الدين في الوجه البحري، (رحمهم الله أجمعين)

وجملة القول ان الاستاذ قدس الله روحه صرّح لي بما حقيقته انه لم يعمل للمنار ما يحب عمله له، بل قال لي مرة أو أكثر من مرة: انني لم أعمل له شيئا. أي ما يعده هو شيئا يذكر. ولا سيما بعد مارأى من مقاومة أعدائه له، وعدم قيام أصدقائه بما كان يحب من مساعدته، على مارأوا من شدة ميله ورغبته، وقد كان هو يقوم بموافاة رغائبهم وقضاء حوائجهم بمجرد الشعور بها، ولا ينتظر منهم إلحاحا ولا تصريحا بطلبها، وكان يجب ان يكون كل فرد منهم أولى بذلك منه، لا لأن له الفضل عليهم، والمقام الاعلى فيهم، بل لانه أشدهم حياء وأرقهم شعورا. فلا ينبغي لمن عرف طباعه وأخلاقه العالية ان يكلفه ما لا يليق بها، كالتصريح بطلب الشيء بلسان المقال، مع العلم به من دلالة الحال، على انه هو لم يكن يكلف صديقه مثل ذلك وان كان ذلك الصديق لا يستحيي منه، ولا يثقل مثله على طباعه وأخلاقه.

من أجل هذا كانت مقاومة أعداء الاستاذ للمنار أعظم من مساعدته له، وانما

كانوا يقاومونه لتنويهه به ، واذاعته لعلمه وفضله ، وانني أذكر في هذا المقام كلاما للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد عفا الله عنه فيه عبرة لصاحب الرسالة التي أوجبت دتابتنا لهذا المقال ، ولغيره ممن يعتبرون بوقائع الاحوال ؛

قال لي الشيخ علي يوسف مرة: إنك أنت رجل غير عادي فلقد أوتيت من العلم والبصيرة ومعرفة حكم الدين واسراره وما يحتاج اليه المسلمون من الاصلاح في هذا العصر ومن حسن البيان ماجعل مجلتك من الحاجات الضرورية التي لاغنى للمسلمين عنها اذا أرادوا أن يرتقوا في هذه الدنيا مع المحافظة على دينهم، وكان يجب أن يوجد المنار في كل بيت من بيوت المسلمين ، ومصر مستعدة لرواج هذه الافكار فيها، وانت ههنا غريب ليس لك اعداء ولا حساد إذ لا يعدك احد فيها مزاحما له في جاهه وصيته. الا انك التزمت في المنار اطراء الشيخ محمد عبده والتنويه به، وهو اهل لذلك الا انه غير محتاج اليه اذ لا يزيد في قدره عند عارفي فضله الكثيرين ولا يقنع غيرهم من مبغضيه ، وان للشيخ اعداء كثيرين لهم نفوذ في البلاد، وأنت بهذا التنويه به تجعلهم خصوما للمنار يقاومونه وينفرون الناس منه، واكثر من يسمع ذلك منهم يأخذه بالقبول، فخير لك أن تترك هذه الخطة وتسلك في ذكر الشيخ طريق المؤيد بأن تعبر عنه اذا اقتضت الحال ذكره بأحسن ما يقرن بأسماء كبار العلماء وهو لقب « فضيلة الاستاذ فلان — أو بزيادة — العلامة فلان » فبهذا تأمن كيد أعداء الشيخ لك المفضي الى حرمان أكثر المسلمين بمصر من الاستفادة من المنار اه

فقلت له انني أعلم قدر ما في هذا الكلام من النصيحة وانني قد علمت بالاختبار ان أعداء الشيخ يصدون عن المنار وقلما يوجد من يعارضهم في ذلك . ولكن المنار [illegible] لا للتجارة، ودعوة الاصلاح لايرجى ان تنجح وتبقى الا اذا كان [illegible] يعوّل عليه ، ولا أعرف أحدا في المسلمين اهلا لهذه [illegible] بعلمه و بصيرته واخلاصه وأخلاقه الا هذا الرجل، فأنا أقصد بالتنويه به ترشيحه [illegible] الاصلاح في العالم الاسلامي كله لا في مصر فقط . وهذا الغرض ركن من أركان الاصلاح يرتبط على كثرة قراء المنار في القطر المصري. فقال اذا كان الامر كذلك فأنت أدرى بشأنك

هذا - وإن هذا القول من الشيخ علي يوسف قد كان قبل اشتداد غضب الامير على الاستاذ الامام واظهاره للناس وما ترتب على ذلك من التقاطع الاخير بين الاستاذ والشيخ علي ، ومن سعي كثير من كبار المقربين للامير للتفريق بيني وبين الاستاذ رحمه الله تعالى، اذ كان ممن كلمه في ذلك الوزير الشهير بطرس باشا غالي، وممن كلمني فيه نقيب الاشراف وشيخ مشايخ الطرق الشيخ توفيق البكري. ولا حاجة الى شرح ذلك في هذا المقال

ان صاحب الرسالة (م . ن) يعلم ما لا يعلمه الا الاقلون من تاريخ المنار وما لقي من المقاومة وكونها على قوتها لم تكن مانعة من انتشاره واحترام كبراء الامة -حتى خصومه- له ولمنشئه ، وأنه على كثرة ما كان ينتقد العلماء ويلقي عليهم من تبعة فساد دين الامة ودنياها لم يتصد أحد منهم للرد عليه مع دعوته اياهم الى انتقاد ما يرونه منتقدا فيه على رأس كل عام ، ويعلم أيضا أن مقاومة الامراء والكبراء من العلماء وزعماء الحزب الوطني وغيرهم لم تكن صادة لمن دونهم في الجاه كمحمد افندى عمر من الدعوة الى الاشتراك في المنار ومن استجابة كثير من الناس له ، ذلك بأن الحرية الشخصية قد رسخت في البلاد ، حتى صارت مستعدة لقبول كل دعوة وانتشارها بقدر من يقتنع بفائدتها من الافراد. ولكن الدعوة لا تنجح بنشر مقالة أو مقالات معدودة ، بل يشترط لنجاحها أن يكون لها دعاة دائبون ، وتأثير القول فيها أكبر من تأثير الكتابة، ولا بد من المواظبة والتكرار، كما علم من سنن الله تعالى في كل دعوة الى إصلاح أو إفساد، فهذا هو سبب حكمنا على رسالته بأنها لا تفضي الى نيل المراد، فالاقوال والافعال العارضة الموقتة ضعيفة التأثير في الامور العامة ، وإنما العمدة فيها على الدعوة الدائمة، فقد أيد المنار أقوى من أنبتت هذه الديار حجة وتأثيرا روحيا ولم يكن نجاحه بتأييده وتنشيطه ، وخذله وثبط عنه أعظم من فيها نفوذا ولم يخب بخذله وتثبيطه، وقد زالت ولله الحمد تلك المناهضة، فلا يخشى ان يلقى الداعي بعد اذى ولا معارضة

ثم اعلم صاحب تلك الرسالة ان المنار ثابت بفضل الله تعالى وان انقطع عنه منذ بدأت الحرب الاوربية كل مدد كان يأتيه من البلاد العثمانية والروسية ومن المغرب الاسلامي ، وكذا من المشرق والجنوب الا قليلا ، - وان محت ادارته أيضا

أسماء مئات من مشتركي القطر المصري ؛ بعضهم بحق وبعضهم بغير حق بل بشهادة غير عادلة من الجباة . — وكان هذا في فترة بضع سنين لم أنظر فيها شيئا من أمر الادارة وقد قضيت كثيرا منها في الاسفار — وان المتأخر من مال الاشتراك على الثابتين من المشتركين يزيد على ألف جنيه مصري . واني لأعترف بأن جل التبعة في ذلك على تقصير الادارة وتركها مطالبة الكثيرين منهم لا على من طولبوا فلووا ومطلوا ، وانا لنرجو ان توفق ادارتنا فيما شرعت فيه من الاصلاح الى اقتضاء حقوقنا بالحسنى ، فقلما يوجد في مشتركي المنار من يستحلّ أكل ماله بالباطل وهضم حقه بغير عذر ، ولكن يثقل على بعض من عليهم اشتراك عدة سنين ان يؤدوها دفعة واحدة ، ولا يضرنا تأديتها أقساطا متعددة ، وإن منهم أفرادا يطمعون بأن نترك لهم شيئا مما عليهم برضا منا ، ومن هؤلاء من يتوسل الى ذلك بأن بعض الاجزاء لم يصل اليهم ، وحجتنا انه كان ينبغي لهم ان يطلبوها في وقتها واذاً لارسلت اليهم بغير ثمن حسب الشرط ، وانا نعلم بالاختبار ان كثيرا من المشتركين تضل عندهم الاجزاء أو يأخذها بعض أصدقائهم من مكاتبهم أو بيوتهم من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون، أو تضيع بانتقالهم من مكان أو بلد الى غيره، ثم يتوهمون انها لم تصل اليهم البتة

وقد عزمنا على ان نبذل جهدنا في حسن الاقتضاء ، راجين من الاكثرين حسن القضاء ، وعلى ان نكتب بعد ذلك ما نرى فيه الفائدة من الاختبار ، ومنه التصريح بأسماء المحسنين والمسيئين في القضاء ، ليكونوا عبرة للمعتبر بحال المسلمين ، ونؤكد البشارة لاخينا (م. ن) الداعي الى مساعدة المنار خوفا من سقوطه بما أحدثته الحرب من العسرة ان ما على خيار المشتركين في القطر المصري وحده يزيد على ما يحتاج اليه من النفقات فلا يضره انقطاع المدد عنه من الخارج ، فاذا كان يجب زيادة انتشاره لاجل تعميم فائدته فالطريق الى ذلك هي الدعوة الى منهجه الاصلاحي ، ولكل دعوة أهل ، ولكل مجتهد نصيب ، ودعوة الاصلاح بالحق أحق أن تستجاب ، ولاسيما اذا روعيت فيها الحكمة وفصل الخطاب، (أفمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع أم من لا يَهدي الا ان يُهدى ؟ فما لكم كيف تحكمون !)

رحلة الحجاز

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تعالى ان وفقني في هذا العام لتلبية دعوة أبينا ابراهيم، عليه وعلى آله الصلاة والتسليم، بأداء فريضة الحج، واكمال المناسك بالعج والثج، ثم أحمده عودا على بدء ان وفقني للوفاء لوالدتي بالحج معها. بعد ان حالت دونه الاقدار بالاعذار تارة من قِبلي وتارة من قِبلها، بل أحمده قبل ذلك كله أن سخر من سخر من الدول لازالة ما أحدثته الحرب الاوربية العامة من موانع السفر بالبحار الى الحجاز، ولتكلف إعداد السفن لحمل الحجاج، بعد أن وفق الشريف أمير مكة للقيام بأمر استقلال العرب في تلك الاقطار، ولمعاهدة تلك الدول المتصرفة في جميع البحار، فسبحان من سخر من شاء لما شاء بتوفيق أقدار لأقدار، وأظهر حجته على الخلق في كل عصر من الاعصار، من آيات يزداد بها إيمان المؤمنين، ويحق بها القول على الجاحدين، — والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، الامي الذي أرسل لتعليم الاميين والكاتبين، العربي المبعوث لتوحيد الامم باللغة والدين، وعلى آله وأصحابه الكرام، الذين أخذوا عنه المناسك وأحيوا شعائر الاسلام

أما بعد فان ركوب الالوف من المسلمين لمتون البحار، وجذبهم من أقصى المغرب والمشرق لاداء فريضة الحج في هذا العام، يصح ان يعد من تأييد الله تعالى للاسلام ومن المعجزات الدائمة لخليليه ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ومصداقا لحديث «ان الله سيؤيد الاسلام برجال ماهم من أهله» وقد ورد بلفظ آخر صرحوا بصحة سنده. أوليس خذلانه — جلت قدرته — لحكومة الاتحاديين الملحدين، بما أقدموا عليه من التنكيل بالعرب وانتهاك حرمات الدين، وتوفيقه — عمت رحمته — لأمير مكة ومن معه من المسلمين، بالخروج على البغاة المارقين، وتسخيره — بهرت حكمته — لدولتي الفرنسيس والبريطانيين الكتابيين، بحمل الحجاج من الغرب والشرق الى البلد

الامين = أليس هذا كله أقدارا تتابعت ، وأسرارا تشايعت، فانجلت عن استجابته سبحانه وتعالى لدعوة ابراهيم خليله ، وإحياء شريعة محمد عبده ورسوله ، بعد ما كاد يظن ان أسباب الحرب الظاهرة ، حالت دون تلك الدعوة الطاهرة ، (١٤ : ٢٩ ربَّنا إني أسكنتُ من ذُرّيتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتكَ المحرّم ربنا ليقيموا الصلاةَ فاجعلْ أفئدةً من الناسِ تهوِي اليهم وارزقهم من الثمراتِ لعلهم يشكرون) بلى وانها لتؤيد ماروي عن ابن عباس، من تلبية الناس لتلك الدعوة في عالم الارواح، اذ قام عليه الصلاة والسلام بعد فراغه من بناء البيت العتيق، ممتثلا قول الله له (٢٢ : ٢٥ وأذّن في الناس بالحجّ يأتوكَ رِجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍّ عميقٍ ٢٦ ليشهدوا منافعَ لهم ويذكرُوا اسمَ الله في أيامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ٢٧ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق)(*) فقد روي عنه ما معناه أن الله تعالى أمره أن ينادي بذلك وقال له عليك النداء وعلي البلاغ . وأنه قام في مقامه (المعروف الى الآن بمقام ابراهيم)وقيل في الحجر وقيل على الصفا وقيل على أبي قبيس فنادى يا أيها الناس ان الله قد اتخذ بيتا فحجوه — فاجابه كل من كتب الله له الحج الى يوم القيامة قائلين «لبيك اللهم لبيك» فان لم تكن هذه الاجابة حقيقية في عالم الارواح ، ولا عبارة عن الاجابة بالقوة ولسان الاستعداد ، فهي تمثيل لما تظهره مجاري الاقدار، من وراء حجب الاستقبال، فتشاهده الاجيال في كل حول من الاحوال

لقد كان النزوع الى حج بيت الله الحرام ، هوى ساكنا في القلب يحركه الموسم في كل عام ، وتحول موانع الاقدار دون جذبه البدن الى تلك المشاعر العظام،

(*) التأذين والاذان بالشيء النداء للاعلام به . والرجال جمع راجل وهم المشاة ، والمعنى يأتوك مشاة وركبانا على كل ضامر من الابل وغيرها وهو المهزول من طول السفر ، ويأتين صفة لكل ضامر. والفج الطريق والمسلك المنفرج بين الجبال ونحوها، والعميق البعيد الغور أو المدى ، والايام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق بعده ، وكذا يوم عرفة في قول، والامر بالاكل من لحوم ذبائح الهدي التي تذبح بمنى في تلك الايام — ومثلها الاضاحي في سائر البقاع — للندب عند الجمهور وللوجوب عند طائفة . والتفث المناسك ، أو التحلل من الاحرام الذي يزال به الوسخ بالحلق والطيب اذ أصل التفث الوسخ . والمراد بالطواف هنا طواف الافاضة الذي تتم به أركان الحج فيتم التحلل منه .

وأهمها ماكان أولا من عدم الامن على النفس من ظلم الحكومة الحميدية ، ثم ما هو شر منه وأنكى من إلحاد الحكومة الاتحادية، ومنها ما كان في بعض السنين من عدم استطاعة السبيل ، أوعجز السيدة الوالدة عن الرحيل

فلما دعت الحكومة المصرية المسلمين في هذا العام الى الحج بألسنة الصحف المنشرة ، والتزمت حمل من يحج الى جدة ذهابا وايابا بأجرة قليلة ، تاركة ما كانت تتقاضاه من كل مريد للحج من التأمين المالي ، وعلمنا أن هذه الدعوة مبنية على تأمين الشريف أمير مكة للبلاد، وازالته كل ما كان هنالك من أسباب العيث والفساد ، — صادفت هذه الدعوة في أنفسنا أتم الاستعداد والاستطاعة ، وانتفاء جميع الموانع دون هذه الطاعة ، بل تأكدت داعية الفريضة ، بما يرجى في اثناء أدائها من واجب النصيحة ، التي تقتضي الحال الحاضرة أداءها لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فقد علمنا أن طريق الحج ، قد مهد لمسلمي الشرق والغرب ، الذين حالت بيننا وبينهم الحرب ، فلا سبيل للتواصل بيننا وبينهم من الطاق ولا من الباب ، ولا للتناصح بخطاب ولا كتاب ، ونحن الآن أحوج ما كنا الى التناصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، والتعاون على ما يجب من التقوى والبر ، فهل نتوانى في أداء هذه الواجبات، وقد ابيحت لنا في أشرف الامكنة وأفضل الاوقات، اذ نؤدي المناسك في بيت الله ومشاعره العظام منى والمزدلفة وعرفات ؟

نعم ان حكومة هذه البلاد آذنتنا بإباحة الحج في هذا العام ، فذكرتنا بايذانها به أذان أبينا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فلبى القلب داعي الله قبل تلبية اللسان وسعي الاقدام : «لبيك اللهم لبيك لبيك ، لاشريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » فلم نكن ممن يثنيهم عن هذه التلبية إرجاف المرجفين، ولا خرص الخراصين، ولا إفك المذاعين، الذين أذاعوا في طول البلاد وعرضها ان من يقصدون الحج في هذا الاوان ، يلقون بأيديهم الى التهلكة بما أعد لهم من مدافع الترك وطيارات الالمان ، ولا قولهم إن صاحب المنار مرسل مع وفد العلماء الذين أرسلهم سلطان مصر لمبايعة شريف مكة بالخلافة ، ولا قول بعضهم إنه هو الذي يريد ذلك دون العلماء ولا قول بعضهم بالعكس ، فالفرائض والواجبات لاتترك

لتقوُّل غوغاء الناس، ولا لاوهام العوام ولا الخواص ، وحسبي ان أعلم انني أحج لوجه الله تعالى منفقا من مالي الذي أعتقد حله وقد ادخرته لذلك في هميان منذ سنين، وانني ابتغي زيادة الاجر عند الله تعالى بصحبة والدتي وخدمتها في هذه السبيل ، وبما أبغيه من الازدياد من العلم النافع والاختبار والاستفادة من أهل العلم والبصيرة ، وبما أنويه من النصيحة لكل من أرى الفائدة في نصحه من اخواني المسلمين فى تلك البقاع الطاهرة الشريفة ، بما أرى فيه الخير والمصلحة لامتي في أمري دينها ودنياها، لا أحابي في ذلك شريفا ولا أميرا ، ولا أغش فيه سوقة ولا فقيرا، وانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى. كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم.

على ان حبل الكذب – كما تقول العامة – قصير، ولا سيما اذا كان في شيء كالحج موعده قريب ، فسفر الحج في هذا العام كان أقل من خمسة أسابيع ، فما أسرع ما ظهر كذب تلك الاقاويل

لم يبق أحد في مصر الا وقد علم ان حجاج بلاده قد دخلوا المسجد الحرام بمشيئة الله تعالى آمنين ، وأدوا مناسكهم وقضوا تفثهم محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وعادوا الى أوطانهم سالمين مغبوطين ، وان الشريف لم يدع أحدا من الحجاج الى مبايعته ، ولا يزال الخطباء يدعون للسلطان العثماني في بلاده ، وان صاحب المنار لم يكن بينه وبين وفد العلماء السلطاني خلاف في امر المبايعة المخترعة بمصر ولا في غيره، وانه عاد مع والدته الى أهله وولده وموطن عمله كسائر الحاج ، اذ لم يذهب مدعوا الى منصب قاضي القضاة ولا مشيخة الاسلام ، وها هو ذا يقص خبر رحلته ، على جميع من يطلع على مجلته ، بما يمهد قراؤها من صدقه وصراحته ، اذ كان — ولا يزال — يشرح ما طرأ من الفساد على الرؤساء والحكام ، وما سرى من الضلال والخرافات الى العوام ، غير مبال بسخط الخاصة، ولا مهتم باستمالة العامة ، (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) :

(لها بقية)

باب الشعر والادب

قال محمد توفيق علي [1] من قصيدة له في مديحه عليه الصلاة والسلام

هل مر يوم لم يلح فيه أفقه   شمس تضيء لنا من القرآن
هل هزت الاجيال دين محمد   فرأته غير مثبت الاركان
هل ينكر الثقلان أن نبينا   كنز العلوم وكعبة العرفان
ومثبت التوحيد في أركانها   بالمعجزات وساطع البرهان
ولربما جعل الحسام نصيره   في ردع أهل الظلم والطغيان
وأعادها نوراً وكانت ظلمة   دهماء سابغة على الاكوان
لو أننا متمسكون بدينه   لم يرض منا مؤمن بهوان
ولما هزمنا لو تجمعت العدا   لقتالنا واستظهروا بالجان
لكننا فشت المعاصي بيننا   وتحكمت فينا يد الشيطان
توبوا الى الله الكريم وأصلحوا   أعمالكم خافوا من النيران

وقال في أصحاب السوء

ليَ أصحاب اذا عاشرتهم   لا تقل ان عثروا يوما لَعا [2]
يأكلون السحت فيما بينهم   ليس من جوع ولكن جشعا
يمزجون الخمر بالماء فهل   مزجوا أن شربوها أدمعا
قعدوا عن كل فخر وعلاً   وسعى للعار منهم من سعى
وهم والله في أعناقهم   لا يحبون التقيّ الورعا

(١) هو ضابط (يوز باشي) في الجيش المصري وكان رفيقا لنا في سفر الحج وسيأتي ذكره في الرحلة (٢) يقال للعاثر « لعاً لك » دعاء له — أي أنعشك الله وأقامك من عثرتك . واذا دعي عليه يقال له : لا لعا لك

كم نهيناهم عن الخمر فلم يجدوا من دونها منتجعا
كم زجرناهم عن الفحش فلم يجدوا في غيره متسعا
انهم قد ظلموا أنفسهم فاصفح اللهم عمن رجعا

﴿ وقال في ذم الخمر وضررها ﴾

خذوا كأسها عني فما أنا شارب ولا أنا عن ديني ودنياي راغب
لقد حرم الله المدام وانني الى الله مما تستحلون تائب
لئن بتُّ جبارا على الارض قاهرا فلست لجبار السماء أحارب
أأشرب سما ناقعا في زجاجة تحوم حوالي شاربيه المصائب
لئن شبهوا كاساتها بكواكب فكم أنذرتنا بالنحوس الكواكب
وان عصروها من خدود كواعب فكم من بلايا جرهن الكواعب

﴿ وقال في تفضيل الماء على الخمر ﴾

اذا طاف بالكأس الدهاق عليكم فما أنا منكم يبرأ الله منكم
لي الماء وحدي لا أبالي بجمعكم رضيتمْ غضبتمْ خنتمُ أو وفيتمُ
فصفّق أباريق المدام وهاتها زلالا فنفسي أوشكت تتضرم
وتلك مدامي لا بنات دنانهم وذاك زجاجي لا الزجاج المفدّم (١)
اذا رقرقت في الكاس ألفيت فضة تَدفقُ أو ذوبا من الدر يسجم
يقطرها الدنُّ الحلال (٢) كأَنما تتابعها عقد من الدر ينظم

---

(١) الاناء المفدم ما وضع على رأسه الفدام وهو بفتح الفاء وكسرها ليف يصفى به ما يصب منه في الاكواب. يقال فدمه بالتخفيف و التشديد وأفدمه

(٢) الدن بالفتح وعاء كبير للشراب ووصفه بالحلال باعتبار ما فيه . وتقطير الماء إسالته قطرة بعد قطرة ولعله أراد بالدن المفدم ماتوضع عليه المصفاة (الفلتر) واسناد التقطير اليه مجاز

يرن رنين العود في كل قطرة　　كأن قيانا تحته تترنم
وشتان بين الماء والخمر في فم　　ولكنْ ذا حِلٌّ وهذا محرم
فمن شاء أن يلقى جهنم قبل أن　　يموت ففي حان المدام جهنم
تجاذب روح الشاربين بنشوة　　تكاد لها أحشاؤهم تتضرّم
ومن خاف ناب الافعوان ينوشه[1]　　ففي كأسها ناب خفيٌّ مسمَّم
يمزق أستار النفوس لعابه　　ويلطم ناب الشاربين فيهتم[2]
منابع أدواء موارد ريبة　　تطول بها البلوى ويقذي بها الفم
وطاب لأصحابي من الخمر نتنها　　وأوهمهم شيطانها فتوهموا
يقولون شرب الخمربات فريضة　　علينا فلسنا ان تركناه نَهضِم
فهلا ترى أنا نموت بتركها　　فقلت لهم موتوا فلا خير فيكم
ألم يكفكم وِردا كؤوسٌ مزاجها　　من الذل والحرمان صابٌ وعلقم
وتضييعكم عز البلاد وهدمكم　　بناءً حقيقا انه لا يهدّم
أقامته أطراف العوالي وصانه　　قرونا على الدنيا الحديد المثلم
اذا مالت الدنيا به قام ركنه　　يناطح رُوق النجم والدهر مرغم
ألا أبلغوا اهرام مصر توجعي　　وان تك لا ترثي ولا تترحم
وقولوا لرمسيس بن سيتي أفق لنا　　أتتركنا في ذا الشقاء وتنعم[3]

باب المراسلة والمناظرة

﴿ جمعية آداب اللغة العربية بلندن ﴾

سيدي الاستاذ محرر « المنار »

لا أرى بدًا – اذا سمحت مكارمكم – من نشر كتابي هذا في « المنار »،

(١) الافعوان بالضم ذكر الافاعي و ينوشه يتناوله و يأكل منه. استعمله بمعنى ينهشه (٢) يعني أن لعاب الكأس وهو الخمر يفسد الاسنان و يتلفها فعبر عن ذلك بلطم الناب وهتمه أي كسره (٣) لا ندري من أين علم الناظم أن رمسيس سعيد ناعم

ولي من ظاهر عنايتكم بهذا المشروع شفيع بذلك ، ومن تكرار تحريري في المجلات الاخرى عذر في الركون اليكم، فان من الضروريات في جميع الاعمال العامة الكبيرة كسب تعضيد مجموع الصحافة لا بصفة وقتية بل بصورة دائمة . فلا بدّ اذن لقلمي العاثر من تكرار الاعلان عن هذا المشروع ، ومن أمثال فضيلتكم ترجى المؤازرة الادبية الوجيهة فيما يذهب بضرر ويجلب فائدة للشعوب المستضعفة التي تذودون عن كرامتها وتناضلون عن حقوقها .

أغراض المشروع واضحة جلية وقد سبق لكم نشرها في « دعوة اللجنة التحضيرية » ، وكلها تدور حول نقطة جوهرية وهي خدمة اللغة العربية بجميع الوسائل الميسورة ، وتحت هذا تنطوي عدة مسائل أدبية اجتماعية وقومية حيوية لا يخطيء في تقريرها المفكر البصير .

يتساءل بعض النقاد: لماذا أشركنا معنا — نحن العرب — المستشرقين في عمل كهذا جدير بنا أن نستقلّ به؟ وهو سؤال غريب اذ ما سمعت أن العلم مقيد بقيود الجنسية، ومامن مطلع الا و يقرّ مؤلف «تاريخ آداب اللغة العربية» على قوله في مميزات النهضة الادبية الاخيرة منذ سنة ١٧٩٨ م الى الآن : « من العوامل الرئيسية في احياء آداب اللغة العربية في هذه النهضة اشتراك الافرنج في درسها ونشر كتبها والتنقيب عن تلك الكتب في مظانها . وليس اهتمام الافرنج بالآداب العربية حديثا فانه يرجع الى الاجيال الوسطى قبل نهضتهم الاخيرة لانشاء تمدنهم الحديث » فقوم هذا شأنهم وتلك آثارهم يجب أن ننزلهم منزلة الاكرام ، ان لم يكن لحرمة العلم والادب عامة فلحرمة لغتنا التي هي ديوان أخلاقنا وحضارتنا وآدبنا . فمن الاعتساف ونكران الجميل أن ينعى علينا هذا التصرف وأن نعابَ به . ومن الفكاهة المرّة أن يشترط علي طالبُ علم افادته عن سيرة رئيس « اللجنة التحضيرية » وسيرة كل عضو من أعضائها قبل أن يتبرع بمليم واحد لهذا العمل « وان راق لديه كثيرا » . . . . . . ! ! ألهذا الحد بلغ بنا التحفظ والتهيب وسوء ظن بعضنا بالبعض الآخر؟ يكفي في الرد على مثل هذا السؤال أن يقال: ليس بين أعضاء اللجنة التحضيرية إلا مَن يغار على نهضة اللغة ، وكلنا طلبة علم نريد ترقية معلوماتنا وتمرين أنفسنا

على الترجمة ثم التأليف ، وتعويد أقلامنا على لغة مهذبة نقية مع تعيين الكلمات الاصطلاحية العلمية والفنية متحدين لغة الكتابة السليمة التي هي في كل أمة غير لغة العامة. وبعبارة أوضح إننا من أوساط المتعلمين لا ميزة لنا غير اجتهادنا واقدامنا على أداء واجب تناساه من هم أقدر منا ، فلسنا بالفلاسفة ولا بالفحول، كما لا أعرف أننا وضعنا في درجة العوام والغوغاء . ولسنا ممن يصطادون الاموال لنفع جيوبهم ، ولا ممن صدرت عليهم أحكام المحاكم الجنائية ولاغيرها ، فعلامَ يتخوف مَن يروقه العمل من التبرع، وكل قرش وكل جنيه يرسل باسم اللجنة يودع فورا في « المصرف الاهلي المصري » بلندن ؟ ......

وأما الاستاذ مرجليوث فلعل شهادة سواي فيه أولى بالاعتبار . قال مؤسس «الهلال» وقد أوجز كثيرا كعادته : «ليس بين قراء العربية من لا يعرف الاستاذ مرجليوث لما نذكره من آثار قلمه في خدمة اللغة العربية بالتأليف أو النشر . وقد تلقى علومه في جامعة اوكسفورد وتولى تعليم اللغة العربية فيها من سنة ١٨٨٩ م ، وهو يمتاز على الخصوص بسعة معرفته في اللغة العربية وآدابها. يكاتب أصدقاءه من العرب بأسلوب عربي خالص من شوائب العجمة. وله فضل نشر كتب عربية هامة آخرها كتاب معجم الادباء لياقوت الحموي . وقد نشر رسائل أبي العلاء مع ترجمتها الانكليزية وهو عمل لا يستطيعه الا القابض على ناصية اللغة العربية لان هذه الرسائل لا يفهمها العربي الا بمراجعة المعاجم،ونشر آثارا عربية تاريخية وشعرية، وقطعة بابيروس عربي كانت في مكتبة اوكسفورد . وألف في مشاهد اورشليم ودمشق كتابا حافلا بالرسوم والشروح ، وله كتاب في سيرة النبي بالانكليزية . وترجم الجزء الرابع من تاريخ التمدن الاسلامي الى الانكليزي وله مقالات عديدة في المجلة الاسيوية الانكليزية وغيرها » . اه

وكتب الي أحد الفضلاء يسألني عن مزية العمل من الوجهة السياسية «حيث أن مركزنا السياسي الحاضر هو في نظره أهم المسائل» .... مع أننا أبنا مرارا أنه ليس لهذا المشروع أي صبغة سياسية ، وما تطرقت السياسة الى عمل كهذا الا أفسدته. وان يبدل حالتنا السياسية جمعية ولا جمعيتان، فان العليل لا يبرأ بالاعلان زورا عن عافيته، بل

باستئصال دائه وعلته . ولكن اذا كنا ومعظم الافريقيين والشرقيين والعرب عامة معدودين في نظر الاوربيين بمرتبة البهائم ، ألا يعد من الحكمة اذن تخفيف هذه الوطأة باظهار فضائلنا في أدوار نهضتنا العلمية والادبية وتصحيح الغلط الفاحش الشائع عنا ، فكل هذا يمكن تحقيقه بهذا العمل الجامع أيضا لمزاياه الادبية البحتة .

لو كانت لسنا في هذه الديار منزلة من الاحترام لما راجت على حسابنا رواية « قسمة » التي هى كانت ظلما وفضيحة اجتماعية وتاريخية كبرى لنا. ولئن انتقد بشدة تمثيلها مثل القائد الانجليزي السير سمث دروين رحمة بالآداب العامة ، فلعله ولعل كثيرين سواه من علية القوم يعتقدون صحة ما تمثله تلك القصة الخيالية من الكبائر آسفين على حالنا الشائنة ..... فيا للمصائب ! ! واذا كانت كل من روسيا واليابان رغما عن تحالفهما مع انجلترا يقدران أن أصدق التحالف ما كان بين الشعوب بعضها مع البعض لاما بين الحكومات فقط ، فأصبحت جريدة « التيمس » تصدر من حين الى آخر بفضل المساعدة المالية التي تهبها كل من تينك الحكومتين ملحقات ضافية شارحة الحياة الروسية واليابانية بكل أسلوب ووسيلة جذابة للرأي العام الانجليزي ، أينعى علينا نحن المرموقين بالازدراء والسخرية الذين لا تربطنا محالفة ولا جامعة حرة راقية بأوروبا — أينعى علينا أقدامنا على عمل كهذا يشمل ما بين أغراضه ازالة سوء التفاهم بين الغرب والشرق أو بالاحرى بين الفرنجة والعرب ؟

يقول كولردج : « اللغة عدة العقل الانساني الجامعة لغنائم فتوحاته السابقة وأسلحة انتصاراته المستقبلة » ويقول وليم سمث : « اللغة هي ذكرى النوع الانساني هي عصب حياة ممتد بين جميع العصور يربطها بالوجود المشترك الطويل المترقي » : ويقول هير : « اللغة مقياس الفكر والخلق القومي » ويقول السير هـ داڤي : « ليست اللغة ناقلة الفكر فقط بل هي أيضا عدة عظيمة صالحة في التفكير » . وفي كل هذه الحكم الغالية الصائبة أحسن جواب لمن تبلغ بهم المغالاة في الانتقاد الى « الجزع » من غيرة الشبان على لغتهم ، قائلين ان اللغة وسيلة لا غاية « وحرام » أن نعنى بها هذه العناية...! لا أنكر أني اعتبر اللغة وسيلة لا غاية وان صلحت أيضاً لان تكون غاية مطلقة كفنٍ جميل، وما انا مَن يدعو الى الكلام المتوعر المعقد الذي

يكلف الذهن المشقة في فهمه ويختم العقلُ به ؛ ولكن من الواجب علينا أن نصون لغتنا عن الابتذال الذي تدلّى اليه معظم المعرّبين ، ومن المفروض علينا أن نتمشى مع الزمن في ترقية الوسيلة التي نتلقى بها العلم والاّ أصبح العلم دائمًا غريبًا عنا ، ومن الحكمة أن نُظهر لغتنا في مظهر عزيز لائق بها « لانها مقياس الفكر والخلق القومي » على حد قول هيبر . وفي اغراء الشبان العُرب في أوروبا بالعناية بعمل أدبي علمي اجتماعي كهذا ما يصرفهم عن مضيعات الوقت والصحة والمال ، وما يساعدهم في دراستهم وفي تهيئة أنفسهم لخدمة أممهم في الحاضر والمستقبل .

لا يكابر أحد في أن الامة اذا ترقت نهضت معها لغتها ونالت احترام الاجنبي لها ، ولكن اللغة كذلك من أقوى دعائم الرقي ، ونهوضها من نتائجه كما أنه من وسائل النهوض العام للامة ، فنهوض الامة ونهوض اللغة على ذلك حالتان لا تفترقان ، وأمران متساندان ونهضتان مرتبطتان .

نادي مستشفى سانت چورج أحمد زكي أبو شادي
بلدن (طبيب)

[المنار] ان هذا المشروع جليل ونفعه للعرب ظاهر لا يماري فيه الا أصحاب الوساوس السياسية ولا يصعب إقناع المستقل منهم بالرأي والفهم بفائدته وانما يستحيل اقناع أصحاب الاهواء بما يخالف أهواءهم

باب الاخبار والآراء

السيد محمد وجيه الكيلاني (راجع ص ١٢٤ من الجزء الثاني)

جاء في جريدة الهدى العربية التي تصدر في نيو يورك ما نصه :

شيخ الاسلام بالفيلبين ووفاته

عند منتصف ليل خامس مايو قضى الى رحمة مولاه في ريتشمند من أعمال ولاية فرجينيا في الولايات المتحدة السيد محمد وجيه الجيلاني شيخ الاسلام بجزر الفيليبين وقد كان قدم هذه البلاد منذ سنة ونيف و قام أكثر هذه المدة في فيلادلفيا وتردد احيانا على واشنطون وعلى نيو يورك إلا ان صحته لم تكن حسنة فأقعدته عن

التجول كثيرا وهذا ما أخر في إتمام مساعيه

كان السيد الجيلاني عالما فقيها وعلى كثير من التساهل الديني ولد في دمشق وانتقل الى الاستانة حيث اسندت اليه مراتب دينية عالية . ولما ان بعثت حكومة الولايات المتحدة بعد احتلالها الفيليبين وفدا الى الاستانة للاتفاق مع سلطان تركيا على تعيين شيخ إسلام يتولى رعاية المسلمين عين السيد الجيلاني لهذه الوظيفة فذهب الى الفيليبين عن طريق سوريا و بلاد العرب و بلاد العجم والهند وكان هناك يقابل امراء وعلماء المسلمين و يستنهض هممهم في مشروع تهذيبي افتكر به لترقية شؤون مسلمي الفيليبين الادبية . والتقى في مكة بجماعة من هؤلاء المسلمين قادمين للحج فعاد واياهم وكانوا يؤدون له اكراما أشبه بالعبادة فيسجدون امامه شأن البرابرة فنهاهم عن ذلك ، وحين وصل الى بلادهم اخذ ينتقل من جزيرة الى أخرى في الارخبيل و يدعو قوم المورو المسلمين الى عقد الاجتماعات فيخطب فيهم حاثاً على الاقلاع عما يفهمون من الجهاد الديني وهو ان يحلق الواحد منهم شعر رأسه ويحمل سلاحه ويخرج بقصد الايقاع بالبيض الكفرة ولا يعود حتى يقتل عددا مفروضا أو يقتل هو

وكان السيد الجيلاني مدة اقامته في تلك الجزر على تفاهم تام مع رجال الحكومة الاميركية الذين كانوا يرجعون اليه في كل مشاكلهم مع الوطنيين المسلمين . وساء السيد الجيلاني ما وجد ابناء دينه عليه من الهمجية فأخذ يفتكر في طريقة لتهذيبهم الا انه لم يوافق رجال الحكومة الامريكية هناك على انشاء مدارس عمومية للحكومة فقال ان المسلمين لايطمئنون الا اذا كان لهم مكتب ملاصق للجامع يدرسون فيه كتابهم الشريف بادئ ذي بدء . ولاجل تحقيق هذه الفكرة قدم الى الولايات المتحدة وأخذ ينشر المقالات عن أحوال الفيلبين في بعض الصحف الامريكية وفي الوقت نفسه سعى الى تأليف جمعية تهذيبية تتولى أمر انشاء المدارس الاسلامية في الفيلبين يكون مركزها الرئيسي في الولايات المتحدة وذات فرع اداري في الفيليبين يتولى هو رئاسته نظرا الى انقياد المسلمين هناك اليه وتحققهم حسن مقاصده فلا تداخلهم ريبة من مساعي الاميريكيين أو عمد هؤلاء الى القيام بالمشروع مستقلين

وقد كان السيد الجيلاني يتردد الى ادارة الهدى حين يزور نيويورك فعرفنا عنه

ما سبق بيانه من مقاصده ومساعيه ولكن وطأة المرض اشتدت عليه في الاشهر الاخيرة فلم نجتمع به أو نعرف شيئا عن مشروعه. وكان من أمره أخيرا انه اضطر لاسباب صحية الى مغادرة هذه البلاد وبينما هو في الطريق اشتدت عليه علته في رينشمند فرجينيا. وهناك توفي. تغمده الله بواسع رحمته اهـ

﴿ إشراف أهل سورية على الفناء والزوال ﴾

لقيت في مكة المكرمة الضابط الحرّ الصدوق خالد أفندي الحكيم الحمصي وكان وصل اليها قبلي بأيام قلائل فارا بدمه من بلاده بطريق البادية، فسألته عما وصل الينا من مصادر متعددة من أخبار المجاعة والغلاء ومصادرة السلطة العسكرية للاموال والغلال في طول البلاد السورية الفلسطينية وعرضها، وتنكيلها بالاهالي تقتيلا وتصليبا ونفيا من الديار — هل هو حق كما سمعنا أم هو مبالغ فيه ؟ وذكرت له ملخص ما وصل الينا من ذلك. فقال ان ما بلغكم دون الواقع وليس الخبر كالمعاينة، وانني أقدّر انه لم يبق في البلاد من أهلها الا العشر. اهـ فاذا طال الامد على هذه الحال، فسورية صائرة الى الفناء والزوال، ولا يبعد ان ينقرض أهلها الذين فيها من الارض، قبل نقضاء هذه الحرب. فلا شك في ان مصابها بحكومتها الطاغية الباغية أعظم من مصاب بلاد البلجيك والصرب والجبل الاسود باجتياح الجرمان لها، وثلها عروش ملوكها. فيجب على السوريين المقيمين في مصر وأوربة وأمريكة أن يسارعوا الى البحث عن أقرب الوسائل الى إنقاذ البقية الباقية من أهل وطنهم لعلهم يهتدون اليها ويدخلونها من بابها بعد ان علموا ان دولة الانسانية (الولايات المتحدة) لم تقدر — وكذا غيرها من الدول التي على الحياد — على ما أحبت من إغاثة هذا الشعب المسكين بالقوت والعلاج، ولا دول الحلفاء المحاربون لدولة الاتحاديين قدروا على إنقاذه بالحرب والكفاح، فان كان في هؤلاء السوريين من ينتظر هذا الانقاذ بعد النصر النهائي المأمول، فليعلموا أن أمد الحرب سوف يطول، وأن لسان حال وطنهم ينشد صاحب هذا الامل و يقول:

فلك البقا فلرب يوم ان تسل … حتى تراجعني فلا تلقاني

متى تنتهي الحرب وكيف تنتهي

قد أكثر الناس من حديث الصلح في هذه الايام ونقلت الجرائد لنا عن كثير

من قواد دول الاحلاف وساستهم أنهم يرون ان الحرب تنتهي بانتهاء ربيع العام القابل (١٩١٧) أو صيفه بناء على ان مدّ القوة الالمانية قد تحول الى جزر، وجزر دول الاحلاف قد تحول الى مد تتدفق ثوائبه، ولا تنتهي عجائبه،

كنت التقيت في شهر شوال الماضي بوكيل شركة روتر البرقية في القاهرة فسألني — وقد ذكرت هذه المسألة — عن رأيي فيها فقلت له اذا أصرّت انكلترة على ماعزمت عليه من قهر ألمانية وإرغامها على قبول ماتشترطه مع أحلافها للصلح، وحافظ هؤلاء الاحلاف على عهدهم بأن لا ينفرد أحدمنهم بقبول الصلح، فالرأي الراجح ان هذه الحرب تستمر عدة سنين، تنهد فيها قوى جميع المتقاتلين، وتخسر أوربة الملايين الكثيرة من أفلاذ كبدها، وألوف الملايين من دنانيرها، وعشرات المدن ومئات البلاد من ممالكها. فان أصغر الامم الاوربية وأضعفها تختار الفناء على قبول الذل والقهر والاستخذاء،

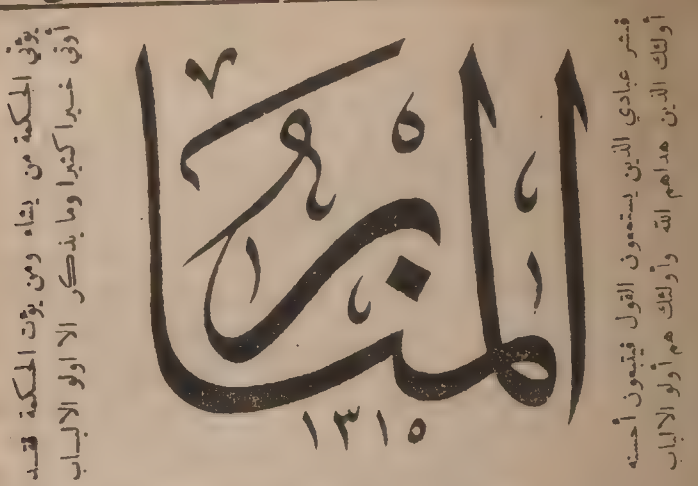
وأرى ان الاحلاف لا يمكنهم ان ينتزعوا من ألمانية ما بيدها من مملكة بلجيكة وولايات فرنسة الا ان تكون خرابا يبابا لاحجر فيها ولامدر، ولا شجر ولا بشر، وبعد ان ينفق على تخريبها الملايين من الرجال، والقناطير المقنطرة من الاموال، واذا كنا نرى المحاربين يخرّبون بلادهم بأيديهم اذا اضطروا الى تركها لاعدائهم ولوموقتا كما فعلت روسية وغيرها، فهل ينكر على الالمان العتاة ألا يتركوا بلاد أعدائهم الاقاعا صفصفا؟

أما تقصير أجل الحرب فليس له طريق معقول عندي — اذا أصرت الحكومات على عزمها — الا قيام الشعوب الاوربية من الفريقين على دولها. وإلزامها إياهن بصلح يعود فيه كل شيء الى أصله ولا يتضمن إذلال دولة لاخرى، لان كل دولة وكل أمة أوربية تفضل الفناء على الذل وخدش الاستقلال التام لاالالمان وحدهم،

هذا معنى ماقلته يومئذ ولكن قيام الشعوب على حكوماتها لا يرجى ما دام كل منهم يرجو النصر التام. فصدق على الفريقين قوله تعالى (واذ يُريكموهم إذِ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا)

﴿ تاخر صدور هذا الجزء من المنار ﴾

يصدر هذا الجزء بعد يوم تاريخه بشهر وأيام بسبب غيبتنا في سفر الحج مثل هذه المدة ثم اشتغالنا بلقاء المهنئين أسبوعين أو أكثر وعطل حصل بآلة الطبع



قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

مصر ٣٠ المحرم ١٣٣٥ — ٤ القوس (خ س) ١٢٩٥ هـ ش ٢٦ نوفمبر ١٩١٦

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

---

(٢٧) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢٨) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ

بين الله تعالى لنا في الآيتين اللتين قبل هاتين حال من فقدوا الاستعداد للايمان من المشركين الظالمين لانفسهم، أو حال طائفة منهم وهي التي تلقي السمع مصغية للقرآن ولا يدخل من باب سمعها الى بيت قلبها شيء منه، لما على القلب من أكنة التقليد، والاطمئنان بالشرك التليد، والاستنكار لكل شيء جديد؛ فهم يستمعون ولا يسمعون، ولا يكتفون بذلك بل ينهون عنه وينأون وهم نائون

منتهون، وما يهلكون الا أنفسهم ومايشعرون. ثم بين في هاتين الآيتين بعض ما يكون من أمرهم وأمر أمثالهم يوم القيامة ، وقفى عليه ببيان كنه حالهم في فقد الاستعداد للايمان ، وانه بلغ مبلغا لا يؤثر فيه كشف الغطاء ورؤية العيان، فقال عز من قائل:

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ « لو » شرطية حذف جوابها لتذهب النفس في تصوره كل مذهب ، وذلك أبلغ من ذكره ، ومنه المثل « لو غيرُ ذات سوار لطمتني » و «وقفوا» بالبناء للمفعول أي وقفهم غيرهم، يقال: وقف الرجل على الارض وقوفا. ووقف على الاطلال أي عندها مشرفا عليها — وعلى الشيء : عرفه وتبينه . ووقف نفسه على كذا وقفا : حبسها كوقف العقار على الفقراء . ووقف الدابة وقفا جعلها تقف . والمعنى ولو ترى أيها الرسول — أو أيها السامع — بعينيك هؤلاء الضالين المكذبين إذ تقفهم ملائكة العذاب على النار فيقفون عندها مشرفين عليها من أرض الموقف — وهي هاوية سحيقة — أو يقفون فوقها على الصراط ؛ أو لو ترى اذ يدخلونها فيقفون على ما فيها من العذاب الاليم بذوقهم إياه و « من ذاق عرف » — أي لو ترى ما يحل بهم حينئذ وما يكون من أمرهم ومن ندمهم على كفرهم ومن حسرتهم وتمنيهم ما لا ينال — لرأيت أمراً عظيما لا تدركه العبارة ولا يحيط به الوصف

وقد ذكر ما يكون من وقفهم على النار وما يترتب عليه من قولهم بصيغة الماضي الواقع في حيز فعل الشرط المستقبل للاعلام بتحقق وقوعه ، على القول المشهور في مثله ، وقال الرازي في تعليله : ان كلمة « إذ » تقام مقام « اذا » اذا أراد المتكلم المبالغة في التكرير والتوكيد وازالة الشبهة لان الماضي قد وقع واستقر فالتعبير عن المستقبل باللفظ الموضوع للماضي يفيد المبالغة من هذا الاعتبار

وأما قوله تعالى ﴿ فقالوا : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ فقد عطف بالفاء للدلالة على ان أول شيء يقع حينئذ في قلوبهم ، و يسبق التعبير عنه الى ألسنتهم، هو الندم على ما سلف منهم ، وتمني الرجوع الى الدنيا ليؤمنوا . اختلف القراء في إعراب « نكذب ونكون » فرفعهما الجمهور ونصبهما حمزة وحفص عن عاصم ، ونصب ابن عامر « نكون » فقط . فقراءة الجمهور بالعطف على نرد

تفيد انهم تمنوا ان يردوا الى الدنيا، وان لايكذبوا بعد عودتهم اليها بآيات ربهم كما كذبوا من قبل، وان يكونوا من المؤمنين بما جاء به الرسول. أي تمنوا هذه الثلاثة، وقيل بل تمنوا الاول فقط، وقوله «ولا نكذب» الخ معناه ونحن لا نكذب الخ وعلى هذا يكون الايمان وعدم التكذيب غير داخلين في التمني، وشبهه سيبويه بقولهم: دعني ولا أعود. وهو طلب للترك فقط، والوعد بعدم العود مستأنف مقطوع عما قبله، والتقدير: وأنا لا أعود تركتني أم لم تتركني. وفيه وجه ثالث وهو ان قوله «ولا نكذب» جملة حالية قال الزمخشري: على معنى غير مكذبين وكائنين من المؤمنين، فيدخل في حكم التمني. اه وقد يتوهم ان دخوله في حكم التمني يجعله بمعنى الوجه الاول وليس كذلك، فان معنى الوجه الاول أنهم يتمنون الرد وعدم التكذيب والايمانَ على سواء، ومعنى الثاني أنهم يتمنون الرد فقط و يعدون بالايمان وعدم التكذيب وعدا خبرا مؤكدا غير مقيد باجابتهم الى ما يتمنون. وأما اذا جعلنا «ولا نكذب» الخ جملة حالية — وهو الوجه الثالث — فانها تصدق بحصول كل من عدم التكذيب والايمان قبل الرد الى الدنيا. فلا يكون التمني متعلقا بهما لذاتهما لانهما حاصلان والحاصل لا يتمنى، وانما يكون متعلقا بالرد المصاحب لهما، الذي وقع بعد وقوعهما. وذلك غير وعد خبري ولا انشائي بها لان الحاصل لا يوعد به كما انه لا يتمنى. وقد بينا في تفسير (٤: ٤٠ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) — الآية — الفرق بين الحال المفردة والجملة الحالية، وأن الاصل في مضمون الجملة الحالية أن يكون سابقا للفعل العامل في الحال. وهؤلاء رجعوا عن التكذيب عند وقفهم على النار وحصل لهم الايمان القاطع بصدق الرسول فتمنوا أن يعودوا الى الدنيا مصاحبين لذلك، فيصح أن يقال في الجملة أن عدمَ التكذيب والايمانَ داخلان تحت حكم التمني من حيث اشتراطهما فيه، لا انهما متمنيان كالرد سواء

وأما قراءة حمزة وحفص بنصب الفعلين فقيل إنه على جواب التمني وقيل ان الواو للحال كقولهم: لاتأكل السمك وتشرب اللبن. وقيل إنها أجريت مجرى فاء السببية أو أبدلت منها وأيدوه بقراءة ابن مسعود «فلا نكذب» وقيل ان العطف على مصدر متوهم أي ياليت لنا ردًّا وانتفاء تكذيب وكونا من المؤمنين.

فعلى التوجيهين الاولين لهذه القراءة يدخل ماذكر في حكم التمني على الوجه الذي وجهنا به جعل الجملة حالية في قراءة الجمهور وظاهر التوجيه الثالث تعلق التمني بالامور الثلاثة على سواء . وقد علم من توجيه هذه القراءة توجيه قراة ابن عامر أيضا

ولعل حكمة اختلاف القراءات بيان اختلاف أحوال أولئك المشركين في تمنيهم: بأن يكون منهم من يتمنى أن يرد الى الدنيا وأن يكون فيها غير مكذب بآيات الله الكونية والمنزلة وأن يكون من المؤمنين ، ومنهم من يتمنى الرد مصاحبا لما حدث له في الآخرة من الندم على التكذيب ومن الايمان بما جاء به الرسول اذ لا تلازم بين الرد و بقاء ذلك الامر الحادث ، ومنهم من يتمناه ليكون سببا للايمان وعدم التكذيب ، ومنهم من يعد بذلك وعدا . وهذا الاختلاف في كيفيات ذلك التمني أقرب الى الحصول من اتفاق أولئك الكفار الكثيرين على كيفية واحدة ممايدل عليه اختلاف القراءات ، لانه هو المعهود من البشر . ولعلهم يتمنون ذلك جاهلين أنه محال ، على ان الناس يتمنون المحال ولو على سبيل التحسر

قال تعالى مبينا كنه حالهم وما ظهر لهم منه في الآخرة وما يقتضي ان يكونوا

عليه في الدنيا لوردوا اليها ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ قالوا ان الاضراب في هذه الآية اضراب عما يدل عليه تمنيهم من ادراكهم لقبح الكفر وسوء مغبته ، ولحقية الايمان وحسن عاقبته ، وعزمهم على الايمان وترك التكذيب لو أعطوا ما تمنوا من الرد الى الدنيا ووعدهم بذلك نصا أو ضمنا ، كأنه يقول ليس الامر كما يوهمه كلامهم في التمني بل ظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا وفيه أقوال (١) انه أعمالهم السيئة وقبائحهم الشائنة، ظهرت لهم في صحائفهم، وشهدت بها عليهم جوارحهم (٢) انه أعمالهم التي كانوا يغترون بها، و يظنون ان سعادتهم فيها، اذ يجعلها الله تعالى هباء منثورا (٣) انه كفرهم وتكذيبهم الذي أخفوه في الآخرة من قبل ان يوقفوا على النار كما تقدم حكايته عنهم في قوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم الا قالوا والله ر بنا ما كنا مشركين) (٤) انه الحق أو الايمان الذي كانوا يسرونه و يخفونه باظهار الكفر والتكذيب عنادا للرسول واستكبارا عن الحق ، وهذا انما ينطبق على أشد الناس كفرا من المعاندين المتكبرين الذين قال في بعضهم (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)

(٥) انه ما كان يخفيه الرؤساء عن أتباعهم من الحق الذي جاءت به الرسل — بدا للاتباع الذين كانوا مقلدين لهم، ومنه كتمان بعض علماء أهل الكتاب لرسالة نبينا (ص) وصفاته وبشارة أنبيائهم به (٦) انه ما كان يخفيه المنافقون في الدنيا من أسرار الكفر والتظاهر بالايمان والاسلام (٧) انه البعث والجزاء ومنه عذاب جهنم، وان إخفاءهم له عبارة عن تكذيبهم به، وهو المعنى الاصلي لمادة كفر (٨) ان في الكلام مضافا محذوفا أي بدا لهم و بال ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات ونزل بهم عقابه فتبرموا وتضجروا وتمنوا التفصي منه بالرد الى الدنيا وترك ما أفضى اليه من التكذيب بالآيات وعدم الايمان، كما يتمنى الموت من أمضه الداء العضال لانه ينقذه من الآلام، لا لانه محبوب في نفسه

ونحن لا نرى رجحان قول من هذه الاقوال بل الصواب عندنا قول آخر (٩) وهو انه يظهر يومئذ لكل من أولئك الذين ورد الكلام فيهم ولأشباههم من الكفار ما كان يخفيه في الدنيا مما هو قبيح في نظره أو نظر من يخفيه عنهم، فالذي كفر عنادا واستكبارا كالرؤساء الذين ظهر لهم الحق قد أخفوا الحق، ومنهم بعض علماء أهل الكتاب — والمنافقون الذين أظهروا الايمان جبنا وضعفا أو مكرا وكيدا، يخفون الكفر عن المؤمنين — وأصحاب الاعمال القبيحة من الفواحش والمنكرات يخفونها عمن لا يقترفها معهم — والذين يعتذرون عن ترك الواجبات بالاعذار الكاذبة يخفون حقيقة حالهم عمن يعتذرون اليهم، والمقلدون يخفون في أنفسهم ما يلوح فيها أحيانا من برق الدليل المظهر لما كمن في أعماق الفطرة من الحق، سواء أومض ذلك البرق من آيات الآفاق، وألسنة حملة الحجة والبرهان، أو من آيات الله في أنفسهم، قبل أن تحيط بهم خطيئاتهم ويختم على قلوبهم، وهؤلاء المقلدون العميان هم الذين بينت الآيات حالهم في الدنيا، وانما جعلنا ماتلا ذلك من بيان حالهم في الآخرة عاما لكل من مات على الكفر لتساويهم فيه وعدم استفادة أحد منهم من استعداده للايمان، لعدم استعمالهم لذلك الاستعداد

وقد يعم الاخفاء للشيء ما كان منه بالقصد اليه والارادة له في ذاته، وما كان ظاهرا في نفسه وخفي عن أهله بأعمال وتقاليد لهم عدوا بها مخفين له، كالعقائد

والفضائل التي أودعت في الفطرة ، ودلت عليها آيات الله البينة ، وأعرض عنها الضالون والتزموا ما يضادّها فأخفوها بذلك حتى عن أنفسهم ، فاذا كان يوم الله الذي تبلى فيه السرائر ، وتنكشف جميع الحقائق ، وتشهد على الناس الاعضاء والجوارح ، اذ تنشر كتب الاعمال ، التي كانت مطوية في زوايا الارواح ، فتتمثل لكل فرد أعماله النفسية والبدنية كلها ، في كتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، كما تتمثل الوقائع المصورة ، في المنظرة التي يعرض فيها مايعرف الآن بالصور المتحركة ، فان حفظ ألواح الانفس المدركة لما ترسمه وتطبعه العقائد والاعمال فيها ، أقوى وأثبت من حفظ ألواح الزجاج الحساسة لما يرسمه ويطبعه نور الشمس عليها ، وعرض الصور الشمسية في الدنيا دون عرض الصور النفسية في الآخرة ، وبهذا البيان تعلم أن كل أحد يظهر له في الآخرة كل ماكان خفيا عنه من خير نفسه وشرها ، (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) على أنفسكم ، فضلا عن خفائها على ربكم . وقد خص بالذكر هنا بدوّ ما كان يخفيه الكفار ، ولكل مقام مقال ؛

بين الله تعالى لنا أن تمني أولئك الكفار لما تمنوا لا يدل على تبدل حقيقتهم ؛ بل بدا لهم ما كان خفيا عنهم منها ، باخفائهم إياه عن الناس أو عنها ، (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون * وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) فتمنوا الخروج مما حاق بهم ، ولكن الحقيقة لا تتغير ، وانما يكون لها أطوار ، تختلف باختلاف الاحوال والاوطار .

﴿ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ من الشرك والكفر والنفاق والكيد والمكر والمعاصي ، لان مقتضي ذلك من أنفسهم ثابت فيها ، وما دامت العلة ثابتة فان أثرها وهو المعلول لا يتخلف عنها ، ﴿ وانهم لكاذبون ﴾ فيما تضمنه تمنيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله ، وبالكون من المؤمنين بالله ورسوله ، سواء علموا حين تمنوا ووعدوا أنهم كاذبون في هذا الوعد أم لم يعلموا ، فلو ردوا الى الدنيا لرد المعاند المستكبر منهم مشتملا بكبره وعناده ، وكل من الماكر والمنافق مرتديا بمكره ونفاقه ، والمقلد مقيدا بتقليده لغيره ، وعدم ثقته بفهمه وعلمه ، والشهواني ملوثا بشهواته المالكة لرقه . وأما ما ظهر لهم اذ وقفوا على النار من حقية ماجاء به الرسل ، فانما مثله كمثل

ما كان يلوح لهم في الدنيا من البينات والعبر، ألم تر كيف يكابرون فيها أنفسهم ، ويغالطون عقلهم ووجدانهم ، ويمارون مناظريهم واخدانهم، : يشرب الفاسق الخمر فيصدع ، أو يلعب بالقمار فيخسر ، ويأكل المريض أو ضعيف البنية الطعام الشهي أو يكثر منه فيتضرر، ويرى غير هؤلاء من المخالفين لشرع الله المنزل بالحق، أو لسننه الثابتة التي أقام بها نظام الخلق، ماحل من الشقاء بغيره ممن سبقه الى مثل عمله، — فيندم كل واحد ممن ذكرنا ويتوب، ويعزم على أن لا يعود ، وانما يكون هذا عند فقد داعية العمل، ووجود داعيـة الترك ، فاذا عادت الداعية الى العمل عاد اليه خضوعا لما اعتاد وألف ، وترجيحا لما يلذ على ما ينفع

ومن وقائع العبر في ذلك ماحدث لاخ لي عملت له عملية جراحية خدّر قبلها بالبنج (كلورفورم) فكان من تأثيره فيه أنه شعر بأن روحه تسل من بدنه، وقد طال الامد على اندمال جرحه ، وكان قبل ظهور أمارات الشفاء منه يخاف أن يذهب بنفسه، فيندم ويتحسر على ما كان منه من التفريط والتقصير في الواجبات، واضاعة الاوقات الطويلة في البطالة واللهو وان كان من المباحات ، وعزم على الجد والتشمير فيما بقي من عمره ، ان عافاه الله من مرضه ، حتى عزم على الاستمرار على ترك شرب الدخان، الذي منعه الطبيب منه في أثناء أخذه بالعلاج، ولكنه لما عاد الى مثل ما كان عليه من الصحة على أنها لم تكن سابقة ، عاد كذلك لجميع أعماله وعاداته السابقة ، على انه تذكر من تلقاء نفسه هذه الآية (ولو ردوا لعادوا لما نُهوا عنه) وعد ما وقع له شاهدًا لها ، ومثالا تعرف به حقيقة تفسيرها

ويستنبط من الآية ان الطريقة المثلى لاقامة الناس على صراط الحق والفضيلة انما هي حملهم على ذلك بالعمل والتعويد، مع التعليم وحسن التلقين، كما يربى الاطفال في الصغر ، وكما يمرن الرجال على أعمال العسكر ، وان من أكبر الخطإ أن يسمح للاحداث بطاعة شهواتهم واتباع أهوائهم بشبهة تربيتهم على الحرية والاستقلال ، التي يهديهم الى الحق والفضيلة بما يفيدهم العلم في سن الرشد من الاقتناع بطريق الاستدلال . أقول ان هذا من اكبر الخطإ — وانا عالم بفضل التربية الاستقلالية ومن الدعاة اليها — لانه قلما يوجد في الناس من يتبع هواه وشهواته

في الصغر، ثم يرجع عن ذلك كله في الكبر، بعد ان يصير ملكة وعادة له، لقيام الدليل عنده على أنه ينافي الحق او العدل والفضيلة. وانما يقع مثل هذا من افراد من الناس خلقوا مستعدين للحكمة، بما اوتوا من سلامة الفطرة وقوة العزيمة، او من أتباع الرسل في زمن البعثة، واكثر البشر مسخرون لعاداتهم، منقادون لما ألفوا في اول نشأتهم، لا يخالفون ذلك الا قليلا، يتكلفون المخالفة تكلفا عند عروض ما يقتضي ذلك، فاذا زال المقتضي عادوا الى عادتهم وشنشنتهم؛ وعملوا على سابق شاكلتهم، وانما تربية الصغار على ما عرف من الحق وتقرر من أصول الفضيلة والادب، كتربيتهم على النظافة ومراعاة قوانين الصحة، لا يشترط أن يعرفوا من أول النشأة فائدة ذلك بالدليل والبرهان، وتأخير تلقينهم هذه الفائدة الى وقت الاستعداد لها في الكبر لا ينافي تربية الاستقلال. وأوضح الشواهد والامثلة المعروفة على ما قلنا فشوّ السكر في أمم الافرنج ومقلديهم من الشرقيين، فان أكثرهم يعلمون انه ضار قبيح، ولا يكاد يوجد في مئة الالف منهم واحد يتركه بعد ان اعتاده وأدمنه، لاقتناعه بضرره بما ثبت من الدلائل الطبية والتجارب القطعية،

---

(٢٩) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٠)
وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى
وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣١) قَدْ خَسِرَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا
يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ
أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣٢) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ
وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ

بين الله تعالى لنا في هذه الآيات شأنا آخر من شؤون الكفار المكذبين بآياته

في الدنيا وهو غرورهم بها، وافتتانهم بمتاعها، وانكارهم البعث والجزاء، وما يقابله من حالهم في الآخرة يوم يكشف الغطاء، وهو ما يكون من حسرتهم وندمهم على تفريطهم السابق، وافتتانهم بذلك المتاع الزائل، وقفى عليه ببيان حقيقة الدنيا والمقابلة بينها وبين الآخرة، فقال عز من قائل:

﴿ وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ قيل ان هذه الآية تتمة لما سبقها، وان « قالوا » فيها معطوف على « عادوا » فيما قبلها، أي لو رُد أولئك الى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والاعمال، وصرحوا ثانية بما كانوا عليه من إنكار البعث والجزاء، والظاهر المختار ما بيناه آنفا، فالعطف فيه عطف جمل مستأنف، و (إن) في ابتداء مقول القول نافية بمعنى « ما » أي وقال أولئك المشركون: ما الحياة الا حياتنا الدنيا لا حياة بعدها، وما نحن بمبعوثين بعد الموت. وسنذكر ما يستلزمه هذا الاعتقاد من الشر والفساد في آخر تفسير هذه الآيات

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ تقدم تفسير مثل هذا التعبير قريبا. ووقفهم على ربهم عبارة عن وقف الملائكة إياهم في الموقف الذي يحاسبهم فيه ربهم، وامساكهم فيه الى ان يحكم بما شاء فيهم، فهو من قبيل * وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم * أي يقفون مطيهم عندي وقوفا، ولا يشترط في هذا ان يكونوا في مكان أعلى من المكان الذي هو فيه. أو المعنى يحبسونها علي بامساكها عندي. وانما عدي الوقف والوقوف الذي بهذا المعنى بعلى — وكذا الحبس والامساك الذي فسر به — لدلالته على معنى القصر، قال تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم) أي مما أمسكته الجوارح مقصورا عليكم فلم تأكل منه لاجلكم، وكذلك حبس العقار ووقفه على الفقراء وسائر وجوه البر فيه معنى قصره على ذلك. والذين تقفهم الملائكة وتحبسهم في موقف الحساب امتثالا لامر الله تعالى فيهم (وقفوهم انهم مسؤلون) يكونون مقصورين على أمر الله تعالى، أو يكون أمرهم مقصورا على الله تعالى لا يتصرف فيه غيره (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) وانما أطلت في بيان كون استعمال وقف هنا متعديا بعلى بمعنى ما تقدم قريبا في تفسير قوله تعالى

(وُقفوا على النار) لان المفسرين اضطربوا في تعدية هنا فحمل الكلام بعضهم على التمثيل وبعضهم على الكناية وبعضهم على مجاز الحذف أو على غيره من أنواع المجاز، وجعله بعضهم من الوقوف على الشيء معرفة وعلما، وجاء بعضهم بتأويلات أخرى لا حاجة الى ذكرها

بينا آنفا في تفسير (ولو ترى إذ وقفوا على النار) ان جواب لو حذف لتذهب النفس في تصوره كل مذهب يقتضيه المقام. وللايذان بأنه لا يحيط به نطاق الكلام، ومن شأن السامع لمثل هذا ان ينتظر بيانا لما يقع في تلك الحال، فان لم يوافه المتكلم به، توجهت نفسه الى السؤال عنه، فلهذا جاء البيان جوابا لسؤال مقدر وهو قوله تعالى ﴿ قال أليس هذا بالحق ﴾ إدخال الباء على الحق يفيد تأكيد المعنى أي قال لهم ربهم أليس هذا الذي أنتم فيه من البعث هو الحق الذي لاريب فيه؟ ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ أي بلى هو الحق الذي لاريب فيه ولا باطل يحوم حوله، اعترفوا وأكدوا اعترافهم باليمين، فشهدوا بذلك على أنفسهم انهم كانوا كافرين، فبماذا أجابهم رب العالمين؟ ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي اذا كان الامر كذلك فذوقوا العذاب الذي كنتم به تكذبون، بسبب كفركم الذي كنتم عليه دائمون. ثم قفى على ذكر ما ربحوا من الشقاء والعذاب، ببيان ماخسروا من السعادة والثواب — وانما هو خسر على خسر — فقال:

﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ أي خسر أولئك الكفار الذين كذبوا بلقاء الله تعالى كل مار بحه وفاز به المؤمنون بلقائه من ثمرات الايمان وعبادة الله ومناجاته في الدنيا كالقناعة والإيثار والرضاء من الله في كل حال، والشكر له عند النعمة، والصبر والعزاء والطمأنينة عند المصيبة، وغير ذلك من المزايا التي تصغر معها المصائب والشدائد، ويكبر قدر النعم والمواهب. ومن ثمرات الايمان في الآخرة من الحساب اليسير، والثواب الكبير، والرضوان الاكبر، وهو « ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » كل ذلك مما يخسره المكذبون بلقاء الله بسبب تكذيبهم، لانهم يخسرون في الحقيقة أنفسهم، وانما حذف مفعول « خسر » للدلالة على ذلك كله، وجعل فاعله

موصوفا لدلالة صلته على سبب الخسران، لان التكذيب بلقاء الله تعالى يستلزم ما سيأتي بيانه من الاعمال والاحوال التي تفسد النفس، ومن خسر نفسه بفسادها خسر كل شيء

﴿ حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة ﴾ أي كذبوا الى أن جاءتهم الساعة مباغتة مفاجئة، وقيل ان الغاية للخسران بقصره على ماكان منه في الدنيا. والساعة في أصل اللغة الزمن القصير المعين بعمل يقع فيه، يقال جلست اليه ساعة وغاب عني ساعة. وأطلق في كتب الدين على الوقت الذي ينقضي به أجل هذه الحياة ويخرب هذا العالم وانما يكون ذلك في زمن قصير. وعلى ما يلي ذلك من البعث والحساب وهو يوم القيامة، فان كان اطلاقه عليه بالتبع لاطلاقه على ساعة خراب العالم فذاك والا كان وجه تسميته ساعة باعتبار سرعة الحساب فيه (راجع ص ٢٣٦ ج ٢ تفسير) أو بالاضافة الى ما بعده -- قولان. وهذه الساعة ساعة هذا العالم كله، ومن دونها ساعة كل فرد وقيامته وهو الوقت الذي يموت فيه ويقدم على ذلك العالم، وكذا ساعة الامة أو الجيل؛ ولذلك قالوا ان القيامة ثلاث كبرى ووسطى وصغرى، وقد تقدم هذا البحث في الجزء الخامس من التفسير (راجع ص ٢١٤ منه) وفسر الراغب الساعة هنا بالقيامة الصغرى، اذ هو الذي ينطبق على الكفار الذين نزلت فيهم هذه الآيات والقيامة الكبرى انما تقوم على آخر من يكون من الخلق على هذه الارض. والجمهور يفسرونها بالقيامة الكبرى وهي باعتبار غايتها -- وهو يوم يقوم الناس لرب العالمين -- تصدق على من نزلت الآية فيهم وعلى غيرهم، وباعتبار بدايتها تصدق على آخر من يعيش في الدنيا فقط. ويرون أن البغتة لا تظهر في موت الافراد لما يكون له في الغالب من المقدمات والعلامات التي يعرف بها وقته في الجملة. وقد ذكر مجيء الساعة بغتة في عدة آيات غير هذه يتعين أن يكون بها القيامة الكبرى العامة، وهي التي ورد في الكتاب والسنة أن الله تعالى أخفى علمها عن كل أحد حتى الرسل والملائكة. وأما قوله تعالى (وما تدري نفس بأي أرض تموت) فلا يدل على مجيء الموت بغتة ولا على جهل كل أحد بوقته فقد يعرف بأسبابه كالامراض والجروح. وقد يقل ان المرض ونحوه لا يدل

على الموت مهما يكن شديدا ، فكم من مريض جزم الاطباء بأنه لا يعيش الا أياما أو ساعات قد شفي من مرضه ذاك وعاش بعده عدة أعوام ، على أن المريض لا ييأس من الحياة ما دام فيه رمق ، فبهذا الاعتبار يصح أن يقال فيه — ان مات في مرضه —: ان الموت جاءه بغتة ، وان كان هذا لا يعد في العرف من موت الفجأة . ومن لم يجئه الموت فجأة جاءه المرض الذي يعقبه الموت فجأة ولات حين استعداد ، ولا رجوع عن شرك والحاد، بل يموت المرء على ما عاش عليه، و يبعث على ما مات عليه ، ويندر أن يظهر لاحد في مرض مماته ، ضلاله الذي عاش عليه طول حياته ، ولا ينكشف الغطاء عن الانسان و يعلم انه فارق هذه الحياة الى العالم الآخر الا عند خروج روحه من بدنه ، وحينئذ يتحسر المفرطون، ويندم المجرمون ، ثم تتجدد الحسرة في موقف الحساب ، وتتضاعف عند حلول العذاب،

﴿ قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها ﴾ هذا جواب « اذا » أي قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وأصروا على ذلك حتى اذا جاءتهم منيتهم وهي بالنسبة اليهم مبدأ الساعة العامة ، والمرحلة الاولى من مقدمات القيامة، مفاجئة لهم من حيث لم يكونوا ينتظرونها ، ولا يحسبون حسابا ولا يعدون عدة لمجيئها ، قالوا : يا حسرتنا على تفريطنا ! هذا أوانك فاحضري ، وبرّحي بالانفس ما شئت أن تبرحي ؛ والحسرة — كما قال الراغب — الغم على مافات والندم عليه ، كأن المتحسر قد انحسر (أي زال وانكشف) عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، أو انحسرت عنه قواه من فرط الغم ، أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه . ونداء الحسرة فسره سيبويه بالمعنى الذي بيناه آنفا ، وقال الزجاج : ان معنى حرف النداء تنبيه المخاطبين ، وقيل بل المراد به تنبيه المتكلم لنفسه ، وتذكيرها بسبب ماحل به ، والتفريط التقصير، ممن قدر على الجد والتشمير، وهو من الفرط بمعنى السبق ومنه الفارط والفرَط الذي يسبق المسافرين لإعداد الماء لهم . والتضعيف فيه للسلب والازالة كجلّدت البعير اذا سلخت جلده وأزلته عنه. فيكون معنى التفريط الحقيقي عدم الاستعداد لما ينفع في المستقبل كتقديم الفرَط . أي ياحسرتنا وغمنا وندمنا على ماكان من تفريطنا فيها أي في حياتنا الدنيا ، التي كنا نزعم أن لا حياة

لنا بعدها، أو في الساعة أو ما هي مفتاح له من الدار الآخرة وهي تشمل الجنة والنار وقد جعلهما بعضهم مرجعين مستقلين، أي على تفريطنا في شأنها بعدم الاستعداد لها بالايمان والعمل الصالح، وقيل ان الضمير للاعمال الصالحات المفهومة من كلمة « فرطنا » لان التقصير انما يكون في العمل. وقيل للصفقة المفهومة من كلمة «خسر» وهي بيعهم الآخرة بالدنيا. وهذا أضعف الاقوال، وأقواها أولها، وهو مروي عن ابن عباس (رض) ومن غرائب غفلات المفسرين ما نقله بعض أذكيائهم عن بعض من دعوى ان مرجع الضمير في هذا القول غير مذكور في كلامهم على كونه هو المذكور فيه دون سواه من المراجع الثلاثة الاخرى. ولكنهم ذهلوا عن قوله تعالى حكاية عنهم (وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا) الخ وعن كون مابعده بيانا لعاقبته وماترتب عليه لاسياقا جديدا مستقلا، وأما الساعة فهي مذكورة فيما حكاه الله من شأنهم لا عنهم، فكان عود الضمير عليها في المرتبة الثانية من القوة

﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ الاوزار جمع وزر وهو بالكسر الحمل الثقيل، ووزره (بوزن وعده) حمله على ظهره، ويطلق الوزر على الاثم والذنب، لان ثقله على النفس كثقل الحمل على الظهر، وهو المراد في الآية، وجعل الذنوب محمولة على الظهور مجاز من باب التمثيل بالاستعارة لان حالة الانفس فيما تقاسيه من سوء تأثير الذنوب فيها وما يترتب على ذلك من التعب والشقاء والآلام يشبه هيئة الابدان في حال نوئها بالاحمال الثقيلة وماتقاسيه في ذلك من التعب والجهد والزحير، أو هو محمول على القول بتجسم المعاني والاعمال في الآخرة، وتمثلها هي ومادتها بصور تناسبها في الحسن أو القبح، كما ورد في الغلول (*) والمال الذي لاتؤدى زكاته، وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي وعمرو بن قيس الملائي أن الاعمال القبيحة تتمثل بصورة رجل قبيح يحمله صاحبها يوم القيامة، والصالحة بصورة رجل حسن أو صورة حسنة تحمل صاحبها يوم القيامة. ويجوز أن يكون هذا القول من قبيل التمثيل أيضا. والمعنى انهم ينادون الحسرة التي أحاطت بهم أسبابها وهم في أسوإ حال بما يحملون من أوزارهم على ظهورهم، وقد بين الله تعالى سوء تلك الحال، التي تلابسهم

(*) راجع ص ٢١٦ و٢١٧ ج ٤ تفسير

عند اللهج بذلك المقال، بقوله ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ فبدء هذه الجملة بألا الافتتاحية التي يرادبها العناية بما بعدهاوتوجيه ذهن السامع اليه - يفيد المبالغة في تقريره وتأكيد مضمونه، ووجوب الاهتمام بالاعتبار به، و «ساء» فعل ذم أشرب معنى التعجب أو التعجيب ، أي ما أسوأ حملهم ذاك أو ما أسوأ تلك الاثقال التي يحملونها ، وقيل ان «ساء» هناهو الفعل المتعدي أي ساءهم وأحزنهم حملهم لتلك الاوزار، أوساءتهم تلك الاوزار التي يحملونها . والاول أبلغ

ثم بين تعالى حقيقة مايغر الناس من الحياة الدنيا وهو التمتع الخاص بها، والمقابلة بين ذلك و بين حظ المتقين لله فيها من الدار الاخرة ، إثر بيان ما يلقاه أولئك المفتونون بالاولى، عند ما يصيرون الى الثانية التي كانوا يكذبون بها ، فقال :

﴿ وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ﴾ اللعب هو الفعل الذي لا يقصد به فاعله مقصدا صحيحا من تحصيل منفعة أو دفع مضرة ، كأفعال الاولاد الصغار التي يتلذذون بها لذاتها ، فما يعالجونه من كسر حبة نقل أوازالة غشاء عن قطعة حلوى لاجل أكلها لا يسمى لعبا . واللهو ما يشغل الانسان عما يعنيه ويهمه ، ويعبر عن كل مابه استمتاع باللهو . كذا قال الراغب ، وفي اللسان : اللهو ما لهوت به ولعبت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما . ثم قال : يقال لهوت بالشيء ألهو به لهوا وتلهيت به ، — اذا لعبت به وتشاغلت وغفلت به عن غيره . وأقول إن الاصل في اللهو اذا أطلق يراد به ما يشغل الانسان من لعب وطرب ودواعي سرور وارتياح عما يتعبه و يشق عليه من الجد أو يحزنه أو يسوءه من خطوب الدنيا ونكباتها. ثم توسع به فصار يطلق على ما يسر و يلذ وان لم يقصد به التشاغل عن أمور الجد، كمغازلة النساء والاستمتاع بهن . ومنه قول امرئ القيس :

ألا زعمت بَسباسةُ اليومَ أنني كبرت وأن لا يحسن اللهوَ أمثالي

وقد يطلق أيضا على جد يتشاغل به عن جد آخر ، ولكن الذي عرف استعماله في ذلك الفعل لا المصدر ، فلا يقال ان هذا الفعل لهو بل يقال لهوت بكذا عن كذا أو تلهيت أوالتهيت به عنه . ومنه (فأنت عنه تلهّى) وانما تشاغل رسول الله (ص) عن الاعمى بالتصدي لدعوة كبراء قريش الى الاسلام لا بشيء فيه طرب ولا

سرور نفسي يسمى لهوا باطلاق

والمعنى ان هذه الحياة الدنيا التي قال الكفار انه لا حياة غيرها — وهي مايتمتعون به من اللذات المقصودة عندهم لذاتها، أو الملهية لهم عن همومها وأكدارها ، ليست الا لهواً ولعبا أو كاللهو واللعب في عدم استتباعها لشيء من الفوائد والمنافع يكون في حياة بعدها ، أو هي دائرة بين عمل لا يفيد في العاقبة فهو كلعب الاطفال ، و بين عمل له فائدة عاجلة سلبية كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام، ويوضح هذا قول بعض الحكماء ان جميع لذات الدنيا سلبية اذ هي إزالة لآلام — فلذة الطعام مزيلة لألم الجوع و بقدر هذا الألم تعظم اللذة في إزالته ، ولذة شرب الماء مزيلة لألم العطش كذلك . وأما شرب المنبهات والمخدرات كالخمر والحشيش والدخان فانه يكون أولا بالتكلف واحتمال المكروه والالم — فان هذه الاشياء كلها مكروهة بالطبع كما أخبر المجربون — وانما يتكلفونه طلبا للذة متوهمة يقلد بها الشارب غيره ، ثم يصير المؤلم بالتعود ملائما بازالته للألم المتولد منه موقتا. ذلك بأن هذه الاشياء سموم مكروهة في نفسها ومتى أثر سمها في الاعصاب بالتنبيه الزائد وغيره أعقب ذلك ضده من الفتور والالم الذي يطارد بالعود الى الشرب كما قال أشعر السكيرين وأقدرهم على تمثيل تأثير السكر * وداوني بالتي كانت هي الداء * وقال :

وكأس شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

وهذه اللذة التي ذكرها وهمية كما قلنا لانه لم يكن ذاقها بل توهمها وقلد بها المفتونين بالسكر . وقد يقصد بالسكر إزالة آلام أخرى غير ألم سم الخمر كالهموم والاكدار ، فان السكران يغيب عن عقله ووجدانه فلا يشعر بآلامهما في تلك الحال، وقد يتضاعف عليه ألم الشعور والوجدان، وكثيرا مايقع في آلام أخرى بدنية كالصداع والغثيان، أو نفسية كالتي فرَّ منها ، أو ما هو شر منها ، ويصدق عليه في كل حال قول أبي الطيب :

اذا استشفيت من داء بداء   فأقتل ما أعلَّك ما شفاكا

وقد قيل إن سماع الغناء وآلات الطرب لا يدخل في عموم هذه القاعدة لأنها لذة روحية لا تعدّ داعيتها من الآلام ، ومن دقق النظر في هذه المسألة علم أن

السماع ليس من ضروريات الحياة الشخصية ولا النوعية ولذلك كانت داعيته ضعيفة ليست كداعية الغذاء والوقاع فكان فقده غير مؤلم الا لمن اشتد ولوعه به ، وهذا يدخل في عموم القاعدة ، ولذة السماع عند غيره – وهم الجمهور – ضعيفة بقدر ضعف الداعية. فالسماع لا يعدّ من أركان هذه الحياة ولا من مقاصدها الذاتية للناس ، وانما يستروح اليه أكثر أهله لترويح النفس من آلام الحياة لا من ألم الداعية اليه، وانما غلب اسم «اللهو» عليه اسم «الملاهي» على آلاته، لانه غير مقصود لذاته

وفي الآية وجه آخر يصح جمعه مع الاول وهو أن متاع هذه الحياة الدنيا الخاص بها متاع قليل، أجله قصير ، لا يصح ان يغتر به العاقل الراشد، فهو ليس الا كلعب الاطفال في قصر مدته من حيث ان الطفل يسرع اليه الملل من كل لعبة ، أو من حيث ان زمن الطفولة قصير كله غفلة ؛ أو كلهو المهموم في قصر مدته ، على كونه غير مطلوب لذاته ،

﴿ وللدارُ الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم يفيد بمقابلته لما قبله ان نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا لعبا ولهوا يعبث به العابثون ، أو يتشاغلون و يتسلون به عن الاكدار والهموم ، بل هو مما يقصده العاقل لفوائده ومنافعه الثابتة الدائمة — وان تلك الدار للذين يتقون الشرك والشرور المحرمة خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث الذين لا حظ لهم من حياتهم الا التمتع الذي هو من قبيل اللعب في قصر مدته وعدم فائدته ، أو من قبيل اللهو في كونه دفعا لألم الهم والكدر ، أوضجر الشقاء والتعب ، — دع ما يستلزمه من المعاصي المفضية إلى عذاب الآخرة — ذلك بأن نعيم الآخرة البدني أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته ، وفي دوامه وثباته ، وفي كونه ايجابيا لا سلبيا، وفي كونه غير مشوب ولا منغّص بشيء من الآلام، وفي كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ولا إزالة أقذار ، فما القول بنعيمها الروحاني من لقاء الله ورضوانه وكمال معرفته . المعبر عنه عند أهل السنة برؤيته ؟

قرأ ابن عامر (ولدار الآخرة) باضافة الصفة للموصوف لمغايرتها له ، ولا نزاع بين النحاة في وقوع مثل هذا في الكلام العربي وحسبك وروده في الكتاب العزيز، وانما اختلف الكوفيون والبصريون في طريقة اعرابه، فالاولون يعربونه بغير

تأويل ، والآخرون يرون انه لم يرد الا بمسوغ وهو هنا استعمال « الآخرة » استعمال الاسماء في مثل قوله تعالى (وللآخرة خير لك من الاولى) أو مراعاة مضاف محذوف تقديره : والدار الحياة الآخرة،لانه في مقابلة الحياة الدنيا،ويصح تقدير النشأة أيضا . وقرأ بعض القراء تعقلون بالياء التحتية مراعاة للغيبة ، و بعضهم بالتاء الفوقية للخطاب

ومن مباحث نكت البلاغة انه ورد في معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة محمد (٤٧ : ٣٧ انما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) وقوله في سورة الحديد (٥٧ : ١٩ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد) وقد قدم في الآيات الثلاث اللعب على اللهو ، وقال تعالى في سورة العنكبوت (٢٩ : ٦٤ وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) وقد قدم في هذه ذكر اللهو على اللعب، وأكثر المفسرين لا يعنون ببيان نكتة لذلك لان العطف بالواو لا يفيد ترتيبا بل مطلق الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه. ومنهم من يرى ان مثل هذا لا يقع في كتاب الله تعالى الا لفائدة، وقد نقل السيد الآلوسي في روح المعاني كلاما ركيكا في الفرق بين الاستعمالين عزاه الى الدرة وقال في آخره : قاله مولانا شهاب الدين فليفهم . وهو أمر بما لا يستطاع من فهم ذلك الكلام المضطرب المبهم

والذي يظهر لنا في نكتة ذلك أن تقديم اللعب علي اللهو لا يحتاج الى تعليل لانه الاصل المتقدم في الوجود ، وقد فصلت آية الحديد متاع الحياة الدنيا بحسب ترتيبه الذي تقتضيه الفطرة البشرية فقدم فيها اللعب لان أول عمل للطفل يلذ له هو اللعب المقصود عنده لذاته ، وذكر بعده اللهو لما فيه من القصد الذي لا يأتي من الطفل ، لانه لا يحصل الا لذي الفكر ، و بعده الزينة التي هي شأن سن الصبا ، و بعده التفاخر الذي هو شأن الشبان ، و بعده التكاثر في الاموال والاولاد الذي هو شأن الكهول والشيوخ، فالنكتة ينبغي أن تلتمس في آية العنكبوت لا في هذه الآية ولا في آيتي محمد والانعام. وقد وردت في سياق اقامة الحجج العقلية على المشركين ، فذكر فيها اللهو قبل اللعب على طريقة التدلي المؤذن بالانتقال من الشيء الى ما هو

دونه في نظر العقلاء، فإن اللعب من العاقل الذي لايليق به العبث أقبح من اللهو ، إذ اللهو تقصد به فائدة ولو سلبية ، واللعب هو العبث الذي لاتقصد به فائدة البتة ، فهو شأن الاطفال لا العقلاء العاملين بالمصالح ، الذين يقصدون بكل عمل من أعمالهم إما دفع بعض المضار ، واما تحصيل بعض المنافع . ولذلك بين جهلهم بقوله (وان الدار الآخرة لهي الحيوان لوكانوا يعلمون) وقال في الحجة التي قبلها (ولكن أكثرهم لا يعقلون) ولا حاجة الى مثل هذا التدلي في آية الانعام التي نفسرها، فانها لم ترد في سياق حجج الايمان العقلية التي يراد بها بيان ضعف نظر المشركين وجهلهم، بل وردت في بيان حقيقة الدنيا بعد الاعلام بما يصيب المفتونين بها في الآخرة بحصر همهم في لذاتها ، وتلاه بيان المقابلة بينهم و بين المؤمنين الذين يتقون الله فيها، ففي مثل هذا السياق — كآية سورة محمد — يحسن الترتيب الوجودي ، بتقديم اللعب على اللهو الذي هو طريق الترقي، لانه انتقال من عبث ليس له عاقبة نافعة ، الى لهو فائدته سلبية عاجلة ، ولذلك بين بعده أن عمل المؤمنين المتقين فيها — ومنه تمتعهم بلذاتها— يؤجرون عليه في الآخرة،وأنها بسبب التقوى خير لهم من العاجلة.

هذا واني عند بلوغي هذا البحث ظفرت بكتاب [درة التنزيل. وغرة التأويل] لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الاسكافي[1] فراجعته بعد استقرار فهمي على ما تقدم، فعلمت أنه هو الذي نقل الآلوسي عن الشهاب عنه ما لا يكاد يفهم، وما ذلك الا للنقل بالمعنى دون النص ، الذي كثر بسببه الخطأ في النقل ، وقد ذكر الاسكافي هذا البحث عند ذكر الآية الثامنة مما أورده من سورة الانعام—(وهو الآية ٧٠) الواردة في اتخاذ الكفار دينهم لعبا ولهوا — مع ما يقابلها في سورة الاعراف (٧ : ٥٠) من اتخاذهم دينهم لهوا ولعبا . وبهذه المناسبة ذكر آيتي الحديد والعنكبوت اللتين بينهما مثل هذا الاختلاف ، ونسي ذكر الآية التي نحن بصدد تفسيرها ، وسيأتي ذكر اتخاذ الدين لعبا ولهوا في محله . وقد اعتمد الخطيب تفسير اللهو في الآيات أنه اجتلاب المسرة بمخالطة النساء ، وهو مخطئ في ذلك . وقال في تعليل تقديم اللعب على اللهو في سورة الحديد ان الحياة الدنيا لمن اشتغل بها

(١) رأيت الكتاب مطبوعاً يباع في مكتبة المنار ولم أكن عالما بذلك

ولم يتعب لغيرها مقسومة من الصبا وهو وقت اللعب، و بعده اللهو وهو الترويح عن النفس بملاعبة النساء،ويتبع ذلك أخذ الزينة لهن ولغيرهن،ومن أجل الزينة نشأت مباهاة الاكفاء، ومفاخرة الاشكال والنظراء، ثم بعده المكاثرة بالاموال والاولاد، فترتبت الحياة على هذه الاحوال، فوجب تقديم حال اللعب على اللهو اه ثم قال في آية العنكبوت انه لايراد بها ان الحياة الدنيا كلهالعب ولهوالخ. ثم قال ما نصه :—

« بل المراد المبالغة في وصف قصرمدة الدنيا بالاضافة الى مدة الاخرى فكأنه قال : ما أمد الحياة الدنيا إلا كأمد أزمنة اللهو واللعب وهي أزمنة تستقصر، لشغل النفس بحلاوة ما يستعجل ، كما قال القائل :

شهور ينقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سرار (١)

وقال المتأخر :

وليلة إحدى الليالي الغرّ ... لم تك غير شفق وفجر

والدليل على أن المراد ما ذكرت قبلُ ما ذكره الله بعدُ من قوله (وان الدار الآخرة لهي الحيوان) أي ان حياتها تبقى أبدا، ولا تعرف أمدا . وانما قدم اللهو هنا على اللعب لان الازمنة التي يقصرها اللهو ، اكثر من الازمنة التي يقصرها اللعب ، لان التشاغل به أكثر ، فلما كانت معظم مايستقصر، وجب تقديم ما يكثر على ما هو دونه في الكثرة ، لان ذلك آخذ بالشبه ، وأبلغ في وصف المشبه ، ولا خلاف ان الناس أزمنتهم المشغولة باللهو ، أكثر من أزمنتهم المشغولة باللعب ، وأن طيها لهم ، يخيل قصرها اليهم ، ويتفاوت طيها ، على حسب تفاوت ميل النفس الى محبوبها ، فمعظم ما ترى الزمان الطويل قصيرا زمان اللهو بالنساء، وهو الذي نشأت منه فتنة الرجال وهلاك أهل الحب »اه وما قلناه أقرب من اللفظ نسبا، وأشد ارتباطا بالمعنى وأقوى سببا

هذا وانا قد وعدنا بأن نبين في آخر تفسير هذه الآيات مايترتب على انكار البعث والجزاء من فساد الفطرة البشرية المفضي الى الشرور الكثيرة فنقول: إن الكفر

١) الانصاف جمع نصف ونصف الشهر حيث يكون القمر بدرا كاملا يقابله السرار وهو بالكسر اختفاء القمر في آخر الشهر

بالبعث والجزاء، واعتقاد أنه لا حياة بعد هذه الحياة، يجعل هم الكافر محصوراً في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية كالجاه والرياسة والعلو في الارض ولو بالباطل وهو ما يسمونه الشرف ، ومن كان كذلك يكون في اتباع هواه ولذاته الشهوانية أسفل من البهائم كالبقر والقردة والخنازير، وفي اتباعه لهواه في لذته الغضبية أضرى وأشد أذى من الوحوش الضارية المفترسة كالذئاب والنمور، وفي اتباعه لهواه ولذته النفسية شراً من الشياطين ، يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضاً، لا يصدهم عن باطل ولا شر يهوونه الا العجز ، ولا يرجعون الى حكم يفصل بينهم الا القوة التي جعلوها فوق الحق ، وطالما غشوا أنفسهم وفتنوا غيرهم في هذا الزمان ، بما كان من تأثير التوازن في القوى من منع كثير من البغي والعدوان ، الذي كان يصول به قوي الامم على ضعيفها ، والحكومات الجائرة على رعيتها ، فزعموا أن الحضارة المادية ، والعلوم والفنون البشرية ، هي التي تفيض روح الكمال على الانسان ، اذا لم يؤمن بالبعث والجزاء بل ولا بالاله الديان ، واستدلوا على ذلك بما أجمعت عليه أممهم ودولهم من ذم الحرب ، والتفاخر ببناء سياستهم على أمتن قواعد السلم . وزعموا أن الباعث لهم على ذلك حب الانسانية ، والرغبة في العروج بجميع البشر الى قنة السعادة المدنية، فان قيل: فما بالكم تسابقون الى استذلال الامم الضعيفة في الشرق، وتسخرونها لمنافعكم وتوفير ثروتكم بغير حق ؟ قالوا: كلا انما نريد أن نخرجها من ظلمات الهمجية والجهل، لتشاركنا فيما نحن فيه من نور الحضارة والعلم. فان قيل: فما بالنا نراها لم تنل من علومكم الا بعض القشور ، ولم تستفد من مدنيتكم الا الفسق والفجور ؟ قالوا انما ذلك لضعف الاستعداد ، وما تمكن في نفوس هذه الشعوب من الفساد ، على اننا خير لها من حكامها الاولين ، بما قمنا به من حفظ الامن وتوفير أسباب النعيم للعاملين ! ذلك شأنهم لا تقام عليهم حجة، الا ويقابلونها بشبهة تؤيدها القوة ، وقد قوضت الحرب المشتعلة نارها في أوربة هذه الاعوام ، جميع ما بنيت عليه هذه الشبهات من المزاعم والاوهام، اذ رأينا فيها أرقى أهل الارض فى الحضارة والعلوم والفلسفة يخربون بيوتهم بأيديهم ، ويقوضون صروح مدنيتهم بمدافعهم ، ويستعينون بكل ما ارتقوا اليه من العلوم والفنون والصناعات والحكمة

والنظام ، لاهلاك الحرث والنسل وتخريب العمران ، بمنتهى القسوة والشدة، التي لاتشوبها عاطفة رأفة ولا رحمة، ولو كان من بأيديهم أزمة الامور منهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء بالحق ، لما انتهوا في الطغيان الى هذا الحد.

نعم ان هذه الشعوب كانت تتقاتل لنصر المذهب أو الدين، في القرون التي كانت تعمل فيها كل شيء باسم الدين ، ولكنها لم تصل في التقتيل والتخريب في ذلك الزمان ، الى عشر معشار ماهي عليه الآن ، وان كانوا يسمون هذا العصر عصر النور وتلك العصور بعصور الظلمات ، على ان الرؤساء كانوا يتخذون اسم الدين وتأويل نصوصه وسيلة لاهوائهم التي ليست من الدين في شيء ، كما يعلم جميع علماء هذا العصر؛ ومن العجائب أن أقسى أهل هذه الحرب وأشدهم تخريبا وتدميرا هم الذين يزعمون أنهم يحاربون لله وأن الله معهم على أعدائهم. وانما الحرب الدينية الصحيحة حرب الانبياء والخلفاء الراشدين ، ومن على مقربة من سيرتهم من الملوك الصالحين ، ولم يكن يُستحلّ في شيء منها ما يستحل الآن من القسوة والتخريب . وقد فصلنا في المنار القول في المقابلة بين هذه الحرب المدنية ، وحروب المسلمين الدينية ، التي كانت دفاعا عن النفس ، وتقريرا للحق والعدل ، والمساواة في الحقوق بين أصناف الخلق، يسيرون فيها على القواعد الشرعية العادلة في الضرورات ككونها تبيح ما ضرره دون ضررها ، وكونها تقدر بقدرها ، وتراعى فيها الرحمة ، لا العدل وحده ، وقد شهد بذلك لسلفنا ، أعلم حكماء الافرنج بتاريخنا [غوستاف لوبون] فقال كلمة حق حقيقة بأن تكتب بماء الذهب، وهي : « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب »

وجملة القول ان شبهات المفتونين بالمدنيـة المادية قد دحضت بهذه الحرب الساحقة الماحقة وقويت بها حجة أهل الدين عليهم ، بل تنبه بها الشعور الديني في الجم الغفير من الاوربيين حتى الفرنسيس منهم، بعد ان كانوا قد نبذوه وراء ظهورهم، وآثروا عليه الشهوات البدنية الحقيرة، حتى ضاقت بهم المعابد التي كانت مهجورة، قلما تفتح أبوابها وقلما يلم بها أحد ان فتحت. وذلك شأن المسرفين في أمرهم من الناس، لا يتوجهون الى خالقهم الا عند الشدة والبأس ، (١٠ : ١٢ واذا مسّ الانسان

الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعدا أوقائما ، فلما كشفنا عنه ضره مَرّ كأن لم يدعنا الى ضرّ مسه . كذلك زُين للمسرفين ماكانوا يعملون)

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لايسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعدذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بماشاء من الألقاب ان شاء . واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

٨ — الاحتجاج بأحاديث الآحاد في العقائد

وتحقيق معنى الظن واليقين والتواتر (*)

قال المتكلمون ان العقائد لا تثبت بأخبار الآحاد لان المطلوب فيها القطع ، وأخبار الآحاد لا تفيد الا الظن ، وقد قال تعالى (ان الظن لايغني من الحق شيئا) وانما تثبت بالاحاديث المتواترة لانها هي التي تفيد اليقين الذي هو شرط الايمان

وقد فهم كثير من الناس من هذا القول مالم يرده المحققون من قائليه فأخطأوا في فهم المراد وفي فهم كلمتي الظن واليقين فظنوا ان الاحاديث الصحيحة التي رواها الآحاد من الثقات العدول في صفات الباريء عز وجل وفي أمور الآخرة لا يجب الايمان بها شرعا ولا يضرّ المسلم تكذيبها ، وان لم يكن عنده شك في صحتها ، بناء على ان أحاديث الآحاد لا تفيد في نفسها الا الظن الذي لا يجوز الاخذ به في

---

*) هذه تتمة الأجوبة عن الاسئلة المستنبطة من الكتاب الذي نشر في الجزء الذي قبل هذا

العقائد لانه لا يغني من الحق شيئا . وهذا الظن الذي فهموه من عبارة المتكلمين هو الذي لا يغني من الحق شيئا ، وما أظن ان مسلما يعتد بعلمه يقول به ؛ ولعل أول من قال تلك الكلمة أراد بها ان أحاديث الآحاد لا تقوم بها الحجة في العقائد على المنكر لورودها، وانما تقوم بالمتواتر لانه لا سبيل الى انكاره

الظن ضرب من ضروب التصديق بغير الحسي ولا الضروري من المدركات، فهو مما تتفاوت أفراده بالقوة والضعف ، فمنه ما يكون يقينا لا تردد فيه ، ومنه ما يكون راجحا مع ملاحظة مقابل مرجوح تارة ومع عدمها تارة ، وقيل إنه يشمل المرجوح أيضا، فالتصديق المبني على الادلة النظرية الذي يجزم به المستدل مع عدم ملاحظة احتمال النقيض يسمى ظنا، ولكن ادراك الحواس لا يسمى ظنا ، ولا العلم الضروري كقولنا : النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان . وهذا الحد الذي شرحنا به معنى الظن هو تفسير لقول الازهري ، في التهذيب : الظن يقين وشك . وقول ابن سيده في المحكم : هو شك ويقين الا انه ليس بيقين عيان انما هو يقين تدبر : فأما يقين العيان فلا يقال فيه الا علم . هـذا قول أئمة اللغـة . وأما قول الفيروزبادي في القاموس — : الظن التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم — فهو مأخوذ من اصطلاح علماء المعقول كالمناطقة والفلاسفة، ومثله قول المناوي: الظن الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض ، ولكن الفيروزبادي لم يسعه الا ان يزيد على تعريفه قوله : وقد يوضع موضع العلم : بمعنى أنه يستعمل في اللغة بمعنى اليقين. فان أراد انه يوضع موضع العلم حتى في الحسيات والضروريات فقوله غير صحيح . واليقين العلم وازاحة الشك وتحقيق الامر ، وهو نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل. قاله في لسان العرب. ثم قال — : وربما عبروا بالظن عن اليقين و باليقين عن الظن .

وقال الراغب : الظن اسم لما يحصل عن أمارة ومتى قويت أدت الى العلم ومتى ضعفت جدا لم يتجاوز حد الوهم . ثم ذكر أن من اليقين قوله تعالى (وظن أنه الفراق) وقوله تعالى (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) وقوله (وظن أهلها انهم قادرون عليها) وقوله (وظن داود أنما فتناه) وانما يظهر هذا في اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الجازم المبني على الامارات والاستنباط والاستصحاب دون الحس

والضرورة — لا اليقين المنطقي المبني على الضرورة أو الحس أو ما يؤدي اليهما بحيث لا يحتمل النقيض . وقد فسر الراغب اليقين بقوله : هو سكون الفهم مع ثبات الحكم، وقال انه من صفة العلم فوق المعرفة والدراية .

فعلم من قولهم أن اليقين في الاصل هو الاعتقاد الثابت الذي لا شك فيه ولا اضطراب . وأما قولهم بالتعبير به عن الظن والعكس فليس معناه ان كل يقين ظن يقين وانما معناه أن الظن على مراتب منها ما يرادف اليقين ومنها ما هو دونه ، فبينهما العموم والخصوص باطلاق . والمشهور في تعريف اليقين عند علماء الدين ان الاعتقاد الجازم المطابق. واشتراط المطابقة للواقع اصطلاحي خاص باليقين في الايمان الصحيح ، ولعل المطابقة تشترط في العلم فيسمى الجازم بغير الواقع موقتا به لا عالما.

اذا فقهت هذا فاعلم ان كل اعتقاد يستفاد من السماع يطلق عليه في اللغة اسم الظن باعتبار مأخذ لذاته ، واسم اليقين ان جزم صاحبه به ، وكذا اسم العلم ان مدلوله حقا ، ولكن نفس السماع أي ادراك الاصوات المحقق لا يسمى ظنا بل علما . وخبر التواتر انما يفيد العلم القطعي بضرب من الاستدلال النظري ، وان اعتمدوا انه يفيد الضروري فان من شروطه أن يخبر كل واحد من المخبرين الكثيرين عن حسي ، أي عما سمعه بأذنه أو رآه بعينه مثلا ، وان يقوم الدليل أو القرائن على أنهم لم يتواطؤا على الكذب، وأن يتحقق ذلك في كل طبقة من الطبقات. وقد اختلف العلماء في العدد الذي يحصل بخبره التواتر مع توفر الشروط التي ذكروها . فاكتفى بعضهم بالآحاد كسبعة وعشرة واشترط بعضهم العشرات. ولكنهم اتفقوا على أن آيته حصول العلم الجازم بمدلول الخبر. ومثل هذا العلم كثيرا ما يحصل بخبر الواحد وان لم يكن متصفا بالصفات التي اشترطها المحدثون في راوي الحديث الصحيح كالعدالة والضبط وعدم مخالفة الثقات المشهورين فضلا عن مخالفة الامور القطعية التي عدوا مخالفتها علامة الكذب ووضع الحديث .

مثال هذا النوع من خبر الواحد الذي يحصل به الاعتقاد الجازم وان لم يكن المخبر به متصفا بعدالة رواة الحديث أكثر ما نسمعه كل يوم ممن نعاشر ونخالط من أصدقائنا ومعاملينا وأهل بيوتنا وخدمنا من الاخبار عن أمور معيشتنا كقولهم :

حضر الطعام، وهيء الحمام، وجاء للزيارة فلان. ومن هذا القبيل كل خبر لا مجال للتهمة فيه. وأما اخبارهم فيما يتهمون فيه فهي التي يُرتاب فيها، ويحتاج الى القرائن والادلة في تمييز راجحها من مرجوحها، مثال ذلك مدح النفس والدفاع عنها والطعن في الخصوم، ورواية الغرائب والعجائب، فالاخبار في أمثال هذه المسائل يكثر فيها الكذب والخلط، إما بالعمد أو بعدم الضبط، أو بسوء الفهم والاستنباط، أو بضعف البيان، أو بتقليد الآباء أو الاموات، وما يتبع ذلك من الوهم، ومن خطأ الحس والرأي.

فمن وعى ما ذكرنا وتدبره يعلم منه ما يعلم من نفسه، اذ هو فكر في مصادر علمه، والاخبار التي يحدث بها والتي يتلقاها عن غيره، وهو أن الاصل في أخبار جميع الناس الصدق، وان الكذب انما يقع لاسباب عارضة، وأنه هو وسائر الناس يصدقون في كل يوم كثيراً من أخبار الآحاد حتى غير العدول تصديقا جازما لا يزاحمه شك ولا احتمال، ولا يخطر لهم فيها النقيض على بال، ومنها ما يجزمون باستحالة وقوع نقيضه عادة وان جاز عقلا، كبعض أخبار العدول الثقات الضابطين الخالية من الشبهات، ورجال الحكومة المسؤلين في الرسميات.

بل أقول ان من هذه الاخبار ما يجزم العقل بصدقه وامتناع نقيضه، وأعني بالعقل هنا العقل البشري الذي يبني حكمه على الاختبار، ويزنه بميزان رعاية المصالح ودفع المضار، لا عقل واضعي المنطق والفلسفة، الذي يجيز وقوع كل ما يمكن تصوره، ويحصر وقوع المحال في اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما وما يؤدي الى مثل ذلك حتما.

وقد تحير هؤلاء في تعريف العلم حتى قال بعضهم انه لا يمكن تعريفه، ومن أشهر أقوال مدققي متكلمينا في ملكة العلم إنها صفة توجب انكشافا لا يحتمل النقيض. فالعلم بالشيء عندهم لا يمكن نقضه ولا الرجوع عنه، فلو كان هذا العلم شرطا في كل مسألة من مسائل العقائد لكان الكفر بعد الايمان محالا، ولكن قد ثبت وقوع الكفر بعد الايمان بنص القرآن، فالعلم الذي لا يحتمل النقيض ليس شرطا لصحة الايمان، وانما الشرط أن يكون المؤمن جازما بما يعتقد، غير مرتاب ولا متردد، وقول الاستاذ الامام: الرجوع عن الحق بعد اليقين فيه كاليقين في الحق كلاهما قليل في الناس. — اراد به اليقين المنطقي، وأراد بالرجوع عنه اظهار الجحود والمخالفة كبراً أو عنادا لا الاعتقاد فان اعتقاد

نقيض المتيقن ليس في استطاعة الموقن، الا اذا اختلط عقله، واختل فهمه، وهذا قليل الوقوع كالرجوع عن الحق كبرا وعنادا بعد الاذعان له، اذا كثر المعاندين للحق المستكبرين عنه الذين قال الله في بعضهم (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) لم يكن ذاك الجحود منهم بعد اذعان، أو لم يكن استيقانهم على شرط علم الكلام وفلسفة اليونان

واذا فكر السائل في العلوم النقلية وطريقة أدائها وتعليمها عند البشر من جميع الامم رأى ان أكثر أخبارها المقطوع بها يتلقاها الآحاد بعضهم عن بعض ، فاذا اشترطنا فيها ذلك العلم الكلامي واليقين المنطقي، وأن لا نعد شيئا منها حقا ثابتا الا اذا تلقيناه بالتواتر اللفظي، فكيف تكون حالنا في معارفنا التاريخية، وما يبنى عليها من علومنا الاجتماعية وأعمالنا السياسية . وفي سائر العلوم التي ينقلها بعضنا عن بعض ؟

بعد هذا كله أقول انه لم يعرف عن أحد من شعوب البشر مثل ماعرف عن المسلمين من العناية بنقد الاخبار النبوية وتمحيصها، وضبط متونها وحفظ أسانيدها، بل كانوا ينقلون الاخبار التاريخية والادبية والشعر والمجون بالاسانيد المتصلة ، ووضعوا كتب التراجم لجميع أصناف العلماء والادباء كما وضعوها من قبل لرجال الحديث ، ليسهل طريق العلم بالصحيح وما دونه من ذلك ، ولكنهم دققوا في نقد رجال الحديث مالم يدققوا في شيء آخر ، فاذا كان ما صح من الحديث عندهم متنا وسندا لا يجزم به فبماذا نثق من أخبار البشر، واذا كان المسلم منا يصدقها فكيف يمكنه ان يرد مضمونها اذا كان في عقائد الدين ، بناء على كلمة عرفية للمتكلمين ؟

الحديث الصحيح عند المحدثين ماثبت بنقل عدل تام الضبط متصل السند غير معلل ولاشاذ. وينافي العدالة عندهم ثبوت الكذب وكذا الاتهام به والفسق والغفلة وكثرة الغلط والجهالة — أي كون الراوي مجهولا عند علماء الجرح والتعديل. ولولا هذا الشرط لاخترع الكذابون أسانيد كثيرة لاأصل لها وخدعوا الامة بها وكذا البدعة فمن كان مبتدعا لشيء من أمر الدين لم يكن عليه أهل الصدر الاول لايحكم بصحة حديثه قيل مطلقا وقيل فيما يؤيد بدعته وهو المعتمد ، بل لابد لثبوت ذلك من روايته عن غيره .

والضبط عندهم ضبط الصدر وضبط الكتاب، فالاول الحفظ عن ظهر قلب بحيث يتمكن من استحضار ماحفظه متى شاء ، فان غلط أوأخطأ في الاداء لايعد حديثه

صحيح . والثاني حفظ الكتاب منذ سمع فيه وصححه على من تلقاه عنه الى ان يؤدي منه ، فاذا غاب عنه غيبة أمكن أن يعرض فيها التغيير والتحريف أو الزيادة أوالنقصان لا تعد روايته له ولا منه صحيحة ،

واتصال الاسناد سلامته من سقوط فيه بحيث يكون كل فرد من رواته قد سمع ذلك المروي من شيخه ، ويقابله الانقطاع ، وهو أقسام ، فالحديث (المنقطع) وهو ماسقط من سنده بعض الرواة لايعد صحيحا، الا انهم اختلفوا فيما سقط منه مَن بعد التابعي ويسمونه (المرسل) وذلك كأن يقول التابعي: قال رسول الله (ص) كذا . فالجمهور يتوقفون فيه، وبعضهم يحتج بمراسيل من علم من حاله انه لا يروى الا عن الصحابة أوثقات التابعين كسعيد بن المسيب، دون من يروي عن غيرهم كالحسن البصري

ومن (الانقطاع) عندهم (التدليس) وهو رواية الراوي عمن فوق شيخه الذي سمع منه بلفظ يوهم السماع منه ايهاما لا تصريحا ، كان يقول المدلس قال فلان — أو : عن فلان . وقد اختلفوا في حديث المدلِّس فقيل لا يقبل مطلقا وقيل الا فيما صرح فيه بالسماع ، والجمهور على قبول حديث من لا يدلس الا عن ثقة كابن عيينة .

ولاجل هذا شددوا في قبول الحديث (المعنعن) أي الذي يقال فيه عن فلان عن فلان. فقالوا عنعنة المدلس غير مقبولة ، واشترط مسلم في العنعنة معاصرة الراوي لمن روى عنه، والبخاري اشترط العلم باللقيّ ولم يكتف بمجرد المعاصرة . فاذا قال العدل الثقة الضابط عن فلان أو قال: قال فلان كذا — لا يعتد البخاري بروايته هذه الا اذا كان قد علم انه قد لقي ذلك الرجل واجتمع به، ولكن مسلما يكتفي بالعلم بأنهما وجدا في عصر واحد ومن الممكن ان يكون لقيه وروى عنه .

ومن أقسام الحديث عندهم (المضطرب) وهو ما يقع في اسناده أو متنه اختلاف من الرواة بتقديم وتأخير أو زيادة ونقصان أو اختصار أو حذف أو ابدال راو براو أومتن بمتن أو تصحيف في أسماء الرواة أو ألقابهم أو أنسابهم أو في ألفاظ المتن . فان أمكن الجمع وعرف الاصل والا توقف في قبول الحديث والاحتجاج به

ومنها (الشاذ) وهو ماخالف راويه فيه من هو أوثق منه فان لم يكن المخالف للثقة ثقة سمي حديثه (المردود) وان كان ثقة رجح عليه مخالفه الذي هو أوثق منه

وسمي حديثه (المحفوظ) فهو مقابل الشاذ. ومنها (المنكر) وهو ما خالف راويه الضعيف فيه من هو أضعف منه ، ويقابله (المعروف) وكلاهما راويه ضعيف لا يحتج بحديثه ومنها (المعلل) وهو ما فيه علة خفية كوصل المنقطع ورفع الموقوف وادخال حديث في آخر أو ادراج كلام الرواي في المتن أو الادراج في سياق الاسناد .

ولو شئنا أن نبين تدقيق علماء الجرح والتعديل في نقد رواة الحديث لرأى فيها غير المطلعين عليها من القراء ما لم يخطر لاحد من أمثالهم على بال ولعلموا منه أن أكثر من يعدونهم من الثقات الصدوقين من أهل هذا العصر لو كانوا في أزمنة أولئك النقاد لما عدوا رواياتهم صحيحة ولو لعدم اتقان الحفظ والضبط. ومن تدقيقهم أنهم يعدون بعض الرواة ثقات في الرواية عن أهل قطر دون آخر، كقولهم فلان غير ثقة في المصريين أو الشاميين - لانه كان عرض له عند الرواية عنهم اختلاط في العقل، أوهرم خانته به الذاكرة وفقد جودة الضبط .

وقد وضعوا كتبا ببيان الاحاديث الموضوعة خاصة بينوا فيها وفي غيرها أسباب وضع الحديث والكذب فيه وعلامته وأسماء الوضاعين والكتب والنسخ الموضوعة برمتها التي لا يصح منها شيء، كما وضعوا عدة كتب للاحاديث التي اشتهرت على الالسنة وبينوا درجاتها، وميزوا بين الصحيح والحسن والضعيف والموضوع منها. ولكن عناية العلماء بنقد المتون وعرض الاحاديث القوية الاسانيد على القواعد التي بينوا بها علامات الوضع كانت أقل من العناية بنقد الاسانيد، وقل أن يهتم المنتمون الى المذاهب بنقد متون الاحاديث الا اذا كانت مذاهبهم مخالفة لها فكان هـذا من سيئات التعصب للمذاهب

نتيجة البحث وخلاصة الجواب

فمن فقه ما شرحناه علم أن أكثر الاحاديث الآحادية المتفق على صحتها لذاتها كأكثر الاحاديث المسندة في صحيحي البخاري ومسلم – جديرة بأن يجزم بها جزما لا تردد فيه ولا اضطراب، وتعد أخبارها مفيدة لليقين بالمعنى اللغوي الذي تقدم . ولا شك في أن أهل العلم بهذا الشأن قلما يشكون في صحة حديث منها ، فكيف يمكن لمسلم يجزم بأن الرسول (ص) أخبر بكذا ولا يؤمن بصدقه فيه ؟ أليس هذا من قبيل الجمع بين الكفر والايمان؟ وليعلم انني أعني بالمتفق عليه هنا ما لم ينتقد أحد من أئمة العلم متنه ولا سنده، فيخرج من ذلك ما انتقده مثل الدارقطني وما انتقده أئمة الفقهاء وغيرهم،

ومن غير الاكثر ما تظهر فيه علة في متنه خفيت على المتقدمين أولم تنقل عنهم وذلك نادر. وقد عد بعضهم هذه الاحاديث المتفق على صحتها مفيدة للعلم اليقيني الاصطلاحي اذا تعددت طرقها ، قال الحافظ ابن حجر في شرح نخبة الفكر ما نصه :

(فائدة) ذكر ابن الصلاح ان مثال المتواتر على التفسير المتقدم يعز وجوده الا أن يدعي ذلك في حديث «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» وما ادعاه من العزة ممنوع وكذا ما ادعاه غيره من العدم لان ذلك نشأ عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق وأحوال الرجال وصفاتهم المقتضية لإبعاد العادة أن يتواطوءا على كذب أو يحصل منهم اتفاقا، ومن أحسن مايقرر به كون المتواتر موجودا وجود كثرة في الاحاديث ان الكتب المشهورة المتداولة بأيدي أهل العلم شرقا وغربا المقطوع عندهم بصحة نسبتها الى مصنفيها إذا اجتمعت على اخراج حديث وتعددت طرقه تعددا تحيل العادة تواطأهم (فيه) على الكذب الى آخر الشروط أفاد العلم اليقيني بصحته الى قائله ومثل ذلك في الكتب المشهورة كثير اه

﴿ الزار، وهل اعتقاد تأثير الولي والعفريت فيه شرك جلي ﴾

(س ٩) من أحد المشتركين في القاهرة — ع . م

حضرة الاستاذ العلامة المفضال السيد رشيد رضا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته. و بعد فاني أهنئكم أولا بسلامة العودة من الاقطار الحجازية المباركة وأدعو الكم الله سبحانه وتعالى أن يجعله حجا مبرورا ان شاء الله

سيدي استشكل عليّ أمر بخصوص مايسمونه (الزار) الذي يستشفي به بعض (الجاهلات) من النساء من أمراضهن العصبية فأحببت أن أعرضه عليكم راجيا التكرم بالاجابة ولو تأشيرا على هذا بصفة خصوصية

« احدى السيدات مصابة بمرض عصبي : يأتيها غالبا على نوبات ربوٌ وآلام شديدة بالمعدة والكليتين مع صداع وسعال وضعف عمومي شـديد ، وخصوصا في ابتداء كل مرة من الحمل ، عرتها هذه الحالة منذ خمسة عشر عاما بعد زواجها بقليل، ثم إنها على صلاح وتقوى ، وقد كانت لا تعتقد بمسألة الزار ولكنها تحت تأثير كلام النساء خصوصا أقاربها من والدة وأخوات اعتقدت أخيرا وتوهمت ان أحد الاولياء

أو أحد العفاريت هو الذي أصابها بهذا المرض الهيستيري من زمن وصممت على عمل حفلة الزار بمصاريف من عند أهلها في منزلهم لا في منزل زوجها الذي عارض في ذلك بشدة لعدم اعتقاده بمثل هذه الخرافات ، ولم يرض بخسارة دينه في مصاريف باطلة على عقيدة باطلة »

والآن ألاترى سيادتكم أن اعتقاد هذه السيدة تأثير الولي الفلاني أو العفريت الفلاني يؤدي بها الى الشرك الجلي ? وفي هذه الحالة تصبح محرمة على زوجها المسلم الصحيح (غير الجغرافي أو السياسي) الذي لا يعتقد بتأثير ولي أو نبي ? فتفضلوا بإفادتي عن ذلك ولو كلفكم الجواب شيئا من التفصيل ? وتفضلوا بقبول مزيد تشكراتي وجزيل ممنونيتي سلفا والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته ?

(ج) يذكر جمهور علماء الكلام أن الايمان بوحدانية الافعال عبارة عن التصديق الجازم بأنه لا فعل لغير الله تعالى في الحقيقة، فكل ما يقع في الكون من خير وشر ونفع وضر فهو من فعل الله تعالى وحده، ويصرح الاشعرية في كتب العقائد بأن الاسباب الظاهرة للحوادث - ومنها كسب الإنسان وغير الإنسان من الملائكة والجان - لا تأثير لها في نفسها، وانما يخلق الله المسببات والمكسوبات عندها لا بها، فلا فرق بين النار والماء في حصول الاحراق والإرواء، الا أن عادة الله قد جرت بخلق الاحراق عند مس النار واتصالها بالجسم القابل للاحتراق وخلق الإرواء عقب خلق شرب الماء ، ولكن الشرع أمر بالكسب، كالتداوي والاكل والشرب، فينبغي القيام بالمشروع منه وهو ماجرت سنة الله تعالى بجعله سببا مطردا، وما كان سببا غير مطرد كرقية الملسوع وما في حكمه فإتيانه ينافي التوكل وكمال الايمان والتوحيد، وأما ما كان دون ذلك مما لم يثبت كونه سببا البتة أوقامت عليه شبهات وهمية باطلة اغتر بها بعض العوام في بعض البلاد - كالزار في بلاد مصر والسودان، فلا عذر لمؤمن في الاقدام عليه، أي لانه من الجبت[1] الذي هو عبارة عن خرافات الكهنة والسحرة، ومن اعتقد أن ولي الزار أو شيخه ينفع ولو بقدرة خلقها الله فيه ومزية أعطاه اياها وأن عفريته يضر ولو بقدرة خلقها الله فيه أيضا - فهو عند هؤلاء المتكلمين مشرك بالله تعالى . فالخطر على منتحلي خرافات

(١) راجع تفسير (يؤمنون بالجبت والطاغوت) في ص ١٥٦ ج ٥ من التفسير

الزار وغيرها شديد في مذهب هؤلاء المتكلمين الذين ينتمي اليهم أكثر الخرافيين؟
وأما مذهب غير هؤلاء من المتكلمين ومحققي أهل الاثر من الحنابلة وغيرهم فهو أن الله تعالى جعل الاسباب مؤثرة بخواص خلقها فيها كالاحراق في النار، والإرواء في الماء، ومقاومة سبر المرض في الدواء، ومنها ارادة الانسان وعمله الاختياري، ولكن هؤلاء يقولون كغيرهم إن الاسباب تعرف بالتجارب والاختبار، وتكون مشتركة بين جميع المجربين من الناس، واتخاذ الاسباب الوهمية مذموم شرعا وعقلا، وأنه لا تأثير لمخلوق فيما وراء الاسباب التي جرت سنة الله في الخلق بربط المسببات بها، فمن اعتقد أن غير الله تعالى ينفع أو يضر بذاته دون ما جرت به سنته تعالى في الاسباب، أو بتأثيره في ارادة الله تعالى وقدرته، بأن يفعل الله تعالى بتأثيره عنده شيئا لم يكن لولاه ليفعله بمحض ارادته حسب علمه الازلي — فهو مشرك بالله كافر بوحدانيته، لاعتقاده أن لغيره فعلا وتأثيرا معه بقدرته الذاتية ـ وهو المنفرد بذلك ـ أو بتأثيره في ارادته ـ والاله الخالق القديم لا يكون محلا للتأثيرات الحادثة، ويستحيل أن تكون ارادته تابعة لارادة أحد من خلقه، الذين هم تحت تصرف قدرته وقهره
اذا تدبر السائل هذا ظهر له أن التصديق بخرافة الزار خطر على الدين، وأنه ليس من شأنه أن يقع من أهل التوحيد الصحيح، لا على مذهب المتكلمين، ولا على مذهب الاثريين، وانما يقع مثله ممن يأخذون دينهم عن أمثالهم من الجاهلات والجاهلين، كغوغاء العوام الذين يقلد بعضهم بعضا في أمور الدنيا والدين، كالعادات السخيفة والعلاجات الضارة، المبنية على تجارب فاسدة ناقصة،

ولكننا مع هذا كله لا نجزم بكفر امرأة تصدق ببدعة الزار، ولا نجعلها به مشركة بالله عز وجل، بل يجب أن نحتاط في مثل هذا الحكم، وندفع الجزم به قبل العلم بحقيقة اعتقاد المرأة ولو بالشبهات، كما يجب أن تحتاط تلك المرأة باتقاء التصديق بهذه الخرافات، التي يخشى أن تكون شركا جليا أو خفيا ولو على بعض الاقوال، فنقول نحن عملا باحتياطنا: يجوز على هذه المرأة أن تؤمن ايمانا جازما بأن الله تعالى خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، وان ما اقتضته ارادته وجرى به قدره من ربط الاسباب بالمسببات، هو عام مطرد في المخلوقات، وانه لا قدرة لمخلوق على شيء خارج عن سنته تعالى في الكائنات، بل جميع الخلق سواء في العجز عما وراء

الاسباب ، كما انهم سواء في جريانها فيهم وخضوعهم لها ، وانحصارهم في حظيرة قهرها . ويجوز أن يعرض لها وهي على هذا الاعتقاد مرض فيخبرها من تظن فيهم الصدق وعلم التجربة والاختبار ، ان سبب هذا المرض ملابسة عفريت من الجن لها ، وأن غيرها قد أصيب بمثله قبلها ، وأنهم جربوا له كل علاج فلم ينجع فيه الا تلك الفعلة الشنعاء وحدها ، وان علة نفعها أن العفريت الذي يلابس المريض في هذا المرض يزعجه ما يكون في حفلة الزار ، من الذنوب والاوزار ، حتى يلجئه الى الفرار ، بين تلك الاغاني والمعازف ، والعزائم والعزائف ، والقرابين والذبائح ، وما في التضمخ بدمها من الفضائح ، – و يجوز على هذه المرأة أن تصدق هؤلاء المخبرين الضالين المضلين ، ولاسيما بعد اليأس من معالجة الاطباء المشهورين ، وأن تعتقد أن ذلك لا ينافي الايمان ، لان طرد الشياطين من الابدان ، كطرد الجراد ونحوه من المزارع والغيطان ، فهو من الاسباب الكسبية ، التي جرت بها السنن الآلهية ، ويجوز أيضا ان تعلم أن عمل الزار حرام ، وان المستحل لما يعتقد حرمته يعد مرتدا عن الاسلام ، كالجاحد للمعلوم من الدين بالضرورة من مسائل الاجماع ، ثم تقول انني لا أستحله ، ولكنني آخذ بقول من قال ان التداوي بالمحرم جائز اذا لم يوجد غيره ،

فاذا جاز أن تعتقد المرأة ما ذكرنا وان كان باطلا في نفسه فكيف نتجرأ على الافتاء بردتها ، و ببطلان عقد نكاحها ، وسائر ما يترتب على الردة من الاحكام ؟

أما مايحسن أن توعظ به امرأة تدرك ما ذكرنا فهو ان خرافة الزار القبيحة المنكرة ليست سببا من أسباب الشفاء من هـذا المرض ، وان مايدعى من التجربة المثبتة لنفعه باطل ، وأنه عمل الكثيرات فلم يفد ، وأن من اتفق انهن شفين بعده لم يكن شفاؤهن به بل بأسباب أخرى حقيقية أو وهمية ، وانه لو كان علاجا نافعا بالتجربة الصحيحة لعملت به جميع الشعوب التي فاقت غيرها في العلوم والمعارف ، المبنية على إتقان التجارب ، ولكننا نرى هؤلاء يسخرون من هذه الخرافة وأهلها ، التي هي محصورة في مصر والسودان بل في الطبقة الجاهلة من أهلهما ، واذا كان الامر كذلك فكيف نقدم على العمل بخرافة أدنى مايقال فيها انها مشتملة على عدة بدع محرمة في الدين ، محتقرة عند جميع المرتقين ؟

مدرسة دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١٥

المعالجة — يجب البدء بعلاج مدخل هذا الميكروب في الجسم، بأن يعالج الاحليل في الذكر مثلا علاجا فعالا، وتعالج المفاصل بالقلويات وبيودور البوتاسيوم. وينبغي مراعاة القوانين الصحية باستنشاق الاهوية الجيدة وتعاطي الاغذية السهلة الهضم والمقويات كمركبات الحديد وزيت السمك ونحوهما. ويدلك المفصل ببعض المراهم المسكنة أو الزئبقية. أو يدهن بصبغة اليود. وتجب اراحته من الحركة مطلقا، ولكن بعد زوال الالتهاب الحاد ينبغي دلك المفصل وتكبيسه وتليينه باليد

والعلاج باللقاح أفاد في بعض الاحوال خصوصا في الاصابات المزمنة أي التي طالت مدتها، والافضل أن يؤخذ الميكروب من نفس المريض، ولكن هذا العلاج يحتاج الى مدة طويلة

ويجب البدء بحقن مقادير صغيرة من اللقاح ثم تزاد بالتدريج، ولا يجوز عمل الحقن الثاني الا بعد تمام زوال كافة الاعراض التي قد تنشأ من الحقن الاول. وهناك مصل لعلاج هذا الداء أيضا لا يخلو من الفائدة

استدراكان

(الاول) جاء في مجلة [اللانست Lancet] الطبية الانجليزية الصادرة في ١٢ أغسطس سنة ٩١٦ رأي لاحد أطباء الانجليز في عدوى الالتهاب السحائي الوبائي وملخصه « ان ميكروب هذا الداء هو عين ميكروب السيلان — لا شبيها به فقط كما قلنا سابقا — وان قمل الجسم هو الذي ينقله من شخص الى آخر إما بامتصاص دم المصاب بالالتهاب السحائي وتلقيح الآخرين به اذا انتقل القمل اليهم. أو بتلوث القمل

به مما يسيل من المصاب بالسيلان في ملابسه من الصديد ونقله الى غيره فيدخل الميكروب تحت الجلد و يسير في الاوعية اللمفاوية الى السحايا وغيرها كالمفاصل التي قد تلتهب أيضا في هذا المرض »، وأنكر هذا الطبيب انتقال الميكروب في الهواء ودخوله من الفم أوالانف . وقال: ان المصاب بالسيلان ذاته عنده شيء من المناعة فلا تصاب سحاياه الا قليلا. فاذا صح هذا الرأي — والغالب أنه صحيح — سهلت مقاومة هذا الداء الخبيث وتيسر اجتنابه . ومن هذا الرأي تفهم بعض حكم الاستنجاء وطهارة الثوب ونظافته ، ونظافة الجسم بالغسل والحلق، وغير ذلك من شرائع الديانة الاسلامية الغراء التي شرحناها سابقا . وترى مما تقدم أن القمل يقتل بالحمى التيفوسية والراجعة و بالالتهاب السحائي أكثر مما تقتل العقارب والثعابين . وذلك يحقق أيضا المثل العامي القائل « وضع تعالى سره في أضعف خلقه » وترى منه أيضا مقدار الخطر الذي يتهدد كل من يتردد الى مواخير الفسق ، فان أكثر الزواني مصابات بالسيلان الحاد أو المزمن و بعضهن يرى بملابسه وفراشه القمل

(الثاني) ان من أسهل الطرق لتطهير الماء والخُضر ونحوها من الميكروبات أن يذاب في الماء [بي سلفات الصوديوم] وتسمى أيضا [كبريتات الصوديوم الحمضية] بنسبة $\frac{٢}{١٠٠٠}$ ويترك الماء مدة نصف ساعة فان حامض الكبريتيك الذي يوجد فيه يقتل تلك الاحياء الدنيئة وأجنة ديدان [البلهارسية Cercariae Miracidia] ولا ضرر من شرب هذا الماء . واذا نقعت فيه الخضر مدة نصف ساعة تطهرت كذلك . ويجوز أن تطهر به الاواني الخزفية والزجاجية ونحوها ما عدا المعدنية فان الافضل تطهيرها بالغلي. وهذه الطريقة نافعة جدا اذا اتبعت في زمن انتشار أوبئة الحمى التيفودية والكوليرا و الدوسنطاريا وغيرها مما يتلوث به الماء والخضر، فإنها كافية للتطهير بدل الغلي الذي لا يحسن لبعض الخضر والفاكهة

تسمم الدم

لهذا الداء ثلاثة أشكال : —.

(الشكل الاول) أن تدور سموم الميكروبات في الدم، ويسمى ذلك باليونانية

[سپريميا Sapraemia] ومعناها حرفياً، الدم الفاسد

(الشكل الثاني) أن تدور الميكروبات مع سمومها في الدم، ويسمى ذلك باليونانية [سپتيسيميا Septicaemia] ومعناها حرفيا ، الدم المتعفن

(الشكل الثالث) مثل الشكل الثاني غير أنه يزيد عليه بتكوّن أخرجة في عدة أجزاء من الجسم، ويسمى ذلك باليونانية [پييميا Pyaemia] ومعناها حرفيا الدم الصديدي

وجميع هذه الاشكال تنشأ من ميكروبات الصديد وهي على الاكثر من الشكل البزري ، ومنها ما يكون عنقوديا أو سلسليا. والسلسلية هذه أشدها خطرا كما سبق، ومن الميكروبات العنقودية ما يكون لونه أبيض أو أصفر، ويشاهد ذلك اذا تجمعت منها جموع كثيرة في المزارع الصناعية . وهناك بعض ميكروبات لها أشكال أخرى تحدث الصديد كباسيل الصديد الازرق [Pyocyaneus] ومن ميكروبات الامراض الاخرى ما يحدث الصديد أيضا كميكروب الحمى التيفودية والدرن

والميكروبات البزرية المذكورة منتشرة كثيرا وهي من أكبر ما يخشاه الجراحون في عملياتهم فيتقونها بالتطهير التام بالغلي وغيره، فانها اذا وجدت أي سحج أو جرح في الجلد أو الاغشية المخاطية دخلت فيه وأحدثت التهابا فتقيحا ، وتذوب الانسجة ويتجمع بسببها عدد لا يحصى من الكريات البيضاء فينشأ من ذلك المدة والصديد ونحوهما. فاذا أصابت سطح الجلد نشأت منها الدمامل والبثور ونحوها، واذا أصابت الانسجة الغائرة نشأت الاخرجة وما شاكلها، واذا أصابت الاغشية المخاطية التهبت وحدث منها الزكام ونحوه .

واذا كانت الاصابة صغيرة ومحدودة ولم يدخل الميكروب الى الدم قل حصول أي توعك أو حمى، لان السموم التي تمتص في البنية تكون حينئذ قليلة جدا، ولكن اذا كان موضع الالتهاب كبيرا نشأت الحمى بسبب امتصاص سموم الميكروبات في البنية ونشأ الشكل الاول المذكور هنا، فاذا دخلت هذه الميكروبات الى الدورة حدث الشكل الثاني، وقد تدخل من أي جرح مهما يكن صغيرا، واذا رسب بعض هذه الميكروبات الممتصة في أجزاء الجسم المختلفة تكونت حولها و بفعلها أخرجة. وهذا هو الشكل

الثالث . وطريق امتصاص الميكروب في الشكل الثاني هو الاوعية اللمفاوية وفي الثالث الاوردة ، وفيها يدخل أيضا بعض مواد التهابية عفنة مع الميكروب

أما أعراض الشكل الاول فهي ارتفاع حرارة الجسم مع سائر الاعراض الاخرى للحمى ، وكذلك أعراض الشكل الثاني والثالث، غير أن المعتاد فيهما أن تبتدئ الحمى برعدة شديدة ويشتد المرض على المريض حتى يكون كالمصاب بالتيفوس، فيعتريه الهذيان والذهول والهمود وكافة الاعراض الشديدة لتلك الحمى، وتكون مدة المرض في هذين الشكلين قصيرة وتنتهي بالموت غالبا . وفي التسمم الصديدي تكثر الرعدة وتحصل يوميا مرة أو مرتين، وفي كل مرة تظهر التهابات فأخرجة جديدة ويكثر العرق عقب كل رعدة ويصاب المريض بالهمود وينحف جسمه بسرعة ويصفر لونه وقد يصاب بالقيء الكثير أو الاسهال ، وقد تزول الرعدة بعد خمسة أيام أو ستة . وتكون الحمى في هذا الشكل متقطعة مرتفعة في المساء ومنخفضة في الصباح عادة، وقد تصل الى الدرجة الطبيعية خصوصا في أول المرض. وتختلف باقي الاعراض باختلاف العضو المصاب بالاخرجة فان لكل عضو مصاب بها علامات وأعراضاً مخصوصة. ومدة هذا المرض لاتزيد عن ستة أيام غالبا ولا تمتد إلى ما بعد العاشر كذلك، اللهم الا اذا أزمن المرض وحينئذ لاتصاب الاحشاء وانما تتكون الاخرجة في المفاصل أو تحت الجلد . واذا شقت كلها وعولجت قد يشفى المريض بعد عدة أسابيع أو أشهر

ومما يساعد على حدوث تلك الاشكال المذكورة عدم الاعتدال وغيره مما يضعف البنية كبعض الامراض المزمنة مثل التهاب الكلى أو البول السكري، ولكن لا يحصل أي شكل منها مالم يوجد في الجسم مدخل للميكروب

العلاج — تفتح الاخرجة وتطهر وتضمد يوميا فان كانت الحمي ناشئة عن امتصاص السموم فقط شفي الجرح وشفي المريض أيضا، وان كانت الميكروبات دائرة في الجسم تعسر الشفاء أو تعذر، ويعطى المريض المنعشات والمغذيات وترعى معه جميع الوسائل الصحية

أما الادوية فهي قليلة الجدوى، ولكن استعمال الحقن بالمصل المتعدد القوي

[Polyvalent] أي المحضر بحقن عدة أنواع من الميكروب أفاد في كثير من الاحوال، ونجب تجربته اذا دخلت الميكروبات البنية سواء أحدثت أخرجة أم لم تحدث

الوقاية من تسمم الدم بجميع أنواعه — أن يتقي الانسان كل ما يحدث جرحا أو سحجا في الجسم وان كان صغيرا. فاذا حدث بالرغم من احتياط الانسان وجبت المبادرة الى تطهير الجرح وتضميده والمواظبة على ذلك يوميا حتى يشفى . ويراعى في ذلك اتباع جميع قوانين علم الجراحة في تطهير الايدي والآلات والضمادات وغيرها مما يمس الجرح . واذا تكون خراج في الجسم وجب الاسراع الى شقه وتطهير جوفه وتصريف ما يتكون فيه من المدة والصديد بأسرع ما يمكن بحيث لا يتراكم فيه شيء منها خوفا من امتصاص الميكروب أو سمه في البنية. ولعلم الجراحة في ذلك من الوسائل العلمية المعقولة ما فيه الكفاية من شر هذا الداء وقانا الله منه

السعال الديكي Whooping Cough

مرض يصيب الاطفال كثيرا بين السنة الاولى والثامنة، وحدوثه للبنات أكثر منه للذكور . وتقل اصابته لمن كان عمره فوق ذلك لان أكثر الناس يصابون به في صغرهم وهو يحميهم من الاصابة به مرة أخرى بل هو في ذلك أكثر وقاية من الحميات الاخرى ذوات الطفح . ويحدث انتشاره بشكل أوبئة لا تأثير لحرارة الجو أو غيرها فيها، وكثيرا ما تكون هذه الاوبئة عقب أوبئة الحصبة

هذا المرض ينتقل من شخص الى آخر بطريق العدوى ، فاذا كثر اختلاط الاطفال بالمصابين به انتشر المرض بينهم، وقد ينتقل بواسطة الملابس الملوثة بميكروب هذا الداء اذا أصابها شيء من بصاق المصاب

وكان القدماء يعتقدون عدوى هذا الداء نظرا لما يشاهدونه من انتشاره بين من يخالط المصاب، ولكن لم يكتشف ميكروبه الا سنة ١٩٠٦ والذي اكتشفه باحثان اسمهما [بورديه Bordet] و [جنجو Gengou]

وهذا الميكرب من الشكل الباسيلي يشبه كثيرا ميكروب النزلة الوافدة غير أنه أطول منها وأغلظ ، ولا حبيبات له ولا حركة . يشاهد كثيرا في أوائل المرض في

المخاط الثخين الخارج في آخر النوبة من الشعب الرئوية الصغيرة ، وكثيرا مايكون مختلطا بميكروب النزلة الوافدة

الاعراض : مدة التفريخ نحو عشرة أيام ويبدأ المرض باصابة بسيطة بالسعال تشبه السعال الناشئ من التعرض للبرد . وقد يكون هذا السعال مصحوبا بحمى خفيفة ويستمر إلى نحو سبعة أيام أو عشرة، ثم يسمع هذا الصياح المخصوص الذي يشبه صياح الديك، ولذلك شبه هذا المرض به، فبينما يكون الطفل المصاب في لعبه تنتابه نوبة من السعال تمتاز بحصول نحو ١٥ أو ٢٠ مرة من الشهيق المتوالي في زمن ٧ أو ١٠ ثواني ثم يعقبها زفير له هذا الصوت المخصوص ، ويتكرر ذلك مرة أو أكثر حتى يخرج من صدر المصاب قطعة صغيرة من البلغم اللزج أو يتقايأ ما في جوفه . والسبب في حصول هذا الصوت اقتراب الحبلين الصوتيين أحدهما من الآخر فيضيق ما بينهما ، أو أنهما لا يتقسمان بالسرعة المطلوبة حين حصول الزفير. وفي أثناء هذه النوبة يحتقن الوجه أو يزرق وينتفخ وتكاد تخرج العينان منه، ويتدلى اللسان وقد تجرح الثنايا قيده فيبصق المريض الدم · ويكون الطفل في أثناء ذلك غير قادر مطلقا على منع هذا السعال، وقد يصاب من شدته بنزف من الأنف (الرعاف) أو من فمه أو يحصل النزف تحت الملتحمة ؛ وفي أحوال نادرة يصاب بنزف في مخه

وهذه النوب تحصل بلا سبب معروف وإنما قد يهيجها بكاء الطفل أو إغضابه أو نزع ملابسه . ويقال إن النوب أكثر في الليل منها في النهار . وعدد مراتها في الليل يتراوح بين مرة واحدة وستين مرة. وفي أكثر الاحوال لا تزيد عن ثلاثين في كل ٢٤ ساعة. ويكون الطفل في الفترات التي بين النوب كأنه في صحة تامة ولا حمى عنده ما لم يتضاعف المرض، وقد تكون شهوة الطعام عنده جيدة . ومدة هذا الطور من الداء تمتد الى ثلاثة أسابيع أو ستة بل قد تطول الى ثلاثة أشهر أو أكثر، ثم تأخذ النوب في القلة تدريجا حتى تزول تماما أو يعقبها سعال بسيط كالسعال الاول بدون صياح ويمكث بضعة أسابيع. وهذا المرض قل أن يميت مالم يشتد تشنج المزمار أو يحصل نزف في المخ . وقد يحصل الموت بسبب مضاعفات هذا الداء

المضاعفات والعقابيل (العواقب) – من مضاعفات هذا الداء النزلة الشعبية أو

الشعبية الرئوية فترتفع الحمى ويضيق نفس المريض كثيرا، وفي كثير من الاحوال يزول حينئذ هذا الصياح المخصوص كما أنه يزول في كافة المضاعفات الحمية الاخرى. ومنها التهاب الاذن والتشنجات. ومن العقابيل استمرار النزلة الشعبية والامفيزيما[1] الرئوية (أي تمدد حويصلاتها وفقدانها مرونتها وانفتاح بعضها في البعض الآخر) والدرن الرئوي وهو قليل الحصول في هذا المرض

الانذار — هذا المرض قد يطول جدا ولكنه في الغالب يشفى منه المريض ومن النادر أن يموت به الشخص غير أن الموت قد يحصل بسبب بعض المضاعفات أو العقابيل المذكورة

المعالجة — يسكن المصاب في غرفة دافئة متجددة الهواء، ولا يجب عليه التزام الفراش مالم يتضاعف المرض. وهناك أدوية كثيرة لتقصير مدة المرض وتخفيف وطأته، ومن أحسنها [البلاّدونا [2] Belladonna] فيعطى من صبغتها نقطتين أو ثلاثا ثلاث مرات في اليوم للطفل الذي يبلغ عمره سنتين ولمن هو أكبر نقطا أكثر بحسب السن، وهناك موادتستعمل أيضا استنشاقا لتطهير الشعب ولكنها قليلة الفائدة، ومن أحسن العلاجات تغيير الهواء والسكنى بجوار البحار فان ذلك مما يقصر مدة المرض

الالتهاب الرئوي Pneumonia

هذا المرض نوعان : (١) نوع يصيب حويصلات الرئة ويسمى الالتهاب النصيصي (٢) ونوع يصيب جزءا عظيما منها ويسمى الالتهاب الفصي، ويختلف النوعان اختلافا كبيرا من الوجهة الميكروبية والمجهرية والعرضية

أما النوع الاول فقد يكون ابتدائيا أو تابعا لمرض آخر، وهو كثير الاصابة للاطفال والشيوخ، وليس له ميكروب مخصوص بل يوجد فيه أنواع عديدة منها

---

(١) لفظ يوناني معناه ادخال الهواء أو النفخ لانتفاخ الرئة في هذا المرض

(٢) كلمة ايطالية معناها حرفيا «السيدة الحسناء» تطلق على نبات شهير عند الاطباء كان نساء ايطالية يستعملنه لتجميل وجوههن، ومن أصوله الفعالة مادة سامة جدا تمدد الحدقة فتجعل العين نجلاء .

ميكروبات الصديد المعتادة أو ميكروبات المرض الذي سبب هذا الالتهاب الرئوي كالدفتيريا أو الحمى التيفودية أو الانفليونزا أو الطاعون

وأما النوع الثاني وهو كثير الحصول للشبان، وقد يصيب أيًّا كان غيرهم، وهذا المرض يشبه كثيرا الحميات الاخرى العفنة كالحمى التيفوسية وينتهي مثلها بالبحران. وينشأ غالبا من ميكروب من النوع البزري المزدوج اكتشف في معمل باستور في ديسمبر سنة ١٨٨٠ وهذا المرض هو المقصود بالكلام هنا ، ومنه نوع خطر ينشأ من باسيل اكتشفه [فردلندر Friedlander]سنة ١٨٨٠ ولكنه قليل الحصول فان ٩٥٪ من الاصابات بهذا الداء تنشأ من الميكروب الاول البزري

الاسباب يحدث هذا المرض للذكور أكثر من الاناث بنحو الضعف ، ويصيب الناس في جميع الاعمار من سن الطفولية الى سن الشيخوخة ، ولكنه أكثر حصولا للشبان الى أن يصلوا الى متوسط العمر (من ٣٥ - ٥٠) ينتشر هذا المرض في فصلي الشتاء والربيع حينما يكثر تغير درجة حرارة الجو فجأة، وحينما يكون الهواء مشبعا بالرطوبة أو البرد

ومما يساعد على حصوله كثرة التعرض لتيار الهواء وضعف البنية واجهاد العقل وقلة التغذية ، والانهماك في السكر أو الجماع

وهذه الاشياء تجعل المصاب به ضعيف المقاومة جدا بحيث يكون شفاؤه متعسرا ، والوفاة به كثيرة الحصول . والاصابة به لاتحمي من معاودته ، فقد شوهد أن بعض الاشخاص أصيب به نحو ١٥ أو ٢٠ مرة، ولكن في الغالب أن لايصاب به الشخص سوى مرتين

يوجد ميكروب هذا الداء حتى في لعاب السليم وفي حفر أنفه ، فاذا ضعفت البنية بمثل الاسباب المذكورة هاجمها الميكروب وأحدث بها المرض ، وقد يتصل بالانسان أيضاً من شخص آخر مصاب بالالتهاب الرئوي ويكون حينئذ أقوى وأضر. وهذا الميكروب يحدث التهابات في أعضاء الانسان الاخرى مثل البلبورا والشغاف والمفاصل والسحايا ، وقد يحدث أخرجة بالاحشاء وتحت الجلد

ولم يجزم العلماء الى الآن ان كان وصول هذا الميكروب الى الرئة من طريق

الشعب أو من طريق الدم ، فقد شوهد وجوده في نفس الدم فاذا ضعف عضو بسبب ما رسب الميكروب من الدم فيه . وهو يصيب عدة حيوانات كالفيران والارانب والكلاب . أما الحمام والدجاج فلا يصيبها بشيء ، وطوله يتراوح بين ٥و٠ من الميكرون و٧٥ و٠ منه . ويظهر تحت المجهر كانه محاط بغلاف أو هالة صافية اللون يكون فيها عادة بزرتان أو أربع

الاعراض — يبتدئ المرض فجأة برعدة شديدة، وترتفع الحمى بسرعة زائدة الى٣٩° أو ٤٠° مع كافة أعراضها الاخرى المعروفة وأحيانا (تشاهد النملة على الشفتين) ثم يشعر المريض بضيق في نفسه ، وآلام في الجنب المصاب ، ثم يكثر السعال ، ويكون بصاقه صديئا — كأن به صدأ من الحديد لاحمرار لونه — ويكون شفافا خاليا من فقاقيع الهواء لزجا بحيث يشتد التصاقه بالاواني ويشاهد في هذا البصاق الميكروب

وللاطباء علامات خاصة لتشخيص هذا الداء تدرك بالقرع والسمع وغيرهما من طرق البحث الشهيرة

وتستمر الحرارة عالية مدة المرض كلها ، ويكون خد المريض وجبهته محتقنة يعلوها قليل من الصفرة أحيانا ، ويكون تنفسه سريعا جدا حتى قد تصل مراته الى ٨٠ في الدقيقة ، ويسرع نبضه ويقل بوله ، وقل أن يعتريه الهذيان بخلاف الحميات الاخرى، الا في بعض الحالات الشديدة فقد يهذي ليلا ، وبعد اليوم السادس أو الثامن تنخفض الحرارة فجأة في مدة ١٢ أو ١٨ ساعة ، بحيث تصير طبيعية ، ويبتل اللسان بعد الجفاف ويحس المريض بالتحسن العام ، ولكن هذا البحران قد يصحبه اسهال أو عرق غزير وفي أكثر من نصف الاصابات تنخفض الحرارة بالتدريج ، فتصير طبيعية بعد ٤ أيام أو ٥ ، وفي كلتا الحالتين يتحسن النبض والتنفس حين انخفاض الحرارة ، وتزول العلامات الطبيعية التي يعرف بها المرض من الصدر ، ويزول لون البصاق الاحمر فيصير مصفرا أو مخضرا ، ويكون به صديد وتقل لزوجته ، ثم يصير بالتدريج طبيعيا

والموت يحصل غالبا من وقوف القلب ، أو من اصابة الرئة الاخرى السليمة

فيسرع التنفس والنبض ، ويزرق الوجه، ويكثر الهذيان ويعقبه الغيوبة فالموت ، ويكون الموت عادة بين اليوم الخامس والعاشر ، ومن المرضى من يموت في اليوم الثاني أو الثالث

والالتهاب الرئوي يصيب قاعدة الرئة أكثر من قمتها ، والجهة اليمنى أكثر من الجهة اليسرى، وقد يصيب الرئتين معا ، ولكنه يعجل باحداهما قليلا عن الاخرى

واذا أصاب الرئة احتقنت بالدم ، وثقل وزنها ، واحمر لونها ، وصار قوامها هشا بعد الوفاة ، وامتلأت حويصلاتها بكريات الدم الحمراء والبيضاء وغير ذلك من مواد الدم بحيث تكون خالية من الهواء ، ثم تمتص الكريات الحمراء ، وتزدحم الحويصلات بالبيضاء ، فيتغير لون الرئة من الحمرة الى اللون السنجابي ، وفي كلتا الحالتين يكون قوام الرئة كمنسوج الكبد حتى سماه الاطباء (بالتكبد)

المضاعفات — جميع المضاعفات تنشأ على الاكثر من انتشار ميكروب الالتهاب الرئوي في الاعضاء الاخرى فقد تلتهب البلورا وقد ينسكب في تجويفها مصل أو صديد . ومن المضاعفات أيضا التهاب الشغاف أو الاعصاب أو الكليتين أو البريتون أو السحايا أو المفاصل وغير ذلك

الانذار — عدد الوفيات في هذا المرض نحو ١٧ ٪ من الاصابات . والمرض خطر جدا لغير المعتدلين ولضعفاء البنية . ومما ينذر بسوء العاقبة الهذيان الشديد أو الذي يحصل في أوائل المرض ، وضعف النبض والزرقة والتهاب الرئة كلها أو امتداده الى الرئة الاخرى

المعالجة — يجب على المريض أن يلتزم الفراش في الحال . وفي وقت شدة المرض يبقى معتمدا بظهره على شيء بحيث يكون رأسه مرتفعا على الفراش قليلا

ويجب أن تكون الغرفة متجددة الهواء نقية ، والغذاء من السوائل السهلة الهضم المغذية كاللبن والمرق ونحوهما ، تعطى بمقادير صغيرة متكررة. وينبغي أن تطلق الامعاء بالمسهلات، وتعطى للمريض المواد المعرقة مع قليل من المسكنات لتخفيف ألم الجنب والسعال . ومما يخففه أيضا اللبخ الساخنة على الجنب الملتهب أو ورق الخردل الصناعي ومن الناس من يضع على الرئة الملتهبة أكياسا فيها ثلج لتخفيف الالم وخفض الحرارة

وهذا العلاج المذكور كاف في الحالات البسيطة فاذا اشتدت وطئة المرض وضعف القلب وكثر الهذيان وجب اعطاء المريض المنعشات كالاستركنين والديجيتالا والنوشادر أو قليلا من الخمر (مثل ٣ أو ٤ أواق في اليوم) . وكلور يد الكالسيوم (١٠ قمحات كل ٤ ساعات) يقال عنه أنه مقو للقلب فان أكثر الخوف هو من وقوفه

فاذا ازرق المريض وضاق نفسه وخيف عليه من الاختناق أو من وقوف القلب وجبت المبادرة الى فصده أو على الاقل تركيب العلق على الصدر لسحب جزء من الدم . ولا خوف من سحب ١٠ أو ١٢ أوقية من الدم اذا كان الشخص قوي البنية ممتلئا به . واستنشاق الاكسجين نافع جدا في هذا المرض ، وكذلك كربونات النوشادر (٥ الى ٧ قمحات كل ٣ أو ٤ ساعات) لاخراج المواد المتراكمة في الشعب

أما استعمال المصل أو اللقاح فلم تظهر له فائدة كبيرة

فاذا جاز المريض طور البحران وجبت مساعدته بالادوية المقوية والاغذية الجيدة

بلاد العرب واحوالها

منذ الاعصر الخالية

نشرت مجلة الشرق والغرب التي أنشأها دعاة النصرانية (المبشرون) لبث دعوتهم بمصر مقالة تحت هذا العنوان قالت ان ما أوردته فيها هو نتيجة ما وصلت اليه مباحث العلماء الذين بنوا أقوالهم على ما اتصل بهم من اشتات الروايات ذات الطرق العديدة القديمة « فأخذوها وطبقوها على اعتبارات جغرافية وجولوجية - قالت - ولعل أشهر علماء الافرنج الذين عالجوا هذا الموضوع البحاثة « قيطاني » - أوكاتياني كما يعبر به آخرون - الايطالي الذي اشتهر بتصنيفاته العديدة عن العرب

والاسلام من وجهة تاريخية اقتصادية وقد بنينا هذه العجالة على ماجاء في مؤلف من أحدث مؤلفاته »

ونقول نحن ان هذا المؤرخ الايطالي قد اشتهر عند الترك وبعض العرب بتشويهه لسيرة النبي (ص) وهي أشرف سير البشر -- لان الاتحاديين ترجموا ما كتبه فيها بالتركية كما بينا ذلك في منار هذه السنة (ص ١٦٢ ج ٣) ولكن مباحث هذا المؤرخ المدقق في تاريخنا مما لا نستغني عنه ونود لو تترجم كلها . ونحن ننقل عن هذه المجلة ما اقتبسته عنه من المباحث المتعلقة بحالة جزيرة العرب الجولوجية وطبيعتها الجغرافية ، ومهاجرة أهلها منها الى حيث أقاموا بناء الحضارة القديمة. وهذه عبارة المجلة بنصها لم نصحح منها الا عبارات قليلة : --

لقد أثبتت المباحث الحديثة أن الانسان وجد على الارض قبل المسيح بألوف من السنين وان بلاد العرب كانت مأهولة كأقدم بلاد العالم . فكيف كانت حالة العرب في ذلك العهد الخالي ياترى ؟ لاريب في انها كانت تختلف كل الاختلاف عما هي عليه الآن . والمعروف عنها الآن -- ومنذ عدة مئات من السنين أيضا -- انها برية قاحلة ذات أراض جرداء خالية من الماء[1] . على انها في الاعصر الجيولوجية كانت على خلاف ذلك . فقد مر على قارتي آسيا وأوربا زمن كان فيه قسماهما الشماليان أشد برداً مما هما عليه الآن . وكان الفرق بين الصيف والشتاء أشد وضوحاً مما هو الآن . فكان الهواء في الصيف أكثر امتصاصا للرطوبة فيزداد به هطل الثلوج في الشمال وهطل الامطار فى الجنوب . وبناء عليه كانت أجزاء عديدة من آسيا وأفريقيا بقاعاً مخصبة جداً وهي الآن قفار جرداء. وما الاودية الناشفة سوى مجار كانت تتدفق فيها الانهار

ومن تلك البلاد بلاد العرب . فقد كانت سلسلة الجبال التي في غربها تتقي رياح السموم وتجري منها أنهر على هضاب أواسط بلاد العرب وتصب في خليج العجم . ومن تلك الانهر نهر الدواسير الذي كان يجري في وادي الدواسير وكان

---

(١) المنار : كان الصواب أن يقال قليلة المياه

منبعه في الهضاب المدنية . وكذلك نهر الرماح الذي كان يصب مع نهر الدواسير في خليج العجم

ولا يخفى ان للحالة الجوية تأثيراً عظيما في السكنى ، وهذا يبين لك لماذا كانت بلاد العرب مهد الشعوب السامية . وخلاصة ذلك انه في تلك الازمنة الطيبة كانت البلاد غاصة بالسكان بخلاف حالتها الآن

ثم بدأت الاحوال الجوية في نصف الكرة الارضية الشمالية تتغير بالتدريج فقل امتصاص الهواء للرطوبة وقل هطل الامطار . وأصبحت البلاد التي بين أوربا والمنطقة الحارة تشعر بذلك التغيير العظيم . وبتمادي الزمن بدأ شمالي افريقيا وبلاد العرب يجف ، فصارت الملايين التي تسكن بلاد العرب تشعر بعدم ملاءمة البلاد لسكناها

ولا حاجة الى القول بأن الرحيل عن بلاد العرب استغرق ألوفا من السنين وكان تدريجا، وبهذه الطريقة يمكن تعليل توالي هجرة الشعوب السامية. ولم تكن كلها غزوات أي هجرات ناشئة عن اعتبارات حربية بل كان معظمها ناشئا عن اعتبارات سلمية بحتة كهجرة الارلنديين اليوم الى أمريكا . وكانت آخر تلك الهجرات أعظمها شأنا وقد حدثت عند ظهور الاسلام يوم فتحت أبواب بلاد العرب وأخذ سيل المهاجرة يتدفق منها شرقا وشمالا وغربا

وكان لتلك الحركة غايتان تتفقان مع طبيعة البلاد الجغرافية، اذ لا يخفى أن شبه جزيرة العرب مقسومة الى قسمين (١) البلاد العربية الغربية (وهي اليمن والحجاز) ومنفذها سورية الى الشمال الغربي ومصر والحبشة على سواحل البحر (٢) الوسط الشرقي ومنفذه الطبيعي العراق وما بين النهرين . أما القسم الجنوبي من بلاد العرب (أي حضرموت) فقائم بنفسه

فسبيل المهاجرة من بلاد العرب كان يتدفق اذاً شمالا الى فلسطين وسوريا أو غربا الى مصر والحبشة. أو شمالا شرقيا الى العراق ووادي دجلة والفرات

وقد وقعت أول هذه المهاجرات عند أول فجر التاريخ . ثم تبعتها المهاجرات

الاخرى في الازمنة التاريخية المعروفة .

(١) المهاجرة الاولى — قبيل فجر هذا التاريخ قام بهذه المهاجرة شعوب سامية نزحوا الى العراق ومعهم شعوب سومريون فتألفت منهم الامة البابلية، و يعتقد العلامة (قيطاني — أو — كاتياني) أن المصريين القدماء الذين دخلوا وادي النيل عن طريق البحر الاحمر واستعمروا أولا مصر العليا كانو ساميين وقد هاجروا في نفس الزمن الذي هاجر فيه مواطنوهم الى العراق . ومما يؤيد هذا الرأي أن في اللغة المصرية القديمة آثارا سامية عديدة منها الكاف ضمير المخاطب المفرد المضاف اليه(١)

(٢) أما المهاجرة الثانية فقد وقعت في أول عهد التاريخ المعروف أي بين ستة آلاف و ٢٥٠٠ قبل المسيح وكان اتجاه سيل هذه المهاجرة أيضا الى شمال العراق وجنوبه و يتضمن حروب سرجون الملك السامي الشهير

(٣) واما المهاجرة الثالثة فقد وقعت من سنة ٢٥٠٠ الى سنة ١٥٠٠ قبل المسيح وفي أثنائها نزح الاشوريون الساميون من بلاد العرب وأسسوا مملكة أشور وعاصمتها نينوى على أعالي دجلة وفي ذلك الزمن عينه نزح الرعاة (الهيكسوس) من غربي البلاد العربية الى مصر وغزا الفينيقيون غربي سوريا واجتاح الكنعانيون فلسطين

(٤) هجرة الاراميين بعد سنة ١٥٠٠ قبل المسيح وانتشر الاراميون في وادي الفرات وسوريا فأصبحت لغتهم لغة التجارة اذ كان بيدهم طريق التجارة المار بحلب

ومن الشعوب السامية التي لم تنزح من بلاد العرب القبائل الصائبية والحميرية والعرب الذين كانوا يتكلمون العربية الحديثة . وكانت هذه اللغة قد نشأت بتمادي الزمن نشوءا بطيئا جدا . أما سبب عدم هجرة هذه الشعوب فهو لأن غربي بلاد العرب كان أكثر خصبا من شرقيها وقد كان طريقا للتجارة بين الهند والبحر المتوسط يمر باليمن والحجاز وينتهي الى غزة وهذا يأتي بنا الى :

(٥) ظهور الاسلام . وليس هذا أول مرة ظهرت فيها القبائل المتكلمة باللغة

---

(١) المنار الامر أعظم من ذلك فلعل النصف أو أكثر من النصف من هذه اللغة عربي ولكن الكثير منه محرف كما علم بالتفصيل مما نشرناه في مجلد المنار الثامن عشر عن علامة هذه اللغة أحمد كمال بك

العربية لتستوطن البلاد المجاورة فان بعضها سبق فاستوطن غسان والحيرة والعراق ومهد الطريق للعرب الذين كانوا في أيام محمد (صلى الله عليه وسلم) فعودوهم المهاجرة والاستيطان، وكانت بلاد العرب قد ضاقت مرة اخرى بأهلها الساميين الذين اشتهروا بالقوة والبأس والذكاء وكثرة النمو. ومما يدل على ضيق الوسائل الاقتصادية في تلك البلاد بأهلها فقرهم المدقع وعوزهم وعادة وأد البنات عندهم. أما قواهم المتزايدة فكانوا ينفقونها في محاربة بعضهم بعضا وفي شن الغارات والغزوات الى أن بدت طلائع تلك النهضة الدينيـة فجمعت بين القبـائل المتخاصمة وجعلتهم يوحدون قواهم و يوجهونها الى الخارج . وهكذا فتحت ابواب العربية وخرج العرب ليغزوا البلدان في سبيل الله وسبيل الجامعة العربية

وقد كان بين أولئـك العرب رجال ذوو صفات ومآرب مختلفة فمنهم الشديد القوي كعمر، والقائد المحنك كخالد، ومنهم المجازف، ومنهم المسوق الى الحرب بطمع الاسلاب [1] .على أن عامل الدين هو الذي فتح لهم السبيل ومهده ومنحهم قوة. ولكن كان للعوامل الاقتصـادية التي أشرنا اليها والتي كانت تؤثر في بلاد العرب منذ أقدم الازمنة شأن يذكر وكان الجانب الاكبر من جيش محمد (ص) رجالا قد دانوا حديثا بالاسلام فكانوا يقبـلون عليه أو يرتدون عنه بسرعة عظيمـة لان معرفتهم كانت ناقصة، ولا شك أن أمثـال أولئك ما كانوا ليتمسكوا بعروة الاسلام لولا ما رأوه من الانتصارات التي يؤتاها جيش المسلمين ولولا انقلابهم من ضيق العيش الى سعته [2] . وكان في جيش الميدان الغربي مئات من المكيين الذين أيدوا الامويين فيما بعد ولا يزال المسلمون يقولون حتى اليوم إنهم لم يكونوا على شيء من الاسلام

(١) المنار : يعني أن الجمهور الاعظم من العرب كانوا يقاتلون في سبيل الله وسبيل الجامعة العربية التي يقوم بها دينه وكتابه ، وادناهم منزلة أفراد يطمعون في الغنائم والاسلاب كما هو شان أرقى الامم الآن في حروبها

(٢) هذه دعوى باطلة وتعليلها الذي عللها به باطل فان المسلمين ما انقلبوا الى سعة العيش التي يعنيها في عهد النبي (ص) بل بعده اذ فتحوا الشام ومصر وفارس . واين السعة في جزيرة العرب واين ما وصفها به آنفا من الضيق ؟

وأمثال أولئك كانوا يعتبرون أنفسهم في بيئة هي عربية أكثر منها اسلامية .

أما حروب الاسلام التي أفضت الى مزج العرب بأهلي البلاد التي افتتحوها من بخارى شرقا الى أسبانيا غربا فقد كانت عبارة عن مهاجرة هي آخر المهاجرات السامية من شبه جزيرة بلاد العرب ولم تحدث مهاجرة بعد ذلك أو بمقدار صغير جداً لا نزال نشاهد آثاره حتى اليوم وهو نتج عن نفس الاسباب التي أفضت الى المهاجرات السابقة أي امحال بلاد العرب .

أما النتيجة فهي ظهور القوة الكامنة في الامة العربية ظهورا بينا واتخاذها مجرى جديدا وبيئة مثمرة .

وقد ذكر الاستاذ هركرونجه أن عرب حضرموت الذين هم أفقر سكان تلك البلاد فكوا القيود التي كانت تربطهم ببلادهم وهاجروا الى الهند وجزائر الهند الشرقية حيث أظهروا همة عالية ونشاطا غريبا. فقد أصبحوا خبيرين بأمور التجارة مع أنهم كانوا يجهلونها في موطنهم الاصلي ، ولا تزال الاعمال والاشغال تنتقل الى قبضة يدهم حتى لقد أصبح بعضهم من كبار الاغنياء. ولا ينحصر تفوقهم في الاعمال والمتاجر فقط بل في الامور العقلية أيضا

وهذه صورة مصغرة للعرب الذين نزلوا بسوريا و بلاد فارس في المئة الاولى للهجرة . وهي تنطبق على حالة العرب عموما منذ ألوف من السنين حتى اليوم

وقد أظهر دولة شريف مكة بنهضته الاخيرة أن العرب لا يزالون يأبون الضيم ويعشقون الحرية والاستقلال، وهم يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل الدفاع عن كيانهم . ترى هل نحن على وشك أن نرى من جانب بلاد العرب مباغتات جديدة مدهشة كما رأى العالم منذ مئات من السنين؟

المنشور الهاشمي الشريف الثاني

ذكرنا في الجزء الرابع من منار هذه السنة ملخص المنشور الاول الذي خاطب به الشريف الاكبر صاحب مكة المكرمة مسلمي الارض مبينا لهم سبب نهضة الحجازيين باستقلال العرب دون متغلبة الاتحاديين . واليوم ننقل لهم نص منشور آخر نشر في العدد الحادي عشر من جريدة القبلة الصادر في ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٣٤ لتعميم فائدته والعناية بحفظه ، لان أمثال هذه المنشورات من أهم مواد تاريخنا في هذا العصر، وقد ضاق عنه الجزء الخامس الذي طبع الكثير منه قبل عودتنا من الحجاز ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

لقد رأينا دفعا للالتباس ومنعا لما عسى أن يحدث من التردد في حقيقة قيامنا ونهضتنا معاشر الحجازيين الموضحة أسبابها في منشورنا الاول أن نردفه بهذه الاسطر ليكون منها لأفاضل العالم عموما والمسلمين خصوصا زيادة الاطلاع على نياتنا ومقاصدنا المتعلقة بكياننا من حيث هو، ملتزمين فيها أقرب المواد عهداً وأبسطها دلالة

من المعلوم ان عقلاء المسلمين وذوي البصيرة من ساكني الممالك العثمانية وسائر أقطار الدنيا غير راضين عن دخول الدولة العثمانيـة في الحرب الحاضرة لاسباب جوهرية أجمعوا عليها، منها ان الدولة العثمانية قريبة عهد الخروج من الحرب الابطالية أولا والحرب البلقانية ثانيا وقد أصاب جيوشها وخزائنها وكل مرافقها وعامة تشكلاتها من الضعف والضياع والفناء ما لا يخفى تأثيره على ثروة الدولة خاصة وثروة المملكة وأهلها عامة، حتى كان الجندي لا يكاد يصل الى قريته أو الى مكان عمله ليتحصل على ما يسد به رمقه ورمق أولاده وسائر أهل بيته الا ويكون قد دعي الى التجنيد مرة ثانية . وهكذا شأن الصانع والحمال والمحتطب . فالامة التي أصيب أفرادها بمثل

هذه الكوارث لا نرى حاجة الى بيان مصيرها ومصير دولتها اذا دفعت بنفسها في هوة حرب جديدة لا تشبه غيرها من الحروب . لا سيما وان واردات الدولة من الضرائب (*) المفروضة على مساعي الافراد المنكودي الحظ بين تجارية وصناعية وزراعية

هذا أحد الاسباب التي حملت عقلاء المسلمين على استنكار دخول الدولة في الحرب الحاضرة وهو سبب مبني على حقيقة الحالة الداخلية في كل بلاد السلطنة. وهنالك اسباب خارجية تتعلق بالجهة التي انحازت الحكومة الاتحادية الى الحرب معها ضد الفريق الآخر من الدول المشتبكة في الحرب . فان الدولة العثمانية دولة اسلامية وبلادها مترامية الاطراف كثيرة السواحل فكانت السياسة التي سار عليها سلاطين آل عثمان العظام من قديم الزمان تحسين الصلات والعلاقات مع الدول التي يسكن ممالكها القسم الاعظم من المسلمين والتي لا تزال صاحبة الارجحية في في البحار، فلما دخلت الحكومة الاتحادية في الحرب ضد هذه الدول منحازة الى فريق آخر كثير الطمع واسع الجشع اضيق بلاده عن ساكنيها تشاءم من ذلك أهل النظر والروية من المسلمين لعلمهم بما يكون من نتائجه السيئة قبل حدوثها

ولقد كنت من جملة هؤلاء عند ما سئلت تلغرافياً عن رأيي في هذه الحرب، فأجبت بما اقتضاه واجب النصح، وهذا مما أتخذه دليلا على اخلاصي لهذه الدولة وحرصي على سلامتها وصيانة بيضة الاسلام

وها قد حصل ما كنا نخشاه، وانتهت الدولة الى ما تخوفناه، وأصبحت حدود المملكة العثمانية اليوم في أوربا أسوار الآستانة تقريبا . وان طلائع جيوش الروس تتخطف الاهالي العثمانيين في ضواحي ولايتي سيواس والموصل، وطلائع الانكليز تسوق ألوف الاسرى من أبناء هذه المملكة في بادية العريش بعد ان استولت على ولاية البصرة وشطر من ولاية بغداد، ولا شك في أن من تأمل هذه الحالة ورأى ان الحرب لا تزال قائمة على ساق وقدم لا يحتاج الى كبير عناء في استجلاء النتيجة التي لا تخرج عن أحد أمرين فاما ان نستسلم الى هذا الخطر الداهم حتى نزول من خريطة العالم أو ان نسعى الى الخلاص منه

(*) المنار : قوله: من الضرائب — خبر إن لا بيان للواردات كما يتوهم بادئ بدء

إننا نترك للعالم بأسره التأمل في هذا والجواب عليه وليس عندنا أقل ريبة في أنهم يعذروننا في نهوضنا الذي جاء في وقته قبل أن تحيط المهالك بالبقية الباقية من هذا الملك فتأخذنا على غرة . بل اننا لا نتردد في مشروعية نهوضنا ووجوبه علينا. ولو كنا نعلم بأن بقاءنا مرتبطين بهذه الدولة التي أصبحت ألعوبة في أيدي المتغلبين مما ينفعها ويحفظ لها أملاكها لما تحركنا بشيء مما قمنا به، ولصبرنا وتحملنا كل مايحملوننا إياه. ولكن أنّى لنا ذلك وقد صار من المقطوع به اننا لو استسلمنا لما هم سائرون بنا اليه لأدى ذلك بنا وبهم الى هوة الاضمحلال التي تسقط فيها الولايات الاخرى على مرأى منا ومسمع

نعم اننا نقول هذا ونترك الحكم فيه الى إنصاف العالم أجمع، ولكننا لانستطيع السكوت عن المجاهرة بأن السبب الوحيد لمحو هذه الدولة وابادة من بقي لها من الرعية وهم سكان الانضول وغيرهم انما هو استرسال المتغلبة من زعماء الاتحاديين وهم أنور وجمال وطلعت وأشياعهم، وخروج الدولة عن خطتها السياسية الاساسية التي وضعها عظماء سواس العثمانيين وهي خطة موالاة الدولتين المعظمتين بريطانيا وفرنسا التي لا ينكر فوائدها الا من ينكر التاريخ ، ويكفي لمعرفة أخلاق زعماء الاتحاديين ومقدار صدقهم ووفائهم انه لم يمض غير زمن يسير على عقد القرض الذي ساعدتهم به فرنسا وهم في أشد الحاجة اليه حتى انضموا الى أعدائها وأعلنوا الحرب عليها، واننا لا نستدل على ما ذكرناه من أخلاقهم بهذا العمل دون سواه الا لشهرته المستفيضة بين عموم الناس وقرب عهدنا به، أضف الى ذلك ما يلقاه الاهالي العثمانيون لافرق بين مسلمهم وذميهم من ضروب العسف والجور اللذين يحجب ركامهما ضياء الشمس، لا سيما ما ارتكبه القابضون على ازمة الحكومة من هؤلاء المتغلبة وأشياعهم أثناء هذه الحرب من ظلم أهل ذمتنا من الروم والارمن خلافا لماجاءت به شريعتنا المطهرة، ثم نهجوا هذا المنهج في أبناء العرب بالشام والعراق وغيرهم مما هو معلوم الى يومنا هذا كإيقاعهم بأهالي العوالي التي هي احدى ضواحي المدينة المنورة من سبي مخدرات العرب وسوقهن الى الثكنات العسكرية بما تأباه الشريعة الاسلامية والشهامة العربية

نعم اننا قمنا ولا يزال قيامنا ومجاهرتنا بالعداوة والبغضاء مقصودا بهما أنور وجمال

وطلعت وشيعتهم . وانه ليشاركنا في ذلك كل مسلم عاقل حتى أفراد البيت العثماني، ودليلنا مع مشاركة هذا البيت الجليل اغتيال المتغلبة لعميده الشهيد السعيد ولي عهد السلطنة المغفور له المرحوم يوسف عز الدين . واننا نتبرأ منهم ونظهر لهم العداوة والبغضاء، ويشترك معنا فيها كل بر وتقي من مسلمي البلاد العثمانية وسائر البلاد الاسلامية، بسبب ما أتوه من الوبال، وماجروه على دولة الاسلام من الاضمحلال، حتى جعلوها ضحية لاغراضهم وغاياتهم النفسية . نبرأ الى الله منهم ونعلم انها كلمة حق عليها نحيا وعليها نموت . وكيف لا نقول هذا وامامنا من عبر الدهر ما نسرده على اخواننا المسلمين ليعلموه ويعوه

فان جمال باشا المتحكم في الشام واهلها قد أمر سكان ذلك القطر الاسلامي بأن يؤلفوا من مخدرات نسائهم جمعية نسائية، ثم أوعز الى هذه الجمعية أن تأدب له مأدبه في ناديها ، وقد تم ذلك بالفعل وحضرها هو ورجال العسكرية والملكية ومن دعاهم من سائر رجاله واعوانه ، وكان النسوة المسلمات أعضاء هذه الجمعية يباشرن اكرام ضيوفهن. وعندختام الحفلة شرعن في القاء الخطب والاناشيد بين تلك الجماهير من الرجال كما نشرت ذلك صحف سوريا على اختلاف مشاربها مظهرة الاعجاب والفخر ارضاء لجمال باشا . فسبحان الله تعالى الذي يقول في محكم كتابه الكريم (يا أيها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) [1] وقوله تعالى [2] (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن

---

(١) وقع في جريدة القبلة غلط في هذه الآية نصه : أي لا يعرفن فيؤذين. وهو غلط مطبعي يوهم غير العارف ان معناه صحيح وما هو الا ضد المعنى الصحيح . فالمراد من الآية ان إدناء الجلابيب والمبالغة في الستر أقرب الى ان يعرفن أنهن حرائر لا إماء فلا يؤذيهن أهل الريبة . وسبب ذلك أن البغاء في بلاد العرب كان محصوراً في الاماء من عهد الجاهلية ولذلك قالت هند للنبي (ص) عند مبايعة النساء على ترك الشرك والسرقة والزنا : أو تزني الحرة ؟ فكان الفساق من المنافقين والمشركين يعرفون الاماء بتهتكهن فيتعرضون لهن فأمر الله تعالى المؤمنات بالستر ليتميزن به فلا يتعرض لهن الفساق ، ثم بطل البغاء برسوخ الاسلام حتى تركه الاماء أيضا (٢) لعل الاصل وقال تعالى أو :و يقول تعالى .

ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن الا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ...) الخ (*)

من هذا يعلم صراحة مراد هؤلاء المتغلبين ومقاصدهم بالشريعة الاسلامية والعادات العربية، وفيه عبرة وذكرى لاخواننا مسلمي البلاد العثمانية وسائر اخواننا في اقطار الدنيا ليتعظوا بذلك ولا يكون سبباً لاسترسال هؤلاء الطغاة في انتهاك حرمات الله والجرأة على مخالفة أوامره لجاه يستفيدونه، أورانب يستزيدونه، فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومن كان قد وهبه الله تعالى قوة على تغيير المنكر بيده أو لسانه أوقلبه فليفعل، ومن كان لديه مايدافع به عن جرأة هؤلاء القوم المتغلبين فليأتنا به فانا ان شاء الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)[1]　　　شريف مكة وأميرها

تحريراً في ١١ ذي القعدة الحرام ١٣٣٤

[المنار] ملخص هذا المنشور ان زعماء الاتحاديين عرضوا الدولة للهلاك بالحرب والظلم والبغي والعدوان، وعبثوا بدين الاسلام، وظلموا المسلمين والذميين، وان مسلمي الترك وفي مقدمتهم بيت السلطنة يعلمون ذلك كالعرب ولكنهم غلبوا على أمرهم، وان بقاء البلاد الحجازية خاضعة لهم يضرها و يضر أهلها و يوقعهم في الخطر من حيث لا ينفع الدولة ولا يغني عنها شيئاً، وان الواجب في هذا المقام العمل بما أمر به الرسول (ص) في قوله المروي في مسند احمد وصحيح مسلم والسنن الاربع «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه» الخ و بذلك عمل صاحب المنشور هو ومن معه من أهل الحجاز فهم في مقدمة أهل الحل والعقد في الامة ولو لم يكن معه غير اسرته الهاشمية وعصبتهم واتباعهم من العرب لكفى بهم أهل حل وعقد في مهد الاسلام وأفضل بلاد الارض، و يليهم في هذه الصفة سائر الامراء والزعماء في جزيرة العرب، ولم يبق في ديار الاسلام زعماء أحرار غيرهم لان سائر علماء المسلمين وكبراءهم في الاستانة وغيرها تحت قهر سلطة عسكرية زمامها بأيدي ملاحدة الاتحاديين ونصارى الألمان. ولما كان شريف مكة

(*) سقط من جريدة القبلة ما بعد كلمة (إلا) الأولى الى (إلا) الثانية

(١) في جريدة القبلة «وإنا و إياكم» وهو غلط مطبعي ظبعاً

ومن شايعه من العرب قادرين على النهوض لمقاومة منكرات الاتحاديين قاموا بالواجب الايماني عليهم . وقد صرح في هذا المنشور بأنه اذا ظهر له خطأه في اجتهاده هذا يرجع عنه . وكفى بذلك حجة على جميع المسلمين

تقريظ المطبوعات الجديدة

أهدي الينا في العام الماضي عدة مطبوعات جديدة من الكتب والصحف لم نجد فراغا من الوقت لنظر فيها نظرا يمكننا من إبداء الرأي فيها، وان منها ما يبخس حقه اذا كتب عنه في المجلات العلمية ، ما هو بمعنى الاعلان الذي ينشر في الجرائد السياسية، وقد يمد طول الزمان على السكوت عنها، أشد هضما لها وبخسا لحقها، فلهذا رأينا أن التنويه بها ، بما تمليه النظرة العجلى فيها، ربما كان كالثمد يفضل ناجزه المستمدُ الصديان، على الغمر النسيء يخاف عليه الفسيان ، وهو لا يمنع من إعادة النظر فيها اذا سمح الزمان ، وهذا ما جاد به الزمن الضنين الآن :

﴿ كتاب شرح البيع ﴾

(في القوانين المصرية والفرنسية . وفي الشريعة الاسلامية)

« تأليف محمد حلمي عيسى بك وكيل الادارة القضائية للمحاكم الاهلية بوزارة الحقانية » شرح فيه أحكام عقد البيع في قانوني المحاكم الاهلية والمختلطة المصرية مستمدا من مصادرهما — الشريعة الاسلامية والقانون الفرنسي — سالكا في شرحه مسلك المدقق المستقل بالفهم والرأي . فجاء سفرا كبيرا بلغت صفحاته بضع مئات. وطبعه في العام الماضي (١٣٣٤) في مطبعة المعارف طبعا جيدا على ورق جيد يليق به ، وقد أقبل عليه علماء القانون أي إقبال ، وأحسنت تقريظه الصحف أي إحسان.

ان هذا المصنَّف من الكتب التي يرجع الى مثلها الباحثون في فلسفة الشرائع والقوانين، ويعتمدون على نقوله ومباحثه في المقابلة والتنظير بينها وتفضيل بعضها على بعض. فلو أتيح لي ان أوفيه حقه من التقريظ والنقد فيما يعنيني من مباحثه الدقيقة — وهو المقابلة بين الشريعة والقوانين — لكنت قرأت ما أورده من ذلك كله أو الكثير منه، وبينت ما يريني الله من الحق فيما أورده من الاحكام الشرعية، التي اعتمد في أكثرها

على بعض كتب الحنفية ، وما فاته من الاحكام ، في كتب غيرهم من فقهاء الاسلام. فقد قال في مقدمة الكتاب انه جعل المقارنة بين القانون المصري بقسميه وبين الشريعة على كتاب مرشد الحيران الذي ألفه قدري باشا ومجلة الاحكام العدلية التي أوجبت الدولة العثمانية على محاكمها المدنية الحكم بها . وذكر في أسماء الكتب التي كان يراجعها عند الشرح عدة كتب للحنفية والمالكية، ولم يذكر بينها شيئا من كتب فقه الشافعية والحنابلة ، على أن كتب هذين المذهبين أجمع لدلائل الكتاب والسنة، وكتب الشافعية منها أشد تنقيحا، وكتب الحنابلة أوسع طريقا، فلو أن المؤلف عني بكتب الحنابلة وعلماء الحديث المستقلين كما عني بكتب الحنفية لكان علمه بالشريعة الاسلامية أوسع ، ومقابلته بينها و بين القوانين أصح وأنفع ، ومن أجل هذه الكتب كتاب المغني للشيخ موفق الدين ابن قدامة و (المحلى) للامام ابن حزم و (نيل الاوطار) للامام الشوكاني. ومن أجل الكتب الباحثة في حكم الشريعة (اعلام الموقعين) للعلامة ابن القيم ، وأحسن ما كتب في العقود وأنفعه فيما نعلم هو ما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية ونشر في مجموعة الفتاوى التي طبعت له. فلعل المصنف يعنى بالرجوع الى أمثال هذه الكتب اذا نقح الكتاب عند ارادة اعادة طبعه — ان شاء الله تعالى

﴿ تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ﴾

(مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وما كان بينهما من العلائق التجارية والحربية وغيرها عن طريق سيناء من أول عهد التاريخ الى اليوم ، مؤلفه نعوم بك شقير مدير قلم التاريخ بوزارة الحربية بمصر ،وصاحب تاريخ السودان) وهو مجلد ضخم تزيد صفحاته على ٧٧٠ طبع بمطبعة المعارف طبعا جميلا،وأجمعت الصحف على حسن تقريظه والثناء عليه ، وما وفاه أحد منهم حقه ، ولا شرح للناس حقيقته وكنهه ، وقد كان اسم الكتاب حجابا يخفى ماوراءه من الحقائق التاريخية والاجتماعية والسياسية والعلمية ، المتعلق أكثرها بالعرب والبلاد العربية ، من شؤونها الغابرة ، وحالتها الحاضرة ، — ولا يزال هذا الحجاب مسدولا على تلك

المخدرات، ما أماطته الصحف عن ذلك الوجه ، ولا أظهرت كل ماوراءه من الجمال والحسن ، على أن كشف الحجاب عن أبكار المعاني ، ككشفه عن ابكار المغاني ، كل منهما يباح للخاطبين ، كما يباح للمحارم من الاهل والاقربين ، وما أكثر من يبيحه للناس أجمعين، فما بال ابكار مؤرخنا العربي لاتزال محجوبة عن خطابها المتعددين، وذوي قرباها الكثيرين، بذلك الاسم الذي لا يدل الا على جزء من مسماه، كما حجب استعداد أمتنا العربية بالاستبداد الذي يغشاه، وحجب ما في وطننا العربي من الآثار والمعادن بجهل الحاكم الذي يتولاه ؟

ألا أيها الخطاب ، لتلك الأبكار العرب الاتراب ، لقد نصب الله لكم من يرفع عن محاسن وجوههن الحجاب ، وان كان يخفض من أفكار من في مصر من دعاة السفور ، الذي يجزم بانه مزيد في التهتك والفجور ، ولكنه قبل رفعه، يبين لكم سبب وضعه ، فيقول :

إن المؤلف لما أتيح له الوقوف على تلك الحقائق التي يجهلها الا كثرون من تاريخ سيناء عز عليه أن تبقى مجهولة، كما هو شأن محبي العلم الذين يتعبون في تحصيله وتمحيصه، فعمد الى تقييد أوابدها ، وقنص شواردها ، بعد أن قتل مسائلها بالبحث والتدقيق تقتيلا ، وفصل القول فيها تفصيلا ، فجاء تاريخا مطولا لهذه البقعة الغامرة ، لم يوضع مثله لأعظم أقطارنا العامرة ، فكان مظنة الانتقاد بأنه اشتغال بالكمالي من جزئيات تاريخ بلاد أمتنا العربية ، قبل الوصول الى ما يفي بالحاجة من مباحثه الكلية ، وكان مؤرخنا اللوذعي لمح بلحظ الغيب ذلك الانتقاد يجول في مطاوي الافكار ، بعد ان تمثل بين يديه تاريخ سيناء سفرا من أكبر الاسفار ، فاراد أن ينظم تلك المباحث الكمالية في سلك الضروريات ؛ فوضع للكتاب خاتمة كانت كالمقصد من الوسيلة أو كالنتيجة بعد المقدمات

ذلك بأنه لما كانت سيناء معقد الاتصال والارتباط بين أعظم الاقطار العربية، أعني جزيرة العرب ومصر وسورية، جعل خاتمة التاريخ التفصيلي لها، خلاصة تاريخ الا[illegible]ي تحيط [illegible] كانت فائدة التاريخ هي العظة والاعتبار ، وكان الفراغ من هذا الكتاب في إبان هذه الحرب التي خاضت غمراتها الدول السائدة على تلك

الاقطار، والتي يتبدل بها مايتبدل من احوال الامم والاطوار، — ذكر قومه الاقربين سوريين ومصريين ، ومن وراءهم من العرب أجمعين، بان أصل أرومانهم واحد وهو الجنس العربي الكريم ، والاصل الذي ينتمي اليه أنبياؤهم المرسلون في مللهم ونسبهم واحد وهو خليل الله ابراهيم، و بأن لغتهم واحدة وهي العربية ، وكذلك عاداتهم ومصالحهم الاجتماعية والاقتصادية ، وهل يعذر أحد على الرضاء بالخلاف والفرقة، بعد تجارب هذه الجواذب والدواعي الى الوفاق والوحدة ؟ كلا، لاعذر الا الجهل أو عصبية الجاهلية ، وهاك شذرات منه في بيان هذه الحقيقة وحججها الجلية،

قال المصنف في تمهيد خاتمته الحسنى :

١ — « ان الباحث في تاريخ مصر والشام والعراق كلما تعمق في البحث وجد أن معظم سكان هذه البلاد كانوا في كل عصور التاريخ — كما هم في هذا العصر — عربا أو من أصل عربي (١) ، وكان لغتهم العربية أو اختا لها (٢) وعليه فأول الصلات التي تربط هذه البلاد بعضها ببعض وأهمها هي الصلة الجنسية العربية» ثم إنه جاء بزبدة تاريخ هذه البلاد ايضاحا لهذه الحقيقة وقد بدأ بخلاصة تاريخ العرب

مهد العرب

٢ — ذكر في بيان مهد العرب ان أوجه الآراء في مهد الجنس السامي اثنان (أحدهما) رأي مفسري التوراة وهو انه جزيرة العراق. (ثانيهما) رأي بعض علماء التاريخ واللغات والعاديات (٣) — وفي مقدمتهم العلامة روبرتس سمث الانكليزي — وهو ان مهده جزيرة العرب (قال) « ومنها تفرق في الشرق قبل التاريخ كما تفرق عرب المسلمون في صدر الاسلام، ولهم على ذلك أدلة لغوية اجتماعية، ومن أدلتهم اللغوية ان اللغة العربية هي أقرب أخواتها — الكلدانية والسريانية أو الارامية والعبرانية والحبشية — الى اللغة السامية الاصلية، وان في الارامية والعبرانية آثار الحياة البدوية العربية « ومهما يكن من أمر ذلك المهد فاننا نرى العرب قد أسسوا في جزيرتهم عدة

(١) ان الذين لم يسموا عربا كدول الفراعنة والفينيقيين كانوا اوكانت دول الحضارة منهم من أصل عربي (٢) ان السريانية والعبرانية تعدان اختين للعربية لان أصلهما واحد سامي مهده الاول جزيرة العرب (٣) هي آثار الامم القديمة نسبة الى عاد الاولى العربية ثم صارت عامة

ممالك اشتهرت قديما وحديثا، وخرجوا من جزيرتهم المتوحدات غربا الى سيناء ومصر وافريقية الشمالية، وشرقا الى العراق وتركستان، وشمالا الى سورية وآسية الصغرى، فأسسوا فيها عدة ممالك قبل الاسلام وبعده . فكان مهد العرب ومسرحهم منذ القديم من المحيط الاتلانتيكي شرقا وغربا ومن أعالي الفرات ودجلة والبحر المتوسط الى أقاصي السودان شمالا وجنوبا »

العرب البائدة في العراق ومصر وسورية

٣ — ذكر من تاريخ العرب البائدة انهم كانوا يسكنون ما بين العراق والعقبة، وينقلون التجارة ما بين بابل ومصر . ثم قال : «وما زالوا حتى ظهر منهم في القرن الثالث والعشرين (قبل المسيح) ملك اسمه [حمّورابي] فأسس مملكة قوية عرفت « بدولة حمورابي» بلغت اسمى ماوصلت اليه دولة في العهد القديم من الرقي الادبي والمادي . واشتهرت على الخصوص بسن الشرائع والقوانين و بناء الهياكل والقصور، واستمرت حاكمة الى أواخر القرن الـ ٢١ قبل المسيح »

« وذكر مؤرخو العرب ان العمالقة هم الرعاة (الهكسوس) الذين ملكوا مصر في مدة الدول الخامسة عشرة الى السابعة عشرة . ويظن الآن ان سكان مصر وايثوبيا الاولين الذين سكنوا النيل قبل التاريخ هم عرب هاجروا اليه من جزيرة العرب عن طريق سينا أو بوغاز باب المندب كما سيجيء

« هذا وسنرى في تاريخ سورية أن معظم سكانها الاولين هاجروا اليها من جزيرة العرب وأسسوا فيها دولا شتى »

ثم ذكر خلاصة مفيدة من تاريخ العرب المتعربة والمستعربة من القحطانيين والعدنانيين واستطرد الى ذكر خلاصة تاريخ ظهور الاسلام وامتداد دعوته وفتوحه ودوله من العرب وغيرهم ختمها بالدولة العثمانية ، وما انتهت اليه حالها في عهد طغاة الاتحاديين من اضطهاد العرب والعربية ، وتحميهم بالدولة أخطار هذه الحرب الاوربية ، وحكم عليهم بأنهم أضاعوا بذلك ملكهم مهما تكن عاقبة هذه الحرب

مستقبل جزيرة العرب

٤ — وقال في شأن مستقبل جزيرة العرب بعد الحرب ما نصه (ص ٦٦١)

« وأما جزيرة العرب فالطبيعة ورجالها تحميها ، وقد أعلن الحلفاء استقلالها تحت يد أمرائها ، وأصدر (الجنرال السرجون مكسويل) القائد العام البريطاني بمصر منشورا وجهه الى « العرب الكرام » بتاريخ ٣١ ديسمبر سنة ١٩١٤ جاء فيه ما نصه:

« [ان جلالة الملك جورج الخامس ملك الانكليز قد أعلن أنه لا يتخذ إجراءات حربية برية أو بحرية في بلاد العرب أو في موانيها ما لم تمس الحاجة الى ذلك قصد حماية مصالح العرب من اعتداء الترك وغيرهم أو إنجاد من ينهض من العرب للخلاص من ربقة الترك] »

وبعد وصف جزيرة العرب وبيان حالها وسكانها في هذا العصر عقد فصلا ثانيا لخلاصة تاريخ سورية (ص ٦٧٥)

٥ — بين المؤرخ ان شعوب سورية القديمة هم الاراميون والكنعانيون والحثيون والعبرانيون والفلسطينيون والفينيقيون (قال) « وكلهم هاجروا اليها من جزيرة العرب أو العراق الا الفلسطينيين » أي والذين هاجروا اليها من العراق كانوا من جزيرة العرب فهاجروا الى العراق قبل الهجرة الى سورية . و « أو » في كلامه لمنع الخلو لا لمنع الجمع فالتحقيق ان من عرب الجزيرة من هاجروا الى سورية توا ومنهم من هاجر الى العراق توا ثم هاجر بعضهم الى سورية وبعضهم الى مصر

وبعد ان قال في كل شعب من هؤلاء الشعوب قولا وجيزا مفيدا وشكا من عدم اجتماع كلمة السوريين في كل عصر من العصور ومن ضعفهم بانقسامهم واختلاف أغراضهم وأديانهم . وذكر ان عددهم الآن ثلاثة ملايين

٦ — ثم ذكر خلاصة تاريخ العراق وذكر ممالكه القديمة والحديثة من الكلدانيين الى العثمانيين وذكر أن عدد سكانه يقدر الآن بثلاثة ملايين ايضا نصفهم بدو ونصفهم حضر وكلهم عرب الا قليل من الاكراد . (*)

(*) استطرد المؤرخ هنا الى ما لم يستطرد الى مثله في سورية من ذكر البيوتات فبدأ بذكر الفاروقيين وقال انهم يسكنون الموصل وفاته أن منهم فرعا في بغداد أيضا . وثنى بذكر السادة العلويين وقال انهم يسكنون الموصل وبغداد والبصرة . وثلث بذكر بيتين من سلالة الخلفاء العباسيين قال وكلهم في بغداد . ثم ذكر الجيلانية والآلوسية في بغداد . وفاته أن هذين البيتين من بيوت السادة العلوية أيضا ، =

٧ — ثم انتقل المصنف الى خلاصة تاريخ مصر فبدأه بقوله :

[« كان المشهور الذي عليه الجمهور ان سكان مصر القدماء هم أبناء مصرايم ابن حام بن نوح — هاجر اليها من آسية . ولكن بعض المتضلعين من اللغة الهيروغليفية اكتشفوا حديثا أن هذه اللغة واللغة العربية السامية هما من أصل واحد كما مرّ . فاذا ثبت هذا كان سكان مصر الاولون أجداد القبط الحاليين هم من أصل عربي قديم « وكان هذا هو الفتح العربي الاول لمصر »] اهـ

ثم تكلم على دولة الرعاة الذين سماهم اليونان (هكسوس) أي الملوك الرعاة وهي كلمة محرفة عن كلمتي (حق شاسو) [١] في لغة قدماء المصريين ومعناها «ملك البوادي » وسماهم مؤرخو العرب العمالقة كما تقدم آنفا ، وذكر خلاف المؤرخين فيهم وقول ياقوت « إن العمالقة امتدوا من بلاد العرب الى سورية فكانوا ملوكا في سورية وفراعنة في مصر » ثم قال

[وخلاصة القول انهم قوم رحالة أو عرب أتوا من المشرق « فاذا ثبت ذلك كان هذا هو الفتح العربي الثاني لمصر » والظاهر انهم كانوا من جنس عرب سورية لان في أيامهم عم السلام بين مصر وسورية ، ونزح كثير من السوريين الى مصر] اهـ

٨ — ثم ختم المصنف خاتمة الكتاب بالكلام على مهاجري قومه السوريين

= وكان ينبغي أن يبدأ بذكر السادة العلوية ويقولون انهم يوجدون في جميع الولايات العراقية كما يوجدون في جميع الولايات السورية وغيرها وان اشهر بيوتهم في العراق بيت النقيب و بيت الالوسي في بغداد و بيت النقيب في البصرة. وقد ذكر من آل الآلوسي السيد محمود شكري وقال انه مروج مذهب السلف (الوهابية) في العراق وذكر الوهابية هنا غلط مبني على أغلاط له أخرى عند ذكر هؤلاء في الكلام على نجد فانه جعل الحنابلة غير الوهابية ونسب الى الوهابية ما لا يقوله أحد ممن يطلق عليهم هذا اللقب . ولا عجب فقد اغتر كثير من الناس بما كتبه دحلان وغيره عن هؤلاء الناس ، وما ذاك الا من فتن السياسة أعاذنا الله من إفكها وتضليلها .

(١) يحتمل أن يكون كلمة شاسوا من مادة شاس يشوس فهو اشوس وهم أشاوس . والاشوس يطلق على المتكبر وأصله من يصغر عينيه و ينظر بمؤخرها أو من ينظر الى الشيء نظر احتقار — وعلى الشجاع والطويل القامة ، وكذلك كانت العمالقة وربما كانت كلمة حق بمعنى ملك بكسر الميم كما يستعملها أهل الحجاز الآن

بمصر فأشار الى اليهود والمسلمين منهم اشارة وجيزة في صفحة واحدة لقلة عددهم وتوسع في ذكر النصارى -- قال -- (وهم من نعني بالعنصر السوري عند التخصيص) أي عند الاطلاق. فذكر قدماءهم ومتأخريهم وقدر عددهم بسبعين ألف نسمة وثروتهم بخمسة وعشرين مليونا ، وذكر أنديتهم وجمعياتهم الخيرية وصحفهم الحية والميتة . ورؤساءهم الروحيين وبيوت الثروة فيهم ومحال التجارة الواسعة لهم ومكتباتهم ورجال الجيش والقضاء والكتاب وكبار الموظفين منهم وأصحاب الفنون

مستقبل سورية بعد الحرب

وقفى على ذلك بالكلام على مستقبل سورية بعد الحرب فقال ان السوريين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم السياسية يتفق كلهم أو جلهم على أربعة أمور (١) السخط على الاتحاديين سرا وجهرا لدخولهم في الحرب الحاضرة (٢) الميل الصادق الى الحلفاء في هذه الحرب (٣) إنشاء حكومة جديدة على مبادي اللامركزية الشوروية تضمن لهم الامن والراحة والنجاح في بلادهم مع المحافظة على لغتهم وتقاليدهم وعاداتهم ووحدتهم القومية (٤) شعورهم بالحاجة الى دولة من دول الحلفاء العظام يستعينون بها على تنظيم حكومتهم الجديدة . ولكنهم يختلفون في كيفية إنشاء الحكومة وتنظيمها ، ثم في نوع المساعدة التي يتطلبونها ومقدارها

قال « نعم ان هناك فئة لا يهمهم الاحتفاظ بقوميتهم ما دامت البلاد ممتعة بأسباب الامن والراحة والرقي . ولكن هؤلاء هم فئة قليلة جدا ، والسواد الاعظم من أهالي سورية من مسلمين ونصارى ويهود متمسكون بقوميتهم ولغتهم وعاداتهم كل التمسك . وأهل الخبرة منهم يقولون انه لا يكون للسوريين كلمة نافذة ولا مكانة سياسية ولا شأن ولا مقام ولا راحة ولا سلام في بلادهم أو خارج بلادهم الا اذا احتفظوا بقوميتهم ، واتحدوا في الرأي على اختلاف المذاهب والاديان

« واهم الاسباب التي تدعو الى اتحادهم ثلاثة — ١ — أن يتخذوا أساس المعاملة المصلحة العامة الوطنية ليس الا — ٢ — ان يتذكروا انهم كلهم من أصل واحد عربي أو سامي ، وانهم كانوا عربا أو ساميين ، قبل ان كانوا يهودا ونصارى ومسلمين ، — ٣ — أن يحافظوا على لغتهم العربية لانها لغة راقية ، ولانه لاشيء

يقرب العناصر المتنافرة ، مثل الاجماع على لغة واحدة »

وتكلم بعد ذلك في مسألة تجنس السوري بالجنسية المصرية فبين المرغبات فيها وأضدادها ، وأهمها ان هواء مصر شديد الوطأة على المهاجرين الى مصر من البلاد المعتدلة كسورية فهو لا يزال يضعفهم الى ان ينقرضوا ، والنصارى منهم وان كثروا يبقون عنصرا ضعيفا منفردا بسبب الفارق بينهم وبين العنصر الاكبر — وهم المسلمون — في الدين وعدم الاختلاط بالزواج .

ثم نصح للسوريين بعشر نصائح ، قال انها منتهى ما بلغ اليه اختباره بعد ان جاوز الخمسين ، وقضى في مصر منها أكثر من ثلاثين ، وهي

(١) ان لا ينتسبوا الى الاصول السائدة في مهاجرهم مستحيين بأصلهم السوري وهم احفاد الحثيين والفينيقيين السابقين الى الاختراع والاكتشاف « وأنصار ابرهيم وموسى وعيسى ومحمد الذين كانوا أول من نادى بوحدانية الله وهذب الاخلاق وشاد الاديان التي تسود العالم الآن » ٢ — قوله « ليكن ارتباطكم بوطنكم الاصلي حيا ما امكن لتبديل الهواء أو تجديد الدم بالزواج » وأدرج في هذه الحث على الزواج الباكر والرياضة البدنية — ٣ — قوله « انتم في مصر عنصر ضعيف فاستعينوا على ضعفكم بقوات ثلاث : العلم الشريف والمال الحلال والخلق الحسن ، واحذروا آفات ثلاثا : المسكر والمنكر والقمار » — ٤ — الحث على الحرف الراقية من علمية وادبية وزراعية وصناعية وخاصة التجارة مع النهي عن الربا — ٥ — الترغيب عن خدمة الحكومة وقال في الموظفين منهم : ربما كان مجموع ثروتهم في القطر المصري كله لا يساوي ثروة تاجر أو مزارع واحد من تجارهم أو مزارعيهم الكبار » — ٧ — تكريم نوابغهم واجلال أفاضلهم وتقويم المعوج منهم تحقيقا للتضامن الذي يجعلهم كانهم أسرة واحدة ٨ — التعاون على المنافع والمصالح العامة كانشاء المعابد والمدارس والمستشفيات، وعدم تكريم الغني الذي يقصر في ذلك — ٩ — قوله « لاتدعوا الاختلافات المذهبية التي أورثتكم الشقاق والشقاء في بلادكم ترافقكم الى دار هجرتكم فتكدر صفاءكم وتحرمكم لذة التمتع بالالفة الجنسية » وذكر من وسيلة ذلك كثرة الاندية وارتباط بعضها ببعض — ١٠ — طاعة السلطان وقانون البلاد والعمل لنفع الامة المصرية والحرص على كرامتها . وختم الكلام أو

الكتاب بابيات في الجمع بين حب مصر والشام وجعل قلبه شطرين بينهما وتمني تعانقهما عناق الاخاء الى المنتهى

﴿ جريدة القبلة ﴾

« جريدة دينية سياسية اجتماعية تصدر مرتين في الاسبوع ، لخدمة الاسلام والعرب » مديرها المسؤل محب الدين الخطيب

أنشئت هذه الجريدة بمكة المكرمة في شهر شوال سنة ١٣٣٤، ومحب الدين الخطيب المدير المسؤول لها هو صديقنا المشهور في عالم الصحافة باشتغاله عدة سنين بالتحرير والترجمة في جريدة المؤيد بمصر، ومن المحررين لها صديقنا فؤاد الخطيب الشاعر الاديب المشهور، الذي كان استاذ اللغة والآداب العربية في مدرسة غردون الكلية في السودان

واننا نرى ان أنفع ما ينشره محب الدين فيها بعد منشورات سيدنا الشريف الحكيمة هو ما يترجمه عن الكتب والصحف التركية مما يبثه في الشعب التركي كتابه من الثابتة الجديدة المتفرنجة (حزب تركية الفتاة) الذين تعتمد عليهم جمعية الاتحاد والترقي في تحويل الترك عن الاسلام بالتشكيك في عقائده وشريعته ، والتشويه لآدابه وفضائله ، والمحو لصبغته من القلوب واستبدال صبغة جنسية تورانية بها ، وسنقتبس بعض ما نشرته من ذلك

قيمة الاشتراك في هذه الجريدة المفيدة ريال مجيدي ونصف في الحجاز وعشرة فرنكات في سائر الاقطار ، وهي قيمة قليلة لعلها لا تفي بنفقات الجريدة، الا اذا كثر المشتركون فيها فصار ألوفا كثيرة. لان الورق والحبر قد تضاعفت أثمانهما في هذه السنين كما تضاعفت أثمان أكثر ما تصدره أوربة من مصنوعاتها، بعد ان شغلتها الحرب بأوزارها عن كل ما عداها

ونحن نحث الشعب العربي والعارفين باللغة العربية من كل من يصلي الى القبلة من سائر الشعوب على الاشتراك في هذه الجريدة وشد أزرها، ونحث أرباب الاقلام منهم على مواصلتها بما تجود به قرائحهم من المقالات والاخبار والآراء المفيدة للجامعة العربية أو للامة الاسلامية ، ونحمد الله تعالى أنه لا تنافي بين المصلحتين الاسلامية والعربية كما بينا ذلك في مقال في كنه المسألة العربية ضاقت عنـه أجزاء المنار الماضية وهذا

الجزء أيضا، وسينشر عند أول فرصة ان شاء الله تعالى. وأما العصبية التركية الطورانية التي قام بها الاتحاديون ووقفوا مال الدولة ونفوذها على تأييدها فهي تنافي الاسلام وتعارضه وذلك بديهي في نفسه وسنعيد ما نشرناه في تأييده بما يزيده إيضاحا وظهورا

وقد كان الواجب على المنار ان يبادر الى تقريظ هذه الجريدة في أول جزء صدر منه عقب ظهورها خلافا لعادته في إرجاء تقريظ المطبوعات ، ولكن لكل أجل كتاب ، وإنما صرحنا بهذا ليعلم قراء المنار في الاقطار أن تأخيرنا لتقريظها لم يكن لقلة العناية بشأنها ، اذ نبهنا الى ذلك ما كتبه الينا بعضهم في السؤال عنها حتى من بعض مهاجري السوريين في أمريكة

(مجلة الاحكام الشرعية)

مجلة قضائية شرعية مشهورة ومنشئها حسن بك حماده المحامي الشرعي مشهور أيضا فلا حاجة الى التعريف بهما ، وقد كانت المجلة حجبت عن قرائها في أثناء سنتها التاسعة بسبب تعيين منشئها مفتشا بنظارة الاوقاف في الآستانة ثم انه أعاد اصدارها في العام الماضي فأتم مجلد السنة العاشرة واستمر على اصدارها وقد صدر العدد الاول من مجلد السنة الحادية عشرة في منتصف المحرم مشتملا على مقدمة مختصرة وتسع قرارات شرعية وحكمين وثلاث قرارات للمجلس الحسبي العالي وسبع منشورات من وزارة الحقانية

وقد صارت المجلة وافية بحاجة المحامين الشرعيين وأصحاب القضايا والمباحث القضائية الشرعية بما تستوعبه من نشر الاحكام الشرعية ومنشورات الحقانية للمحاكم الشرعية وقرارات المجالس الحسبية ولذلك كثر الاقبال عليها من جميع جهات القطر فنهنئ صديقنا منشئها ونتمنى له دوام التوفيق والارتقاء

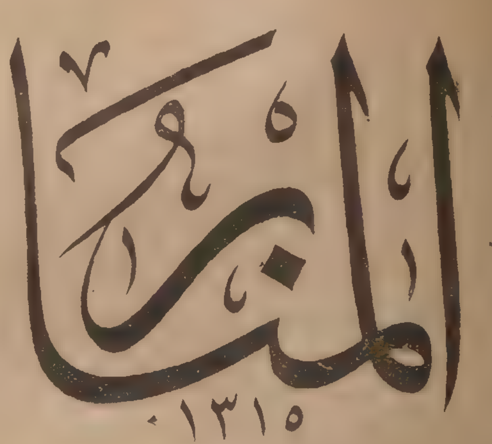
(الثمرات)

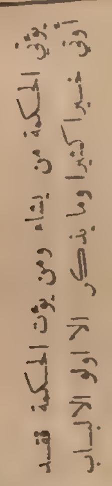
جريدة أسبوعية أدبية انتقادية لمنشئها حسن أفندي السندوبي المشهور في عالم الادب بمقالاته في المؤيد و بكتابه (أعيان البيان) أصدرها في العام المنصرم ولم يمض في سيره لاسباب ذكرها ، وقد أعاد اصدارها في هذا العام فنرجو لها الرواج . وقيمة اشتراكها ١٠٠ قرش في القطر المصري

﴿ رحلة الحجاز ﴾

ضاق هذا الجزء عن نشر شيء من رحلتنا الحجازية وموعدنا الاجزاء الآتية

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب





﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق ﴾

مصر ٢٩ صفر ١٣٣٥ — ٤ الجدي (ش ١) ١٢٩٥ هـ ش ٢٥ دسمبر ١٩١٦

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٣٣) قَدْ نَعلَمُ إِنَّهُ لَيَحزُنُكَ ٱلَّذي يقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ
وَلٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٤) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ
مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَٰهُمْ نَصْرُنَا، وَلاَ
مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِي ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٥) وَإِنْ
كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ
أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّماء فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى
فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ

لا ننسى أن هذه السورة نزلت في دعوة مشركي مكة الى الاسلام ومحاجتهم في التوحيد والنبوة والبعث، وأنها تكثر فيها حكاية أقوالهم في ذلك بلفظ (وقالوا..وقالوا..) وتلقين الرسول (ص) الحجج بلفظ (قل .. قل ..) حتى ان الامر بالقول تكرر فيها عشرات من المرار. وقد سبق في الآيات التي فسرناها منها قوله تعالى (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ... وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا ..—) وأمره تعالى بالرد على كل من القولين واقامة الحجج عليهم في موضوعهما بما فيه بيان فقد بعضهم الاستعداد للايمان — بعد هذا كله ذكر في هذه الآيات تأثير كفرهم في نفس النبي (ص) وحزنه مما يقولون في نبوته، وسلاه عن ذلك ببيان سنته سبحانه وتعالى في الرسل مع أقوامهم، وإيئاسه من إيمان الجاحدين المعاندين منهم — وقد تكرر هذا المعنى في السور المكية — فقال عز وجل:

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ﴾ الحزن ألم يلم بالنفس عند فقد محبوب، أو امتناع مرغوب، او حدوث مكروه، وتجب معالجته بالتسلي والتأسي وان كان بالحق للحق، كحزن الكاملين على اصرار الكافرين على الكفر، وقد أثبت تعالى لرسوله هذا الحزن اثباتا مؤكدا بتعلق علمه التنجيزي به في بعض الاحيان، أي عند ما كان يعرض له عليه السلام، وبإن مع ضمير الشان وباللام، فكلمة «قد» على أصلها للتقليل، وقيل انها هنا للتكثير، وإنما القلة والكثرة في متعلقات العلم لا العلم نفسه، وقد نهاه تعالى عن هذا النوع من الحزن بقوله في سورة يونس (١٠ : ٦٥ ولايحزنك قولهم ان العزة لله جميعا انه هو السميع العليم) وفي سورة يس (٣٦ : ٧٥ فلا يحزنك قولهم انا نعلم مايسرون ومايعلنون) كما نهاه عن الحزن عليهم لعدم ايمانهم في سورة الحجر (١٥: ٨٨) والنحل (١٦: ١٢٧) والنمل (٢٧ : ٧٢) وتقدم تفسير الحزن والمراد بالنهي عنه[1] وان لغة قريش فيه ان الثلاثي منه يتعدى بنفسه فيقال حزنه الامر، وتميم تقول أحزنه، ومنها قراءة نافع (ليُحزِنك) بضم الياء وكسر الزاي

والمراد بالقول الذي يحزنه منهم هو ما كانوا يقولونه فيه وفي دعوته ونبوته من تكذيب وطعن وتنفير للعرب، ومنه بالاولى ماحكاه عنهم في الآيات السابقة وسيأتي

(١) راجع ص ٣٨٧ ج ٦ من التفسير

توضيحه. وروي عن أهل التفسير المأثور ان سبب نزول الآية أقوال خاصة من بعض رؤسائهم المستكبرين تنطبق على قوله في تتمة الآية ﴿فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي فانهم لا يجدونك كاذبا ولا يعتقدون انك كذبت على الله فيما جئت به — وهم لم يجربوا عليك كذبا على أحد — ولكنهم يجحدون بالآيات الدالة على صدقك بانكارها بألسنتهم فقط كما جحد قوم فرعون من قبلهم بآيات الله لاخيك موسى (٢٧: ١٤ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره:

« يقول تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم في تكذيب قومه له ومخالفتهم اياه (قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون) أي قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) كما قال تعالى في الآية الاخرى (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين — فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وقوله (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الامر ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، أي ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم كما قال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن ناجية بن كعب عن علي قال: قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم: انا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به. فأنزل الله (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ورواه الحاكم من طريق اسرائيل عن أبي اسحق، ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي بمكة، حدثنا بشر بن المبشر الواسطي عن سلام بن مسكين عن أبي يزيد المدني أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا جهل فصافحه فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟ فقال: والله اني لأعلم إنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا؟ وتلا أبو يزيد (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وقال أبو صالح وقتادة: يعلمون انك رسول الله ويجحدون. وذكر محمد بن اسحق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والاخنس بن شريق ولا

يشعر أحد منهم بالآخر: فاستمعوها الى الصباح، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر ماجاء به، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شبان قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظنا أن صاحبيه لايجيآن لماسبق من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا، فلما أصبح الاخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال أخبرني ياأبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة! والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الاخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم مارأيك فيما سمعت من محمد؟ قال ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا،(١) وأعطوا فأعطينا، حتى اذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الاخنس وتركه.

« وروى ابن جرير من طريق أسباط عن السدي في قوله (قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدن) لما كان يوم بدر قال الاخنس بن شريق لبني زهرة: يابني زهرة ان محمدا ابن أختكم فانتم أحق من ذب عن ابن أخته فانه ان كان نبيا لم تقاتلونه اليوم؟ وان كان كاذبا فانتم أحق من كف عن ابن أخته، قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم فان غلب محمد رجعتم سالمين، وان غلب محمد فان قومكم لايصنعون بكم شيئا، فيومئذ سمي الاخنس وكان اسمه أبي، فالتقى الاخنس وأبو جهل فخلا الاخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك والله ان محمدا لصادق وما كذب محمد قط، ولكن اذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله

(١) الحمل هنا اعطاء الناس ما يركبونه

(فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فآيات الله محمد صلى الله عليه وسلم » اه وما ذكر سببا لنزول الآية يصح ان يكون سببا لنزولها في ضمن السورة ولا يصح نص في نزولها منفردة ، والا فهو من قبيل التفسير كخبر الاخنس مع أبي جهل يوم بدر، وذلك بعد الهجرة قطعا والسورة مكية قطعا ولم يستثن أحد هذه الآية فيما استثني

ونقول ان في (يكذبونك) قراءتين — قراءة نافع والكسائي بضم الياء وتخفيف الذال من أكذبه أي وجده كاذبا أو نسبه الى الكذب بأن قال ان ما جاء به كذب وان لم يكن هو الذي افتراه بأن كان ناقلا له مصدقا به . وقراءة الجمهور بتشديد الذال من التكذيب وهو الرمي بالكذب بمعنى إنشائه وإبتدائه وبمعنى نقله وروايته. وبهذا نجمع بين قول من قال ان الصيغتين بمعنى واحد ومن قال ان معناهما مختلف. قال ثعلب: اكذبه وكذّبه بمعنى ، وقد يكون « أكذبه » بمعنى بين كذبه أوحمله على الكذب وبمعنى وجده كاذبا ،اه قال في اللسان :وكان الكسائي يحتج لهذه القراءة (أي قراءته) بأن العرب تقول كذبت الرجل اذا نسبته الى الكذب ، وأكذبته اذا اخبرت ان الذي يحدث به كذب ، قال ابن الانباري ويمكن أن تكون «فانهم لا يكذبونك» على معنى لا يجدونك كذابا عند البحث والتدبر والتفتيش اه فعلم من هذه النقول ان الإكذاب يشترك مع التكذيب في معنى رواية الكذب، وينفرد التكذيب بمعنى الرمي باقتراء الكذب إما مخاطبة كأن يقول له كذبت فيما قلت، وإما باسناده اليه في غيبته كأن يقول كذب فلان وافترى، وينفرد الإكذاب بمعنى وجدان المحدث كاذبا فيما قاله بمعنى ان خبره غير مطابق للواقع، لا بمعني انه افتراه، وبمعنى الاخبار بذلك اي بعدم مطابقة الخبر للواقع . فعلى هذا يكون المراد من مجموع القراءتين ان الكفار لا ينسبون النبي (ص) الى اقتراء الكذب ولا يجدونه كاذبا في خبر يخبر به بأن يتبين أنه غير مطابق للواقع، لان جميع ما يخبر به من أمر المستقبل كنصر الله تعالى له واظهار دينه وخذل أعدائه وقهرهم سيكون كما أخبر ، وكذلك كان. وانما يدعون ان ما جاء به أخبار الغيب — وأهمها البعث والجزاء — كذب غير مطابق للواقع. ولا يقتضي ذلك ان يكون هو الذي افتراه، فان التكذيب قد يكون

للكلام دون المتكلم الناقل ، ولكن هذا النفي يصدق على بعض المشركين لا على جميعهم كما يأتي

وأما الجحود فهو كما قال الراغب : نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه . يقال جحد جحودا وجحدا. قال عز وجل (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) اه وعبارة اللسان الجحد والجحود ضد الاقرار كالانكار . ثم نقل قول الجوهري فيه انه الانكار مع العلم . ويتعدى بنفسه و بالباء فيقال جحده وجحد به .

وذكر الرازي في نفي التكذيب والاكذاب مع اثبات الجحود أربعة أوجه (١) انهم ماكانوا يكذبونه (ص) في السر ولكنهم كانوا يكذبونه في العلانية ويجحدون القرآن والنبوة (٢) انهم لايقولون له : انك كذاب لانهم جربوه الدهر الطويل فلم يكذب فيه قط، ولكنهم جحدوا صحة النبوة والرسالة واعتقدوا انه تخيل انه نبي وصدّق ما تخيله فدعا اليه (٣) انهم لما أصروا على التكذيب مع ظهور المعجزات القاهرة على وفق دعواه كان تكذيبهم تكذيبا لآيات الله المؤيدة له أو تكذيبا له سبحانه وتعالى (قال) : فالله تعالى قال له ان القوم ما كذبوك ولكن كذبوني : أي على معنى ان تكذيب الرسول كتكذيب المرسل المصدق له بتأييده . وذكر انه على حد (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) ومثله (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) (٤) — قال وهو كلام خطر بالبال — ان المراد إنهم لا يخصونك بهذا التكذيب بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقا ويقولون في كل معجزة انها سحر « فكان التقدير انهم لا يكذبونك على التعيين ولكن يكذبون جميع الانبياء والرسل » اه ملخصا بالمعنى غالبا وفيه قصور. وسكت عن أقوال أخرى قديمة (منها) قول بعضهم فانهم لا يكذبونك فيما وافق كتبهم وان كذبوك في غيره، وهو أضعف ماقيل لان الكلام في مشركي مكة ولا كتب عندهم، ومنها قول بعضهم فانهم لا يتفقون على تكذيبك ولكن يكذبك الظالمون منهم الذين يجحدون بآيات الله (ومنها) ان المعنى فانهم لا يعتقدون كذبك ولا يتهمونك به ولكنهم يجحدون بالآيات لظلمهم لا نفسهم

وتقدم المختار عندنا وهو أن المراد هنا بما يحزنه من قولهم ما تقدم في

أوائل السورة من قوله تعالى حكاية عنهم (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) ويوضحه ما روي في موضوع الآية ونزولها — وهو المتبادر من النظم الكريم — فالكلام اذاً في طائفة الجاحدين كبرا وعنادا كأبي جهل والاخنس وأضرابهما ، وهؤلاء لم يكونوا يعتقدون كذب النبي (ص) ولا يمكن أن يجدوه كاذبا في خبر يخبرهم به في المستقبل كما انهم لم يجدوه كاذبا في يوم من أيامه الماضية، بل عصمته من الكذب في المستقبل أظهر وأولى ، ولكنهم لظلمهم أنفسهم بالكبر والاستعلاء يجحدون بآيات الله الدالة على نبوته ورسالته بمثل زعمهم إن القرآن نفسه سحر يؤثر ، وهم لم يكونوا يعتقدون ذلك وانما يريدون به صد العرب عنه . وأما اذا جعلت الآية عامة وأريد بما يحزنه (ص) ما كان يقوله المشركون من ضروب الاقوال في إنكار التوحيد والبعث والنبوة وسائر مسائل الدين، ففي هذه الحالة يظهر اتجاه غير واحد من تلك الاقوال المنقولة بصدق بعضها على أناس و بعضها على آخرين، فان نفي التكذيب إنما يصدق على بعضهم كالجاحدين المعاندين دون جمهور الجاهلين الضالين ، وانما كان الجحود من الرؤساء المستكبرين منهم عنادا على علم ، ومن المقلدين جهلا واحتقارا منهم لانفسهم بترك النظر ، وغلوا فى ثقتهم بكبرائهم وآبائهم. ولاشك في أن بعض المشركين كان يكذب النبي (ص) تكذيب الافتراء عن اعتقاد أو غير اعتقاد، قال تعالى في سورة الفرقان (وقالوا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) الى قوله (أصيلا) ولم تكن كل العرب تعرف من سيرته وصدقه (ص) ما كان يعرفه معاشروه من قريش . وسيأتي التصريح بتكذيبهم اياه في جمل شرطيـة من هذه السورة وغيرها مما نذكر قريبا من الشواهد في تفسير الآية التالية:

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا ﴾ أكد الله تعالى لرسوله (ص) ان الرسل الذين أرسلوا قبله قد كذبتهم أقوامهم فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم الى ان نصرهم الله تعالى عليهم، أي فان كذبت فلك أسوة بمن قبلك فلست بدعا من الرسل ، وقد صرح بالشرطية في آيات أخرى كقوله تعالى في سورة الحج (٢٢: ٤٠ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح) الخ وقوله في سورة فاطر (٣٥: ٤ وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك — الخ — ٢٥ وان يكذبوك

فقد كذب الذين من قبلهم) الخ والآية تسلية للرسول (ص) بعد تسلية، وإرشاد له الى سنته تعالى في الرسل والامم ان كانت هذه الآية أول آية في هذا المعنى ، والا فهي تذكير بهذه السنة ، وما تتضمنه من حسن الاسوة ، وقد صرح بوجوب هذا الصبر عليه تأسيا في قوله (٤٦: ٣٥ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) واستقلالا في آيات كثيرة منها ما نزل قبل هذه السورة كقوله تعالى في سورة المزمل (٧٣: ١٠ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) قد ثبت بالتجارب ان التأسي يهون المصاب ويفيد شيئا من السلوة . قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

ولولا ان مقتضى الطبع البشري التأثر بالتأسي لما ظهرت حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية ، فان النبي (ص) كان يتلو القرآن في الصلاة ولاسيما صلاة الليل فربما يقرأ السورة ولا يعود اليها إلا بعد أيام يفرغ فيها من قراءة مانزل من سائر السور ، فاحتيج الى تكرار تسليته وأمره بالصبر المرة بعد المرة لان الحزن والاسف اللذين كانا يعرضان له (ص) من شأنهما ان يتكررا بتكرر سببهما وبتذكره حتى عند تلاوة الآيات الواردة في بيان حال الكفار ومحاجتهم وإنذارهم

و «ما» في قوله تعالى (على ما كذبوا) مصدرية (واوذوا) عطف على (كذبوا) أي فصبروا على تكذيب أقوامهم لهم وإيذائهم إياهم . والايذاء فعل الاذى وهو ما يؤلم النفس أو البدن من قول أو فعل (١) . وقد أوذي الرسول (ص) بضروب

---

(١) قال الراغب : الاذى ما يصل الى الحيوان من الضرر إما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويا كان أو أخرويا . يقال أذي بالشيء (كرضي) أذًى وتأذى . والاسم الأذيّة والاذاة ، وآذى الرجل فعل الاذى . وآذى غيره . كلّ هذا منصوص لا نزاع فيه . وجعل الصحاح الاذى والاذاة والاذية مصادر لأذي ولم يذكر الايذاء الذي هو المصدر القياسي لآذى فنقل عبارته الفيروزابادي في قاموسه وزاد « ولا تقل إيذاء » على كونه قال قبيل ذلك : والأذيّ كغني الشديد التأذي ويخفف والشديد الايذاء ، ضد . اه وذكر في اللسان مثل عبارة الجوهري ثم قال: قال ابن بري صوابه آذى إيذاء، فأما أذى فمصدر أذي وكذلك اذاء =

من الايذاء كما أوذي الرسل قبله — آذاه المشركون في مكة بأقوالهم وأفعالهم ، واليهود والمنافقون في المدينة بقدر استطاعتهم

وقوله تعالى ﴿ حتى أتاهم نصرنا ﴾ غاية للصبر أي صبروا على التكذيب وما قارنه من الايذاء الى أن جاءهم نصرنا العظيم بالانتقام من أقوامهم، وإنجائنا إياهم هم ومن آمن معهم من أذاهم وكيدهم ، وفيه بشارة للرسول مؤكدة للتسلية بأنه سينصره على المكذبين الظالمين من قومه، وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمة البعثة ، وإيماء الى حسن عاقبة الصبر ، فمن كان أصبر كان أجدر بالنصر، اذا تساوت بين الخصمين أسباب الغلب والقهر. واضافة النصر الى ضمير العظمة العائد على العزيز القدير تشعر بعظمة شأنه، وتشير الى كونه من الآيات المؤيدة لرسله

﴿ ولا مبدّل لكلمات الله ﴾ في وعده ووعيده التي منها وعده للرسل بالنصر، ونوعده لأعدائهم بالغلب والخذلان ، ولا في غير ذلك من الشرائع والسنن التي تقتضيها الحكمة . والمراد من هذه الكلمات هنا قوله في سورة الصافات (٣٧ : ١٧١ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ١٧٢ إنهم لَهُمُ المنصورون ١٧٣ وإن جندنا لهم الغالبون) — اقرإ الآيات الى آخر السورة ، فنفي جنس المبدل لكلمات الله مثبت لكلمته في نصر المرسلين بالدليل -- أي ان ذلك النصر قد سبقت به كلمة الله ، وكلمات الله لا يمكن ان يبدلها مبدّل . فنصر الرسل حتم لا بد منـه . وكلمات الله جنس يشمل كلمات الاخبار وإنشاء الاحكام . كما سيأتي في تفسير (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته) من هذه السورة . واضافة الكلمات هنـا الى الاسم الاجل الاعظم تشعر بعلة القطع بأنه لا مبدل لها ، لان المبدل لكلمات غيره لا بد ان تكون قدرته فوق قدرته . وسلطانه أعلى من سلطانه. والتبديل عبارة عن جعل شيء بدلا من شيء آخر ، وتبديل الاقوال والكلمات نوعان — تبديل ذاتها

= وأذية. وذكر شارح القاموس عبارة ابن بري وتعقب غيره من العلماء والمفسرين للقاموس في نهيه وقولهم ان الايذاء مسموع مقيس ثم ذكر ان شيخه قال انه لم يجد كلمة الايذاء في كلام العرب بعد استقراء نظمهم ونثرهم . ولـكن المثبت مقـدم والاستقراء غير مسلم

يجعل قول مكان قول وكلمة مكان كلمة . ومنه (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) وتبديل مدلولها ومضمونها كمنع نفوذ الوعد والوعيد أو وقوعه على خلاف القول الذي سبق . والمتكلمون الذين يجوزون إخلاف الوعيد يقولون ان الله أن يبدل ماشاء من كلماته، وانما يستحيل ذلك على غيره، وتبديله إياها لا يشمله النفي في الآية. فان قيل لهم: قد يشمله ماهو أعم منه في هذا المعنى كقوله تعالى في سورة ق (ما يُبدَّل القول لديّ) — قالوا ان النصوص الواردة في العفو تخصص العام من نصوص الوعيد، أو: لا نسلم ان العفو عن بعض المذنبين من قبيل التبديل، وسيأتي بسط هذا المبحث في موضع آخر

﴿ ولقد جاءك من نبإِ المرسلين ﴾ هذا تقرير وتأكيد لما قبله أي ولقد جاءك بعض نبإِ المرسلين في ذلك،أو ولقد جاءك ماذكر --أوذلك الذي اشير اليه — من خبر التكذيب والصبر والنصر، من نبإِ المرسلين الذي قصصناه عليك من قبل ، والنبأ الخبر أو ذو الشأن من الاخبار لا كل خبر . وقد روي ان الانعام نزلت بعد الشعراء والنمل والقصص وهود والحجر المشتملة على نبإِ المرسلين بالتفصيل . وكلمة نبأ رسمت في المصحف الامام بياء هكذا (نبای) والياء كرسي للهمزة المحذوفة كالنقط، فينطق بالهمزة دونها كما ترسم في وسط الكلمة في مثل نبئهم

ومن العبرة في الآية ان الله تعالى وعد المؤمنين ما وعد به المرسلين من النصر فقال (٤٠ : ٥١ انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) وقال (٣٠ : ٤٥ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وهي نص في تعليل النصر بالايمان . ولكننا نرى كثيرا من الذين يدعون الايمان في هذه القرون الاخيرة غير منصورين ، فلا بد ان يكونوا في دعوى الايمان غير صادقين، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين، ولأهوائهم لا لله ناصرين ؛ وان الله لا يخلف وعده ، ولا يبطل سننه ، وانما ينصر المؤمن الصادق،وهو من يقصد نصر الله وإعلاء كلمته، ويتحرى الحق والعدل في حربه، لا الظالم الباغي على ذي الحق والعدل من خلقه. يدل على ذلك أول ما نزل في شرع القتال من سورة الحج (٢٢ : ٣٧ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا — الى قوله —

ولينصرنّ الله من ينصره ان الله لقوي عزيز) فأما الرسل الذين نصرهم الله تعالى ومن معهم فقد كانوا كلهم مظلومين ، وبالحق والعدل معتصمين، ولله ناصرين، وقد اشترط مثل ذلك في نصر سائر المؤمنين ، فقال في سورة القتال (٤٧ : ٨ يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) والايمان سبب حقيقي من أسباب النصر المعنوية يكون مرجحا بين من تساوت أسبابهم الاخرى ، فليس النصر به من خوارق العادات. وأما تأييد الله تعالى للرسل باهلاك أقوامهم المعاندين فهو أمر آخر وراء تأثير الايمان في الثبات والصبر، والاتكال على الله تعالى عند اشتداد البأس، وعروض أسباب اليأس ، ومن كان حظه من صفات الايمان ولوازمه أكبر، كان الى نيل النصر أقرب ، اذا كان مساويا لخصمه في سائر أسباب القتال ، ولا سيما حسن النظام وجودة السلاح ، وقد سبق لنا كلام في هذه المسألة في مواضع من التفسير وغيره (راجع كلمة « نصر » من فهارس أجزاء التفسير ومجلدات المنار)

﴿ وان كان كبر عليك إعراضهم فانِ استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ﴾ مما اقترحوه عليك من الآيات ليؤمنوا فافعل أو فأتهم بها. يقال كبر على فلان الامر أي عظم عنده وشق عليه وقعه . والاعراض التولي والانصراف عن الشيء رغبة عنه أو احتقارا له، وهو من ابداء المرء عرضه عند توليه عن الشيء واستدباره له ، واستطعت الشيء : صار في طوعك منقادا لك باستيفاء الاسباب التي تمكنك من فعله ، والابتغاء طلب ما في طلبه كلفة ومشقة أو تجاوز للمعتاد أو للاعتدال ، أو طلب غايات الامور وأعاليها ، لانه افتعال من البغي وهو تجاوز الحد في الطلب أو الحق. ويكون في الخير كابتغاء رضوان الله وهو غاية الكمال، وفي الشر كابتغاء الفتنة وهو غاية الضلال؛ والنفق السَّرَب في الارض، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج، كنافقاء اليربوع وهو جحره يجعل له منافذ يهرب من بعضها اذا دخل عليه من غيره ما يخافه ، والسلم المرقاة مشتق من السلامة،قال الزجاج لانه الذي يسلمك الى مصعدك. وتذكيره أفصح من تأنيثه وانما يؤنث بمعنى الآلة. وأتى بكان فعلا للشرط ليبقى الشرط على المضي ولا ينقلب مستقبلا كما قالوا، فان «إن» لا تقلب « كان » مستقبلا لقوة دلالته على المضي . والنحوي يأوّل مثل هذا التركيب

نحو: وان تبين وظهر أنه كبر عليك إعراضهم . وجواب الشرط محذوف للعلم به تقديره فافعل كما تقدم

تقدم في أوائل السورة انهم كانوا يقترحون الآيات على النبي (ص) وكأنه كان يتمنى لو آتاه الله بعض ماطلبوا حرصا على هدايتهم، وأسفا وحزنا على اصرارهم على غوايتهم، وتألما من كفرهم وأذيتهم. ولكن الله تعالى يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون، وان رأوا من الآيات ما يطلبون وفوق ما يطلبون، كما تقدم شرحه في تفسير أوائل السورة (راجع تفسير الآية السابعة وما بعدها) وقد أراد تعالى أن يؤكد لرسوله ما يجب من الصبر على تكذيب المشركين واذاهم الدال عليه ما قبله، وان يريح قلبه الرؤف الرحيم من اجابتهم الى ما اقترحوا من الآيات لما تقدم من حكمة ذلك فقال له : وان كان الحال والشأن انه كبر عليك إعراضهم عن الايمان وعن الآيات القرآنية والعقلية الدالة عليه - ومنها ما سبق في هذه السورة — وظننت ان إتيانهم بآية مما اقترحوا يدحض حجتهم، ويكشف شبهتهم، فيعتصمون بعروة الايمان، عن بينة ملزمة وبرهان، — فان استطعت ان تبتغي انفسك نفقا كائنا في الارض — أو معناه تطلبه في الارض — فتذهب في اعماقها، أو سلما في جوّ السماء ترقى عليه الى ما فوقها، فتأتيهم بآية مما اقترحوه عليك منهما، فأت بما يدخل في طوع قدرتك من ذلك، كتفجير ينبوع لهم من الارض، أو تنزيل كتاب تحمله لهم من السماء، فانهم طلبوا أحد النوعين، كما حكاه الله تعالى عنهم بقوله في سورة الاسراء (١٧: ٩٠ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا — الى قوله — أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) وقد أمره الله تعالى ان يجيب عن ذلك بقوله عقب هذا (قل سبحان ربي! هل كنت الا بشرا رسولا؟) أي وليس ذلك في قدرة البشر وان كان رسولا، لان الرسالة لا تخرج الرسول عن طور البشر في صفاتهم البشرية كالقدرة والاستطاعة، فهم لا يستطيعون إيجاد شيء مما يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه غير الخالق تعالى. والمراد من هذه الآية أنك لا تستطيع أيها الرسول الاتيان بشيء من تلك الآيات، ولا ابتغاء السبل اليها في الارض ولا في السماء، ولا اقتضت مشيئة ربك ان يؤتيك ذلك لعلمه بأنه لا يكون سببا لما تحب من

هدايتهم، ولان من سنته ان يترتب على الجحود بعده إنزال العذاب عليهم، (يراجع تفسير الآيتين السابعة والثامنة من هذه السورة)

﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ أي ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه بجعل الايمان ضروريا لهم كالملائكة، أو بخلقهم على استعداد واحد للخير والحق فقط، أو لا متفاوتي الاستعداد مختلفي الاختيار، باختلاف العلوم والافكار والاخلاق والعادات، كما اقتضته حكمته في خلق الناس، ولكنه شاء أن يخلق البشر على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت في الاستعداد، وما يترتب عليه من اختلاف أسباب الاختيار؛ — فاذا عرفت سنته هذه في خلق هذا النوع، وانه لا تبديل لخلق الله، فلا تكونن من القوم الجاهلين بسنن الله تعالى في خلقه، الذين يتمنون ما يرونه حسنا ونافعا، وإن كان حصوله ممتنعا، لكونه مخالفا لتلك السنن التي اقتضتها الحكمة الالهية . فالجهل هنا ضد العلم لا ضد الحلم ، وليس كل جهل بهذا المعنى عيبا ، لان المخلوق لا يحيط بكل شيء علما ، وانما يذم الانسان بجهل ما يجب عليه ، ثم بجهل ما ينبغي له و يعد كمالا في حقه ، اذا لم يكن معذورا في جهله . قال تعالى في الفقراء المتعففين (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) فوصف الجاهل هنا غير ذم ، وكان عدم علم خاتم الرسل بالكتابة من أركان آياته ، وعدم علمه بالشعر من أدلة الوحي و بيناته، وكل ما يتوقف علمه على الوحي الالهي لا يكون الجهل به من الرسول قبل نزوله عليه عيبا يذم به، اذ لا يذم الانسان الا بما يقصر في تحصيله وكسبه، وقد أمر الله تعالى رسوله بأن يسأله زيادة العلم، وكان يزيده كل يوم علما وكمالا بتنزيل القرآن و بفهمه ، و بغير ذلك من العلم والحكمة ، ولا يقتضي ذلك الذم قبل هذه الزيادة ، وانما الذي يذم مطلقا هو الجهل المرادف للسفه وهو ضد الحلم

ويشبه ما هنا قوله تعالى لنوح حين طلب نجاة ابنه الكافر بناء على انه من أهله الذين وعده الله بانجائهم معه (يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين) أي بادخال ولدك الكافر في عموم أهلك المؤمنين ، وانما اقترن النهي هنا بالوعظ لان عاطفة الرحمة

الوالدية حملته على سؤال ما ليس له به علم اعتمادًا على استنباط اجتهادي غير صحيح، ورحمة خاتم الرسل (ص) كانت أعم وأشمل، وغاية ما تشير اليه الآية انه تمنى ولكنه لم يسأل، ولو سأل لسأل آية يهتدي بها الضال من قومه، لا نجاة الكافر من أهله، فاكتفي في ارشاده بالنهي، واحتيج في ارشاد نوح الى التصريح بالوعظ

(٣٦) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٧) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

بين لنا تعالى في الآية السابقة انه لو شاء لجمع الناس على الهدى ولكنه لم يشأ ان يجعل البشر مفطورين على ذلك، ولا ان يلجئهم اليه إلجاء بالآيات القاسرة، بل اقتضت حكمته ومضت سنتـه في البشر بأن يكونوا متفاوتين في الاستعداد، عاملين بالاختيار، فمنهم من يختار الهدى على الضلال، ومنهم من يستحب العمى على الهدى، ثم بين لنا في هاتين الآيتين ان الاولين هم الذين ينظرون في الآيات، ويعقلون ما يسمعون من البينات، وأن الآخرين لا يسمعون ولا ينظرون حتى كأنهم من الاموات، فقال عز وجل

﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ يقال أجاب الدعوة اذا أتى ما دعي اليه من من قول أو عمل، وأجاب الداعي اذا لباه وقام بما دعاه اليه؛ ويقال استجاب له وهو في القرآن كثير، واستجاب دعاءه، وكذا استجابه، نعرف منه قول كعب ابن مرثد الغنوي في رثاء أخيه:

وداعٍ دعا يامن يجيب الى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب

قالوا ان الاستجابة بمعنى الاجابة ولذلك قال فلم يستجبه مجيب. وقال الراغب: والاستجابة قيل هي الاجابة، وحقيقتها هي التحري للجواب والتهيؤ له لكن عبر به عن الاجابة لقلة انفكاكها منها. اه وهذا من دقائق تحديده للمعاني رحمه الله تعالى، وحقيقة الجواب والاجابة كما يؤخذ من قوله — قطع الصوت أو الشخص الجوب أو

الجوبة وهي المسافة بين البيوت أو الحفرة ووصوله الى الداعي ، أي وصول ما سأله اليه بالفعل ، وأما الاستجابة فهي : التهيؤ للجواب أو للاجابة ، أي المستلزم للشروع والمضي فيها عند الامكان وغايته الاجابة التامة عند عدم المانع. فالسين والتاء على معناهما. ومن دقق النظر في استعمال الصيغتين في القرآن الحكيم يظهر له ان أفعال الاجابة كلها قد ذكرت في المواضع المفيدة لحصول المسؤل كله بالفعل حقيقة أو ادعاء دفعة واحدة. ومنه الاجابة بالقول مثل نعم ولبيك ولك ذلك. وان الاستجابة قد ذكرت في المواضع المفيدة لحصول السؤل بالقوة أو التهيؤ والاستعداد له ، ومنه قوله تعالى (الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح) فهو قد نزل في تهيؤ المؤمنين للقتال في حمراء الاسد بعد أحد — أو بالفعل التدريجي ، كاستجابة دعوة لدين التي تبدأ بالقبول والشهادتين ثم تكون سائر الاعمال بالتدريج ، وشواهده كثيرة ، ولاستجابة من الله القادر على كل شيء انما يعبر بها في الامور التي تقع في المستقبل ويكون الشأن فيها ان تقع بالتدريج كاستجابة الدعاء بالوقاية من النار ، و بالمغفرة وتكفير السيئات ، وإيتاء ما وعد به المؤمنون في الآخرة ، قال تعالى بعد حكاية هذا الدعاء عن أولي الالباب (٣ : ١٩٤ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم) الخ وكاستجابته للمؤمنين في بدر بامدادهم بالملائكة تثبتهم كما في سورة الانفال (٨ : ٩ - ١٢) ومن ذلك استجابته لأيوب وذي النون وزكريا عليهم السلام كما في سورة الانبياء (٢١ : ٨٢ - ٨٩) كل ذلك مما يقع بالتدريج في الاستقبال. وأما قوله تعالى لموسى وهارون حين دعوا على فرعون وملئه (١٠ : ٨٩ قد أجيبت دعوتكما) فهو تبشير لهما بأنه تعالى قد قبلها بالفعل ، وهذا من الاجابة القولية جاءت بصيغة الماضي للإيذان بتحقق مضمونها في المستقبل حتى كأنها أجيبت وانتهى أمرها. وهذا المعنى تؤديه مادة الاجابة دون مادة الاستجابة. ولو ذكرت هذه المسألة بصيغة الحكاية لعبر عن إعطائهما ما سألا بلفظ الاستجابة كما قال في شأن كل من أيوب وذي النون وزكريا (فاستجبنا له) فيالله العجب من هذه الدقة والبلاغة في هذا الكلام الالهي المعجز للبشر حتى في وضع مفرداته في مواضعها ، دع بلاغة أساليبه وجمله ، وعلومه وحكمه ، وما فيه من أخبار الغيب ، وغير ذلك من الآيات البينات . هذا

تحقيق معنى الاستجابة . وقيل ان الفرق بين الاجابة والاستجابة هو ان الاستجابة تدل على القبول ، ولا يعرف له أصل منقول ولا معقول .

والسمع والسماع يطلق بمعنى إدراك الصوت ، وبمعنى فهم ما يسمع من الكلام ، وهو ثمرة السماع ، وبمعنى قبول ما يفهم منه والاعتبار به والعمل بموجبه ، وهذه ثمرة الثمرة ، فهي المرتبة الكاملة العليا من مراتب السماع ، فمن سمع ولم يفهم ، كان كمن لم يسمع ، ومن فهم ولم يعمل ، كان كمن لم يفهم ، وهذا القول أقرب الى الحقيقة وأبعد عن قصد المبالغة من قول الشاعر :

خُلقوا وما خُلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رُزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رُزقوا

لان للخلق والرزق ثمرات وغايات غير المكارم وسماح اليد ، وأما سماع الكلام فلا فائدة له الا فهمه ، وفهمه لا فائدة له الا الانتفاع به ، ولاجل هذا أطلق القرآن على من لا يستفيدون من سماع الآيات والعلم النافع لفظ الصم ولفظ الموتى في عدة آيات منها قوله فيهما معا (٢٧ : ٨٢ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولو مدبرين) والآية التي نفسرها من هذا القبيل

فمعنى صدر الآية : انما يستجيب لك أيها الرسول — أو لله ولرسوله — الذين يسمعون كلام الله الداعي اليه بآياته سماع فهم وتدبر فيعقلون الآيات ويذعنون لما عرفوا بها من الحق ، لسلامة فطرتهم واستقلال عقولهم ، دون الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون كالمقلدين الجامدين ، ودون الذين قالوا سمعنا وعصينا من المستكبرين الجاحدين ، فكل أولئك من موتى القلوب والارواح ، الذين هم أبعد عن الانتفاع من موتى الجسوم والابدان

﴿ والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون ﴾ أي وموتى القلوب الذين لا يسمعون هذا السماع ، يخرجهم من قبورهم ويرسلهم الى موقف الحساب ، ثم ترجعهم الملائكة الى الله تعالى فينالون ما استحقوه من الجزاء . فأصل البعث في اللغة إثارة الشيء وتوجيهه كما قال الراغب ، يقال بعثت البعير أي أثرته من مبركه وسيرته الى المرعى ونحوه . و يُرجعون مبني للمفعول من الرجع ، ورجع جاء لازما ومتعديا ،

فالظاهر مما تقدم ان المراد بالموتى هنا الكفار الراسخون في الكفر، المطبوع على قلوبهم، الميؤوس من سماعهم سماع فهم واعتبار، يتبعه الاستجابة لداعي الايمان. أي والذين لا ترجى استجابتهم لانهم كالموتى لا يسمعون السماع النافع يترك أمرهم الى الله فهو يبعثهم بعد موتهم، ثم يرجعون اليه فيجازيهم على كفرهم وأعمالهم، ولا يضرك أيها الرسول كفرهم، وليس في استطاعتك هدايتهم، فالواجب عليك ان تفوض الى الله أمرهم. وقيل ان لفظ الموتى على حقيقته وان الكلام تمثيل وتعريض بالايماء الى عدم قدرة الرسول على هدايتهم كما إنه لا يقدر على إحياء الموتى. وهو بعيد وفيه مالا يخفى من التكلف

﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ أي وقال أولئك الظالمون لأنفسهم، الذين يجحدون بآيات ربهم، ويعاندون رسوله اليهم: هلا أنزل عليه — أي الرسول — آية من ربه، من الآيات المخالفة لسننه تعالى في خلقه، كما اقترحنا عليه، وجعلناه شرطا لإيمانا به؟ وقيل ان مرادهم آية ملجئة الى الايمان، والالجاء اضطرار لا اختيار، فلا يوجه اليه الطلب، ولا يعتد به ان حصل، ﴿ قل ان الله قادر على ان ينزل آية، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي قل أيها الرسول: ان الله تعالى قادر على تنزيل آية مما اقترحوا وإنما ينزلها اذا اقتضت حكمته تنزيلها، لا اذا تعلقت شهوتهم بتعجيز الرسول بطلبها؛ فان اجابة المعاندين الى الآيات المقترحة لم يكن في أمة من الامم سببا للهداية، وقد مضت سنته تعالى في الاقوام، بأن يعاقب المعجزين للرسل بذلك بعذاب الاستئصال، فتنزيل آية مقترحة لا يكون خيرا لهم بل هو شر لهم، ولكن أكثرهم لا يعلمون شيئا من حكم الله تعالى في أفعاله، ولا من سننه في خلقه، ولا انك أرسلت رحمة للعالمين، فلا يأتي على يديك سبب استئصال أمتك، باجابة المعاندين الى ما اقترحوا عليك لإظهار عجزك، ولا يعلمون أيضا أن اجابة اقتراح واحد يؤدي الى اقتراحات كثيرة لاحد لها، ولا فائدة منها. وقد يعلم أفراد منهم بعض ذلك علما ناقصا لا يهدي الى الاعتبار، ولا يصد صاحبه عن مثل هذا الاقتراح. ومن قال انهم اقترحوا آية ملجئة يقول: ولكن أكثرهم لا يعلمون

ان تنزيلها يزيل الاختيار الذي هو أساس التكليف فلا يبقى لدعوة الرسالة فائدة

قرأ ابن كثير (ينزل) بالتخفيف من الانزال ، والباقون بالتشديد من التنزيل، الدال بصيغته على التدريج أو التكثير ، وقال المفسرون ان معناهما ههنا واحد ، والذي نراه هو ان كل صيغة منهما على أصل معناها ، وأن الجمع بينهما لبيان ان بعضهم اقترح آية واحدة تنزل دفعة واحدة كنزول ملك من السماء عليهم أو عليه ، وهو المشار اليه بقراءة ابن كثير، وبعضهم اقترح عدة آيات منها ما لا يكون الا بالتدريج، وهي المشار اليها بقراءة الجمهور. ولا ينافي افراد الآية هنا طلب بعضهم لعدة آيات اذ المراد بها آية مما اقترحوا ، وقد صرح بلفظ الجمع في آية العنكبوت الواردة بمعنى هذه الآية وسيأتي نصها قريبا

هذا وان بعض الكفار، وبعض الشاكين والمشككين في الاسلام، يقولون لوأن محمدا (ص) أوتي آية بينة ومعجزة واضحة تدل على نبوته ورسالته لما طلب قومه الآية ؛ وان هذا الجواب بقدرة الله على تنزيل الآية ونفي العلم عن أكثرهم ، لا تقوم به الحجة عليهم ، المبطلة لحقية طلبهم . واليك الجواب عن هذه الشبهة :

ان الآية الكبرى لخاتم الرسل (ص) على نبوته هي القرآن، وانها لآية مشتملة على آيات كثيرة ، وقد احتج عليهم به وتحداهم بسورة من مثله فعجزوا ، واحتج عليهم أيضا ببعض ما اشتمل عليه من الآيات كأخبار الغيب . ومما نزل في ذلك قبل سورة الانعام فاكتفي فيها بالاحالة عليه قوله تعالى في سورة العنكبوت (٢٩: ٤٧ وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا الا الكافرون (٤٨) وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذا لارتاب المبطلون (٤٩) بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون (٥٠) وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين (٥١) أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟ ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فالقرآن في جملته آية علمية، وفي تفصيله آيات كثيرة عقلية وكونية، وهي دائمة لاتزول كما زالت الآيات الكونية كعصا موسى مثلا ، عامة لا تختص ببعض من كان في عصر الرسول كما كانت آية موسى

الكبرى خاصة بمن رآها في عصره، وهي أدل على الرسالة من الآيات الكونية، لان موضوع الرسالة علمي فهو علم موحى به غير مكتسب يقصد به هداية الخلق الى الحق، فظهور أعلى علوم الهداية على لسان أمي كان هو وقومه أبعد الناس عن كل علم بعبارة أعجزت ببلاغتها قومه كما أعجزت غيرهم، على انه لم يكن من قبل معدودا من بلغائهم، أدل على كون ذلك موحى به من الله عز وجل من عصا موسى على كون ما جاء به من التوراة موحى به منه تعالى، هي غير معجزة في نفسها وقد نشأ من جاء بها في دار ملك أرقى على سائر ممالك الارض بالعلوم والصنائع. فالآية العلمية القطعية لا يمكن المراء فيها كالمراء في الآية الكونية التي هي أمر غريب غير معتاد يشتبه بكثير من الامور النادرة التي لها أسباب خفية كالسحر وغيره، ولذلك اختلف علماء المعقول في دلالة المعجزة على النبوة هل هي عقلية أو عادية أو وضعية.

وقد جاء في الفصل الثالث عشر من سفر تثنية الاشتراع ان من أتى بآية أو أعجوبة من نبي أو حالم وأمر بعبادة غير الله تعالى لا يسمع له بل يجب قتله لانه تكلم بالزيغ. فالآيات الكونية اذاً لا تدل على صدق كل من تظهر على يديه، بل تختلف دلالتها باختلاف أحوال من تظهر على أيديهم، وبذلك يقول كثير من المتكلمين.

وأما طلبهم الآية أو الآيات، مع وجود هذه الآيات البينات، فسببه محاولة تعجيز الرسول، لا كونه هو الدليل الذي يرونه موصلا الى المدلول، وقد قال تعالى لرسوله في هذه السورة (٧ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) وقال في سورة القمر (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) وأكثرهم يقول مثل هذا في كل آية كونية عن اعتقاد، وأما قول بعضهم ان القرآن سحر يؤثر فقد كان عن تضليل وعناد. على أن الله تعالى قد أيد رسوله بآيات أخرى غير الآيات التي اقترحها الجاحدون المعاندون، ازداد بها المؤمنون إيمانا، والجاحدون عنادا وطغيانا. وقد سبق لنا بحث في هذه المسألة من قبل، وسيجيء ما يقتضي العودة اليها بعد

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لايسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعدذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بماشاء من الألقاب ان شاء. واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه. وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذرصحيح لاغفاله

هل البسملة آية من كل سورة أم لا

(س١٠) من صاحب الامضاء في العلاقمة (شرقية)

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية الله مباركة طيبة وسلامه عليكم. و بعد فلما دلني فضلكم وهداني الاطلاع على ماخط يراعكم الى ساحة يمكم الذي يغترف منه القاصي والداني سجال العلوم والمعارف فتروى به الظماى ويسترشد به المسترشدون — تلك مجلة المنار الغراء التي تتفجر ينابيع الحكمة من بين سطورها — بعثت اليكم رسالتي هذه أستفتيكم في مسألة متعلقة بالبسملة طال بين الائمة النزاع والمجادلة فيها، وتلك المسألة هي هل « بسم الله الرحمن الرحيم » آية من الفاتحة ومن كل سورة أم لا ؟ اختلفوا فيها فذهب كل فريق الى شق من شقي ذلك الاستفهام ونصب على ما يدعيه الدلائل، غير أنه بالاطلاع على شواهد كل يعلم أنها لا تنتج مدعاه. فلقد تركوا الامر مريجا وظل كل يعول على ترجيح مذهبه كائنا ما كان، غير مبال بسرد الاحاديث المتعارضة، ونقل الآثار المتناقضة، صحيحة كانت أم ضعيفة. قالوا انعقد الاجماع على أن البسملة آية من القرآن، ويروى ضمن أدلة فريق أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما « من ترك البسملة فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله عز وجل » مع تصريحهم بأنه لاخلاف في أن البسملة ليست آية من (براءة) حتى لقد نقلوا الاجماع على ذلك، فبين ماروي عن ابن عباس و بين ذلك التصريح التناقض الظاهر، إذ مقتضى قوله

مائة وأربع عشرة آية أنها آية حتى من (براءة) وفي الادلة من ذلك التناقض كثير لهذا لم يهتد طالب الحق اليه فبعثت اليكم عسى أن توافوني ببيان شاف وقول فصل تطمئن اليه النفس، كما هو المعهود فيكم لمثل هذا الموقف ، أمدكم الله بسديد الرأي ، وأعانكم على ما يرفع الاسلام وينفع المسلمين و يعزز الحق، إنه هو العزيز الحكيم ؟

احمد عطية قوره

(ج) في المسألة أدلة قطعية وأدلة ظنية ، والقاعدة في تعارض القطعي مع الظني أن يرجح القطعي اذا تعذر الجمع بينه و بين الظني، ولولا التعصب للمذاهب من قوم وللاسانيد من آخرين لأجمع المحدثون والفقهاء والمتكلمون على أن البسملة آية من كل سورة غير براءة(التوبة) كما أجمع الصحابة على كتابتها في المصاحف وكما أجمع القراء السبعة المتواترة قراءاتهم على قراءتها واقرائها عند البدء في كل سورة غير براءة — فهذان دليلان قطعيان أحدهما خطي متواتر والآخر قولي متواتر يؤيدهما كثير من أحاديث الاثبات الصحيحة،فوجب ارجاع ما ورد من أدلة النفي الظنية الى الاثبات والا فلا يعتد بها، وان صح سندها . ومنها ترك بعض القراء السبعة لتلاوتها فى السورة التى توصل بما قبلها.أما دعوى انها كتبت فى المصاحف للفصل بين السور فلوكانت صحيحة لكتبوها بين سورتي الانفال و براءة (التوبة) أيضا . ومن المعلوم بالقطع ان الصحابة ومن اهتدى بهديهم لم يكتبوا في المصاحف شيئا غير كلام الله تعالى . وأما حديث ابن عباس كان رسول الله (ص) لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم رواه أبو داود والحاكم وصححه على شرط الصحيحين والبزار بسندين رجال أحدهما رجال الصحيح — فهو حجة على ان البسملة كانت تنزل مع كل سورة، لانها آية كتبت للفصل بين السور بالاجتهاد ، وقد توفي صلى الله عليه وسلم ولم يامر بكتابتها في أول سورة براءة ، وعللوا ذلك بنزولها بنقض عهود المشركين و بالسيف .

وأما أحاديث الاثبات (فمنها) حديث «نزلت علي آنفا سورة —فقرأ— بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر» الخ رواه مسلم والنسائي عن أنس.(ومنها): سئل أنس كيف كانت قراءة رسول الله (ص) فقال كانت مدّا . ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم— يمد ببسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم. رواه البخاري. وفى معناه حديث أم سلمة عند أحمد وأبي داود والدارقطني وقد قرأت الفاتحة كلها بالبسملة. (ومنها) عدة أحاديث لأبي هريرة— قال نعيم المجمر: صليت وراء أبي هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ بام القرآن— الحديث وفيه — ويقول اذا سلم: والذي نفسي بيده اني لأشبهكم صلاة برسول الله (ص) رواه النسائي وصححه ابن خزيمة

وابن حبان والحاكم وقال على شرط البخاري ومسلم. وقال البيهقي صحيح الاسناد وله شواهد (ومنها) قوله عن النبي (ص) كان اذا قرأ وهو يؤم الناس افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم رواه الدارقطني وقال رجال اسناده كلهم ثقات، ولكن اختلف غيره في عبدالله بن عبدالله الاصبحي من رجاله. ومن الآثار في المسألة أن عليا كرم الله وجهه سئل عن السبع المثاني فقال: الحمد لله رب العالمين. أي سورة الحمد لله- الخ. فقيل له: انما هي ست، فقال بسم الله الرحمن الرحيم. رواه الدارقطني وقال رجال اسناده كلهم ثقات. ومنها انكار الصحابة على معاوية ترك الجهر بها رواه الشافعي عن انس والحاكم في المستدرك وقال على شرط مسلم قال: صلى معاوية بالناس بالمدينة صلاة جهر فلم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ولم يكبر في الخفض والرفع فلما فرغ ناداه المهاجرون والانصار: يامعاوية نقضت الصلاة، أين بسم الله الرحمن الرحيم واين التكبير اذا خفضت ورفعت؟ فكان اذا صلى بهم بعد ذلك قرأ بسم الله الرحمن الرحيم وكبر. ولعل المراد الجهر بذلك والا لأعاد الصلاة اذ لا يعذر مثله بجهل كون البسملة منها. ويحتمل ان يكون أعادها وان لم يذكر في هذه الرواية.

واما احاديث النفي فاقواها حديث أنس: صليت مع النبي (ص) وابي بكر وعمر وعثمان فلم اسمع احدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. رواه احمد والشيخان واصحاب السنن وله ألفاظ اخرى، ومنها: فكانوا لا يجهرون ببسم الله الرحمن الرحيم. رواه احمد والنسائي باسناد على شرط الصحيح وابن حبان والدارقطني. وفي رواية اخرى نفي السماع لا القراءة. وفي لفظ لابن خزيمة: كانوا يسرون الخ وقد اعل المثبتون حديث انس هذا بالاضطراب في متنه، وبما روي من اثبات الجهر بها عنه وعن غيره. وقال بعضهم انه كان نسي هذه المسألة فلم يجزم بها. قال ابو سلمة سالت انسا أكان رسول الله (ص) يستفتح بالحمد لله رب العالمين او ببسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال انك سالتني عن شيء ما احفظه وما سالني عنه احد قبلك. الحديث رواه الدارقطني وقال هذا اسناد صحيح

ومن أدلة النفي ماصح في الحديث القدسي من قسمة الصلاة بين العبد والرب نصفين وفسرها (ص) بقوله «فاذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله عز وجل حمدني عبدي» الخ الحديث رواه مسلم وأصحاب السنن الاربعة. والاستدلال بترك ذكر البسملة فيه على عدم كونها من الفاتحة ضعيف ولو صح لصح أن يستدل به على كون سائر الاذكار والاعمال ليست من الصلاة

والقول الجامع ان النبي (ص) كان يجهر بالبسملة تارة ويسر بها تارة. وقال ابن القيم ان الاسرار كان أكثر. وذهب القرطبي في الجمع بين الأحاديث الى ان سبب الاسرار بها قول المشركين الذين كانوا يسمعون القرآن منه: محمد يذكر إله اليمامة. يعنون مسيلمة الكذاب لانه سمي الرحمن أو أطلقوا عليه لفظ رحمن بالتنكير كقول مادحه * وأنت غيث الورى لازالت رحمانا * وكانوا يشاغبون النبي (ص) بانكار تسمية الله عزوجل بالرحمن كما

علم من سورة الفرقان وغيرها، فأمر (ص) بأن يخافت بالبسملة. قال الحكيم الترمذي فبقي الى يومنا هذا على ذكر الرسم وان زالت العلة. روى ذلك الطبراني في الكبير والأوسط، وذكره النيسابوري في التيسير من رواية ابن جبير عن ابن عباس، وقال في مجمع الزوائد ان رجاله موثقون

وصفوة القول ان أحاديث الاثبات أقوى دلالة من أحاديث النفي. وأولى بالتقديم عند التعارض واذا فرضنا أنها تعادلت وتساقطت أو رجح المنفي على المثبت خلافا للقاعدة جاء بعد ذلك إثباتها في المصحف الامام فى أول الفاتحة وأول كل سورة ماعدا براءة (التوبة) وهو قطعي ينهزم امامه كل ماخالفه من الظنيات وقد أجمع الصحابة على ان كل مافي المصحف فهو كلام الله تعالى اثبت كما نزل سواء قرئت الفاتحة في الصلاة بالبسملة جهرا أوسرا أم لم تقرأ، ولا عبرة بخلاف أحد بعد ذلك ولا برواية احد يزعم مخالفة أحد منهم لذلك. ولا حاجة مع هذا الى تتبع جميع ماورد من الروايات الضعيفة والاثار والآراء الخلافية، ومن ذلك اثر ابن عباس المذكور في السؤال. ولولا التطويل الممل بغير طائل لأوردنا كل ماورد في المسألة رواية ودراية.

﴿ تصحيح وتنقيح في مجلد هذا العام ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠١	٣	وكيلا	وليا
«	«	تاومرّني	تأمرونّي
٢٠٢	٢	ففتقه هما	ففتقناهما
«	١٨	الرسل	الرسول
٢٠٥	٥	كان ماضره	كان ضره
٢٠٧	١٤	تدعو	تدعوا
٢٠٨	١٢	على	عليه
«	١٣	بكل وصف	بكل ماوصف
٢٠٩	٢١	يا آبانا	يا أبانا
٣٣٦	٢٣	الصفة للموصوف	الموصوف للصفة
٢٣١	٢٥	في طريقة	في اطراده وطريقة
٣٣٧	٤	تعقلون	يعقلون
٣٣٨	١٨	(وهو	(وهي
٣٤١	٢٤	أحدا	أحد
٣٤٤	٧	أن	أنه
«	١١	مأخذ	مأخذه
٢٤٦	١٦	يقيمون	يقومون
٢٤٧	١٦	هو	ضعف
٢٤٨	١٣	صوت الامة	صوت الحق الذي كان له السلطان
«	١٤	التي	

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣٩	٧	ثالثة	ثانية
٢٥٢	٢٢	ومطيعا	مطيعا
»	٢٤	الناطفة	الناطقة
٢٥٣	٢٢	الضعية	الضعيفة
»	١٢	يدعوا	يدعو
٢٥٤	٢٢	عملية	علمية
٣٨٩	٧	الى الكذب	الى رواية الكذب
٣٩٢	٢	ان كانت	اذلم تكن
»	»	آية	أول ما نزل
»	»	والا	
»	٤	فهي	أوهي
»	٦	قد	وقد
»	٢٢	لاذى	لآذى
٣٩٩	١٣	المؤمنون	المؤمنين
»	١٤	عن	بذلك عن

ذكرى المولد النبوي

كتبنا رسالة في ذكرى المولد النبوي الشريف بينا فيها كيفية نشأة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام ومعنى اصطفاء الله تعالى له ولاهل بيته ولقومه ولأمته، وحكمة ظهوره في العرب الاميين دون شعوب المدنية في عهده، وخبر البعثة والدعوة الاسلامية. وسنجعل لها مقدمة نبين فيها ما ينبغي بيانه نطبعها معها على حدة — وهذا نص الذكرى —:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمد الشاكرين، أن بعثت فينا محمداً خاتم النبيين والمرسلين، وأرسلته رحمة عامة للعالمين، واختصصت بمنتك به الأميين وسائر المؤمنين، واستجبت به دعوة إبراهيم، وحققت به بشارة عيسى والنبيين (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم *— وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال

مُبِينٍ * هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ)

نحمَدُكَ اللّهمّ ونصلّي ونسلمْ على هذا النبيّ الامين، وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا الدين، ومَنْ تبعهمْ في هداهم وَهَدْيِهم الى يوم الدين

*

أما بَعدُ فإنَّ الاحتفالَ بذكرَى المولدِ النبويّ في شهرِ ربيعٍ الاول، عادةٌ أحدثها في القرن السابع الملكُ المظفّرُ أبوسعيدٍ صاحبُ إرْبَل، من البلاد التابعة الآنَ لولاية الموْصل، ثم انتشرَتْ هذه العادةُ في الأقطار، وقدْ بَذَّتْ مِصرُ بها جميعَ الامصار، والفائدةُ التي ينبغي أنْ تتوخّى (١) في هذا اليومِ الذي فضلَ الأيام، هي التّذكيرُ بخُلاصةِ تاريخِ النبيّ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام، ليتذكرَ المؤمنونَ مِنةَ اللهِ عليهمْ ببعثته، وتتغذّى أرواحهُم بزيادة الإيمان وكمال محبتهِ، ويَحرِصوا على إقامة دينهِ وإحياءِ سنّته. وَها نحنُ أولاءِ نُشنّفُ الاسماعَ بفرائدَ منْ نَسبهِ وَحَسبهِ (٢)، ومزايا قومه وعشيرته، وأخبارِ مولدهِ وتربيتهِ، وكيفيةِ معيشتهِ في نفسهِ، وزواجهِ وسيرتهِ مع أهلهِ، تمهيداً لبيانِ المقصدِ الأهمّ الأعظم، وهوَ نبأُ بعثتهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم، مُستمدّينَ ذلكَ من الكتابِ العزيزِ والسُّنّة الثابتة

(١) تتوخى تتعمد وتخص بالطلب والقصد (٢) الحسب ما يعد من مفاخر الآباء

عندَ المحدِّثين ، وما تمسُّ الحاجةُ اليهِ مما أثبتهُ ثِقاتُ المؤرِّخين، معرِضينَ عن الرِّواياتِ الموضوعات ، والواهياتِ والمنكراتِ ؛ التي عُنِيَ المكثيرونَ بنقلِها لما فيها من الخوارق والغرائبِ ، مبالغةً فيما أجازه العلماء من قَبُول الأخبارِ الضعيفةِ في المناقِب ، ولِما يُرْجى من حُسنِ تأثيرها في قُلُوب العوَام، معَ الغَفلةِ عمَّا يُخشى من ضدِّ ذلك في نابتةِ هذه الأيَّام ؛ على أنَّ لنا فيما لا يُحصَى منَ الفضائلِ والمناقبِ المشهورةِ والمتواترة، مايُغني عن جميعِ الرِّوايات الضعيفة والمُنكرة، وبذلك يُعرَفُ قدرُ الإصلاحِ العظيمِ ، الذي أرسلَ اللهُ به هذا النبيَّ الكريم ؛ عليهِ مِن الله أفضلُ الصلاةِ والتسليم

قومه ونسبه صلى الله عليه وسلم

(إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ على العَالَمِينَ) إذ جعلَ فيهمُ النُّبوَّةَ والهِدايةَ لِلمتقدِّمينَ والمتأخِّرين؛ ثمَّ اصطفى كِنانةَ من آل اسماعيلَ بنِ ابراهيم ، واصطفى قُرَيشاً من كِنانةَ ، واصطفى منْ قُرَيْشٍ بني هاشم، واصطفى سيّدَ ولَدِ آدمَ من بني هاشمٍ ؛ فكانَ آلُ اسماعيلَ افضلَ الاوَّلينَ والآخرين، كما كان بنو إسحاقَ أفضلَ المتوسِّطين ، اذ كانتْ هدايةُ الانبياء من بني اسحاقَ وغيرِهم خاصَّة ، وهدايةُ هذا النبيّ من آل اسماعيلَ عامَّة ، بهِ أكملَ اللهُ تعالى الدين، وأتمَّ نِعمتَهُ على العالمين ، كما اقتضتهُ سنَّتهُ تعالى فى النُّشوء والارتقاء، التي كانت في البشرِ أظهرَ منها في سائرِ الأحياء .

كيف كان اصطفاء الله تعالى لهذه الأصول من الأمة العربية ، الذي ثبت في صحيح مسلم وغيره من كتب السنة السنية ؟ وبماذا امتاز قوم خاتم الرسل الكرام ، ففضلوا به غيرهم من الأقوام، حتى استمدوا به لهذا الإصلاح الروحي المدني العام ، الذي اشتمل عليه دين الإسلام ، على ما طرأ عليهم من الأمية وعبادة الأصنام، وما أحدثت فيهم غلبة البداوة من التفرق والانقسام ؟

الجواب — :

كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر وسعة الحرية الشخصية، أيام كانت الأمم ترسف [1] في عبودية الرياستين الدينية والدنيوية، محظوراً عليها أن تفهم غير ما يلقنها الكهنة ورجال الدين من الأحكام الدينية، وأن تخالفهم في مسألة عقلية أو كونية أو أدبية ،كما حظرت عليها حرية التصرفات المدنية والمالية

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الاعمال ، أيام كانت الامم مذللة مسخرة للملوك والنبلاء المالكين للرقاب والأموال ، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم ، ويصرفونها كما يصرفون السوائم [2] لا رأي لها معهم في سلم ولا حرب، ولا إرادة لها في عمل ولا كسب

كانت العرب ممتازة بعزة النفس ، وشدة البأس ، وقوة الأبدان ، وجراءة الجنان ، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء

---

(١) ترسف تمشي مشية المقيد — يشبه تصرفها في استعباد الرؤساء لها بمشي الاسير في قيوده (٢) السوائم المواشي الراعية

أفسدهم الإسراف في الترف، ومرؤوسين أضعفهم البؤس والشظف[1] وسادة أبطرهم بغي الاستبداد، ومسودين أذلهم قهر الاستعباد

كانت العرب أقرب إلى فضيلة المساواة بين الأفراد، من غير شرائع تحترم بالاعتقاد، ولا قوانين تكفلها قوة الأجناد. أيام كانت الأمم تنقسم إلى طبقات، يرتفع بعضها على بعض عدة درجات، لا بفضائل ذاتية، من علمية أو عملية، بل بحكم وراثة الخلف الطالحين[2] للسلف المستكبرين، باستبداد الملك أو تقاليد الدين

كانت العرب ممتازة بالذكاء واللوذعية، وكثير من الفضائل الموروثة والكسبية. كقرى الضيوف، وإغاثة الملهوف، والنجدة والإباء،[3] وعلو الهمة والسخاء، والرحمة والإيثار[4] وحماية اللاجيء وحرمة الجار. أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والآنانية[5] والآنين من ثقل الضرائب والآتاوى[6] الأميرية، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية، وفساد الأخلاق قد عم الراعي والرعية

(١) الشظف بفتحتين ضيق المعيشة

(٢) الخلف بسكون اللام الذين يخلفون غيرهم في الشر. و الطالحون بالطاء الفاسدين فهو ضد الصالحين

(٣) النجدة مضاء عزم يبعث على المضي فيما يعجز عنه غيره. والاباء الترفع عن الخسائس

(٤) الايثار تقديمك غيرك على نفسك بما تحتاج اليه مما تملك

(٥) تقديم نفسك على غيرك ولو بما هو أولى به منك فهي ضد الايثار، والانانية المبالغة في حب النفس الحامل على الأثرة، وهو نسبة الى كلمة «أنا»

(٦) الضرائب جمع ضريبة وهي ما يضرب على العبيد ونحوهم من المال يؤدونه أقساطا، ومنها الجزية، وضريبة الارض الخراج. والاتاوى جمع إتاوة وهي الرشوة، وتطلق على الخراج ونحوه

كانت العربُ قد بلغت أوجَ الكمال ، في فصاحةِ اللسان وبلاغةِ المقال ، وكادت تتحدُ لغاتُ قبائلها أولهجاتُها العربية، وتسودُ المُضَرية منها على الحِميرية، بما كان لقُرَيش وغيرها منَ الرحلاتِ التجارية ، والأسواق الأدبيَّة ؛ فاستعدَّت بذلكَ لِلوحدةِ القومية ، وللتأثرِ والتأثير بالبراهين العقلية، والمعاني الخطابية والشعرية ، ـ وللتعبير عن جميع العلوم الالهيةِ والشرعيةِ ، والفنونِ العقلية والكونيَّة. أيامَ كانت الأمم تنفصمُ عرَى وَحدتها بالتعصبات الدينيَّةِ والمذهبيَّة ، وتتفرَّقُ وشائجها[1] بالعداوات الجنسيةِ، وَتتمزَّقُ دُوَلها بالحروب الأجنبيَّة والأهلية.

فتلكَ أمهاتُ مزايا الامة العربية، التي أعدَّها اللهُ تعالى بها للبعثة المحمديَّة ، والسيادة الدينيَّة والمدنيَّة ، بعدَ أن طال العهدُ على مدَنيَّتهم العاديَّة ، واستعمارِهم للبِلادِ الكلدانيَّةِ البابليَّةِ ، والبلادِ الفينيقيَّةِ (السورية) والمِصريَّة ، التي تشهدُ لها سيادةُ لغتِهم لِلُّغاتِ الساميَّة ، وبقاياها في اللغة الهيروغليفيَّة [2] ، وبعدَ أن غلبَتْ عليهمُ الأُميَّة ، وخرَافاتُ الوثنية ، وعَصبيَّةُ الجاهلية

وجملةُ مزاياهم أنهم كانوا أسلمَ الناسَ فطرَة، على كونِ أُممِ الحضارةِ كانت أرقى منهم في كلِّ فنٍّ وصِناعة . والاصلاحُ الاسلاميُّ مبنيٌّ على

---

(١) الوشيج والوشيجة اشتباك القرابة وتداخل بعضها في بعض وأصله شجر الرماح ونحوه مما يشتبك (٢) أقدم مدنية وحضارة عرفها التاريخ مدنية الكلدانيين والبابليين في العراق والمصريين في مصر والفينيقيين في سورية وقد ثبت لدى بعض علماء العاديات (الآثار القديمة) ان أهلها من بلاد العرب

تقديم إصلاح الانفسِ باستقلالِ العقلِ والارادةِ وتهذيب الأخلاق، على إصلاح مافي الارض من مَعدَنٍ ونباتٍ وحيوان، أي أَن الله تعالى كان يُعِدُّ هذه الامةَ لهذا الإصلاحِ العظيم، الذي جاء به محمد عليه من الله أفضلُ الصلاةِ والتسليم

اصطفاء كنانةَ وقريشٍ وبني هاشم

أما اصطفاء ألله لـكِنانةَ الشيخِ الجليل، من سُلالةَ نبيِّهِ ألذَّبيحِ إسماعيل، فيفسِّرُهُ ما كانت تحفظهُ العربُ من أخبارِ كرَمه ونُبلِهِ، ومنها انه كان على سُنَّة جدِّهِ إبراهيمَ الخليلِ لايأكلُ وَحدَه. وقدنقلَ الحافظ في شرح البخاريّ أنهم كانوا يحُجُّونَ اليه لِعلمهِ وفضله . ومما يُؤثَرُ عنهُ من ألحِكَمِ ألجليلة ، كما رُويَ في السيرة الحلبية : رُبَّ صُورةٍ تُخالفُ ألمَخبَرةِ ، قَدْ غرَّت بجمالِهَا ، وَأختُبرَ قُبحُ فِعَالِهَا ، فأحذرِ ألصُّوَرْ ، وَأطلُبِ ألخَبَر. فهذا دليل على ما وُصِفَ بِهِ من العلمِ والحِكمة، وأما حجُّ العرب اليهِ فهو دليلٌ على أنهُ كان مثابةَ التعارُف ، ومَعقِدَ رابطةِ ألاجتماع والتآلُف .

*

وأما اصطفاء ألله تعالى لقريشٍ الميامين الغرّ، وهم ذرّيةُ فِهرِ بن مالكٍ وقيلَ جدِّه النَّضر. فقد كان بما آتاهمُ اللهُ من المناقبِ العظام، ولا سيما بعد سكنى مكةَ وخدمةِ المسجدِ الحرام، إذ كانوا أصرحَ وَلدِ اسماعيلَ أنسابا، وأشرَفَهم أحسابا وأعلاهم آدابا، وأفصحَهم ألسنةً ، وهم المهدُون لجمع الـكلِمَة . — فقد نقل أهلُ السِّيَر، أنَّ مالِكَ بنَ النَّضر

كان ملكَ العرَب، وأنّ كعبَ بنَ لُؤَيٍّ كان يجمعُ قومَهُ وَيَعِظُهم يوم الجمعة، وكانوا يُسمُّونهُ يومَ العَرُوبة، وأنهم كانوا يُجلُّونهُ في حياته، ثمّ انهم أرّخوا بموته، وأنّ قُصَيًّا هو الذي جمعَ شَمْلَ قبائلِ قريشٍ بمكة، إذ كان هو الوارثَ لمن كانوا يتَوَلَّوْنَه من خُزَاعة [1] وقد تملك عليهم فملّكوه، إلا أنهُ قد أقرّ لِلعَرَب ما كانوا عليه. وذلك أنهُ كان يَرَاهُ دِينًا في نفسه، لا يَنبغي له تغييرُه ولا لغيره من بعده (قال ابن اسحق) وهو الذي أنشأ النَّدْوَة، وجعل بابها الى الكعبة، وقد أجمعتْ قريشْ على طاعته وحبه، فكانت اليه الحِجابةُ وَالسِّقايةُ وَالرِّفادةُ وَالنَّدْوَةُ واللّواء، ثم وُزّعتِ المناصبُ بعده على الزُّعماء [2]

(١) قد كان ذلك بتزوجه لحبَّى بنتِ حليل الذي كان آخر من ولي منهم. قال ابن اسحق: فلما انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل، فرأى قصي انه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة و بني بكر. وان قريشا قرعة اسماعيل ابن ابراهيم وصريح ولده، ثم قال بعد بيان ما كان في ذلك من أمره. فولي قصي البيت وأمر مكة. الخ

(٢) كان لقريش من المناصب غير تلك الخمسة. الاشناق والعمارة والسفارة والأعنة والقبة، والأموال المحجرة للمعبودات كالاصنام، والايسار الذي منه الاستقسام بالأزلام، الذي يرجح به بين الاقدام والاحجام. وقد عابهم عليها الاسلام: (فالحجابة) هي السدانة أي خدمة المسجد الحرام. (والسقاية) توزيع الماء المحلى والقراح على جميع الحجاج. (والرفادة) إسعاف الفقراء والمساكين. ولا سيما الحجاج المنقطعين. (والندوة) الشورى لاجالة الرأي في الامور العظام. التي اجتمعوا فيها بعد البعثة للائتمار بالنبي عليه الصلاة والسلام. (واللواء) راية قريش وكانت تسمى العقاب، (والاشناق) تحمل الديات والمغارم. لمنع انتشار التعادي والتخاصم. (والعمارة) حفظ بناء المسجد الحرام قيل وحفظه من اللغط وهجر الكلام (والسفارة) المراسلة بين فريقين في شأن من الشؤون العامة، كالقتال أو المفاخرة. (والاعنة) قيادة الفرسان في أيام الطعان أو الرهان، (والقبة) الخيمة الرسمية التي تنصب وقت الحرب. ويجتمع فيها ما يجهز به الجيش

وأفضلُ من ذلك كله ما وُفِّقوا له في حداثة الرّسول. من التّحالُف الذي عُرِفَ بحِلفِ الفضُول، إذ تعاقدُوا وتعاهدُوا أن لايجِدُوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معهُ، وكانوا عوْناً لهُ على من ظلمهُ، الى إن تُردّ مظلمتهُ. وفي حديث الزُّبير بن العوّام عند الطبراني، ومثلهُ حديثُ أمّ هانئ في معجمه الأوسط كتاريخ البخاري، «فضّل اللهُ قُريشاً بسبع خِصال: فضّلهُم بأنهم عبَدُوا الله عشر سنين لا يَعبدُ اللهَ الا قرَشي (١) وفضلهم بأنه نصرَهُم يومَ الفِيل وهم مشركون. وفضلهم بأنه نزل فيهم سورةً من القرآن لم يدخلْ فيها أحد من العالمين — وهي لإيلافِ قُرَيش — وفضلهم بأن فيهمُ النبوةَ والخِلافةَ، والحِجابة والسقاية»

كان ذلك كلّهُ من ارتقاء قريشٍ واستعدادِ العرب للاسلام، ولكنَّ هذه القوى المعنويّة كلّها وُجّهت لمعاداته عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلام

*

وأما اصطفاء الله تعالى لِبني هاشمٍ، فقدكان بما امتازوا بهِ من الفضائلِ والمكارمِ، فقد روى أبو نُعيم مِن حديث المستَوْرِد الفهري رضي الله عنهُ «إنّ فيهم لَخِصالاً أربعاً: إنهم أصلَحُ الناسِ عندَ فِتنة، وأسرعُهم إقامةً بعد مُصيبة. وأوْشكُهُم كرّةً بعد فرّة، وخيرُهم لمسكين ويتيم، وأمنعُهم من ظلمِ الملوك». وكان جدّهم هاشمٌ صاحبَ إيلافِ

(١) أي لايعبده و يوحده أحد الا أناس منهم إذ كانوا على ملة ابراهيم وكانت الوثنية قد شملت العرب كلهم كما شملت غيرهم

قُرَيش ، الذي أخذَ لهمُ العهدَ من قيصر الروم على حمايتهم في رحلةِ الصَّيف ، ورُويَ أنهُ هو الذي سَنَّ الرِّحلتينِ ، وأخذ العهودَ بها من الحكومتين ، حكومةِ اليمن العربية ، وحكومة الشام الرُّومية ، فاتَّسعتْ بهما معيشةُ قريش ، وأمنوا في تجارتهم من كل خَوْف ، وقد امتنَّ الله عليهم بذلك في القرآن ، بما عُدَّتْ بهِ التجارةُ من أشرفِ أعمالِ الإنسان ، وإنما أُطلِقَ لقب هاشمٍ على عمرِو بنِ عبدِ مَناف ، لأنهُ أوّلُ من هشَمَ الثريدَ للمُسنِتينَ العِجاف[1] ، وكانَ يُشبعُ منهُ كلَّ عامٍ أهلَ المَوْسِم كافةً ، كما أشبعَ منهُ قومَهُ في سنةِ القَحطِ والمَجاعة ، على أن مائدتهُ كانت مَنصوبةً لا تُرْفعُ في السَّرّاء ولا في الضَّرَّاءِ ، وزادَ عليهِ ولدُه عبدُ المطَّلبِ فكانَ يُطعمُ الوحشَ وطيرَ السماء ، وكان أوّلَ من تحنثَ بغارِ حراء ، ورُويَ أنهُ حرّمَ الخمرَ على نفسهِ ، وجعلَ ماءَ زَمزمَ للشُّرب فحرّمَ أن يُغتسلَ به ،

فجملةُ ما امتازَ بهِ آلهُ صلى الله عليهِ وسلم على سائرِ قومهِ الأَخلاقُ العليَّة ، والفواضِلُ والفضائِلُ النَّفسيَّة ، وكانوا أبعدَ من سائر قريش عن الكبرِ والأَثَرة والامور الحربية ، ولذلكَ غُلِبوا على الرِّياسَةِ حتى بَعدَ الإسلام ، وحِكمةُ ذلك ظاهرَةٌ لِأُولي الأَحلام ، فهو أنفى للشُّبهَ عن رسالتهِ عليهِ أفضلُ الصلاة والسلام

(١) المسنتون اسم فاعل من أسنت القوم أصابتهم السنة والقحط والعجاف جمع أعجف وعجفاء وهم الذين ضعفوا وهزلت أبدانهم ، العبارة مؤخوذة من قول ابن الزبعرى في مدح هاشم :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

سرد نسبه صلى الله عليه وسلم

بعد هذا التذكير بمناقب قومه ، والتفسير لاصطفاء الله تعالى لقبيله وآل بيته ، نشنف الأسماع بنسبه المحفوظ بالتفصيل، المتواتر اتصاله بنبي الله إسماعيل ، فنقول : هو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب واسمه شيبة الحمد، ابن هاشم واسمه الذي سماه به أبوه عمرو . ابن عبد مناف واسمه المغيرة ، ابن قصي ولقب بمجمع إذ جمع قريشاً في تلك الحظيرة ابن حكيم الذي لقب بكلاب والكلاب مصدر كالمكالبة، ومعناه المجاهرة بالعداوة والمناصبة، ابن مرة والمراد به الجلد القوي . ابن كعب وهو منقول من كعب الرمح الرديني ، بن لؤي ، وهو تصغير لواء أو لأى أو لأي [1] ابن غالب بن فهر ومعناه الحجر الصغير [2] وهو قريش على المعتمد عند الجماهير ، ابن مالك بن النضر واسمه قيس ، والنضر هو الحسن المشرق الوجه، ابن كنانة ومعناه وعاء السهام من الجلد ، ابن خزيمة وهو تصغير اسم المرة من الخزم [3] ، ابن مدركة واسمه عامر أو عمرو ، ابن إلياس وهو مخفف اليأس ، ابن مضر وهو معدول عن ماضر ، ومعناه اللبن الأبيض أو الحامض الخاثر ، ابن نزار من النزر

(١) اللواء معروف واللأى الثور الوحشي ويكنى به عن حسن العينين. واللأي البطء
(٢) الفهر الحجر الذي يؤخذ باليد عادة ويدق به الشيء وقيل مطلقا
(٣) الخزم نظم اللآلئ في السلك

وَمَعْنَاهُ الْقَلِيلُ ، وَلَعَلَّهُ سُمِّيَ بِهِ تَفَاؤُلاً بِقِلَّةِ وُجُودِ مِثْلِهِ فِي ذَلِكَ الْجِيلِ ، ابْنِ مَعَدٍّ وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمَعْدِ ، وَهُوَ الْجَذْبُ السَّرِيعُ وَالذَّهَابُ فِي الْأَرْضِ ، وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ وَفِي نَصِيحَةِ عُمَرَ لِلْجَيْشِ ، « تَمَعْدَدُوا » أَيْ تَشَبَّهُوا بِمَعَدٍّ فِي خُشُونَةِ الْعَيْشِ ، ابْنِ عَدْنَانَ ، وَهُوَ مِنْ عَدَنَ بِمَعْنَى أَقَامَ فِي الْمَكَانِ

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ « كَانَ عَدْنَانُ وَمَعَدٌّ وَرَبِيعَةُ وَمُضَرُ وَخُزَيْمَةُ وَأَسَدٌ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلَا تَذْكُرُوهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ »(١) وَرَوَى الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ مَرْفُوعاً « لَا تَسُبُّوا مُضَرَ وَلَا رَبِيعَةَ فَإِنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ »(٢) فَهَذَا مَا كَانَ يَسْرُدُهُ الرَّسُولُ مِنْ نَسَبِهِ كَالدُّرِّ النَّظِيمِ ، وَهُوَ وَاسِطَةُ عِقْدِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ،

نَسَبٌ تَحْسَبُ الْعُلَا بِحُلَاهُ ... قَلَّدَتْهَا نُجُومَهَا الْجَوْزَاءُ
حَبَّذَا عِقْدُ سُؤْدَدٍ وَفَخَارٍ ... أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ الْعَصْمَاءُ

زواج عبد الله بآمنة والحمل بالنبي وولادته صلى الله عليه وسلم

انْحَصَرَ نَسْلُ هَاشِمٍ فِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَاهُ ، وَوُلِدَ

(١) عزاه الحافظ في فتح الباري الى تخريج أبي جعفر بن حبيب في تاريخه المحبر . قوله وربيعة ومضر أي ابن نزار بن معد ، قوله وأسد هو ابن خزيمة

(٢) قال الحافظ وله شاهد عند ابن حبيب من مرسل سعيد ابن المسيب ، أي ومراسيله أصح المراسيل

لعبد المطلب أبو طالب والعباس وحمزة وعبد الله . وقد زوج عبد الله آمنة ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة، وزهرة أخو جده قصي ابن حكيم بن مرة ، وقد بنى عليها في بيت أهلها وأقام معها فيه ثلاثة أيام، فلم تلبث أن حملت بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولم تجد في حمله ثقلا ولا وحما كما هو شأن المحصنات الصحيحات الأجسام ، وقد روى الحاكم وصححه البيهقي في مراسيل خالد بن معدان، أن الصحابة سألوه صلى الله عليه وسلم عن هذا الشأن، فقالوا يارسول الله خبرنا عن نفسك ، وفي حديث أبي أمامة عند ابن سعد وأحمد وغيرهما : ما كان بدء أمرك ؟ فقال « دعوة أبي إبراهيم [1] ، وبشرى عيسى. ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له بصرى من أرض الشام » وقد ثبت أن هذه رؤيا كانت في المنام ، ولكنها رؤيا صادقة لا أضغاث أحلام ، وصحح ابن حبان أن ذلك النور تمثل لعينيها حين أخذها المخاض فوضعته عليه أفضل الصلاة والسلام

تاريخ ولادته وخبر رضاعته وحضانته

صلى الله عليه وسلم

ولد صلى الله عليه وسلم سوي الخلق ، جميل الصورة صحيح الجسم ، وكانت ولادته في عام الفيل ، في الليلة الثانية عشرة أو

(١) أي أنا مصداق دعوته التي حكاها الله عنه في قوله (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية — ومصداق بشرى عيسى برسول يأتي من بعده

التَّاسعةِ من شهر ربيع الأول الموافقة للعشرين من شهر إبريل، وكان ذلك العام، هو الحادي والسبعين بعد الخمس مئة من مولد المسيح عليهما الصلاة والسلام، وقد توفي والده وهو حمل، فكفله جده شيبة الحمد، فأرضعته أمه ثلاثة أيام، وكذا ثويبة مولاة أبي لهب عدة أيام، وكانت نساء قريش لا يرضعن الأولاد فعهد جده بإرضاعه إلى حليمة السعدية، وجعله في قبيلتها بالبادية لينشأ في العيشة الخلوية، ثم ردته حليمة إلى أمه بعد أربع سنين، فحضنته إلى أن توفيت وله ست سنين، فأصبح ﷺ يتيم الأبوين، فكفله بعدها جده عبد المطلب سنتين، ثم توفي بعد أن أوصى به أبا طالب عمه، فحاطه بعنايته كما يحوط ولده وأهله، إلا أنه كان لفقره يعيش عيشة القشف، فلم يتعود صلى الله عليه وسلم نعيم الترف، وذلك من عنايته تعالى بتربية هذا المصلح العظيم، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم

معيشته في الحداثة وكسبه وزواجه
صلى الله عليه وسلم

وُلِدَ صلى الله عليه وسلم يتيماً، ونشأ في قومه فقيرًا، ومات والده في سن الشباب، لم يترك له مالا إلا خمسة جمال وبضع نعاج، وكان قد ألف رعي الغنم مع إخوته في الرضاع، فصار يرعى لأهل

مكَّة ، فيُوَفِّرُ على كافله أبي طالب بما يأخذ على ذلك من الأجرة ، ثم سافر مع عمه أبي طالب في تجارته إلى الشام ، وله من العمر اثنتا عشرة سنة وشهران وعشرة أيام ، وهنالك رآه بحيرا الراهب ، وبشر به عمه أبا طالب ، وحذره من اليهود عليه ، بعد أن رأى خاتم النبوة بين كتفيه ، ثم إنه سافر إلى الشام مرة ثانية ، متجرا بمال خديجة تجارة المضاربة ، فأعطته أفضل ما كانت تعطي غيره إذ جاءت تلك التجارة بأرباح مضاعفة ، بل جاءت بسعادة الدنيا والآخرة

كانت خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصي ، أعقل وأكمل امرأة في قريش ، حتى كانت تدعى في الجاهلية [الطاهرة] ، لما لها من الصيانة والفضائل الظاهرة ، ولما حدثها غلامها ميسرة بما رأى منه عليه الصلاة والسلام ، في رحلته معه إلى الشام ، من الأخلاق العالية ، والفضائل السامية ، وما قاله بحيرا الراهب ، لعمه أبي طالب ، تعلقت رغبتها بأن تتخذه بعلا ، بل ترقت أفكارها إلى ما هو أعلى (*)

(*) روى الفاكهي في كتاب مكة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عند أبي طالب فاستأذنه أن يتوجه الى خديجة ، فأذن له و بعث بعده جارية يقال لها نبعة ، فقال انظري ما تقول له خديجة ، قالت نبعة فرأيت عجبا : ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت الى الباب فاخذت بيده فضمتها الى صدرها ونحرها ، ثم قالت بأبي أنت وأمي والله ما أفعل هذا الشيء ، ولكني أرجو لن تكون أنت النبي الذي ستبعث ، فان تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي وادع الإله الذي يبعثك لي ، =

فَتَمَّ ذٰلِكَ الزَّوَاجُ الْمَيْمُون ، وَكَانَ هو ابْنَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَهِيَ ابْنَةُ أَرْبَعِين، وَتُوُفِّيَتْ بَعْدَ الْبِعْثَة بِعَشْرِ سِنِين، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ صلى الله عليه وسلم عليها ، وَلا أَحَبَّ أَحَدًا مِثْلَهَا ، وَكَانَ طُولَ عُمُرِه يَذْكُرُهَا، حَتَّى كانت عَائِشَةُ تَغَارُ مِنْهَا وَلَمْ تَرَهَا ، قَالَتْ مِنْ حَدِيثٍ لَهَا : فَذَكَرَهَا يَوْمًا مِنَ الْأَيَّام، فَأَخَذَتْنِي الْغَيْرَةُ فَقُلْتُ لَهُ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلام : هَلْ كَانَتْ إِلَّا عَجُوزًا قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا ؟ فَغَضِبَ ثُمَّ قَالَ « لَا وَاللهِ مَا أَبْدَلَنِي خَيْرًا مِنْهَا ، آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ النَّاس ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاس ، وَوَاسَتْنِي فِي مَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاس ، وَرَزَقَنِي اللهُ مِنْهَا الْوَلَدَ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاء » (١) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهَا « إِنَّهَا

= قالت فقال لها « والله لئن كنت أناهو قد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبدا ، وان يكن غيري فان الاله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا » ويؤيد هذا ماورد في كيفية بدء الوحي في الصحيح، ان خديجة قالت له حين خاف على نفسه عاقبة ما أصابه من الجهد، عند ما ظهر له الملك ، « كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » وكذا ماثبت من أنها كانت تعد له الزاد ، لينقطع الى التحنث فى غارحراء، وروى الواقدي بسنده الى نفيسة بنت أمية أخت يعلى قالت: كانت خديجة امرأة شريفة جلدة كثيرة المال ، ولما تأيمت كان كل شريف من قريش يتمنى ان يتزوجها ، فلما سافر النبي (ص) في تجارتها ورجع بربح وافر رغبت فيه ، فأرسلتني دسيسا اليه ، فقلت له ما يمنعك ان تتزوج ؟ فقال « مافي يدي شيء » فقلت فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ قال « ومن ؟ قالت : خديجة ، فأجاب

(١) وفي رواية اذ حرمني أولاد النساء. رواه ابن عبد البر في الاستيعاب وكذا الدولابي في الذرية الطاهرة من طريق وائل بن داود وقد وثقه احمد — عن عبدالله البهي — وهو مقبول — عنها. قالت عائشة فقلت في نفسي: لاأذكرها بسيئة أبدا

ما غارت على امرأة كما غارت على خديجة وهي لم ترها، وعللت ذلك بكثرة ذكره إياها . قالت : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذبح الشاة يقول « أرسلوا إلى أصدقاء خديجة » فأغضبته يوماً وقلت خديجة ! فقال « إني قد رزقت حبها » وفي رواية عزاها الحافظ في الإصابة إلى الصحيح انه قال « إني لأحب حبيبها » (١) – فهذا هو الوفاء الكامل اللائق بذلك النبي الكريم ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم (له بقية)

مدرسة

دار الدعوة والإرشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١٦

الالتهاب الرئوي الباسيلي

ذكرنا فيما سبق ان من الميكروبات التي تحدث التهاب الرئة باسيلا اكتشفه [فردلندر Friedländer] وهذا النوع من الالتهاب شديد جدا خطر على الحياة ، ويشاهد ميكروبه كثيرا في حويصلات الرئة ، وقد تتقيح منه أو تصاب بالغنغرينة (الموت)

(١) كذا في الاصابة . ورواية الاستيعاب عنها : وان كان ليذبح الشاة فيتتبع بذلك صدائق خديجة يهديها لهن . والصدائق جمع صديقة

الدوسنطاريا Dysentery

كلمة يونانية وضعها أبقراط ثم عربت ومعناها [مرض الامعاء] ويسمى بالعربية الخالصة (الزحار) لانه يحدث الزحير

وهذا الداء عبارة عن التهاب الامعاء الغليظة أو القولون ، وهو نوعان : —

(الاول) يحدث في جميع بقاع الارض خصوصا في زمن الحرب أو القحط وينشأ من باسيل مخصوص ، وهو النوع المراد بالكلام هنا

و (الثاني) كثير الحصول في بلاد الشرق ، ويمتاز بطول مدته وبتضاعفه بخراج الكبد وبكونه ينشأ من نوع من الاميبا (خلية حيوانية وليست نباتية كميكروب النوع الاول) . وهذا النوع سنتكلم عليه ان شاء الله في باب الامراض التي تنشأ عن الميكروبات الحيوانية

الدوسنطاريا الباسيلية

تنشأ — كما قلنا — من باسيل اكتشفه [شيغا Shiga] في بلاد اليابان سنة ١٨٩٧ و بعد ذلك وجد مثله [كروس Kruse] في ألمانية، ولذلك يسمى بميكروب [ميكروب شيغا كروس] ثم وجد غيرهما أنواعا أخرى من باسيل الدوسنطاريا مثل [فلكسنر] و [سترنج]

هذا الباسيل عديم الحركة ولا حبيبات له ، والحرارة التي درجتها ٥٨ — ٦٠ سنتيغراد تقتله سريعا وكذلك المطهرات ويعيش في الهواء وفي غيره . ويقتصر وجوده في المرض على أغشية الامعاء المخاطية ولا يصل الى الدم. ومن الجائز أن يبقى في الامعاء مدة بدون أن يحدث ضررا فيها ولكنه في العادة يفرز سما يمتص في الدم ثم يفرز منه بواسطة الاغشية المخاطية للامعاء فيحدث فيها المرض، ومن هذا السم جزء يؤثر في المجموع العصبي فيحدث التهابا في الاعصاب

الاسباب — هذا النوع من الدوسنطاريا وإن كان كثير الحصول في البلاد الحارة الا انه قد ينتشر في أوقات مختلفة بشكل وبائي في أي بقعة من بقاع الارض. ومما يهيئ الجسم لقبول المرض كل ما يضعف البنية كالتعرض للبرد أو البيئة الفاسدة

الهواء أو الاصابة بحمى النافض (الملاريا) أو إدمان الخمر أو أكل المواد العسرة الهضم كالفواكه غير الناضجة أو المتعفنة وكذلك الازدحام ، ولذلك يكثر انتشار هذا المرض بين الجنود وفي السجون والتكايا ونحوها . ومن مضعفات البنية التي تهيئ لهذا المرض ضعف العقل – ولذلك ينتشر بين المجانين – والامساك المتعاصي

ينتقل الميكروب من المصاب بواسطة البراز الملوث به الى الشراب أو الطعام أو الى الاواني وغيرها فيصل الى أمعاء الآخرين ويحدث فيهم المرض، فهو في عدواه يشبه الحمى التيفودية سواءً بسواء. ومما ينشره أيضا بين الناس الذباب والعواصف، فانها تنقل الميكروب من البراز وتثيره مع الغبار الى الطعام أو الشراب وغيرهما . ولهذا الداء أيضا حملة أصحاء كالذين ذكروا في باب الحمى التيفودية والدفثيريا

الاعراض – مدة التفريخ تتروح بين بضعة أيام وأحد عشر يوما. ويبدأ المرض بالاسهال فيتبرز المصاب من مرتين الى ست برازا سائلا مصفراً أو يميل الى السمرة ويحس بألم في بطنه وتوعك عام وفقد في شهوة الطعام . وبعد ثلاثة أيام أو أربعة تكثر فجأة مرات التبرز حتى تصل الى عشر أو عشرين بل أربعين فستين أو أكثر. ويكون قدر البراز في كل مرة قليلا جدا يخالطه مخاط ومصل ودم وصديد وبعض أجزاء من الغشاء المخاطي للامعاء، وقل أن يشاهد فيه شيء من مواد البراز الطبيعية، وقد يكثر النزف حتى يتبرز المصاب دما خالصا بسبب احتقان الغشاء المخاطي وتمزق عروقه في أول الامر ثم بسبب تقرحه بعد ذلك ، ويكون له رائحة مخصوصة، ويشتد المغص ويكثر الزحير ويلتهب باب البدن (الشرج) ويكثر بسبب ذلك التبول أيضا أو يحصل فيه الزحير أيضا فيميل المصاب الى إخراج بوله نقطة فنقطة بحيث لا يمكنه الصبر على تجمع القدر المعتاد من البول في المثانة

وهذه الاعراض تؤثر في بنية المريض فينحف ويضعف ويصفر لونه ويبيض لسانه وترتفع حرارته ويصيبه الصداع والدوار والاقهاء والعطش

وفي الحالات البسيطة تخف وطأة المرض بعد ثمانية أيام أو عشرة، أما في الحالات الشديدة فتزداد الاعراض حتى تنهك قوى المريض ويتقرح الشرج وما حوله من المقعدة، ويصاب بالهمود فتغور عيناه وتزرق أطرافه ويضعف صوته ونبضه حتى يموت

ويكثر في أول الاعراض أن يصاب الشخص بالقيء و يستمر معه بشدة حتى النهاية . ويقل البول أيضا ولكن لا يوجد فيه زلال غالبا

وفي بعض الاصابات يزمن المرض فيكون البراز أحيانا طبيعيا وأحيانا مركبا من مخاط وصديد ودم مع الرائحة المخصوصة المذكورة ، وتستمر تلك الحال أشهرا عديدة، أو سنوات كثيرة فينحف المريض ويضعف وقد يموت — اذا لم يعالج — بنهاكة القوى أو بالمضاعفات كالالتهاب البريتوني من انخراق الامعاء، أو يصاب بضيق فيها بسبب انقباض آثار التحام القروح

وقد وصف [القصطلاني Castellani] (وهو عالم إيطالي شهير له مؤلف ضخم في أمراض البلاد الحارة باللغة الانكليزية) نوعا من هذا المرض سماه [البارادوسنطاريا] وهو أخف من الدوسنطاريا المعتادة وله باسيل قريب من باسيلها

ويحدث المرض بسبب تأثير سم الميكروب في أنسجة القولون كما قلنا أثناء افرازه من البنية فتموت أجزاء من الغشاء المخاطي وغدده وبعض الانسجة العضلية التي في جدر الامعاء فتتقرح وقد يصل الالتهاب والتقرح الى الغشاء البريتوني فيلتهب ويلتصق بأجزاء أخرى أو يخترق ويكون سببا في الموت السريع

زد على ذلك ان المعدة والامعاء الدقاق قد تصاب أيضا بنزلة وتلتهب غدد المساريقا وتنتفخ الكبد وتحتقن

المضاعفات - التهاب الاعصاب بسبب تأثير السم فيها والتهاب المفاصل والاخرجة في أجزاء الجسم المختلفة والالتهاب البريتوني من الانثقاب والنزف المعوي الشديد

الانذار — عدد الوفيات من ٣٠ الى ٨٠ ٪ ومما ينذر بالخطر سقوط أجزاء كثيرة من أغشية الامعاء في البراز والنزف الشديد وكثرة القيء والهمود . والمرض قتال للاطفال والشيوخ والضعفاء ومدمني الخمر

المعالجة — يجب على المريض أن يلتزم الراحة في الفراش ويتدثر جيدا حتى يدفأ وتخصص له آنية للتبرز فيها لكيلا يتعب نفسه في الانتقال . ويكون غذاؤه سائلا سهل الهضم مشتملا على المواد التي يحتاج اليها الجسم ، فيعطى له اللبن خالصا

أو ممزوجا بماء الجير ويعطى له المرق، ولا بأس من تحلية اللبن بالسكر أوخلطه بقليل من النشاء الصافي الذي يطبخ به، أو اعطاؤه اللبن الخاثر (لبن الز بادي) ولا يجوز أن تكون هذه المواد شديدة البرودة فانها تهيج الامعاء، والافضل أن تدفأ

وتبدأ المعالجة الدوائية باعطاء المسهلات كزيت الخروع أو الملح الانكليزي وهو الافضل، ومن الاطباء من يعطي هذا الملح بمقادير صغيرة كدرهم كل ساعة ليلا ونهارا حتى تكثر مواد البراز و يزول منها الدم والمخاط وتنخفض الحرارة و يزول الالم والزحير. و يمكن الاستمرار على تعاطي الملح بهذه الكيفية يوما أو ثلاثة، ومن النادر أن يحتاج الى أكثر منها، ثم يكمل العلاج باعطاء مركبات البزموت(١) والافيون و بعض المطهرات كالسالول .

و يجوز في الحالات الشديدة حقن المريض بالمصل المضاد للزحار كمصل معمل [استر Lister] فيحقن منه ٢٠ سنتيمترا مكعبا مرتين في اليوم في الاحوال المعتادة، وفي الاحوال السيئة يجوز الحقن الى ثلاث أو أربع مرات، ويتكرر ذلك مدة يومين أو ثلاثة. وقد اكتشف حديثا بعض كيماوي مصر حقنة أخرى يقال إنها نافعة كثيرا

والحقن في الشرج نافع في كثير من الحالات، فيحقن الماء المغلي بعد أن تصير حرارته فوق حرارة الجسم الطبيعية بقليل جدا، و يحقن كذلك دافئا محلول البوريك ١ ٪ أو محلول حامض الصفصافيك بنسبة واحد الى خمسمائة وغيرهما . وحقن محلول ملح الطعام الدافئ بنسبة ٧ الى ألف نافع جدا، ومقدار ما يحقن في كل مرة لتر . وهناك محقونات كثيرة لاحاجة الى استقصائها

فاذا اشتد الالم والزحير يلبس في الشرج أقماع مركبة من الافيون أو المورفين(٢) مع زبدة الكاكاو، ومحلول ملح الطعام المذكور نافع أيضا لازالة هذا الزحير ، والجلوس في الماء الساخن مريح أيضا من الزحير ، وكذلك وضع اللبخ والكمادات الساخنة ونحوها على الشرج . والافيون يسكن ألم البطن واللبخ الساخنة . واذا

(١) اسم لعنصر معدني شهير، وهو مشتق من كلمة ألمانية مجهولة الأصل

(٢) اسم لمادة فعالة في الافيون وهي أهم ما فيه، والكلمة يونانية مشتقة من اسم إلٓه النوم أو الاحلام عندهم

أصاب المريضَ الهمودُ أعطي المنعشات المنبهات كالقهوة والشاي والخمر، وغير ذلك مما ذكر مرارا

فاذا تحسنت الحال يزاد طعام المريض تدريجا كأن يأكل قليلا من الخبز الهش الاسفنجي الجاف واللحم المفروم جيدا، وهكذا يزاد الطعام حتى يصير كالمعتاد. وفي طور النقاهة يعطى له مركبات الحديد والمواد المرة كالكينين بمقادير صغيرة لتقويته

الوقاية — تكون بما يأتي (١) بعزل المرضى وتطهير مواد برازهم بالمطهرات الطبية أو بحرقها ويجب أن تغطى أوانيها بخرقة مبتلة بمحلول مطهر منعا من نقل الذباب للعدوى (٢) بمنع الناقهين من الاختلاط بالناس حتى تعلم طهارة برازهم من الميكروب بعد البحث البكتيريولوجى ثلاث مرات في ثلاثة أسابيع (٣) بالبحث عن الجملة الاصحاء اذا انتشر الوباء في مكان وعزلهم ومعالجتهم بالمطهرات للامعاء أو بالحقن باللقاح ونحو ذلك حتى يزول الميكروب منهم. وهؤلاء الحملة هم من كانوا أصيبوا بالزحار أو اختلطوا بمصاب به (٤) بامتناع الاصحاء من شرب أي ماء الا بعد غليه أو ترشيحه ومن أكل أي شيء الا بعد غليه أو إزالة قشره أو غسله جيدا بالماء المغلي أو المذاب فيه كبريتات الصوديوم الحمضية كما سبق. ولا يجوز استعمال الماء غير المغلي حتى لغسل الاواني أو للضوء (٥) بتجنب المواد العسرة الهضم والمسببة لاعتقال البطن، وكذلك يتقى البرد. (٦) بابادة الذباب بقدر الامكان، وتنظف الطرق وترش جيدا حتى لا يثار غبارها (٧) من العلماء من يشير على الاصحاء اذا خافوا العدوى بعمل الالقاح، وهو عمل محمود وقد افاد في كثير من الاحوال، وأشهر من أشار بذلك القصطلاني

أمراض الفطر

داء مادُورَا — أو — قدم مادورا Madura Disease

هو داء منسوب الى مدينة مادورا في جنوب بلاد الهند ويوجد كثيرا في غيرها من البلاد الحارة والمعتدلة

وينشأ من دخول فطر مخصوص في القدم غالبا (وأحيانا في اليد) وقد يصعد

الداء من القدم الى الساق، ومن النادر أن يصيب الجذع، فينمو هذا الفطر في الجزء المصاب وينشأ من تهييجه للمكان أنسجة مخصوصة تشبه الانسجة الحمراء التي تتكون في الجروح ويسميها الإطباء المحدثون (بالازرار اللحمية) ويتقيح المكان المصاب وتتلف أجزاؤه وتتآكل، وقد يصل الداء الى نفس العظام فيحدث بها النخر وتتكون نواصير يخرج منها صديد وحبيبات سوداء أو سمراء وقد تكون بيضاء أو بيضاء مصفرة تبعا لنوع الفطر فان له أنواعا كثيرة. ويكون حجم الحبيبة كرأس الدبوس وقد يكون كبيرا كحبة الحمص. وتتألف الحبيبة من خيوط كثيرة متفرعة ملتف بعضها بالبعض الآخر وهي خيوط الفطر نفسه

فاذا أصيب القدم بهذا الداء ورم وانتفخ أخمصه كثيرا حتى يتحدب فترتفع الاصابع بسبب ذلك عن الارض ويسود الجلد وتظهر به حلمات متعددة ونواصير كثيرة، فاذا سبرت قد نجدها واصلة الى العظام النخرة

واذا أصيبت اليد أصابها ما أصاب القدم. ولاعلاج لهذا الداء في أول الامر الا باستئصال الاجزاء المصابة، فاذا أزمن وجب استئصال القدم كلها

وتكون الوقاية منه بتجنب كل سحج أو جرح للقدم بقدر المستطاع وتنظيفها دائما (ومن هنا تظهر بعض حكم الوضوء) ودوام الاحتذاء . فاذا أصيبت القدم بأي جرح وجب تطهيره بالمطهرات الطبية ومعالجته بحسب الاصول الجراحية حتى يشفى تماما اتقاء لهذا الداء ولغيره مما ذكر سابقا كالتيتانوس

السل الكاذب — الأسپارغلوس (١) Aspergillosis

الاسپارغلوس يطلق على فطر ينتشر في بعض أعضاء الجسم فيتلفها . ويشاهد أحيانا في الرئة فيحدث بها مرضا يشبه الدرن حتى قد تتكون فيها كهوف ، ولذلك يسمى هذا الداء بالسل الكاذب . وتكون أعراضه ضيقا في التنفس وسعالا وبصقا ونفث دم . ولا ينتشر الفطر من الرئة الى الاعضاء الاخرى . وقد يشفى من تلقاء نفسه بموت الفطر

(١) كلمة لا تينية معناها المنبث أو المنتشر

يصيب هذا الداء أحيانا مربي الحمام ومطعميه بأفواههم لوجود الفطر في بعض الحبوب التي يضعها المربي في فمه لاطعام الحمام ،

وهذا الفطر قد يصيب أحيانا العين أو الاذن أو الانف أو الجروح والقروح وغير ذلك كانسجة القدم فيتكون به نوع من أنواع الداء السابق (داء مادورا)

الفطر الشعاعي Actinomycosis

أول من وصف هذا الداء في الانسان هو اسرائيل الالماني من أهالي براين سنة ١٨٧٧ م وفي سنة ١٨٧٨ أثبت [بونفيك Ponfick] أن النوع الذي يصيب الانسان هو عين ما يصيب الانعام

هذا الفطر يكون قطعا ترى بالعين المجردة صفراء أو سنجابية لامعة مستديرة قطرها نحو ١/٢٥ من البوصة وقد يكون أحيانا ١/١٢ منها، فاذا نظرت هذه القطعة بالمجهر رؤي في مركزها خيوط مشتبكة مع بزور و يتفرع من هذه الخيوط خيوط أخرى فتكون كأشعة النور المنبعثة من السراج وتنتهي بانتفاخ أطرافها . وهـذا الداء يصيب الحيوانات الداجنة ولا ينتقل منها الى الانسان ، وانما يصاب به الانسان والحيوان من أكل بعض الخضر أو الحبوب كالشعير

فاذا دخل الفطر الى الجسم لصق بالغشاء المخاطي للامعاء أو الشعب ثم يثقبها ويصل الى الاعضاء الغائرة فيحدث المرض في أجزاء مختلفة من الجسم ، وذلك بتهييجه للمكان المصاب فيلتهب ما حول الفطر وتتكون أنسجة غريبة كالازرار اللحمية ثم تتقيح وتتآكل وتستحيل الى مِدَّة، فينشأ في أول الامر في العضو المصاب أورام يكون قطرها نحو ثلاث بوصات أو أكثر، وهذه تتآكل حتى تفسد العضو. وينتشر الداء بالمجاورة من وضع الى آخر ، ولكن الفطر قد ينتشر بالاوعية الى أجزاء الجسم البعيدة أحيانا

الاعراض — تختلف باختلاف العضو المصاب وكثيرا ما يبدأ المرض بالفم فيحدث فيه ورم تحت الجلد فوق الفك الاسفل أو فوق حافته يكون صلبا بطيء النمو ثم ينتقل تدريجيا الى العنق .

وقد يضمر جزء من هذا الورم ولكنه يزداد في الاجزاء الاخرى و يمتد حتى يصيب

الجلد نفسه، ويتكون فيه ما يشبه الخراج فينفجر ويخرج منه صديد به حبيبات الفطر، ويتعسر شفاء هذا الجرح بل يتخلف عنه ناسور. والظاهر ان الفطر في هذه الاحوال يصل الى الفك من الاسنان النخرة. وقد يصيب الداء الفك الاعلى ومنه يصل الى قاعدة الجمجمة، وقد يمتد الى المريء فيتقرح منه وتتأكل الفقرات أيضا

واذا أصاب الداء الامعاء ظهر على سطحها المخاطي بقع مبيضة مغطاة بحبيبات صفراء وسمراء، ويكون قطر البقعة نحو ٢/٣ البوصة وسمكها ١/٣ بوصة. وقد يثقب هذا الداء الامعاء ويصل الى البريتون. ومن الفطر ما يصل الى الكبد، ومنه ما يصيب الرئة فتلتهب شعبها أو أنسجتها، ومنه ما يصيب الجلد فيدخل من أي جرح أثناء مس الحبوب أو القش، ولكنه قليل الحصول

المعالجة — أحسن دواء لهذا الداء هو [يودور البوتاسيوم] فقد ظهر نفعه فيمن استعمل له من الناس والانعام، ويجب إعطاؤه بمقادير كبيرة حتى تصل الى أربعة دراهم في اليوم. واذا كان الورم في مكان يمكن الوصول اليه أمكننا أن نعاون الدواء في فعله بالعمليات الجراحية كالكحت أو الاستئصال

القُلاع Aphthae

هو أشهر أدواء الفطر وأكثرها حصولا للبشر في جميع الاقطار. يشاهد هذا الداء في الاطفال الضعفاء خصوصا من يربون تربية صناعية أو الذين أصابهم اسهال مدة طويلة، وقد يشاهد أيضا في الشبان والكهول إذا أصابهم داء أنهك قواهم كالسل والسرطان والحمى التيفودية

ويشاهد في المصاب بقع بيضاء لبنية على الأغشية المخاطية للشفتين أو الخدين أو اللثة أو الحلق أو اللسان، وتكون مرتفعة قليلا عن سطح الغشاء ومحاطة بخط أحمر دقيق، فاذا نزعت هذه القطع البيضاء وجد الغشاء المخاطي الذي تحتها محمرا وسال منه قليل من الدم، وبعد زمن قصير قد تتكون البقع عليه ثانية. وهي تتألف من خلايا بشرية مع كريات دهنيـة ومن بزور الفطر وخيوطه. ينمو هـذا الفطر في طبقات الابيثليوم الوسطى ومنها يمتد الى الطبقات العليا والسفلى. ويصاب الطفل بسببه بالحمى

والاسهال ويكثر لعابه ويتعسر أو يتعذر إرضاعه ، وكثيرا ما يتقرح الشرج بسبب كثرة الاسهال

المعالجة — يجب تحسين صحة المصاب بجميع الوسائل الممكنة. ومن أول ماتجب العناية به معاجة الاسهال. ويجب مسح فم الطفل بخرقة مطهرة مغموسة في الماء العقيم أو في محلول البوريك، ثم يوضع في فم الطفل نحو نصف ملعقة صغيرة من غلسرين البورق مرتين في اليوم أو ثلاثا ، فانه قاتل لهذا الفطر

الوقاية — يجب على الام أن تغسل ثديها بعد كل رضاعة وقبله، وأن لا تضع شيئا في فم الطفل مطلقا الا اذا كان مطهرا بالغلي أو غيره كأدوات اللعب وكالحلمات الصناعية، كذلك لا يجوز مس فمه بالاصابع الا بعد تطهيرها،واذا كان الطفل يغذى بغير لبن أمه وجب تطهير طعامه أيضا بالغلي . وتجب المبادرة الى معالجة كل مايفسد صحة الطفل كالاسهال أو القيء وغيرهما

الارضة Tinea

تسمى الارضة بالافرنجية تينيا . وهي أنواع كثيرة تنشأ كلها من فطر يصيب الجلد . وهاك أشهر أنواعها :—

(١) الارضة المتنوعة الالوان [Versicolor] تصيب الجلد وتنمو فيه بالعرق والتدفئة،وهي كثيرة الحصول للذكور، ولاتصيب الاالاجزاء المغطاة بالملابس فيشاهد في الجلد بقع مستديرة سمراء مصفرة مرتفعة قليلا عن سطح الجلد وتمتد في أجزاء كثيرة منه، ولا يحدث منها ضرر سوى بعض أكلان

المعالجة — تكون بالاستحمام بالصابون (واحسنه الفنيكي) مع الدلك بشيء خشن ثم يدهن الجسم ببعض المراهم الكبريتية أو الزئبقية ولكن يلاحظ في المراهم الزئبقية أن لايدهن بها سطح متسع من الجلدخوفامن التسمم. ويجب غلي الملابس وتطهيرها بعد الاستحمام وكذلك أدواته كالفوط وغيرها

(٢) الارضة الحالقة [Tonsurans] وهي تصيب رؤس الاطفال خصوصاالفقراء، وتنتشر في المدارس ونحوها باستعمال الامشاط والقبعات الملوثة بالفطر. وينشأ من

هذا المرض صلع بالرأس ويتقصف الشعر المصاب، وتكثر بالرأس القشور والهبرية. وتطول مدة الداء، وبعد عدة سنين يشفى من تلقاء نفسه

(٣) الارضة الحلقية [Circinata] تشاهد حلقات الداء غالبا في الوجه والعنق والذراع، وتكون الحلقات قرنفلية مرتفعة قليلا عن سطح الجلد مغطاة بقشور رقيقة

(٤) الارضة الذقنية [Sycosis] تصيب شعر اللحية على الاكثر فتفسده وتسقطه وتلتهب الذقن بسببها، وهي عسيرة الشفاء

وعلاج هذه الانواع يكون بنتف الشعر واستعمال النظافة التامة والتطهير بمثل اليود أو الكبريت أو مركبات الزئبق . وعلاجها بأشعة رونتجن مؤكد نفعه سريع التأثير

القراع Favus

داء مشهور يصيب أي جزء من اجزاء الجلد خصوصا فروة الرأس. وينتقل من شخص إلى آخر بالعدوى، وقد ينتقل الى الانسان من بعض الحيوانات الداجنة كالقطط والارانب والكلاب . وعلاجه يكون بالنتف والتطهير وأشعة رونتجن كما سبق . وينبغي الاعتناء بصحة المصاب بارشاده الى القواعد الصحية، وإعطائه الادوية المقوية

مبايعة شريف مكة واميرها

على ملك العرب

جاء في جريدة القبلة التي صدرت بمكة في ثالث المحرم فاتحة هذا العام مانصه:

امتلأت قاعات قصر الديوان الهاشمي العالي صباح أمس بجماهير الاشراف الكرام والعلماء الاعلام والاعيان العظام بحيث لم يبق في بلد الله الامين ذو حيثية ومكانة عالية الا وحضر هذا الاجتماع الفخم ليعرضوا على جلالة سيدنا ومولانا المعظم أمنية طالما تمنوا اظهارها من حيز القوة الى حيز الفعل ألا وهي اقناع جلالته

بقبول بيعتهم له ملكا على العرب ومرجعا دينيا لهم ريثما يقر قرار العالم الاسلامي على رأي يجمعون عليه في شأن الخلافة الاسلامية

ولما غصت أنحاء القصر العالي بحضرات الاعيان القادمين لهذا الغرض تشرف بالمثول بين يدي جلالة سيدنا المعظم في غرفة أعماله الخاصة حضرة العلامة الورع الشيخ عبد الله سراج رئيس علماء بيت الله المحرم وقاضي القضاة ونائب رئيس الوكلاء الفخام وأنبأ جلالته بحضور هذه الجماهير لعرض بعض المعروضات على مسامعه الكريمة، ولما شرف جلالته قاعة الاستقبال الكبرى في الديوان الهاشمي العالي استقبل رجال الامة تلك الطلعة الهاشمية المقدسة بقلوب طافحة بالمحبة والاحترام والاجلال والاعظام . ثم تمثل حضرة العلامة قاضي القضاة بين يدي جلالته نائبا عن وجوه الامة كما هي عادته في مثل هذه المواقف من القديم فعرض على جلالته الغرض من تشرف المجتمعين بالوقوف بين يديه، وأنهم قد كتبوا عريضة في هذا المعنى يريدون تلاوتها على مسامعه الشريفة فأجابه جلالته بالكلمات الملوكية الآتية:

« انني لم أكن أرى ضرورة شديدة لهذا العمل الذي جئتم من أجله وذلك لما أعلمه من نهوض بلادي بالامر الذي نهضنا به وشدة إخلاصها له وعضها عليه بالنواجذ ، ولم تنحصر هذه العواطف في بلادنا وحدها بل ان لعرب الشام وعرب العراق مثل ما لأهل بلادنا من الحرص على استرداد مجدهم وجمع كلمتهم . وقد وردت لي الرسائل من أعيانهم بذلك ، على أن هذا الامر الذي جئتم اليوم من أجله سينفي كل ماربما يخطر على بال الذين يجهلون حقيقة أحوالنا من الخواطر البعيدة عن مبادئنا وشيمتنا وأصول ديننا وقوميتنا

« واني أقسم لكم بالله العظيم إنني لم أرد هذا الامر الذي تكلفونني به ولم يخطر على بالي عند ما قمت معكم بنهضتنا السعيدة ، ولكني رأيت كما رأيتم اننا امام خطر عظيم وخطب جسيم ربما قضى علينا القضاء المبرم اذا لم نبادر الى ازالته »

وهنا ارتفع ضجيج الحاضرين بالدعاء لجلالته، والالحاح بقبول الذي جاؤا لاجله، فقال جلالته :

« انكم حملتموني أمرا أنا أعرف الناس بما يستلزمه من الجهد ، وطالما قلت لكم

اني واحد من جمهور الامة أبرم ما يبرمون من حق، وأرفض ما يرفضون من باطل، وأمد يدي لكل من يتفقون على اسناد أمرهم اليه على كتاب الله وسنة رسوله. واذا كان لا مناص مما أردتموه فاني أشترط عليكم أن تعينوني على أنفسكم، وتساعدوني بآرائكم وأعمالكم في كل ما يحقق آمالنا وآمالكم من الخدمة العامة للعرب والمسلمين، وانا نستعين بالله تعالى في كل ما يحبه من قول وعمل وعليه الاتكال في كل حال »

ولما انتهى جلالته من الخطاب الملوكي الذي كان يتخلله دعاء الناس وثناؤهم أخرج حضرة قاضي القضاة العريضة التي أشرنا اليها وأعطاها حضرة الشيخ عبد الملك مرداد ليتلوها على مسامع جلالته وهذه صورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ملك الحق المبين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الامي العربي سيد الخلق أجمعين ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الطيبين ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فان للعرب المنزلة الرفيعة بين الامم لانهم في مقدمة الاقوام الساميين، الذين نشروا في الارض حقيقة التوحيد وهداية الدين ، فدانت الدنيا كلها في كل أزمانها الى ما أراد الله أن يتمه على ألسنة أنبيائهم العظام من الشرائع الالهية، والسنن القويمة والمحامد الاخلاقية والفضائل والكمالات، حتى استنارت الامم بنورهم، واهتدت بهديهم. ولقد فضل الله في كتابه الكريم ولد اسماعيل وآل ابراهيم على العالمين جميعا، وانه قد ثبت في صحيح مسلم أن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفى من بني هاشم نبينا وفخرنا وذخرنا جدكم الاعظم المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم

فبجدكم الاعظم خرجنا من الظلمات الى النور ، و ببيتكم الاقدس كان رشادنا بعد الجهل، وان البيت الذي عدل بنا عن طريق الغواية، الى طريق الهداية؛ لا يزال ملزما بلم شعثنا، وتقويم أودنا، واستلام زمام أمورنا، مهما تجشمتم من العناء لاجل هنائنا، ومهما تحملتم من الجهد لاجل سعادتنا؛ وما كان لنا أن نلجأ لغير البيت الذي اختاره الله عز وجل، ولا أن نصطفي قوما غير الذين اصطفاهم لنفسه . وقد ثبت في صحيح

البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال :

« ان هذا الامر في قريش لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»

وانه قال صلى الله عليه وسلم :

« لا يزال هذا الامر في قريش ما بقي منهم (١) اثنان »

فأنتم قريش بل أنتم الصفوة من هاشم، واننا ندين الله تعالى يوم الوقفة الكبرى بين يديه بأننا لا نعلم اليوم أميرا مسلما أتقى لله منكم وأشد خوفا منه وتمسكا بأوامره واقامة لشعائره قولا وعملا، وأقدر على النظر في أمورنا بما يرضي الله عز وجل، ونحن الذين عرفناكم في أيام الرخاء وأيام الشدة وفي حالتي السر والعلن

وان حولكم أمة برهنت في أدوار كثيرة من أدوار التاريخ على انها عظيمة المدارك، عالية الهمة، كثيرة الاقدام، حازمة عادلة صبور (٢) رحيمة منصفة. ولو ان صفحات التاريخ فقدت من الوجود لكفى في الدلالة على عقلها لغتها التي حبرت أسرارها العقول، وآدابها التي هي خزانة المعارف، وأشعارها التي نظمت لآلئ الحكمة في البوادي القاحلة أيام جاهليتها الاولى، فضلا عما أقامته من معالم الحضارة في كل بقاع الدنيا القديمة مما لا يزال أثره ماثلا للانظار

ان أمة كهذه أثبتت العلوم الحديثة أن تكوين دماغها وارتقاء عقلها لا يقل عن مثله في أرقى الامم ، وبرهن تاريخها على انها أمة جد وعمل وتفنن وحسن سلوك ومكارم أخلاق، تحفظ الجميل لمن يسديه اليها، وتعرف معروف كل من له يد عليها ، لهي أمة تستحق أن تنتشل من قيودها الثقيلة وتنقذ من وصاية فئة سفاكة مخربة جاهلة مغرورة، ليس فيها استعداد فطري للتحلي بشيء مما تحلى به العرب من المزايا والخصائص، والاخلاق والفضائل؛ وان من مظالم عصرنا الفادحة رضاء الامم ببقاء العرب محكومين لتلك الفئة الوضيعة التي تحتاج الى الحجر عليها ، لا أن تكون أمة كأمتنا ذات مجد أثيل وتاريخ مجيد وآداب عالية وفضائل سامية راضخة لوصاياها خانعة

(١) سقط من القبلة لفظ منهم . وفي رواية لمسلم : ما بقي في الناس اثنان

(٢) صبور يستوى فيه المذكر والمؤنث ولعله قال صبورة للتناسب بين ما قبله وما بعده اذا لم يكن من غلط الطبع

لجورها، حتى ذاقت صنوف الذل وأنواع الهوان باسم الاسلام الذي تنقض هذه الفئة كل يوم دعامة من دعائمه. وقد ورد من حديث جابر عند أبي يعلى بسند صحيح :

« اذا ذلت[1] العرب ذل الاسلام »

فنحن ياسيد العرب ومنقذ الاسلام من أيدي أعدائه المارقين، نحمد اليك الله الذي أعزنا بك، ونصر جند الله ببركتك وروحانية جدك صلى الله عليه وسلم، ونتقرب الى الله سبحانه وتعالى بمحاربة من حاربك وموادة من وادك، وان مودة آل بيت الرسول عليه وعليهم افضل الصلاة والسلام هي الاجر الذي سأله على ما هدانا اليه من سعادتي الدنيا والآخرة حيث قال عز من قائل :

(قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى) [2]

فانهض ياسيدنا الى ماشاء الله أن يجريه على يديك من اصلاح شؤوننا وولاية أمورنا نحن معاشر العرب الذين يعلقون آمالهم على صلاح دينهم ودنياهم على تبوئك سرير ملكهم

واننا نبايع سيدنا ومولانا (الحسين بن علي) ملكا لنا نحن العرب يعمل بيننا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ونقسم له على ذلك يمين الطاعة

---

(١) في جريدة القبلة ذل وهو غلط فلفظ العرب مؤنث والرواية ذلت

(٢) جرى الشيخ حفظ الله مودته في هذا على قول مشهور في كتب التفسير وفي الآية أقوال أخرى أصحها ما رواه الشيخان والترمذي وأكثر رواة التفسير المأثور عن ابن عباس قال « لم يكن بطن في زمن قريش الا كان له فيهم قرابة فقال : الا ان تصلوا ما بيني و بينكم من القرابة . وفسر ذلك في رواية أخرى بأن يحفظوا حق قرابته فيهم بنصره ومنعه ممن يؤذيه (ص) كعادتهم في حفظ القرابة بدلا من إيذائه . وجعل بعضهم النصرة بالايمان به واتباعه ليكون بمعنى (قل لا أسالكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا) أي بطاعته كما قال قتادة وصرح بعضهم بان الاستثناء ، هنا منقطع وقد نفي سؤال الأجر بغير استثناء في قوله تعالى (وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين) وقد حكى سبحانه مثل هذا عن المرسلين في هود والشعراء وغيرهما من السور

والاخلاص والانقياد في السر والعلانية، كما اننا نعتبره مرجعا دينيا لنا أجمعنا عليه ريثما يقر قرار العالم الاسلامي على رأي يجمعون عليه في شأن الخلافة الاسلامية

نبايعك على هذا ياصاحب الجلالة ونقسم لك بالله العظيم على طاعتك والرضاء بك والانقياد اليك في السر والعلانية . ولك علينا في ذلك عهد الله وميثاقه ما أقمت الدين، واجتهدت فيما فيه صلاح حال العرب والمسلمين (فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجرا عظيما)

غرة المحرم الحرام سنة ١٣٣٥

ولما انتهت تلاوة العريضة أقبلت جماهير أهل الحل والعقد من الاشراف والعلماء والاعيان وكبار التجار وسائر ذوي الحيثيات فبايعوا على ذلك بوجوه مستبشرة وقلوب طافحة بالسرور . ثم تقدم حضرة الفاضل الشيخ فؤاد الخطيب فبسط لدى جلالته آمال سورية العربية وذكر أن أولئك الشهداء الذين سارت بذكرهم الركبان انما ماتوا من أجل الوحدة العربية ، ولتفانيهم في الدفاع عن شعائرهم الاسلامية ، وقال ان سكان تلك الديار جديرون بأن يكونوا من جملة العرب المستقلين المتمتعين برعاية جلالة سيد العرب وملكها . وبايعه بعد ذلك أسوة بسائر العرب على كتاب الله وسنة رسوله

ثم تقدم حضرة الشيخ عبد العزيز مرداد فدعا لهذه الدولة بالعز والسؤدد والارتقاء والفلاح بعناية سيدها ومنقذها جلالة ملك البلاد العربية ، فأمن الحاضرون على كل جملة من دعائه

وقبل انفضاض هذه الحفلة الكبرى تفضل جلالة سيدنا الملك المعظم فأجاب استرحام القوم بتعميم البيعة في المسجد الحرام في وقت مخصوص سنعلن عنه في العدد القادم . وذلك اكراما لخواطر طبقات الشعب الذي أظهر الرغبة بالاشتراك مباشرة مع من قام عنه بالبيعة وناب منابه في أداء واجباتها

وفي آخر الحفلة تلا حضرة الشاعر الاديب الشيخ عبد المحسن الصحاف خطبة أنيقة بصوت جهوري وأتبعها بقصيدة غراء تناسب المقام اهـ

[المنار] ان سبق أهل العلم والمكانة والرأي في مكة المكرمة الى هذه المبايعة

وما تلاها من مبايعة وفود سائر بلاد الحجاز الذي فصلت خبره جريدة القبلة في عدد آخر مبني على ثلاثة أسباب (١) اعتقادهم ان فئة الاتحاديين الملحدة الباغية قد تغلبت على الدولة العثمانية بقوة الثورة والاعتماد على الالمانيين الطامعين في البلاد ووضع الدولة تحت وصايتهم حتى لم يعد للسلطان أدنى استقلال في حكم ولا رأي (٢) ان اعتداء هذه الفئة الباغية على العرب ومحاولتها اهلاكهم كما أهلكت الارمن بغضا فيهم وفي دينهم وامتداد بغيها من الشام الى الحجاز وما ترتب عليه من الحصر البحري قد اضطر أهل الحجاز الى إعلان الاستقلال التام كما بيناه من قبل ، وذلك لايتحقق الا بمبايعة الامة المستقلة لحاكمها أو بتغلبه هو عليها بالقوة، وحكومة الحجاز من النوع الاول المشروع (٣) ان صاحب الحجاز وأهل الرأي فيها يائسون من بقاء استقلال الدولة العثمانية، وجازمون بأنها اما ان تكون تحت سيطرة الالمان القاسية واما ان تنحصر سلطتها في بعض ولايات الاناضول ، فبهذا وجب على العرب أن يسارعوا بعد الاستقلال بما استطاعوا من بلادهم الى تعيين شكل حكومتهم المستقلة و يطالبوا الدول المحالفة لهم بالاعتراف باستقلالهم قبل عقد الصلح لئلا تعدهم الدول من أتباع الترك . ونحن قد بينا رأينا في هذه المسألة في خطبتنا التي ألقيناها بين يدي الشريف الاعظم وعلى مسمع كبراء الحجاز والحجاج في منى وسننشرها في المنار

﴿ مبايعة وفود الاقطار الحجازية ﴾

جاء في العدد الرابع والعشرين من جريدة القبلة الذي صدر في ١٠ المحرم ما نصه :

« شهدنا في صباح أول أمس جموع العرب من سلائل مضر وربيعة وقضاعة وقحطان، واخوانهم من مختلف الامم والاوطان؛ يهرعون من باب الصفا الى بيت الله الحرام ألوفا بعد ألوف، ملبين دعوة دينهم ويقينهم ، ومجيبين نداء وجداناتهم وضمائرهم ، في تقليد أمرهم لاقدر المسلمين على القيام به

« ولما كانت الساعة الثانية عربية كان جلالة الملك المعظم قد جاء من القصر

الملوكي الى مدرسته الملاصقة لبيت الله الحرام فدخل اليه منها يحف به آل البيت الاطهار ، وعلماء الشرع الابرار . ووجوه الامة الاخيار ، فتنحت الجموع العظيمة لقرة عينها ، وسبب عزها وسعادتها ، وحينئذ أعطى حضرة العلامة صاحب المعالي قاضي القضاة ونائب وكيل الوكلاء عريضة أهل الحل والعقد لحضرة الفاضل الشيخ عبد الملك الخطيب ليتلوها على مسامع من لم يسمعها من جمهور الامة فيكونوا على بينة مما تضمنته من الحقائق الدينية والدنيوية ، فصعد حضرة الخطيب على دكة أقيمت أمام رواق الحرم الشريف وقرأها على الجماهير فقابلوها بالجـذل والحبور والفرح والسرور. ثم أقبل حضرة قاضي القضاة على يد حضرة صاحب الجلالة الهاشمية ملك البلاد العربية فبايعه بالصيغة التي نشرناها ضمن العريضة في العدد الماضي من القبلة[1] وتبعه حضرات الاشراف والسادة ورجال الدولة والعلماء والاعيان ووفود البلاد فجماهير الامة على اختلاف طبقاتها . وكان رجال الشرطة يحافظون على النظام بكل دقة وانتباه . وقد رأى حضرة قاضي القضاة بعد أن تشرف بضعة ألوف من الناس بشرف المبايعة السعيدة أن الوقت لا يتسع لاستمرار الالوف الكثيرة في ذلك فطلب منهم أن يجيزوه في أخذ البيعة عنهم فأجازوه اجازة اجماع عام مطلق، فبايع عنهم على مسمع منهم ، ثم صعد حضرة الشيخ عبد الملك مرداد على الدكة فدعا بدعاء بليغ خشعت له القلوب وأمنت عليه الالسنة . وعند ختام الدعاء عاد جلالة ملكنا المحبوب الى المدرسة فلبث فيها برهة، ثم سار موكبه الفخيم الى الديوان الهاشمي العالي وجماهير الامة تهتف له بالنصر والعز والتأييد، وتلاميذ المدارس مصطفة تحت الاعلام العربية المنصورة تنشد أناشيد الحماسة والاستبشار بالمستقبل الباهر السعيد . ولما وصل الموكب الفخيم الى القصر الملوكي العالي أقبلت ألوف الناس من العظماء الاعيان والتجار ومن في طبقتهم للتشرف بالاعتاب الهاشمية . وأخذ الخطباء والشعراء يتبارون في بيان عواطف الامة بهذا العيد الاعظم للعرب والاسلام .. »

[المنار] قد نشرت جريدة القبلة ما وصل اليها من تلك الخطب والقصائد فاستغرق العـدد كله . وقد ذكرت أسماء أشهر رجال الوفود من جده والطائف

(١) الصواب انه العدد الذي قبله وهو عدد ٢٢

وغيرهما . وقد علمنا أن كثيرا من زعماء العرب وفضلائهم في الجزيرة ومصر قد رفعوا الى ملك الحجاز رسائل التهاني بالبرق و بالبريد

احتضار سورية

— شهادة جريدة المانية —

ترجم أحد مراسلي الجرنال دي كير في جنيف مقالة نشرتها جريدة ألمانية في زوريخ — هي (نيوزوريخر زيتونغ) — في ١٢ اكتوبر الماضي وصفت فيها شقاء سورية ويأسها أو اليأس منها، واننا ننشر ترجمتها بالعربية نقلا عن جريدة الاهرام الصادرة في ٣٠ المحرم لان شهادة الالمان في هذه القضية — وهم أعوان الاتحاديين على تتبير العرب كالارمن — لاتجرح بالكذب ولا الغلو كشهادة غيرهم. وهذا نصها :

« ان الجرائد السورية التي يرقبها الالمان رقابة شديدة صارمة تصف تعاسة تلك البلاد وشقاءها المر المفطر للاكباد ، فاذا ضربنا صفحا عن قتلى الحرب وجرحاها نجد ان الجوع والاوبئة كالكولرا والطاعون والتيفوس الخ قد أفنت عشر الاهالي ملكيين وعسكريين

« فسورية المعرضة لكل هجوم براً و بحراً والمتصلة بالآستانة بخط حديدي واحد وهو خط « حلب — أطنه » تحملت من ويلات الحرب ما لم تتحمله بلاد أخرى محاربة وإن لم تكن سورية ميدانا للقتال ولم تر المعارك الدموية الا في حدودها الجنوبية ، وهذه المعارك التي جرت لم تغير شيئا من حالة قناة السويس ولا حالة الحرب بوجه من الوجوه وحال من الاحوال

«ولا يذكر التاريخ ان هذه البلاد رأت من النوائب والبلايا منذ غزوة المغول [1]

---

(١) هم التتار السلف الطالح لهؤلاء الاتحاديين الذين تفتخر بهم جمعياتهم الداعية الى العصبية التركية الطورانية حتى صاروا يدعون بالجنكيزيين نسبة الى جنكيز خان الطاغية الملعون الذي دفع قومه الى تدمير بلاد الاسلام ومحو المدنية العربية

الى اليوم ما رأته في هذه الايام . فكثير من الارض لم يزرع والمحصول لا يكفي للسكان

« وفي شتاء عام ١٩١٥ بذل بعض السوريين المسلمين والمسيحيين بعض الجهد ليتخلصوا من الحكم التركي الذي ينهكهم ولكنهم لم يفلحوا وكانت النتيجة أنهم ذبحوا جميعا (يدرك القارئ أن الجريدة الالمانية تريد أن تبرر الذبح بزعمها ان اناساً ثاروا على الحكومة مع ان الحكومة التركية لم تقل ذلك)

« وزاد في فناء الاهالي واستئصالهم الجوع والطاعون، وسعت السلطة العسكرية أن تعالج الداء (؟) ولكن العلاج جاء متأخرا وبعد فوات الوقت فلم يكن بالامكان استخدام دواء ينجع ويفيد . وفتحت في القدس ودمشق وبيروت ويافا قاعات للشاي [1] جعل فيها ثمن الشاي والخبز والماء الساخن قليلا أو بلاثمن للفقراء والبائسين. وتألفت جمعيات للقيام مقام الاطباء في معالجة المرض وتنظيف المنازل والحارات والشوارع وعزل المرضى وتوزيع الادوية التي يستطيعون الوصول اليها .

« ولكن المستشفيات العسكرية ذاتها ليس فيها أضمدة ولا موازين للحرارة ولا أبر للحقن ولا غير ذلك مما يعالج به المرضى . ثم ضاعف الاوبئة وجعلها عامة شاملة الجوع والضيق . وقد كانت عائلات كثيرة تستبقي حياتها بضعة ايام بقشور الليمون والبطيخ والطماطم الى أن يمرضوا جميعا وتعينهم احدى جمعيات البر

« وقد صدق أحد مراسلينا في القدس بقوله « ان أورشليم المقدسة تنقرض الآن للمرة الثالثة ولكن انقراضها في هذه المرة هو أتم منه في المرتين السابقتين »

« والحكومة الحالية التي هي ليست مسؤولة كل المسؤولية عما هو واقع (؟) تبذل الآن ما بوسعها لتدارك هذه الحالة (؟) ويعاونها جميع الناس من جميع المذاهب والجنسيات، وقد أهمل الناس جميع فروضهم الدينية خوفا على حياتهم كصوم رمضان عند المسلمين وصوم الصيف عند اليهود وكذلك سلك المسيحيون

« وتجتهد السلطة العسكرية في ان توزع الحبوب بالقسط والعدل والمساواة بين المدن والقرى وتمنع الناس من تخزين الاقوات حتى لا تصعد الاسعار . ووزع جمال

(١) لعل الذين فتحوها هم اليهود لأن أكثر السكان منهم أو الجمعيات الخيرية

باشال حديثاً على فقر ، دمشق بعض الاكل ولكن الجوع والضيق في المدن الكبرى في حال هائلة لا يستطيع قلم الكاتب وصفهما وتصويرهما للقارئ

« فلا يمكن بحال من الاحوال ان تحول هذه المسكنات الوقتية التي ماجون بها تلك البلاد دون احتضار الموت والنزع الاخير. فسورية هالكة مائتة لا محالة ، ولا مرد لهذا القضاء عنها ، وسواء بقيت بيد دولتها أو صارت الى يد دولة أخرى فان بعثها من مدفنها أمر مستحيل » .

[المنار] هذه شهادة الالمان لحلفائهم بل عليهم . والتبعة والمسؤلية في هذه الجنايات الفظيعة على هذا الشعب العظيم ليست كلها على حكومتهم الطاغية الباغية وحدها وان كانت أهلكت الحرث والنسل عمدا ، بل يقع سهم كبير منها على استاذتها ألمانية التي علمتها كيف تأخذ من البلاد جميع الرجال القادرين على العمل والصالحين للنسل من سن البلوغ الى سن الشيخوخة وتستعبدهم في أشق أعمال الحرب — وكيف تأخذ ما تنتجه الارض بعمل الشيوخ والنساء والاولاد للسلطة العسكرية مصادرة ونهبا ، ولم تعلمها ان تبقي للاهالي الضعفاء الباقين ما يسد رمقهم وان توزعه عليهم كما توزع هي الاطعمة في بلادها ورضيت منها بالفظائع التي لا تحتاج فيها الى تعليم لانها غريزة وراثية فيها كقتل العلماء والكتاب ورجال الادارة حتى لا يبقى في البلاد من يعرف مصلحتها ويطالب بها ، وكنفي ارباب البيوتات ونهب أموالهم حتى لا يبقى في البلاد غني يلجأ اليه الفقراء والبائسون في وقت الضراء. ولماذا يموت السوريون جوعا ولم يمت أحد من الالمان جوعا وغلات سورية أكثر من حاجتها وغلات ألمانية دون حاجتها ؟ ولماذا تقطع الغلات العثمانية الفيافي والقفار والجبال والبحار حتى تصل الى ألمانية في قلب أوربة وأهلها يموتون جوعا ؟ ولما تستنزف ألمانية قوة الدولة العثمانية وثروة شعوبها وتسخرها كلها لخدمتها في هذه الحرب ولا تجود عليها بالادوية التي تعالج به مرضاها وعندها من الادوية ما يكفي أمما كثيرة ؟ آلآن تذكرت الصحف الالمانية سورية بالرثاء والاعتذار عن أحلافهم السفهاء ؟ أبمثل هؤلاء الملاحدة الكفرة الفجرة تريد أن تجذب اليها العالم الاسلامي الى الاتحاد بخدمتها ؟ لقد صدق من قال أن الالمان اتقنوا جميع العلوم والفنون ، الا علم طباع الامم واخلاق الشعوب.

باب الشعر والادب

متى يذكر الوطن النوَّم

للشاعر الاجتماعي السوري المقيم فى امريكة وقد نشرت فى صحفها الشهيرة

جلست وقد هجع الغافلون　　أفكر في أمسنا والغدِ
وكيف استبدَّ بنا الظالمون　　وجاروا على الشيخ والامردِ
نخلت اللواعج بين الجفون　　وأنَّ جهنمَ في مرقدي
وضاق الفؤاد بما يكتم　　فأرسلت العينُ مدْرارها

......

ذكرتُ الحروبَ وويلاتها　　وما صنع السيف والمِدفعُ
وكيف تجور على ذاتها　　شعوبٌ لها الرتبة الارفعُ
وتخضب بالدم راياتها　　وكانت تذم الذي تصنعُ
فباتت بما شيدت تهدم　　صروحَ العلوم وأسوارَها

......

نساء تجود بأولادها　　على الموت والموتُ لا يَرحم
وجند تذود بأكبادها　　عن الأرض والارضُ لا تعلم
وتغذو الطيور بأجسادها　　فان عطشت فالشرابُ الدم
وفي كل منزلةٍ مأتَمُ　　تَشقُّ به الغيدُ أزرارها

......

لقد شبع الذئب والاجدلُ　　واقفرت الدور والاربُع

فكم يقتل الجحفلَ الجحفلُ   ويفتك بالاروع الاروع
ولن يرجع القتل من قتلوا   ولن يستعيدوا الذي ضيعوا
فبئس الأُلى بالوغى علّموا   وبئس الأُلى أججوا نارها

......

أمن أجل أن يسلم الواحدُ   تُطَلُّ الدماء وتفنى الالوف
ويزرعُ أولادَه الوالدُ   لتحصدَهم شفراتُ السيوف
أمور يَحارُ بها الناقدُ   وتدمي فؤاد اللبيب الحصيف
فياليت شعريَ متى نفهم   معاني الحياة وأسرارها؟

......

وحوّلت طرفي الى المَشرق   فلم أر غير جبال الغيوم
تحول على بدره المُشرقِ   كما اجتمعت حول نفسي الغموم
فأسندتُ رأسي الى مِرْفقي   وقلت وقد غلبتني الهموم
بربك أيتها الانجمُ   متى تضع الحرب أوزارها؟

......

كما يقتل الطير في الجنة   ويُقتنص الظبيُ في السبْسب
كذلك يجنى على أمتي   بلا سبب وبلا مُوجب
فحتامَ تؤخذُ بالقوة   ويقتصُّ منها ولم تذنب
وكم تستكينُ وتستسلم   وقد بلغ السيلُ زُنّارها

......

وسيقتْ الى النَّطع سوق النَّعم   مغاويرُها ورجال الادَب

وكل امرئ لم يمت بالخذِم فقد قتلوه بسيف السَّغب (١)
فما حركَ الضيمُ فيها الشمم ولا رؤية الدم فيها الغضب
تبدلت الناسُ والانجمُ ولما تبدّلُ (٢) أطوارَها

......

أرى الليث يدفع عن غيضته بأنيـــابه وبأظفاره
ويجتمع النمل في قريته اذا خشي الغدر من جاره
ويخشى الهزار على وكنته (٣) فيدفع عنها بمنقاره
فلا الكاسرات ولا الضيغم ولا الشاةُ تمدح جزّارها (٤)

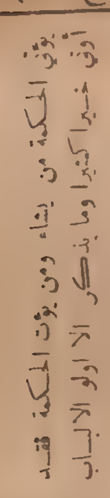
......

عجبت من الضاحك اللاعب وأهلوه بين القنا والسيوف
يبيتون في وجلٍ ناصبٍ فان أصبحوا لجأوا للكهوف
وممن يصفق للضارب وأحبابه يجرعون الحتوف
متى يذكرُ الوطنَ النوَّمُ كما تذكرُ الطيرُ أوكارها



(١) الخذم بوزن كتف السيف القاطع من الخذم وهو القطع بسرعة وفعله بوزن ضرب يضرب . والسغب الجوع

(٢) لو قال تبدلن بنون التوكيد لاستغنى عن ضرورة رفع الفعل المجزوم . والانجم في البيت اما الكواكب وصفها بالتبدل مبالغة أو انواع النبات الذي لاساق له (٣) الوكنة بالضم عش الطائر (٤) يشير الى بعض المنافقين الذين يمدحون هؤلاء المخربين ويعتذرون عن فظائعهم





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

مصر ٢٩ ربيع الاول ١٣٣٥ — ٤ الدلو (ش٢) ١٢٩٥ هـ ش ٢٤ يناير ١٩١٧

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه).

---

(٣٨) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ
أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٩)
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ، مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ
وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

ان هاتين الآيتين مؤيدتان لما قبلهما ومتممتان له، فانه بين في الآيات قبلهما ان الظالمين من مشركي مكة جحدوا بآيات الله جحود عنادلا تكذيب وضرب لهم مثل الذين كذبوا الرسل من قبل ولم يهتدوا بما أوتوا من الآيات المقترحة ولا غيرها — بعد

هذا بين في هاتين الآيتين أنواعا من آياته تعالى في أنواع الحيوان ، والمقارنة بينها وبين الناس ؛ وان المكذبين آيات الله لم يهتدوا بها ، بل ظلوا في ظلمات جهلهم حتى كأنهم لم يروها ولم يسمعوا بها ؛ فعلم بذلك انهم لا يهتدون بالآيات المقترحة أيضا.

وذكر الرازي في وجه النظم ومناسبة الآية الاولى لما قبلها وجهان (الاول) انه تعالى بين في الآية الاولى انه لو كان إنزال سائر المعجزات مصلحة لفعلها ولأظهرها الا انه لما لم يكن اظهارها مصلحة للمكلفين لاجرم ما أظهرها . وهذا الجواب انما يتم اذا ثبت انه تعالى يراعي مصالح المكلفين و يتفضل عليهم بذلك ، فبين ان الامر كذلك وقرره بأن قال (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) في وصول فضل الله وعنايته ورحمته واحسانه اليهم، وذلك كالأمر المشاهد المحسوس، فاذا كانت آثار عنايته واصلة الى جميع الحيوانات فلو كان في اظهار هذه المعجزات القاهرة مصلحة للمكلفين لفعلها ولأظهرها ؛ ولامتنع أن يبخل بها ، مع ما ظهر انه لم يبخل على شيء من الحيوانات بمصالحها ومنافعها ، وذلك يدل على انه تعالى انما لم يظهر تلك المعجزات لان اظهارها يخل بمصالح المكلفين ، فهذا هو وجه النظم والمناسبة بين هذه الآية و بين ما قبلها والله أعلم (الوجه الثاني في كيفية النظم) قال القاضي انه تعالى لما قدم ذكر الكفار و بين أنهم يرجعون الى الله ويحشرون، بين أيضا بعده بقوله (وما من دابة ...) في أنهم يحشرون . والمقصود بيان ان الحشر والبعث كما هو حاصل في حق الناس فهو أيضا حاصل في حق البهائم . اه بنصه

والقارئ يرى أن الوجه الثاني الذي اعتمده القاضي من كبار مفسري المعتزلة ليس مبنيا على مسألة خاصة بهم . وأما الوجه الاول الذي اعتمده الرازي من كبار مفسري الاشعرية ومتكلميهم فهو مبني على مذهب المعتزلة وفريق من أهل السنة دون الاشعرية في رعاية مصلحة المكلفين في أحكام الباري تعالى وأفعاله المتعلقة بشؤونهم . والامام الرازي قد أثبت المصلحة هنا وفي مواضع أخرى ولكنه كثيرا ما يردها أو يرد ما بني عليها. والذي عليه المحققون ان مسألة الصلاح والاصلح ثابتة لاريب فيها وان الخطأ والضلال انما هو في قولهم ان ذلك واجب عليه سبحانه وتعالى، وليس عندنا نقل صحيح صريح عن المعتزلة في ذلك، ونقل المخالف لا يعتد به كما قال

الفقهاء. وانما يقال في كل ماثبت له تعالى من صفات الكمال وماتتعلق به من الافعال المطردة أنها واجبة له لاعليه ، لانه سبحانه هو الاعلى فلا يعلو عليه شيء في شيء. ومذهب الاشعرية ان مراعاة المصلحة ليست من الكمال الواجب له تعالى ويحتجون على ذلك بأمراض الاطفال والبهائم. وفي هذه الحجة بحث لامحل له هنا . وقد اشار الرازي بقوله « ويتفضل عليهم بذلك » الى ان مراعاة المصلحة تفضل لايجب اطراده . فهو مما يجوز في حقه لامما يجب في حقه تعالى

وقال أبو السعود في أول تفسير الآية : كلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته عز وجل وشمول علمه وسعة تدبيره ليكو كالدليل على انه تعالى قادر على تنزيل الآية وانما لا ينزلها محافظة على الحكم البالغة اه ونقل الآلوسي مثله عن الطبرسي ، وقد أخذه أبو السعود من البيضاوي

﴿ وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ﴾ (الدابة) مايدبّ على الارض من الحيوان. والدب والدبيب المشي الخفيف — زاد بعضهم — مع تقارب الخطو. و (الطائر) كل ذي جناح يسبح في الهواء وجمعه طير ، كراكب وركب. (والامم) جمع أمة وهي الجيل أو الجنس من الاحياء، وهذا أحد معاني اللفظ ، وقال الراغب: الامة كل جماعة يجمعهم أمرما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد ، سواء كان ذلك الامر الجامع تسخيرا أو اختيارا ، وجمعها أمم . اه وذكر بعده الآية، وكان ينبغي أن يزيد: أو صفات وأفعال واحدة

والمعنى أنه لا يوجد نوع ما من أنواع الاحياء التي تدب على الارض ولا من أنواع الطير التي تسبح في الهواء الا وهي أمم مماثلة لكم أيها الناس . كما يقول عالم النبات ما من شجرة قامت على ساقها وتشعبت في الهواء أغصانها ولا نجم نبت في هذه الارض الا فصائل لها صفات وخواص مشتركة يمتاز بها بعضها عن بعض . فالدابة والطائر هنا مفرد اللفظ مراد به الجنس اللغوي . تقول طائر الحمام وطائر النحل ، ودابة الحمير ودابة الارض ، كما تقول شجرة التين وشجرة الزقوم . وناهيك بوصف الدابة بكونها في الارض ووصف الطائر بكونه يطير بجناحيه . فهو يشعر بذلك. وان كان في وصف الطائر بما ذكر تنصيص على الحقيقة وسد لطريق المجاز ، فقد

تجوزوا بالطيران عن السرعة كما قال الحماسي:

قوم اذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافاتٍ ووحدانا

ولاحتمال التجوز بدون القيد المذكور مناسبة قوية وهي عطف الطائر على الدابة إذ هي من الدب الذي هو المشي الخفيف كما تقدم ويقابله السريع الذي يشبه بالطيران . وذكر بعضهم لوصف الطائر بما ذكر نكتة أخرى وهي تصوير هيئة الطيران الغريبة الدالة على قدرة الباري وحكمته لذهن السامع والقارئ، وهو حسن لا ينافي ما تقدم، ولا تزاحم بين النكت المتفقة ، ولا بين الحكم المؤتلفة ، ويرى الكثيرون انه لامانع من جمل كلمتي دابة وطائر على أصل معناهما وهو الدلالة في سياق النفي على استغراق الافراد ، وانما أخبر عنها بالامم باعتبار الحمل على معنى الجمعية المستفاد من العموم

وأما السمك فهو أقرب الى الطير منه الى الدواب وله أجنحة قد تسمى الزعانف أكثرها صغير ومنها ماهو كبير كجناح الخفاش ، وهو يطير في الماء غالبا وعلى سطحه أحيانا، وقد يسفّ الى قاعه فيلاصق أرضه في سيره فيكون أشبه بالزاحف منه بالطائر ، ولعل حكمة ترك التصريح به قلة من كان يراه ممن نزلت السورة في مخاطبتهم قبل كل أحد بالدعوة الى الاسلام وإقامة الدلائل عليهم وهم مشركو مكة .

ولمثل هذا المعنى خص دواب الارض بالذكر لانها هي التي يراها المخاطبون عامة، ويدركون فيها معنى المماثلة ، دون دواب الاجرام السماوية ، القابلة للحياة الحيوانية ، التي أعلمنا بوجودها في قوله (٤٢: ٢٧ ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير) فهي قد ذكرت هنا بالتبع لذكر خلق السموات والارض، فكان الاعلام بها نافلة وفائدة زائدة على مايقوم به دليل الآية، وهي من أخبار عالم الغيب وردت بعبارة تشعر بما يدل عليها من القياس على عالم الشهادة ، وانما تظهر صحة هذا القياس حتى لغير المؤمن بالقرآن بعد البحث وسعة العلم بالهيئة الفلكية ، وقد علم أهل هذا العلم من المتأخرين ان بعض هذه الكواكب (كالمريخ) فيه ماء ونبات، فلابد ان يكون فيه أنواع من الحيوان ، بل فيه امارات على وجود عالم اجتماعي صناعي كالانسان ، منها ما يرى على سطحه بالمرآة المقربة (المرقب — التلسكوب) من الجداول المنظمة والخلجان، فالآية التي نفسرها ترشدنا

بهذا وبوصف أنواع الحيوان بأنها أمم أمثالنا الى البحث في طبائع الاحياء لنزداد علما بسنن الله تعالى وأسراره في خلقه ، ونزداد بآياته فيها إيمانا وحكمة وحضارة وكمالا ، ونعتبر بحال المكذبين بها، الذين لم يستفيدو مما فضلهم الله به على الحيوان شيئا، فكانوا أضل من جميع أنواعه التي لا تجني على نفسها ما يجنيه الكافر على نفسه

وقد اختلف المفسرون في وجه المماثلة بين الدواب والطير و بين الانسان ففي الدر المنثور عن مجاهد في قوله تعالى (الا أمم أمثالكم) قال أصنافاً مصنفة تعرف بأسمائها — وعن قتادة : الطير أمة والانس أمة والجن أمة — وعن السدي: خلق أمثالكم . فالاولان على أن المماثلة بالصفات المشتركة التي يتميز به بعض الانواع والاصناف عن بعض ، وهي التي نسميها المقومات والمشخصات ، والثالث على أن المماثلة في أصل الخلق ؛ أي كونها مخلوقة مثلنا ، ويتبع ذلك ما يلازمه من حكمة الله وتدبيره فينا وفيها . ونقل الواحدي عن ابن عباس أن المراد بالمماثلة أنها تعرف الله وتوحده وتسبحه وتحمده كما يفعل المؤمنون منا ، وتوسع بعض الصوفية في هذا وما قبله فقالوا انها عاقلة ومكلفة وان لها رسلا منها. وقيل ان المماثلة باحصاء الكتاب لجميع الاحوال المتعلقة بحياتها وموتها كالبشر ، وقيل انها بحشر الله تعالى إياها كما يحشرنا وحسابه لها كما يحاسبنا، واختار الرازي انها بعناية الله تعالى ورحمته بها وفضله عليها، كما تقدم عنه في وجه النظم ومناسبة الآية لما قبلها. ونقل عن سفيان ابن عيينة انه . قرأ الآية قال : ما في الارض آدمي الا وفيه شبه من بعض البهائم ، فمنهم من يقدم إقدام الاسد ومنهم من يعدو عدو الذئب ومنهم من ينبح نباح الكلب ومنهم من يتطوس (أي يتزين) كفعل الطاووس ، ومنهم من يشبه الخنزير فانه لو ألقي اليه الطعام الطيب تركه واذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه ، فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها فان أخطأت مرة واحدة حفظها ولم يجلس مجلسا الا رواه عنه (؟) —ثم قال— فاعلم يا أخي انك انما تعاشر البهائم والسباع ، فبالغ في الحذار والاحتراز اه وهذا القول—اذا صح دخوله في ضمن الصفات الحيوانية المشتركة بين الانسان والحيوان — لا يصح أن يكون هو المراد من الآية وإن جعل الخطاب بها للمشركين خاصة ، لان السياق هنا ليس لبيان

صفاتهم المذمومة كقوله (ان هم الا كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقوله (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ ان هم الا كالانعام بل أضل سبيلا)

والمختار عندنا أن الله تعالى أرشدنا الى أن أنواع الحيوان أمم أمثال الناس، ولم يبين لنا وجه المماثلة بينهما لاجل ان نستعمل حواسنا وعقولنا في البحث الموصل الى ذلك كما قلنا آنفاً ، وللمماثلة وجوه كثيرة اهتدى بعض العلماء الى بعضها ويجوز أن يهتدي غيرهم الى غير ما اهتدوا اليه ، ولا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه الاخصائيون في كل علم وفن، وتيسرت فيه أسباب البحث، اذ يوجد في بلاد العلم والحضارة ساتين لتربية أنواع السباع والحشرات والبهائم الوحشية والآنسة والطير والسمك ، فالعلماء الذي يعنون بتربيتها ودرس غرائزها وطباعها وأعمالها في تلك البساتين وفي غيرها قد وصلوا الى علم جم ووقفوا على أسرار غريبة ، ومما ثبت من مشابهة النمل للناس أنه يغزو بعضه بعضاء وأن المنتصر يسترق المنكسر و يسخره في حمل قوته و بناء قراه وغير ذلك . وقد صارت أمم العلم والحضارة تحرص على بقاء كل نوع من أنواع الحيوان فاذا رأت بعض مايصاد من الطير وغيرها قل في بلادها وخشي انقراضه منها تحرم على الناس صيده. ولهذا العمل أصل في السنة عندنا فقد روي أن النبي (ص) كان أحب أن تقتل الكلاب في المدينة لمثل السبب الذي تقتل به حكومة مصر وغيرها الكلاب الضالة ، بل كان أمر بذلك ثم نهى عنه وقال « لولا ان الكلاب أمة من الامم لامرت بقتلها كلها فاقتلوا منها الاسود البهيم » رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي عن عبد الله بن مغفل ، وعلل قتل الكلب الاسود البهيم في حديث آخر عند احمد ومسلم بأنه شيطان، أي ضار مؤذ فان اسم الشيطان يطلق لغة على العارم الخبيث من الانس والجان والحيوان ، وقد سأل المنصور العباسي عمرو بن عبيد عن سبب هذا الحديث فلم يعرف فقال المنصور : لانه ينبح الضيف و يروع السائل

﴿ مافرطنا في الكتاب من شيء ﴾ التفريط في الامر التقصير فيه وتضييعه حتى يفوت — كما في الصحاح — ويقال فرّطه وفرط فيه كما في القاموس ولسان العرب. ومنه قول صخر الغي * وذلك بزي فان أفرطه * البز هنا السلاح. ويقال فرط فلانا — اذا تركه وتقدمه . روي عن ابن عباس تفسير الكتاب هنا بأم الكتاب .

وفسروا أم الكتاب بأنه أصله وجملته، وقالوا انه اللوح المحفوظ، وهو خلق من عالم الغيب أثبت الله تعالى فيه مقادير الخلق ما كان منها وما يكون بحسب النظام المعبر عنه بالسنن الالهية. ومنهم من يفسر الكتاب هنا — وكذا أم الكتاب في آيتي الرعد والزخرف — بالعلم الالهي المحيط بكل شيء، شبه بالكتاب بكونه ثابتا لا ينسى. وقال بعضهم ان المراد بالكتاب هنا القرآن، ولا يصح أن يكون القرآن أم الكتاب لان أم الكتاب شامل له ولغيره من كتب الله تعالى ومن مقادير خلقه. قال تعالى بعد ذكر القرآن في أول الزخرف (وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)

ومعنى الجملة ماتركنا في الكتاب شيئا لم نثبته فيه تقصيرا واهمالا بل أحصينا فيه كل شيء أو جعلناه تبيانا لكل شيء. فاذا أريد بالكتاب العلم الالهي أو اللوح المحفوظ فالاستغراق على ظاهره. واذا أريد به القرآن فالمراد بقوله « من شيء» — الدال على العموم — الشيء الذي هو من موضوع الدين الذي يرسل به الرسل وينزل به الكتب وهو الهداية، لان العموم في كل شيء بحسبه. أي ما تركنا في الكتاب شيئا ما من ضروب الهداية التي نرسل الرسل لاجلها الا وقد بيناه فيه، وهي أصول الدين وقواعده وأحكامه وحكمها والارشاد الى استعمال القوى البدنية والعقلية في الاستفادة من تسخير الله كل شيء للانسان ومراعاة سننه تعالى في خلقه التي يتم بها الكمال المدني والعقلي، فالقرآن قد بين ذلك كله بالنص أو الفحوى ومنه ما أرشد اليه هنا من علم الحيوان، الذي يهدي الى كمال المعرفة والايمان. وقد بينا وجه اشتمال الكتاب على جميع أمر الدين في تفسير (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) من هذا الجزء وتفسير (اليوم أكملت لكم دينكم) من تفسير الجزء السادس. وتفسير (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) من تفسير الجزء الخامس، فليرجع اليها من شاء.

ومن الناس من قال ان القرآن قدحوى علوم الاكوان كلها، وان الشيخ محيي الدين ابن العربي وقع عن حماره فرضت رجله فلم يأذن للناس بحمله الا بعد أن استخرج حادثة وقوعه ورض رجله من سورة الفاتحة. وهذا القول لم يقل به أحد من سحابة

ولا علماء التابعين ولا علماء السلف الصالحين ، ولا يقبله أحد من الناس الامن يرون أن كل ما كتبه الميتون في كتبهم حق ، وان كان لا يقبله عقل ، ولا يهدي اليه نقل ، ولا تدل عليه اللغة . بل قال أئمة السلف ان القرآن لا يشتمل على جميع فروع أحكام العبادات الضرورية بدلالة النص ولا الفحوى ، وانما أثبت وجوب اتباع الرسول فصار دالا على كل ما ثبت في السنة وأثبت قواعد القياس الصحيح وقواعد أخرى فصار مشتملا على جميع فروعها وجزئياتهـا ، ولا يخرج شيء من الدين عنها . وان قبول الناس للخرافة المروية عن ابن العربي هي التي جرأت مثل مسيح الهند أحمد القادياني على ذلك التفسـير الذي فسر به الفاتحة وزعم انه معجزته الدالة على كونه هو المسيح المنتظر . وكله لغو وهذيان ، ومن أغرب ان اسم الرحمن في الفاتحة دليل على بعثة خاتم الرسل محمد (ص) واسم الرحيم دليل على بعثته هو

﴿ ثم الى ربهم يحشرون ﴾ أي ثم يبعث أولئك الامم من الناس والحيوان يوم القيامة و يساقون مجتمعين الى ربهم المالك لأمرهم لا الى غيره فيحاسب كلا على ما فعل ، و يقتص للمظلوم ممن ظلم ، وانما حسن عود ضميري الغيبة في ربهم وفي يحشرون الى الدواب والطير والناس جميعا لانه خبر من الله تعالى عطف على خطاب الناس وغلب فيه ضمير الاشرف ، واذاجعل من جملة الخطاب تعين رجوع الضميرين الى الدواب والطير ، ونكتة جعلهما من ضمائر العقلاء حينئذ تشبيه أممهما بأمم البشر وذلك اجراء لهما مجرى العقلاء . و يؤيد حشر تلك الامم كلها قوله تعالى (واذا الوحوش حشرت) وحديث أبي ذر عند أحمد وعبد الرزاق وابن جرير ان رسول الله (ص) رأى عنزان ينتطحان فقال « يا أبا ذر هل تدري فيم ينتطحان ؟ — قال لا ، قال — لكن الله يدري وسيقضي بينهما » وفي رواية أتدرون فيم انتطحتا ؟ قلنا لا . وزاد في رواية ابن جرير : عن أبي ذر : ولقد تركنا رسول الله (ص) وما يقلب طائر جناحيه الا ذكر لنا منه علما . والحديث مروي من طريق منذر الثوري وهو ثقة . وفيه حجة على كون علم الحيوان من علوم الهداية المشروعة في الاسلام لما ذكرنا من فائدته آنفا .

وروى البيهقي في شعب الايمان والخطيب في تالي التلخيص وابن عساكر عن

عبيدالله بن أبي زيادة البكري قال: دخلت على ابني بشر المازنيين صاحبي رسول الله (ص) فقلت يرحمكما الله ؟ الرجل منا يركب الدابة فيضربها بالسوط أو يكبحها باللجام فهل سمعتما من رسول الله (ص) في ذلك شيئا ؟ فقالا لا . قال عبيد الله فنادتني امرأة من الداخل فقالت يا هذا ان الله يقول في كتابه (وما من دابة في الارض ولا طائر ...) الآية فقالا هذه اختنا وهي أكبر منا وقد أدركت رسول الله (ص) — فهذه الصحابية استدلت بالآية على وجوب الرفق والرحمة بالدواب وغيرها من الحيوان وانه تعالى يحاسب الناس على ظلمهم لها يوم يحشرهم اليه جميعا.

ويؤيده ما ورد في ذلك من الاحاديث كحديث « مامن انسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حقها الا سأله الله عز وجل عنها يوم القيامة » وذكر ان حقها أكلها . رواه النسائي والحاكم وصححه وفي معناه حديث آخر عند النسائي وابن حبان في صحيحه ، وحديث « ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدَّ أحدكم شفرته ، وليُرح ذبيحته » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الاربعة من حديث شداد بن أوس مرفوعا ، وأخرج رواة التفسير المأثور والحاكم وصححه عن أبي هريرة في تفسير الآية ان الله يحشر هذه الامم القيامة و يقتص لبعضها من بعض حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن . وفي رواية للجماء من القرناء . وغلط الآلوسي فعزاه الى حديث الصحيحين . ونقل عن المعتزلة ان العقل يدل على وجوب إعادة الحيوان كالانسان للتعويض على كلٍّ لا لمحض العقاب على الجناية فكل حي أصابه ألم يجب ان ينال عوضا عنه فاذا كان الالم بفعل الله أو بشرعه كالذي يذبح ليؤكل أو يقتل اتقاء ضرره فالله يعوضه عن ذلك

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عباس في قوله (ثم الى ربهم يحشرون) قال : موت البهائم حشرها . وفي لفظ قال يعني بالحشر الموت . قال السيد الآلوسي : ومراده رضي الله تعالى عنه — على ما قيل — ان قوله سبحانه (ثم الى ربهم يحشرون) مجموعه مستعار على سبيل التمثيل للموت كما ورد في الحديث « من مات فقد قامت قيامته »(١) فلا يرد عليه ان الحشر بعث من مكان الى آخر

(١) رواه الديلمي عن أنس مرفوعا بلفظ « اذامات أحدكم فقدقامت قيامته »

وتعديته بالى تنصيص على انه لم يرد به الموت مع أن في الموت أيضا نقلا من الدنيا الى الآخرة . اه وصوب ابن جرير أن المراد الحشران جميعاً حشر الموت وحشر البعث، وعلله بأن الحشر في كلام العرب الجمع وهو يشملهما ولا مرجح لاحدهما من كتاب ولا سنة. هذا محصل قوله، والصواب ان الحشر جمع و بعث أو كما قال الراغب اخراج الجماعة عن مقرهم وازعاجهم الى الحرب ونحوها، ففيه معنى الجمع لانه لايطلق على الواحد . ومعنى الحشر بالموت سوق الاحياء اليه حتى يكون هو غايتهم

وأحسن ماقاله ابن جرير في تفسير الآية بيان وجه العبرة والموعظة فيها، قال: يقول الله تعالى لنبيه محمد (ص) قل لهؤلاء المعرضين عنك المكذبين بآيات الله أيها القوم لاتحسبن الله غافلا عما تعملون، أو أنه غير مجازيكم على ماتكسبون؟ وكيف يغفل عن أعمالكم، أو يترك مجازاتكم، وهو غير غافل عن عمل شيء دب على الارض صغيرا أو كبيرا، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناسا مجنسة، وأصنافا مصنفة، تعرف كما تعرفون، و تتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومثبت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب. ثم انه تعالى ذكره مميتها، ثم منشرها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها. يقول فالرب الذي لم يضيع حفظ البهائم والدواب في الارض والطير في الهواء حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحشرها ثم جازاها على ماسلف منها في دار البلاء، أحرى أن لايضيع أعمالكم ولا يفرط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها أيها الناس، حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا، اذ كان قد خصكم من نعمه و بسط عليكم من فضله مالا يعم غيركم في الدنيا، وكنتم بشكره أحق، وبمعرفة واجبه عليكم أولى، لما أعطاكم من العقل الذي به بين الاشياء تميزون، والفهم الذي لم يعطه البهائم والطير الذي به بين مصالحكم ومضاركم تفرقون اه

﴿ مسائل مستنبطة من الآية منقولة عن روح المعاني ﴾

الاستدلال بها على التناسخ

قال الآلوسي بعد تفسير الآية: هذا وفي رسالة المعاد لأبي علي: قال المعترفون

= ولكنه اشتهر على الألسنة باللفظ الذي ذكره الآلوسي

بالشريعة من أهل التناسخ ان هذه الآية دليل عليه لانه سبحانه قال (وما من دابة) الخ وفيه الحكم بأن الحيوانات الغير الناطقة[1] أمثالنا وليسوا أمثالنا بالفعل فيتعين كونهم أمثالنا بالقوة وضرورة صدق هذا الحكم وعدم الواسطة بين الفعل والقوة وحينئذ لا بد من القول بحلول النفس الانسانية في شيء من تلك الحيوانات وهو التناسخ المطلوب. ولا يخفى أنه دليل كاسد على مذهب فاسد

هل للبهائم نفوس ناطقة

(قال) ومن الناس من جعلها دليلا على ان للحيوانات بأسرها نفوسا ناطقة كما لافراد الانسان واليه ذهب الصوفية و بعض الحكماء الاسلاميين وأورد الشعراني في (الجواهر والدرر) لذلك أدلة غير ما ذكر (منها) أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر وتعرض كل من الانصار لزمام ناقته قال عليه الصلاة والسلام « دعوها فانها مأمورة » ووجه الاستدلال بذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أخبر أن الناقة مأمورة ولا يعقل الامر الا من له نفس ناطقة، واذا ثبت ان للناقة نفسا كذلك ثبت للغير اذلا قائل بالفرق (ومنها) ما يشاهد في النحل وصنعتها اقراص الشمع، والعناكب واحتيالها لصيد الذباب والنمل، وادخاره لقوته على وجه لا يفسد معه ما ادخره. وأورد بعضهم دليلا لذلك أيضا النملة التي كلمت سليمان عليه الصلاة والسلام بما قص الله تعالى لنا عنها مما لا يهتدي الى ما فيه الا العالمون، وخوف الشاة من ذئب لم تشاهد فعله قبل ، فان ذلك لا يكون الاعن استدلال وهو شأن ذوي النفوس الناطقة ، وعدم افتراس الاسد المعلم مثلا صاحبه فان ذلك دليل على اعتقاد النفع ومعرفة الحسن ، وهو من شأن ذوي النفوس

القول بتكليف البهائم

(قال) وأغرب من هذا دعوى الصوفية ونقله الشعراني عن شيخه علي الخواص قدس الله تعالى سره ان الحيوانات مخاطبة مكلفة من عند الله تعالى من حيث لا يشعر المحجوبون . ثم قال ويؤيده قوله تعالى (وان من أمة الا خلا فيها نذير) حيث نكر سبحانه وتعالى الامة والنذير وهم من جملة الامم . ونقل عن ابن عباس

(١) الصحيح الفصيح : ان يقال : غير الناطقة

رضي الله تعالى عنهما انه كان يقول جميع ما في الامم فينا(؟) حتى ان فيهم ابن عباس مثلي ، وذكر في الاجوبة المرضية ان فيهم أنبياء . وفي الجواهر انه يجوز أن يكون النذير من أنفسهم وان يكون خارجا عنهم من جنسهم . وحكى شيخه عن بعضهم انه قال ان تشبيه الله تعالى من ضل من عباده بالانعام في قوله سبحانه وتعالى (ان هم الا كالانعام) ليس لنقص فيها وانما هو لبيان كمال مرتبتها في العلم بالله تعالى حتى حارت فيه فالتشبيه في الحقيقة واقع في الحيرة لا في المحار فيه فلا أشد حيرة من العلماء بالله تعالى، فأعلى ما يصل اليه العلماء بربهم سبحانه وتعالى هو مبتدأ البهائم الذي لم تنتقل عنه أي عن أصله وان كانت متنقلة في شؤونه بتنقل الشؤون الالهية لانها لا تثبت على حال، ولذلك كان من وصفهم الله عز وجل من هؤلاء القوم أضل سبيلا من الانعام، لانهم يريدون الخروج من الحيرة من طريق فكرهم ونظرهم ولا يمكن ذلك لهم، والبهائم علمت ذلك ووقفت عنده ولم تطلب الخروج عنه ، وذلك لشدة علمها بالله تعالى انتهى

(قال) ونقل الشهاب عن ابن المنير أن من ذهب الى ان البهائم والهوام مكلفة لها رسل من جنسها فهو من الملاحدة الذين لا يعول عليهم كالجاحظ وغيره، وعلى إكفار القائل بذلك نص كثير من الفقهاء، والجزاء الذي يكون يوم القيامة للحيوانات عندهم ليس جزاء تكليف، على ان بعضهم ذهب الى ان الحيوانات لا تحشر يوم القيامة وأول الظواهر الدالة على ذلك. وما نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا أصل له . والمثلية في الآية لا تدل على شيء مما ذكر

القول بأن كل موجود حي

(قال) وأغرب الغريب عند أهل الظاهر أن الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم جعلوا كل شيء في الوجود حيا دراكا يفهم الخطاب، ويتألم كما يتألم الحيوان ، وما يزيد الحيوان على الجماد الا بالشهوة ، ويستندون في ذلك الى الشهود ، وربما يستدلون بقوله سبحانه وتعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وبنحو ذلك من الآيات والاخبار .

والذي ذهب اليه الاكثرون من العلماء أن التسبيح حالي لا قالي . ونظير ذلك

« شكا الي جملي طول السرى » و « امتلأ الحوض وقال قطني » ومايصدر عن بعض الجمادات من تسبيح قالي كتسبيح الحصى في كفه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم مثلا انما هو عن خلق إدراك اذ ذاك، ومايشاهد من الصنائع العجيبة لبعض الحيوانات ليس كما قال الشيخ الرئيس مما يصدر عن استنباط وقياس بل عن إلهام وتسخير، ولذلك لاتختلف ولاتتنوع، والنقض بالحركة الفلكية لايرد بناء على قواعدنا ، وعدم افتراس الاسد المعلم مثلا صاحبه ليس عن اعتقاد بل هناك هيئة أخرى نفسانية وهي أن كل حيوان يحب بالطبع مايلذه، والشخص الذي يطعمه محبوب عنده فيصير ذلك مانعا عن افتراسه، وربما يقع هذا العارض عن إلهام إلهي مثل حب كل حيوان ولده. وعلى هذا الطرز يخرج الخوف مثلا الذي يعترى بعض الحيوانات .

(قال) وقد أطالوا الكلام في هذا المقام وأنا لاأرى مانعا من القول بأن للحيوانات نفوسا ناطقة وهي متفاوتة الادراك حسب تفاوتها في أفراد الانسان ، وهي مع ذلك كيفما كانت لا تصل في ادراكها وتصرفها الى غاية يصلها الانسان . والشواهد على هذا كثيرة وليس في مقابلتها قطعي يجب تأويلها لاجله، وقد صرح غير واحد انها عارفة بربها جل شأنه

(قال) وأما ان لها رسلا من جنسها فلا أقول به ولا أفتي بكفر من قال به. وأما ان الجمادات حية مدركة فأمر وراء طور عقلي والله تعالى على كل شيء قدير وهو العليم الخبير اه

نقول : أما مذهب التناسخ . فهو من الاساطير الخرافية، التي ولدتها الخيالات الشعرية، فلا نضيع الوقت بالخوض في بيان بطلانها .

وأما قول من قال ان للحيوانات نفوسا ناطقة فان أريد به أنها كنفس الانسان فتحقيقه يتوقف على معرفة كنه هذه النفس وأين من يدعي هذا ويثبت دعواه ؟ ولا ينكر من له أدنى إلمام بعلم الحيوان وما أوتيه من أنواعه من أنواع الادراك الذي يفوق بعضه ادراكات الناس ولكنها تنحصر في مناطق ضيقة جدا لانها متعلقة بحفظ حياته الفردية والنوعية وهي محدودة ضيقة . ولعلنا نفصل القول فيها في تفسير آية أخرى، وادراك البشر لا تنحصر أنواعه ولا أفراده ، وانما كان استعداده العلمي غير محدود

بحد، لانه خلق لحياة غير محدودة بحد، وهي حياة الآخرة. ودعوى تكليف الحيوان الاعجم وبعثة رسل منه في كل أمة من أممه لا يدل عليها عقل ولا نقل . وقوله تعالى (وان من أمة الا خلا فيها نذير) نزل في سياق الكلام عن البشر

وأما القول بحياة الجماد فهو منقول عن بعض الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين، وعن بعض الطبيعيين والكيماويين ، ولهم عليه دلائل علمية ونظرية، ويتوقف بيان ذلك على تعريف الحياة ومظاهرها وخواصها كالتغذي والنمو والتولد والموت ، وفي تلك الجمادات ولا سيما الاجسام المتبلورة شيء من ذلك . وكان شيخنا الاستاذ الامام يعتقد ان الحياة منبثة في العالم كله ، ولعلنا نعود الى هذا البحث بعد

﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات ﴾ أي والكفار الذين كذبوا بآياتنا المنزلة وما أرشدت اليه من آياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق ماجاء به رسولنا تكذيبَ جحود واستكبار ، أو تكذيب جمود على تقليد الآباء وطاعة الكبراء ، صم لا يسمعون دعوة الحق والهدى سماع فهم وقبول ، وبكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ولا يقرون بما يدعوهم اليه الرسول ، متسكعون — أو حال كونهم متسكعين خابطين — في تلك الظلمات الحالكة - ظلمة الشرك والوثنية، وظلمة تقاليد الجاهلية، وظلمة كبرياء العصبية، - وظلمة الجهل والامية، — ظلمات بعضها فوق بعض ،لاينفذ منها اليهم من نور الهداية شيء ، فهم لايبصرون صراطها ، ولايرون منهاجها، وذلك ما جنوه على أنفسهم بسوء اختيار الافراد وفساد تربية المجموع ، ولكل سيرة غاية تنتهي اليها بحسب سنن الله التي قضت بها حكمته ، ونفذت بها مشيئته

﴿ مَن يشأ الله يضلله ﴾ أي من تعلقت مشيئة الله بإضلاله يضلله كما أضلّ هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى فلم يستعملوا اسماعهم ولا أفواههم ولا عقولهم في آيات الله تعالى الدالة على حقية ماجاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وانما اضلاله إياهم اقتضاء سننه في عقول البشر وغرائزهم وأخلاقهم ان يعرض المستكبر عن دعوة من يراه دونه، واتباع من يراه مثله ، وان ظهر له ان الحق معه، وان يعرض المقلد عن النظر في الآيات والدلائل التي تنصب لبيان بطلان تقاليده واثبات خلافها ، مادام مغرورا بها مكبرا لمن جرى من الآباء والكبراء عليها . وليس معنى ذلك أن يخلق الله

تعالى الضلال لمن شاء إضلاله خلقا، ويجعله له غريزة وطبعا، ولا ان يلجئه اليه إلجاء، ويكرهه عليه اكراها، فيكونَ اعراضه عن الحق والخير وإقباله على الباطل والشر كحركة الدم في الجسد، وعمل المعدة في الهضم، ﴿ ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ أي ومن يشأ هدايته واستقامته يجعله على طريق مستقيم، وهو طريق الحق الذي لا يضل سالكه. ولا ينجو تاركه، بأن يوفقه لاستعمال سمعه وبصره وعقله في آيات الله المنزلة وآياته المكونة، استعمالا يعرف به الحق ويعترف به، ويعرف به الخير ويعمل به، بحسب سننه سبحانه وتعالى في الارتباط بين الاعمال البدنية، والعقائد والوجدانات النفسية، وليس معناه ان يخلق له الهداية خلقا كما خلق روحه وبدنه، ولا نه يجبره عليها فيلصق به كارها غير مختار، وفي القرآن آيات كثيرة تدل على ان مشيئة الاضلال انما تعلق بأصحاب الاعمال الكسبية التي هي الضلال أوسبب الضلال ومشيئة الهداية تتعلق بما يقابل ذلك

قال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقال تعالى (ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال (وما يضل به الا الفاسقين) كما قال (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور) فالجمع بين الآيات هو الموافق لفطر البشر وعقولهم وان خالف بعض نظريات المعتزلة والجبرية والاشعرية، فليس الانسان خالقا لافعال نفسه، مستقلا بها دون مشيئة خالقه وسننه في خلقه، ولم يجعل الرب ما يصدر عن الناس من الايمان والكفر والخير والشر من قبيل ما خلقه لهم من حركات دمائهم في أبدانهم، وأعمال معدهم وأمعائهم، ولا من قبيل حركات المرتعش منهم، فلا نغلو في التنزيه والحكمة الالهية غلوا نجعل به ضلال من ضل واقعا بغير مشيئة الله تعالى مقدّر المقادير وواضع السنن الحكيمة في الخلق كله، ولا نغلو في المشيئة فنجعلها منافية للحكمة والرحمة، سالبة لما علم من فطرة الله بالضرورة

وقد زعم بعض المعتزلة ان الآية في بيان ما يكون عليه الكافرون والمؤمنون في الآخرة كما قال في آية أخرى (١٧ : ٩٧ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا

وبكما وعميا) قال وان المراد بالاضلال إضلالهم عن طريق الجنة جزاء لهم، ويقابله جعل المتقين على صراط موصل الى الجنة. ويردّ هذا التأويل وورود الآية في وصف حال المكذبين بآيات الله في سياق إقامة الحجج عليهم، وليس فيها ذكر للآخرة ولا هي واردة في سياق الجزاء، واسناد الاضلال الى الله تعالى لا يقتضي اخراجها عن ظاهرها فمثله في القرآن كثير

ومن نكت البلاغة في الآية ان قوله تعالى (صم وبكم في الظلمات) في معنى قوله تعالى في سورة البقرة (٢:٧ و١٧٠ صم بكم عمي) فلماذا سردت الصفات الثلاث فى البقرة مفصولة ووصلت كلها بالعطف في آية الاسراء (٢٧ : ٩٧) التي ذكرناها آنفا، وعطفت الثانية على الاولى هنا دون قوله (في الظلمات) الذي هو في معنى الثالثة؟ لم أر لاحد كلاما في الفرق بين هذه الآيات ولكن ذكر في روح المعاني ان العطف بين الصم والبكم لتلازمهما وتركه فيما بعدهما للايماء الى انه كاف للاعراض عن الحق. والذي يظهر لنا في المقابلة ان ترك العطف في آيتي البقرة لبيان ان هذه الصفات لاصقة بالموصوفين بها مجتمعة في آن واحد — والاولى منهما في المختوم على قلوبهم الميئوس من ايمانهم من المنافقين وغيرهم، والثانية في المقلدين الجامدين — وكل منهما لا يستمع لدعوة الحق عند تلاوة القرآن وغيره ولا يسأل الرسول ولا غيره من المؤمنين عما يحوك في قلبه ويجول في ذهنه من الكفر والشك، ولا ينطق بما عساه يعرف من الحق، ولا يستدل بآيات الله المرئية في نفسه ولا في الآفاق، فكأنه أصم أبكم أعمى في آن واحد، وأما الآية التي نفسرها في مشركي مكة ولم يكونوا كلهم من المختوم على قلوبهم الميئوس من ايمانهم، ولا من المقلدين الجامدين الذين لا ينظرون في شيء من الآيات الالهية المنزلة والمكونة، بل كان منهم الجامد على التقليد والاعراض عن سماع القرآن حتى كانه أصم (واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستدبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا) ومنهم من يسمع ويعلم أنها الحق ولكنه لا ينطق بما يعلم عنادا فهذان فريقان منفصلان عطف أحدهما على الآخر لبيان هذا الانفصال. وقوله «في الظلمات» أما حال منهما لبيان ان كلا منهما خابط في الظلمات إما المشتركة كظلمتي الشرك والجهل، واما الخاصة بفريق دون آخر كظلمتي

التقليد والكبر ، فبعض المقلدين غير مستكبرين وهم الفقراء ، و بعض المستكبرين غير جامدين على تقليد الآباء ، وإما صفة لبكم فيكون المكذبون المحكي عنهم قسمين كل منهما فريقان (الاول) الذين شبهوا بالصم وهم الذين لا يسمعون القرآن مطلقا ، استغناء عن هدايته بضلالهم ومشاغبة للداعي اليه (وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) والذين لا يسمعون سماع فهم وتأمل ، لتوهمهم عدم الحاجة الى دين غير دين آبائهم ، أو لأن رؤساءهم ينهونهم و يصدونهم عنه ، ولم يوصف هؤلاء بأنهم في الظلمات — على هذا الوجه - لأن سماعهم مرجو وهدايتهم مأمولة عند زوال المانع . (الثاني) الذين شبهوا بالبكم وهم الذين عرفوا الحق واستيقنوا صدق الرسول بالآيات والدلائل ، ولكنهم يكتمونها أو يجحدون بها كبراً وعنادا ، لا تكذيبا له ولا إكذابا ، كما تقدم قريبا في الآية ٣٧ — والذين لم يعرفوا الحق ولم يسألوا ولم يبحثوا فهم كالبكم لعدم استفادتهم من الكلام . ووصف هذا الفريق من البكم -وهم الجاهلون- بأنهم في الظلمات لانهم لا ينظرون في دلالة الآيات المرئية ، ووصف بذلك الفريق الاول أيضا -وهم المستكبرون - لانهم لا تؤثر في قلوبهم رؤية الرسول (ص) وصفاته القدسية ، وقد كانت شمائله الشريفة المرضية ، وروحانيته التي هي أقوى من الكهربائية ، تؤثر في النفوس المستعدة فتجذبها الى الايمان ، من غير حاجة الى اقامة حجة ولا تأليف برهان ، وقد كان يجيئه الاعرابي السليم الفطرة ممتحنا أو معاديا فاذا رآه آمن وقال ما هذا وجه كذاب . ودخل عليه رجل فأخذته رعدة شديدة من مهابته فقال له (ص) « هوّن عليك فاني لست بملك ولا جبار انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة » فنطق الرجل بحاجته . رواه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح على شرط الشيخين

ومن الشواهد المؤيدة لما ذكرنا من التقسيم قوله تعالى في سورة يونس (١٠ : ٤٢ ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ٤٣ ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون) وأما آية الاسراء فلا يظهر فيها هذا التقسيم ، ولا معنى ما دلت عليه آيتا البقرة من ارادة اجتماع تلك الصفات الثلاث الحائلة دون جميع طرق الهداية . وانما تفيد ان هذه العلل تعرض لهم في حالات وأوقات مختلفة من يوم الحشر والجزاء ، فيكونون عميا هائمين في الظلمات على وجوههم (٥٧ : ١٢ يوم ترى المؤمنين

والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم و بايمانهم) فلا يرون الطريق الموصل الى الجنة عند مايساق أهلها اليها، و يكونون بكما يوم «لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون» وذلك في بعض مواقف القيامة وأحوالها ، و يكونون صما لا يسمعون شيئا يسرهم، عندما يسمع المؤمنون المتقون بشرى المغفرة من ربهم. و يؤيد هذا التفسير مجموع ماورد في الآيات والروايات من بيان حال الكفار في الآخرة وروي نحوه عن ابن عباس (رض) فظهر الفرق بينه و بين آيتي البقرة المراد بهما اجتماع الصمم والبكم والعمى في حال واحدة ووقت واحد كانها صفة واحدة، ولو حصل بعضها دون بعض لما أفادت انهم لا يؤمنون

وتأمل كيف بدأ بذكر الصم في سياق الكلام عن دعوة الاسلام و بيان اعراضهم عن قبولها، و بدأ بذكر العمي في سياق الكلام عن الحشر، فيالله العجب من دقائق بلاغة هذا القرآن التي أعجزت البشر ، وكلما غاص غائص في بحارها استفاد شيئا جديدا من فرائد الدرر ، فلا تنفد عجائب إعجاز مبانيه ، ولا تنتهي عجائب إعجاز معانيه .

﴿ تصحيح ﴾ في السطر الاول من ص ٤٥٤ « إن هم الا كالانعام » وصوابه (أولئك كالانعام)

رحلة الحجاز

٢

(تابع لما في الجزء الخامس)

ضربت وزارة الداخلية يوم السبت الخامس والعشرين من شهر صفر (الموافق لأول الميزان ٢٣ سبتمبر) موعدا لسفر ركب المحمل المصري من القاهرة الى السويس وآذنت مريدي الحج بأن يكونوا قبل ذلك اليوم في السويس ليأخذوا فيها أهبتهم ويتبوءوا أمكنتهم من الباخرتين اللتين أعدتها لحملهم الى جُدة. و بينا أنا منهمك في الاستعداد للسفر بشراء ماينبغي شراؤه، وترتيب ماتقرر حمله، واعداد ماتحتاج اليه الدار، و إدارة المنار، خطر في بالي أن أكتب رسالة في مناسك الحج أبين فيها أحكامه وحكمها بعبارة سهلة، مأخوذة مماصح في السنة، وأن أطبعها وأحملها معي هدية للحجاج الذين أصحبهم وألقاهم . فشرعت في ذلك وقت الظهر من يوم الاربعاء فكنت أكتب عدة أسطر ثم أترك الكتابة عدة دقائق للاشتغال بشيء ضروري. ثم انني اضطررت

الى ترك الكتابة من ظهر يوم الخميس الى ضحوة يوم الجمعة، ثم قضيت أصيل ذلك النهار وغسق الليل خارج المكتب والدار، فتعذر الجمع بين اكمال المناسك والسفر في يوم الجمعة فأكملت كتابتها في هذا اليوم (الجمعة) فكانت أكثر من كراستين وقد ضاق الوقت على طبعهما قبل السفر، اذ تعين أن يكون آخر موعد له قبل الظهر بساعة من يوم السبت، فاضطررت بعد جمع حروفهما ليلا الى اختصار الاولى بالحذف من عدة مواضع منها، وطبعت بعد ان تمت فلم أتمكن من تصحيحها، فلذلك كثرت أغلاطها، وتعذر على المطبعة أن تجهز لنا ضحوة السبت جميع النسخ فاكتفينا بحمل مئات منها

ركبنا القطار الحديدي مع السيدتين الوالدة والشقيقة قبيل انتهاء الساعة الحادية عشرة من يوم السبت ببضع دقائق، وكان ركب المحمل قد سافر في قطار خاص في أول هذا اليوم، وودعنا في المحطة الاهل والاخوان، وخاصة من علم بموعد سفرنا من الخلان، وقد كنا بلونا لوعة الوداع بتعدد الاسفار، وكان أشجاها وداع الوالدين والاقربين والاصدقاء عند الهجرة الى هذه الديار، ولكنني لم أذق قبل هذا اليوم لوعة توديع الاهل والاولاد لانني لم أكن في حال سفر من أسفاري السابقة زوجا ولا والدا.

﴿ نبذة فلسفية شعرية في الوداع وما فيه تهذيب الطباع ﴾

قرأت قبل سفري الاول كثيرا مما قال الادباء والشعراء في الوداع، وحفظت من أشعارهم ما لا يسهل علي أن اتذكره الآن، ولا أحب أن اشغل بالتطويل في هذا الموضوع قراء هذه الرحلة، ولا أن أترك الالمام به وهو من أهم مسائل علم النفس التي تفيد بصيرة في علم التربية.

إنني عند وداع الوالدين وذوي القربى والاصدقاء في سفر الهجرة الى مصر وجدت في نفسي وفيمن ودعت منهم مصداقا لقول الشاعر:

لو كنتَ ساعةَ بيننا ما بيننا　　ورأيت كيف نُكرِّر التوديعا
لرأيت أن من الدموع محدِّثا　　وعلمت أن من الحديث دموعا

فقد كان الحديث للدموع وحدها لان لسان الفم حبس فخرس، ولسان العينين انطلق بالكلام المنسجم، وقد كتبت الى بعضهم بعد الوصول الى مصر عبارة شعرية كنت شعرت بأنها حقيقة وجدتها في نفسي، وهي أنني وجدت وجد المودِّع

ولوعته يساويان وجد جميع من ودعوه وان كثروا، لأن كل واحد منهم فارق محبوبا واحدا وهو قد فارق أحبابا كثيرين يجد في نفسه من الالم لفراق كل منهم مثل مايجده ذلك الفرد لفراقه له والصواب ان لكل نوع من أنواع الوجدان والشعور حدا يختلف باختلاف أمزجة الناس و يتفاوت في الافراد بتفاوت ما يثيره في قلوبهم. ولو أمكن ان يوضع للادراكات النفسية موازين كموازين الحرارة والرطوبة والثقل لعلمنا بها أقصى حد لألم الفراق في نفس العاشق الواله، وفي نفس مثل الزوج والوالدة والوالد، وهو إنما يبلغ حده الاقصى اذا كان الفراق بعيد الشقة، أوعرضة للهلاك او شدة المشقة، كسفر ابن زريق من بغداد الى المغرب في ذلك العصر، فهو لولا الخوف من الفراق الابدي لمن أحب لما قال في وداعه يومئذ قول العاشق الممثل لما في فؤاده، لا قول الشاعر المصور لما في خياله:

ودعته وبودّي لو يودعني ... طيب الحياة واني لا أودعه
كم قد تشفع بي ألاّ أفارقه ... والضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق ... عني بفرقته لكن أرقعه

ذلك بأن وداع الاحباب عند سفر قاصد (قريب)، الى خير مرجوّ في حرم آمن، ليس كالوداع في سفر بعيد يضعف فيه الامل، فيما يثيره من الوجد والألم، بل أقول ان الانفس تهوى بعض الآلام الخفيفة، وتجد في باطنها لذة خفية. كلذة العاشق المستكنة في هجر محبوبه إياه هجر دلال أو هجر ملال، بما فيه وما يتلوه من تهييج عواطف الحب والوجد والاشتياق، الذي يشبه كدّ الذهن واتعابه في حل المسائل العلمية العويصة، أو اجهاد البدن في بعض الاعمال الواجبة أو الرياضات المستحبة، في ان كلا من ذلك جامع بين الالم واللذة: أو بما يترتب عليه من لذة الشكوى والعتاب كما قالت علية بنت المهدي

وأعذب أيام الهوى يومك الذي ... تروَّع بالهجران فيه وبالعتب
اذا لم يكن في الحب سخط ولارضا ... فأين حلاوات الرسائل والكتب

واذا كان لكل شعور ووجدان نفسي غاية وحد فهل كان الحب الذي يبلغ به منتهى حده وحد أو متعددا؟ وهل كان الغلو في حب الولد أو العشق أو غيرهم

من شأنه ان يترتب عليه بلوغ تلك الغاية وهو قلما يكون الا في حب الآحاد من الاولاد والاحباب فان الحب المتفرق على المحبوبين المتعددين من جنس واحد كالاولاد أو من عدة أجناس لا يكاد يكون الا دون الحد الاقصى - اذا كان ما ذكر كما ذكر وهو ما نراه، فتلك القاعدة الشعرية التي كنت كتبتها لا تصدق بالاطراد؛ بل الاكثر أن لوعة الفراق المتفرقة على الكثيرين تكون دون اللوعة المقصورة على الافراد

هذا وان سفرنا الى الحجاز سفر قاصد لاداء فرض لازم في عام يقل فيه عدد الحجاج فتسهل فيه مراعاة الحكومة لصحتهم والبلاد سالمة من الاوبئة فالرجاء قوي بأن تؤدى الفريضة فيه بالسهولة في مدة شهر واحد، ففراق الاهل والصحب في مثل هذا السفر ليس من شأن وداعه ان يثير منتهى الاشجان، وينطق الدموع ويخرس اللسان، وناهيك بمن كان مثلي مسافرا مع أشد الناس حبا له — ولدته وشقيقته، وكم ودع الناس بعضهم بعضا في مثل هذه الحال ضاحكين مسرورين، وكذلك ودعنا الاهل والاصدقاء في محطة مصر ودخلنا القطار، ولما وقفت في النافذة وقدم الي محمد شفيع ودُمى لاجل القبلة الاخيرة، اضطربت عاطفة الابوة في جميع أعماق النفس، فاضطرمت لوعة فراقهما في سويداء القلب، ففاضت العينان، واعتقل اللسان، وخانتني تلك الارادة التي كنت أكابر بها الاشجان، والعزيمة التي تعودت أن أملك بها أزمة الوجدان، حتى عند الصدمة الاولى بموت الاخوة والاخوان؛ وما ذاك الا أن ألم توديع الاولاد مشوب بلذة، لا نستجمع لمقاومته كل قوة الارادة، وألم مثل تلك الصدمة، هو الذي توجه لاحتماله كل العزيمة

تذكرت في هذا المقام ما قاله صديقنا عبد الحميد الرافعي شاعر طرابلس الشام في توديع أولاده عند سفر له الى الآستانة، وهو قوله من قصيدة:

لست أنسى ساعة البين وما هي الا فك روح من جسد
زمت فيها الصبر لكن لم أطق وحبست الدمع لكن لم يكد
وبروحي غرراً قبلتها لجبين الحسن منها مستمد
من صغار كاللآلي لجلجت منهم الالسن والجفن اطرد
بعضهم أبكاه مرأى من بكى ليس يدري قط ما اليوم وغد

والذي لاح له معنى النوى أطبق الدمع عليه فارتعد
هل سمعتم بالقومي عاشقاً أنس الظبي به وهو شرد
ليتني فارقت عيني والحشا قبلما فارقت أهلا وولد
أودعوني عند ما ودّعتهم حسرةً كانت من الموت أشد
كلهم ينشدني قرب اللقا حاسباً للعود أياما تعد
والذي لا يعرف النطق غدا نطقه الإيما بعين أو بيد

وما بيني وبين هذا الصديق الا أن سفري خير من سفره، وولدي أصغر من ولده، فقد كان بعض ولده يفهم معنى الفرق بالسفر، ونعمى لم تكن أتمت السنة الثالثة وشفيع كان في أول الشهر الخامس عشر، وكان سبب سفره أن الشيخ أبا الهدى الشهير غضب عليه غضبة مضرية، قطعت عليه موارد الرزق بعزله عن أعمال الحكومة، فرحل الى الآستانة يستعطفه ويسترضيه، عسى أن يعود بجاهه الى عمله أو عمل يفوقه أو يساويه، معلق القلب بين الفوز بالآمال، وبين الخزي والفشل، لا يدري أيعود كما رجا أهله بعد أيام تعد، أو بعد شهور أو سنين لا تعد، حسب القاعدة المطردة في كل عمل يطلب من حكومة الآستانة، فأين السفر الى تلك العاصمة، لطلب الرزق من أولئك الباخلين المخلفين؛ من السفر الى مكة المكرمة، لطلب المغفرة والرحمة من أرحم الراحمين ؟ لقد كان ذلك الشاعر جديرا بأن لا تعود اليه السكينة، الا بعد أن ينقلب الى أهله بما يرجو من الوظيفة، وأما هذا الكاتب فقد عادت اليه سكينته بعد سير القطار بساعة زمانية، وانما كان يفكر أحيانا فيما يرجو من الاهتمام بصحة ولديه في غيبته، واستشارة الطبيب حتى عند الحوادث التي لم يكن يستشيره في مثلها، وقد ضعف التفكر في ذلك وفي غيره من أمور الدنيا منذ الاحرام الى التحلل التام منه بأداء المناسك كلها، حتى كأن الانسان يدخل بمجرد الاحرام في عالم آخر

والعبرة فيما بيناه من فلسفة الوداع أن نذكر القارئ بأن ألمه هو أول فوائد السفر المهذبة للنفس ولا سيما نفس الوالد، وقد غفل عنها من حصر ذلك في خمس فوائد. وانني رأيت بعض من آثر العزبة وبعض من حرم النسل يظنون ان الولد من منغصات العيش في الدنيا، لأن غبطة النفس به، وقرة العين برؤيته، ولذة الامل بطول عمره وحسن

مستقبله، لا توازي آلام وداعه عند السفر، والحذر عليه من الموت أو المرض والضرر، دع هم الولد في تربيته وتعليمه في حياته، والخوف من سوء حاله بعد مماته، ولا سيما اذا كان قليل المال، وكثر عليه العيال. وما هذه الظنون، الا من أوهام الكسالى والمحرومين، إلا أن عدم اقدام فاقد المال أو قليله على الزواج، له وجه في هدي الشرع وآراء الناس. وأما ما يدخل في موضوعنا منها وهو لوعة الوداع ومرارة الفراق، وما يتلوها من حرارة الاشتياق، فهو من أعظم فوائد نعمة الاولاد على الوالدين في تهذيب أنفسهم، وتثقيف عواطفهم، واعلاء هممهم، وتقوية أريحيتهم، وهي على ما فيها من الفوائد، حلوة الطعم في ذوق الوالد، كما يستحلي العشاق تجني الحبيب، ويقولون ضرب الحبيب زبيب، ولو قيل للمشتاق أتحب أن تخمد حرارة هذا الشوق في قلبك فتمسي لا تذكر من تشتاق ولا تحن الى لقائه — لقال لا . وفي معناه قول قيس العامري :

وقالوا لو تشاء سلوت عنها　　فقلت لهم واني لا أشاء

ذلك بأن ما يهيج الوجد مما ذكر يشبه نغمات الالحان، المثيرة للاشجان، والمحركة للاحزان، على شهداء الحق في سبيل الايمان أو الاوطان، الحافزة الى الاخذ بثأرهم، والرغبة في اقتفاء آثارهم، وهي مما يرغب فيه الفضلاء، ويحث عليه الحكماء ؛ وان بكاء الفراق، الذي يرجى بعده التلاق، كالبكاء من خشية الله عز وجل يحسبه من لم يذق طعمه عذابا وألما، وما هو الا نعيم وغبطة، ولذلك قال من ذاق فعرف: أهل الليل في ليلهم، أطيب نفسا من أهل اللهو في لهوهم . وقال بعضهم: لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف. ولا تكمل تربية أحد الا بركوب الصعاب وحمل الآلام والاثقال

وأبعد تلك الظنون بل الوساوس عن الحقيقة وأوغلها في الوهم ما توسوس به النفس لبعض المحرومين : ان خوف الوالد أن يموت قبل أن يرشد ولده و يستقل بنفسه في معيشته، أو يكون له مورد واسع من الرزق يعيش به، ينغص عليه غبطته وسروره بوجوده. وقد سمعت مثل هذا ممن يعد نفسه ويعده بعض الناس من علماء الاخلاق، وما هو الا من أسرى الوساوس والاوهام، فان تفكر الناس في مستقبل أولادهم من بعدهم أو احتمال موتهم من قبلهم، ما كان لينغص عليهم هناءهم وغبطتهم بهم، الا من شذ من غلاة الموسوسين، الذين وصلوا أو كادوا أن يصلوا الى درجة

المجانين، وكل نعمة يخولها هؤلاء تكون عليهم نقمة يحرمون لذة وجودها، ويعذبون بتوهم فقدها، أو احتمال حدوث مصاب منها، ومن غلاة هؤلاء المساكين ديك الجن الذي قتل صاحبته وحبيبته لاشتداد شغفه بهما وخوفه ان يموت ويتمتع بهما غيره، ويقرب منه ذلك العاشق المسكين، الذي خلق من ماء الدموع وصلصال الانين، لامن الماء والطين، فستوى عنده القرب والبعد، والوصل والصد، فهو يبكي من يحب في كل حال، كما وصف نفسه فقال:

فأبكي ان نأوا شوقا اليهم وأبكي ان دنوا خوف الفراق

☆

انتابعد توديع من ذكرنا ركبنا وحدنا في مخدع من مخادع مركبات الدرجة الاولى من القطار الحديدي ولكننا لما انتقلنا مع سائر الركاب في الاسماعيلية الى القطار الآخر ألفيناه قطارا رديئا وقد اكتظ بالجنود البريطانية حتى ان المخادع الخاصة بالنساء المخدرات لم تكن تخلو منهم، فاضطررت الى وضع السيدتين فى مخدع منها رأيت فيه مواضع لي ولهما، وثمة بأننا لانرى من هؤلاء الجنود مانكره، وكذلك كان ولله الحمد، وآداب الجنود الانكليزية الخاص معروفة عند جميع المصريين يندر أن يرى أحد من سكران منهم تعديا واساءة فكيف يكون ادبهم في حال الصحو؟ وقد وقف القطار فى محطات جديدة كثيرة خاصة بالجنود المعسكرة على جانبي الطريق قريبة من الخط الحديدي او بعيدة عنه، وبسبب ذلك يتأخر القطار قليلا عن موعده المعتاد

وصلنا الى السويس قبل المغرب وكان قد سبقنا اليها امس مع جماهير الحجاج المصريين محمد نجيب افندي المعاون فى مديرية الجيزة وهو صهرنا على بنت اخي، والشيخ خالد النقشبندي، فكانا رفيقين لنا فى السفر فى كل حل وترحال، وكل منزل من منازل الحاج، وقد بتنا تلك الليلة في دار اختارها لنا الرفيقان من دور الاهالي التي يأوي اليها الحجاج في هذه الايام، وهم يتقاضون من الاجرة فى كل ليلة فوق ما يعهد في الفنادق الكبيرة التي تفوقها خدمة ونظافة، وكذلك اصحاب المركبات فى السويس يزيدون أجورها على الحجاج اضعافا

وفى ضحوة اليوم التالي ذهبنا الى مكتب الصحة لاجل مافرضته الحكومة على كل حاج من تلقيح اطبائها إياه بالمصل الواقي من الهيضة الوبائية (الكوليرا) (لها بقية)

ذكرى المولد النبوي (*)

٢

البعثة النبوية وجملة سيرته صلى الله عليه وسلم قبلها

كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَطاً فِي قَوْمِهِ وَأُمَّتِهِ، وَلَكِنَّهُ أَرْقَاهُمْ بَلْ أَرْقَى الْبَشَرِ فِي زَكَاءِ نَفْسِهِ وَسَلَامَةِ فِطْرَتِهِ، نَشَأَ يَتِيماً شَرِيفاً، وَشَبَّ فَقِيراً عَفِيفاً، ثُمَّ كَانَ زَوْجاً مُحِبًّا لِزَوْجِهِ مُخْلِصاً لَهَا، وَلَمْ يَتَوَلَّ هُوَ وَلَا وَالِدُهُ شَيْئاً مِنْ أَعْمَالِ قُرَيْشٍ فِي دِينِهَا وَلَا دُنْيَاهَا، وَلَا كَانَ يَعْبُدُ عِبَادَتَهُمْ، وَلَا يَحْضُرُ سَامِرَهُمْ وَلَا نَدْوَتَهُمْ، وَلَمْ يَنْظِمِ الشِّعْرَ كَمَا كَانُوا يَنْظِمُونَ، وَلَا عُنِيَ بِالْخَطَابَةِ كَمَا كَانُوا يَعْتَنُونَ، وَلَمْ يُؤْثَرْ عَنْهُ قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ يَدُلُّ عَلَى حُبِّ الرِّيَاسَةِ، أَوِ الْبَحْثِ فِي شُؤُونِ السِّيَاسَةِ؛ وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ خُرَافَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَضَلَالَاتِ الشِّرْكِ، وَلَا مِنَ الْمُفَاخَرَاتِ الْكَلَامِيَّةِ وَشُؤُونِ الْغَزْوِ وَالْحَرْبِ، بَلْ كَانَ يُحِبُّ الْعُزْلَةَ، وَيَأْلَفُ الْوَحْدَةَ؛ وَرُوِيَ أَنَّهُ فِي حَدَاثَتِهِ حَضَرَ سَمَرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، أَلْقَى اللهُ فِيهِمَا عَلَيْهِ النَّوْمَ؛ وَحُبُّ الْعُزْلَةِ وَالِانْكِمَاشِ، مَعْرُوفٌ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَإِنَّمَا كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْتَازُ فِي

(*) تابع لما نشر فى الجزء السابع ص ٤٠٩

نَشأَتِهِ الأُولَى عَلَى الأَتْرَابْ ، بِالْتِزامِ الصِّدْقِ وَالأَمَانَةِ وَعُلُوِّ الآدَابْ، فَبِذلِكَ كَانَ لَهُ فِيهِمُ المقَامُ المَكِينِ، حَتَّى لَقَّبُوهُ بِالأَمِينْ.

عَلَى هٰذهِ الحَالِ كَانَ صلى الله عليه وسلمَ حِينَ بلَغَ أَشُدَّهُ واستَوَى، وَكَملَتْ مِنْ جَسَدِهِ السَّلِيمِ وَنَفسِهِ الزَّكِيَّةِ جَمِيعُ القُوَى. — لا طَمَعَ في مَالٍ وَلاَ سُمْعَة ، وَلاَ تَطلُّعَ إِلى جَاهٍ ولا شُهْرَة. وَكَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ (١) وَاضِحَة ؛ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ ، (٢) وَكَانَ يَخلو بِغَارِ حِرَاءْ؛ (٣) فَيَتَحَنَّثُ فيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدْ، (٤) ثُمَّ يَرْجِعُ إِلى خَدِيجَة فَيَتَزَوَّد؛ (٥) حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَعلَى هٰذَا الشَّأنْ ، بِنُزُولِ القُرْآنِ عَليْهِ

(١) الفلق بالتحريك يطلق على الصبح وهو من فلق الشيء بمعنى شقه وفرقه فرقين فان ضوء الصبح يشق الظلام اذ يظهر مستطيلا ثم مستطيرا ومنه (فالق الاصباح) وبهذا المعنى أضيف الى الصبح ، والمعنى انه كان يرى الرؤيا فتقع كما رأى اذ تنطبع المعاني فى مرآة روحه الصقيلة كما هيه، فهذا ضرب من الوحي وكانت مدته قبل وحي اليقظة الصريح ستة أشهر من ربيع الاول شهر ولادته الى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن (٢) الخلاء بالمد الاختلاء والانفراد

(٣) الغار ثقب في الجبل وحراء بالكسر أحد الجبال المحيطة بمكة على يسار الذاهب منها الى منى . والغار في أعاليه مشرف على مكة ، بحيث ترى منه الكعبة ، كما يشرف على ما دونه من تلك البقاع ، فهو حسن الموقع جيد الهواء ، يتسع للمختلي فيه مجال الفكر، والشعور بعظمة الرب ،

(٤) أصل التحنث توقي الحنث أي الاثم وتجنبه وفسره الزهري في الحديث بالتعبد، قيل كان يعبد الله على ملة ابراهيم وقيل بالفكر خاصة، واختلف في عدد الليالي التي كان يقيمها ويتزود لمثلها (٥) التزود اتخاذ الزاد من طعام وماء

في شهر رمضان ؛ بأن تمثل له الروح الأمين جبريل ولقنه عن ربه أفضل التنزيل ،: قال له اقرأ فقال « ما أنا بقارئ » كررا ذلك ثلاث مرات ، وهذا من أمر التكوين لا من تكليف ما لا يطاق ، وكان الملك بعد كل جواب يغطه أي يضمه إلى صدره ويعصره ، حتى يبلغ منه الجهد مبلغه ، وحكمة ذلك أن تغلب فيه الروحانية على البشرية ، ويستعد لتلقي الآيات الإلهية ، فيكون واسطة بين الخلق والخالق ، ومنتهى الحاضر ومبدأ الغائب ، ولما أرسله في الثالثة قال (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم *) أي كن قارئا بعد أن كنت أميا ، باسم ربك الذي خلق الإنسان الناطق من علق ولم يك شيئا ، لا باسمي ولا باسمك ، ولا بحولي وقوتي ولا بحولك وقوتك ، فهو القادر على جعلك قارئا لآيات ربك ، التي اقتضى جوده وكرمه أن يرسمها بالوحي في لوح قلبك ، وعلى تعليمك من الكتاب والحكمة مالم تكن تعلم ، كما علم الإنسان بالقلم وغير القلم مالم يكن يعلم ، — فرجع صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات إلى خديجة يرجف فؤاده ، وقد ارتعد بدنه ولكن حفظ رشاده ، فقال « زملوني زملوني » فزملوه ، أي لففوه بالثياب ودثروه ، حتى إذا ذهب عنه الروع أخبر خديجة الخبر ، وقال « لقد خشيت على نفسي » أي الهلاك أو الضرر ؛

فقالت له: كلا والله مايحزنك (١) الله أبدا، إنك لتصل الرحم (٢)، وتحمل الكل (٣) وتكسب المعدوم (٤)، وتقري الضيف. وتعين على نوائب الحق (٥). ثم فتر الوحي ثلاث سنين قوي فيها الاستعداد واشتد الشوق والحنين، قال «بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء. فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وذكر أنه رعب منه أيضا، ولكن كان ذلك دون الرعبة الأولى، فرجع إلى أهله فتزمل وتدثر، فأنزل الله عليه (يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر) ثم حمي الوحي وتتابع، ولم صلى الله

---

(١) يحزنك من الحزن وهي رواية أبي ذر، وعند غيره ما يخزيك من أخزاه بمعنى فضحه وأهانه (٢) أي تحسن للاقارب بما يليق بكل منهم

(٣) الكل بالفتح الثقيل حملا أو عيالا أو طبعا والمتعب، أي تحمل أثقال الناس أو تحمل المتعب على ما يركبه من الابل أو الدواب (٤) أي تكسب المحتاج ما هو عادم له (٥) النوائب النوازل والمصائب والحوادث أي تعين الناس في كل امر غير باطل وهذه كلمة جامعة في بيان فضائله «ص» وهو يدل على فضل خديجة وعقلها واعتقادها ان من يلتزم الحق ويعمل الخير لا يحزنه الله ولا يخزيه. والحديث في الصحيحين، وتتمته باختصار قليل: فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عمها وكان قد تنصر في الجاهلية، ويكتب من الانجيل بالعبرانية. وكان شيخا كبيرا قد عمي. فقالت له اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة يا ابن أخي ما ذا ترى؟ فاخبره «ص» خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. ياليتني فيها جذع «اي شاب» ليتني اكون حيا اذ يخرجك قومك. فقال له رسول الله «ص» او مخرجي هم؟ قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي، وان يدركني يومك انصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة ان توفي وفتر الوحي

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْوَةَ رَبِّهِ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَتَتَايُعَ.[1] فَهَذَا النَّبَأُ الْعَظِيمُ الَّذِي جَاءَهُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ، وَمَا ذَلِكَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ بَعْدَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ، فَغَيَّرَ اللَّهُ بِهِ عَلَى يَدَيْهِ تَارِيخَ الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ، عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ؟

تبليغ الدعوة الإسلامية وخلاصتها

إِنَّ ذَلِكَ الْيَتِيمَ الْعَائِلَ فِي حَدَاثَتِهِ، الرَّاعِيَ الشَّرِيفَ التَّاجِرَ الْقَنُوعَ فِي شَبِيبَتِهِ، الزَّوْجَ الْمُخْلِصَ لِزَوْجَتِهِ، الْوَالِدَ الْعَطُوفَ عَلَى بَنَاتِهِ وَصِبْيَتِهِ[2] الْأُمِّيَّ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ سِفْرًا، وَلَا كَتَبَ سَطْرًا، وَلَا قَالَ شِعْرًا، وَلَا ارْتَجَلَ نَثْرًا، النَّاشِئَ فِي تِلْكَ الْأُمَّةِ الْأُمِّيَّةِ، الَّتِي فَرَّقَتْهَا نَزَعَاتُ الْعَصَبِيَّةِ، وَاسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهَا نَزَغَاتُ الْوَثَنِيَّةِ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهَا حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَمْسَتْ عَاصِمَتُهَا الدِّينِيَّةُ الدُّنْيَوِيَّةُ، ذَاتَ حُكُومَةٍ شَبِيهَةٍ بِالْعُرْفِيَّةِ، لَيْسَ لَهَا رَئِيسٌ مَتْبُوعٌ، وَلَا قَانُونٌ مَشْرُوعٌ؛ قَامَ فِيهَا يَدْعُوهَا إِلَى تَوْحِيدٍ يَجْتَثُّ جَرَاثِيمَ الْوَثَنِيَّةِ، بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ؛ وَإِلَى اسْتِبْدَالِ الْكِتَابِ وَالْعِلْمِ بِتِلْكَ الْأُمِّيَّةِ، وَاسْتِبْدَالِ الْحِكْمَةِ بِتِلْكَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِلَى تَزْكِيَةِ الْأَنْفُسِ مِنْ تِلْكَ الْخُرَافَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الْوِرَاثِيَّةِ، وَإِلَى اسْتِعْمَالِ عُقُولِهَا وَحَوَاسِّهَا فِي الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ،

(١) التتايع (بالياء قبل العين) التهافت والاسراع في الشر أو التتابع (بالباء الموحدة) فيه (٢) صبيته القاسم وعبدالله والطيب والطاهر وقيل الطيب والطاهر لقبان لعبدالله وهؤلاء من خديجة كبناته الاربع، وابراهيم من مارية القبطية

وَالِانْتِفَاعِ بِجَمِيعِ مَا فِي الْأَكْوَانِ، لِأَنَّ اللهَ تعالى سَخَّرَهَا لِلْإِنْسَانِ بَلْ قَامَ يَدْعُوهَا إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ شَأْنًا، وَأَعَمُّ فَائِدَةً وَنفعًا، — قَامَ يَدْعُوهَا إِلَى كِتَابٍ مُهَيْمِنٍ على الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَدِينٍ أُنْزِلَ لِإِصْلَاحِ جَمِيعِ الْبَرِيَّةِ، وَشَرِيعَةٍ عَادِلَةٍ سَماوِيَّةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ، تَسْتَأْصِلُ تِلْكَ الْفَوْضَى الِاجْتِمَاعِيَّةَ، وَتَكْفُلُ لَهُمُ السَّعَادَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ، بِإِعْتَاقِهَا الْبَشَرَ مِنْ رِقِّ السَّيْطَرَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَجَعْلِهِمْ أَحْرَارًا مُسْتَقِلِّينَ فِي فَهْمِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ، وَأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى الْعِزَّةِ الْإِلَهِيَّةِ. وَجَعْلِ أَمْرِهِمْ شُورَى بَيْنَهُمْ فِي الْأَحْكَامِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ، وَجَعْلِ دَرْءِ الْمَفَاسِدِ وَحِفْظِ الْمَصَالِحِ أَسَاسًا لِلْأُمُورِ الْأَدَبِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، وَجَعْلِ الْإِخْلَاصِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ، فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالْعَادِيَّةِ، مِمَّا يَسْتَعِدُّ بِهِ الْإِنْسَانُ لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَجَعْلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرْضًا تَقُومُ بِهِ الْأَفْرَادُ وَتَتَعَاوَنُ عَلَيْهِ الْجَمَاعَاتُ. لِأَنَّهُ سِيَاجُ الْفَضِيلَةِ وَمُقَوِّمُ الْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ. وَجَعْلِ الْقِتَالِ ضَرُورَةً تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا. وَيُجْتَهَدُ فِي إِضْعَافِ ضَرَرِهَا وَشَرِّهَا، فَلَا يُقْتَلُ فِيهَا النِّسَاءُ وَلَا الْأَوْلَادُ، وَلَا الْأُجَرَاءُ وَلَا الْعُبَّادُ؛ وَلَا يُمَثَّلُ فِيهَا بِالْقَتْلَى [1] وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى الْجَرْحَى؛ [2] وَمَتَى رَجَحَتْ كِفَّتُنَا بِالْإِثْخَانِ [3] فِي الْأَعْدَاءِ، نَكْتَفِي

(١) التمثيل بالقتيل تشويهه بقطع بعض أعضائه كجدع الانف وصلم الاذنين وقلع العينين (٢) التذفيف على الجريح الاجهاز عليه اي إماتته (٣) الاثخان في الاعداء إضعافهم بكثرة من يقتل منهم. ومن رحمة الاسلام وإصلاحه =

بالأسر عن سفك الدماء ، (فإمَّا منا بعدُ وإمَّا فداءً حتَّى تضعَ الحربُ أوزارَها) ، (١) وتزولَ الضَّرورةُ الَّتي أوقدتْ نارَها ، وإنْ جنحوا للسَّلمِ جنحنا لها (٢) لأنَّنا أحقُّ بها وأهلُها ؛ — إلى غيرِ ذلكَ مِنْ ضروبِ الاصلاحِ ، وأسبابِ الفوزِ والفلاحِ . ومِنْ أهمِّها أحكامُ الرِّقِّ، بما رغَّبَ وأوجبَ فيها مِنَ العتقِ . وأحكامُ اليتامى والنِّساءِ ، في الحقوقِ والإرثِ والتصرُّفِ في الأموالِ ، وحسبُكَ مِنْ هذا الإصلاحِ العظيمِ ، قولُهُ تعالَى (ولَهُنَّ مثلُ الَّذي عليهنَّ بالمعروفِ وللرِّجالِ عليهِنَّ درجةٌ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ)

قامَ ينبِّئُهمْ بأنَّهُ رسولٌ مِنْ عندِ اللهِ إلى جميعِ الأممِ ، مِنْ عربٍ والعجمِ ، وأنَّهُ أُوحيَ إليهِ هذا القرآنُ لينذرَهُمْ بهِ ومَنْ بلغَ ، (٣) يتلو عليهمْ قولَهُ تعالَى (تباركَ الَّذي نزَّلَ الفرقانَ على عبدِهِ ليكونَ

= ابطال ما كانت الامم تستبيحه من استئصال اعدائها . ولم يكتف بمنع قتل من لا يقاتل منهم حتى امر بان يكف عن قتل المقاتلين أنفسهم اذا ضعفوا وامنا شرهم، وان نكتفي حينئذ باسرهم، وخيرنا في الاسرى بين المن عليهم باطلاقهم وفك اسرهم بلا مقابل، و بين فداء اسرانا عندهم ان كان لنا عندهم اسرى . وذلك قوله تعالى (حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد) الخ

(١) الاوزار جمع وزر وهو الحمل الثقيل و يطلق على الذنب، والمعنى حتى تنقضي الحرب بوضع المحاربين لأثقالها من السلاح والذخائر عن انفسهم — وقيل بترك الكفار للعدوان والذنوب الموجبة لها . (٢) السلم ضد الحرب وكلاهما مؤنث اللفظ (٣) أي و ينذر به كل من بلغه ووصلت اليه دعوته من سائر الامم

للعالمين نذيرًا) ، وقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا) ؛ ويخبرهم عن الله عز وجل بأنه سينصره عليهم ، ويبشر المؤمنين منهم بأنهم هم الذين يحملون دعوته إلى غيرهم ، وأن الله سيفتح لهم مصر والشام ، ويعطيهم ملك كسرى وقيصر ، وأنهم سيكونون هم الأئمة الوارثين ، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

قام صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوة الكبرى ، وذكّر بها قومه فأعرض الأكثرون عن الذكرى ، ولم يعقل أذكى قريش وأعقلهم لها سببًا إلا الجنون ، أو نبز الداعي إليها بلقب شاعر أو كاهن مفتون ، إذ كانوا يعلمون أنه لم يكن لديه شيء من الأسباب والوسائل ، لما هو دونها بمراحل ، — لا حول لا قوة ، لا مال لا عصبية ، لا سليقة في الشعر تجذب القلب ، لا تمرن على الخطابة يؤثر في اللب ، كما يعلمون أنه طبع على الصدق ، وعاش طول عمره عيشة الجد ، فكان أقرب ما توصف به تلك الدعوة إلى الظنون ، أن قالوا إنها نزعة من نزعات الجنون ، ولولا ما أيده الله تعالى به من الآيات والبراهين ، وأعظمها هذا القرآن الحكيم والنور المبين . ولولا تصديق الله

على إياه بالفعل ، كما صدقه بذلك القول الفصل . قال بقولهم ذلك في كل حين، من بلغته دعوى تلك الدعوة من المتقدمين والمتأخرين، (ن ، والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير ممنون (١) * وإنك لعلى خلق عظيم * فستبصر ويبصرون * بأيكم المفتون * إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) (٢)

«أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمي قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرؤون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون . في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء، ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء . غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر في سننه البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها

«ماهذا الخطاب المفحم ؟ ماذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا ، لا أقول ذلك، ولكن أقول كما أمر الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه . نبي صدق الأنبياء، ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار،

(١) أي غير مقطوع (٢) النبذة الآتية التي اولها « أي برهان » وآخرها (تنزيل من حكيم حميد) مقتبسة من رسالة التوحيد لشيخنا الاستاذ الامام رحمه الله تعالى

أو يحير الحواس. أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب؛ وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل، مبلغ الحجة وآية الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه تنزيل من حكيم حميد» (١)

كان مثله صلى الله عليه وسلم في إثبات ما جاء به كمثل رجل في بلد كثرت فيه الأمراض، ولم يكن لدى أهله طبيب ولا علاج، فادعى أنه طبيب يبرئ العلل، فكذبوه فأثبت دعواه بالعلم والعمل، إذ جاء بكتاب عالج به أولئك المرضى الذين أعضل داؤهم، واختلفت أمراضهم، فشفوا وعادت إليهم صحتهم؛ إلا من أعرض عن دوائه، حتى هلك بدائه، بل الأمر أعظم من ذلك

ألا إن مداواة أمراض الأمم الروحية والاجتماعية، أعز وأعسر من مداواة الأمراض الجسدية، وتتوقف على علوم كثيرة لا على علم واحد، يدرس الآن منقولها ومعقولها في كثير من المدارس، وما أكثر من درسها في كتبها، وتلقاها عن أساتذتها، يقدر على إصلاح أمة من الأمم بالعمل بها، فما القول في أمي نشأ بين أميين، قام بذلك الإصلاح الذي تغير به تاريخ البشر أجمعين، في الشرائع والسياسات وسائر أمور الدنيا والدين، وامتد مع لغته

(١) هذا آخر ما اقتبسناه من رسالة التوحيد وفيها بعده كلام على القرآن

في قرن واحد من الحجاز إلى آخر حدود أوربة من الغرب ، وإلى حدود بلاد الصين من جهة الشرق ، حتى خضعت له الأمم ، ودالت لدولته الدول ، وكانت تتبعه في كل فتوحه الحضارة والمدنية ، والعلوم العقلية والكونية ، على أيدي تلك الأمة الحديثة العهد بالأمية ، التي علمها القرآن أن إصلاح الإنسان ، يتبعه إصلاح الأكوان ، فهل يمكن أن يكون هذا إلا بوحي من لدن حكيم عليم ، وتأييد سماوي من الإله العزيز القدير الرحيم ، اختص به ذلك النبي الأمي الكريم ، عليه من الله افضل الصلاة والتسليم ؟

مناهضة الدعوة ، والجاء الرسول الى الهجرة

بدأ دعوته صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته الأقربين ، ومن في مكة من قريش ومن الموالي والوافدين ، فلقي أشد الجحود والإيذاء من قومه ، حتى صدوه عن تبليغ دعوة ربه ، عملا بقول أبي لهب : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه ؛ وقد أخرجوا عمه أبا طالب وآله من مكة ، لأنه لم يخل بينهم وبينه ، فجمع أبو طالب بني هاشم والمطلب ، ودخل بهم ومعهم النبي صلى الله عليه وسلم في الشعب ، وأجمعت قريش مقاطعتهم ، وعدم مصاهرتهم ؛ وأن لا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً ، ولا يقبلوا منهم صلحاً ، إلا

أَنْ يُسْلِمُوا مُحَمَّدًا لِلْقَتْلِ . فَمَكَثُوا ثَلَاثَ سِنِينَ فِي الشِّعْبِ ، وَهُمْ فِي أَشَدِّ الْبَلَاءِ وَالْجَهْدِ، وَكَانَ بَعْضُ مَامَسَّهُمْ مِنَ الضَّرَرِ ، أَنْ أَكَلُوا وَرَقَ الشَّجَرِ ؛ ثُمَّ اشْتَدَّ إِيذَاءُ قُرَيْشٍ لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ بَعْدَ وَفَاةِ خَدِيجَةَ وَأَبِي طَالِبٍ ، وَقَدْ تُوُفِّيَا فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، فَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ ، لَعَلَّهُ يَجِدُ مَنْ يَحْمِيهِ لِلْقِيَامِ بِهَذَا الْأَمْرِ . فَلَمْ يَحْمِهِ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَدٌ ، وَلَكِنْ آمَنَ بِهِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ سِتَّةُ نَفَرٍ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ،[1] ثُمَّ آمَنَ بِهِ آخَرُونَ مِنْهُمْ فِي مَوْسِمٍ آخَرَ، وَصَارُوا يَدْعُونَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ. فَفَشَا الْإِسْلَامُ فِيهِمْ، وَجَاءَ فِي الْمَوْسِمِ الثَّالِثِ امْرَأَتَانِ وَثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ . فَبَايَعُوهُ عَلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ لِرَبِّهِمْ وَإِلَهِهِمْ، وَأَنْ يَمْنَعُوهُ — أَيْ يَحْمُوهُ — مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، فَمَهَّدَتْ لَهُ بِذَلِكَ أَسْبَابُ الْهِجْرَةِ ، وَكَانَ قَدْ هَاجَرَ جُمْهُورُ مَنْ آمَنَ بِهِ إِلَى الْحَبَشَةِ ، فَأَمَرَ مَنْ بَقِيَ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مُخْتَفِينَ، فَكَانَ الْقَادِرُونَ يُهَاجِرُونَ أَرْسَالًا مُتَتَابِعِينَ ، وَقَدْ عَلِمَ أَكَابِرُ قُرَيْشٍ بِالْأَمْرِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ سَيَتْبَعُ أَصْحَابَهُ بِالسِّرِّ ، فَفَزِعُوا إِلَى الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ ، وَبَيْنَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُهَيِّئُ رَاحِلَتَيْنِ وَزَادًا وَدَلِيلًا لِلْهِجْرَةِ مَعَ الرَّسُولِ مِنْ مَكَّةَ ، كَانَ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ يَأْتَمِرُونَ[2] بِالرَّسُولِ ﷺ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، فَبَعْضُهُمْ يَرَى نَفْيَهُ وَبَعْضُهُمْ

(١) هي المدينة المنورة (٢) يتشاورون في الأمر

يرى حبسه وبعضهم يرجح قتله، ثم أجمعوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابًّا جلدًا،⁽¹⁾ يقفون أمام داره ليلاً، حتى إذا خرج ضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد، ليتفرق دمه في جميع القبائل، فيرضى بديته بنو هاشم، فلما وقف أولئك الشبان على بابه، أمر عليًّا بأن ينام في فراشه ويتدثر ببرده، وخرج ﷺ من بينهم، ولم ينظره ولا شعر به أحد منهم، بل كانوا ينظرون من فروج الباب، فيرون نائمًا فيظنون أنه هو النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك قوله تعالى في كتابه المبين (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ⁽²⁾ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

(لها بقية)

مدرسة دار الدعوة والإرشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١٧

الامراض التي تنشأ من الميكروبات الحيوانية

النافض أو الملاريا Malaria

لفظ ملاريا أصله بالإيطالية كلمتان [mal aria] ومعناهما «الهواء الفاسد» سميت به هذه الحمى لتوهم الناس في زمن القديمة أن سببها فساد الهواء

---

(١) القوي الصابر (٢) المكر التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به الى ما لا يعلم ولا يحتسب ويكون في الشر غالباً وقد يكون لابطال الشر أو للخير ومنه مكر الله عز وجل. والاثبات الاعتقال، والاخراج النفي

يطلق هذا اللفظ على أنواع من الحمى تنشأ عن ميكروب حيواني من نوع [البروتوزوا Protozoa] (راجع صفحة ٢٨ من هذا الكتاب) يعيش في دم الانسان وينتقل من شخص الى آخر بنقل بعض أنواع البعوض (الناموس) ويسمى هذا الميكروب بالافرنجية [Plasmodium] أو [أميبا الدم Hœmamœba] وانما قلنا إنه يعيش في دم الانسان لأنه لم يعرف إلى الآن أنه يعيش في دم أي حيوان آخر من ذوات الثدي، ماعدا نوعا يشبهه يعيش في دم بعض أنواع القردة ويحدث لها حمى.

تمتاز أخف أنواع هذه الحمى التي تحدث في أكثر البلدان المعتدلة بتقطعها بمعنى أن نوبها تُفصل بعضها عن بعض بفترات يكون فيها المصاب كأنه سلم منها، أعني أنها لا تكون مستمرة كالحميات المعفنة الاخرى، فتستمر النوبة بضع ساعات ثم تزول وتعود في اليوم الثاني أو في ثالث [Tertian] أو في الرابع [Quartan] . والنوع الذي يعود في اليوم الثالث هو الاكثر حدوثا في الاقاليم المعتدلة ، أما الذي يعود في اليوم الرابع فيكثر حصوله في بعض بلدان ايطالية والهند. وهناك أنواع أشد مدة الحمى فيها أطول وخطرها أكثر وتعرف في ايطالية بالحمى الصيفية الخريفية [Aestivo - autumnal] وفي البلاد الحارة (بالحمى المستمرة أو الخبيثة) ويكثر انتشار هذه الحمى في الاقاليم التي بين خطي ٦٣° شمالي خط الاستواء و٥٧° جنوبيه

الاسباب — قلنا إن الذي ينقل ميكروب هذه الحمى هو البعوض فلذا توجد هذه الحمى حيث يوجد البعوض ويكثر، وتختفي أو تنعدم حيث لا يوجد، أعني أن حرارة الجو وكثرة الرطوبة والمستنقعات التي يتوالد فيها البعوض هما أعظم الاسباب لانتشار هذه الحمى. وجميع الاجناس البشرية عرضة للاصابة بها، ولكن السود أقل في ذلك من البيض . وهي تصيب الانسان في جميع الاعمار. ومما يهيئ للمرض ضعف الصحة والتعرض للرطوبة أو لحرارة الشمس الشديدة أو الافراط أو التفريط في الاكل أو الشرب

وقد يكمن الميكروب في الدم ولا يحدث الحمى وإنما يسبب ضعف الصحة وفقر الدم أو ضخامة الطحال ، ولا يستمر بقاؤه في الدم الى أكثر من ثلاث سنين

اذا لم تتكرر العدوى به

ولهذا الميكروب أنواع ، ثلاثة منها على الاقل تعيش في دم الانسان ، والاخرى في دم الطيور . وقد اكتشف ما يعيش منها في الانسان بين سنة ١٨٨١ و ١٨٩٠ . وهذه الانواع الثلاثة تعيش داخل كريات الدم الحمراء وتتغذى بها فتمتص مادتها الهيموغلوبينية وتحولها الى حبيبات ملونة (سوداء أو سمراء مصفرة) [1] يمكن اعتبارها كأنها براز لها فاذا كبرت خلية الميكروب انقسمت الى عدة أقسام (تتراوح بين ٦ — ١٥ أو ٢٠) وانفجر غشاء الكرية الحمراء فتخرج هذه الاجسام وتسبح في الدم ثم تخترق كريات حمراء أخرى وتسكنها وتفعل بها مافعلته في الاولى . وكثير منها تقتله خلايا الطحال أو غيرها أو خلايا الدم البيضاء

وعند تمام نمو خلية الميكروب وانقسامها الى عدة أقسام ترتفع حرارة المصاب ، لان الميكروب حينئذ يخرج سمه فيدور في الدم . ومن ذلك نرى أن هذا الميكروب اللعين يفسد الصحة باتلافه الكريات الحمراء التي عليها مدار التنفس وبافرازه سما يحدث الحمى ، وهناك ضرر ثالث وهو افرازه سما آخر يذيب كريات الدم الحمراء فيتعب الكبد ويكثر من افرازه الصفراء ويكثر الاسهال ، وقد يبول المريض بولا احمر مشتملا على مادة الدم الذائبة فيه — كما سيأتي — فتلتهب الكلى بسبب ذلك

ولا يلزم من دخول هذا الميكروب الى الدم أن يحدث للمصاب ماذكر فانه قد يقتل ولا يصاب الشخص بشيء ، وقد يكمن في الطحال الى ان تضعف قوة مقاومة الجسم له فتظهر حينئذ أعراض الحمى ، وقد تتغلب البنية بعد ذلك على الميكروب فتبيده وتحصل للجسم مناعة تقيه شره مرة أخرى . وهذا الميكروب قد يصيب الاجنة في أرحام أمهاتها غير أن ذلك نادر جدا

أما البعوض الذي ينقل العدوى من شخص الى آخر فهو من النوع المسمى [Anopheles] وميكروب الملاريا لايضره بشيء اذا دخل جسمه . واعلم ان ذكر هذا البعوض لا يمص الدم بل الانثى فقط وهي التي تحمل العدوى . ومدة حياتها

---

(١) هذه تشاهد سابحة في الدم أو داخل الكريات البيضاء التي تبتلعها أو داخل منسوج بعض الأعضاء كالطحال والكبد والمخ وغيرها

تزيد عن شهر في الغالب . وتضع كل انثى نحو ١٠٠ بيضة على سطح الماء طول كل بيضة نحو نصف مليمتر أو مليمتر كامل . وبعد يومين أو ثلاثة يفقس ، واذا كان الجو حارا فقست قبل ذلك ، وتعوم الاجنة في الماء وهي المسماة بالعلق ، وبعد عدة أيام (١٣ — ٢٣) تصير بالتطور بعوضة

ويمتاز هذا النوع من الانواع الاخرى بما يأتي : —

(١) ان اناثه لا تلسع الانسان غالبا ولا تمص دمه الا ليلا (٢) أن شواربها [Palpi] طويلة مثل منقارها [Prboscis] الغليظ (٣) أنه توجد في أجنحتها نقط مسودة بخلاف أجنحة الاخرى فانها رائقة (٤) أن جسمها أطول وأنحف وهو مستقيم بخلاف الاخرى فانها أغلظ واذا وقفت على الحائط رأيت ظهرها محدودبا

واعلم أن بعوضة الملاريا لا تنقل العدوى الى بعوضة أخرى ، فلا يوجد الميكروب فيها الا اذا أخذته من الانسان بامتصاص دمه

واذا امتصت البعوضة دم المصاب لقحت [1] بعض خلايا الميكروب الخلايا الاخرى التي تتطور وتصل الى غدد اللعاب في البعوضة لتخرج منها أثناء وخز شخص آخر فتعديه بالملاريا ، ومدة هذا الطور الذي يقضيه الميكروب في جوف البعوضة تختلف من ٦ — ١٦ يوما بحسب حرارة الجو . والبعوضة لا تطير عادة من موطنها الى أبعد من نصف ميل انكليزي

الاعراض تكون نوب هذه الحمى في أول الامر غير منتظمة غالبا ، ولعل السبب في ذلك أن الميكروبات التي تدخل الجسم تكون من انواع مختلفة ، فتتغلب البنية على أقلها عددا وتقتلها وبذلك ينفرد بالجسم نوع واحد وهو الاكثر عددا ، وفي بعض الاحيان يبقى نوعان أو ثلاثة . طور التفريخ يتراوح بين ٣ أيام و١٢ يوما وهو طويل في الاشكال المنتظمة ، قصير في غيرها ، وقد يحصل المرض بمجرد التلقيح

وفي بعض الاحوال تتقدم الحمى بعض أعراض أخرى كالتوعك والصداع وآلام بالاطراف وغثيان وغيرها .

---

(١) أما فى دم الانسان فيحصل الانقسام بلا تلقيح

المنشور الهاشمي الشريف الثالث

نشر في العدد الحادي والثلاثين من جريدة القبلة الذي صدر في ٤ صفر

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

الحمد لله الذي أخرجنا من الظلمات الى النور، والصلاة على سيدنا محمد صاحب الهداية الباقية ما بقيت العصور وكرت الدهور، وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بعزائم الامور، وسلم تسليما كثيرا

وبعد فقد حان لنا أن نخاطب أبناء بلادنا — خاصتهم وعامتهم، وكبيرهم وصغيرهم، وحاضرهم وباديهم — في حقائق الامور التي كنا فيها، والحالة التي صرنا بها، والواجبات التي حتمت علينا مقتضيات الدين والقومية والانسانية أن نقوم بها حق القيام

فانه لم يبق فيهم ولله الحمد من يخفى عليه أمر هؤلاء الاغرار الذين تسلطوا على المملكة العثمانية فأحلوا فيها ما أحلوا وحرموا ما حرموا، مما قدمت الاشارة الى بعضه في منشورينا السابقين. واتخذوا دين الله لهواً ولعباً، وسلبوا السلطة من أيدي أهلها. وتصرفوا بالمملكة تصرفا أضاعوا به من بلادها في بضع سنوات ما تزيد مساحته على مساحة بضع ممالك عظيمة في أوربا. وآذوا عباد الله بالقتل والشنق والتعذيب والتغريب ومصادرة الاموال وانتهاك الاعراض بما لا يحيط به العد والحصر. ولم تكن أرض الحرمين الشريفين كانت أقل الممالك العثمانية ابتلاء بمصائبهم ومفاسدهم. لا عن تكريم منهم لمشاعرها المقدسة، ولا رأفة منهم بأهلها، أو لأن الحجازيين أحب اليهم من سكان الروملي والاناضول والشام والعراق، بل لما سخرنا الله له من الوقوف لهم موقف النصح تارة والدفع بالتي هي أحسن أحيانا، على أمل أن يصبح الذي بيننا وبينه عداوة كأنه ولي حميم

بذلنا ما في الوسع لدفع الاذى عن هذه الديار بالطريقة المتقدمة ، ولم نأل جهدا في تخفيف ظلمهم عن المسلمين وأهل ذمتهم في كل انحاء المملكة ، وحملهم على اجتناب كل ما ينكره الناس عليهم ، واقناعهم بخطر أعمالهم وما ستؤول اليه من ضياع البلاد وهلاك العباد ، وكنا نخلص النصح لرجالهم في الآستانة بمكاتبات محفوظة لدينا صورها وأعدادها وتواريخها ، لاسيما في السنين الاخيرة . ومن المتيسر لكل انسان ان يطلع عليها ، وكذلك كنا ننصح لولاتهم هنا بطريق المشافهة والمخاطبة ، وأوفدنا بعض أولادنا الى الاستانة والشام لهذا الغرض . ولكنهم لم تزدهم دعوتنا الا ظلما وطغيانا ، وبغيا وعدوانا

ومما زاد مسؤليتنا بين يدي الله عز وجل ، ثم امام واجب الوطنية والقومية ، ماوقع فيه قومي وأبناء جلدتي من الشدة التي لا تحتمل ، حتى أمست بلادنا بسبب أولئك الاغرار الجاهلين منقطعة عن كل أقطار الدنيا ، وان قلب المؤمن لا يرضى في حال من الاحوال رؤية جيران بيت الله الحرام وهم يموتون من الجوع والعرى على قوارع الطريق . وذلك مما هو معلوم لدى الخاص والعام والبدوي والحضري ، ولا ريب أن أهل بلادنا لم ينسوا تلك الحالة المؤلمة والهلكة التي لمستها الايدي وعاينتها الابصار . لان الحول لم يحل عليها بعد . وما كانت شدتها بالذي يستحق أن ينسى

حينئذ استخرنا الله عز وجل للقيام في وجوه الأئمة الظالمين ، والحجر بين الملحدين : فرارا من عاقبة قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه في حديث صحيح (ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الطبراني (خذوا على أيدي سفهائكم من قبل أن يهلكوا أو يهلكوا) وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبراني أيضا بحديث صحيح (أيما وال ولي شيئا من أمر أمتي فلم ينصح لهم كنصيحته لنفسه كبه الله تعالى على وجهه يوم القيامة في النار) وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه الطبراني أيضا بحديث صحيح (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) وقوله صلوات الله عليه وسلامه فيما رواه أبو داود في سننه (خيركم المدافع عن

عشيرته) وقد خار الله لنا ان ننهض بأمتنا للاخذ على أيدي الظالمين ، واجلاء السفهاء المارقين ، عن البلاد والعباد . طالبين لهم ما طلبناه لانفسنا من جعل هوانا تبعا لما جاء به صلى الله عليه وسلم ، ودفع السوء عن عشائرنا وجماعاتنا العربية التي صارحها هؤلاء الاغرار بعداوة جنسيتها ولغتها وتقاليدها وراحتها وهنائها في كل ما ظهر وما بطن من أقوالهم وأعمالهم

وها ان ماكنا نسمعه وتسمعونه من ضروب ظلمهم وبغيهم في عرب الشام والعراق ، لم يسلم منه أهل المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فقد تواترت الانباء بمضاعفة بغيهم وظلمهم فيها ، وأخذوا في شنق النفوس البريئة وصلبها ، مستعملين ضروب الوحشية الطورانية ، وشرعوا بتشغيل بعض من وقع في أيديهم من سكان العوالي بالاشغال الشاقة بعد الفظائع الشنيعة التي أجروها لهم من قبل . ثم شنقوا أخيرا ثلاثة من أعيان المدينة المنورة ، وبدأوا بتجنيد الاهالي بالقوة ، حتى يستنجد بعض أهالي المدينة المنورة باخوانهم المكيين لينقذوهم مما هم فيه

فأي مروءة ترضى لحاكم مهما كان ظالما أن يسل سيف حقده وضغنه وانتقامه في سكان المدينة المنورة الذين آثروا جوار النبي الاعظم صلى الله عليه وسلم على كل ملاذ الدنيا وصاروا أمانة الله في يد من يحكمهم ، واذا كان حقد المتغلبة وضغنهم قد وصل بهم الى حد أن يمدوا أيديهم بالاذى لعامة سكان المدينة المنورة الذين لا حول لهم ولا طول في جانب القوة العسكرية المتسلطة عليهم فان أولى بهم أن يخرجوا لقتال أولادي الاربعة ومن معهم من أفلاذ أكباد العرب ، فهنالك موضع الشجاعة والقوة لا في قتل الاهالي الابرياء والمجاورين الضعفاء ، وها ان جيوش الحق زاحفة عليهم من أربع جهات لا من جهة واحدة ، مجيبة داعي الله بالاخذ على أيدي الظالمين ، وتأديب الملاحدة المارقين

وانه لا يفوتنا بهذه المناسبة أن نعلن أمتنا المخلصة بسرورنا من غيرتها الاسلامية وحميتها العربية ، وشكرنا لها على ما أبدته حتى الآن من البساطة والرجولية والشمم العربي ومشاركتها الفعلية في طرد المتغلبة المارقة من عقر دارنا وحصون بلادنا . فسطرت بذلك صفحة ذهبية جديدة في تاريخ البلاد العربية المجيدة ، واستحقت ان

تكون صاحبة الفخر لاعظم باسترداد الاستقلال التام الدائم لبلادها مادامت السماء والارض ان شاء الله تعالى

وان نظرة واحدة فيما كانت بلادنا عليه بالامس وما صارت اليه اليوم بحول محول الاحوال كافية لترديد شكر الله تعالى منا جميعا على جزيل آلائه، وعظيم نعمائه، فقد أبدلها من العسر يسراء ومن الخوف أمنا ومن الضعف قوة، وكانت مقدراتها تحت تصرف وصي جاهل لايراعي فيها إلا ولا ذمة فازاحه الله عنها. وصارت حكومتها منها وفيها، وفتحت لرجالها على اختلاف طبقاتهم أبواب العمل لادارتها، واستعمال عقولهم وذكائهم ومواهبهم في تحسين أحوالها، كما فتح لابنائهم الطريق القويم اذا جدوا في ادرك الفضائل وتحصيل الكمالات، حتى يبلغوا بقدرة الله عز وجل سعادة الدنيا بتولي المراتب العالية في دولتهم، والمناصب الجليلة في حكومتهم؛ ويحصلوا على سعادة الآخرة بايفاء ما يجب علينا من خدمة وفود الله وحجاج بيته الحرام، واستحصال جميع الاسباب التي تستلزمها راحتهم من كل الوجوه، وان عزائم حكومتنا معقودة للنهوض بأمر المعارف على أساس قويم يضمن تهذيب ناشئة البلاد ان شاء الله تعالى على الوجه الذي أشرنا اليه. وان كل ما حصل حتى الآن ليس الا جزءا قليلا مما ستناله البلاد من الخير التدريجي الدائم، وان كان كثيرا بالنسبة الى ما نحن فيه من التدابير الحربية، وبالنسبة الى الوقت القصير الذي تمتعت فيه الامة بالاستقلال

ومما لا يختلف فيه اثنان أن تأسيس الممالك يحتاج أن تبذل فيه كل طبقات الامة ما تستطيعه من السعي والجهد والعمل، وأن يقوم كل فرد من أفرادها بما يحسنه من وسائل المساعدة للنهضة العامة، حتى يتم الخير العميم على أيديهم جميعا فتشترك الامة كلها في نتائجه بعد اشتراكها في مقدماته. وبهذا تقيم الامة صروح المجد، وتهيئ لممالكها أسباب الهناء والسعد

وأهم ما ينتظر من الامة اخلاص النية والتناصح والتعاضد والدفاع عن الحق والمصلحة القومية والوطنية، فقد ورد في صحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي ومسند أحمد (ان الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) وفي صحيح

مسلم (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى هاهنا (ويشير الى صدره ثلاث مرات) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) وفي سنن الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (يد الله على الجماعة) فبالتعاون والتآزر والتناصح تنجح الامم وتفوز في معترك الحياة وتكتسب رضى الحق ورضى الخلق ، وبهذا يأمرنا ديننا الاسلامي الحنيف فلنكن مسلمين حقيقة، ومن كان مع الله كان الله معه، وان ما نالته جيوشكم حتى الآن من النصر والفوز لم يكن الا بالاخلاص والنية الصالحة واستئصال شأفة الالحاد والفساد ، وشتان بين من يؤسس بنيانه على التقوى ومن يؤسس بنيانه على شفا جرف هار. وان من باب التحدث بالنعم الالهية، والتوفيقات الصمدانية، ماترونه من أني لم أضن بنفسي وراحتي وحياة أولادي، على الدفاع عن راحة أبناء جلدتي ومصلحة بلادي، وذلك لما علمته من أن الخدمة لا تتم الا بأن يعمل لها كل بما يستطيع

ومن نعم الله تعالى على بلادنا هذه العربية اتفاق مصالحها مع مصالح من والاها من حلفائها، واعلانهم العطف عليها في آمالها وأمانيها، وتصريحهم بأن من النقط التي لا تقبل التغيير والبدل بقاؤها في أيدي حكومة اسلامية مستقلة أمينة من كل طارئ خارجي . وان من مقتضى أخلاقنا الاسلامية التي منها الاعتراف بالجميل شكر حلفائنا الكرام على اخلاصهم في صداقتنا وحسن سيرهم معنا وبذلهم الوسع فيما فيه خير هذه البلاد . وانا سنحرص على دوام ما يؤيد هذه المنافع المتبادلة الى ما شاء الله

ونستنهض همة أمتنا في الختام الى العمل على حفظ ما بأيديهم من نعم الله السابغة، والاستمرار فيما أخذوا به من أسباب النهوض والتقدم ، لان الزمان الحاضر زمان جد وعمل، وقد خاضت كل الامم في معامع الحروب والخطوب تأمينا لمصالحها وبقائها ، وضحت كل مرتخص وغال في سبيل عزها ومجدها ، واننا لجديرون بأن نكون في مقدمة الطامحين الى احياء الامجاد ، والسير في سبيل الاجداد، ورفع شأن البلاد ، واجتناب كل ما يخل بنعمة حاضرة، وسعادة مستقبلة ، ومن جهة ثانية فاني

أحث قومي على الاقتصاد والاخذ بأسبابه وترك البطالة المنهي عنها في الدين الاسلامي، ولنا معتبر في الحث وشدة الابرام على المثابرة في وسائل الاكتساب مهما كان حكمنا على حالة بلادنا في الوقت الحاضر من جهة ما يظهر في النظرة الاولى من قلة أسبابها الاقتصادية ، ولكن مباشرة العمل ستبين لكم أنها تأتي بثمرات لم تكن في الحسبان، فيكون بها تعديل الحاجة وتهوين الضرورة التي أحست البلاد بها في الشهر الاول بل في الاسبوع الاول من وقوع الحصر

وانه لم يبق لأحد عذر في التقصير بشيء من أسباب الارتقاء بعد ان فتحت أبواب الاكتساب الخارجية للرجال ، وأبواب المدارس للاطفال ، وسوف تستمر حكومتنا في هذا السبيل ان شاء الله حتى تستكمل كل أسبابه ، لاسيما المدارس المساعدة على ذلك بكل أنواعها، كالمدارس التجارية والزراعية والصناعية والطبية والهندسية، وسائر ما تحتاج اليه في حياتنا الجديدة والعمران الحاضر على الطرز والوجه المناسب لقدسية بلادنا، حتى يسهل استثمار ما أعد الله تعالى فيها من لوازم الحياة على أيديكم و بواسطتكم في عهد قريب ان شاء الله تعالى ، وليس ذلك بعزيز عليكم بالنظر الى ما خصكم الله تعالى به من الذكاء والفطنة ، وان خطتنا الاسلامية هي المحافظة على ما نحن فيه والسعي لتنميته والتقدم به بالتدريج الذي تقتضيه حالة البلاد (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)   شريف مكة المكرمة

ومالك البلاد العربية

الحسين بن علي

[المنار]

كان المنشور الهاشمي الاول خطابا خاصا بالمسلمين وقد نشرنا خلاصته في الجزء الرابع ، والمنشور الثاني موجها الى الناس عامة والمسلمين خاصة وقد نشرناه بنصه في الجزء السادس ، وهذا المنشور الثالث خاص بأهل الحجاز وحدهم وكلهم مسلمون كما يعلم القراء ، الا أنه يوجد في جدة أفراد من أهل الكتاب المعاهدين تساهل الحكام من قبل بالسماح لهم بالاقامة فيها. وسبب جعل الحرمين وما يحيط بهما من جزيرة

العرب خاصا بالمسلمين مع ماهو معروف من تساهل الاسلام هوانهما أعظم المعابد الاسلامية وما حولها حرم لها . ومن المساواة في الاسلام انه لايجوز للمسلمين في دار الاسلام دخول معابد غيرهم ولو موقتاً الا أن يكون باذنهم ، فهل تجوز الاقامة فيها ؟ ولو كان لهذا الملك الشريف رعية من غير المسلمين لخصهم بخطاب يعلم منه القاصي والداني انه أوسع صدرا وأشد تسامحا من خلفاء العباسيين ، وانه لو حكم بينهم بما يأمره به دينه واجتهاده لكان حكمه خيرا لهم من دستور العثمانيين في دينهم ودنياهم . وقد كنت مع جمهور من المسلمين السوريين في مجلسه الشريف من دار حكومته بمكة المكرمة ومعنا عبدالعزيز بك المصري المشهور فذكرت في سياق الحديث عن العرب اخلاص القائمين بالنهضة العربية من المسلمين والنصارى وضربت الدكتور أمين المعلوف مثلا وشاهدا فقال حفظه الله تعالى : ياحضرة السيد انني لا أحب أن يفرق في هذا المقام بين مسلم وغيره، واذا كان أصل شرعنا في الذمي الغريب عنا ان له مالنا وعليه ماعلينا، فكيف اذا كان من أبناء جنسنا ؟ ثم أثنى على الدكتور وأعرب عن رضائه عنه، فسر الحاضرون بقوله سرورا عظيما .

عاقبة الحرب

ومكانة بريطانية العظمى منها

كتبنا في أول العهد بالحرب مقالة نشرت في (ج ١٢ م ١٧) الذي صدر في آخر ذي الحجة سنة ١٣٣٢ بينا فيها من استعداد الفريقين المتقاتلين ومن مقاصدهما ماظهر لنا بعد سنتين أنه أصح من كل مانشر في الصحف مخالفا له . وقد رأينا أن نعيد أواخر تلك المقالة للمقارنة بينه و بين كلام حديث العهد نشر في جريدة التيمس. وهذا نص عبارتنا في تلك المقالة :

« فجملة القول في المجموعين المتقاتلين أن انكلترة وفرنسة وروسية وبلجيكة والصرب والجبل الاسود أ كثر من ألمانية والنمسة والعثمانية رجالا ومالا وأساطيل بحرية وهوائية ، ولكن ألمانية وحدها أعلى منهن استعدادا ونظاما ، ولولا الاسطول

الانكليزي لرجحت على الجميع رجحانا ظاهرا ، بل لامكنها أن تحارب أوربة كلها وتنتصر عليها .

« بيد أن هذا السبق في الاستعداد، ليس مما ينتظم في سلك الخوارق والآيات، بل يمكن لدول الاحلاف أن يلحقوها به ، اذا عجزت في أول العهد عن بطشة فاصلة في فرنسة . أما اذا وقف مدها عند تدويخ بلجيكة والاستيلاء عليها وعلى بضع ولايات من شمال فرنسة وجانب من بولاندة الروسية ، فما بعد المد الا الجزر، فاذا أمكن للحلفاء أن يزيدوا عدد جندهم ويمدوه بما لم تستطع هي مثله عاد لهم الرجحان عليها في البر ، كما سبق لهم الرجحان عليها من قبل في البحر

فمحل الرجاء للحلفاء انما هو التغلب بالكثرة بقاعدة قول الشاعر العربي :

ولست بالاكثر منهم حصى وانمـــــا العزة للكاثر

« أما هذا المدد الذي يكون به الرجحان البري فلا يرجى الا من قبل بريطانية العظمى، لان الفرنسيس قد بذلوا كل ما في وسعهم ، والروس — وان كانوا أكثر عددا — لا يجدون من الذخائر والسلاح ولا من الضباط ما يمكنهم من تجنيد العدد الذي تسمح لهم به كثرتهم . فالانكليز وحدهم هم القادرون على مضاعفة جنودهم ، وعلى ايجاد ما يحتاجون اليه من السلاح والذخيرة لكثرة معاملهم وعمالهم ومالهم ، وليس عندهم جندية اجبارية تستغرق العمال ، وتوقف حركة الاعمال ، وانما يعز عليهم التعجيل بايجاد ضباط أكفاء لجيش كبير يجددون تنظيمه تجديدا ، ولكن الانكليز أهل صبر وأناة ، فما لا يدركونه في سنة يرضون بأن يدركوه في سنين ، وتاريخهم مرآة أخلاقهم في ذلك . وقد قدر لورد كتشنر ناظر الحربية القائم بتجهيز الجيوش الانكليزية مدة هذه الحرب بثلاث سنين

« تبين لنا ما تقدم ما يراه كل الواقفين على الحقائق من أن هذه الحرب ليست الا المظهر الاجلى للتنازع على السيادة والنفوذ والاستعلاء في الارض بين الانكليز وأبناء عمهم الالمان ، وسائر الدول تبع لهما في عللها ومعلولاتها ، ومقدماتها ونتيجتها

« دع البحث في المقدمات فقد انتهى أمرها ، وسيحكم التاريخ حكمه العادل فيها، وأما النتيجة فهي ان السيادة العليا في الغرب والشرق ستكون لانكلترة أو لالمانية

لامحالة، ويكون أحلافهما تبعا لهما، فتكون لانكلترة اذا فازت هي وأحلافها بالنصر التام، لانهم لن ينالوا ذلك الا بها، ولا تنتهي الحرب الا وقد انتهكت قواهن من دونها، واستحدثت هي من القوة فوق ما كان لها، اذ شرعت بتأليف قوة برية لم يكن لها مثلها في وقت من الاوقات، كما انها تزيد الاسطول قوة على قوة، وحينئذ تكون أعظم الدول ربحا وأقلهن خسارة، وإذا كان من بواكر هذا الربح مصر وقبرص والبصرة ومعظم مستعمرات ألمانية في أفريقية أو جميعها كما هو المنتظر فكيف تكون أواخره؟

«وأما اذا كان النصر التام لالمانية وأحلافها فقد طالما لهجت الجرائد الانكليزية والفرنسية وغيرها بأن ألمانية حينئذ تجعل أوربة كلها تحت سيطرتها، وتنتزع منها جميع مستعمراتها، وانها بذلك تسود العالم كله، ولعلنا نعود الى تفصيل القول في نتيجة الحرب على كل تقدير، بقدر ما تسمح به المراقبة الرسمية على الصحف، ونلم في ذلك بأماني الشرقيين عامة والمسلمين خاصة[1]»

هذا ما كتبناه منذ سنتين وعدة أشهر وأما ما جاء في جريدة التيمس مؤيدا له فو ما نشر في جزء المقتطف الذي صدر في آخر ديسمبر من السنة الماضية الموافق ٥ صفر الماضي وهذا نصه بحروفه الا ما غيرته المطبعة من تأنيث أسماء الدول وأوربة بالتاء:

رأي الانكليز في عاقبة الحرب

« ان الالمان لجأوا الى الدفاع بعد الهجوم في كل الميادين تقريباً والحلفاء يفوقونهم في كل شيء عدداً ومدة ما عدا القوة العقلية، وفي يدهم زمام البحار فهم يضيقون على الالمان تضييقاً لا يضعفه علم ولا تقوى على احتماله حمية وطنية مهما عظمت. وما من دولة محايدة يؤبه لها الآن وهي تفضل الانضمام الينا على الانضمام اليهم. وستكون العاقبة لنا حتما ولكنها قد لا تزال بعيدة فان ألمانية لم تقهر حتى الآن. بجنبت بوارجها القتال قبل ان يقضى عليها. نعم أقفلت أسواق المسكونة في وجهها وأوصدت أبواب البحار أمام سفائنها؛ وقد حدث مثل ذلك لنو بوليون بونابرت في معركة الطرف الاغر ولكنه بقي في اوج مجده وبقيت ملوك الارض تخطب وده وتتسابق الى نيل رضاه

(١) قد وفينا بهذا الوعد ونشرنا في الاجزاء الماضية ما اذن لنا بنشره

« والانسان يعيش في البر لا في البحر والدولة البرية التي تتسلط على نصف أوربة وتمتد سلطتها من البلجيك الى الاناضول لا يمكن اذلالها بقوة بحرية لانها لا تزال تستورد ما تحتاج اليه من البلدان الواسعة التي تحت سطوتها

« ولا مشاحة في ان ايصاد البحار دون ألمانية قد أضرّ بها كثيراً ولكن الضربة القاضية لا تكون الاّ في البر . هذا ما حدث في الماضي وما سيحدث في المستقبل

(المقتطف : وقد مثلت ذلك مجلة لندن بصورة وقف فيها الجنرال جوفر الفرنسوي امام أمير البحر جاليكو الانكليزي وقال نعماّ ما فعلت ولكن الضربة القاضية تكون في البر لا في البحر. كما ترى في الصورة التالية) (١)

« ولقد أخطأنا في إلقاء اعتمادنا كله على قوتنا البحرية واهمالنا لقوتنا البرية فكنا كالخراف امام الذئاب لما ذهبنا لمحاربة ألمانية في فرنسة لاننا اعتدنا الراحة والرفاهة فاسأنا الى أنفسنا والى أوربة كلها باهمالنا قوتنا البرية

« وسبيلنا الآن ان نعلم ان قوة ألمانية الحربية لم تضعف حتى الآن ولا دليل على انها لا تستطيع مواصلة الحرب وامداد جنودها بالرجال والسلاح سنة أخرى أو سنتين

« من المحتمل ان قيادة جيوش الالمان جعلت منذ الربيع الماضي تخفي عدد قتلاهم وجرحاهم ولا تذكر الاّ القليل منه حالما رأت اننا نعنى بذلك ونبني عليه أحكامنا . ولها غرض آخر أهم وهو ان لا يعلم الشعب الالماني ما حلّ برجاله . ومع ذلك فانها لم ترسل الى ميدان القتال حتى الآن الا القليل من مجندي سنة ١٩١٧ ولم ترسل أحداً من مجندي سنة ١٩١٨ . وهي تستطيع ان تجند كل سنة نحو نصف مليون من الشبان . وكثيرون من الجرحى يشفون ويعودون الى ميادين القتال . وقد يكون عندها الآن مليونان من الرجال المستعدين لحمل السلاح وانجاد الجنود المقاتلة . ولا جدال في انها خسرت هي والنمسا خسارة فادحة في الصيف الماضي ولكن خسارتهما هذه لا تستلزم أن يطرحا سلاحهما حالا ويطلبا الصلح ناهيك عن أن التزامهما خطة الدفاع تقلل خسارتهما من الرجال وتمد أجل الحرب كثيراً

« فلا ينبغي لنا ان نتوانى بل يجب علينا ان نزيد همةً وإقداماً ونوالي الهجوم

(١) المنار : نشرت الصورة في المقتطف كما نشرت في مجلة لندن

نحن وحلفاؤنا ونكثر من سبك المدافع والقنابل واعداد الجنود ونستعين بكل رجال الامبراطورية البريطانية . وما دامت حكومتنا قد أقرّت التجنيد الجبري ووزعت ادرة لاعمال على الاكفاء من الرجال فلا يهمنا بعد الآن من يدخل الوزارة أو من يخرج منها

« وستنتهي هذه الحرب حينما تتأكد ألمانية انها تخسر كثيراً باطالتها ولا تستفيد شيئاً منها، ولكن ما من أحد يعلم متى يكون ذلك . من المرجح ان أولي الامر في ألمانية علموا الآن هذه الحقيقة ولكن يصعب عليهم ان يجاهروا بها قبلما تدور الدائرة على قوادهم في معركة كبيرة فاصلة لا سيما وان الشعب الالماني قد استهوي وأقنع ان الفوز في يده فيصعب عليه ان يصدق الآن ما يناقض ذلك »

(المقتطف) : واستطرد الكاتب الى ما يجب على الامة الانكليزية فعله بعد ان يعقد النصر للحلفاء فقال :

« ان الحرب ستنتهي يوماً ما فكيف يكون حالنا حينئذ؟ اذا اعتبرنا قوانا البرية والبحرية وخيرات بلداننا فسنصير أعظم دولة حربية في المسكونة ، ونكون معتمد حلفائنا ونمتلك ما مساحته مليون ميل مربع من مستعمرات الالمان، ويكون عندنا جيش محنك من الجنود والضباط يعدُّ بالملايين ، ويزيد تفوُّقنا البحري عما كان قبل الحرب، وتتحقق الامم كلها ان امبراطوريتنا مرتبطة بعضها ببعض، عراها لا تنفصم، وشعوبها لا تقهر ، وفعالها خليق بماضيها المجيد

« ولقد كان ضعفنا العسكري شوكاً في جنب جنودنا في السنوات الاخيرة وهو من أكبر الاسباب لنشوب هذه الحرب الا ان ذلك قد مضى وانقضى . لكننا قد نخسر كل ما اكتسبناه الآن اذا قامت فينا وزارة تطلب ان نطبع سيوفنا سككا ورماحنا مناجل قبل ان يحين الزمان الصالح لذلك . فيجب علينا ان نكون على حذر مدة خمسين سنة إلى ان تزول رزايا هذه الحرب وما أثرته في النفوس ويعود الأمن والسلام الى نصابيهما

« وعلينا ان نحذر الغرور كما نحذر الخول لئلا نضيع ثمار الظفر، فقد اعطينا زعامة حلفائنا فصارت زعامة أوربة لنا بحق مكتسب، فلا ينبغي لنا ان نحل محل ألمانية

فنكون قوة حربية مستبدة مثلها لاننا أصحاب البوارج والرجال والاموال ونتوخى التفوق الحربي على غيرنا. بل يجب ان يكون غرضنا النفع العام وخدمة نوع الانسان. أما البحر فيجب ان يبقى لنا التفوق فيه وأما البر فيجب ان يكون عندنا من القوة ما يكفي لحماية ثغورنا وبلداننا مهما اختلفت تصاريف الزمان. ولا نخدعن أنفسنا بأن القوة البحرية كافية وحدها كما فعلنا فيما مضى

« يجب ان نمرن شباننا كلهم على استعمال السلاح، لا لكي يضرموا نار الحرب به بل لكي يمنعوا اضطرامها ويحموا كل أملاكنا ومستعمراتنا ويحفظوا تاريخ أسلافهم المجيد

« والفوز في الحروب والتغلب على المكاره مغروسان في نفوسنا حتى ان جنودنا الذين دارت الدائرة عليهم في أول الحرب واضطروا ان يعودو القهقرى أمام العدو لم يكن يخطر لهم ان يتفكروا أو يتكلموا الا بأن الفوز سيكون لهم أخيرا، وقد دامت هذه العزائم كل مدة الحرب وستبقى أشرف ميراث نورثه لذريتنا من بعدنا »

(المقتطف) : هذا ولم نكد ننتهي من كتابة هذه السطور حتى طير الينا البرق ان ألمانية عزمت ان تجعل بلادها كلها معملا للاسلحة والذخائر الحربية أوان تحسب البلاد كلها محلا تجارياً كبيراً وتستخدم كل مافي بلادها من الايدي العاملة ومعدات العمل لخدمة الجيش وان لا تكتفي باستخدام الرجال والاسرى بل تستخدم النساء أيضا، ويقال انها عزمت على تجنيدهن أيضاً. وان انكلترة قررت انشاء ادارة للتموين برآسة رجل مطلق التصرف يحق له ان يرغم الناس على الاقتصاد وانها حظرت على السكان اتلاف المواد الغذائية واستعمال السكر في الكماليات وطحن الدقيق على الاسلوب الذي يزيل منه المادة السمراء فتقل تغذيته اه ما نقلناه عن المقتطف من ترجمته وتعليقه.

ومن قابل مانقله عن جريدة التيمس التي هي أعظم الجرائد الانكليزية مكانة ومعرفة بماقلناه في أول العهد بالحرب في شأن ظفر انكلترة وحلفائها يجده شيئا واحدا

الحركة الطورانية الجديدة

في بلاد تركيا (*)

نقل هذه المقالة عن العدد ١٨ والعدد ١٩ من جريدة القبلة الغراء مع تصحيح بعض الالفاظ — :

قرأنا في جريدة (نير إست) الانكليزية الصادرة في أول ذي القعدة مقالا خطيراً (؟) تحت عنوان الحركة الطورانية الجديدة فترجمناها (؟) الى لغتنا العربية الشريفة ونشرناها على صفحات القبلة لعل فيها عبرة ومزدجرا فان أسرار الاتحاديين والحمدلله قد ذاعت وشاعت حتى أصبحت حديث الشرق والغرب. وان وراءها لأشد منها وأفظع ، وأدهى وأمر ، وسيعلم النازحون عن المملكة العثمانية من حقائق الاتحاديين الطورانيين ما علمه العرب العثمانيون قبل ذلك بأعوام فاستعدوا للدفاع عن كيانهم وعن دينهم ، و بعضهم سادرون ، غفلاتهم هائمون في أودية الاوهام والاضاليل واليك ترجمة المقال المذكور

ظهرت في تركية حركة جديدة عرّمها القوم باسم (ني طوران) أعني طوران الجديدة وقد نبتت في الاستانة سنة ١٣٣١ ثم أخذت تنتشر في أجزاء كثيرة من السلطنة ، وقد امتازت هذه الحركة بكونها مقصورة على فئة مخصوصة غايتها توحيد القومية التركية بالعنصرية الجنسية دون الروابط الدينية الاسلامية. واليك بيان الغايات التي ترمي اليها في مساعيها وأعمالها :

(أولها) ان تجعل الاتراك أمة قائمة بذاتها مستقلة عن الدين الاسلامي تمام الاستقلال حتى يتهيأ لها أن تربي فيهم ذلك الشعور القومي الذي ذكره الدكتور الفردنوخ في مقالة نشرها تحت توقيعه في جريدة (اندرنوخ) الالمانية على أثر حديث

---

*) قد لخص هذه المقالة صاحب المقتطف ناسبا اياها الى أحد أدباء الانكليز وأبهى كلمة الطورانية بالتاء

دار بينه و بين زعماء الاتحاديين . (١)

(ثانيها) ترقية الروح العسكري التركي فقط(٢)

(ثالثها) انشاء العلاقات التجارية وغيرها من الصلات بين مسلمي بلاد العجم الشمالية (آذر بيجان) و بلاد روسيا في آسيا والاجزاء الجنوبية منها .

(رابعاً) تطهير اللغة التركية من الالفاظ العربية والفارسية ومن آداب هاتين اللغتين .

ولهذه الجمعية التركية مطمع آخر ترمي اليه وان لم تجهر به رسمياً وهو تتريك العرب وإدغامهم في الترك حتى لا تبقى لهم قومية قائمة بذاتها. وأكبر آمال هذه الجمعية ان تجعل التركي العثماني يعد نفسه تركياً قبل كل شيء وأما كونه مسلماً فيعد عنده من المسائل الثانوية التي لا تهمه كثيرا .

أما هذه الجمعية فانها تقوم بتلك الاعمال بايعاز من السلطة الحاكمة التي تؤيدها بكل وسيلة ممكنة وتدفع لها كل ما يلزمها من المال لاجل بلوغ هذه الغاية وهم يسمونها (ترك أوجاغى) أي جمعية الوطن التركي . وهي تقوم الآن بنشر دعوتها والقيام في أعمالها بهمة فائقة . أما الاطفال الترك فان المدارس الطورانية التي شرع في انشائها كفيلة بأن تغرس في نفوسهم تلك الروح التركية الجديدة

وقد بذلوا غاية الجهد في تدريس التاريخ القومي للطورانيين وأفرغوا كل عناية لنشره في المدارس العالية وحضوا الطلاب على التنافس فيه والتهافت عليه، وأخذوا بتأليف قوة كبيرة من فتيانهم سموها بالتركية (ايزجى) أي قافة الاثر . ووضعوها تحت رعاية أنور باشا وهم يدربونها على الفنون العسكرية حتى تكون قادرة على الانضمام للجيش العامل وتفوق غيرها من أبناء العناصر الاخرى كالعرب والاكراد واللاز ونحوهم . ولهذه القوة الصغيرة علامات مخصوصة وشارات معينة وألقاب معروفة وكلها تركية قديمة يرجع تاريخها الى ما قبل العصر الاسلامي . أما الاولاد الذين

(١) عبارة المقتطف : وهذه العبارة هي عبارة الدكتور الفرد نوسيج من حديث دار بينه و بين زعماء الاتحادين ونشر في جريدة درتاج الالمانية اه (٢) ترقية الروح العسكرية بين الترك اه م

سماؤهم مأخوذة من العربية فقد استبدلو بها ألفاظ تركية محضة بدعوى ان الكشافة تركية خالصة وان أسماءها يجب ان تكون كذلك اتماماللقومية ورعاية للجنسية ، ومن الاسباب التي عملت على ايجاد هذه الحركة أمور علميةولغوية لان الاتحاديين شرعوا في نقل كتب كثيرة من علمية وتاريخية الى لغتهم فكان لها في نفوسهم تأثير . وقد تفننوا في ذلك حتى عزموا على ترجمة القرآن الكريم الى التركية واستعماله في العبادة لا باللسان العربي، ولكن العلماء المسلمين من جميع النحل حتى بعض الترك أنفسهم عارضوا في ذلك أشد معارضة

وقد طبع الاتحاديون كتبا كثيرة لتأييد المبدإ العنصري ومن ذلك الروايات الكثيرة التي وضعوها وأهمها (يني طوران) وهي الرواية التي كتبتها احدى نسائهم المطالبات بحقوق الانتخاب واسمها (خالدة خانم) وقد حبذت فيها تلك الحركة الجنسية ونوهت بمطالب السيدات وحقوقهن ، ولا ريب ان مسئلة المطالبة بحقوق النساء وما يقوم به الاتراك من نشر دعوتهم والحث على العودة الى مدنية طوران من شأنه ان يعيد الى مخيلة الانسان ذكرى ما هو معروف عن الاقوام الطورانية وما كانت عليه من الاحوال الاجتماعية لان استبدادهم بالنساء وما ألحقوه بهن من ضروب القسوة والظلم يفوق ما فعلته جميع شعوب الارض في العصور المظلمة

يقال ان الحركة التركية بدأت بالظهور تحت صور شتى وأسباب مختلفة أولها اللغة التركية ومحاولة كتابتها بما يخالف الاحرف العربية حتى تعذرت قراءتها على كثيرين . على ان هذا الامر لاشأن لنا به على الاطلاق . وهنالك أسلوب آخر أعني توطيد العلاقات مع مسلمي روسيا والقوقاس دون غيرهم من سائر المسلمين بحجة ان هذه الاقوام ربما كانت من أصل تركي أو ان تتريكها ممكن في الاقل ولكن ذلك لم ينقذهم من خطر الاندماج في العرب وخسران قوميتهم مادام للاسلام سلطان على النفوس (١) ولذلك عالجوا أمرهم باحياء اللغة التركية والسعي في استقلالهم عن سواها .

(١) عبارة المقتطف : والا لابتلع العرب الترك العثمانيين في آخر الامر ولو فاز هؤلاء باستخدام الجامعة الاسلامية لبلوغ غاياتهم

أما الباعث الثالث الذي شدد عزمهم فهو كتاب تلاه⁽١⁾ الدكتور ناظم المرخص المسؤل لجمعية الاتحاد فكان كالحاطب ضرب هشيماً يابساً لانه أوقد في نفوسهم نار الحماسة والحمية . وذلك الكتاب مؤلف تاريخي وضعه الموسيوليون كوهين بالفرنساوية عن أسماء الترك في منغوليا وأصلهم منذ سنة ١٤٠٥ ميلادية، وقد صدر ذلك الكتاب سنة ١٨٩٦ وبما ان الجمعية العلمية الفرنساوية قرظته وخصته بالعناية فقد حلّ عند الأدبيين مكانا رفيعاً فنقلوه الى التركية بعبارات بالغوا فيها مااستطاعوا ولم يلتفتوا الى صحة بعض الاحكام والآراء المذكورة في الكتاب بل عدوا ذلك أمراً ثانوياً بالنسبة لخطتهم المرسومة . ومن البديهي ان من مقتضيات تلك الحركة استقلال العنصرية التركية دون الاسلام تمام الاستقلال وانفصالها عنه أشد الانفصال. وان ذلك لأمر خطير عند المسلمين وغيرهم من الدول العظمى مثل روسيا وفرنسا وايطاليا وانكلترا لان لهذه الدول عدداً كبيرا من الرعايا المسلمين وذلك مايجعل لهذا الانقلاب أهميه كبيرة في الشرق والغرب. وهذه الحركة كما يقولون مقصورة على جمعية الاتحاد والترقي ومبنية على نظرات استاذهم المجري فمبري لما علق في ذهنه من المزاعم القديمة البالية من ان الاسلام ينافي الوطنية⁽٢⁾ . ويزعم الاتحاديون أن الاسلام باختلاطه مع التقاليد والمؤثرات العربية والفارسية واليونانية والبيزنطية قد حول الترك الى عنصر شرقي مسلم ليس له مدنية (كلتور) خاصة به، وهم يقولون ان هذه الحقائق تحملهم على الاهتمام بمصيرهم والتفكير في عاقبة أمرهم وزيادة العناية في تمييز الحياة الوطنية التركية عن الاسلام

أما تيار المهاجرة التركية فقد بدأ منذ أوائل عهد النصرانية في آسيا من بلاد الصين والاكسوس . وكانت ديانتهم في ذلك الزمن على افتراض أنهم كانوا يدينون بدين خاص مايسمونه اليوم (الشامانزم) أي العبادة الوثنية⁽٣⁾ .وكانت مدنيتهم

(١) أي اطلع عليه وقرأه (٢) عبارة المقتطف : ويقال ان احرار الترك يميلون اليها بوجه خاص بناء على القاعدة التي وضعها فمبيري اليهودي المجري المعروف وهي أن «لا وطن في الاسلام»(٣) المقتطف : كانت القبائل التركية تقطن بلاد آسيا من حدود الصين الى نهر جيحون (اوكسوس أو موداريا كما يسميه التتر)وكانت ديانتهم ــ ان كان لها ديانة ــ مايسمى «بالشامانية» أي عبادة قوى الطبيعة بالشعوذة والسحر

مؤلفة من المبادئ البسيطة المعروفة عند القبائل الرحالة المنتشرة في أواسط آسيا كما يقضي بذلك مركزهم الجغرافي وحالتهم الاقتصادية المحيطة بهم. ولم يكن لهم من المزايا غير الصفات الحربية، ولم يكن لهم من الشرف القومي أيضا سوى ما يستعيرونه من شرف الامة التي تستخدمهم بالدراهم للمحاربة في صفوفها، وكانوا يعرفون بالطاعة لكل من أطعمهم وتولى قيادتهم في ساحة القتال. ولا مشاحة ان التركي لم يستطع تجاوز تلك الحدود من تلقاء نفسه. ولم يكن للتركي دين خاص به ولم يعمل شيئا لترقية شؤونه وبلوغ درجة رفيعة من المدنية، ولم يحاول الترك قط أن يمتزجوا ببقية اجناس قومهم، وان كان جنكيز المغولي قد حدث نفسه بهذا الامر وجعله نصب عينيه وأكبر آماله. ولم يكن التركي يقتبس من المدنية الا ما تلجئه الاحوال الضرورية اليه لاحتكاكه بها كارها كما وقع له مع المدنية الصينية فالفارسية فالعربية فالرومية فالالمانية. ولا يقع في وهم أحد أن ما استعاره التركي من مدنيات أولئك الاقوام ولاسيما مدنية الاسلام قد حال دون بلوغه (كانور) مدنية خاصة به[1] وان التركي لم يظهر في عصر من العصور مقدرة خاصة أو استعدادا طبيعيا لاجل النهوض وإظهار مدنية يستقل بها عما كان يقترضه اقتراضا ويقلده تقليدا مضحكا

وفي الحقيقة ان العثمانيين من بين قبائل التركمان أقل الناس لياقة لتمثيل أمة. يدلك على ذلك ان الاناضول عدا ما فيه من قبائل اليودوك والتركمان خال من آثار القبائل التركية الاصلية. لان القومية التركية فيه ليست الا لفظة أوجدتها الاحوال السياسية. وليس الدم التركي فيها سوى قطرة صغيرة في بحار تلك الدماء المتحدرة من الاقوام والشعوب القديمة الراجعة في تاريخها الى ماوراء تأسيس القسطنطينية باجيال كثيرة كاليونان القدماء والفريجيين والغلاطيين والاشوريين والكاريانس والحثيين، وتلك الدماء هي التي تحركت في اعصاب ذلك المزيج المسمى بالعثماني فاوجدت فيه ميلا للزراعة وحراثة الارض، ولا سيما العناية بالبحرية في القرن السادس عشر. وقد كان من جملة العوامل التي حفظت وجود الأتراك حتى اليوم بصفة شعب معروف أمران: الدين والطاعة العسكرية. فاذا ذهب الاسلام من تركيا فما الذي عسى أن يبقى لها. وقد أجاب عن ذلك أصحاب (قوم جديد) فقالوا انه سيبقى لهم

(١) كذا في الترجمة والمراد: دون انشائه مدنية خاصة

اترك طوران والاسلام بصورة جديدة فيكون دينا وطنيا أهليا. على ان شعب طوران لم تظهر عليه دلائل الابتكار والاختراع فيستطيع قلب الاسلام رأسا على عقب وجعله كما تشاء عنصريته الطورانية وكما يزعم خطاب القوم الجديد، وكل ما في الأمر ان للطورانيين سبقا في التدمير والتخريب والقتل كما فعل جدهم هولاكو فقد دمر الترع المائية التي كانت في العراق وجعل بقاعه المخصبة مجدبة حتى اليوم. أما الطورانيون العثمانيون فقد نسفوا المدنية البزنطية الزاهرة، ومثلهم جنكيز السفاح الذي ملأ بخارى بغيا وظلما، وقد لا يصدق الناس أن تيمور كان من الفرسان وان جنكيز من أقطاب السياسة.

ولقد أفاض المسيو كوهين في وصف المزايا العسكرية الطورانية ولكنه لم يذكر شيئا عن فظائعها الا ان الدكتور بيسلر أصلح ذلك الخطأ فبين ما كانت تستعمله تلك البطون الطورانية من ضروب القسوة والظلم مع جميع الامم الخاضعة لاحكامهم، وليس للتركي لذة أو اهتمام خاص في الامور الدينية ولذلك لم يبذل شيئا في خدمة الاسلام الذي جمد بين يديه فلم يتقدم خطوة ولذلك يستصعب العارفون قدرة (قوم جديد) على جعل الاسلام تركيا محضا

ومما لاريب فيه ان التركي يخاف العرب اشد خوف و يدأب في استعمال كل الوسائل لجعلهم اتراكا ومحو قوميتهم تقليدا لما فعله شولرويك هولستين مع ولايات الدانمرك التي انضمت لالمانيا ولقد صرح بذلك جلال نوري بك في احد كتبه فقال «ان البلاد العربية بأسرها ولاسيما العراق واليمن يجب ان تكون تركية في اللغة والجنس وان تكون لغة الدين عندهم تركية أيضا، والاسراع في تتريك البلاد العربية من أهم الامور لحفظ وجودنا لان روحا جديدة بدأت تدب في نفوس العرب ورجال نهضتهم وأخذت تهدد وجودنا السياسي بضربة تقضي علينا قضاء مبرما، فالضرورة والحالة هذه توجب علينا ان نكون على تمام الاهبة والاستعداد لاتقاء هذا الخطر.» وكتب احمد شريف بك في جريدة طنين ما يأتي «يتحدث العرب كثيرا في هذه الايام عن نفسهم وقوميتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلا تاما كأن بلادهم ليست خاضعة للاتراك، فالواجب يقضي على حكومة الباب العالي أن تهتم اهتماما فعليا فى جعلهم ينسون هذه النغمة وتضطرهم لتعلم اللغة التركية الرسمية. فاذا أهمل الباب العالي ذلك كان كمن يحفر قبره بيديه. واذا بقي العرب على يقظتهم هذه

فلا يبعد ان يهبوا لاسترجاع ملكهم وفي ذلك القضاء على السيادة التركية في آسيا»
وهنالك أدلة أخرى عديدة على ان الاتراك يسعون بكل جهدهم للقضاء على أمة شريفة
كالامة العربية ومحو أثرها من عالم الوجود ولكن الحلفاء يدافعون عن مبدأ القومية ويؤيدونه،
وهلا يسمحون بفناء أمة كريمة تريد البقاء ولاسيما اذا كانت أمة أخرى طاغية تريد سحقها.
وذلك ما يجعل ميول الحلفاء عربية محضة وهو أمر لا يرتاب فيه أحد من المسلمين المتمتعين
بالعيش في ظل انكلترا وفرنسا. فالحلفاء أنصار العرب وهم يسعون لتأييدهم لأنهم اصحاب
الدين الاسلامي الحنيف ومنهم النبي الاعظم (صلى الله عليه وسلم) وفوق ذلك كله فان
هنالك صلة قرابة قوية بين العرب والمسلمين التابعين لحكومة فرنسا في شمال افريقيا. اه

باب المراسلة والمناظرة

﴿ تأثير الصحافة في أخلاق الامة ﴾

سيدي الاستاذ صاحب (المنار)

بمناسبة مقالكم الصريح عن حال المسلمين الاجتماعيـة ومكان الاغنياء وسائر الطبقات منها ربما جاز لي أن أتعرض بكلمة وجيزة لمسألة حيوية مرتبطة بهذا الموضوع وهي تأثير الصحافة في أخلاق الامة .

بديهي ان الصحافة من الموازين التي تقاس بها درجة الرقي في شعب من شعوب، كما أنها احدى المكيفات له وأحد عوامل الاصلاح اذا قبض على زمامها من لهم خبرة به . ليس من الصعب على الإنسان اذا فحص حالة الجرائد في قطر من الاقطار أن يقرر حكما تقريبيا عن مبلغ نهضة أهل ذلك القطر وشكل مزاجهم، كذلك ليس من الصعب التنبؤ بمستقبل الحركة الفكرية في أمة ما استنتاجا من مشرب صحافتها التي هي أشبه بمربٍ ومهذب لها. والدارس لحال الصحافة في وادي النيل لا يتيسر له التفاؤل الحسن عن تقدمنا في الآداب والاخلاق .

عودت الصحافة المصرية الرأي العام على قبول المدح يُزف لمستحقه ولغير مستحقه بغير حساب ، وعودت الجمهور على أن لا يعمل عملا بغير جزاء مادي أو غير مادي فله المدح سطورا لاتعد ، فأصبحنا وليس بيننا من يعرف مبدأ التضحية ويعمل به

الاشواذ شقوا بسمو أخلاقهم وضاعت أتعابهم ومجهوداتهم النبيلة. وصار لا يعرف لاحسان الا الاقلية الضئيلة الصالحة، ومن عداها من المتظاهرين بالبر فقون تضطرهم الى ذلك الرهبة من الرؤساء والحكام أو متاجرون يرغبون في الاعلان عن أنفسهم بما ينفقونه. وليس من الغريب بعد هذا اذا أصبحت جميع مشروعاتنا الخيرية عرضة للفشل، كما أنه ليس من المدهشات أن يتصدى بعض الناس للقيام بعمل خيري دون أن يكون لهم في الواقع غيرة عليه بل كل قصدهم الاعلان عن أنفسهم سواء نجح العمل أم لم ينجح. ويتبع كل هذا بطبيعة الحال اساءة الظن من بعضنا ببعض، وتعثرنا في أعمالنا، وتسابقنا الى شهرة كاذبة وغرور باطل، واغراق أخلاق الامة ومصالحها في هذا التيار.

لم يقتصر كرم الصحافة بالاطراء المتناهي على العمد والاعيان بل شمل أيضا رجال مهنة الطب الشريفة وخلطت الشخصيات فيه بالعموميات فأصبحت أنهار الصحف مزدانة يوميا بالاعلانات الفخمة عن الاطباء مما يندى له جبين الحر، ومما ضر سمعة هذه المهنة الجليلة في القطر المصري . وبعد هذا وذاك تشكو الصحف من المتاجرين بالطب من أهله ومن غير أهله . فكم قرأت من أوصاف المدح لاطبائنا ما لا يقال مثله لاوزلر أو رواستون أو ارلخ أو كارلس أو لين أو أوجل أو غيرهم من فطاحل علماء الاطباء بأوربا ! وأتذكر أني زرت وطني منذ ثلاث سنوات وكنت لا أزال حينئذ طالب علم فكتبت عني وقتئذ احدى الصحف العربية الكبرى بالقاهرة مالا يجوز أن يكتب الا عن ذي منزلة علمية كبيرة ! واضطررت على كره مني أن أحرر كتاب عتاب شديد اللهجة الى صديقي المحرر . . . . ولا تزل الصحف تعود طلبة العلم الناشئين حب الظهور الضار ولاسيما الطلبة في أوروبا. وانني مع اعترافي بأن منا بعض الحاصلين على شهادات علمية عالية جليلة المنزلة وهم قليلون، وأن منا بعض المتفوقين على اقرانهم الاوروبيين في امتحانات المسابقة للجوائز العلمية وشهادات الشرف وهم أقل وأندر، — أرى أن كل هذا لا يجيز للصحف أن تبالغ في فوز فائز وتنعته بأكبر النعوت التي لا تناسب مركزه لان هذا مزر بكرامتها وكرامة الممدوح ومؤد الى فساد اخلاق الناشئة

فهذه يا سيدي الاستاذ علة من علل اجتماعية كثيرة سببها الصحافة بتهاونها

بدل أن تقضي عليها وعلى أمثالها بالموعظة الحسنة والقدوة الصالحة، وأدت الى الكثير مما نشكو ويشكو منه الغيورون المصلحون الذين لا نعرف أقدارهم الا متى حرمنا من مساعيهم فنندم برهة على التفريط حين لا ينفع الندم، ثم نستمر في ضلالتنا، ومعظم الصحف تجارينا في ذلك حرصا على مودتنا لها، بدل أن تزجرنا وترشدنا حبا في نفعنا. فحبذا لو وجهتم عنايتكم بالاصلاح شطر رصفائكم الافاضل مرة قبل أن يستفحل الداء فقد أشرفنا على عهد لا يكاد يستطيع شريف النفس أن يضمن النجاح لعمله بعقله وجده في هذه الفوضى ما لم يقرن ذلك بالاعلان عن نفسه والسمسرة في هذا السبيل. واذا كان أحد أسباب هذا المصاب الجهل وضعف الاخلاق فثاني الاسباب هو انحطاط الصحافة

نادي مستشفى سانت چورچ بلندن　　　احمد زكي ابو شادي (طبيب)

[المنار] أحسن الكاتب وأصاب، ولا رجاء في ارجاع الصحف بالنقد الى محجة الصواب، لان أكثر صحابها لا يقصدون الاصلاح، وجميعهم يقصدون الكسب والجاه، والذين يميلون الى الاصلاح منهم يتحرون في كلامهم ما لا يسوء القراء كالمسائل النظرية والارشاد المجمل. ثم هي تمدح من يستحق الذم، وتسكت عما يجب من النقد. ولا يتسع هذا التعليق الوجيز للاطالة في تأييد رأي الكاتب في جنايتها على الاخلاق، ولكنني أنقل فيه كلمة تغني عن مقالات:

حدثني شيخنا الشيخ حسين الجسر عن حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني وكان قد لقيه في الآستانة بعد انشاء جريدة طرابلس الشام التي كان الشيخ شريكا ومحررا فيها ولكن مقالاته فيها لم تكن تعزى اليه قال

قال لي السيد ان جريدتكم «طرابلس» قد جمعت بين الكفر والايمان، نرى في صدرها مقالة في مدح الصدق وذم الكذب مثلا وأكثر ما فيها بعد تلك المقالة كذب —وأشار الى ما يذكر كل عدد من إطراء رجال الدولة والحكومة وغيرهم من الوجهاء— فقلت له ان مدير الجريدة يفعل هذا على سبيل التقية (وذكر الشيخ انه تنصل من مهنة الصحافة) فقال له السيد: التقية مذهب الشيعة... وأنكر على الشيخ تنصله من الصحافة وقال أنا صحفي ثم قال وهو المراد: إننا لا نخطو خطوة واحدة الى الامام الا اذا أعطينا كل ذي حق حقه فسمينا العالم عالما والمصلح مصلحا والمفسد مفسدا...

جمعية النهضة النسائية بمصر

اجتمع عدد من كرائم السيدات الوطنيات في ٢٧ يناير الماضي في منزل حضرة السيدة الفاضلة حرم صاحب العزة اسماعيل بك عاصم المحامي الشهير فألفن جمعية أدبية غايتها السعي في ترقية المرأة الشرقية والاهتمام بمستقبلها بعد هذه الحرب

وقد افتتحت الحفلة حضرة ربة المنزل بالكلمات الآتية

أبدأ قولي بحمدالله، والصلاة والسلام على من اصطفاه

وبعد فاني ياسيداتي وياأخواتي الأعزاء أراني وانا في موقفي هـذا منشرحة الصدر بتشريفكن منزلي اجابة لدعوتي بالحضور الى هذه الحفلة المراد بها البحث في ترقية المرأة الشرقية لتساوى أختها الغربية في الحضارة والارتقاء

أقول الارتقاء ويعلم الله اني لا أريد بقولي هذا أنها في انحطاط أو مهضومة الجانب أوانها لا تصلح للرقي، حاشا فالمرأة الشرقية كانت ولا تزال عزيزة الجانب أهلا لكل فضيلة غيرانها ينقصها الآن اتقان العلم والعمل به اتقانا ينهض بها الى منزلة اسمى مما نحن عليه لأن العلم وحده لا يكفي. مثال ذلك ان كثيرات من أهل الطبقات الراقية أمثال حضراتكن ادخلن بناتهن المدارس وصرفن المصاريف الجمة ولكن ذلك لم يأت بالغرض المروم لانهن اقتصرن على تعلم العلم من دون عمل فتراهن يتكلمن باللغات وبأيديهن الشهادات ولكنهن اذا اجتمعن فلا حديث لهن الا الأزياء والخياطات والحرائر والدنتيلات والاعجاب بالأزياء الحديثة

هذا هو الموضوع الاكثر رواجا بيننا الآن . فماذا يؤخرنا اذاً ياحضرات الفاضلات وكلكن من المتعلمات الراقيات ولله الحمد عن النهوض نهضة علميــة عملية والتعاضد جميعا على البحث فيما يلزم لهذا الرقي ونحن الان في عصر النور والاصلاح. فلهذا قد اجتمعنا للمذاكرة في هذا الشان الخطير وتقرير ما يلزم للهداية الى الطرق التي توصلنا الى هذا الغرض الشريف كقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير) واني اسأل الله ان يكلل عملنا هذا بالنجاح وان يوفقنا جميعا لما فيه النفع والاصلاح . وان شاء الله سألقي في الاجتماع القادم محاضرة ادبية ابين فيها الادواء وما يلزم لها من الدواء لترقية الأخلاق والافكار والله المستعان

ثم دعت الكاتبة المجيدة صاحبة مجلة فتاة الشرق الزهراء للخطابة في موضوع ترقية اخلاق المرأة الشرقية فالقت خطابا مفيدا كان له اجمل وقع في نفوس السيدات وصفقن لها مرارا وما زلن يتسامرن ويتجاذبن الحديث في مواضيع ادبية مفيدة ثم انصرفن شاكرات ربة المنزل على السعي في هذه النهضة المفيدة وقد وعدن بالمداومة على الحضور فيها

تقريظ المطبوعات الجديدة

﴿ تصحيح كتاب الاغاني ﴾

كان علامة اللغة وإمامها في هذا العصر الشيخ محمد محمود الشنقيطي قد صحح في نسخته من كتاب الاغاني المطبوعة بالمطبعة الاميرية كثيرا من الاغلاط التي كان يعثر عليها عند المطالعة والمراجعة وزاد عليها في بعض الاجزاء بعض الفوائد والابيات من الشعر كتبها على الهوامش فعني (محمد أفندي عبد الجواد الاصمعي) بجمع تلك التصحيحات والزوائد من نسخة الشنقيطي بعد ان صحح بها نسخة المكتبة الزكية بإذن واقفها احمد زكي باشا وإرشاده وأضاف اليها تصحيحات وزوائد أخرى لاحمد زكي باشا من نسخته وطبع ذلك كله مبينا مكان الغلط وتصحيحه من طبعة المطبعة الاميرية وطبعة الساسي وأضاف الى ذلك استدراكات على فهرس الكتاب ، فبلغ المطبوع سبعين صفحة كبيرة كصفحات الاغاني . وكل من ينظر في كتاب الاغاني المطبوع من أهل العلم باللغة وفنونها يجزم بأن فيه من الغلط الكثير الذي لم يذكر في هذه التصحيحات ما لا يخفى مثله على الشنقيطي، لذلك جزمت بأن الشنقيطي لم يصحح الكتاب كله بل بعض ما كان يعثر عليه عند المراجعة أو المطالعة ، ولكن جامع التصحيحات ظن أنه صححه كله بقصد: وأن تصحيح زكي باشا جاء كالاستدراك عليه، فهو مما خفي عليه أو مما ذهل عنه، وانني أؤيد رأيي بشاهد واحد بل شواهد كثيرة في قصيدة واحدة وهي قصيدة أبي دلامة الفائية المنشورة في ص ١٣٠ من جزء الاغاني التاسع من طبعة الساسي، ففي هذه القصيدة أغلاط لا تحتمل التأويل، وهي منشورة في الجزء الاول من العقد الفريد، ومن راجعها عليه يرى بين ما فيه وما في الاغاني اختلافا كثيرا وزيادة ونقصا ، والشنقيطي كان مطلعا على العقد الفريد فلو كان ملتزما تصحيح الاغاني لصحح غلط القصيدة وأشار الى ما خالفت رواية الاغاني فيه رواية العقد ، ومن التصحيف فيها قول الشاعر

وطالما اختلفت صيف وشاتية ... الى معلمها باللوح والكتف

صحفت كلمتا «صيفاوشاتية» في الاغاني بجعلهما «ضيفاوشانية» ومن التحريف فيها قوله

* والحق في طرف والعين في طرف حرفت في كلمة عين المراد بها النقد بكلمة الطين؟

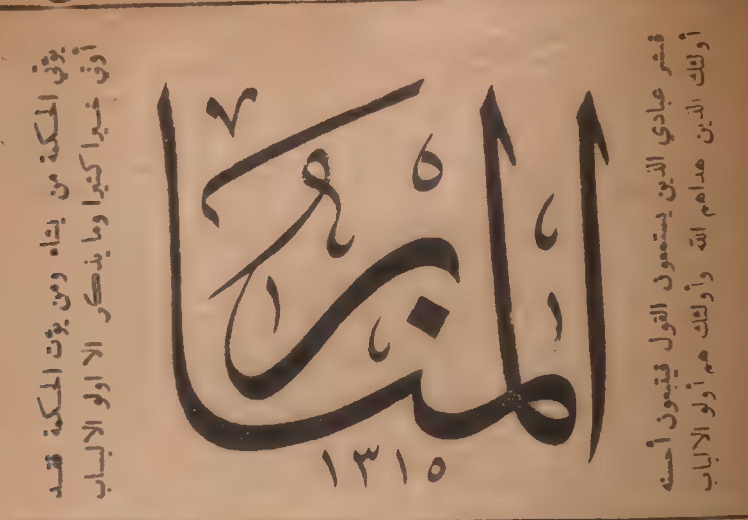
هذا وإننا نشكر الاديب الاصمعي هذه الخدمة التي لا ينقص من قدرها ماذكرنا من الحقيقة، وننصح لكل مقتن كتاب الاغاني بتصحيح نسخته على هذه الجداول

تصحيح كتاب لسان العرب

كتاب لسان العرب لابن منظور الافريقي أعظم معاجم اللغة التي أتحفتنا بها المطابع ولكن فيه غلطا طبعيا كثيرا ، على كونه قد طبع بالمطبعة الاميرية التي هي خير المطابع العربية تصحيحا، وأذكر أنه لما سافر الاستاذ الامام سفره الاخير الى تونس والجزائر وصقلية وأوربة أنابني عنه بتصحيح كتاب المخصص مع الشيخ محمد محمود الشنقيطي (رحمهما الله تعالى) فكان هذا يذكر لي في أثناء التصحيح كثيرا من أغلاط لسان العرب التي اعتمد عليها مصححو المطبعة الاميرية في تصحيح المخصص فأخطؤا ، وقليلا من الاغلاط التي أخطأ فيها ابن منظور نفسه في النقل أو الاعتماد على بعض الروايات المرجوحة في اللغة . وقد انتدب صديقنا أحمد بك تيمور الباحث اللغوي الشهير بتدقيقه وسعة اطلاعه لجمع ما تيسر له من تلك الاغلاط وتصحيحها وكان ينشر ذلك في مقالات متفرقة في جريدة المؤيد ومجلتي الضياء والآثار، ثم جمع شمل تلك المقالات وزاد عليها ما عثر عليه بعد نشرها ، وأذن لمحمد افندي عبد الجواد الاصمعي بطبع ما جمعه وحرره منها — وهو القسم الاول من التصحيح — فطبعه ووعد بنشر ما اطلع عليه من تصحيحات الامام الشنقيطي والشيخ حمزة فتح الله والشيخ ابراهيم اليازجي والشيخ محمود مصطفى والشيخ محمد الببلاوي أيضا، فنشكر له هذه العناية.

الكوكب

جريدة سياسية أدبية أسبوعية تصدر في القاهرة بشكل كراسة من قطع الكتب الكبير ذات ثماني صفحات مطبوعة طبعا جميلا بحروف المطبعة الأميرية الجديدة ، موضوعها تنشيط الحركة العربية ودعوة سائر عرب الجزيرة الى القيام بمثل ماقام به عرب الحجاز للقضاء على سلطة الترك وتقليص ظلهم غير الظليل عن سائر البلاد العربية ، والظاهر ان لها موارد خاصة تستقي منها أخبار مساوىء الترك وفظائعهم في سورية والعراق وكذا فظائع حلفائهم الالمان في أوربة ، وأنها كانت توزع في بلاد العرب دون مصر ، وأول عدد ظهر منها في مصر هو السابع عشر فقرظه المقطم ، ثم اطلعنا عليه وعلى أعداد مما صدر بعده . وثمن كل عدد من هذه الجريدة قرش مصري صحيح (١٠ مليمات)



قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

مصر ٣٠ ربيع الآخر ١٣٣٥ — ٢ الحوت (ش٣) ١٢٩٥هـ ش ٢٢ فبراير ١٩١٧

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٤٠) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ
أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ؟ (٤١) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ
فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤٢) وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنٰهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ
يَتَضَرَّعُونَ (٤٣) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا، وَلٰكِنْ قَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا
بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوٰبَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنٰهُمْ

بَغْتَةً فَإِذَاهُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

هذا قول مستأنف أمر الله تعالى رسوله (ص) أن يوجهه الى المشركين مذكرا إياهم بما أودع في فطرتهم من توحيده عز وجل ليعلموا ان ما تقلدوه من الشرك عارض فاسد يشغل أذهانهم ومخيلاتهم في وقت الرخاء، وما يخف حمله من البلاء، حتى اذا ما نزل بهم ما لا يطاق من اللأواء، وأثار تقطع الاسباب في أنفسهم ضراعة الدعاء، دعوا الله وحده مخلصين له الدين «لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين»، وضل عنهم ما كانوا يدعون من الاصنام والاوثان، وما وضعت رمزا له من ملك أو إنسان، لأن هذا دعاء القلب لا دعاء اللسان، - ذكرهم بهذا بعد تذكيرهم بالمشابهة بين أمم الناس وأمم الحيوان، وحال من فسدت قواهم الفطرية من الناس، ولذلك قفى عليه بذكر من تركوا التضرع له تعالى حين البأس، وقبل أن يحيط بهم اليأس، فابتلاهم بالسراء والنعماء، بعد البأساء والضراء، فأعقبهم بدل الشكر فرح البطر، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر. قال تعالى:

﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ قوله تعالى (أرأيتكم) هو عند جمهور علماء العربية بمعنى «أخبروني» والتاء ضمير رفع والكاف حرف خطاب أكد به الضمير لا محل له وتتغير حركته باختلاف المخاطب دون التاء فتظل مفتوحة في المؤنث والمثنى والجمع وقد أطالوا القول في المذاهب والآراء في اعرابه ومعناه في كتب اللغة وبعض كتب التفسير. وأقول ان هذه الصيغة (أرأيتكم) في خطاب الجمع بالكاف والميم لم تذكر الا في هذه الآية وفي الآية الآتية بعد بضع آيات وذكرت في خطاب المفرد بالكاف في قوله تعالى من سورة الإسراء (أرأيتك هذا الذي كرمت علي) الخ وليس في هذه الآية استفهام في الجملة الشرطية في آيتي الأنعام ولكن المفسرين قدروا فيها استفهاما محذوفا. قال البيضاوي كغيره: والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته علي بأمري بالسجود له لم كرمته علي؟ وجعل قوله

بعد ذلك (لئن أخرتني الى يوم القيامة) الخ - كلاما مبتدأ .

وقد استعمل أرأيت وأرأيتم - بدون كاف - مثل هذا الاستعمال في أكثر من عشرين آية أكثرها قد صرح فيه بعدها بالاستفهام فمنه في جملة غير شرطية قوله تعالى (٢٥ : ٤٣ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) وقوله (٤٦ : ٣ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض) ومثلها الآيات التي في سورة الواقعة . ومنه في الجمل الشرطية (٢٦ : ٢٠٥ أفرأيت إن متعناهم سنين ٢٠٦ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ٢٠٧ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) والآيات التي في آخر سورة العلق والآيات التي في آخر سورة الملك ، فمن تأمل هذه الآيات كلها لا يظهر له فيها ما قالوه من ان معناها أخبرني وأخبروني الا بما يأتي من التوجيه، قال القاضي البيضاوي في (أرأيتكم) : استفهام وتعجيب . وقال الراغب في مفرداته بعد الاشارة الى عدة آيات مصدرة بهذا اللفظ : كل ذلك فيه معنى التنبيه. وقد عدد كل منهما وقرب ، والذي أراه جامعا بين الاقوال أن أرأيتكم وأرأيتم استفهام عن الرأي، أوعن الرؤية التي بمعنى العلم، وأن الاستفهام في هذا الاستعمال للتقرير، وأن المراد منه التنبيه والتمهيد، لما يذكر بعده من نبإ غريب أو عجيب، أو استفهام تقوم به في المسألة الحجة، وتدحض الشبهة ، ولولا ان الاستفهام للتقرير لما كان لقول الجمهور إنه بمعنى طلب الاخبار وجه . والمفعول الاول لأرأيت أو أرأيتم التي تتلوها الجملة الشرطية محذوف يفهم من مضمونها ويقدر بحسب المقام

والمعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين أرأيتم أنتم أنفسكم كيف تكون حالكم - او أخبروني عن رأيكم أوعن مبلغ علمكم في أنفسكم - إن أتاكم عذاب الله الذي نزل بمن كان من أقوام الرسل قبلكم، كالريح الصرصر العاتية، والصاعقة أو الرجفة القاضية. ومياه الطوفان المغرقة، وحرارة الظلة المحرقة، أوأتتكم الساعة بمقدمات أهوالها، وما يلي البعث من خزيها ونكالها، أغير الله في هذه الحالة تدعون ؟ أم الى غيره فيها تجأرون ؟ ان كنتم صادقين في دعواكم ألوهية هؤلاء الشركاء، الذين اتخذتموهم أولياء ، وزعمتم انهم فيكم شفعاء . أو إن كان من شأنكم الصدق فأخبروني أغير الله تدعون اذا أتاكم أحد هذين الامرين ؟ اللذين يحلو دونهما طعم الامرّين ؟

وذهب بعض المفسرين الى كون متعلق الاستخبار محذوفا تقديره أخبروني ان أتاكم ماذكر من تدعون لكشفه ؟ أتخصون غير الله بالدعاء كما هو شأنكم في وقت الرخاء؟ أم تخصونه وحده بالدعاء، وتنسون ما اتخذتم من الشركاء، اذ يضل عنكم من ترجون من الشفعاء ؟ ثم أجاب تعالى عنهم ، مخبرا إياهم عما تقتضيه فطرتهم . فقال

﴿ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون ﴾ أي لاتدعون غيره لاوحده ولا معه، بل تخصونه وحده بالدعاء، فيكشف أي يزيل ما تدعونه الى كشفه ان شاء، لأنه هو القادر عليه دون جميع العباد، وتنسون ماتشركون به الآن من الشفعاء والانداد ، لأن الفزع اليه سبحانه عند شدة الضيق واليأس من الاسباب مركوز في فطرة البشر ، تنبعث اليه بذاتها كما تنبعث الى طلب الغذاء عند الجوع مثلا، فلا يذهب به ما يتلقى بالتعليم الباطل من مسائل الدين غالبا، الامن تم فساد فطرته، وانتهت سفالة طينته ،حتى كان كالأعجم،لا يُفهِم ولا يَفهم، وانما مثل تعاليم الشرك مع هذه الغريزة الفطرية كمثل ما كان عند المشركين من أحكام الطعام الباطلة مع غريزة التغذي،فانهم كانوا يحرمون بعض الطيبات كالبحائر والسوائب ويبيحون بعض الخبائث كالميتة والدم المسفوح ، فيجنون على غريزة التغذي بأكل هذا والحرمان من ذاك ، كما يجنون على غريزة التوجه الى خالقهم وخالق العالم كله ولاسيما عند الشدة بما يتخذون من الانداد والاولياء والشفعاء ، الذين يتوجهون اليهم كما يتوجهون الى الله ويحبونهم كحب الله ، ذلك الحب الذي منشؤه التقديس واعتقاد القدرة على النفع ودفع الضر من غير طريق الاسباب .

ولهذا الاعتقاد وما يستلزمه من الحب والتعظيم ثلاث درجات: أسفلها وأعرقها في الجهل ان يعتقد في شيء من المخلوقات انه هو الإله الذي ينفع ويضر بذاته فيتوجه اليه ويدعوه ويتضرع اليه حتى عند اشتداد البأس باكيا متضرعا، لان غريزة الايمان بالسلطة الغيبية حصرت عنده في هذا المخلوق أو هذه المخلوقات كما تلقى عن قومه وهو لايفكر في كون ذلك معقولا أو غير معقول ، ويلي هذه الدرجة أن يعتقد أن الإله نفسه قد حل في بعض المخلوقات واتحد بها كما تحل الروح في البدن وتدبره فيكونان بذلك شيئا واحدا،والفصل بين هذه الدرجة وماقبلها هوان هذه مفرغة في قالب

من النظريات الفلسفية، مزينة بحلي وحلل من التخيلات الشعرية، وتلك ساذجة غفل من الفلسفة الجدلية، عطل من المزينات الخيالية. ويشتركان في أن منتحليهما يعبدون ذلك المخلوق المدرك بالحواس، ويدعونه تضرعا وخفية حتى عند اشتداد الكرب والبأس، ووراءهما الدرجة الثالثة التي هي أرقى درجات الشرك إذ هي أرقها وأضعفها، وهي ان يعتقد ان الله تعالى هو الخالق لكل شيء القادر على كل شيء، المتصرف في كل شيء، ولا يستطيع أحد من دونه شيئا، ولكن له وسطاء بينه وبين عباده، يقربونهم اليه زلفى ويشفعون لهم عنده، فهو لاجلهم يعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويغفر ويرحم، ويوجد ويعدم. وهذه هي الدرجة التي ارتقت اليها وثنية مشركي قريش، فقد حكى الله تعالى عنهم في كتابه أنهم يقرون بأنه هو الخالق لكل شيء، الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وانهم يقولون فيما اتخذوه من دونه من الاولياء (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى * هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فلما كانوا يعتقدون ان لهم تأثيرا ووساطة في أفعال الله تعالى — كدفع الضر وجلب النفع — يدعونهم ويعظمونهم لأجلها، كان دعاؤهم وتعظيمهم إياهم عبادة، اذ لا معنى للعبادة الا هذا. ولما كانوا عندهم غير مستقلين بذلك من دون الله، وكان الله تعالى — بزعمهم - غير فاعل ذلك بمحض ارادته الازلية من دون شفاعتهم ووساطتهم سموا شركاء لله.

وأما التوحيد الخالص فهو الايمان الجازم بأن الله يفعل مايشاء ويختار بمحض ارادته الازلية المنزهة عن تأثير الحوادث فيها، وان جميع الخلق مسخرون بارادته وتدبيره، خاضعون لسننه وتقديره، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئا، الا في دائرة الاسباب التي جعلها بينهم شرعا، كما قال لخاتم رسله (ليس لك من الامر شيء — قل ان الامر كله لله — قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله - قل اني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا * قل اني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * الا بلاغا من الله ورسالاته .. قل لله الشفاعة جميعا — من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) الخ

ولما كانت تلك الوساطة الشركية وهمية لا أثر لها في الوجود وانما هي تقاليد موروثة كان اولئك الاذكياء جديرين بأن ينسوها اذا جد الجد وعظم الخطب،

كالحالتين اللتين ذكرهما الله تعالى في هذه الآية أو ما دونهما كالحالة التي بينها الله تعالى في قوله (٢٩ : ٦٥ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) وقوله (٣١:٣١ واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) ومثلها في سورة يونس. وقال تعالى في سورة الإسراء (١٧ : ٦٧ واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه، فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا) فسروا الضلال هنا بالنسيان فهو بمعنى الآية التي نفسرها. وأما ضلال آلهتهم عنهم في الآخرة، فقد ذكر في آيات كثيرة في سور متفرقة، ويراد ببعضها غيبتها عنهم بعدم وجودها معهم هنالك وحرمانهم مما كانوا يرجون من شفاعتها، لاغيبتها عن قلوبهم وخواطرهم كما هو المراد هنا. وروي عن بعض المفسرين ان المراد بنسيانهم اياها جعلها بمنزلة المنسي بعدم دعائها فقد ذكر الرازي في النسيان قولين قال (الاول) قال ابن عباس: المراد تتركون الاصنام ولا تدعونهم لعلمكم انها لاتضر ولا تنفع (الثاني) قال الزجاج: يجوز ان يكون المعنى انكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيهم، وهذا قول الحسن لانه قال: يعرضون عنه اعراض الناسي. اه أقول لم ينقل ابن جرير ولا ابن كثير في تفاسيرهما ولا السيوطي في الدر المنثور شيئا في الآية عن ابن عباس ولا الحسن ولا غيرهما من مفسري الصحابة والتابعين

وقد استشكل المفسرون مادلت عليه الآية من جواز كشف عذاب الاستئصال وعذاب الساعة عن المشركين بدعائهم لمخالفته لماعرف من سائر النصوص مع قوله تعالى (وما دعاء الكافرين الا في ضلال) وأجيب بأن مامضت به سنته تعالى في الامم وما دلت عليه النصوص إنما يدل على عدم وقوع هذا الكشف لاعلى عدم جوازه، وقد علق كشف ذلك هنا بمشيئته تعالى، فهو يقول انه يكشف ذلك ان شاء، لأن مشيئته نافذة حتى في كشف عذاب الاستئصال واهوال الساعة وهما النوعان اللذان لا تتعلق قدر المخلوقين الموهوبة لهم من الله تعالى بشيء من أمرهما. لأنهما فوق الاسباب التي سخرها الله تعالى لخلقه. ولكنه تعالى لايشاء ذلك لأنه ينافي حكمته وتقديره الذي جرت به سننه في الامم. ويمكن أن يجاب أيضا بان المراد باتيان

عذاب الله ظهور أماراته ومقدماته و بالساعة القيامة الصغرى أي الموت بظهور علاماته، ونزول سكراته ، والايمان يقبل قبل وصول عذاب الاستئصال الى مستحقيه بالفعل وقبل بلوغ الروح الحلقوم من المحتضر؛ وقيل ان بعض كروب الساعة تكشف حتى عن الكفار ككرب طول الوقوف بالشفاعة العظمى ، ولكن هذا لا يصلح جوابا لانه لايكون بدعائهم .

ومن مباحث اختلاف الاداء في القراءة ان نافعا قرأ أرأيت وأرأيتم بكاف وبغير كاف - في جميع القرآن بتسهيل الهمزة الثانية بأن جعلها بين الهمزة والالف ، وقرأ الكسائي بحذفها . والباقون باثباتها ، وهي لغات للعرب معروفة ، ومن شواهد حذف الهمزة (سل بني اسرائيل) أصلها : اسأل . ومنها في الشعر * ان لم أقاتل فالبسوني برقعا * أصله فألبسوني

﴿ ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴾

أقسم الله تعالى لرسوله (ص) أنه أرسل رسلا قبله الى أمم قبل أمته فكانوا أرسخ من قومه في الشرك ، وأشد منهم إصرارا على الظلم ، فان قومه يدعون الله تعالى وحده عند شدة الضيق وينسون ما يتخذونه من دونه من الاولياء والانداد، وأما تلك الامم فلم تلن الشدائد قلوبهم ، ولم تصلح ما أفسد الشيطان من فطرتهم

الاخذ بالبأساء والضراء عبارة عن انزالهما بهم ، وأخذ الشيء يطلق على حوزه وتحصيله بالتناول والملك أو الاستيلاء والقهر ، وقد يسند هذا الى الاسباب غير الفاعلة المريدة كقوله تعالى (أخذته العزة بالإثم * فأخذهم الطوفان * فأخذهم العذاب * فأخذتهم الصيحة . الصاعقة ... الرجفة) والبأساء اسم يطلق على الحرب و المشقة والبأس الشدة في الحرب والخوف في الشدة والعذاب الشديد و قوة والشجاعة . والبؤس الخضوع و الفقر . كذا في لسان العرب . وقال الراغب البؤس والبأس والبأساء الشدة والمكروه الا ان البؤس في الفقر والحرب أكثر . والبأس والبأساء في النكاية ، وأورد الشواهد على ذلك . والضراء فعلاء من الضر - وهو ضد النفع وتطلق السنة أي الجدب والأذى وسوء الحال حسيا كان أو معنويا — كالسراء من السرور وهي ضدها التي تقابلها كالنعماء . وأما الضر فيقابله النفع وفسر ابن جرير البأساء بشدة الفقر والضيق

في المعيشة والضراء بالاسقام والعلل العارضة في الاجسام ، ونقل نحوه الرازي عن الحسن . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير ان البأساء خوف السلطان وغلاء السعر . والاقوال في الكلمتين متقاربة والفرق بينهما كما أفهم ان البأساء ما يقع في الخارج من الامور الشديدة الوقع على من يمسه تأثيرها كالحرب الحاضرة الآن فان وقعها أليم شديد على من أصيبوا بفقد أولادهم أو تخريب بلادهم أو ضيق معايشهم، وأما الضراء فهي كل ما يؤلم النفس ألما شديدا سواء كان سببه نفسيا أو بدنيا أو خارجيا — فعلى هذا تكون البأساء من أسباب الضراء . وقالوا انهما جاءتا على وزن حمراء ولم يرد في مذكرهما وزن أحمر صفة بل ورد اسم تفضيل . والتضرع إظهار الضراعة بتكلف أوتكثر وهي الضعف أوالذل والخضوع

ومعنى الآية : نقسم اننا قد أرسلنا رسلا الى أمم من قبلك فدعوهم الى توحيدنا وعبادتنا فلم يستجيبوا لهم فأخذناهم أخذ ابتلاء واختبار بالبأساء والضراء ليكون ذلك معدا لهم لما يترتب عليه بحسب طباع البشر وأخلاقهم من التضرع والجؤار بالدعاء، اذ مضت سنتنا بجعل الشدائد مربية للناس ، ترجع المغرورين عن غرورهم ، وتكف الفجار عن فجورهم، وهي جديرة بأن ترجع أهل الاوهام، عن دعاء أمثالهم من البشر دع مادونهم من الاصنام، ولكن من الناس من يصل الى غاية من الشرك والفسق ، لا يزيلها بأس ولا يزلزلها بؤس ، فلا تنفع معهم العبر ، ولا تؤثر فيهم الغير ، وكان أولئك الاقوام منهم ، ولذلك قال تعالى فيهم

﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ جعل ابن جرير لولا هنا للتخفيف بمعنى هلاّ وجعلها الجهور نافية. أي فهلاّ تضرعوا خاشعين لنا تائبين الينا، عند ما جاءهم البئيس من عذابنا ، فرأوا بوادره ، وحذروا أواخره ، لنكشفه عنهم ، قبل أن يحيط بهم ؟ او فما خشعوا ولا تضرعوا اذ جاءهم بأسنا . ﴿ ولكن قست قلوبهم ﴾ فكانت أقسى من الحجر ، اذ لم تؤثر فيها النذر . ﴿ وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والمعاصي ، بما يوسوس اليهم من تحسين الثبات على ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم.وتقبيح الطاعة والانقياد الى رجل منهم لامزية له عليهم، وقد فصلنا القول

من قبـل في تزيين أعمال الناس لهم وما ينسب منها الى الشيطان لقبحه ، وما ينسب الى الله تعالى لأنه تعبير عن خلقـه وتقديره وسننه في عباده ، وما يحسن اسناده الى المجهول ، فيراجع في تفسير (زين للناس حب الشهوات) من جزء التفسير الثالث

﴿ فلما نسوا ماذكروا به فتحنـا عليهم أبواب كل شيء ﴾ أي فلما أعرضوا عما أنذرهم ووعظهم به الرسل وتركوا الاهتـداء به حتى نسوه أو جعلوه كالمنسي في عدم الاعتبار والاتعاظ به لاصرارهم على كفرهم ، وجمودهم على تقليد من قبلهـم ، بلوناهم بالحسنات بما فتحنا عليهم من أبواب كل شيء من أنواع سعة الرزق ورخاء العيش وصحة الاجسام، والامن على الانفس والاموال، كما قال تعالى في قوم موسى (٧: ١٦٨ و بلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) فلم يتربوا بالنعم ، ولا شكروا المنعم، بل افادتهم النعم فرحا و بطرا، كما افادتهم الشدائد قسوة واشرا. ﴿ حتى اذا فرحوا بما أوتوا ﴾ منها، وفسقوا عن أمر ربهم بطرا وغرورا بها ﴿ أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون ﴾ أي أخذناهم بعذاب الاستئصال أخذ بغتة — أو حال كوننا مباغتين لهم وحال كونهم مبغوتين — اذ فجأهم على غرة من غـير سبق أمارة ولا امهـال للاستعـداد أو للهرب ، فاذا هم مبلسون أي متحسرون يائسون من النجاة . أو هالكون منقطعة حججهم ، والابلاس في اللغة اليأس والقنوط من الخير والرحمة ، والتحير والدهشة، وانقطاع الحجة، والسكوت من الحزن أوالخوف والغم، واستشهدوا له بقول العجاج :

ياصاح هل تعرف رسما مُكرَسا قال نعم أعرفه ، وأبلسا

وقولهم : أبلست الناقة اذا لم ترغُ من شدة الضبعة ، وهي بالتحريك شدة شهوة الفحل . يقال ضبعت الناقة ضبعا وضبعة (من باب فرح)

والآية تفيدان البأساء والضراء، ومايقابلهما من السراء والنعماء، ممايتربى ويتهذب به الموفقون من الناس ، والا كانت النعم ، أشد وبالا عليهم من النقم ، وهذا ثابت

بالاختبار ، فلا خلاف في ان الشدائد مصلحة للفساد، وأجدر الناس بالاستفادة من الحوادث المؤمن ، كما ثبت في حديث صهيب مرفوعا في صحيح مسلم « عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير وليس ذلك لاحد الا للمؤمن ، ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له . وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » وقد بينا وجه استفادة المؤمن من الشدائد في تفسير الآيات التي نزلت في شأن غزوة أحد من سورة آل عمران، وهاك بعض ماورد في ذلك من الآثار، قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية.

« قال الحسن البصري من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له ثم قرأ (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) الآية قال الحسن مكر بالقوم ورب الكعبة : أعطوا حاجتهم ثم أخذوا ، رواه ابن أبي حاتم. وقال قتادة بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوما قط الا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله فانه لا يغتر بالله الا القوم الفاسقون، رواه ابن أبي حاتم أيضا. وقال مالك عن الزهري (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) قال رخاء الدنيا ويسرها. وقد قال الامام احمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد أبو الحجاج المهري[1] عن حرملة بن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه مايحب فانما هو استدراج »[2] ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فلما نسوا ماذكروا به) الآية ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حرملة وابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر به . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا عراك ابن خالد بن يزيد حدثني أبي عن ابراهيم بن أبي عبلة عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « اذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة (حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) » كما قال

---

(١) رشدين بوزن غسلين وهو ضعيف سيء الحفظ

(٢) لفظ الجامع الصغير « اذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه فانما ذلك منه استدراج » وعزاه الى احمد والطبراني والبيهقي وعلم عليه بالحسن

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ورواه أحمد وغيره» اه

وسيعاد هذا البحث ان شاء الله تعالى في تفسير ٧: ٩٣ - ٩٨ وغيرهما مما في معناها

ومن مباحث اللفظ النحوية ان اذا من قوله (فاذاهم مبلسون) هي التي يسمونها الفجائية لإفادتها ترتب ما بعدها على ما قبلها فجأة وهي حرف عند الكوفيين ، وظرف زمان أو مكان عند البصريين (قولان) منصوبة بخبر المبتدا ، فالمعنى عليه هنا انهم أبلسوا في مكان اقامتهم أو في زمانها، على ان الفاء وحدها تفيد التعقيب وهو ترتب ما بعدها على ما قبلها من غير فاصل ، ولكن الفرق بين « فهم مبلسون» و بين « فاذا هم مبلسون » عظيم ، لايخفى على ذي ذوق سليم ، فذاك خبر مجرد ، وهذا تمثيل لمعنى مؤكد مجدد

﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ أي فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل والاصرار على الشرك وأعماله واستؤصلوا فلم يبق منهم أحد ، كنى عن ذلك بقطع دابرهم وهو آخر القوم الذي يكون في أدبارهم ، وقيل دابرهم أصلهم وهو مروي عن السدي من المفسرين والاصمعي من نقلة اللغة ، والاول أظهر ، والمعنى على القولين واحد ، ووضع المظهر الموصوف بالموصول موضع المضمر للاشعار بعلة الاهلاك وسببه وهو الظلم ، ولا بد من زهوق الباطل بظهور الحق

﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أي والثناء الحسن في ذلك الذي جرى من نصر الله تعالى لرسله باظهار حججهم، وتصديق نذرهم، واهلاك المشركين الظالمين وإراحة الارض من شركهم وظلمهم، - ثابت ومستحق لله رب العالمين المدبر لأمورهم، المقيم لامر اجتماعهم، بحكمته البالغة ، وسننه العادلة. فهذه الجملة بيان للحق الواقع من كون الحمد والثناء على ذلك مستحق لله تعالى وحده، وارشاد لعباده المؤمنين، يذكرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين، وقطع دابر الظالمين المفسدين، وحمده في عاقبة كل أمر، وخاتمة كل عمل، كما قال في عباده المتقين (وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين) وسواء كان ذلك الامر الذي تم من السراء أو الضراء ، فان للمتقين في كل منهما عبرة وفائدة ، ونعمة ظاهرة أو باطنة .

(٤٦) قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على
قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات
ثم هم يصدفون (٤٧) قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو
جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون (٤٨) وما نرسل المرسلين إلا
مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم
يحزنون (٤٩) والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون

إن القول في مناسبة هذه الآيات لما قبلها كالقول فيما قبلها سواء ، فهي ضرب من ضروب الدعوة الى التوحيد والرسالة بوجه آخر من وجوه الاحتجاج ، قال تعالى

﴿ قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ؟ ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بك وبما جئت من التوحيد والهدى أرأيتم ماذا يكون من شأنكم مع آلهتكم الذين تدعونهم راجين شفاعتهم ان أصمكم الله تعالى فذهب بسمعكم، وأعماكم فذهب بابصاركم، وختم على قلوبكم وألبابكم ، التي هي مراكز الفهم والشعور والعقل من أنفسكم ، فأصبحتم لاتسمعون قولا، ولا تبصرون طريقا ، ولا تعقلون نفعا ولا ضرا ، ولاتدركون حقا ولا باطلا، من إله غير الله يأتيكم بذلك، أو بما ذكر مما أخذ الله منكم ؟ أي لا اله غيره فيقدر على إتيانكم به ، ولوكان ما اتخذتم من دونه من الانداد والاولياء آلهة لقدروا على ذلك ، واذ كنتم تعلمون انهم لا يقدرون فلماذا تدعونهم والدعاء عبادة لا يكون الا للاله القدير ؟ ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون ﴾ أي انظر كيف ننوع الحجج والبينات الكثيرة ونجعلها على وجوه شتى ليتذكروا ويقتنعوا، فينيبوا ويرجعوا ، ثم هم يعرضون عنها ، ويتجنبون التأمل فيها ، يقال صدف عن الشيء صدفا وصدوفا اذا أعرض اعراضا شديدا ، قيل إنه مأخوذ من صدفة الجبل أي جانبه ومنقطعه. والعطف بثم يفيد الاستبعاد لأن تصريف الآيات والدلائل

سبب غاية الاقبال، فكان من المستبعد في المعتاد والمعقول أن يترتب عليه منتهى الاعراض، وقد سبق مثل هذا في أول السورة. ويليه في أوائلها الكلام فى اعراضهم عن الآيات، وقد فصلنا القول في تفسيره تفصيلا

﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الظالمين أرأيتكم أنتم أنفسكم كيف يكون شأنكم — أو أخبروني عن مصيركم — ان أتاكم عذاب الله الذي مضت سنته في الاولين، بانزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين، مباغتا ومفاجئا لكم — أو إتيان مباغتة — فأخذكم على غرة لم تتقدمه أمارة تشعركم بقرب نزوله بكم، أو أتاكم ظاهرا مجاهرا — أو إتيان جهرة — بحيث ترون مباديه ومقدماته بأبصاركم، هل يهلك به الا القوم الظالمون منكم، وهم المصرون على الشرك وأعماله عنادا وجحودا، اذ مضت سنته تعالى في مثل هذا العذاب ان ينجي منه الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين. فكأنه قال لا يهلك به غيركم، وانما تهلكون بظلمكم لانفسكم وجنايتكم عليها. وقد ظن بعض المفسرين ان هذا من العذاب الذي يكون عاما يؤخذ فيه غير الظالم بجريرة الظالم كالمصائب التي تحل بالامم من جراء ظلمهم وفجورهم، الذي يفضي الى ضعفهم والاعتداء على استقلالهم، أو الى تفشي الامراض أو المجاعات فيهم، فتكلفوا في تفسير الآية تكلفا يصححون به ظنهم، فزعموا ان هلاك غير الظالم بهذا العذاب لاينافي الحصر لانه يكون عذابا في الظاهر فقط وأما في الباطن والحقيقة فهو سعادة، لما يترتب عليه من الثواب والدرجات الرفيعة، ومن أشهر هؤلاء الظانين في الآية غير الحق الرازي والطبرسي. ويدل على ما اخترناه قوله تعالى

﴿ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ﴾ أي تلك سنتنا في اهلاك المكذبين للرسل: ما نرسل المرسلين اليهم الا مبشرين من آمن وأصلح عملا بالجزاء الحسن اللائق بهم، ومنذرين من أصر على الشرك والافساد في الارض بالجزاء السيء الذي يستحقونه ﴿ فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أي فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذي ينزل بالجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذي أعده

الله للكافرين، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله تعالى على شيء فانهم لأن الله تعالى يقيهم من كل فزع (لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) وهم الذين قال فيهم (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة — وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) ولك ان تقول ان هؤلاء الكملة لا يحزنون في الدنيا أيضا مما يحزن منه الكفار والفساق كفوت شهوات الدنيا ولذاتها، أو لا يكون حزنهم كحزنهم في شدته وطول أمده، فانهم اذا عرض لهم الحزن لسبب صحيح، كموت الولد والقريب والصديق، أو فقد المال وقلة النصير، يكون حزنهم رحمة أو عبرة، مقرونة بالصبر وحسن الاسوة. لا يضرهم في أنفسهم ولا أبدانهم، ولا يغير شيئا من عاداتهم وأعمالهم. فالايمان بالله يعصمهم عن ارهاق البأساء والضراء، ومن بطر السراء والنعماء، عملا بقوله عز وجل (٥٧ : ٢١ ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها، ان ذلك على الله يسير ٢٢ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور)

﴿ والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ أي والذين كذبوا بآياتنا التي أرسلنا بها الرسل يصيبهم العذاب في الدنيا أحياناً ولا سيما عند الجحود والعناد، الذي يكون من المجموع دون بعض الافراد. وفي الآخرة على سبيل الشمول والاطراد، وذلك بسبب فسقهم أي كفرهم وافسادهم. فهؤلاء قد ذكروا في مقابل الذين آمنوا وأصلحوا أنفسهم وأعمالهم ومعاملاتهم، فالتكذيب يقابل الايمان؛ والفسق يقابل الاصلاح، وان كان أعم منه في اللغة والاصطلاح، فهو يطلق على الكفر والخروج من الطاعة. وفسر ابن زيد الفسق بالكذب هنا وفي كل القرآن وهو تفسير غير مسلم.

والمس اللمس باليد وما يدرك به، ويطلق على ما يصيب المدرك مما يسوءه غالبا من ضر وشر وكبر ونصب ولغوب وعذاب الضراء والبأساء. وهذا الاستعمال كثير في القرآن يعد بالعشرات، ويسند الفعل فيه الى سبب السوء والالم، وقد أسند الى ما يسر في مقابلة إسناده الى ما يسوء في قوله تعالى (٣ : ١٢٠ ان تمسسكم حسنة

تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) وفي الآية السابعة عشرة من هذه السورة وقد تقدم، وفي قوله تعالى (٧٠: ١٩ ان الانسان خلق هلوعا ٢٠ اذا مسه الشر جزوعا ٢١ واذا مسه الخير منوعا ٢٢ الا المصلين) وذكر مس الضر في أواخر سورة يونس (١٠: ١٠٧) وقابله بارادة الخير. وقد ورد المس بمعنى الوقع في سورة البقرة ولم يرد في القرآن بمعنى اللمس باليد الا في قوله تعالى (٥٦: ٨٢ لا يمسه الا المطهرون) أي القرآن. وفسر بعضهم المس بالاطلاع والمطهرين بالملائكة

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بما شاء من الألقاب ان شاء. واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ ربح صندوق التوفير ﴾

(س ١١) من صاحب الامضاء بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدي الاستاذ الجليل حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فانا كثيرا ما سمعنا من الناس اباحة وضع الاموال في صناديق التوفير بالبريد وأخذ الفوائد منها وذلك مما لا نشك أنه الربا المحرم باجماع المسلمين لا نعلم بينهم خلافا ثم اذا ناظرناهم فيه استندوا الى ان الاستاذ الامام رحمه الله وغفر له افتى بجوازه في فتوى رسمية ولما كنا لم نر هذه الفتوى ولم نعلم وجهها وكنتم أخص الناس بالامام وأعلمهم بأقواله وفتاويه لجأنا اليكم

لتبينوا لنا فتوى الامام أولا وهل هي لا تعارض الكتاب والسنة ثانيا خصوصا وأن المجالس الحسبية قررت وضع أموال القاصرين في هذه الصناديق بناء على هذه الفتوى المزعومة كما يقولون وليكن بيانكم شافيا وافيا كما هو دأبكم ان شاء الله تعالى؟

كتبه

أبو الاشبال

عفا الله عنه بمنه

(ج) ان كان للاستاذ الامام فتوى رسمية في مسألة صندوق التوفير فهي توجد في مجموعة فتاويه بوزارة الحقانية ومنها تطلب، وأنا لم أر له فتوى في ذلك ولكنني سمعت منه في سياق حديث عن مقاومة الخديو له ماحاصله: ان الحكومة أنشأت صندوق التوفير في مصلحة البريد بدكريتو خديوي (أمر عال) ليتيسر للفقراء حفظ ما زاد من دخلهم عن نفقاتهم وتثميره لهم وقد تبين لها ان زهاء ثلاثة آلاف فقير من واضعي الاموال في صندوق البريد لم يقبلوا أخذ الربح الذي استحقوه بمقتضى الدكريتو. فسألتني الحكومة هل توجد طريقة شرعية لجعل هذا الربح حلالا حتى لا يتأثم فقراء المسلمين من الانتفاع به فأجبتها مشافهة بامكان ذلك بمراعاة أحكام شركة المضاربة في استغلال النقود المودعة في الصندوق، فذاكر رئيس النظار الخديو في تحوير الدكريتو الخديوي وتطبيقه على الشرع فأظهر سموه الارتياح لذلك. ولما قال له رئيس النظار اننا استشرنا المفتي في ذلك غضب غضبا شديدا وقال كيف يبيح المفتي الربا؟ لا بد أن أستشير غيره من العلماء في ذلك. ثم جمع سموه جمعية من علماء الأزهر في قصر القبة وكلفهم وضع طريقة شرعية لصندوق التوفير ليظهر امام العامة بأنه هو المحامي عن الدين والمطبق للمشروع على الشريعة، وان الحكومة كانت عازمة على إكراه المسلمين على أكل الربا بمساعدة المفتي لولا تداركه الامر. وقد وضع له العلماء مشروعا قدمته المعية لنظارة المالية. (قال) وان نظارة المالية عرضت عليّ ذلك المشروع لاقراره — أو قال للتصديق عليه — فوجدته مبنيا على ما كنت قلته للحكومة شفاها. هذا ما سمعت منه رحمه الله تعالى وأظن انه قال ان اولئك العلماء كانوا من فقهاء المذاهب الاربعة أو الثلاثة ولا أجزم بذلك

ومهما تكن صفة الطريقة التي وضعها العلماء لاستغلال أموال التوفير فلا يظهر عدها من الربا المجمع على تحريمه وهو ربا النسيئة الذي كان في الجاهلية وقد بينه الامام أحمد لما سئل عن الربا الذي لا يشك فيه بمثل ما بينه غيره من أخذ الزيادة في مقابلة التأجيل فقال: هوأن يكون له دين فيقول له — أي اذا حل أجل الدين — اما أن تقضي واما أن تربي، فان لم يقض زاده هذا في المال وزاده هذا فى الأجل . وذكر الفقيه ابن حجر في الزواجر ان الإنساء فيه كان بالشهور، ولهذا كان يتضاعف ويخرب البيوت

﴿ شق صدر النبي (ص) وتطهير قلبه من حظ الشيطان ﴾

(س ١٢) من صاحب الامضاء في الاسكندرية

سيدي الحكيم قدوة العلماء وتاج الفصحاء

من لا أسميه اجلالا وتكرمة فقدره المعتلي عن ذاك يغنيني

أتطفل على مائدتكم العلمية التي أبهرت العقلاء وأعجبت الفصحاء لماعليها من أصناف المعارف الحية وأنواع التعاليم الصحيحة — راجيا من علوآدابكم ومكارم أخلاقكم أن تفسحوا لي المقام فان لي لقلبا يصبو الى مايفوه به فوكم من الدرر وما ينطق لسانكم من الحكم والعبر وما ينثره قلمكم من الفكر

في هذه الايام كثر الجدال حتى كاد يفضي الى الهلاك في مسألة (انشقاق صدر الرسول عليه الصلاة والسلام واخراج قلبه وتطهيره من حظ الشيطان الذي وجد معه من يوم أن ظهر على الارض ونزل من بطن أمه وامتلائه حكمة) — اختلفت آراء القوم وتباينت في تلك المسألة فمن مصدق عليها مقر بحدوثها ومن مكذب لها مفند لا يلوي الا على ما يثبته البرهان ويقبله الوجدان ويقربه العقل الرجيح — أما المصدق لها فأدلته ما جاء في البخاري بما معناه . ان النبي بينما كان يلعب في الصغر مع أقرانه اذ نزل عليه جبريل فصرعه وشق صدره فأخرج قلبه وطهره من خبائث الشيطان أو بالاحرى من موضع يوسوس له فيه الشيطان وملأ قلبه نورا وحكمة

ولم يكتف جبريل بشق صدره مرة بل شقه مرات تبعا لازدياد الحكمة ونموها

فيه كلما كبر - حتى كان ليلة الاسراء وهو نئم ناداه من أحد الثلاثة مناد (كما يقول البخاري) فقام اليه وأتى فاذا هو جبريل وقد أفرج صدره ونظف قلبه ثم أسرى به - وقد قال النبي بما معناه كل مولود يستهل معه الشيطان . فسئل حتى أنت يارسول الله ؟ قال « حتى أنا ولكني تغلبت على شيطاني » قال الله تعالى في سورة الحج (وما أرسلنا من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) الآية

وأما المكذب لها فانه باق على تكذيبها ، وها هوقد كتب اليكم ليسترشد بنور علمكم الساطع لاعتقاده بأنك الزعيم الاكبر للمسلمين . تلك هي المسألة التي أرجو من حضرتكم إما تأييدها لنسير على مقتضاها ، واما نفيها وبذلك تنتفي الشبه والاباطيل التي تشوه سمعة الرسول عليه الصلاة والسلام - والامل وطيد في ان يكون الرد سريعا لازلت محفوظا من الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته آمين

تلميذكم الخاضع

اسماعيل حسن خليه

(ج) لا بد أن يكون مرادكم بتكذيب المسألة تكذيب الرواية أو الروايات الواردة فيها التي أوردتم بعضها بالمعنى فخالفتم اللفظ والمعنى ، وقرنتم به آية الحج وليست من معناه في شيء بل معناها ان الرسل والانبياء اذا تمنوا لا يتم لهم موضوع أمانيهم بسبب وسوسة الشيطان للناس ولا محل لتفصيل ذلك هنا . وقد صرحتم بأن سبب التكذيب اعتقادكم ان مضمونها يعد طعنا في سمعة الرسول صلى الله عليه وسلم يجب ان ينزه عنه . ولكن لا ينبغي لمسلم أن يرد حديثا مرويا الا بعلة في سنده، أو معارضة ما هو أقوى منه لمتنه بشرطه، ومن أشكل عليه فهم شيء من الاحاديث فعليه أن يبحث ويسأل لا أن يرده بهواه، ويكذب من لا يعرف سيرته من الرواة . واننا نورد هنا ما روي في هذه المسألة أصحها سندا ونبين ما في أسانيدها ومتونها مما يمكن أن يتعلق به من ينفي وقوع شق الصدر حقيقة ، ثم نبين ما ينبغي ان توجه به المسألة على تقدير صحة وقوعها فنقول

روى حديث شق الصدر في الصغر مسلم - لا البخاري - قال : حدثنا شيبان ابن فروخ حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك (رض) ان

رسول (ص) أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقا فقال هذا حظ الشيطان منك . ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون الى أمه يعني ظئره (أي مرضعه حليمة السعدية) فقالوا ان محمداً (ص) قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون .

وأقول ان في هذا السند مقالا. قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب في شيبان بن فروخ صدوق يهم (أي يخطئ) ورمي بالقدر ، قال أبو حاتم اضطر الناس اليه أخيرا. من صغار التاسعة . وقال في شيخه حماد بن سلمة : ثقة عابد أثبت الناس في ثابت، وتغير حفظه بآخره ، من كبار الثامنة اه

وقال في تهذيب التهذيب بعد ثناء الائمة عليه : وقال البيهقي هو أحد أئمة المسلمين الا انه لما كبر ساء حفظه فلذا تركه البخاري وأما مسلم فاجتهد وأخرج من حديثه عن ثابت ماسمع منه قبل تغيره ، وما سوى حديثه عن ثابت لا يبلغ اثنى عشر حديثا ذكرها في الشواهد . ثم قال الحافظ : وقال ابن سعد كان ثقة كثير الحديث وربما حدث بالحديث المنكر . وأقول يؤخذ من هذا الكتاب ومن ميزان الاعتدال انهم أنكروا من روايته عدة أحاديث شاذة في الصفات قيل انها دست في كتبه .

هذا أصح ما روي في هذا الباب وقد علمت مافي سنده ثم ان أنسا لم يرفعه وما كل ما يرويه الصحابي عن مجهول يحتج به بل يفرق في روايته بين أحكام الدين وبين الاخبار عما كان قبل الاسلام اذ يمكن ان ينتهي الخبر الى بعض المشركين. وقد روي خبر شق الصدر عن حليمة السعدية مرضعته (ص) من طرق أخرى عند أهل السير والطبراني والبيهقي وأبي نعيم وابن عساكر كلها دون طريق مسلم منها الضعيف والموضوع كرواية البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس عن أبيه من طريق محمد بن زكريا الفلاني وكان كذابا يضع الحديث . ورواية أبي نعيم وأبي اسحق وغيرهما عن عبد الله بن جعفر عن حليمة من طريق جهم بن أبي الجهم قال الذهبي لا يعرف ، له قصة حليمة السعدية

فاذا كان السائل يرى أن هذا الحديث لا يصح لما رآه في متنه غير لائق

بمنصب النبي (ص) فقد علم أيضا أن في سنده مقالا ، وليس هو من عقائد الدين ولا من أحكامه القطعية

وقد ورد خبر شق الصدر في أحاديث المعراج أيضا المروية في الصحيحين والسنن وغيرها وقد استشكلها بعض العلماء فنورد منها ما لا بد منه لبيان هذه المسألة

أحاديث قصة المعراج في الصحيحين مدارها على أنس بن مالك فمنها مارواه بنفسه ومنها ما رواه عن غيره . وقد ذكر في بعضها شق الصدر دون بعض فأما حديث أنس فلم تذكر قصة شق الصدر في طريق من طرقه الا طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر عنه وهو في صحيح البخاري وتفسير ابن جرير ، قال أنس : ليلة أسري برسول الله (ص) من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه فقال أولهم: أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم ، وقال أحدهم خذوا خيرهم(١) ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى (٢) فيما يرى قلبه وتنام عيناه ولا ينام قلبه وكذلك الانبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبرئيل فشق جبرئيل ما بين نحره الى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوا (٣) ايمانا وحكمة فحشى به صدره ولغاديده — يعني عروق صدره — ثم أطبقه ثم عرج به. الخ الحديث وفي آخره « واستيقظ وهو في المسجد الحرام » وهذه الرواية صريحة في أن ذلك كله كان في النوم وليس فيها ذكر لحظ الشيطان واحتج بها من قالوا أن المعراج كان رؤيا منامية وأولها من قال أنه كان في اليقظة بالروح والجسد، ولا يحتاج الى تأويلها من قالوا انه مشاهدة روحية. وفي نسخة من صحيح البخاري «فاستيقظت» بدل واستيقظ، وهي كما قال شيخ الاسلام زكريا الانصاري التفات من الغيبة الى حكاية قول النبي (ص) والتور الذي ذكر انه كان في الطست اناء صغير يشرب فيه

وفي رواية شريك هذه مخالفة لغيرها في عدة أمور استشكلوها وأنكروها عليه

(١) وردانه كان نائما بين عمه حمزة وابن عمه جعفر (٢) كانت هذه بعد البعثة بلا خلاف (٣) حال وفي غير هذا الحديث ذكر وصف الطست نعتا لا حالا وليس فيه ذكر التور

وغلطوه فيها أهمها قوله « ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أوأدنى» مع أن الثابت في الصحيح ان آية (ثم دنا) نزلت في جبريل عليه السلام. وهاك ما في فتح الباري للحافظ ابن حجر في ذلك :

قال الخطابي : ليس في هذا الكتاب — يعني صحيح البخاري — حديث أشنع ظاهرا وأبشع مذاقا من هذا الفصل فانه يقتضي تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر وتمييز مكان كل واحد منهما — هذا الى ما في التدلي من التشبيه والتمثيل له بالشيء الذي تعلق من فوق الى أسفل (قال) فمن لم يبلغه من هذا الحديث الا هذا القدر مقطوعا عن غيره ولم يعتبره بأول القصة وآخرها اشتبه عليه وجهه ومعناه وكان قصاراه إما رد الحديث من أصله وإما الوقوع في التشبيه ، وهما خطتان مرغوب عنهما. وأما من اعتبر أول الحديث بآخره فانه يزول عنه الاشكال فانه مصرح فيهما بأنه كان رؤيا لقوله في أوله « وهو نائم » وفي آخره « استيقظ » وبعض الرؤيا مثل يضرب ليتأوّل على الوجه الذي يجب أن يصرف اليه معنى التعبير في مثله وبعض لا يحتاج الى ذلك بل يأتي كالمشاهدة.

(قال الحافظ بعد نقل ماتقدم) قلت : وهو كما قال ولا التفات الى من تعقب كلامه بقوله في الحديث الصحيح ان رؤيا الانبياء وحي فلا يحتاج الى تعبير. لأنه كلام من لم يمعن النظر في هذا المحل . فقد تقدم في كتاب التعبير ان بعض رؤى الانبياء يقبل التعبير . وذكر الحافظ الامثلة من الصحيح على تأويل النبي (ص) لبعض الرؤى بغير ظاهرها . ثم ذكر أن الخطابي تعقب في جزمه بأن ماذكر كان في المنام وقوله أن القصة بطولها انما هي حكاية يحكيها أنس من تلقاء نفسه لم يعزها الى النبي (ص) ولا نقلها عنه ولا أضافها الى قوله ، فحاصل الامر في النقل أنها من جهة الراوي إما من أنس وإما من شريك فأنه كثير التفرد بمناكر الالفاظ التي لا يتابعه عليها سائر الرواة انتهى — أي كلام الخطابي ثم أطال الحافظ البحث فيه، ولا يعنينا من بحثه هنا الا قوله بأن للحديث حكم المرفوع لانه مرسل صحابي فيما لا مجال للرأي فيه ويفسر هذا ما يأتي

وأما مارواه أنس عن غيره مشتملا على مسألة شق الصدر فليس في الصحيح

منها الا حديث مالك بن صعصعة الانصاري المرفوع الذي رواه أنس عنه ولم يرو أحد عنه غيره. وأوله كما في البخاري: « بينما أنا في الحطيم — وربما قال في الحجر — مضطجعا [قال الحافظ : زاد في بدء الخلق « بين النائم واليقظان] اذ أتاني آت فقد قال سمعته يقول — فشق ما بين هذه الى هذه ...[١] فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة ايمانا فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل » الخ الحديث . والظاهر أن أنسا روى هذه القصة غير مرفوعة عن مالك هذا فصرح باسمه مرة وأرسلها مرة أو مرارا عند ما كان يحدث بها وذكر في بعض المرار ما سكت عنه في بعض. وهذه تؤكد أن القصة كانت في النوم وتضعف تأويل المؤولين الا من قال بحصولها مرة في اليقظة ومرة أو أكثر من مرة في الرؤيا ان أثبت ذلك

وقد روى أنس مسألة شق الصدر في أحاديث المعراج عن أبي ذر مرفوعة في الصحيحين قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله (ص) قال « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي الى السماء » الحديث فهذه الرواية لم يصرح فيها بأنه كان نائما ويمكن حملها على المصرحة بذلك دون العكس. ولذلك جزم الحافظ بأن القول بتعدد المعراج في اليقظة بعيد جدا تنافيه المراجعة في مسألة فرض الصلاة منافاة ظاهرة . واذا كان الجمع بين تعارض الروايات الصحيحة السند متعذرا بدون القول بالتعدد، وكان القول بالتعدد في اليقظة بعيدا بل غير معقول — فلا مندوحة عن القول بأنها كانت رؤيا منامية اما كلها أو يستثنى واحدة منها كانت في اليقظة ، والاكثرون على هذا ، فيمكن أن يقال اذاً ان شق الصدر كان في الرؤيا المنامية التي تكررت دون واقعة اليقظة الا أن تكون هذه مشاهدة روحية كما قال بعضهم

وأما حديث مس الشيطان للمولود فهو مروي في الصحيحين عن أبي هريرة باستثناء عيسى في بعض الروايات وعيسى وأمه في بعض والحديث واحد وسيأتي نصه في

(١) يعني من ترقوته الى آخر مراق بطنه وفسر في هذه الرواية بلفظ آخر

تلخيص الجواب. وقد استشكل بعض العلماء معناه قال الحافظ في شرحه من الفتح ما نصه:

« وقد طعن صاحب الكشاف في معنى هذا الحديث وتوقف في صحته فقال ان صح هذا الحديث فمعناه ان كل مولود يطمع الشيطان في اغوائه الا مريم وابنها فانهما كانا معصومين وكذلك من كان في صفتهما لقوله تعالى (الا عبادك منهم المخلصين) قال واستهلال الصبي صارخا من مس الشيطان تخييل لطمعه فيه كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ويقول هذا ممن أغويه . وأما صفة النخس كما يتوهمه أهل الحشو فلا، ولو ملك ابليس على الناس نخسهم لامتلأت الدنيا صراخا انتهى. وكلامه متعقب من وجوه والذي يقتضيه لفظ الحديث لا إشكال في معناه ولا مخالفة لما ثبت من عصمة الانبياء بل ظاهر الخبر ان ابليس ممكن من مس كل مولود عند ولادته لكن من كان من عباد الله المخلصين لم يضره ذلك المس أصلا واستثنى من المخلصين مريم وابنها فانه ذهب يمس على عادته فحيل بينه وبين ذلك، فهذا وجه الاختصاص ولا يلزم منه تسلطه على غيرهما من المخلصين . وأما قوله لو ملك ابليس الخ فلا يلزم من كونه جعل له ذلك عند ابتداء الوضع ان يستمر ذلك في حق كل أحد. وقد أورد الفخر الرازي هذا الاشكال وبالغ في تقريره على عادته وأجمل الجواب فمازاد في تقريره على ان الحديث خبر واحد ورد على خلاف الدليل لان الشيطان انما يغوي من يعرف الخير والشر والمولود بخلاف ذلك وانه لو مكن من هذا القدر لفعل أكثر من ذلك من اهلاك وافساد وانه لا اختصاص لمريم وعيسى بذلك دون غيرهما الى آخر كلام الكشاف . ثم أجاب بأن هذه الوجوه محتملة ومع الاحتمال لا يجوز دفع الخبر انتهى. وقد فتح الله تعالى بالجواب كما تقدم والجواب عن اشكال الاغواء يعرف مما تقدم أيضا وحاصله ان ذلك جعل علامة في الابتداء على من يتمكن من اغوائه والله أعلم . انتهى كلام الحافظ

وأما حديث قرناء الناس من الشياطين الذي ذكر فيه اسلام شيطان النبي (ص) أو سلامته من وسوسته فهو مروي في صحيح مسلم من حديث عائشة وعبد الله بن مسعود ولفظ هذا «مامنكم أحد الا وقد وكل الله به قرينه من الجن» قالوا وإياك يارسول الله ؟ قال « وإياي الا ان الله أعانني عليه فاسلم فلا يأمرني الا بخير » وقد

ضبط بعضهم « فاسلم » برفع الميم واختاره الخطابي ومعناه فأنا أسلم من شر وسوسته، وضبطها بعضهم بفتح الميم ومعناه فصار هو مسلما وقيل مستسلما . وهما روايتان وقوله « فلا يأمرني الا بخير » يرجح الثانية بل يوجب الجزم بها . قال النووي في شرحه: قال القاضي (أي عياض) واعلم أن الامة مجتمعة على عصمة النبي (ص) من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه وفي هذا الحديث اشارة الى التحذير من فتنة القرين ووسوسته واغوائه فأعلمنا بأنه معنا لنحذر من وسوسته بحسب الامكان اه

أقول وفي رواية أخرى لهذا الحديث «وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » ويوضح هذا حديث ابن مسعود عند الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه « ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق » الخ وهذا الملك الذي يقابل الشيطان يسمى ملك الالهام وهو الذى عبر عنه النبي (ص) بقوله « واعظ الله في قلب كل مؤمن » وقد بينا مسألة انقسام الخواطر النفسية الى شيطانية وملكية في الجزء الاول من التفسير وفي هذا الجزء (السابع) منه أيضا فليراجع السائل تفصيل ذلك في تفسير (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) من جزء المنار الثالث من هذا المجلد (ج ٣ م ١٩) فهو يقرب لذهنه ما لعله يراه بعيدا عنه اذا لم يكن قرأه

وملخص الجواب ان حديث شق صدر النبي (ص) في طفوليته وتطهيره من حظ الشيطان منه في سنده مقال ومتنه ليس مرفوعا الى النبي (ص) وليس له حكم المرفوع . وليس متنه لاينافي عصمة النبي (ص) لان حاصل معناه ان روح القدس قد طهر قلبه وقدسه منذ الطفولية وقبل ان يصل الى السن التي تكون فيها الوسوسة ، وان حديث شقه في قصة المعراج كانت رؤيا منامية في الراجح ولا ذكر فيها لحظ الشيطان فحاصل معناها انها رمز وتمثيل لتأييد الروح القدس والملائكة له (ص) واعدادهم إياه لمناجاة الله عز وجل مناجاة خاصة . وأما حديث مس الشيطان للمولود عند ولادته فسنده صحيح لا عبرة بمن تكلم في صحته ولكن استثناء عيسى وحده مرة فيه واستثناؤه هو وأمه مرة أخرى ان كانتا غير متعارضتين فلا عموم في الصيغة ، وينافي ذلك قولهم الاستثناء معيار العموم . وان كانتا متعارضتين سقط

لاستدلال بهما أو يقوم الدليل على ترجيح احدهما . وقد علمت ماقاله الزمخشري في الحديث وأقواه معارضة قوله تعالى (الا عبادك منهم المخلصين) له فانه صريح في ان الشيطان لاسلطان له على أغواء عباد الله المخلصين . وعلمت ما أجاب به الحافظ عن هذه المعارضة وهو ان هؤلاء العباد لا يضرهم ذلك المس اذ لا يدل الحديث على أن كل من مسه الشيطان يغويه . ونقول انه يجوز ان يكون المراد بالمس بيان توجه الشيطان الى التعرض للوسوسة للمولود واستعداد المولود لقبول الوسوسة التي هي تزيين الباطل والشر في النفس، وكيفية المس على القول بأنه حقيقية لاتمثيل بحث في عالم الغيب وهو مما أجمعوا على تفويض كيفيته الى الله تعالى اذا صح الخبر به وكان ممكنا في نفسه. وأما احاديث القرين من الشياطين والقرين من الملائكة فهو أصح سندا وأقوى متنا لان له شاهدا من القرآن (ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) والاحاديث التي وردت في توضيحه تدل على ان الانفس البشرية فيها دعيتان إحداهما للحق والخير والاخرى للباطل والشر، وان الاولى ترجح بإلهام ملكي والاخرى باغواء شيطاني . ولكن الانسان هو الذي يزكي نفسه ويهذبها حتى ترتقي الى التناسب مع روح الملك وتلقي إلهام الحق والخير منها — أو يدسيها ويفسدها حتى تهبط الى التناسب مع روح الشيطان وتلقي وسوسة الباطل والشر منها ، فمثل ملك الالهام كمثل القرين الصالح من الناس لايعاشر الا من يشاكله، ومثل الشيطان كمثل قرين السوء لايصاحب الا من يشابهه، فكل قرين بالمقارن يقتدي، و « الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » كما ورد في الحديث صحيح، واذا قارف الرجل الصالح خطيئة كان تأثيرها في نفسه معدا لوسوسة الشيطان ويمحوه بعمل صالح يضاده « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » (ان الحسنات يذهبن سيئات ذلك ذكرى للذاكرين)

﴿ بدع الجمعة والاذان وختم الصلاة والجنازة ﴾

(س ١٣ — ٢٠) من صاحب الامضاء بطملاي مركز منوف مديرية المنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فهذا من عبد لرحمن احمد الصعيدي الى دار الدعوة ولارشاد بمصر يتشرف بالافادة عما سيذكر : في هذا العهد ظهر عندنا رجل ينهانا عما سيأتي

١ قراءة سورة الكهف جهارا داخل المسجد يوم الجمعة

٢ والاذان المسمى عندنا بالاول من يوم الجمعة

٣ والاذان الثاني داخل المسجد بين يدي الخطيب

٤ . الترقية

٥ التبليغ في الصلاة

٦ ختام الصلاة جهارا في المسجد

٧ الصلاة والسلام على النبي عقب الاذان

٨ السير مع الجنازة بالذكر جهارا وقراءة البردة

وحيث اننا نفعل كل ماذكر من منذ وجدنا بالدنيا وهذا الرجل يجتهد في ابطال ذلك ولا نعلم اذا كان عمل هذا من البدع فنتركه أم من الدين فنتبعه نرجو الافادة مع التوضيح وإفتانا عماذكرناه لان في نفوسنا (ريبا) من ذلك. وقال الله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مقدمه

عبد الرحمن احمد الصعيدي

الجواب عن هذه الاسئلة (*)

١ — قراءة سورة الكهف جهارا داخل المسجد يوم الجمعة — بدعة ليس لها دليل من كتاب الله ولا من سنة رسوله (ص) ولم تؤثر عن سلف الامة الصالح . ولكن لقراءتها يوم الجمعة بدون تقييد بالجهر وبكونها في المسجد أصلا ضعيفا ، قال الحافظ

(*) حذفنا سؤالا من هذه الاسئلة يتعلق بعادة مصرية بين العروسين

ابن حجر في تخريج أحاديث الاذكار: ان أقوى ماورد في قراءة الكهف يوم الجمعة حديث أبي سعيد الخدري عند الحاكم في التفسير والبيهقي في السنن « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور مابين الجمعتين » وقد أورده الحاكم من طريق نعيم بن حماد عن هشيم عن أبي هاشم وصححه ولكن قال الذهبي في الميزان: بل نعيم ابن حماد ذو مناكير. أقول بل جرح بأكثر من هذا، وقد وردت أحاديث أقوى من هذا في قراءة آل عمران وهود في يوم الجمعة، فلماذا لايعمل بها هؤلاء الناس المواظبون على قراءة الكهف ان كان غرضهم العمل بالاحاديث لا اتباع العادة

ثم ان الاتيان بالعبادة المشروعة على وجه مخصوص وفي وقت معين لم يرد في الشرع ما يدل عليهما بدعة في كيفية الاداء المبنية على الاتباع، واظهار ذلك بجعل ما ليس من شعائر الدين شعارا. وهذا ما يسميه الشاطبي في الاعتصام بالبدعة الاضافية وسيعاد ذكره قريبا، دع ما في رفع الصوت بقراءة الكهف أو غيرها في المسجد عند اجتماع الناس للصلاة من التهويش على المصلين وهو غير جائز وقد صرح الفقهاء بمنع الجهر بالتلاوة في المسجد اذا كان فيه من يصلي وأنه حرام. وفي حديث أبي سعيد الخدري: اعتكف رسول الله (ص) في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال «ألا ان كلكم مناج لربه فلايؤذ بعضكم بعضا ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة» رواه أبو داود

٢ — الاذان الاول يوم الجمعة — أحدثه عثمان في خلافته وأقره الصحابة (رض) وما رواه ابن أبي شيبة عن ابن عمر انه قال: الاذان الاول يوم الجمعة بدعة — فالاظهر انه استعمل البدعة هنا بمعناها اللغوي لا للانكار ومعناه انه لم يكن في عهد النبي (ص) قيل ويحتمل انه للانكار، أي لان مقتضى إكمال الدين في عهده (ص) ان لايزاد في العبادات ولاسيما الشعائر بعده شيء، وانما الاجتهاد في مسائل المعاملات والمصالح التي تختلف باختلاف الزمان والمكان لا العبادات وشعائر الاسلام التي لايدخل فيها القياس الذي احتجوا به لفعل عثمان (رض) ويمكن ان يجاب عن هذا بأن الاذان للاعلام بالوقت وسيلة للصلاة اجتهادية لاعبادة مقصودة لذاتها واتق النبي (ص) استشار المسلمين في أمر هذه الوسيلة واستحسن ما كان منهم من رأي ورؤيا فلاأجل

هذا رأى عثمان والصحابة ان هذه المسألة يصح العمل فيها برأي أولي الامر اذا احتيج الى ذلك. فلما حدثت الحاجة بكثرة المسلمين وعدم تبكيرهم الى المسجد على نحو ما كانوا يفعلون في عهده (ص) أمر عثمان المؤذن أن يؤذن بهم للجمعة على الزوراء — وهي موضع أو دار له بسوق المدينة — وأبقى ما كان من أذان المسجد عند جلوس الامام على المنبر كما كان ابقاء للعبادة كما كانت . قال السائب بن يزيد (رض) فيما رواه عنه البخاري وأبو داود والنسائي : كان النداء يوم الجمعة أوله اذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله (ص) وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء ولم يكن للنبي (ص) غير مؤذن واحد . وفي رواية أخرى لهم زيادة فثبت الامر على ذلك . والمراد بقوله النداء الثالث هو الاذان الاول فهو أول بالنسبة الى تقديمه في العمل وثالث بالنسبة الى حدوثه بعد الاذانين المشروعين لكل صلاة أعني الاذان والاقامة وكانوا يطلقون عليهما « الاذانين » على طريق التغليب أو لان الاول اعلام بوقت الصلاة والآخر إعلام بالشروع فيها، ولكنهم اذ ذكروا الاقامة وحدها لا يسمونها أذانا بل إقامة . والمرجح المختار عندنا في هذه المسألة ان يتبع الناس في كل حالة ما كان عليه السلف الصالح فاذا علمنا ان المصلين اجتمعوا في المسجد على نحو ما كانوا عليه في زمن النبي (ص) وأبي بكر وعمر (رض) اكتفينا بأذان المسجد ، واذا كانت الحال كما كانت في عهد عثمان وعلمنا ان الاذان الاول على المنارة أو في السوق مجلبة للمصلين فعلناه . ولا ينبغي لمسلم ان ينكر على أهل مسجد ما يختارونه من هذين الفعلين. اذ لا يصح ان يكون ما حدث في عهد عثمان ناسخا لما قبله ولا ان يكون ضلالة من بعض الراشدين أقره عليها الصحابة ، فليتق الله من تحدثه نفسه بهذا الانكار . وليعرف قيمة نفسه أولا . وأما قول السائب : لم يكن له (ص) غير مؤذن واحد فهو خاص بأذان الجمعة

٣ الاذان الثاني داخل المسجد بين يدي الخطيب — فيه أن فعله بين يدي الخطيب و بالتلقين المعهود في بعض المساجد بدعة لا فائدة فيها ولا نعرف الحامل لمبتدعها عليها. وقد علم مما قلناه آنفا في مسألة الاذان الاول أن الاذان الثاني وهو الذي كان على عهد الرسول (ص) إنما يكون اذا جلس الامام على المنبر كما

صرح به السائب في حديثه الصحيح . وأما مكانه فقد روى الطبراني فيه أن بلالا كان يؤذن على باب المسجد . وذكره الحافظ في فتح الباري محتجا به وهو المشهور

٤ — الترقية المعهودة في يوم الجمعة بدعة لانعرف لها أصلا من كتاب ولا سنة ولا اجتهاد أحد من الأئمة وانما أحدثها بنو أمية وأنكرها الفقهاء من جميع المذاهب (راجع المنار ص ٣١ م ٦)

وقد استفتي شيخ الجامع الازهر منذ بضع عشرة سنة في بعض المسائل المتعلقة بالجمعة مما تقدم فأفتى بأنها بدع منكرة. وقد أشار الاستاذ الامام الى هذه الفتوى ومقاومة بعض أصحاب النفوذ السياسي لها بقوله في كتاب الاسلام والنصرانية (ص ١٣٩ من الطبعة الثانية) فقال :

«سأل سائل من الاستاذ شيخ الجامع الازهر عن حكم عمل من الاعمال الجارية في المساجد يوم الجمعة — ومنزلة الشيخ من الرياسة في أهل العلم بالدين منزلته — فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أيظن ان المستفتي أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ? كلا ، حدث قيل وقال ، وكثرة تساآل ، ودخلت السياسة ، ثم قيل ان الزمان ناصر الحقيقة وقد وجدنا الامر كذلك من قبلنا ، وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ? اه

٥ — التبليغ في الصلاة هو رفع المؤذنين اصواتهم بالتكبير للاحرام وأذكار الانتقال لاعلام من لم يسمع صوت الامام ولا يراه عند إحرامه وانتقاله من ركن الى آخر: وله أصل في السنة بما كان من صلاة رسول الله (ص) في مرض موته آخر جماعة اذ صلى قعدا والناس خلفه قيام وأبو بكر (رض) يبلغهم تكبيره . وقد صرح علماء المذاهب المشهورة بجواز التبليغ اذا احتيج اليه فان لم يحتج اليه كان بدعة منكرة . على أن للمؤذنين فيه بدعا كثيرة كفعلهم له جماعة ورفعهم أصواتهم أكثر مما ينبغي متحرين فيها حسن النغم وإطالتهم المد حتى يضطر الامام الى انتظارهم أوسبقهم فينتقل الى السجدة الثانية قبل فراغهم من تكبير السجدة الاولى مثلا وقد بين الفقهاء ذلك وطال فيه وفي غيره من هذه المسائل صاحب المدخل رحمه الله تعالى .

٦ — ختم الصلاة جهارا في المساجد بالاجتماع ورفع الصوت من البدع التي

أحدثها الناس فاذا التزموا فيها من الاذكار ماورد في السنة كانت من البدع الاضافية وقد تساهل فيها كثير من مقلدة الفقهاء وأطال العلامة الشاطبي الكلام في انكارها في كتابه الاعتصام ونقلناه عنه في المنار فليراجعه من شاء

وهذه البدعة قد انتشرت في الاقطار الاسلامية منذ بضعة قرون حتى عمت الغرب والشرق والجنوب والشمال ، ولما أنكرها من أنكرها في الاندلس كثر فيها القيل والقال، وقد كنت فطنت لها قبل أن أرى لاحد من العلماء كلاما فيها فتركتها في أواخر زمان الطلب ولكنني لم أترك الاذكار الواردة بل كنت أقولها وأنا منصرف من الصلاة، ولم يخطر في بالي أن أنهى عنها أحداء ولأنها يصح أن تسمى بدعة. ولما كنت في عليكده من الهند سنة ١٣٣٠ قدموني للخطبة وامامة الجمعة فلما فرغت من الصلاة لم أستطع الانصراف ولا التحول من شدة الزحام في المسجد ولا رأيت أحدا من الناس انصرف ولا قام لصلاة ولا غيرها، ثم خلص الي شاب من طلاب العلوم الدينية فأخبرني ان الناس ينتظرون أن يسمعوا مني أذكار ختم الصلاة ليتبعوني فيها ويقوموا الى صلاة السنة البعدية وغيرها من شؤونهم ، قلت ان هذا غير مشروع ، قال ألم يرد في الصحيح أن النبي (ص) كان يقول بعد السلام « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام» قلت نعم قد صح انه كان اذا سلم لم يقعد الا بمقدار مايقول ذلك (رواه مسلم) ولكن لم يصح انه كان يقول ذلك رافعا صوته ليسمعه الناس ويقولونه بقوله، وأنا قد قلت ذلك سرا. ولما جئت بيروت عند منصرفي من الهند أقمت فيها أياما كنت أقرأ درسا بعد الظهر في مسجد الحميدية من كل يوم، فشغل المؤذن بعد صلاة الجمعة يوما عن الاذكار والادعية التي جرت العادة برفع صوته فيها واتباع جمهور المصلين له، شغلته عنها صلاة جنازة، فظل كثير من الناس ينتظرونه متلفتين الى اليمين والى الشمال، فبدأت الدرس ببيان الحق في هذه المسألة وهو انه ليس من السنة أن يجلس الناس بعد الصلاة لقراءة شيء من الاذكار والادعية المأثورة ولا غير المأثورة برفع الصوت وهيئة الاجتماع كما اعتادوا في الاقطار المختلفة وان هذه العادة صارت عند الناس من قبيل شعائر الدين التي ينكر على تاركها والناهي عنها ، وانكار تركها هو المنكر . وان ما ورد في بعض الاحاديث من الاذكار كقول « اللهم أنت

السلام » الخ ولاستغفار والتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل يستحب أن يقوله الافراد سرا في أي حالة يكونون عليها بعد الصلاة من قيام وقعود ومشي ، وان الاجتماع لذلك والاشتراك فيه ورفع الصوت بدع هونها على الناس التعود ، ولو دعاهم أحد الى مثل هذه الصفات في عبادة أخرى كصلاة تحية المسجد مثلا لأنكروا عليه أشد الانكار. ولما عدت الى مصر وشرعت في طبع كتاب الاعتصام للشاطبي رأيته وفى هذه المسألة حقها، فحمدت الله تعالى

٧ — الصلاة والسلام على النبي (ص) عقب الاذان— هي بدعة أيضا والقول فيها كالقول فيما تقدمها . قال صاحب المدخل : يطلب من امام المسجد أن ينهى المؤذنين عما أحدثوه من صفة الصلاة والتسليم على النبي (ص) عند الاذان وان كانت الصلاة والتسليم على النبي (ص) من أكبر العبادات ولكن ينبغي أن يسلك بها مسلكها فلا توضع الا في مواضعها التي جعلت لها ، ألا ترى ان قراءة القرآن من أعظم العبادات ومع ذلك لا يجوز للمكلف أن يقرأه في الركوع ولا في السجود ولا في الجلوس — أعني الجلوس في الصلاة — لان ذلك لم يرد والخير كله في الاتباع ، وهي بدعة قريبة الحدوث جدا مما تقدم ذكره فيما أحدثه بعض الامراء من التغني بالأذان . الخ

٨ — السير مع الجنازة بالذكر جهارا وقراءة البردة — كل ذلك من البدع التي لم يسكت عنها المشتغلون بعلوم الشرع كما سكت جماهيرهم على الاذكار التي اتصلت بالاذان والصلاة . على ان جميع ماذكر في هذه الاسئلة والاجوبة من البدع قد بينه انصار السنة وخاذلو البدعة من العلماء منذ أحدثت الى هذا العصر .

والبلاء كل البلاء في جعل عمل الناس حجة على كتاب الله تعالى ودواوين السنة مع أن بعض الائمة قال بالاحتجاج بعمل أهل المدينة في زمن الصحابة والتابعين فخالفه في ذلك سائر الائمة وجمهور الامة وخص بعضهم ذلك بزمن الراشدين فقط ، والآن يحتج الناس بعمل العوام الطغام و بسكوت من لا حجة في قوله فضلا عن سكوته من المعممين ، أو بتأويل بعض المنافقين الذين يتقربون الى العامة بما يرضيهم طمعا ببعض الحطام أو الجاه الكاذب عندهم .

وقد استفتي شيخ علماء الاسكندرية لهذا العهد في المسألة الاخيرة من هذه المسائل وفي مسائل أخرى مما أحدثه الناس في أمور الموتى فنذكر ذلك بنصه :

﴿ السؤال ﴾

ما قولكم فيما يفعله الناس الآن من الصياح أمام الجنازة بنشيد البردة وغيرها، والاجتماع للتعزية بنصب الخيام، وقراءة القرآن فيها أياما مخصوصة، وقراءة الصمدية بعدد مخصوص يسمونه (عتاقة) ويزعمون انها تعتق الميت من النار وتفريق الخبز للقراء على القبور، وأخذ القراء الخبز والنقود أجرا على قراءة القرآن — فأهل العلم فينا بين محرم لذلك ومحال، وقد جأنا اليكم كي تفيدونا ، هل هذا من الدين أم لا ؟ وماهي طريقة نبينا صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح من الأئمة في ذلك ؟ وما حكم الله فيمن يخالف طريقتهم أفيدونا بأدلة تشفينا ، فلا زلتم هداة الحائرين

﴿ الفتوى ﴾

« الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد فما يفعله الناس الآن من الصياح امام الجنازة بنشيد البردة وقراءة القرآن ونحو ذلك غير جائز شرعا ، وهو خلاف السنة ، وخلاف عمل السلف الصالح ، لان السنة في اتباع الجنائز الصمت والتفكر والاعتبار وعلى ذلك جرى العمل من السلف الصالح، وقد قال الامام مالك رضي الله عنه (لن يأتي آخر هذه الامة بأهدى مما كان عليه أولها) وكذلك الاجتماع بنصب الخيام في التعزية مباهاة وافتخارا ، وقراءة القرآن بالكيفية الجاري العمل بها الآن في هذه المجتمعات ، وأخذ القراء الخبز والنقود أجرة على ذلك واتخاذ ذلك سنة وعادة . فليس من السنة ، ولا من عمل السلف الصالح، وانما شأنهم انهم كانوا يذهبون الى صاحب المصيبة في بيته لحمله على الصبر وعدم الجزع ، من غير اطالة مكث ، ويدعون لصاحب المصيبة بالصبر ، وللميت بالمغفرة والرحمة ، ثم ان الذي ينفع الميت انما هو الصدقة على روحه ، والدعاء له بالمغفرة والرحمة ، اما اهداء ثواب الفاتحة وغيرها مثل قراءة القرآن بغير الطريقة التي أخرجته الى حد الغناء فبعض العلماء رجح حصول الثواب الى الميت، وبعضهم قال بعدمه»

شيخ علماء الاسكندرية

مدرسة
دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١٨

أما نوبة الملاريا فلها ثلاثة أطوار : —

(١) طور البرودة — يشعر المريض بتعب وسآمة وصداع وآلام في الظهر وبرودة، وتبتدئ الرعدة فينكمش في فراشه ويرتجف جميع جسمه وتصطك أسنانه ويزرق وجهه وأنامله وينتصب شعر جسمه كما يحصل من شدة البرد أو الفزع ويصغر النبض ويسرع ويضطرب ويتوتر ، ويكون التنفس سريعا غير عميق

ويكون سطح الجلد باردا حقيقة ولكن إذا وضع مقياس الحرارة في الفم أو في الدبر أو تحت الابط رأينا الحرارة مرتفعة، فانها تبدأ في الزيادة قبل الرعدة بدقائق بل بساعة أو ساعتين أحيانا؛ وانما ينشأ الاحساس ببرودة سطح الجسم من انقباض أوعية الدم فيه

ويكون مقدار البول كثيرا ولونه رائقا وكثافته قليلة. ويستمر هذا الطور نصف ساعة أو ساعتين. وترتفع الحرارة بسرعة في آخره إلى ما بعد ٤٠° سنتيجراد

(٢) طور السخونة — يبدأ بالاحساس بالسخونة التي تعم الجسم كله فتزداد الحمى ، وتتمدد الشرايين ، ويتوتر النبض ويسرع ويمتلئ ، ويحتقن الوجه ، ويتصدع الدماغ . وفي بعض الحالات يهذي المريض أو يعتريه الذهول . ويكون البول في هذا الطور قليلا قاتما كثيفا. وكثيرا ماتظهر [النملة Herpes] حول الفم . ويستمر هذا الطور ٣ — ٤ ساعات

(٣) طور العرق — يبتدئ الجسم أولا بالعرق بعد شدة جفافه ويعم الجسم كله ثم يصير غزيرا ويستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاثا فيشعر المريض حينئذ بالراحة ويترطب لسانه ، وتنخفض الحرارة أولا بالتدريج ثم تسرع حتى تصير طبيعية

ويعود المصاب الى حالته الصحية الاولى . ويكون البول في هذا الطور كثيفا جدا وترسب فيه أملاح كثيرة من حامض البوليك

ولا تحصل جميع هذه الاطوار لكل مصاب ، بل قد تقتصر النوبة على واحد منها أو ثنين ، فمثلا قد يشعر ببرودة خفيفة تعقبها سخونة مدة ساعتين أو ثلاث ولا يحصل عرق ، وقد يبرد ويعرق ولا يشعر بسخونة، وقد يعرق فقط مع ارتفاع خفيف في الحرارة

أما الاطفال فيندر أن يحصل لهم رعدة بل يصابون بدلها بتشنج خفيف (قد لا يلاحظ) أو بتشنج شديد

وفي الاحوال المعتادة يكبر الطحال في طور البرودة والسخونة حتى قد يحس به تحت الضلوع

وتحصل أول نوب الحمى هذه إما في الصباح أو وقت الظهر ، أما النوب التي تليها فلا تكون دائما في وقت النوبة الأولى بل قد تتأخر عنها شيئا فشيئا حتى تحصل في المساء أو في الليل ، وقد تتقدم عنها شيئا فشيئا حتى تحصل قبل الفجر ، ويسمى النوع الاول بالمتقهقر والثاني بالمتقدم

والاحوال المعتادة من هذه الحمى غير مميتة في الغالب إلا للاطفال الصغار أو الشيوخ أو السقماء . وقد يتمدد الطحال منها حتى ينفجر وينسكب الدم في تجويف البطن ، وقد ينزف الدم في منسوج الطحال نفسه ويتكون فيه خراج فينفجر في تجويف البريتون . ومضاعفات مثل هذه الاحوال ليست بكثيرة ، وأشهرها النزلة الشعبية والرعاف والبول الزلالي والآلام العصبية فوق الحاجب

أما الاحوال الخبيثة المسماة [بالصيفية الخريفية] فلا تكون نوبها منتظمة ولا متقطعة الأحيانا قليلة تكون الفترة فيها قصيرة، ويقل حصول الرعدة للمصاب، وكثيرا ما يعتريه اليرقان والغثيان والقيء والاسهال ، حتى قد تشتبه هذه الحمى بالحمى التيفودية ، وقد تطول مدتها الى ثلاثة أسابيع وتنتهي كثيرا بالموت الذي يسبقه الهذيان أو الغيبوبة أو الاضطرابات الهضمية أو البول الزلالي أو النزف الدموي أو الهمود (الهبوط)

ومن الانواع التي يتأثر منها المجموع العصبي بشدة نوع يمتاز بطول الغيبوبة فيه حتى تمكث نحو ١٢ ساعة أو أكثر ويكون الشخص كأنه مصاب بنزف في مخه ، ومنها نوع يشتد فيه الهذيان والهيجان . وقد شوهد بعض أحوال يكون فيها المصاب كأنه ميت حقيقة فيقف تنفسه ويضعف نبضه وضربات قلبه حتى لا يمكن إدراكهما

واعلم ان هذه الحمى اذا تكررت نوبها جعلت الشخص سقيما عليلا مصفراً (لابادة ميكروبها للكريات الدموية الحمراء) ويعتريه الدوار وقلة الميل للطعام وآلام بالعضلات والمفاصل والضعف والاستسقاء ، و يضخم الطحال والكبد أو يكثر منسوجه الليفي ويتيبس ويضمر ، وقد يصاب الشخص بالجنون أو بالتهاب الاعصاب أو طنين الآذان أو الصمم أو فقدان الشم أو الذوق

التشخيص — إن أحسن الطرق للتحقق من تشخيص هذه الحمى البحث في الدم عن ميكروبها بواسطة المجهر . وليحترس من اعطاء الكينين للمريض قبل عمل هذا البحث فان هذا الدواء يذهب الميكروب من الدم . ويختفي الميكروب أيضا من الدم في الانواع الخبيثة وقت انخفاض الحرارة أعني في الفترات التي بين نوب الحمى ، وأحسن الاوقات لمشاهدته في تلك الانواع هو ان يبحث في الدم عند ابتداء النوبة وقت صعود الحرارة . أما في الانواع الحميدة فيكون الميكروب أكبر وأظهر في الفترات التي بين نوب الحمى

المعالجة — الغرض الذي يرمى اليه هو قتل الميكروب واخراج سمومه من الجسم وإراحة المريض مما يحدثه من أعراض الداء . وأحسن الادوية وأشهرها لقتل هذا الميكروب هو [الكينين Quinine] (١) وأشهر أملاحه الكبريتات ،

---

(١) هذه الكلمة مأخوذة من لغة أهل بيرو (Peru بامريكة الجنوبية ، ومعناها (القشر) لأن هذه المادة تستخرج من قشر شجرة « السنكونا Cinchona » وسميت هذه الشجرة بهذا الاسم لأن اميرة « شنكون Chinchon » زوجة حاكم بيرو عولجت بها من حمى فشفيت في سنة ١٦٣٨ وفي السنة التالية احضرتها الى اوربة ، وبعد ذلك ادخلها الجزويت الى رومية ، ولذلك سميت ايضا « قشر الجزويت »

وهي مادة بيضاء خفيفة شديدة المرارة قليلة الذوبان في الماء فتذوب فيه بنسبة ١ : ١٠٠ ولكنها سهلة الذوبان فيه باضافة أحد الحوامض اليه . ومقدار تعاطيها في اليوم ٢٠ — ٣٠ قمحة تقسم على ثلاث دفعات، والافضل أن تكون الدفعة الاخيرة قبل ميعاد حضور النوبة بنحو ست ساعات ، ولا مانع من اعطائها بعد طعام الفطور والغداء والعشاء ككثير من الادوية الاخرى . واذا قاءها المريض مزجت بقليل من الافيون أو حقنت في المستقيم أو تحت الجلد ، والافضل أن تحقن داخل عضلات الالية ، وأحسن الاملاح للحقن في الشرج أو تحت الجلد هو [هيدرو بروميد الكينين الحمضي] فانه سهل الذوبان في الماء ولا يتهيج منه المكان المحقون، وجرعته من قمحتين الى عشر أو ١٥ قمحة

و [اليوكينين Euquinine] وهو إتيل كربونات الكينين يكاد يكون عديم المرارة ولا يضر المعدة ولا الاعصاب ، ولذلك كان أحسن دواء للاطفال والنساء. وجرعته تختلف من ٥ الى ١٠ قمحات بحسب السن

ويجب الاستمرار على تعاطي الكينين مدة بعد زوال الحمى لان بعض الميكروبات قد ينجو من فعله ويختفي في الطحال ثم يعود الى الظهور ويكثر فيحدث النكس، فلذا يجب الاستمرار على تعاطيه بعد الشفاء بمقادير يعينها الطبيب (كخمس قمحات في اليوم) لمدة ثلاثة أشهر على الاقل

وهناك بعض أدوية أخرى نافعة في الملاريا ولكنها أقل قيمة من الكينين مثل مركبات الزرنيخ

وكثيرا ما يحدث من الكينين أعراض ضارة مثل طنين الآذان والصداع والصمم ، وقد تتقى هذه الاعراض بتقليل مقداره أو ابطاله مؤقتاً أو اعطاء حامض الهيدرو بروميك أو الجويدار لمنع الاحتقان الناشئ من الكينين

<u>الوقاية</u> — تكون (١) بردم المستنقعات و(٢) بإبادة البعوض وذلك بصب زيت البترول على المياه التي توجد فيها البويضات والعلق لقتلهما ، ويكون ذلك بنسبة أوقية لكل ١٥ قدماً مربعة من سطح الماء و(٣) باتقاء لذع البعوض بمثل الكلة (الناموسية) وخصوصاً بالليل وهو وقت لذع هذا النوع من البعوض في

الغالب و (٤) بدوام استعمال الكينين في الاقاليم التي تكثر فيها الملاريا (بمقدار خمس قمحات يوميا)

حمى البول الاسود Blackwater Fever

تحدث هذه الحمى في الاقاليم الحارة التي تكثر فيها الملاريا لمن أقام بتلك البلاد سنة على الاقل فأكثر أو للذين أصيبوا بالملاريا، ويقل حصولها لغير هذين السببين

بحث الاسباب تفصيلا – ذهب العلماء في حقيقة سبب هذه الحمى مذاهب أهمها –: (١) أنها نتيجة اصابة شديدة بالملاريا (٢) أنها ملاريا متضاعفة باصابة الكليتين (٣) أنها نتيجة ميكروب مجهول (٤) أنها ملاريا مع عامل آخر كتسمم الجسم بمثل الكينين أو بسُمّ مرض من الأمراض كالافرنجي وغيره، أو كالتعرض للبرد

الاعراض – تتقدمها آلام في الاطراف والدماغ وتوعك ثم رعدة فقيء صفراوي فبول أحمر أو أسود بسبب ذوبان مادة الكريات الحمراء فيه ويكون فيه زلال كثير، وترتفع الحرارة الى ٤٠° سنتجراد فأكثر ثم تنخفض قليلا بعد بضع ساعات، ثم ترتفع مع رعدة أخرى، وهلم جرا. ويصاب المريض بالبرقان، ويضخم الطحال والكبد ويتألم المصاب من جسمها

وفي الحالات البسيطة تزول الاعراض بعد نحو أسبوع، وأما في الشديدة فيستمر القيء ويقل البول أو يبطل افرازه ويصاب المريض بالغيبوبة أو الهمود ويموت وعدد الوفيات بهذا المرض هو من ١٦ الى ٥٠ في المئة

المعالجة – تكون بحسن التمريض والعناية بالمصاب والاكثار من شرب السوائل لادرار البول، وتعطى المنعشات المقويات للقلب، ولا يعطى المريض الكينين الا اذا وجد ميكروب الملاريا في الدم، وحينئذ يعطى أي ملح من أملاحه غير الكبريتات فانها تساعد على اذابة الكريات الحمراء، ويكون مقدار أي ملح قليلا متكررا

الدوسنطاريا الاميبية Amœbic Dysentery

قلنا ان الدوسنطاريا نوعان: نوع ينشأ من ميكروب نباتي (وقد سبق الكلام

عليه في صفحة ١٠٢ من الجزء الثاني من هذا الكتاب) والآخر ينشأ من ميكروب حيواني وهو المراد بالكلام هنا

وكلمة [أميبا An œba] يونانية معناها «التغير» تطلق على حيوين دقيق ذي خلية واحدة دائم تغيير اشكاله بما يرسله من جسمه في جميع الجهات من الارجل [الكاذبة[1] Pseudo odia] التي يتحرك بها حركة ذاتية ، وهو من أبسط الحيوينات المسماة [الحيوانات الاولى Protozoa]

يتسلق الانسان ثلاثة أنواع من الاميبا : (١) نوع يوجد في فمه اذا أصاب أسنانه النقد (التسويس) (راجع ص٦٨ من الجزء الاول) (٢) ونوع يسكن الجزء الأعلى من الامعاء الغلاظ ، والظاهر أنه لاضرر منه (٣) والثالث هو أميبا الدوسنطاريا هذه

وهذا الاميبا يشاهد في براز المصاب وفي المدة التي قد تتكون في الكبد[2] بسبب هذا المرض ، وأكثر وجوده يكون في المواد المخاطية التي يتبرزها المريض وقت اشتداد المرض أي في زمن حدته . قطر هذا الميكروب الحيواني هو من ٢٥ — ٣٥ ميكرونا ، أي ان حجمه كحجم ثلاث أو أربع كريات حمراء من كريات الدم . وهو يثقب الغشاء المخاطي للامعاء الغلاظ ويسكن تحته ويتكاثر ويحدث المرض وقد يصل الى الأوعية اللمفاوية أو الأوردة فيسير فيها

<u>اسباب الدوسنطاريا الاميبية</u> — يوجد هذا النوع من الدوسنطاريا في الاقاليم الحارة والمعتدلة كمصر ، ولا ينتشر بشكل وبائي كالنوع الآخر السابق . وتنتقل الاميبا بواسطة الماء الذي يتلوث ببراز المصاب أو بواسطة الاطعمة الملوثة به أيضا خصوصا الخضر . ويصيب المرض جميع الاجناس البشرية اذا تعرضت للعدوى وكذلك الصغار والكبار بلا تمييز بينهم ، غير أن الظاهر أنه يصيب الذكور أكثر من الاناث لقلة تعرض هؤلاء له من أولئك . ولهذا النوع أيضا حملة كالنوع الاول يوجد الميكروب فى أمعائهم ولا تحدث لهم أعراضه

<u>الاعراض</u> — لاتختلف أعراض هذا النوع كثيرا عن أعراض النوع الباسيلي

(١) سميت بذلك لانها ليست داعة بل تنبعث وتنقبض (٢) خصوصاً بعد فتح خراج الكبد هذا بثلاثة أيام حينما تنقبض جدره

الذي سبق ذكره الا في أشياء قليلة ، وهي أنه لا يكون ابتداؤه مفاجأة بل تدريجيا في الغالب ، وتكون مدته أطول فانه يميل لأن يكون مزمنا ، وتكون الحمى فيه أقل وكذلك الاضطراب العام وتكثر نكساته ولا يمنع ذلك من أن يكون أحياناً شديدا جدا ومميتاً بسرعة ، فترتفع الحمى ويقل البول ويكثر الزلال فيه . ومن الناس من توجد في أمعائه قروح ناشئة على هذا الميكروب ومع ذلك لا تظهر عليهم أعراض المرض ، ولكن ذلك قليل

المضاعفات — تحتقن الكبد أحيانًا وتلتهب وكذلك الكليتان ، ويندر حصول النزف المعوي في هذا الشكل. وأهم المضاعفات خراج الكبد الذي يكون غالبًا واحدا أو على الاكثر لا يزيد عن ثلاثة ، والسبب فيه وصول الميكروب الى الكبد بطريق الوريد الباب فيميت بسمه مفسوجه

ومن العقابيل ضيق الامعاء بسبب انقباض آثار القروح التي تحدث فيها

الانذار — يراعى فيه مسألة خراج الكبد وشدة الاعراض . ونخشى الكسة والإزمان . والفواق علامة سيئة في الحالات الحادة لانه ينذر غالبًا بقرب الاضمحلال والموت

المعالجة — لا تختلف عن معالجة النوع الباسيلي الا في نفع [عرق الذهب] وشدة تأثيره في هذا المرض ، وهو جذور شجرة في بلاد البرازيل بأمريكة الجنوبية ، في هذه الجذور مادة مقيئة تسمى لذلك باللغات الافرنجية [Emetine] ولكنها شافية لهذا الداء . والجرعة من مسحوق هذه الجذور هي ٢٠ — ٣٠ قمحة ، ويستحسن اعطاء قليل من الافيون أو أحد مركباته قبلها بنحو نصف ساعة ويستلقي المريض على قفاه ولا يعطى له شيء آخر سوى قليل من الثلج لمصه ، وذلك كله لمنع القيء الذي يحدث من الدواء ، وتتكرر الجرعة بعد ٨ أو ١٠ ساعات ، واذا كانت الاعراض شديدة أعطيت الجرعة ثلاث مرات في اليوم ، وبعد زوال أعراض الدوسنطاريا يكمل العلاج بمركبات البزموت والافيون ونحوها

ويفضل استعمال [الامتين emetine] حقناً تحت الجلد أو في داخل العضلات(١) بمقدار نصف قمحة مرة ليلا ومرة نهارا ، وعندما تتحسن الحال يحقن المريض

(١) ذلك أفضل لعدم إحداث ألم وورم وتيبس في مكان الحقن

مرة واحدة فقط في اليوم ، ولا يحدث القيء بهذه الطريقة كما يحدث من اعطاء مسحوق عرق الذهب نفسه بالفم . وهذا الدواء نافع أيضا في منع التهاب الكبد وخراجها لانه قاتل لميكروب الدوسنطاريا بسرعة عجيبة

والمعالجة بالامتين أو بعرق الذهب نافعة أيضا في الحالات المزمنة، واذا تعاصت حقن المريض أيضا بالمحاليل المطهرة أو القابضة في المستقيم ، ويكون مقدار الحقن نحو لتر من المحلول الدافئ

الوقاية — تكون بتطهير الماء بالغلي أو غيره ، وبالامتناع عن أكل الخضر وغيرها الا اذا طهرت ، وبابادة الذباب بقدر الامكان أو منعه من الوصول الى الطعام أو الشراب

الحمى الراجعة او ذات النكس Relapsing Fever

مرض معد شهير ينتشر عادة بشكل وبائي وليس له طفح مخصوص كبعض الحميات الاخرى وانما يمتاز بحصول حمى بضعة أيام تنتهي فجأة بعد نحو اسبوع ثم ترجع ثانية بعد مضي بضعة أيام وهكذا . وهي كثيرة الوجود في مصر وغيرها وقد كانت تنتشر بشكل مريع في السجون وغيرها حيث يكثر الازدحام

ينشأ الشكل المعتاد منها في مصر من ميكروب حيواني حلزوني الشكل اكتشفه [أبرمير Obermeier] في الدم سنة ١٨٧٣ وله أنواع يختلف بعضها عن بعض قليلا كما في بلاد الهند وأمريكة . طول هذا الميكروب يختلف من ١٦ — ٤٠ ميكرونا وعرضه ميكرون واحد . وهو يشاهد في دم المصاب بهذه الحمى بين كرياته لا في داخلها . ويقول بعض الباحثين انه يمكن مشاهدته في طور التفريخ قبل حصول الحمى بنحو ٤٨ ساعة، ويقول آخرون انه يشاهد أولا في اليوم الثاني للحمى ويكثر عدده كلما تقدمت الحمى ولا يقل إلا اذا بلغت الحمى أقصى شدتها وارتفاعها قبيل البحران ، فاذا انخفضت الحرارة لايشاهد الميكروب في الدم الى ان تقترب النوبة الثانية . وقد أمكن تلقيح الانسان والقرد بهذا الميكروب اذا حقن فيهما جزء من دم المصاب . وشاهد بعض العلماء أن الميكروب اذا اختفى من الدم ذهب الى الطحال وهناك تبتلعه بعض الكريات البيضاء وتقتله ، فلذا استنتج انه اذا أفلت بعضها من

القتل وعاد الى الدم تكاثر فيه فتنتكس الحمى

والاصابة بهذه الحمى لا تحمي الشخص من عودتها بعد زمن الا قليلا ولكنها تحمي غالبًا من الاصابة بالتيفوس . ومن الاسباب المهيئة للعدوى الفاقة والجوع والازدحام والقذارة . وذلك لانها تنتقل من شخص الى آخر بواسطة قمل الجسم فقد شوهد فيه نفس الميكروب ، وهو لا ينتقل الى الانسان بلسع القمل لجسمه، وانما ينتقل بطريقة أخرى، وهي أن المصاب بالقمل يكون كثير الحك لجسمه فيتسلخ جلده قليلا من أظافره أو غيرها فاذا سحقت قملة في أثناء الحك أو غيره كالنوم عليها وأصاب دمها بعض تلك الجروح التي بالجلد دخل منها الميكروب الى الدم وأصاب الانسان بالحمى . ويبقى الميكروب في جسم القملة مدة حياتها بل يصل الى بويضاتها (الصئبان) فتتلقح به أيضا ، ولذلك وجب الاحتراس من القمل والصئبان فانهما ينقلان هذه الحمى

وهي تصيب الانسان في جميع الاعمار ولا تميز بين الذكر والانثى الا قليلا فن نسبة المصابين بها من الذكور الى الاناث تكون عادة كنسبة ٣ الى ٢ وهي كثيرة الحصول للفقراء والشحاذين ونحوهم لكثرة ضعفهم ووجود القمل فيهم، وقل أن تصيب الاغنياء الا اذا صادفتهم قملة انتقلت اليهم من مصاب بها اقتربوا منه

وهناك نوع من هذه الحمى يحصل في أفريقية ينتقل من شخص الى آخر بواسطة القراد ولكن مدة هذه الحمى أقصر فانها تكون عادة يومين أو ثلاثة ، ويوجد أيضا ميكروبها حتى في بويضات القردان ، ويجوز أن ينتقل الى الجيل الثالث من نسله

الاعراض — يتراوح طور التفريخ بين يوم و١٦ يومًا ولكن في أكثر الاحوال يكون أقل من تسعة أيام . وتبدأ الحمى فجأة بقشعريرة أو برعدة يعقبها سريعا صداع في الجبهة وآلام في الظهر والاطراف . وبعد زمن يسير تزول القشعريرة ويخلفها احساس بحرارة في الجسم ويزداد الصداع والآلام المذكورة . وتكون درجة الحرارة في اليوم الاول ٣٩ أو أكثر فيضطر المريض الى التزام الفراش ويشتد به العطش والاقهاء وقد يعتريه الغثيان والقيء ويحتقن الوجه ويبيض اللسان وتزداد درجة الحرارة في الليل فتكون ٤٠ أو ٤١ وتنخفض قليلا في الصباح فتكون أقل بدرجة غالبًا

وقد تتكرر الرعدة ويكثر العرق . ويسرع النبض وكذلك مرات التنفس. ويعتري المريض في بعض الاحوال اليرقان الشديد حتى يتكون البول بلون المرة (الصفراء) وتكبر الكبد والطحال خصوصا وتظهر [النملة Herpes] أحيانا على الشفتين وقد يحصل رعاف (نزف من الانف) . وتستمر هذه الحالة الى نحو من أسبوع، ويقل نوم المريض ويشتكي كثيرا من آلام المفاصل والعضلات ولكنه يبقى حافظا لقواه العقلية إلى قبيل النهاية وعندئذ يعتريه الهذيان، وتشتد الحمى جدا حتى قد تصل إلى ٤٢ و ٤٩ وحينئذ تنفرج الازمة فجأة ويحصل البحران فيكثر العرق وتقل مرات النبض والتنفس وتنخفض الحرارة بسرعة ويشفى المريض غير أنه قد يعتريه همود خصوصا اذا كان شيخا، وقد يصحب البحران اسهال أو رعاف وتكون الحرارة أقل من الدرجة الطبيعية ثم يتحسن الحال بسرعة وتشتد شهوة الطعام وتعود قوة المريض في ثلاثة أيام أو أربعة . وبعد أن يظن أنه شفي تماما تعود اليه الحمى فجأة كما بدأت ويكون ذلك بعد مضي اسبوع تقريبا، فيصير المريض في عين الحالة التي كان عليها في المرة الاولى ، وبعد بضعة أيام تنتهي النكسة بالبحران أيضا . وقد ينكس المريض ثانية وثالثة ورابعة وكذا خامسة في النادر . ومن المرضى من لا ينكس البتة. وتكون مدة النكس في الغالب أقل من مدة المرض الاولى فتكون عادة أربعة أيام أو خمسة وقد تكون يومين أو ثلاثة ، وتكون النكسة في الغالب أخف وطأة من الحمى الاولى ولكنها أحيانا تكون أشد بل قد يموت منها المريض

واعلم أن جميع المدد المذكورة سابقا هي تقريبية فانها تتفاوت تفاوتا عظيما باختلاف الاشخاص فقد رأينا في السجون المصرية أن مدة الحمى الاولى قد تتراوح من يوم الى ثمانية أيام أو تسعة والفترة الاولى من يومين الى واحد وعشرين يوما ومدة النكسة الاولى من يوم الى عشرة والثانية من يوم الى سبعة وهلم جرا في الاختلافات العظيمة في مدة الفترات وأيام النكس، ومن المسجونين من نكس أربع مرات (١) وعدد الوفيات يختلف من ١٤ الى ١٨ في المئة ويحصل الموت عند اشتداد

(١) راجع تقرير جناب الدكتور (كرتون Kirton) رئيس القسم الطبي بمصلحة السجون المصرية عن سنة ١٩٠٧م

الكرب في الحمى الاولى أوعقب البحران مباشرة من الهمود خصوصا في الشيوخ كما تقدم . وقد يحصل الموت بسبب التسمم البولي والتشنج أو بالالتهاب الرئوي أو بالزحار أو غيره

ومن المضاعفات غير ماذكر ضخامة الطحال وتمزقه ، والحمرة بالاطراف السفلى ، والتهاب الغدد اللعابية أوتقيحها ، والتهاب العين الذي يعميها ، واجهاض الحبالى والنزف الرحمي الخطر

الجمعيات الاتحادية

لتكوين العصبية التركية

كتب بعض شبان العرب المتعلمين في مدارس الدولة العثمانية بالاستانة مقالات في الجرائد في موضوع هذا العنوان ثم رأينا في كتاب (ثورة العرب) الذي صدر بالعربية من عهد قريب كلاما مختصرا مفيدا في ذلك فنقلناه عنه لأجل الاعتبار به وإثبات مايحتاج الى الرجوع اليه من تاريخ هذا الانقلاب الخطر. قال المؤلف تحت عنوان (المعول الاتحادي العظيم) ما نصه :

أنشأ الاتحاديون جمعية تركية عظيمة سموها جمعية « ترك أوجاغي » — أي طائفة الترك أو العائلة التركية — وجعلوا غايتها محو الاسلام وتتريك العناصر العثمانية ومركزها في الآستانة ومصاريفها من تخصيصات وزارتي الاوقاف والداخلية ومن المشيخة الاسلامية أيضا وهي منتشرة في كل بلدة وقرية في الاناضول والقوقاس وتركستان وتراقية ومكدونية ولها أربعة فروع لكل منها مهمة خاصة به وهذه الفروع هي

أولا « ترك يوردي » — أي المملكة التركية — ومهمته العناية بالآداب التركية بطرق شتى أهمها « تطهير » اللغة التركية من الكلمات العربية وجعلها لغة مغولية بحتة وتأليف الكتب القومية بهذه اللغة وتعليمها في المدارس ونشرها في البلاد

التركية وكتابتها بحروف منفصلة لكي لا يبقى بينها وبين اللغة العربية أقل شبه (١)

ووظيفة أعضاء جمعية «ترك يوردي» مقاومة كل كاتب تركي أو غير تركي لا يرى رأيهم ولا يعتقد معتقدهم ونشر الكتب القوميـة والاناشيد الحماسية بين الترك وتدريسهم التاريخ التوراني القديم وافهامهم ان الترك أعظم أمة في العالم اختارتها الاقدار لسيادة الامم . وقد جرى لهم حوادث عديدة مع فريق من عقلاء الترك أنفسهم كملي كمال بك والدكتور رضا نور بك ولطفي فكري بك وغـيرهم فاتهموا هؤلاء بالخيانة وتهددوهم بالقتل وقالوا ان العنصر التركي يتبرأ منهم وانهم من أصل يوناني وانه لا وطنية لهم ولا قومية ولا شرف

ثانيا «ترك درنكي» — أي ثبات الترك — ومهمتهُ بث الفكرة القومية في الترك العثمانيين وغير العثمانيين بشكل لم يسبق له مثيل في تواريخ الامم (٢)

وأعضاء ترك درنكي من غلاة الاتحاديين وأشدهم كرهاً للعناصر ورغبة في تتريكها والقضاء على الفكرة القومية فيها . وهم على جانب عظيم من الهمة والنشاط ولكن الغرور أعمى أبصارهم وأسدل ستاراً من الجهل على عقولهم فكانت ثمرة نشاطهم

---

(١) المنار : قررت وزارة الحربية في عهد ناظرها أنور باشا استعمال الحروف المنفصلة في الامور العسكرية فقط ، ثم نقلت الينا الجرائد أخيراً ان الاتحاديين قرروا كتابة التركية بالحروف الافرنجية ولا ندري كيف ينفذون ذلك

(٢) المنار : اذكر ان هذه الجمعية تشتغل بتنقيح اللغة التركيـة وانها هي التي دعتني الى مجلس ادارتها في الاستانة لما بلغها ان بعض المسلمين كتبوا الي من جاوه انه بلغهم أن الدولة العثمانية تضطهد اللغة العربية وتصرح بانها تطهر التركية منها وانهم لا يصدقون هذا الخبر الا اذا أكدته أنا لهم وانهم حينئذ يحذفون اسم السلطان من الخطبة ، ولما اجتمعت بهم وتذاكرنا في المسالة قال لي رئيس الجمعية ان عملنا فني محض لا دخل له في السياسة ولا الدين فنتوسل اليك ان تستعمل بنفوذك الديني لازالة التهم السيئة التي حومت حوله . وجرى بيننا محاورة ليس هذا محلها

شراً على الدولة ووبالا (١)

ثالثاً: ترك بلكيشي — أي العلم التركي — ومهمة أعضائه ترجمة الكتب العلمية الى اللغة التركية القديمة ونشر هذه اللغة بين الترك وبث الفكرة القومية التركية في تركستان والقوقاس وربطهما بدولة الاتحاديين برباط سياسي متين

رابعا «ترك كوجي» — أي القوة التركية — ومهمته العناية بصحة الترك وتقوية أجسامهم ونشر الالعاب الرياضة بينهم.

ويشترط للدخول في جمعية «ترك اوجاغي» أو في احد فروعها ان يكون طالب الدخول تركيا وان يدفع رسماً شهريا وان يتعهد ببذل حياته ونشاطه وماله لاعلاء شأن الترك وبسط سيادتهم على الامم الاخرى وان يغير اسمه باسم توراني يعرف به بين أصحابه فمن كان اسمه انور مثلا صار يعرف اليوم بين أصحابه باسم ايشلداق — أي أنور بالتركية القديمة — ومن كان اسمه محمداً أو سليما أو حسيناً أو سعيداً صار اسمه اليوم تيموراً أو جنكيزا أو هلاكوا او اوغوز الخ

وقد بدّل كل الضباط الاتحاديين أسماءهم بأسماء تورانية وكذا رجال الحكومة الحالية لانهم كلهم من جمعية «ترك أوجاغي» ويعرفون بين أصحابهم الترك بأسماء تورانية غير أسمائهم التي يعرفهم بها غير الترك.

وقد أنشأت جمعية ترك أوجاغي وفروعها أندية عديدة في جميع المدن والقرى التركية لتدريس تاريخ الترك القديم ولا سيما تاريخ هلاكو وأوغوز وجنكيزخان وبث الفكرة التركية في الامة التركية وجعلها تعتقد بتفوقها على الامم الاخرى في كل شيء. وعينت هذه الجمعية ثلاثة أيام في الاسبوع لتعليم النساء التركيات التاريخ القديم وبث الفكرة العنصرية فيهن وحملهن على العناية بتربية أطفالهن تربية قومية تركية. وتبرعت وزارة أوقاف المسلمين أخيراً بخمسين ألف ليرا عثمانية لجمعية «ترك أوجاغي»

---

(١) بلغ منهم الغرور مبلغا لا يتصوره العقل فبينما كانت جيوش البلقانيين امام شطلجه تهدد كيان الدولة كان أحدهم — أحمد أغايف بك — ينشئ سلسلة مقالات في جريدة تصوير أفكار جاء فيها ما ترجمته «يجب ان تهتم تركيا بشؤون ايران أعظم اهتمام لان ايران طريقنا الى الهند والصين!»

لاجل تأليف تواريخ مفصلة لهلاكو وواغوز وجنكيز وتيمورلنك

وأندية « ترك أوجاغي » محرم دخولها على غير الترك فكل من يود ان يدخل اليها يجب عليه ان يظهر للبواب ورقة عليها اسمه ورسمه وتاريخ ولادته وقد سعت جمعية ترك أوجاغي أخيراً في ترجمة القرآن الكريم الى التركية القديمة مع خطبة الجمعة والادعية الدينية وغيرها مما يوجب الدين الاسلامي تلاوته باللغة العربية وعزمت على نزع أسماء الصحابة من الجوامع لاعتقادها أن وجود هذه الاسماء العربية في الجوامع والاماكن المقدسة مما يضعف الفكرة القومية في الترك

وليست المدارس العثمانية رشدية كانت أو اعدادية ملكية أو عسكرية الا فروعا من فروع جمعية « ترك أوجاغي » وكذلك جمعية الاتحاد والترقي وجميع الجمعيات السياسية والعلمية والدينية والادبية التي تأسست في الآستانة والاناضول قبل الحرب الاوربية وبعدها

وقد أدخلت الحكومة في برنامج مدارسها العالية ولا سيما المدرسة الحربية ومدرسة اركان الحرب في الاستانة درس تاريخ التورانيين وعلومهم الحربية وآدابهم ونظاماتهم وعهدت الى احمد اغايف بك وأمين بك وخالد ضيا بك وحمد الله بك في إلقاء محاضرات يومية في هذه المواضيع على تلامذة المدارس الحربيـة ومدارس الحقوق والطب والهنـدسة وغيرها وترسيخ الفكرة التركية في نفوسهم . واستعاض التلامذة في جميع المدارس الابتدائية والاعـدادية والعالية من الكتب العصرية بمجموعة « ترك يوردي » — المماكة التركية — وكتاب ترك قليجي — السيف التركي — وتاريخ توران وتاريخ تيمورلنك وهلاكو وجنكيز خان وغيرهم .

وفي كل يوم يجتمع تلامذة المدارس الحربية في ساحات مدارسهم و يستلون سيوفهم وينشدون نشيدهم الوطني الذي يبتديء بهذه الابيات :

جنـكز خانك بايراغي آلي شانلي صانلاندي
آيت خانك بايراغي حربده بويله اكلاندي

أي : لقد تموجت أعـلام جنكيز خان في جو المجد والشرف وأرشدتنا أعلام آيت خان الى نهج هذا الطريق المجيد في الحرب . الخ

والاغرب من هذا كله الدعاء الجديد الذي الفته جمعية « تورك يوردي » وجعلت الترك يستعملونه في منازلهم ومدارسهم، وقد قررت أخيرا استعماله في الجوامع في الاستانة والاناضول وهذه ترجمته :

« أيها الاله القادر على كل شيء أنعم على الترك بالصحة والعافية وأحسن اليهم بذئب أبيض (١) واشملهم برعاية مولانا السلطان الاعظم

« وأنت يامملكة توران الجميلة المحبوبة ارشدينا الى الطريق المؤدية اليك لان جدنا اوغوز الكبير ينادينا

« ايها الاله القادر على كل شيء انر طريق توران أمامنا واجعل امتنا كالورد الناضر واهدنا الصراط المستقيم »

﴿ الاناشيد الحماسية في الجيش ﴾

أما الجيش العثماني فمعظم ضباطه وجنوده الترك من الاتحاديين ومن المنتسبين الى جمعية ترك أوجاغي وهم يحتقرون الضباط والجنود من أبناء العناصر العثمانية الاخرى ولا يسمون الدولة الا الدولة التركية وينفرون من تسميتها الدولة العثمانية لاعتقادهم ان البلاد العثمانية غير التركية ليست الا مستعمرة فتحها الترك بالسيف .

وهذا نموذج من الاناشيد الحماسية التي يترنمون بها في الجيش :

بزتركزسن تركلكه امانتسك

هيج قورقمه هب اولورسنى ويرميز

أي: نحن ترك وأنت (ياآسيا) أمانة بيد الترك فلاتخشي شرا لاننا نفديك بارواحنا

اي ترك كنجي يتيشير ارتق أويومه

قوش كويلينك امدادينه دورمه

أي : أنهض ايها الفتى التركي فقد نمت طويلا وأسرع في الحال الى امداد بلاد اجدادك

جنكيز خانك بايراغي انلى شانلى صانلاندي

ايت خانك بايراغي حربده بويله اكلاندى

(١) الذئب الابيض اله من آلهة الترك الاقدمين وقد كان شعاراً لهم أيضا

وقد سبقت ترجمته

انتقامى آله مزسك تركلك بزه نافله

صوصتزه لم بايقوشلرى يتيشر بو ولوله

أي : لا يحق لنا ان ندعى اتراكا ما لم ننتقم من أعدائنا . فلنسكت اليوم عن نعيقه وليكفنا ماسمعناهُ من الضجيج والنحيب

يور ييالم ايلرى يه اتلاية لم طاغ تبه

باطلاتالم بومبالرى جانلر كيرسون يرلره

أي : هلموا إلى الامام فتنبسط امامكم الجبال والاكام وتتفجر قنابل الديناميت وتفغر الارض فاها لابتلاع النواقيس والاجراس

آل بايراغك التنده انا آرم يورودى

كوك بايراغك التنده يكى توران بيودى

أي لقد سار اجدادنا الى المجد تحت العلم الاحمر الذي هو مصدر عظمة توران الجديدة

يورين طاغلر اينسين التون اردوشان ويرسون

آل بايراق ! يانغينلر اوزرنده يوكسلسك

أي : سيروا لتنبسط الجبال وتكسبنا جيوش التاي [١] الشرف فان مجدنا سيشاد تحت العلم التركي على الانقاض والحرائق

بزايغورز دونميز قوناغمز طاغ اوه

تركز بزمدراسيا تركز تركز هيمز

أي : نحن سعداء فلا نرجع عن سيرنا الى الامام لان مسكننا الجبال والبطاح نحن ترك وآسيا كلها لنا نحن اتراك اتراك كلنا

﴿ كيف يعلمون الامة ﴾

هذا نموذج من الاناشيد التركية الوطنية التي يترنم بها الترك في ميادين القتال على مسمع من جنود العرب وضباطهم

(١) اسم الجبل آلتون طاغ الذي يعده الترك التورانيون بلادهم الاصلية

والى القراء نموذج من الخطب والدروس التي يلقيها على التلامذة العثمانيين في مدارس الدولة اساتذة من أعضاء جمعية « ترك اوجاغي » عينوا برواتب باهظة لتتريك ابناء العناصر العثمانية :

قال استاذ التربية العسكرية في المدرسة الحربية في الاستانة في درس القاه على صف الضباط بعد اعلان الحرب العثمانية بايام ماخلاصته [أي خلاصة ترجمته] :

« اود ايها السادة أن القي عليكم كلمة في غاية الاهمية بمناسبة الحوادث العظيمة التي وقعت في الغرب فاظهرت لنا معاشر الترك امورا لم تخطر في بالنا من قبل وعبرا ينبغي أن نعتبر بها . فان البلجيك الصغيرة تجاسرت على محاربة المانيا العظيمة ووقفت بجيش لا يزيد على مئة الف جندى امام أعظم جيش ذكره تاريخ بني البشر فحالت دون القضاء على حليفتها فرنسا . لذلك لا يسعنا نحن الترك أعداء البلجيك إلا ان نطأطىء رؤوسنا اجلالا لها واحتراما لجيشها الباسل . ولكن اتعلمون ايها الاصدقاء لماذا وقفت البلجيك تيار الجيش الالماني العظيم ؟ وقفته لانها كانت تحاربه باسم القومية و باسم الوطن . او تعلمون لماذا عظمت فرنسا وانكلترا والمانيا وسدن العالم وصرن اعلى أمم الارض مقاما واكثرها ثراء ؟ لانهن خضن معترك الحياة باسم القومية لا باسم الدين . فعلينا ايها الاعزاء ان نظهر من الآن وصاعدا امام العالم بصبغة القومية المقدسة وان نضرب بالعصبية الدينية عرض الحائط

« نحن أيها السادة أتراك واني لأعجب من تسميتنا عثمانيين . فمن هو عثمان الذي ننتسب اليه ؟ انه تركي جاء من آلتاي واجتاح هذه البلاد بجيشه التركي . فانتسابنا الى أصله أشرف من انتسابنا اليه . ولقد خدعنا بجهل أسلافنا في الماضي فبئس الاسلاف الذين أنسونا قوميتنا انكم أيها الاعزاء ستلتحقون بالجيش قريبا وستكونون أساتذة جنودنا الابطال . فعلموهم أنهم ترك وانهم اذا حاربوا العدو من أجل الترك وتحت العلم التركي ينتصرون عليه و يحرزون ما أحرزته البلجيك من المجد والفخر . وتأكدوا أن التركية خير لنا من الاسلام وان التعصب للجنسية من أكبر فضائل الهيئة الاجتماعية »

فأجابه أحد ضباط العرب قائلا : « تعلم أيها القائد ان للامم الشرقية تقاليد

لا يمكن الاغضاء عنها وقد حفظت الجنسية العثمانية هذه التقاليد وكفلت سلامة الدولة الى الآن. فتتريك العناصر العثمانية أو انكار قوميتها عليها يؤدي الى اضمحلال الدولة في القريب العاجل. فأنا أحتج على هذا الكلام وأقول بكل صراحة ان الرابطة الاسلامية العثمانية هي الرابطة الوحيدة التي تربطنا بالترك. ولما كنت حضرتك تعلمني الآن ان هذه الدولة دولة تركية وان هذا العلم الذي عهدت الي في الدفاع عنه هو علم تركي أي علم أجنبي عني فقد قضيت على قوتي المعنوية قضاء مبرمًا وأخمدت كل عواطفي الوطنية لاني أنا وأبناء العرب وجميع أبناء العناصر غير التركية لانحارب في جنب الترك الا لمقاصد متحدة وذباعن حياض الاسلام والعثمانية.»

فأجاب القائد قائلا: «اعلم أن الحقيقة غير العواطف وأنك وان تكن عربيا فأنت وعنصرك من تبعة تركيا. ألم يستعمر الترك بلادك؟ ألم يفتحوها بالسيف؟ ان العثمانية التي تتخذها حجة لك هي حيلة اجتماعية يستعملها الضعيف للوصول الى غايته. أما الدين فلا شأن له في السياسة، وسننهض قريبا باسم التركية وتحت العلم التركي ونترك الدين جانبا لانه من الامور الشخصية الثانوية، أما أنت وأبناء جنسك فعليكم أن تعرفوا انكم ترك وأنه ليس في العالم قومية عربية أو وطن عربي» (١)

وقد احتج ضباط العرب الذين سمعوا هذه الخطبة الى وزارة الحربية وطلبوا منها عزل القائد الاستاذ فلم تعبأ باحتجاجهم ولا أجابتهم الى طلبهم بل اتخذت التدابير اللازمة للتخلص منهم فقذفت بهم الى ميادين القتال وعرضتهم لرصاص العدو بلا سبب الا رغبتها في محوهم ليتسنى لها بعد ذلك قتل الفكرة القومية في بلادهم. وهذه الرغبة — رغبة قتل العرب — قديمة العهد في الترك الاتحاديين. فقد عثر ضباط العرب سنة ١٩١٢ في بولاير على كتاب من أحد زعماء الاتحاديين الى قائد اتحادي كبير جاء فيه «عرضوا العرب لرصاص العدو واعملوا على التخلص منهم لان قتلهم يفيدنا. أما الكرد فاحتفظوا بهم لانهم يلزمون لنا في بلاد الارمن» (٢)

(١) جرت هذه المناقشة على مسمع مئات من ضباط العرب في المدرسة الحربية في الاستانة وقد نقلها الينا غير واحد منهم فعربناها للقراء اه من هامش الاصل

(٢) نشر هذا الكتاب في حينه في معظم الصحف العربية اه من هامش الاصل

رحلة الحجاز

٣

﴿ باخرتا الحجاج – المنصورة والنجيلة ﴾

استأجرت الحكومة للحجاج باخرتي (المنصورة والنجيلة) وهما من أقدم سفن شركة البواخر الخديوية — وأما المحمل المصري فقد حمل مع أميره وعسكره على سفينة حربية انكليزية — ولما كنا آخر من جاء السويس من الحجاج علمنا من أصدقائنا الموظفين في هذا الشأن ان المنصورة أسرع الباخرتين وأنه لم يبق في الدرجة الاولى منها موضع لي وللسيدتين لأن وفد العلماء المرسل الى الحج على نفقة سلطان مصر المعظم قد ركب المنصورة قبل مجيئنا وتسابق اليها الناس وقد يوجد فيها موضع واحد لي ، وان النجيلة تفضل المنصورة بأنها أقل منها نودانا وانه يمكن أن نجد في الدرجة الاولى منها بيتا أومخدعا (قمره) خاصا بنا. فنزلنا فيها مع رفيقينا في يوم الاحد لأربع بقين من ذي القعدة ، وقد علمنا بعد سفرها أنها أبطأ بواخر الدنيا سيرا قيل لنا انها تقطع ثمانية أميال في الساعة ولعلها لا تتم الستة الا بالجهد ، وهي قديمة وسخة ليس فيها ضوء كهربائي ولا أجراس ولا مقاعد للاستراحة الا كراسي المائدة في الدرجة الاولى، ولكن المخدع الذي خصص لنا فيها واسع جدا قلما يوجد في البواخر الكبيرة مثله في سعته وهو معد لنوم ستة أو سبعة ، وفيه عدة نوافذ. ثم أن ربانها سالم افندي البدن من أحسن الناس أخلاقا وعناية بالحجاج ، وهو من أقدم المستخدمين بهذه البواخر وقد حج مرارا ، وطبيبها مهذب حسن المعاشرة وهو طلياني يتكلم بالعربية العامية بطلاقة ولهجته فيها سورية ، فنشكر لهذين الرئيسين في الباخرة حسن عشرتهما وعنايتهما بنا خاصة وبسائر الحجاج أيضا ، ولا نبخس خدم الباخرة حقهم من الثناء على حسن خدمتهم . ولعل باخرتنا كانت تفضل المنصورة فيما عدا سرعة السير. وقد زارنا في الباخرة قبل سفرها محافظ السويس ثم صار الى المنصورة لزيارة وفد العلماء السلطاني فيها

﴿ حجاج باخرتنا النجيلة ﴾

وأنسنا في الباخرة بصحبة كثير من ركاب الدرجتين الاولى والثانية وحمدنا صحبتهم وعشرتهم وأخص بالذكر منهم عالما من أكبر علماء القطر المصري وأديبا من أفضل أدبائه . أما العالم فهو الاستاذ الشيخ عبد الفتاح الجمل شيخ علماء بور سعيد وقد كنت أسمع له ذكرا حسنا فرأيته فوق ما كنت أسمع علما وفضلا وهديا وأدبا وانصافا في المذاكرة واستقلالا في الفهم ، وله مشاركة حسنة في التاريخ والادب ومعرفة أحوال العصر ، ولعله يندر وجود مثله في علماء مصر . وأما الاديب فهو محمد توفيق علي (اليوزباشي) في الجيش المصري ، وهو يفضل من نعرف من أدباء مصر وضباطها في الاخلاق الدينية والمحافظة على العبادات ، وكثرة النظم في ذم الفواحش والمنكرات . وقد كان معه والدته وهي امرأة تقية زكية الفطرة واتفق ان كان مخدعهما ملاصقا لمخدعنا فكانت والدتي وشقيقتي تأنسان بأمها بهما وصحبتها لها ، وهي أقل منهما دوارا ، واكثر على مشقته البحر اصطبارا ، وقد حجت قبل هذه المرة . وكذلك كنت أنا آنس به ، فقد كنا أكثر الرفاق تلازما قلما نفترق لا في وقت النوم ، وكان أكثر حديثنا وسمرنا أول الصحبة في الشعر والادب وأقلهما في المسائل الدينية والعلمية والشؤون الاجتماعية ، الا اذا حضر المجلس الاستاذ الجمل فان الحديث يكون بعكس ذلك ، كما كان في أواخر العهد بالصحبة

وقد وزعت بعض نسخ المناسك على حجاج الباخرة قبل أن أقرأها وأصحح أغلاطها و بعضها بعد ذلك ، ولما علم الناس أنها بغير ثمن كثر الطلب لها حتى من الاميين فصرت أشترط على من يأخذها من القارئين ، ان يقرأها لمن يجاوره من الرفاق الأميين ، وكان انتشارها في المركب سببا لكثرة اختلاف الحجاج الينا للسؤال عن أحكام النسك ولاسيما واجبات الاحرام

كان سفرنا من مصر في أول الميزان وقد بدأ هواء الخريف المعتدل يطرد هواء الصيف الحار ويجليه عن أفق مصر ، وكأن ما كان يرحل منه عن مصر يذهب الى الحجاز ليحل محل هواء صيفه الذي هو أشد منه حرارة ، لذلك كنا كلما اوغلنا في الجنوب نشعر بأن جونا يرجع بنا القهقرى الى الصيف فكان عامة من في السفينة لا

يكادون يبرحون ظهرها الا الى حاجة غير النوم اذ كان جميع ركاب الدرجة الثالثة ينامون على الظهر وكذلك بعض ركاب الدرجة الثانية، وكان جل ركاب الدرجة الثالثة من أدنى طبقات المصريين قد دعهم الى الحج دعا ماكان من عناية الحكومة ببعث حجاج يحجون وحملها الاغنياء على مساعدة الفقراء على الحج بالمال، فوق ماكان من تسهيل سائر الاسباب، فكان أكثرهم يقطعون أوصال الليل باللهو واللعب، والغناء والطرب، ومنه ما يسمونه في اصطلاح أهل الطرق بالذكر، وهو ان يقف جماعة يتذون ويرقصون ويصيحون بأصوات منكرة: أُهْ أُهْ، أو: هو هو، أوحي حي، على صوت مغن يغنيهم ببعض الاغاني الحديثة أو الاشعار القديمة، فيكونون بذلك من الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، وأقبح اللهو وأنكره وأقربه من غضب الله وأبعده عن مرضاته ما جعل دينا، فهؤلاء الذين يسمون أنفسهم ذاكرين لله يظنون أنهم خير من الذين يتغنون ببعض الاغاني لاجل التسلي عن فراق الاهل والولد مثلا، وما ذلك اللهو الذي سموه ذكرا الا معصية، وما هذا اللهو الا ظنوه حراما أو مكروها الا مباح، ولهم في ذكرهم هذا شر مكانا ممن قال فيهم بعض العلماء

اقال الله حين عبدتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

ولذكرهم هذا دون الذكر مع الغفلة أو الغيبة الذي قال فيه الشيخ محيي الدين ابن العربي

بذكر الله تزداد الذنوب وتنطمس البصائر والقلوب

ومن مظاهر الدين الباطلة في هؤلاء العوام ما كان يمثله رجل منهم شر تمثيل: كنا نسمع كل ليلة صوتا منكرا أجش ينادي به صاحبه السيد البدوي بألقابه المشهورة في هذه البلاد، ويكثر من ذلك ويلح فيه بعد نوم الناس، متنقلا على ظهر السفينة من مكان الى مكان، وكثيرا ماكان يقف بالقرب من بعض نوافذ مخدعنا فيزعج السيدتين وينغص عليهما نومهما، ولما تكرر ذلك منه بحثناعنه فاذا هو بزي أهل الطريق المتصنعين الذين يراءون الناس بالعمائم وثيابهم وحركاتهم وأصواتهم، فتلطفنا في وعظه واقناعه بترك ذلك الصياح ولكنه أقل منه ولم يتركه البتة.

هذا واننا لما حاذينا رابغ آذن ربان السفينة الحجاج ببلوغ ميقات الاحرام فطفقوا يحرمون، واننا نرجئ الكلام على الاحرام الآن لنذكره في هذه الرحلة مع

غيره من أعمال المناسك متصلا بعضها ببعض ، ونسترسل في وصف السفر فنقول :

(الوصول الى جده)

وصلت المنصورة الى ثغر جدة ضحوة يوم الاربعاء وهو التاسع والعشرون من ذي القعدة ولم يلبث ركابها أن نزلوا منها، وأما باخرتنا النجيلة فوصلت عشاء ليلة الخميس فلم تستطع التقدم الى موقف البواخر من الميناء لكثرة الصخور الخفية هنالك فأرست في مكان بعيد عنه ، وانما دخلت الميناء وأرست فيه ضحوة يوم الخميس فكان تأخر ركابها عن ركاب أختها ٢٤ ساعة ، والسفن تُرسى على بعد شاسع من البر في ذلك الثغر لرقة الماء وكثرة الصخور، فلما رأت الوالدة والشقيقة ذلك عراهما الغم لان الدوار يشتد عليهما في الزوارق الصغيرة ذات الشرع أو المجاذيف ويؤلمهما طول المسافة فيها ، وخافتا أن لا تصلا الى البر الا بحالة لا ترضيهما، ولكننا لم نكد نستعد للنزول الا وكان صديقنا الكريم الشيخ محمد نصيف وكيل سيدنا الشريف الاعظم صاحب الحجاز[1] قدجاء الباخرة في زورق كهربائي أو بخاري (لنش) مع جماعة من سراة جدة وكبرائها لاجل استقبالنا، وقد أخبرونا بعد السلام انهم قد نزلوا أمس للسؤال عنا في باخرة المنصورة، ثم اننا بعد استراحة الزائرين نزلنا وأنزلنا معنا في الزورق ما خف من متاعنا وصغر حجمه وأرسلنا ما بقي في مراكب النقل الشراعية — وكان الرفيقان الشيخ خالد ومحمد نجيب افندي قد نزلا في بعضها ، — فسار بنا الزورق كالسهم فوصلنا بغاية الراحة ، ونزلنا ضيوفا مكرمين في دار صديقنا الكريم الشيخ محمد نصيف ، وهي دار فسيحة واسعة الحجرات كثيرة النوافذ ، تفيض عليها الشمس أشعتها من الشرق والغرب، ويتخلل النسيم حجراتها من كل مهب ، فهي فى الذروة من دور جدة ، وكان الهواء معتدلا فى هذا الثغر ، لا يشتكى برد منه ولا حر، وقد بلغني الصديق المضيف تحية سيدنا الشريف، وصدور أمره العالي اليه بالعناية بنا ، وكان قد بلغ الديوان الهاشمي العالي موعد وصولنا كما بلغه مندوبه بمصر خبر سفرنا بالبرق ثم بلغ مضيفنا بمكة خبر وصولنا بالمسرة (التلفون) وتكلمت به مع

(١) يعلم القراء ان هذا وقع قبل مبايعة اهل الحجاز للشريف بالملك ونشر الرحلة بعد المبايعة لا يقتضي استعمال لقب الملك فيما يحكى فيها عما كان قبل ذلك

اخواننا محرري جريدة القبلة . وفي صبيحة اليوم التالي ورد على مضيفنا في البريد من المقام الهاشمي الاعلى رقعة شريفة هذا نصها :

نومرو ١٩٥

وكيل شرافة مكة المكرمة وامارتها بجده

معتمدنا الأعز

كتابك رقيم ٢٧ الجاري وصل وعلم مآله لاسيما من خصوص السيد رشيد رضا فقد أرسلناقبله و بتاريخه كان قصدنا نشعرك بالاستعداد لمقابلته بما يقتضي له من الحفاوة وللمعلومية تحرر

٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٣٤ شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

لم نكد نستقر في الدار الا وأقبل الزائرون المهنئون يفدون علينا أفرادا وجماعات وفي مقدمتهم الشيخ مصطفى فهمي معاون نائب الحضرة الهاشمية في جده جاء بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن سيادة رئيسه الشريف محسن معتذرا عنه بالاشتغال بشؤون المحمل المصري . وقد تذكرنا فتذاكرنا بعد التحية والسلام، فيما كان من تلاقينا أول مرة منذ بضعة أعوام ، ذلك اني زرت سورية عقب اعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٧ فأقمت فيها أشهرا ثم عدت الى مصر على سفينة فرنسية من شركة المساجري واتفق ان كان في هذه السفينة مصطفى بك فهمي هذا قاصدا بور سعيد للسفر منها الى الحجاز فرأى اسمي بين ركاب الدرجة الاولى ولم يرني على مائدتها ولا على ظهرها مع الركاب لانني أصبت بدوار خفيف لزمت لاجله مخدعي ولم يكن معي أحد فيه ، فسأل عني فدل علي فالتقينا وتعارفنا ، قال لي إن سيادة أمير مكة الجديد سيدنا الشريف حسين طلبني لأكون كاتب السر له — وكان موظفا بولاية حلب في عمل لا أذكره الآن — وانني لما علمت بوجودك هنا رغبت في لقائك واغتنام الفرصة في الاستفادة من رأيك فيما ينبغي لبلاد الحجاز من الاصلاح في عهد الدستور فان أميره الجديد لا بد ان يوجه همته الى إصلاح عظيم في هذه البلاد المقدسة وأنت أولى من يستشار برأيه في هذا الامر ... فذكرت له ما خطر في بالي في ذلك الوقت القصير من وسائل حفظ الأمن ونشر العلم وإصلاح حال البدو وسكة الحديد الحجازية ، وتواعدنا على المكاتبة في كل ما يتجدد من الشؤون بتجدد الاعمال ،

وقد بدأ بالوفاء بوعده بعد وصوله الى مكة المكرمة بمدة وجيزة فكتب الي كتابا ذكر فيه انه عرض ماسمعه مني من الآراء على سيد الجميع فصادف القبول والارتياح ، وقد أجبته بما اقتضته الحال ، وكان من غرائب عهد الدستور انني أرسلت اليه كتابا مسجلا فيه كلام يتعلق بخدمة الدولة وتمكين سيادتها في البلاد العربية فأعيد الي هذا الكتاب ولم توصله اليه ادارة البريد التركية ولا يزال عندي وقد وعدته باطلاعه عليه عند ما التقينا في جده لأنه كان في أوراقي ولكن لم يتيسر لي اخراجه في ذلك الوقت

أقمنا في جده من ضحوة يوم الخميس الى أصيل يوم السبت ولم أخرج من الدار في هذه المدة الا الى صلاة الجمعة في أقرب المساجد اليها، وقد سمعنا خطيب المسجد يدعو للسلطان محمد رشاد في خطبته كالعادة. ولم أرد الزيارة لأحد لان الزائرين كانوا لا يكادون يفارقوننا الا وقت النوم ، وكان جل حديثنا معهم في المسائل الدينية والعلمية ، والعبرة الاجتماعية والسياسية ، وانما اختلست منهم ساعات متفرقة كتبت فيها نبذة من التفسير للمنار ومكتوبات أرسلتها الى مصر

كنت أتمنى لو ملكت وقتا أرد فيه الزيارة للزائرين الكرام فلما غلبت على الوقت قلت لعلي أملك بعد العودة من مكة المكرمة مالا أملكه الآن ، ولكن وقت العودة كان أضيق كما يعلم في محله، ولذلك طلبنا من صديقنا ان يكتب الينا أسماءهم لنؤدي لهم الشكر بالكتابة ، جزاء ما استحقوه علينا من الزيارة ، فكتب الينا زهاء ثلاثين منهم وهم الذين تذكرهم فمن أهل العلم منهم الاساتذة الشيخ محمد حسين ابراهيم والشيخ محمد لزهره والشيخ أحمد طه رضوان والشيخ اسحق بن حسن العباسي والشيخ محمد سعيد دردير خطيب مسجد عكاش ،

ومن رجال الحكومة عدا من ذكرنا مدير الشرطة مساعد اليافي ومدير الصحة الدكتور امين معلوف وقائد حامية الثغر عبد الرؤف عبد الهادي ورئيس كتاب الحجر الصحي رشيد باغفار ومحمد راغب الصنعاني من الكتاب ، وحسين ملوخية مأمور نقل البريد، وكل هؤلاء يطلق عليهم لقب الشيخ للتكريم، وقد أعجبني من الدكتور معلوف وعبد الرؤف ومساعد زيهم العربي فكانوا به أبهج في عيني منهم في زيهم الافرنجي التركي

ومن كبراء الوجوه والتجار في الثغر الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية والمشايخ زينل علي رضا وعبد الله علي رضا ومحمود زاهد ومصطفى درويش عبد ربه ومحمد بن احمد الهزاز ومحمد باحفظ الله وعبد الله المحمد الفضل ومحمد العبد الرحمن الفضل

ومن أصحاب الحرف ووكلاء الاعمال المشايخ حمزه جلال نقيب وكلاء المطوفين وحسين بحيري من المطوفين وبكر وخميس وسليمان عزابه من وكلاء المطوفين ومحمد سعيد كيال شيخ السماسرة وعبد الرحمن فائق من كتاب شركة البواخر العثمانية

فنشكر لهؤلاء ولسائر من تفضلوا بزيارتنا (كالشيخ عبد الرؤف الصبان من طلبة دار العلوم المصرية وقد فاتنا ذكره مع علماء جدة) مودتهم وفضلهم، وقد علموا ما حال دون ما كنا نبغي من زيارتهم، وان التقصير من الزمن لا منا، والعذر عند كرام الناس مقبول

﴿ عبرة للمعتبرين * وجناية المفسدين على المصلحين ﴾

أظهر لي صديقي المضيف سروره وارتياحه لرؤيته إياي بثوبي الاحرام (الازار والرداء) وقد أثار عجبي وحزني أنه ظن أن من المحتمل أن أترخص بترك لباس الاحرام اعتمادا على الفدية. وقال لي لو رأيتك لابسا ثياب الحل لعزمت عليك أن لا تنزل جدة الا بلباس الاحرام، لئلا يظن بعض الناس انك من قبيل هؤلاء المتهاونين الذين يجيئون هذه البلاد غير محرمين بحج ولا عمرة، وذكر لي شيئا يسيرا مما علمته بعد ذلك تفصيلا من حال بعض الشبان الذين جاؤا الحجاز ودخلوا مكة المكرمة نفسها، وكأنهم لا يعرفون شيئا من مكانتها، ولا حق بيت الله وشعائره فيها، فدخلوها غير محرمين، ومروا ببيت الله تعالى غير طائفين ولا مصلين، وترددوا بين الصفا والمروة غير ساعين ولا مرملين، فكانوا مضغة في أفواه الحجازيين، ومثالا مشوّها لشبان المدنية العصريين، وحجة قاطعة لألسنة الذين يلغطون منهم بتكفير الاتحاديين، لانهم يساوونهم في ضلالتهم، وهدمهم لشعائر ملتهم، ولكنهم يقصرون عنهم في الغيرة والاخلاص لأمتهم، والتفاني بخدمة دولتهم، وبذل النفس والنفيس في احياء جنسيتهم

لقد احزنني وامضني وساءني وآسفني ماقاله هذا الصديق الذي أعتقد أنه ما أحبني في الله تعالى الا لاجل اعتصامي بديني وغيرتي عليه، ودعوتي الى احياء كتابه وسنته. وقلت في نفسي يا سبحان الله ! اذا كان مثل هذا المحب الحسن الاعتقاد قد بلغ

سوء تأثير بعض اولئك الشبان في نفسه أن تصور ذهنه في مثلي جواز دخول جدة بغير ثياب الاحرام ولو على سبيل الرخصة، والقيام بما يجب بدل ذلك من الفدية، فكيف يكون رأيه واعتقاده فيمن لا يعرف لأحد منهم حظا من علم أوعمل، ولا يحفظ لاحد منهم في قلبه بعض ما يحفظ لي من الظن الحسن ؟

وقلت له محاولا كتمان أسفي ومكابرة امتعاضي: لوكان هذا اللباس (لباس الاحرام) مستحبا لاواجبا لما تركته تهاونا ولا إيثارا لما في اللباس المعتاد من الحشمة أوالزينة أو الرفاهة، وأنا أرجوأن اكون من أعلم الناس بفوائده واحرصهم على ادراكها بالعمل، ولو تركته لما استطعت انت ولا أحد من الناس ان يقنعني بإتيانه، لانني لاأتركه — لو تركته — الالعذرشرعي ملجىء، كأن اعتقد أنه يضر بصحتي ضررا يجعل الواجب محظورا، وأكون بلبسه عاصيا لله تعالى لا طائعا. وأما نظرالناس فلاأبالي به في أمر الدين، وأعوذ بالله ان أكون من المرائين، بل تعودت — ولله الفضل والمنة — ان لاأتصنع للناس ولا ادهن لهم ولا أتحرى مدحهم ولاأخاف انتقادهم في المصالح الدنيوية والامور العادية بحيث يحملني ذلك على ترك شيء أراه حقا أومصلحة أوفعل شيء أراه باطلا أومفسدة.

وأقول مستطردا إنه قد عاداني كثير من الناس في هذا الخلق وآذوني لأجله ولم أوذ أحدا منهم، وأرى انني غير مغبون معهم، وأن هذا الخلق خير لي من مودتهم ولاسيما من أعرف منهم سوء النيـة، وفساد الطوية، ولكن يسوءني أنه لا بد ان يوجد في أمثال هؤلاء من هو حسن النية يُخدع بالشبهة أو يقلد غيره فيما لاعلم له به، وأنه يعسر العثور على هؤلاء، والتناصف معهم باقتناع كلامنا بحسن نية الآخر واخلاصه، ورجوع المخطىء الى رأي المصيب ان ظهر صوابه، وعذره إياه فيما لم يظهر له. ولم اذكر هذا التفصيل كله للصديق وانما خطر في بالي عند الكتابة ان بيانه مفيد لأن مثله يقع لكل صادق مستمسك بعروة الحق لا يحابي ولا يداهن الناس فيه.

ومن دقائق هذا البحث ان الانسان كثيرا ماتغشه نفسه وتخدعه بتسمية العجب والكبر والاصرار على الهوى اعتصاما بالحق وصلابة فيه وقلة اكتراث بالمبطلين، فينبغي للمخلص في اعتقاد نفسه ان يمتحن نفسه ويناقشها الحساب فيما يعاب به وينتقد منه، وهذا أمر عسير غير يسير، اذ يقل في الناس من يبلغ من يحب ما ينتقده

هو أو غيره عليه و يطلعه على عيوب نفسه ، كما يقل فيهم من يسلم من غيبة صديقه . واكثر مايبلغ الناس من الانتقاد عليهم اوانتقاصهم، ماينقل اليهم عن خصومهم واعدائهم، وقل من ينظر في مثل هذا نظر الروية والانصاف فيستفيد منه ، وانما يستحوذ على الاكثرين عند سماعة ثوران الغضب وخواطر الدفاع أو الانتقام . واحمد الله تعالى أن وفقني في ريعان الشباب واوائل العهد بالرشد الى حمل اصدقائي على ارشادي الى عيوبي ومكاشفتي بما يرونه أو يسمعونه من الانتقاد علي ، ولا ازال أسأل عن ذلك من أتوسم فيه النصح وان كان اصغر مني سنا واقل تجربة ومعرفة، واني لاحوج الى نصيحة واحدة استعين بها على اصلاح نفسي ، من سبعين مسألة استعين بها على إصلاح غيري . وقد توجد هذه النصيحة عند عامي يزيد ماعندي من العلم والاختبار على ماعنده منهما سبعين ضعفا ، فيكون أعلم مني بما أنا احوج اليه مما أفضله به

واما ما اكتبه فانني أطالب الناس بالانتقاد على مايرونه منه خطأ أو باطلا ، أطالبهم بذلك كتابة بما انشره في المنار كل عام ،وكل مايكتب الي من ذلك أنشره في المنار على حسب الوعد الذي أعد به عند طلب الانتقاد، فان تعمدت اغفال شيء — وذلك نادر جدا — فانما أغفله لتكريم غيري، لا لإخفاء عيبي ، ولا اذكر من ذلك الآن الا رسالة ارسلها الي صديق مخلص من اشهر علماء الاقطار هفا فيها هفوات تزري بقدره لو نشرت ونقدت وان تلطف الناقد جهد الطاقة ، و بالغ في الادب حتى بلغ حد الاستطاعة ، فرأيت من الوفاء له ان اراجعه فيها ، واستأذنه بنشرها بعد التنبيه لما فيها، فلم يأذن . من أجل هذا أعتقد كما يعتقد جمهور قراء المنار أن آية الاخلاص في انتقاد ماينشر فيه ان يكتب و يرسل اليه، لا أن يقال أو ينشر في غيره من الصحف، فان نشر النقد في المنار نفسه هو الوسيلة لتمحيص الحقيقة عند من اطلعوا على الكلام المنتقد فيه، وانما فائدة الانتقاد عند المخلص فيه بيان الحق والصواب لمن ينتقد عليه باطله اوخطأه ، ولمن اطلع على ذلك وخشي ان قد يكون قد ضل به وهم قراء كلامه، وأما انتقاد ذلك في بعض البيوت او الاندية او الصحف التي لا يطلع اكثر قرائها على مايدعي المنتقد انه باطل وضلال فهو إذاعة للباطل ضارة لايحمل عليها الا هوى النفس ، وذلك من شأن المرائين المفسدين ، لامن شأن الصادقين المصلحين ،

وقد ذكرني ماقاله الشيخ محمد نصيف في مسألة الاحرام والسبب الحامل له على هذا القول ما انبأني به اخي في الله عز وجل العلامة الشيخ محمد مكي بن عزوز التونسي في الاستانة سنة ١٣٢٨ قال رحمه الله تعالى ماحاصله : كتب الي أحد اخواني من علماء تونس بعد العلم بتلاقينا هنا : اننا نعرف قيمة السيد محمد رشيد رضا العلمية ومقاصده الاصلاحية من مناره ... ولكننا نرى بعض الذين يلهجون بطلب الاصلاح حتى الديني منه لاتنطبق أعمالهم على اقوالهم فهم لايؤدون فرائض الدين ولا يقيمون أركانه فضلا عما دونها من آدابه واحكامه ، فكيف رأيت صاحب المنار، بعد المعاشرة والاختبار؟ قال فكتبت اليه بعض مارأيت ومنه ان زيارته الاولى لي في داري كانت بعد العصر فصلى صلاة العصر عندي وكنت قد صليتها قبل قدومه منفردا فأعدتها مقتديا به ، فلم أر صلاة أكمل انطباقا على السنة من صلاته . وزرته مرة مع بعض الاخوان فقدم لنا الشاي ولم يشرب معنا لانه كان صائما . اه

أليس من آية ضعف الدين ، وابتلاء الصادقين بالمنافقين ، وغمة الامر على المؤمنين ، ما دار من المكاتبة بين العالمين التونسيين في الصلاة والصيام، ومن الحديث بيني وبين محمد نصيف في مسألة لباس الاحرام ؟ بلى واني تذكرت في هذه اللحظة مسألة اخرى من هذا القبيل اذكرها اتماما للعبرة

دخلت مرة على الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد في نهار رمضان فرأيت عنده ابراهيم بك المويلحي جالسا يدخن بلفيفة من التبغ (سيكارة) فذكر المنار ومنع الحكومة الحميدية إياه من دخول البلاد العثمانية فجعل المويلحي يرميها بالجهل ويقسم ان المنار خير لها من فيلق من العسكر لما فيه من خدمة الدين الذي لاتنهض الامة بدونه، وأطنب في مدح الدين وتأثيره في الاصلاح وعدم الرجاء في نهضة المسلمين بدون مايدعو اليه المنار من الاصلاح الديني. علم بهذه الواقعة ابراهيم بك الهلباوي فاشار اليها في مقالة ارسلها الى المؤيد من أوربة يذكر فيها بعض عبر السفر، مستطردا الى العبرة بها على سبيل التشبيه والمثل، قال في وصف رجل — على ما أذكر — : كذلك الرجل الذي كان يكلم صاحب المنار في مدح الدين ... في شهر رمضان ولفيفة التبغ بيده يدخن بها. — اوما هذا مؤداه — ففهم بعض الناس من عبارته ان الذي كان يدخن هو صاحب المنار المخاطب لا المتكلم

الذي يخاطبه، وان كان المتبادر من العبارة العكس وهو الذي يجري عليه الكتاب عادة في مثل هذه المسألة ، اعني أنهم لا يصرحون باسم من ينتقدونه في مقام الاعتبار، فاذا صرح احدهم باسم المنتقد عليه أو بوصفه بما يعرف به لهوى له وقصد الى ذمه، لا تواتيه الجرائد المعتبرة (كالمؤيد) ولا تنشر ذلك له، فلو ان صاحب المؤيد فهم من العبارة ما فهمه بعض الناس او خطر في باله انه قد يفهم منها ذلك لتصرف فيها بما يحول دون هذا الفهم

بلغني و بلغ صاحب المؤيد رحمه الله ذلك في وقته فلم نحفل به ، وقال هو ان هذا الفهم لا يخطر الا ببال بعض العوام ، وهو لا يؤثر أدنى تأثير في سمعة صاحب المنار حتى عند من لا يعرف مكانته من هداية الدين، واذا كتب شيء لايضاح الحقيقة ربما كان سببا للقيل والقال. ثم علمنا ان هذا الفهم قد سبق الى اذهان بعض الناس في نائي الاقطار: جاءتني يوما برقية من بمباي الثغر الهندي المشهور من محمد باشا عبد الوهاب شيخ دارين أحد ثغور نجد الجنوبية يقول فيه انه مسافر الى السويس في باخرة كذا بقصد الحج، فلما كان موعد وصول الباخرة رأيت من المروءة أن أذهب الى السويس للقائه وان لم أكن أعرفه أو أعرف عنه شيئا من قبل، فوافيته فيها وكان معه جمهور من العرب ومسلمي الهند جاء بهم ليحجوا على نفقته. فقدم لنا لفائف التبغ (السكاير) على حسب العادة فاعتذرت، فعرضوا عليّ النارجيلة (الشيشة) فاعتذرت أيضا. فسألني الباشا عن السبب فقلت انني أكره هذا الدخان وقد حفظني الله تعالى من اعتياد التدخين في الصغر، فلا أتكلفه بعد العلم بضرره في الكبر. فقال اذاً أنت لم تدخن في حياتك قط. قلت الامر كما ذكرت ، فالتفت الى أصحابه وذكرهم بما دار من الخلاف في عبارة الهلباوي وكيف ظهر ان الصواب ما قاله من نزه صاحب المنار عن ان يكون هو المفطر في رمضان . على ان المسألة مسألة مجاهرة بالفطر ، وهي أفحش من الفطر في السر ، لما فيها من سوء القدوة ، وانتهاك الحرمة ،

بعد هذا الاستطراد الطويل أقول ان بعض شباننا الذين أفسدت المدارس التركية أو الافرنجية عقائدهم ، وشوهت حرية الكفر والفسق أخلاقهم وآدابهم ، ولم يكن لديهم من التجربة والخبر، ولا من حكم العقل وصحة الفكر، ما يفرقون به بين الحجاز و بين الاستانة ومصر ، لم يقفوا عند حد ترك الاحرام ، قبل دخول

البلد الحرام ، وترك الطواف والصلاة والصيام ، بل تجرأ احدهم على التصريح بالاعتراض على القرآن. وتجرأ آخر على الطعن في بعض الخلفاء الراشدين، بل على ما هو أكبر من ذلك من الضلال المبين ،

من اجل هذا صار بعض الحجازيين يسيء الظن بجميع افراد هذه النابتة الجديدة و بعضهم يجعل سيرة هؤلاء الغاوين، حجة حتى على من ظهرت عدالتهم من الوافدين، أما طبيعة الحرم بل طبيعة جزيرة العرب، فلا تطيق الصبر الطويل على إلحاد الملحدين، ولا على توسيد الاعمال الى الفساق المجاهرين، وأما ماعدا الجزيرة من البلاد العربية فستحذو نابتتها حذو النابتة التركية ، وان فيها من يود تقليد جمعية الاتحاد ، في السياسة والعصبية والالحاد، ولكن آمالهم أدنى من آمالهم ، ومآلهم شر من مآلهم ، فانهم لا يرجون ان يكون لهم دولة كالدولة العثمانية يغلبون على أمرها، و يعتزون بقوة مالها وقوة جندها، وسيظهر حالهم ومقصدهم ، وما يكون من تأثيره في بلادهم وأمتهم.

تقريظ المطبوعات الجديدة

كتاب الحرب الاوربية — أو فلسفتها —

لا أعرف أحدا من العامة ولا من الخاصة يصدق جميع ما ينشر في الجرائد من أخبار الحرب والسياسة ولا أكثره ، وانما يصدق اناس ما يوافق عقولهم ، وآخرون ما يوافق أهواءهم . وأهل البصيرة يعلمون ان أصحاب الجرائد في بلادنا لا يعرفون جميع الحقائق التي يعرفها أصحاب الجرائد في أوربة ، وانه لا يباح لهؤلاء ولا لأولئك ان ينشروا كل ما عرفوا ، فان ما ينشر في الجرائد في هذه الحال يراد به عند جميع الامم ما يترتب عليه من التأثير، لا تمحيص الحقائق ولا تدوين التاريخ ، وانما يرجى ان تدون الحقائق بعد الحرب بسنين ، بأقلام أركان الحرب وأحرار المؤرخين . وأجدر الناس باظهار الحقائق في كل زمن هم الحكماء ورجال الاصلاح الاجتماعي والتحقيق التاريخي، واذا قلت ان (غوستاف لوبون) هو أشهر حكماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ في هذا العصر لا أكون مبالغا، فانه قد اشتهر في الشرق كما اشتهر في الغرب بما تُرجم من كتبه الاجتماعية باللغات الشرقية ككتاب تطور الامم وكتاب

روح الاجتماع ، وبما كتبه في تاريخ أعظم أمم الشرق ، ككتاب حضارة العرب وكتاب حضارة الهند . وقد كتب كتابا في فلسفة هذه الحرب بين فيه مناشئها النفسية، وأسبابها الخفية والجلية، وكيفية تولدها ونمائها وسيرها في كل أمة من الامم المتقاتلة، وكونها معلولة لعلل خفية ماكان في استطاعة أحد أن يحول دون ترتبها عليها، ولم تكن بارادة دولة من الدول ولا ملك من الملوك، خلافا للكثيرين الذين غلطوا في ذلك . ومن مباحث الكتاب بيان انقلاب الطرق الحربية والعواطف التي توقظ داعية الحرب ، وتأثير الاغلاط النفسية والحربية فيها ، وايقاظها للشعور الديني ، والطرق الحربية الالمانية وتأثيرها ، ونتائج الحرب المجهولة وعقبات الصلح ، وغير ذلك من الفوائد ، مستنبطا مسائله وقواعده من الوثائق الرسمية ، وأجدر الاخبار بالثقة

مثل هذا الفيلسوف الكبير يكتب ما يعتقد ، وقد بدأ التمهيد الذي جعله مقدمة للكتاب بقوله : « ليس غرضي من هذا الكتاب درس حوادث الحرب الاوربية وإنما الذي أرمي اليه استقصاء الظواهر النفسية التي أدت اليها والتي رافقتها منذ نشأتها ، فان تدوين وقائعها بانصاف واخلاص ليس بميسور لنا اليوم . وان الاهواء لا تزال متسلطة على نفوسنا ، ولا يتسنى للاجيال التي تخلق التاريخ أن تدونه . ولا بد من فترة تمر بعد انتهاء المآسي البشرية حتى يتمكن الانسان من اكتشاف سرها وادراك حقيقتها ، فان التاريخ لا ينصف الا الموتى »

ومن أراد أن يستفيد من هذه الحرب علما وفلسفة وعبرة وبصيرة فعليه بهذا الكتاب وهو قد ترجم بالعربية وطبع في مطبعة الهلال

﴿ كتاب ثورة العرب — مقدماتها وأسبابها ونتائجها ﴾

ألف هذا الكتاب عضو من أعضاء بعض الجمعيات العربية ، هو سوري أقام في الآستانة عدة سنين وفي مصر عدة سنين لا عمل له الا الاشتغال بالسياسة ، والاقطاب التي تدور عليها مباحث الكتاب تنحصر فيما يأتي :

الحرب الاوربية والشرق. المسألة الشرقية وفروعها . المسألة العربية وأدوارها . العرب والترك في الماضي . العرب والاتحاديون . تأليف الجمعيات العربية وأسبابه . المؤتمر العربي الاول ونتائجه . نيات الاتحاديين ومعداتهم ؛ الاتحاديون والاسلام

والعرب ، تفاقم الخطب ، انفجار البركان . المبايعة بالملك على العرب . مستقبل العرب.

ما من مسألة من مسائل هذا الكتاب الا ولدينا علم تفصيلي فيها. وقد قرأت نبذا متفرقة منه لاقف على منهاج مؤلفه فيه ، فظهر لي مما قرأت ومما أعلم من أخلاق المؤلف وآدابه أنه اجتهد وتحرى الحق فيما كتبه بحسب ما وصل اليه علمه وفهمه مما رأى وروى ، ومما سمع وقرأ . ومما بينه في كتابه أن أذكياء العرب قد ألجأتهم سيرة الاتحاديين وسيرهم بالدولة والاحداث التي حدثت في عهد دستورهم الى تأليف الجمعيات والاحزاب للمحافظة على مقومات أمتهم وترقيتها في عهد الدستور في ظل لدولة العثمانية مع الاخلاص لها والحرص على دوام الارتباط بها. وقد صدق . نقلنا في هذا الجزء فصلا من فصول الكتاب وربما ننقل عنه غيره ، وقد بلغت صفحاته ٢٤٦ صفحة من قطع المنار وثمن النسخة منه عشرة قروش صحيحة

﴿ المذابح في ارمينية ﴾

كتيب للشيخ فائز الغصين بين فيه مارآه بعينيه وسمعه بأذنيه من رجال الحكومة الاتحادية الطورانية وضباطها من حوادث واخبار الفتك بالارمن . والكاتب من أبناء رؤساء عشائر العرب في حوران تخرج في مكتب الدولة الملكي بالاستانة وانتظم في سلك حكومتها الادارية، وقد كان حظه من تنكيل حكومته بأمثاله من نجباء العرب النفي الى أرضروم ، ولكنه سجن في ديار بكر بضعة اشهر وهي قطب الرحى لتلك الاحداث وفيها وفي طريقها رأى وروى مادونه في كتيبه من الفظائع التي تقشعر منها الجلود ، ثم تيسر له الفرار الى البصرة ثم الى الحجاز فمصر وغرضه من الكتاب تبرئة الاسلام والمسلمين من قتل احد بغير حق ولا سيما النساء والاطفال و بيان ان تبعة مذابح الارمن في أعناق الحكومة الاتحادية دون سواها.

﴿ الكنز المفقود ﴾

قصة خيالية كتبت ببعض اللغات الافرنجية وترجمتها بالعربية الكاتبة المشهورة (ماري نجار) وغاية مؤلفها منها بيان شأن المرأة المهذبة وان جمال المرأة وذكاءها وثروتها لا تغني عنها شيئا اذا لم تكن مقرونة بالتهذيب. ولذلك قدمتها المترجمة الى الصحف العربية التي يعنى أصحابها «برفع شأن المرأة ومساواتها بالرجل وتشجيعها على رفع صوتها والسماح لها بنشر أفكارها على صفحاتها» وصفحات القصة ٢٣٥ من القطع الصغير وثمن النسخة منها ٥ قروش.



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٢٩ جمادى الآخرة ١٣٣٥ — ٥ الحمل (را) ١٢٩٥ هـ ش ١٨ ابريل ١٩١٧

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٥٠) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ
لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥١) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى
رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥٢) وَلَا تَطْرُدِ
الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ
حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ
مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٣) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ

ان الآيات الاربع التي قبل هذه الآيات قد بينت أركان الدين وأصول العقائد وهي توحيد الله عز وجل والرسالة أو وظيفة(١) الرسل عليهم الصلاة والسلام والجزاء على الاعمال . وقد جاءت الآيتان الاوليان من هذه الآيات بعدهن مفصلتين لما فيهن من بيان وظيفة الرسل العامة بتطبيقها على خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وازالة أوهام الناس فيها، ومن بيان أمر الجزاء في الآخرة وكون الامر فيه لله تعالى وحده، على الوجه الذي يزيد عقيدة التوحيد تقريرا وتأكيدا، وبيانا وتفصيلا . وذهب الرازي الى ان هذا من بقية الكلام على قوله (٣٨ وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه) وما قلناه أظهر. وقد بدئت الآية الاولى بالامر بالقول على ما علمنا من أسلوب هذه السورة في بيان المسائل التي يتعلق بها التبليغ فقال عز وجل

﴿ قل لا أقول لكم: عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ﴾
أي قل أيها الرسول الذي لم يبعث الا كما بعث غيره من الرسل مبشرا من أجاب دعوته بحسن الثواب، ومنذرا من ردها سوء العقاب، لهؤلاء الكفار المشاغبين لك بغير علم يميزون به بين شؤون الالوهية وحقيقة الرسالة، الذين يقترحون عليك من الآيات الكونية ما يعلمون ان البشر لايقدرون عليه، لأنهم — وان قالوه تعجيزا — يتوهمون ان الرجل من البشر لا يكون رسولا الا أن يخرج من حقيقة البشرية ويصير إلهـا قادرا على ما لا يقدر عليه البشر وعالما بكل ما يعجز عن علمه البشر، وإن لم يكن من موضوع الرسالة التي عهد اليه أمر تبليغها، أو يصير ملكا من الملائكة في متعلق قدرته ومتناول علمه، لان أمر الرسالة في خيالهم ينافي البشرية التي حقروها في أنفسهم جهلهم وسوء حالهم وفساد أعمالهم — قل لهؤلاء : لا أقول لكم عندي خزائن الله أتصرف بما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشؤون المخلوقات، فالخزائن جمع خزينة أو خزانة وهي ما يخزن فيها الشيء من يريد حفظه ومنع غيره من التصرف فيه، (ولله خزائن السموات والارض) يتصرف فيها كما يشاء، ولا يقدر أحد من خلقه على التصرف

(١) نستعمل كلمة الوظيفة بمعناها العرفي وهو عمل المرء الدائم الذي تكلفه إياه الدولة وما في معناها فيسمى القضاء وظيفة والكتابة وظيفة وانما الوظيفة في الاصل الراتب الذي يعطى للعامل أو غيره وهذه التسمية مجازية علاقتها اللزوم

في شيء منها الا ما أعطاه تعالى إياه ومكنه من التصرف فيه . والمتصرف بما يعطى من الخزانة لا يكون متصرفا في الخزانة نفسها . فالمستخدمون عند الملك أو الرجل الغني يعطون أجورهم من خزانته فيتصرفون فيها دون الخزانة ، وجميع الاحياء العاملين يتصرفون بما يعطيهم الله تعالى من خزائن الموجودات ، كل بحسب ما أوتي من الاستعداد ، في دائرة ارتباط الاسباب بالمسببات . ولا يقدر ان يتجاوز ذلك الى مالم يؤته ولم يصل اليه استعداده ، فالتصرف المطلق في كل شيء إنما هو لله القادر على كل شيء ، وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول — المبلغ عن الله تعالى أمر دينه — قادرا على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف في المخلوقات بالاسباب ، فضلا عن التصرف الذاتي بغير سبب الذي طلبه المشركون منه ، وجعلوه شرطا للايمان له ، كتفجير الينابيع والانهار من أرض مكة وايجاد الجنات والبساتين فيها ، واسقاط السماء عليهم كسفا ، والاتيان بالله والملائكة قبيلا ، وغير ذلك مما اقترحوه وحكاه الله تعالى عنهم في سورة الاسراء وغيرها .

بدأ بنفي القدرة على التصرف فيما ليس من شأن البشر التصرف فيه لعدم تسخير الله تعالى إياه لهم باقدارهم على أسبابه . وثنى بنفي علم الغيب الخاص بالله تعالى فقال « ولا أعلم الغيب » أي ولا أقول لكم إني أعلم الغيب وهو ما حجب الله علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به ككونه مما لا تدركه مشاعرهم الظاهرة ولا الباطنة لانها لم تخلق مستعدة لادراكه ولا لطرق الاستدلال عليه أو لانها مستعدة له بالقوة غير متمكنة من أسبابه بالفعل كعالم الآخرة . فالغيب من جنس المعلومات ، كخزائن الله من جنس المقدورات ، يراد بهما ما اختص بالله تعالى فلم يمكن عباده من علمه والتصرف فيه أي لم يعطهم القوى ولم يسخر لهم الاسباب الموصلة الى ذلك .

والغيب قسمان غيب حقيقي مطلق وهو ماغاب علمه عن جميع الخلق حتى الملائكة وفيه يقول الله عز وجل (قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله) وغيب اضافي وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر ، وأما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه

واستعمالهم لها ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الاسباب او عجزهم عن استعمالها فلا يدخل في عموم معنى الغيب الوارد في كتاب الله ، وهذه الاسباب منها ما هو علمي كالدلائل العقلية والعلمية ، فان بعض علماء الرياضيات وغيرها يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس ، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعه بالالوف من الاعوام ، ومنها ما هو عملي كالتلغراف الهوائي أو اللاسلكي الذي يعلم المرء به بعض ما يقع ما في أقاصي البلاد وأجواز البحار التي بينه وبينها ألوف من الاميال، ومنها ما قد يصل الى حد العلم من الادراكات النفسية الخفية كالفراسة والإلهام — وأكثر هذا النوع من الانكشاف لوائح تلوح للنفس لا تجزم بها الا بعد وقوعها — فما يصل منها الى حد العلم الذي يجزم به صاحبه لاستكمال شروطه يشبه ما ينفرد بادراكه بعض الممتازين بقوة الحاسة كزرقاء اليمامة التي كانت ترى على بعد عظيم ما لا يراه غيرها ، أو بقوة بعض المدارك العقلية كالعلماء الذين أشرنا اليهم آنفا . وأظهر شروط هذا النوع من الادراك قوة الاستعداد الفطرية في النفس لذلك وتوجه النفس الى المدرَك توجها قويا لا يعارضه اشتغال قوي بغيرها من المدركات ، وكثيرا ما يقع هذا في حال مرض عصبي أو انفعال نفسي قوي يحصر همّ النفس كله فيه . وقد تقدم في تفسير (٩ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) من هذه السورة في هذا الجزء كلام نفيس في هذه الادراكات الخفية الخاصة ، ومن الناس من يعدها من خوارق العادات لخفاء أسبابها عنه ، ويردها انها مما يكثر ويتكرر حتى صار معتادا من أهله الكثيرين المختلفين في الملل والنحل والاخلاق والآداب، وما كان كذلك لا يكون من الخوارق كما قال محيي الدين ابن العربي . ولكنا مع هذا نقول ان بعضه يصح ان يسمى كرامة كما يعلم من تفسيرنا للآية التاسعة من هذه السورة

فان قيل قد علمنا ان الرسالة الالهية لا تتوقف على إقدار الرسول على التصرف في المخلوقات من غير طريق الاسباب التي سخرها الله للناس لأن موضوعها علمي تعليمي فهي عبارة عن تبليغ ما علمه الله للرسول بوحيه اليه وليس من موضوعها تغيير شيء من خلق الله، ولذلك لم يعط الله تعالى احدا من رسله قدرة على هداية أحد

بالفعل، قال تعالى لخاتم رسله (ليس عليك هداهم ولكن يهدي من يشاء — وقال له — انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) ولو كان لهم شيء من التصرف في الخلق لجعله نوح نبي الله في هداية ولده، وابراهيم خليل الله في هداية ابيه آزر، ولكن علم الغيب من موضوع الرسالة فان اصل موضوعها رؤية الملائكة والتلقي عنهم وذلك من عالم الغيب الذي أمرنا بالايمان به اتباعا للرسول (ص) الذي رأى بعينيه وسمع بأذنيه ووعى بقلبه ، وقد اثبت تعالى علم الغيب المتعلق بالرسالة للرسل عليهم السلام فقال في آخر سورة الجن ، (٧٢ : ٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا ٢٧ الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ٢٨ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا) فكيف أمر رسوله ان يتنصل في هذه الآية من ادعاء علم الغيب، وأن يستدل على ذلك بعد نفي التصرف بقوله في أواخر الاعراف (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير و بشير لقوم يؤمنون) ؟

نقول (أولا) ان مايظهره الله تعالى عليه الرسل هو من الغيب الاضافي لا الحقيقي المطلق الذي لم يؤت احدا من خلقه الاستعداد لعلمه ، و (ثانيا) إن اظهاره تعالى إياهم على شيء خاص من هذا الغيب لا يجعل ذلك داخلا في علومهم الكسبية فان الوحي ضرب من العلم الضروري يجده النبي في نفسه عند ما يظهره الله تعالى عليه فاذا حبس عنه لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية اليه كما يعلم مما ورد في فترات الوحي وهو مقتضى الاجماع على ان النبوة غير مكتسبة . نعم قد كان يكون توجه قلب الرسول الى الله تعالى عند بعض الحوادث مقدمة لنزول الوحي في الحكم الذي استشرف اليه وتوجه الى الله تعالى ليبينه له كما يرشد اليه قوله تعالى (٢ : ١٤٣ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) الخ وكذلك رؤية نبينا (ص) للملك على هيئته التي خلقه الله عليها مرتين، هي خصوصية لا يعد مثلها من علوم الرسل الكسبية . وأما رؤية الملك متمثلا بصورة بشر أو جسم آخر فهو سبب عام لرؤيته ولكنه لا يتمثل الا لأمر عظيم ، أو آية لنبي أو صديق

فعلم مما قررناه ان الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم الكسبية ، كما أنهم لم يعطوا قوة التصرف في خزائن ملك الله وهي مالم يمكن البشر من اسبابه فيكون من اعمالهم الكسبية ، ولا أعطاهم إياه أيضا على سبيل الخصوصية ، كما اظهرهم على بعض الغيب الذي هو موضوع الرسالة . ونفي ادعاء الرسول لكل من الامرين يتضمن التبرؤ من ادعاء الالهية - كما قيل - أو ادعاء شيء من صفات الإله - وهو أولى ويستلزم الاول - لان كلا منهما خاص بالاله الذي هو على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، وقدرته وعلمه صفتان ذاتيتان له ، ويتضمن بيان جهل المشركين بحقيقة الالهية وحقيقة الرسالة اذ كانوا يقترحون على الرسول من الاعمال مالايقدر عليه الا من له التصرف فيما وراء الأسباب، ومن الإخبار بما يكون في مستقبل الزمان ، مالا يعلمه الا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات ، فقد سألوه عن وقت الساعة وعن وقت نزول العذاب الدنيوي بهم . وعن وقت نصر الله تعالى اياه عليهم ، وغير ذلك من امور الغيب

واذا كان الله تعالى لم يؤت الرسل ما لم يؤت غيرهم من أسباب التصرف في المخلوقات ومن علم الغيب. وكان كل من التصرف بالقدرة الذاتية وعلم الغيب خاصا به عز وجل يستحيل ان يشاركه غيره فيه، - فمن أين جاءت دعوى التصرف في الكون وعلم الغيب لمن هم دون الرسل منزلة وكرامة عند الله تعالى من المشايخ المعروفين وغير المعروفين حتى صاروا يُدعون من دون الله تعالى لما عز نيله بالاسباب والسنن الالهية « والدعاء هو العبادة » كما صح عن النبي عليه الصلاة والسلام ؟ وقد قال المفسرون ان نفي النبي (ص) لهذين عن نفسه هو عبارة عن نفي ادعاء الالهية وبيان لكون ما اقترحوه عليه مما لا يقدر عليه غير الله تعالى ؟ فضلال المشركين في فهم الرسالة وجعلهم اياها شعبة من الربوبية لايزال منتشرا في اذهان الناس، حتى بعض المؤمنين باسم القرآن، المتبركين بجلد مصحفه وورقه وبالتغني به في المآتم وغيرها، الجاهلين بما انزل لبيانه من توحيد الله تعالى وشؤون ربوبيته وألوهيته ومن حقيقة الرسالة ووظيفة الرسل ومن معنى الجزاء على العقائد والاعمال - دع مادون هذه الاصول الثلاثة من امور الدين - اذ نرى بعض هؤلاء المعدودين في عرفهم وعرف الناس من أتباع القرآن يدعون

التصرف في خزائن الله وعلم الغيب لمن دون الرسل كما قلنا آنفا

ثم قال (ولا أقول لكم اني ملك) فأعاد هنا « لا أقول لكم » ولم يعدها في نفي علم الغيب ، ونكتة ذلك ان نفي علم الغيب ونفي التصرف في خزائن الله يؤلفان التبرؤ من دعوى واحدة هي دعوى الصفات الخاصة بالله تعالى . وأما نفي ادعاء الملكية فهو شيء آخر فأعيد العامل لافادة ذلك، كأنه قال انني لا أدعي صفات الاله حتى تطلبوا مني مالا يقدر عليه وما لا يعلمه الا الله، ولا أدعي أني ملك وهو دون ماقبله حتى تطلبوا مني ماجعله الله في قدرة الملائكة ولم يجعله من مقدور البشر، بل ادعيت أني عبد الله ورسوله، وانما وظيفة العبد الطاعة ووظيفة الرسول التبليغ ، وعبر عن هذا بقوله : ﴿ ان أتبع الا مايوحى الي ﴾ أي ما أفعل من حيث أنا عبد رسول إلا اتباع ما يوحيه الي من أرسلني من تبليغ دينه بالتبشير والانذار والعمل به كما بينت لكم آنفا — أي في الآيتين اللتين قبل هذه الآية

ثم قال عز وجل ﴿ قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ أي قل ايها الرسول لهؤلاء المشركين هل يستوي أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم الذي دعوتكم اليه فلا يميز بين التوحيد والشرك ، ولا بين صفات الله وصفات الخلق ، مقلد في ضلاله وجهلاته ، لمن لا علم عنده ولا عقل من آبائه وأجداده وذو البصيرة المهتدي فيه، المستقيم في سيره عليه ، على بينة وبرهان، يجعل ما يرى القلب أوضح مما ترى العينان ؟ الاستفهام انكاري أي لا يستويان كما ان أعمى العينين وبصيرهما لا يستويان ، بل الفرق بين الاولين أقوى وأظهر ، فكأين من اعمى العينين بصير القلب كان من أعلم العلماء واهدى الفضلاء ، وكأين من بصير العينين أعمى القلب هو اضل من الانعام ، ولذلك قال أفلا تتفكرون أي في ذلك فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الاسلام، وتفرقوا بين صفات الرب الاله وصفات الانسان ، وتعقلوا حجة الرسالة مما في هذا القرآن ، من أنواع الهداية والعرفان، واخبار الغيب التي لم يؤتها انس ولا جان ، على ما فيه من بلاغة البيان ، والاسلوب البديع الذي لم تعهدوه قبل الآن ، فمتى كان في قدرة مثلي شيء من ذلك ، ولقد لبثت فيكم عمرا من قبله يزيد على الاربعين سنة ، عاطلا من هذه البلاغة وهذه المعرفة ،

هذه الآية حجة من حجج الله تعالى للمستقلين في هداية الدين، على المقلدين فيه لآبائهم ومشايخهم الجاهلين

ومن مباحث استنباط المذاهب في الآية ان المعتزلة استدلت بها على تفضيل الملائكة على الانبياء والرسل وناقشهم جمهور الاشاعرة في ذلك لمخالفته لمذهبهم ، وقد قرر الطوفي المسألة في تفسيره (الاشارات الإلهية ، الى المباحث الاصولية) عند قوله « ولا أقول لكم اني ملك » بقوله : يحتج به من يرى الملائكة أفضل من الانبياء وقد سبق ذلك ، وتقريره ههنا ان الكفار كانوا يعتقدون ان الملك أفضل من النبي ولذلك طلبوا رؤية الملائكة وان يرسل اليهم ملك ، ثم ان النبي (ص) أقرهم على هذا الاعتقاد وقال انا لا أدعي اني ملك كما يعتقدون في الملك . بل أنا بشر أتبع ما يوحى الي، وحينئذ يقال : النبي عليه السلام أقرهم على اعتقاد تفضيل الملك وكل ما أقر النبي عليه السلام عليه فهو حق ، وللخصم منع الاولى. اه كلام الطوفي ومراده بمنع الاولى منع المقدمة الاولى من القياس التي يسمونها الصغرى وهي ان النبي (ص) أقرهم على التفضيل ،

وقرر الزمخشري ذلك في ضمن تفسير الآية فقال : أي لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله وهي قسمه بين الخلق وأرزاقه وعلم الغيب واني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه، أي لم أدع إلهية ولا ملكية، لانه ليس بعد الالهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة حتى تستبعدوا دعواي وتستنكروها، وانما أدعي ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوة. اه

وقال أحمد بن المنير في تعقيبه له: « هو ينبني على القاعدة المتقدمة في تفضيل الملائكة على الانبياء ولعمري ان ظاهر هذه الآية يؤيده فلذلك انتهز الفرصة في الاستدلال بها. » ثم ذكر أن لمخالفه أن يجعلها ردا على انكارهم الشؤون البشرية على الرسول كأكل الطعام والمشي في الاسواق ، بأن يقال انه لم يدع الملكية حتى يستنكر منه ذلك ، وهذه التفرقة بين الرسول والملك لا تستلزم تفضيلا . وقد أراد ابن المنير بالقاعدة المتقدمة له ما ذكره في تفسير (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) وقد ذكرنا ملخص ما قرره الزمخشري فيها وما رد به عليه ابن المنير في

تفسيرها وهي في أواخر سورة النساء من الجزء السادس

وقال الرازي في ذلك: قال الجبائي الآية دالة على ان الملك أفضل من الانبياء لان معنى الكلام لا ادعي منزلة فوق منزلتي، ولولا ان الملك أفضل لم يتم ذلك. قال القاضي ان كان الغرض بما نفي طريقة التواضع فالاقرب ان يدل ذلك على ان الملك أفضل، وان كان المراد نفي قدرته عن افعال لا يقوى عليها الا الملائكة لم يدل على كونهم أفضل. اه

واختار أبو السعود وتبعه الآلوسي ما ذهب اليه ابن المنير من كون نفي دعوى الملكية للرد على استنكارهم أكل الطعام والمشي في الاسواق، وتكليفهم اياه نحو لرقي في السماء، وكون هذا لا يقتضي التفضيل فيما هو محل النزاع. قال الآلوسي: وهذا الجواب أظهر مما نقل عن القاضي زكريا من ان هذا القول منه (ص) من باب التواضع وإظهار العبودية نظير قوله (ص) «لا تفضلوني على ابن متى» في رأي. بل هو ليس بشيء كما لا يخفى. وقيل ان الافضلية مبنية على زعم المخاطبين، وهو من ضيق العطن اه

وما نقله الآلوسي عن القاضي زكريا لا بد ان يكون غير ما نقله الرازي عن القاضي، واذا أطلق القاضي عند متكلمي الاشاعرة كالرازي ينصرف الى أبي بكر البلاقلاني. والقاضي زكريا عند المتأخرين كالآلوسي هو زكريا الانصاري. وقد علمت ان القاضي الذي ذكره لرازي جعل ارادة التواضع بنفي الملكية مقتضيا تفضيل الملك على الرسول. وما نقله الآلوسي عن القاضي زكريا ضده

وقد ذكروا في هذا المقام الفرق بين الانتقال هنا من نفي دعوى الالهية الى نفي دعوى الملكية، والانتقال في آية سورة النساء من عدم استنكاف المسيح من العبودية لله الى نفي استنكاف الملائكة عنها على طريقة الترقي. وقد أقر المحققون بأن كلا من الانتقالين وقع في موقعه الذي اقتضته البلاغة، فان مقام الاستنكاف يقتضي ان يكون المتأخر فيه هو الاعلى لئلا يكون ذكره لغوا، ومقام نفي الادعاء يقتضي العكس لان من لا يتجرأ على دعوى الالهية قد يتجرأ على مادونها ولا عكس، أي ان من لا يتسامى الى دعوى الملكية لا يتسامى لى مافوقها من دعوى

الالهية بالاولى . هذا صفوة ما قالوه في هذه المسألة

والحق ان ظواهر القرآن الواردة في الملائكة والرسل تدل على ان الملائكة أفضل من البشر، ولعله لولا ذلك لما قال تعالى في بني آدم (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) بل لقال على جميع من خلقنا ، ومقتضى ذلك ان خواص الملائكة كالمقربين أفضل من خواص الرسل، ولا يتحتم ان يقتضي كون عوام الملائكة أفضل من خواص البشر كالرسل ، وقد ينافيه كون بعض الملائكة مسخرين لصالح البشر، ولكن ليس في المسألة نص قاطع في المعنى الذي جعلوه محل الخلاف كما قلنا في تفسير آية النساء المشار اليها هنا. وان نفي الملكية هنا ورد في بيان تحقيق معنى الرسالة ووظيفة الرسول، وكونها لاتستلزم ان يقدر على ما لايقدر عليه الا الله أوان يعلم بكسبه ما لايعلمه الا الله ، ولا تستلزم أن يكون من الملائكة يقدر على ما يقدرون ويعلم ما يعلمون ، والاشاعرة لاينكرون تفضيل الملائكة من هذه الجهة وانما يفضلون الانبياء عليهم بكثرة الثواب في الآخرة لما احتملوه من المشقة في سبيل الله ... والاولى ان يفوض هذا الامر الى الله تعالى ولا يجعل محل القيل والقال اذ لا فائدة لنا في ذلك ، ولا علم لنا بما يترتب على أعمال الملائكة من الجزاء عند الله تعالى

واستنبطوا من الآية أيضا أصلين من أصول الفقه وقواعد الشرع . قال الرازي في بيانهما: قوله (ان اتبع الا ما يوحى الي) ظاهره يدل على انه لايعمل الا بالوحي وهو يدل على حكمين : —

(الحكم الاول) ان هذا النص يدل على انه (ص) لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الاحكام وانه ما كان يجتهد ، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي . ويتأكد هذا بقوله (وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي يوحى)

(الحكم الثاني) ان نفاة القياس قالوا: ثبت بهذا النص انه عليه السلام ما كان يعمل الا بالوحي النازل عليه فوجب ان لايجوز لاحد من أمته ان يعملوا الا بالوحي النازل عليه لقوله تعالى (فاتبعوه) وذلك ينفي جواز العمل بالقياس . ثم أكد هذا الكلام بقوله (قل هل يستوي الاعمى والبصير) وذلك لان العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الاعمى ، والعمل بالوحي يجري مجرى عمل البصير . ثم قال

(أفلا تتفكرون) والمراد منه التنبيه على انه يجب على العقل ان يعرف الفرق بين هذين البابين وان لايكون غافلا عن معرفته والله أعلم اه كلامه

أقر الرازي هنا هاتين المسألتين وأيدهما أشد التأييد ولم يحام عن القياس وهو الركن الذي بني عليه جل فقه أصحابه الشافعية والجمهور حتى كأنه من غلاة الظاهرية ، وقد حررنا هذه المسألة في هذا الجزء من التفسير (السابع) عند الكلام على قوله تعالى (٥ : ١٠٤ ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) بعد كلام في في ذلك في الجزء السادس عند تفسير (٥ : ٣ اليوم أكملت لكم دينكم) ونقول هنا ردا على المسألتين ان الآية لاتدل على أن النبي (ص) لم يكن يجتهد في الاحكام وان جميع أحكامه يجب ان تكون بالنص ، فان هذه الآية مكية نزلت في أوائل الاسلام ، حيث لاحكومة للاسلام ولا أحكام ، وحيث الدعوة الاسلامية قاصرة على أصول الدين وكلياته وهي التوحيد والرسالة والبعث والجزاء ، والترغيب في الفضائل والعمل الصالح . والتنفير عن الرذائل وعمل السوء ، ولاحاجة الى الاجتهاد في شيء من ذلك ، ويقول مثبتو الاجتهاد له (ص) ان الله تعالى اذن له به عند الحاجة اليه ، واستدل بعضهم على ذلك بقوله تعالى (٤ : ١٠٥ انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) أي بما أراكه فيه نصا أو دلالة واجتهادا ، وبينا في تفسيرها ان المانعين يستدلون بها أيضا وانها ليست نصا في المنع ولا الاثبات (راجع ص ٣٩٥ ج ٥ تفسير) وبينا هنالك ان آية النجم خاصة بالقرآن اذ لم يقل أحد ان النبي (ص) لم ينطق الا بالوحي ، بل ثبت ان الوحي كان ينقطع عنه أياما كثيرة ، وقد حكم في أسرى بدر باجتهاده وعاتبه الله تعالى على ذلك ولم يقره عليه . والقائلون بالمنع لايحصرون الوحي في القرآن . واذا كان حكمه (ص) بالاجتهاد فيما لا نص فيه من الوحي مبنيا على اذن الله تعالى له بالاجتهاد يكون متبعا فيه لما أوحي اليه

وكذلك يقال في القياس : اذا ثبت الاذن به في كتاب الله تعالى أو على لسان رسوله (ص) يكون الحكم به اتباعا للوحي ، وثبوته في السنة يرجع الى القرآن ، اذ أمر باتباع الرسول وشهد له بأنه لا يتبع الا ما يوحى اليه . وقد بينا ان القياس الجلي المنصوص على علته في الكتاب أو السنة هو القياس الصحيح ، -- ومن العلماء

من لا يسميه قياسا — وان قياس الشبه ونحوه من الاقيسة البعيدة عن النصوص لا دليل عليه ولا حجة فيه، وراجع تفصيل القول في ذلك في تفسير الآية ثالثة والآية الرابعة بعد المئة من سورة المائدة

﴿وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾ أمر الله تعالى رسوله بهذا الانذار الخاص بعد امره بتبليغ الناس حقيقة رسالته وكونها لا تستلزم ان يكون له من التصرف والعلم ما لا يكون الا لله تعالى ولا ان يكون ملكا من الملائكة. والمناسبة بينهما ان الموصوفين بما ذكر في هذه الآية اجدر من غيرهم بفهم حقيقة الرسالة والانتفاع بنذر الرسول فهي كقوله (انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب واقاموا الصلاة ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه) وقوله (انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب) أي وانذر بما يوحى اليك جماعة المؤمنين بك الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم اي يخافون شدة وطأة الحشر والقدوم على الله عز وجل وما فيه من شدة الحساب، وما يتبعه من الجزاء على الاعمال، في يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله، وكل يأتيه فيه فردا ليس له من دونه ولي ينصره، ولا شفيع يدفع عنه، اذ أمر النجاة متوقف على مرضاته عز وجل، فان هؤلاء هم الذين يرجى أن يتقوا الله تعالى اهتداء بانذارك ويتحروا ما يؤدي الى مرضاته، لا يصدهم عن تقواه الاتكال على الاولياء، ولا الاعتماد على الشفعاء، لصحة توحيدهم، وعلمهم ان الشفاعة لله جميعا، ما من شفيع الا بعد اذنه، ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون، وان نجاتهم وسعادتهم انما تكون بايمانهم واعمالهم، وتزكيتهم لأنفسهم، لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم، أو اعتمادهم على شفاعة الشفعاء لهم، كالمشركين وغيرهم من الكافرين الذين جهلوا ان مدار سعادة الدنيا والآخرة على تزكي النفس وطهارتها بالايمان الصحيح والاخلاق الكريمة، وما يلزمها من الاعمال الصالحة، التي يترتب عليها رضاء الله عنها، لا على امر خارج عن النفس لا تأثير له فيها.

هذا ما يتبادر الى الفهم من معنى الآية مؤيدا بآيات كثيرة أخرى بل بجملة الدين وكلياته التي أشرنا اليها آنفا. وبنحوه فسرها الحافظ ابن كثير في تفسيره

المأثور وهاك نص عبارته: أي وانذر بالقرآن يا محمد الذين هم من خشية ربهم مشفقون، الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم أي يوم القيامة ليس لهم أي يومئذ من دونه ولي ولا شفيع أي لاقريب لهم ولاشفيع فيهم من عذابه ان أراده بهم، لعلهم يتقون، أي أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه الا الله عز وجل لعلهم يتقون فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه. اه

فالآية قد نزلت في انذار المؤمنين الذين يخافون الله ويرجونه، وقد روى احمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وغيرهم عن عبد الله بن مسعود أنها نزلت هي وما بعدها في صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين السابقين الاولين وسيأتي بيان ذلك، ولما كانت نافية للشفاعة عنهم جأ بعض مفسري الخلف الى تأويلها، وذهب بعضهم أنها لاتحتاج الى تأويل «لان شفاعة الملائكة والرسل للمؤمنين انما تكون باذن الله لقوله (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) فلما كانت تلك الشفاعة باذن الله كانت في الحقيقة من الله تعالى» قاله الرازي في وجه نزول الآية في المؤمنين وذكر فيها وجهين آخرين أحدهما أنها نزلت في الكفار وثانيهما انها عامة. ومن المعلوم ان كل مايتعلق بالكفار في هذه السورة فالمراد به مشركو مكة وماحولها وانما يدخل فيه غيرهم بدلائل العموم، وكان اولئك المشركون ينكرون الحشر ويثبتون الشفاعة عند الله لآلهتهم وأوليائهم الذين اتخذوا لهم التماثيل والاصنام، كابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام، الا من شذ منهم فقال بالبعث، ولا أذكر الآن انه كان في مكة احد منهم عند نزول السورة، ولا يعقل ان تكون الآية نزلت في انذار هذا الشاذ النادر

ولكن ابا السعود تنطع في التأويل فذهب الى ان الانذار هنا موجه «الى من يتوقع منهم التأثر في الجملة وهم المجوزون منهم للحشر على الوجه الآتي سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين في شفاعة آبائهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام كالاولين، أو في شفاعة الاصنام كالآخرين، أو مترددين فيهما معا كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم أنهم اذا سمعوا بحديث

البعث يخافون أن يكون حقا ، وأما المنكرون للحشر رأسا ، والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الاصنام ، فهم خارجون ممن أمر بانذارهم ، وقد قيل هم المفرطون في الاعمال من المؤمنين ، ولا يساعده سباق النظم الكريم ولا سياقه ، بل فيه مايقضي باستحالة صحته، كما ستقف عليه» - وهذه عبارته - وقد جعل جملة (ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) حالا من ضمير (يحشروا) - قال - «والمعنى أنذر به الذين يخافون ان يحشروا غير منصور بن من جهة أنصارهم على زعمهم. ومن هذا اتضح ان لا سبيل الى كون المراد بالخائفين المفرطين من المؤمنين اذ ليس لهم ولي سواه تعالى يخافون الحشر بدون نصرته ، وانما الذي يخافونه الحشر بدون نصرته عز وجل » اه وقد لخص كلامه السيد الآلوسي في روح المعاني وقال « هو تحقيق لم اره لغيره و يصغر لديه ما في التفسير الكبير ، ولعل ما روي عن ابن عباس والحسن (رض) لم يثبت عنهما فتدبر » اه ومراده بما روي عن الحبر والحسن هوأن الآية نزلت في المؤمنين .

ونقول قد تدبرنا الكلام فوجدنا أن هذا الذي سميته تحقيقا تنطع وتكلف بعيد عن سباق الآية وسياقها، ولولا اعجابك بهذا الرجل واعتمادك عليه في جل تفسيرك لما خفي عن ذهنك المنير تكلفه هذا الذي خالف فيه المأثور المتبادر من النظم الكريم الموافق للحال الذي نزلت فيه السورة ، فجعل الانذار موجها الى من لا يكاد يوجد أحد منهم في مكة من أهل الكتاب وشذاذ المشركين . ولا حاجة في حال توجيه الانذار الى المؤمنين الى تخصيصه بالمفرطين منهم ، ولم يكن في المؤمنين يومئذ مفرط ولا مقصر ، بل كلهم سابق بالخيرات مشمر ، فهم السابقون الأولون الذين شهد الله تعالى لهم، وأثبت في كتابه رضاه عنهم، والمأثور أن هؤلاء الذين أمر (ص) بانذارهم هم الذين نهى عن طردهم بقوله عز وجل :

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ روى أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم عن عبد الله بن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على النبي (ص) وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ أطردهم عنك فلعلك ان طردتهم ان نتبعك . فأنزل فيهم القرآن

(وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم — الى قوله — والله أعلم بالظالمين) وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: مشى عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وقرظة بن عمرو بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل في أشراف الكفار من بني عبد مناف الى أبي طالب فقالوا له: لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الاعبد فانهم عبيدنا وعسفاؤنا (١) كان أعظم له في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا اياه وتصديقه. فذكر ذلك أبو طالب للنبي (ص) فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت يارسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم، وما يصيرون اليه من أمرهم، فأنزل الله (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم — الى قوله — أليس الله بأعلم بالشاكرين) قال وكانوا بلالا وعمار بن ياسر وسالما مولى أبي حذيفة وصبيحا مولى أسيد، ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد وأشباههم، ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا) — الآية — فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر فأنزل الله (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) الآية. هذا أقوى ما أورد السيوطي في الدر المنثور، واختصر الروايتين في لباب النقول، ولا ينافي هذا نزول السورة دفعة واحدة وكون هذه الآيات ليست مما استثناه بعضهم وبيناه في الكلام عليها قبل الشروع في تفسيرها، لان قولهم ان كذا نزل في كذا يصدق بنزوله وحده وبنزوله في ضمن سورة كاملة أو سياق من سورة. لكن ظاهر ما زاده عكرمة من نزول (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) في عمر يدل على ان نزولها كان بعد اعتذاره وان اعتذاره كان بعد نزول ما قبلها، ويعارض هذا الظاهر ماورد في نزولها دفعة واحدة وكون هذه الآية ليست مما استثني وهو أثبت من هذه الرواية ومما ورد في سبب نزول الآية أيضا وسيأتي قريبا، وحينئذ يقال إما أن الزيادة غير مقبولة، واما أن ظاهر العبارة غير مراد، وانما لم نرد الرواية من أصلها مع أن في سندها من المقال ما فيه (٢) لان نزول الآيات الاولى في ضعفاء

(١) الاعبد جمع عبد والعسفاء جمع عسيف وهو الاجير (٢) قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين عن حجاج عن ابن جريج عن عكرمة. وذكره. فرأس=

الصحابة هو الواقع الذي لا مندوحة عنه والروايات فيه مبينة للواقع يؤيد فيه بعضها بعضا فلا يضر في مثله ضعف الراوي ببدعة أو بتدليس أو تحديث بعد اختلاط أو نحو ذلك من العلل التي في رجال هذه الرواية

أما كون هذا هو الواقع فمعلوم من السيرة النبوية ومن سنة الله تعالى في خلقه المبينة في آيات كثيرة من كتابه وهو أن أول اتباع خاتم الرسل (ص) كاتباع من تقدمه من اخوانه الرسل (ص) أكثرهم من الضعفاء الفقراء، وان أعداءه كأعدائهم هم المترفون من الاكابر والرؤساء، وان هؤلاء الاعداء المستكبرين عن الايمان كانوا يحتقرون السابقين الى الايمان و يذمونهم و يعدون أنفسهم معذورين أو محقين بعدم رضائهم لانفسهم بمساواتهم ، وتارة يقترحون على الرسل طردهم وإبعادهم، قال الله تعالى فى سورة سبأ (٣٤ : ٣٤ وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون ٣٥ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) وقال تعالى في سورة هود حاكيا قول الملأ أي الاشراف من قوم نوح عليه السلام له (١١ : ٢٧ وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) وقوله لهم (٢٨ وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربهم – الى قوله – أفلا تذكرون) وقد حكى الله عن كفار قريش انهم قالوا في هؤلاء الضعفاء السابقين الى الاسلام (٤٦ : ١٠ لو كان خيرا ما سبقونا اليه) وقال في شأنهم من سورة مريم (١٩ : ٧٢ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ٧٣ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا)

ومعنى الآية هنا ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي أي في أول النهار وآخره أو في عامة الاوقات لانه يكنى بطرفي الشيء عن جملته، يقال يفعل كذا صباحا ومساء، اذا كان مداوما عليه ، واذا أريد بالغدو والعشي حقيقتهما فيحتمل ان يراد بالدعاء الصلاة لانها كانت في أول

= هذا السند عكرمة فيه مقال من حيث البدعة والرأي وابن جريج كان على فضله مدلسا وقد عنعن هنا وممن روى عنه من الضعفاء حجاج بن زوح وحجاج بن فروخ ومن الثقات حجاج بن محمد المصيص الاعور ولكنه خلط أخيرا

الاسلام صلاتين إحداهما في الصباح والاخرى في المساء، وروي عن مجاهد ان المراد صلاتي الصبح والعصر، والا فالدعاء يشمل الدعاء الحقيقي والصلاة والقرآن المشتملين عليه. والغداة والغدوة كالبكرة ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس، والعشي آخر النهار وقيل من المغرب الى العشاء وقيل من بعد الزوال. وقرأ ابن عامر (بالغدوة) بضم الغين وفتح الواو، ويساعده رسم المصحف لأن الكلمة فيه بالواو كالصلوة والزكوة، والباقون بالغداة بفتح الغين وقلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها حسب القاعدة، واستعملت غدوة بالضم بالتنوين وبغير التنوين نكرة ومعرّفة بالالف واللام كما نقل سيبويه عن الخليل فاذا نونت قصد بها صباح يوم غير معين واذا لم تنون قصد بها صباح معين، ولعل الاكثر في استعمالها ان تكون بغير الالف واللام، وقد ظن أبو عبيد ان هذا مطرد، ولم يعلم ان قراءة ابن عامر رواية متواترة يثبت بها تعريف الغدوة في أصح الكلام، بل ظن انها خطأ جاء من جهة الرسم فخطأ من قرأ بذلك، وحسبك في تخطئته هو أن القراءة متواترة وان لم ينقل الخليل — وكذا المبرد — تعريفها عن العرب. والمشهور ان منع صرف غدوة وبكرة للعلمية الجنسية وقيل للعلمية الشخصية (١)

(١) ذهب شيخنا في أعلام الاجناس الى ان اصلها اسماء اجناس خصص كل منها بفرد معين لسبب عرض فصار علم شخص، ثم جهل عين ذلك الفرد فصار اللفظ يطلق على كل فرد مثله كاطلاق علم الشخص، فسمي علما لاعتبار التشخص الفردي في كل استعمال له وقيل علم جنس لأنه يصح اطلاقه على كل فرد من افراد ذلك الجنس لكن باعتبار التشخص، سمعت نحو هذا منه في طرابلس الشام وانه قاله لسائل سأله في تونس عند رحلته الأولى اليها عن الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس. ومثال ذلك لفظ اسامة هو ليس اسما لجنس الاسد كلفظ الليث مثلا، وليس الآن اسما لاسد معين اذا مات بطل استعمال الاسم بموته الا اذا اطلق بوضع آخر على اسد آخر معين، بل يطلق على كل اسد معين اذا خوطب او حكي عنه عند رؤيته أو نسبة فعل اليه كافتراس حيوان او انسان أو لعب او صراع مما يسخر الناس له الاسود كغيرها من السباع، وكذلك غدوة اذا استعملت في اول يوم معين تعد علم جنس فتكون معرفة غير مصروفة. يقال أتيته غدوة فلم أجده — والمراد غدوة النهار الذي يتكلم فيه المتكلم أو يحكي عنه ان كان ثم حكاية.

وقوله تعالى « يريدون وجهه » حال من ضمير يدعون ، أي يدعون ربهم بالغداة والعشي مريدين بهذا الدعاء وجهه سبحانه وتعالى ، مبتغين مرضاته : أي يتوجهون به اليه وحده مخلصين له الدين فلا يشركون معه أحدا ، ولا يرجون من غيره عليه ثوابا . ولا يتوقعون به من أحد مدحا ولا نفعا ، فهذا التعبير يدل على الاخلاص لله تعالى في العمل وابتغاء مرضاته به وحده وعدم الرياء فيه ، كما قال تعالى حكاية عن المطعمين الطعام على حبه(انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) وكما قال في الاتقى الذي ينفق ماله ليتزكى به عند الله تعالى ويكون مقبولا مرضيا لديه (وما لأحد عنده من نعمة تجزى * الا ابتغاء وجه ربه الاعلى * ولسوف يرضى) ولعل أصل ابتغاء الوجه بالعمل هو ان يعمل ليواجه به من عمل لاجله فيعتني باتقانه ما لا يعتني باتقان ما يعمل ليرسل الى من عمل له أو لانه مطلوب في الجملة من غير ان يلاحظ العامل ان من يعمله له يراه ، فضلا عن كونه هو الذي يعرضه بنفسه على من يريد التقرب اليه به . وذلك ان الاعمال التي تعمل للملوك والامراء منها ما لا يرونه البتة كأن يكون لما لا يطلعون عليه من أعمال الخدمة في قصورهم ، ومنها ما يرونه رؤية اجمالية مع كثير من أمثاله ، وما يرونه منها يعرضه عليهم عمالهم وحجابهم ، ومنها ما قد يعرضه العامل بنفسه ويقابل وجه الملك به ، ولا شك ان هذا النوع من العمل هو الذي يعتني به أكمل الاعتناء ولا يفكر العامل له في وقعه عند الحجاب أو الوزراء أو غيرهم من بطانة الملك أو حاشيته لعلمه بأنه هو الذي سيعرضه عليه ويلقاه به ، فيكون همه محصورا في جعله مرضيا عنده جديرا بقبوله وحسن الجزاء عليه ،

ولا يغرنك ما تخيله بعض الصوفية من جعل ابتغاء ثواب الله تعالى منافيا لابتغاء مرضاته أو ابتغاء وجهه فالحق ان لا منافاة وان الكمال في الجمع بين الامرين ، وان العمل لاجل الذات التي يفسرون بها الوجه مع عدم قصد الرضاء ولا الثواب من النظريات التي لا يسهل إثبات إمكانها ولا مشروعيتها ، ولا ينكر ما يعرض لبعض الناس من الاحوال النفسية التي تحصر تخيلهم فيها ، حتى يظنوا انها حقيقة ثابتة في نفسها ، وصاحب تلك الحال لا يعرف حقيقة الذات ولا يعقل معنى

كون العمل لها ، نعم ان من الواقع الذي لا ينكر أن يقصد العامل بعمله النجاة من عقاب النار ، أو الفوز بنعيم الجنة ، وان هذا حسن ومحمود شرعا ، ولكنه دون مرتبة الكمال الذي هدى اليه القرآن وهو ان يقصد المؤمن بالعمل الصالح تزكية نفسه وتكميلها لتكون أهلا للقاء الله ومحلا لمرضاته وثوابه في دار كرامته ، وأعلى الثواب رضوان الله تعالى وكمال العرفان والعلم به المعبر عنه في الاحاديث الشريفة برؤية وجهه الكريم ، بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل ، وقد قربنا هذا المعنى العالي في باب الفتوى من المنار فيراجع فيه ، ولعلنا نعود اليه في التفسير .

﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم ﴾ أي ما عليك شيء مَّا من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي على دعائهم ولا غيره من أعمالهم ، الدينية — كما تدل على ذلك صلة الموصول — والا فظاهر تأكيد النفي عمومه — كما انه ليس عليهم شيء ما من أمر حسابك على أعمالك حتى يمكن أن يترتب على هذا أو ذاك طردك إياهم باساءتهم في عملهم أو في محاسبتك على عملك ، فان الطرد جزاء وانما يكون على عمل سيء يستوجبه ولا يثبت الا بحساب ، والمؤمنون ليسوا عبيداً للرسل ولا أعمالهم الدينية لهم بل هي لله تعالى يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل وحسابهم عليه تعالى لا عليهم ، وانما الرسل هداة معلمون ، لا أرباب ولا مسيطرون ، (٨٨ : ٢١ فذكر انما أنت مذكر ٢٢ لست عليهم بمسيطر) واذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم فليس للناس عليهم هذا الحق بالاولى ، والمأثور عن النصارى ان المسيح عليه السلام كان يسمى معلما وان أتباعه في عهده كانوا يسمون تلاميذ . وأما أتباع نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فقد اختار لهم كلمة الاصحاب الدالة على المساواة تواضعا ، على أن من أصول شريعته الكاملة أنه (ص) مساو في أحكامها لسائر المؤمنين فيما يجب ويندب ويحل ويحرم ويباح ويكره الا ما خصه الله تعالى به من الاحكام . ولم تكن تلك الاحكام الخاصة من قبيل ما يعهد الناس من امتياز الملوك على الرعايا من أمور الابهة والزينة والعظمة الدنيوية والنعيم بل هي أحكام شاقة لا يقوى على القيام بها غيره صلى الله عليه وسلم كوجوب قيام الليل عليه وكون ما يتركه صدقة للأمة لا ارثا لذريته ، وكفالته

عدة أزواج من الارامل أكثرهن مسنات يساوي بينهن و بين عائشة الجميلة الصورة البارعة الذكاء في كل ما يملك من نفسه وذات يده (وحكمة تعددهن قد فصلناها في تفسير آية تعدد الزوجات من أول سورة النساء)

وقيل ان المراد هنا الحساب على الرزق والفقر اذ زعم المشركون ان أولئك الضعفاء ما آمنوا به (ص) الا لانهم يجدون عنده رزقا وأنهم ليسوا بصادقين في إيمانهم . فكأن الله تعالى يقول له ليس عليك من حساب رزقهم ولا عليهم من حساب رزقك شيء وانما يرزقكم الله جميعا . وحمل الآية على هذا ضعيف وان نقل عن ابن زيد ، والاول منقول عن عطاء وعليه الجمهور . واذا صح ان كبراء المشركين طعنوا في ايمان ضعفاء المسلمين ، فالاقرب انهم قصدوا بذلك الكيد للتفرقة بينهم وبين الرسول (ص) وتنفير سائر الضعفاء عنه بأن عاقبتهم عنه الطرد والابعاد . كما ينفرون الاقوياء والكبراء ، بإثارة الحمية والكبرياء ، فان كان فيهم من أساء الظن ببعض أولئك السابقين الكرام لاحتقارهم إياهم فانما كان في أول العهد باسلامهم، قبل ان كان ما كان من فتنتهم . فقد فتنوهم بأنواع من العذاب ليرجعوا الى الشرك ، كالجوع والحبس والضرب، بل كانوا يكوون بعضهم بالنار كما فعلوا بآل ياسر، أو بوضعهم عراة الابدان على الرمل المحمي بهجير الصيف كما فعلوا ببلال ،

وقوله تعالى ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ جواب للنهي عن الطرد ، واما قوله قبله « فتطردهم » فهو جواب لنفي الحساب تنتهي به الجملة الاعتراضية المعللة لعدم جواز الطرد بناء نفيه على نفي سببه الذي يتوقف جوازه عليه . وجوز الزمخشري وغيره عطف الثاني على الاول، وأورد عليه ايرادات اجيب عنها بسهولة ، وجوز بعضهم كون الاول جواب النهي والثاني معطوفا عليه ، وأوردوا عليه مالا يجاب عنه الا بتكلف . والمعنى على الاول — وهو الصحيح — : لا تطرد هؤلاء فتكون بطردك إياهم من جنس الظالمين ومعدودا في زمرتهم ، لان طردهم لا يكون حقا وعدلا الا اذا كان جزاء على اساءتهم في الاعمال التي يعملونها لمن له حق حسابهم وجزائهم عليها، ولست أنت بصاحب هذا الحق ، حتى يتأتى ان تجري فيه على صراط العدل ، ذلك بأن عملهم هو عبادة الله تعالى وحده يريدون بها وجهه ، فحسابهم وجزاؤهم عليه وحده ،

كما قال نوح عليه السلام (ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون). فوجه الكون من الظالمين ان الطرد لو حصل يكون حكما غير جائز ممن لا يملك الحكم لذاته، «ان الحكم الا لله» والله لم يفوض اليه هذا النوع منه، ثم انه جائز في موضوعه، مع كونه غير جائز في صورته وشكله، اذ هو ظلم للمحكوم عليهم لانهم أولى الناس بقربه (ص) والاستفادة منه، وظلم لنفس الحاكم — وحاشا ان يقع منه — لانه ينافي مصلحة الدعوة، فلما كان ظلما من الجهات الثلاث قال فتكون من الظالمين ولم يقل فتظلمهم أو فتكون ظالما لهم أو فيكونوا من المظلومين.

والآية متممة لبيان وظائف الرسول من الجهة السلبية إذ صرح فيها بأنه (ص) لا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم بعد ان صرح بانه لا يملك التصرف في الكون ولا يعلم الغيب وبأنه ليس ملكا. وليس الغرض منها التشديد في تنفير النبي (ص) من طردهم المؤمنين لأنه كان رضي بذلك كما زعم بعض المفسرين، وحاشاه (ص) ان يرضى بذلك أو يميل اليه بعد ان عاتبه ربه على الاعراض والتلهي عن الاعمى (عبدالله بن أم مكتوم) لما جاءه يطلب العلم والهدى منه وهو (ص) متصد لدعوة بعض كبراء قريش طامع في هدايتهم وخاف أن يفوته ذلك باقباله على ذلك الاعمى الفقير، كما هو مبين في أول سورة (عبس وتولى) والمروي أنها نزلت قبل سورة الانعام، وقد اغتر من زعم ذلك برواية منكرة باطلة، وهي ما رواه ابن أبي شيبة وابن ماجه وابن جرير وأبو الشيخ والبيهقي في الدلائل وغيرهم عن خباب قال: جاء الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا رسول الله (ص) مع صهيب و بلال وعمار وخباب قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حول النبي (ص) حقروهم فأتوه فخلوا به وقالوا نريد ان تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحي ان ترانا العرب مع هذه الاعبد فان نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت. قال «نعم» قالوا اكتب لنا عليك كتابا، قال فدعا بصحيفة ودعا عليا ليكتب ونحن قعود في ناحية فنزل جبريل فقال (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية. فرمى رسول الله (ص) الصحيفة ثم دعانا فأتيناه. قال الحافظ ابن كثير بعد ايراده بسنده عند ابن ابي حاتم:

ورواه ابن جرير من حديث اسباط به ، وهذا حديث غريب فان هذه الآية مكية والاقرع بن حابس وعيينة انما اسلما بعد الهجرة بدهر ، اه وأقول ان هذه الرواية باطلة من وجوه منها ماذكره الحافظ ابن كثير من تأخر اسلام الاقرع وعيينة . وظاهر مافي الاصابة أن الاقرع بن حابس اسلم قبيل فتح مكة وصرح الحافظ الذهبي بأنه أسلم بعد الفتح ويؤيده مافي السير . وأما عيينة فقد أسلم سنة خمس. ولم يعرف الرجلان النبي (ص) قبل اسلامهما ولم يكونا من اشراف مكة بل كانا من جفاة الاعراب ولما أسلما كانا من صنف المؤلفة قلوبهم ، ومنها انهما ذكرا وقدوم الوفود على النبي (ص) ولم يكن ذلك في مكة بل كان الناس فيها يصدون عنه صدودا ، وانما كان في أواخر عمره (ص) بعد الهجرة. ومنها ما تقدم آنفا من عدم جواز إجابته (ص) مثل هذا الطلب ، ولو مع القصد الحسن ، بعد قوله تعالى له « كلا » في سورة عبس .

وقد استشكل بعض المفسرين قوله تعالى (وما من حسابك عليهم من شيء) بناء على ان تعليل نفي ملك النبي (ص) لطردهم يتم بنفي كونه يملك شيئا من حسابهم، وان هذه الزيادة وان كانت حقا لايظهر لها دخل في التعليل . ويجاب على طريقتنا بأن طرد القوي للضعيف أو الكبير للصغير قد يترتب على محاسبة كل منهما للآخر فكم من قوي حاسب ضعيفا على عمل وجازاه عليه بالطرد ، وكم من ضعيف حاسب قويا على حقه وطالبه به أو على حق من حقوق أمته فطرده القوي لمناقشته إياه الحساب ؟ فلما بين ههنا انه لاحق لاحد الفريقين في حساب الآخر على شيء ما علم ان القوي منهما لاحق له في طرد الضعيف بحال من الاحوال، فاذاً لا يكون طرده إياه — ان وقع — الاظلما . وعلى تقدير التسليم يقال انه لايستنكر في الكلام المراد به الهداية والارشاد ، ان يزاد فيه من الفوائد الاستطرادية ماينا سب المقام ، فلما بين تعالى للرسول انه لم يجعل من حقه على المؤمنين ان يحاسبهم على اعمالهم الدينية ويجازيهم عليها ، لان هذا من حق ربهم وإلههم ، لا من حق رسولهم ، بين له أيضا انه لم يجعل من حق المؤمنين على الرسول أن يحاسبوه على شيء من أعماله الخاصة به، ولا العامة كتبليغ الدين وبيانه ، ولو شاء لفعل ،كما جعل حق الامر بالمعروف

والنهي عن المنكر لبعض المؤمنين على بعض ، سواء في ذلك أئمتهم ورعيتهم، فالامام (السلطان) راع وهو مسؤول عن رعيته، لأهل الحل والعقد من الامة أن يحاسبوه كما يحاسب هو من دونه من العمال . وليس لاحد من الناس أن يحاسب الرسول على سياسته اوتبليغه دعوة ربه، ولكن للرسول ان يحاسب الناس على معاملة بعضهم لبعض عند مايكونون أمة مقيدة في أعمالها الدينية بشريعة ذلك الرسول، ولما نزلت سورة الانعام لم يكن المسلمون كذلك ، والظاهر ان عموم النفي فيها قد خصص بعد الهجرة ، ان لم يكن المراد في الاصل خصوص العبادة . وقال الزمخشري في نكتة ضم الجملة الثانية الى الاولى: قدجعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد، وهو المعني في قوله (ولا تزر وازرة وزر اخرى) ولا يستقل بهذا المعنى الا الجملتان جميعا ، كانه قيل لاتؤاخذ انت ولا هم بحساب صاحبه اه اي لا يؤاخذ احد منكما بحساب الآخر . وقال ابو السعود : وذكر قوله (وما من حسابك عليهم من شيء) مع ان الجواب قد تم بما قبله للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه (ص) بنظمه في سلك مالا شبهة فيه اصلا وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام عليهم على طريق قوله تعالى (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) اه ثم زعم ان ما قاله الزمخشري غير حقيق بجلالة شأن التنزيل. وتبعه الآلوسي كعادته ولم يعز الكلام اليه هنا . ولعل المتأمل يرى ماقلناه هو الحقيق بجلال شأن التنزيل ، لانه — على كونه هو المتبادر من الكلام — مبني على التأسيس ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

قال الآلوسي : وتقديم خطابه (ص) في الموضعين قيل للتشريف له عليه أشرف الصلاة وأفضل السلام والا كان الظاهر : وما عليهم من حسابك من شيء: بتقديم على ومجرورها كما في الاول . وقيل ان تقديم عليك في الجملة الاولى للقصد الى ايراد النفي على اختصاص حسابهم به (ص) اذ هو الداعي الى تصديه عليه الصلاة والسلام لحسابهم اه . والصواب ان التقديم في الموضعين جاء على الاصل العام في اللغة وهو تقديم الاهم بحسب سياق الكلام ، والاهم في الاول النفي وفي الثاني المنفي ، أي الاهم في كل موضع ما يتعلق به (ص) لانه تعليل لانتفاء عمل له (وهو الطرد) مترتب على ذلك النفي ، ولو كان الثاني تعليلا لعمل لهم لقال :

وما عليهم من حسابك من شيء فيطردوك . وما شرحناه في تفسير الجملتين يغني عن التفصيل في بيان هذا المعنى .

والآية تدل على نفي الرياسة الدينية المعهودة في الملل الاخرى وهي سيطرة رؤساء الدين على أهل دينهم في عقائدهم وعباداتهم ومحاسبتهم عليها وعقاب من يرون عقابه منهم حتى بالطرد من الدين والحرمان من حقوقه . ويجب في بعض تلك الملل ان يعترف كل مكلف من ذكر وانثى للرئيس الديني بأعماله النفسية والبدنية وللرئيس ان يغفر له مايعترف به من المعاصي. ويعتقدون ان مغفرة الله تعالى تتبع مغفرته. واذا كان الله تعالى لم يجعل للرسول الذي أوجب طاعته حق محاسبة الناس على أعمالهم الدينية ونيتهم فيها ولا حق طردهم من حضرته — دع حق طردهم من الدين — فكيف يمكن ان يكون لمن دونه من الامراء أو القضاة أو غيرهم من الرؤساء مثل هذا الحق ؟ ويستنبط من الآية أن لا يجوز لرؤساء المدارس الدينية ولا ينبغي لغيرهم عقاب أحد من طلاب العلم بالحرمان من بعض الدروس فضلا عن طرده من المدرسة، وحرمانه من تلقي الدين والعلم البتة . وقد كان من هدي الرسول (ص) تأليف قلوب ضعفاء الايمان حتى بعد قوة الاسلام واعزازه ، بل كان يعامل المنافقين بما يقتضيه ظاهر اسلامهم ، عملا بقاعدة بناء الاحكام على الظواهر ، وان الله هو الذي يتولى السرائر ، فأين هذا من طرد كملة المؤمنين السابقين الاولين، الذين لم يكن لهم حظ دنيوي من اسلامهم الا الصبر على البلاء المبين ، والعذاب الاليم ؟

﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ﴾ أي ومثل ذلك الفتن — أي الابتلاء والاختبار — العظيم ، الذي دل عليه النظم الكريم، بمعونة وقائع الاحوال ، وما كان عند نزول السورة من التفاوت بين المؤمنين والكفار ، فتنا بعضهم ببعض ، أي جعلنا بحسب سنتنا في غرائز البشر وأخلاقهم بعضهم فتنة لبعض تظهر به حقيقة حاله غير مشوبة بشيء من الشوائب التي تلتبس بها في العادة ، كما يظهر الصائغ حقيقة الذهب والفضة بفتنهما بالنار أو بعرضهما على الفتانة (حجر الصائغ) ﴿ ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ أي ليترتب على هذا الفتن ان يقول المفتونون من الاقوياء المستكبرين ، في شأن الضعفاء من المؤمنين،: أهؤلاء الصعاليك من العبيد

والموالي والفقراء والمساكين من الله عليهم فخصهم بهذه النعمة العظيمة من جملتنا ومجموعنا أومن دوننا؟ المن الاثقال بنعمة عظيمة أونعم كثيرة، والاستفهام للانكار والتعجيب، يعنون انه لا يتأتى ذلك لانهم هم المفضلون عند الله تعالى بما أعطاهم من الغنى والثروة، والجاه والقوة، فلو كان هذا الدين خيرا لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء، قياسا على ما أعطاهم قبله من الجاه والثراء. ومن شواهد هذا القياس ماحكاه الله عنهم في قوله (٤٦: ١٠ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه) وقوله (٤٣: ٣٠ وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) الخ قال المفسرون أي عظيم بالمال والجاه كالوليد بن المغيرة المخزومي من مكة وهي احدى القريتين أو عروة ابن مسعود الثقفي من الطائف وهي القرية الاخرى. — وقيل المراد بعظيم مكة أبو جهل. — والشواهد على هذا القياس الجهلي كثيرة عنهم وعن غيرهم

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ وهذا الاستفهام للتقرير على أكمل وجه لبنائه على احاطة علمه تعالى، ووجه الرد أن الحقيق بمنّ الله وزيادة نعمه انما هم الذين يقدرونها قدرها، ويعرفون حق المنعم بها، فيشكرونها له، باستعمالها فيما تتم به حكمته وتنال مرضاته — لا من سبق إنعامه عليهم فكفروا وبطروا، وعتوا عن أمره واستكبروا، بل هؤلاء جديرون بأن يسلب منهم، ما كان أنعم به عليهم، وبهذا مضت سنته في عباده، ولولا ذلك لكانت النعم خالدة تالدة لا تنزع ممن أوتيها؛ بل تزاد وتضاعف له وان كفر بها، واذاً لما افتقر غني، ولا ضعف قوي، ولا ذل عزيز، ولا ثل عرش أمير، وهل الحق الواقع الاخلاف هذا؟ وهل فتن أولئك الكبراء الا بالواقع لهم من الغنى والقوة فظنوا لقصر نظرهم، وغرورهم. اضرهم، وجهلهم بسنة الله في أمثالهم، انه تعالى ما أعطاهم ذلك الا تكريما لذواتهم، وتفضيلا لهم على غيرهم، حتى إن أحدهم ليحسب ان هذا حق له على ربه في الدنيا والآخرة، وان كان لا يؤمن بالآخرة، كما بين تعالى ذلك بقوله (٤١: ٤٩ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى) وأنزل في العاصي ابن وائل من طغاة قريش (١٩: ٧٧ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) أي في الآخرة — الآيات —

وقال بعض المغرورين بهذا القياس

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

وقد كشف الله تعالى هذا الغرور في آيات كثيرة وضرب لاصحابه الامثال كمثل ذي الجنتين في سورة الكهف، وزجر أهله وأضدادهم في سورة الفجر، وفصل لهم الحقيقة في سورة الاسراء، بقوله (١٧ : ٢٠ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء)

وهذا الرد على المشركين هنا يدل على أنه لا يدوم لهم من النعم ما اغتروا به، ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذي صبروا عليه، بل لا بد ان تنعكس الحال ، فيسلب أولئك الاقوياء ما اعطوا من القوة والمال، وتدول الدولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين، فيكونوا هم الائمة الوارثين، لان الله تعالى وفقهم للايمان بما في انفسهم من الاستعداد للشكر وهو يوجب المزيد (١٤ : ٩ وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد) وكذلك كان ، وصدق وعد الرحمن ، وظهر اعجاز القرآن ، وما بعد بيان الله تعالى من بيان، وإننا نرى الناس عن هدايته غافلون ، و بوجوه إعجازه جاهلون ، حتى ان فيمن يسمون المسلمين منهم ، من يفتتن بشبهة أولئك المشركين الداحضة ، فيجعلها حجة ناهضة ، تارة على تفضيل الاغنياء على الفقراء ، وتارة على تفضيل الامم القوية على الامم الضعيفة ، جاهلين ان الفضيلة الصحيحة في شكر النعم باستعمالها فيما يرضي الرب ، لا على أعيان النعم التي ترى في اليد ، فرب غني شاكر، ورب فقير صابر ، وكم من منعم سلب النعمة بكفرها ، وكم من محروم أوتي النعم بالاستعداد لشكرها ، ثم زيدت بقدر شكره لها ، وكم من قوي أضعفه الله ببغيه ، وكم من ذليل أعزه الله بايمانه وعدله ،

هذا وان ظاهر حكاية قول المفتونين من المشركين يدل على ان المراد بقوله (فتنا بعضهم ببعض) فتنا كبراء المشركين بضعفاء المؤمنين — أي اختبرنا به حالهم في كون تركهم للايمان لم يكن الاجحودا ناشئا عن الكبر والعلوّ في الارض لا عن حجة ولا شبهة مما يظهرونه ، ومفهومه ان ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتتنو بغنى كبراء المشركين وقوتهم ، وقد زعم بعض المفسرين انهم فتنوا وان لم تبين الآية كيفيته ذلك اذ لم تحك شيئا عن لسانهم . وقد ورد في الاختبار العام ، في

سورة الفرقان ، (٢٥ : ٢٠ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) أي جعلنا كلا منكم اختباراً للآخر في اختلاف حاله معه بالغنى والفقر، أوالقوة والضعف، أوالصحة والمرض، أوالعلم والجهل، أوغيرذلك : هذا يحتقرهذا و يبغي عليه ، وهذا يحسد هذا ويكيد له ، فاصبروا فانه لا يسلم من هذه الفتن الا الصابرون . نسأل الله تعالى ان يجعلنا منهم .

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لايسع الناس عامة، ونشترط على السائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعدذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بماشاء من الألقاب ان شاء . وانما نذكر الاسئلة بالترتيب غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه، وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذرصحيح لاغفاله

﴿ استدارة الزمان والنسيئة في الحج ﴾

(س ٢١) من أحد قراء المنار من كبراء مكة المكرمة

الذي أحيط به علم حضرة الفاضل الاستاذ اني أستفسر عما رسخ بفكري عند تلاوة قوله تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قال صلى الله عليه وسلم « ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » قال أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني في فتح الباري بشرح صحيح البخاري : المراد بالزمان النسبة وقوله كهيئته أي استدار استدارة مثل حالته ... ولفظ الزمان يطلق على قليل الوقت

وكثيره والمراد باستدارته وقوع تاسع ذي الحجة في الوقت الذي حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوي الليل والنهار » فلا يخفى ان مفهوم منطوق الحديث الشريف استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض مع ما تضمنه شرح ابن حجر بقوله المراد باستدارته وقوع تاسع ذي الحجة في الوقت الذي حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوي الليل والنهار ان وقت الوقوف بعرفة لا يكون الا في ذلك اليوم الذي تحل فيه الشمس برج الحمل لا يتقدم ولا يتأخر واذا تقدم أو تأخر دخلت النسيئة معنى اذ لاغرو ان وقت الوقوف من بعد ذلك اليوم لم يقع في ذلك الوقت لانه لا أقل من تأخر الوقوف كل عام عشرة ايام بحسب الفصول على حساب الاشهر الهلالية. فان قلتم هذا امر مقرر مشى عليه الصحابة والتابعون من بعده صلى الله عليه وسلم وهلم جرا الى الآن وعليه جاء في تفسير قوله تعالى (يسئلونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج) ان المعتبر في الحج الاشهر الهلالية . قلنا حينئذ يترتب على هذا أنه لافائدة لما افهمه منطوق الحديث الشريف وهو لاينطق عن الهوى، ولا معنى لما شرحه ابن حجر في قوله في ذلك اليوم الذي حلت فيه الشمس برج الحمل. وهذا اذا كان السؤال في الآية الشريفة عن الهلال فقط وأما اذا جرينا على ان السؤال كان عن جميع الاهلة حيث دخلت الشمس في هذا الجمع فحينئذ السؤال قد توجه بلا اشتباه، حيث ان ماذكر من مفهوم الآية والحديث المتقدم ذكرها يؤيد أن المراد بقوله والحج أن ميقات الحج الشمس حينما تحل في برج الحمل افتونا مأجورين أمين

(ج) ليس في منطوق الحديث الشريف ولا مفهومه أن استدارة الزمان هي وقوع تاسع ذي الحجة في أول يوم من برج الحمل ، ولا ذلك مطابق للواقع . وانما أخذه الحافظ من قول بعض العلماء لا من حديث آخر فقد قال في شرح الحديث من كتاب بدء الخلق من الفتح : وزعم يوسف ابن عبد الملك في كتابه تفضيل الازمنة ان هذه المقالة صدرت من النبي (ص) في شهر مارس وهو آدار وهو برمهات بالقبطية وفيه يستوي الليل والنهار عند حلول الشمس في برج الحمل . اه ومنه يعلم انه ذكر هذا لبيان الواقع ، ولا أدري من اين اخذ الحافظ ان تاسع ذي الحجة وافق

في تلك السنة دخول الشمس في برج الحمل فهو لم ينقل عن يوسف بن عبد الملك ذلك. والواقع ان أول ذي الحجة من تلك السنة وهي العاشرة كان يوم الخميس كما ثبت في كتب الحديث وهو يوافق ٢٧ فبراير وثاني برمهات ، وفي بعض كتب التقويم ان أوله الجمعة ٢٨ فبراير ٣ برمهات وعلى كل من الحسابين يكون دخول الشمس في برج الحمل بعد اليوم التاسع ، وهب انه كان فيه فما ذكرتم له الا بيان للواقع. وكل من موافقة وقوع الوقوف في أول يوم من برج الحمل وموافقة عام حجة الوداع لاول عام انتظم فيه حساب السنين في أثر تكوين السموات والارض بهذه الحالة لادخل له في فريضة الحج. على أننا ان سلمنا أن هذا المفهوم المدعى في السؤال هو مفهوم الحديث نقول أنه مفهوم مخالفة اشترط من يحتجون به ان لا يعارضه ماهو أقوى منه من منطوق أو مفهوم موافقة ، وهذا المفهوم يعارضه الكتاب والسنة اذ لو جعل الحج في فصل الربيع تابعا للحساب الشمسي لخرج من الاشهر الحرم المعلومات عند العرب بالتواتر من عهد ابراهيم واسماعيل اللذين فرض الله الحج على ألسنتهما وهو قوله تعالى (الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج) الخ وهن الاشهر المتواليات في حديث الاستدارة. وكانت حكمة جعل الحج في الاشهر الحرم ان يأمن الحجاج على انفسهم في ذهابهم الى مكة وايابهم منها الى أوطانهم فلا يغير عليهم احد من الاعراب كعادتهم .

واما فائدة الحديث فهي تقرير إبطال النسيء ولوازمه . قال تعالى بعد الآية المذكورة في أول السؤال (٩ : ٣٧ انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله) وهو ماجروا عليه من تأخير بعض الاشهر الحرم الى غيره أي استحلال الشهر الحرام نفسه وتحريم شهر آخر بدلا منه لما كانوا يرون من الحاجة الى الاغارة في الشهر الحرام. مثال ذلك انهم كانوا يؤخرون تحريم القتال في المحرم الذي يعودون فيه من الحج الى صفر و يعلنون ذلك في (منى) قبل انصرافهم من الحج ، واذا احتاجوا اخروا صفر الى ربيع وهلم جرًا حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها . وروي ان القلمس بن امية بن عوف نسأ لهم الشهور اربعين سنة، فترتب على ذلك أنهم أحلوا جميع ماحرم الله واخروا

الحج عن وقته الذي شرعه الله فيه حتى ان السنة التاسعة التي حج فيها أبو بكر بأمر النبي (ص) كان الوقوف فيها في شهر ذي القعدة كما قال مجاهد، وتلتها حجة الوداع فكان فيها الوقوف في ذي الحجة وهو الشهر الذي فرض الله الوقوف فيه. فكانت استدارة الزمان أن رجع حساب الحج الى أصله وحرم النسيء البتة فزال السبب الذي كان يتأخر فيه الحج من الاشهر المعلومات التي فرضه الله فيها. وافاد الحديث أن هذا الحساب حقيقي صحيح في نفسه ليس فيه من خطأ النسيء شيء. وقد قرأت بعد كتابة ماذكر ما كتبه الحافظ على الحديث في تفسير سورة براءة فاذا به قد نقل هذا المعنى عن الخطابي

وأما ماذكرتم من الفرق بين الهلال والاهلة فلا نعلم له مأخذا من اللغة ولا أصلا من الرواية فالاهلة جمع هلال وهو اسم للقمر عند مايبدو في أول ليلة من الشهر الى ثلاث ليال وقيل الى سبع وفي الليلتين الاخيرتين أو الثلاث الاخيرة منه. فاذا كان هذا اللفظ لايطلق مفردا على الشمس فكيف تدخل الشمس في مفهوم جمعه؟

﴿ تصحيح في تفسير هذا الجزء من المنار ﴾

بعد ان طبع تفسير هذا الجزء وأردنا طبعه على حدته أعدنا النظر فيه فرأينا فيه ما يحتاج الى التصحيح والتنقيح . ومما صححناه فيه ما يأتي :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٨٧	٢٤	القياس الجلي	القياس
»	٢٥	أو السنة هو	أو السنة وما قطع فيه بنفي الفارق هو
»	»	الصحيح	الصحيح الذي لاوجه للخلاف فيه
٥٩١	١	والله أعلم بالظالمين[1]	أليس الله بأعلم بالشاكرين
٥٩٦	١٠	عاقبتهم عنه	عاقبتهم عنده
٥٩٧	١١	من طردهم	عن طرد

(١) سبب هذا الخطأ انه نقل عن كتاب الدر المنثور المطبوع بلا تأمل

ذكرى المولد النبوي (*)

٣

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنْ دَارِهِ إِلَى دَارِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ خَرَجَا مُتَزَوِّدَيْنِ مِنْ خَوْخَةٍ (١) فيها وَاسْتَخْفَيَا فِي الْغَارِ الْمَعْرُوفِ بِغَارِ ثَوْرٍ (٢)؛ وَكَانَا قَدِ اسْتَأْجَرَا دَلِيلاً مَاهِرًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِيَرْحَلَ بِهِمَا، وَأَعْطَيَاهُ رَاحِلَتَيْهِمَا وَأَمَّنَاهُ عَلَى سِرِّهِمَا (٣) وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَكَتَمَ أَمْرَهُمَا وَوَافَاهُمَا فِي الْمِيعَادِ، وَلَمَّا عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِخُرُوجِهِمَا، خَرَجَتْ بِالْقَافَةِ فِي طَلَبِهِمَا. (٤) حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَوْا إِلَى بَابِ الْغَارِ، صَرَفَ اللهُ عَنْهُ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ يَارَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا ؟ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا » وَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثٍ جَاءَ الدَّلِيلُ فَرَحَلَ بِهِمَا، وَأَرْدَفَ أَبُو بَكْرٍ مَوْلَاهُ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَهَاجَرَ مَعَهُمَا، وَكَانَتْ نَارُ الطَّلَبِ قَدْ خَمِدَتْ عَنْهُمَا، وَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ

---

*) تابع لما نشر في الجزء الثامن ص ٤٧٣

(١) الخوخة الكوة النافذة والباب الصغير في الباب الكبير

(٢) ثور اسم جبل معروف من جبال مكة والغار لا يزال فيه الى اليوم

(٣) فيه من العبرة ما كان عند العرب من الامانة والصدق والوفاء

(٤) القافة جمع قائف وهو الذي يعرف الآثار فاذا رأى أثر الاقدام أو الاخفاف أو الحوافر فى الارض استدل بها على عددها ووجهة سيرها

لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهِمَا دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ مِنْ حِفْظِ اللهِ وَإِكْرَامِهِ لَهُمَا

وَلَمَّا بَلَغَ الأَنْصَارَ خُرُوجُهُ صلى الله عليه وسلم مِنْ مَكَّةَ ، كَانُوا يَخْرُجُونَ صَبِيحَةَ كُلِّ يَوْمٍ يَنْتَظِرُونَهُ فِي الْحَرَّةِ ،(١) وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدِّيَارِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَغْلِبَهُمُ الشَّمْسُ عَلَى الظِّلَالِ(٢) حَتَّى وَافَاهُمْ بِقُبَاءَ(٣) يَوْمَ الإِثْنَيْنِ ثَامِنَ رَبِيعٍ الأَوَّلِ فَتَلَقَّوْهُ بِالإِكْرَامِ، وَأَقَامَ فِيهَا مُدَّةَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، وَكَانَ نُزُولُهُ فِي بَنِي عَمْرِو ابْنِ عَوْفٍ ، وَبَنَى فِيهَا مَسْجِدَهَا الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عِنْدَ دُخُولِ الشَّمْسِ فِي بُرْجِ الْمِيزَانِ ، وَهُوَ أَوَّلُ الاعْتِدَالِ الْخَرِيفِيِّ فِي الزَّمَانِ ، فَكَانَ ذَلِكَ رَمْزًا لِمَا فِي شَرِيعَتِهِ مِنَ الاعْتِدَالِ ، وَكَوْنِهَا آخِرَ الشَّرَائِعِ الإِلٰهِيَّةِ الَّتِي يَبْلُغُ بِهَا الدِّينُ غَايَةَ التَّمَامِ وَالْكَمَالِ ، وَقَدْ أَدْرَكَتْهُ الْجُمُعَةُ فِي بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ فَجَمَّعَ بِهِمْ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي فِي بَطْنِ الْوَادِ ، ثُمَّ رَكِبَ فَأَخَذُوا بِخِطَامِ نَاقَتِهِ : هَلُمَّ إِلَى الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَالْمَنَعَةِ وَالسِّلَاحِ(٤) ، فَقَالَ « خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » ، وَكُلَّمَا مَرَّتْ بِدَارٍ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ رَغِبُوا إِلَيْهِ فِي النُّزُولِ

(١) الحرة موضع بظاهر المدينة من جهة مكة فيه حجارة سود

(٢) أي عند ما يقرب وقت الظهر ويتقلص ظلال الجدر حتى كأن الشمس تغالب المستظل بها عليها (٣) موضع بظاهر المدينة فيه قرية واصله اسم لبئر كانت هناك فهو مؤنث ممنوع من الصرف ويصرف بمعنى الموضع ، و يقصر أيضا

(٤) الخطام الحبل الذي يوضع في مخطم الراحلة أي أنفها لتقاد به و : هلم الخ حكاية لقولهم أي قائلين هلم أي أقبل وتعال الى قوتي الكثرة والاستعداد

عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ « دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَة » وَمَا زَالَتْ تَمُرُّ بِدَارٍ بَعْدَ دَارٍ، إِلَى أَنْ بَرَكَتْ فِي مَوْضِعِ مَسْجِدِهِ الْيَوْمَ مِنْ دُورِ أَخْوَالِهِ بَنِي النَّجَّار،(١) فَبَادَرَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ إِلَى رَحْلِهِ فَأَدْخَلَهُ فِي بَيْتِهِ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ « الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ » ؛ وَأَقَامَ فِي مَنْزِلِ أَبِي أَيُّوبَ حَتَّى بَنَى حُجْرَتَهُ وَمَسْجِدَهُ ، وَاسْتَحْضَرَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ أَهْلَ بَيْتِهِ مِنْ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ،(٢) وَلَمْ يَفْرَحِ الْأَنْصَارُ بِشَيْءٍ كَفَرَحِهِمْ بِقُدُومِهِ صلى الله عليه وسلم ، وَمِثْلُهُ عَوْدَتُهُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ (٣) وَأَيُّ شَرَفٍ وَفَخْرٍ وَسَعَادَةٍ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ، أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ الَّتِي افْتَخَرَ بِهَا شَاعِرُهُمْ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ :

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً　يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى حَبِيباً مُوَاتِياً(٤)
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ　فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِياً(٥)

---

(١) هم قبيلة من الانصار وهم أخواله (ص) من جهة جده عبد المطلب فان أمه سلمى بنت عمرو منهم (٢) أرسل (ص) زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم فاحضرا فاطمة وأم كلثوم ابنتيه وسودة بنت زمعة زوجه التي تزوجها بعد خديجة وأسامة بن زيد وأمه أم أيمن. وأما بنته زينب فلم يمكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج . وقد خرج مع هؤلاء عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة فنزلوا في بيت حارثة بن النعمان (٣) هو فتح مكة

(٤) ثوى أقام والحجة بالكسر السنة والبضع ما بين ٣ الى ٩ أي أقام ثلاث عشرة سنة بمكة يذكر و يعظ بالدعوة الى الله في أثنائها وانما دعا في عشر منها (٥) المواسم مجامع الحج . فلم ير من يؤويه أي يجعل له مأوى أي منزلا يامن فيه على نفسه ولم ير داعيا الى ذلك أو الى الله بمساعدته ونصره

فلمّا أتانا واستقرّت به النّوى وأصبح مسرورًا بطيبة راضيا(١)
وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم بعيد ولا يخشى من النّاس باغيا(٢)
بذلنا له الأموال من حلّ مالنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا(٣)
نعادي الّذي عادى من النّاس كلّهم
جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا(٤)
ونعلم أنّ الله لا ربّ غيره وأنّ كتاب الله أصبح هاديا(٥)

اخلاقه وسيرته بعد الهجرة مع المؤمنين

وحاله مع أهل الكتاب والمشركين

كانَ صلى الله عليه وسلم أكرمَ الخلق أخلاقاً، وأعلاهم فضائل وآداباً، امتاز بذلك في عهد الجاهلية، فكيف يدرك كنهه بعد النبوة، وقد خاطبه العلي العليم، بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم)، كان جامعاً بين اللطف والتواضع والدماثة، وبين العزة والوقار والمهابة، من رآه

(١) النوى وجهة المسافر التي ينويها بسفره. وطيبة المدينة. ويروى البيت في سيرة ابن هشام هكذا : فلما أتانا أظهر الله دينه فاصبح مسرورا بطيبة راضيا

(٢) الباغي المعتدي ويروى البيت هكذا
فاصبح لايخشى من الناس واحدا قريباً ولا يخشى من الناس نائيا

(٣) الوغى الحرب والتآسي مثل التعازي ما يتسلى به المرء عن المكاره

(٤) أي نعادي الذي عاداه من جميع الناس وان كان من قبل حبيباً لنا لا نؤثر عليه أحدا

(٥) يروى هذا البيت بالفاظ أخرى في سيرة ابن هشام وفيها أبيات أخرى ايضا

بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، (١) وَجَامِعاً بَيْنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحَيَاءِ، وَبَيْنَ الشَّجَاعَةِ وَالْحَزْمِ وَالْمَضَاءِ، فَكَانَ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى أَثْبَتَ النَّاسِ، وَكَانُوا يَلُوذُونَ بِهِ إِذَا اشْتَدَّ الْبَاسُ (٢)، حَتَّى إِنَّهُ ثَبَتَ وَحْدَهُ فِي يَوْمِ أُحُدٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ بِيَدِهِ غَيْرَ أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ (٣)، وَإِنَّمَا كَانَ يُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ دِفَاعاً، وَيُرْشِدُ الْمُقَاتِلِينَ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّثْبِيتِ إِرْشَادًا، وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ، وَلاَ يُحَابِي فِي الْحَقِّ عَشِيرَتَهُ وَلاَ أَبْنَاءَ جِنْسِهِ، وَكَانَ عَلَى حِلْمِهِ الْوَاسِعِ، لاَ تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ، وَكَانَ أَجْوَدَ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ، وَالسُّحُبِ الْمُنْهَمِلَةِ، وَكَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ صَبْرًا، وَأَحْسَنَهُمْ لِلَّهِ وَلِلنَّاسِ شُكْرًا، (٤) وَكَانَ

(١) البديهة الفجاءة أي من رآه مفاجاة من غير سابق معرفة خافه او وقره واجله لما يتجلى في شمائله من الروعة والهيبة، ومن خالطه اي عاشره مخالطة معرفة احبه لحسن خلقه وكمال آدابه وشدة رحمته وعنايته بامر معاشره. وهذا الكلام من وصف علي رضي الله عنه له صلى الله عليه وسلم (٢) البأس بالهمز ويخفف هنا للتناسب وهو الشدة والمكروه والمراد هنا الحرب ونحوها من المكاره الشديدة (٣) كان أبي من رءوس المشركين وصناديدهم وكان يعلف فرساً له بمكة اسمه العود ويقول اقتل عليه محمدا فبلغ النبي «ص» خبره فقال «بل انا اقتله ان شاء الله» فلما كان يوم احد ونكب المسلمون وانكشفوا عن النبي «ص» اقبل ابي مقنعاً بالحديد لايرى من بدنه شيء وجعل يقول اين هذا الذي يزعم انه نبي فليبرز لي فانه ان كان نبيا قتلني، فلما دنا من النبي «ص» اخذ النبي حربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها طعنة جاءت في ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة التي على الراس فكر الخبيث منهزما ومات من ذلك الجرح في طريقهم الى مكة قيل بسرف وقيل برابغ (٤) قال «ص» «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» رواه احمد والترمذي عن ابي سعيد

يحب اليسر ويأمر به، ويكره العسر وينهى عنه [١] ، ويأكل من الطعام ما وجد، لا يأبى المستلذ منه نسكا، ولا يتحراه تنعما وترفا، ولكنه كان يعتني بأمر الماء [٢] ، ويحب الطيب والنساء ، وكان يكثر الوصية بهن وباليتامى والأرقاء، ليمحو من أنفس الناس احتقار الضعفاء،

كان صلى الله عليه وسلم يربي المؤمنين بالقرآن ، وبما آتاه الله من الخلق العظيم والعرفان ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، حتى إنهم كانوا يتقاسمون المال والعقار ، وألف الله به بين قلوب الأوس والخزرج فاصبحوا بنعمته تعالى إخوانا ، وكانوا في الجاهلية أعداء لا يألو أحدهما الآخر بغيا وعدوانا ، وكان يشاور أصحابه في الأمر ، ويساوي بينهم في الإقبال والبشر ، ويوقر كبيرهم ويرحم صغيرهم ، ويكرم فقيرهم ، ويعود مريضهم ، ويشيع ميتهم ، ويقبل هديتهم ، ويجيب دعوتهم ، ويكون معهم كأحدهم

فأما اليهود من أهل الكتاب ، الذين كانوا في تلك الرحاب ، فقد وادعهم وأقرهم على دينهم ، وأمنهم على دمائهم وأموالهم ، على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا ولا يوالوا [٣] عدوه عليه، وأن لهم

(١) من وصاياه « يسروا ولا تعسروا ، و بشروا ولا تنفروا » رواه البخاري ومسلم وغيرهما (٢) كان احب الشراب اليه الحلو البارد كما في حديث عائشة في الشمائل وكان يستعذب له الماء من بيوت السقيا كما روى ابو داود والسقيا بالضم عين على بعد يوم من المدينة او اكثر (٣) أي لا يعاونوا ولا يناصرو

النَّصرَ على المؤمنين، ويتقون معهم ما داموا ظاهرين وأن لهم دينهم وللمسلمين دينهم، سواء في ذلك موالهم وأنفسهم، ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا عهده، وظاهروا عليه عدوه،

وأما المشركون فاشتدت عداوتهم له، وكانوا حرباً له ولمن آمن به، فلم يشتفوا بإخراجه وإخراجهم من ديارهم وأموالهم، وما كان من تعذيبهم لمواليهم وضعفائهم ونسائهم، لأجل إرجاعهم عن الإسلام، إلى ما كانوا عليه من عبادة الاصنام. حتى صارحوهم البغي والعدوان، فلم يكن للمسلم أمان على نفسه في مكان، إلا أن يمنعه أحد الأقوام، أو يصدهم عنه الشهر الحرام أو المسجد الحرام؛ على أن قريشاً صدتهم عن البيت، بعد أن قلدوا الهدي وأحرموا بالعمرة سنة ست[1]، حتى صالحهم ﷺ في الحديبية[2]، — والإسلام على ما صار إليه من المنعة والقوة[3] —، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس من مؤمنين وكافرين، وأن يرجع عنهم ذلك العام، ويخلوا بينه وبين مكة في العام المقبل ثلاثة أيام، وأن يرد عليهم من أتاه من أصحابهم ولو بقصد الإسلام،

(١) الاحرام وتقليد الهدي أي ما يهدى الى الحرم من الانعام دليل على عدم ارادة القتال (٢) الحديبية بالتخفيف كدويهية ويشدده أكثر المحدثين بئر سمي باسمها الموضع الذي حولها (وقيل واد هناك) وهو على نحو مرحلة من مكة من أسفلها عن طريق جدة. وكان هناك قرية، قيل هي في الحل وقيل في الحرم وقيل بعضها في الحل وبعضها في الحرم وهو أبعده عن مكة

(٣) كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ١٤٠٠ رجل أو ١٥٠٠

وَلَا يَرُدُّوا عَلَيْهِ مَنْ أَتَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ الْكِرَام ، وَكَانَ صلى الله عليه وسلم قَدْ رَأَى فِي الْمَنام ، أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَام ، فَظَنَّ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَة ، وَلِذَلِكَ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الاسْتِيَاءُ مِنَ الصُّلْحِ حَتَّى خِيفَتْ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَة ، (١) لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَة ، وَعَجَّلَ لَهُمْ بَعْضَ مَا وَعَدَهُمْ ثَمَّ مِنَ الْمَغَانِمِ الْكَثِيرَة ، (٢) وَذَلِكَ بُرْهَانٌ عَلَى إِيثَارِهِ صلى الله عليه وسلم لِلسَّلَامْ ، وَمَا كَانَتْ حُرُوبُهُ إِلَّا دِفَاعاً وَتَأْمِيناً لِدَعْوَةِ الْإِسْلَامْ ، وَكَانَ أَكْبَرَ فَوَائِدِ ذَلِكَ الصُّلْحِ اخْتِلَاطُ الْمُسْلِمِينَ بِالْمُشْرِكِين ، وَإِسْمَاعُهُمُ الْقُرْآنَ وَتَبْلِيغُهُمْ حَقِيقَةَ الدِّين ، وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ لِتَبْلِيغِ الْمُلُوكِ الْمُجَاوِرِين ، (٣) فَصَارَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِيهِ آمِنِينَ مُقْتَنِعِين ، وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَة ، مَنْ كَانَ يُخْفِيهِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ خَوْفَ الْفِتْنَة ، وَحَسْبُكَ أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ سُورَةَ الْفَتْحِ ، فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ هَذَا الصُّلْحِ ؛ مُبَيِّنَةً مَا فِيهِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْمَصَالِحِ ، وَمُشْتَمِلَةً عَلَى أَخْبَارِ الْغَيْبِ وَالْوَعْدِ بِالنَّصْرِ وَالْمَغَانِمِ ، فَسَمَّاهُ فَتْحاً مُبِيناً ، وَأَعْقَبَهُ كَمَا وَعَدَ نَصْراً عَزِيزاً ، إِذْ كَانَ تَمْهِيداً لِفَتْحِ

(١) لما صالح (ص) المشركين أمر المؤمنين بالتحلل من عمرتهم فلم يبادروا الى الامتثال لما عراهم من ذهول الحزن ، فدخل (ص) على أم سلمة وقال لها «هلك المسلمون» وذكر لها ما كان فأشارت عليه بأن يخرج ولا يكلم أحدا حتى ينحر هديه ويحلق رأسه ، فخرج ففعل ذلك فتبعوه فنحروا وصار يحلق بعضهم بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا من الغم

(٢) عجل لهم فتح خيبر فقد عاد (ص) من الحديبية في ذي الحجة فاقام في المدينة زهاء عشرين ليلة ثم خرج الى خيبر ففتحها في المحرم أول سنة سبع

(٣) ملوك جزيرة العرب والشام ومصر وفارس

مَكَّةَ، الَّذِي أَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ، وَازْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ إِيمَانًا، وَصَارَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا،

وَكَانَ فَتْحُ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ، وَفِي سَنَةِ عَشْرٍ حَجَّ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَجَّةَ الْوَدَاعِ، الَّتِي هَدَمَ فِيهَا قَوَاعِدَ الشِّرْكِ وَالْجَاهِلِيَّةِ وَقَرَّرَ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ، وَعَلَّمَ الْأُلُوفَ أَحْكَامَ الْمَنَاسِكِ (١)، وَأَمَرَ بِأَنْ يُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْهُمُ الْغَائِبَ، وَأَشْهَدَ اللهَ تَعَالَى وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنَّهُ بَلَّغَ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِ وَبَيَّنَهُ تَبْيِينًا، وَأَنْزَلَ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي مَسَاءِ عَرَفَةَ (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)

وَكَانَ صلى الله عليه وسلم قَدْ أَقَامَ فِي مَكَّةَ بَعْدَ بَدْءِ التَّبْلِيغِ عَشْرَ سِنِينَ، يَدْعُو إِلَى أُصُولِ الْإِيمَانِ وَكُلِّيَّاتِ الدِّينِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِتَطْهِيرِهَا مِنْ أَدْرَانِ الرَّذَائِلِ، وَتَحْلِيَتِهَا بِأَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَعَقَائِلِ الْفَضَائِلِ، وَاسْتِعْمَالِ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى مِنْ بَدَنِيَّةٍ وَعَقْلِيَّةٍ، وَسَمَاوِيَّةٍ وَأَرْضِيَّةٍ، فِيمَا تَظْهَرُ بِهِ حِكَمُهُ وَتُشَاهَدُ آيَاتُهُ فِي الْخَلْقِ، وَتَتَّسِعُ بِهَا الْعُلُومُ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا الْحَقُّ وَتَكْثُرُ مَوَارِدُ الرِّزْقِ، صَابِرًا مَعَ السَّابِقِينَ مِنَ

(١) المناسك أحكام الحج، وقد اختلف في عدد من حج مع الرسول (ص) حجة الوداع من ٤٠ ألفا الى مئة وعشرين ألفا. وسبب هذا الاختلاف انه خرج من المدينة بجماهير المسلمين فيها وفيما حولها وكان الناس ينضمون اليهم في الطريق عدا من حج من سائر بلاد العرب

الْمُؤْمِنِينَ، عَلَى الِاضْطِهَادِ وَالْأَذَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ دَخَلَ الْإِسْلَامُ بِالْهِجْرَةِ فِي عَهْدِ الْحُرِّيَّةِ، وَتَكَوَّنَتْ لَهُ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ، وَجَاءَ الْوَحْيُ فِيهِ مُفَصِّلًا لِمَا أُجْمِلَ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ مِنَ الْأَحْكَامِ. وَبَيَانُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ جَمِيعَ فُرُوعِ الْعِبَادَاتِ، وَكُلَّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ النُّصُوصِ وَالْقَوَاعِدِ لِلسِّيَاسَةِ وَفُرُوعِ الْمُعَامَلَاتِ، فَبِذَلِكَ كُلِّهِ أَكْمَلَ اللهُ الدِّينَ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ تَرَبَّى عَلَى ذَلِكَ الْأُلُوفُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَنَشَرُوا هَذَا الدِّينَ الْقَوِيمَ فِي الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ، فَأَرَوْا أُمَمَ الْحَضَارَةِ وَالْأَدْيَانِ الْقَدِيمَةِ، مِنَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسِّيرَةِ الْقَوِيمَةِ، مَا لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ بِأَعْيُنِهِمْ، وَلَا رَوَوْا نَظِيرَهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَقَدْ كَانَتْ مُدَّةُ التَّشْرِيعِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، كَمُدَّةِ التَّبْلِيغِ بَعْدَ الْبَعْثَةِ [1] فَبَعْدَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ [2] قَبَضَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ نَبِيَّهُ الْمُصْطَفَى، وَرَسُولَهُ الْمُجْتَبَى، وَرَفَعَ رُوحَهُ الطَّاهِرَةَ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فَتُوُفِّيَ ﷺ تَارِكًا لِلْأُمَّةِ مَا إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ لَنْ يَضِلُّوا مِنْ بَعْدِهِ، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتَهُ فِي تَبْيِينِهِ وَعِتْرَتَهُ الْعَامِلِينَ بِهِمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، [3]

---

(١) أي عشر سنين (٢) توفي (ص) يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة احدى عشرة وكذلك كانت ولادته وبعثته وهجرته في يوم الاثنين . وفي ذلك اشارة الى ان الايمان به يلي الايمان بالله تعالى، والشهادتان شاهدتان على ذلك (٣) روى مسلم في صحيحه من طرق عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله (ص) خطيبا بماء يدعى خمّا بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال « أما بعد الا أيها الناس فانما أنا بشر يوشك ان يأتي رسول ربي فاجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به — فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال — وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، =

وَكَذَا خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ، (١) وَعُلَمَاءُ أَصْحَابِهِ العَامِلُونَ (٢) ، مُؤَسِّساً

= أذ كركم الله في أهل بيتي، أذ كركم الله في اهل بيتي » وفسر زيد أهل بيته بمن حرم عليهم الصدقة قال وهم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس . ويقول آخرون هم علي وذريته من فاطمة عليهم السلام . ولعمري انهم كانوا أحفظ الناس لهديه حتى عند ظهور البدع وفتن الدنيا ولا يخلو عصر من طائفة منهم أو أفراد من الهداة المصلحين ، وان فتن الكثيرون منهم بغلاة المحبين ، فكانت فتنتهم لهم أعم وأدوم من فتنة الامراء الظالمين، اذ كان من أثرها في ذريتهم أن ترك اكثرهم العلم والاعمال النافعة استغناء عنهما بشرف النسب، غافلين عن قول جدهم علي المرتضى كرم الله وجهه: قيمة كل امرئ ما يحسنه . ولله در بيت الامامة في اليمن منهم فانهم لم يتركوا الاجتهاد في علوم الدين والمحافظة على الامامة الى اليوم. والثقل بالضم و بفتحتين الشيء النفيس المصون وكذا متاع المسافر وحشمه . قال النووي قال العلماء سميا ثقلين لعظمهما وكبير شانهما وقيل لثقل العمل بهما . وروى الترمذي من حديث جابر قال رأيت رسول الله (ص) في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول « اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي — أحدهما أعظم من الاخر — كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » وروى احمد والطبراني من حديث زيد بن ثابت مرفوعا « اني تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل ممدود بين السماء والارض وعترتي أهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » وعلم عليه السيوطي بالصحة. وروي نحوه من حديث أبي سعيد وحذيفة بن اسيد ورواته كثيرون وطرقه متعددة ذكرنا أصحها. وروي حديث بمعناه عن أبي هريرة وفيه لفظ السنة بدل العترة ومعناه صحيح ولا معارضة بينه و بين الآخر الذي هو أصح منه رواية. و يؤيده حديث مرسل في الموطأ

(١) ورد في مناقب الخلفاء الاربعة أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها وورد لفظ الخلفاء الراشدين في حديث العرباض بن سارية عند أبي داود والترمذي « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ » الخ

(٢) ورد في فضل أصحابه «ص» أحاديث كثيرة منها في صحيح مسلم انهم أمنة لأمته فاذا ذهبوا أتاهم ما يوعدون . ومعنى أمنة حفظة على الدين، ومنها الحديث الصحيح « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الخ رواه الشيخان وغيرهما . والقرن العصر طال أو قصر

لهم أمة عظيمة، ودولة عادلة رحيمة، وحكومة شورية حكيمة، قيدت فيها سلطة الفرد، بالشريعة العادلة وسيطرة أهل الحل والعقد،(١) مبشرا بأن ملكها سيعم الشرق والغرب، وينتظم ملك كسرى وقيصر، وأنه يظل عزيزا ما أقاموا الحق واعتصموا بالعدل، فإذا وسدوا الامر إلى غير أهله، فلينتظروا ساعتهم المضروبة لفقده،(٢) وبأنه لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق قوامة على أمر الله، إلى أن تقوم الساعة ويأتي أمر الله(٣)

وقد تم كل ما بشر به وأنذر، ولا تزال آيات نبوته تتجدد وتتكرر، فجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيا عن قومه، ورسولا عن أمته، وصلى الله وبارك عليه وعلى أهل بيته الطاهرين،(٤) وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الاسلام هو الذي شرع للناس شكل الحكومة التي يسمونها الديمقراطية فاقامها الراشدون بالعمل ثم هدمت بالتدريج (٢) اشارة الى حديث أبي هريرة عند البخاري « اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظروا الساعة » (٣) اشارة الى ما ورد في الصحيحين والسنن من الاحاديث كحديث ثوبان «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » وحديث المغيرة « لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» واللفظان هنا لمسلم وليس في البخاري « على الناس» وفي أحاديث أخرى ذكر عصابة تقاتل على الدين أي على حفظه. وذكر النووي ان الطائفة لا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل يجوز اجتماعهم في قطر أو بلد ويجوز تفرقهم، وذكر ان منهم الفقيه والمحدث والمفسر والمقاتل والقائم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر والزاهد والعابد . اي لان اقامة الحق تكون بالعلم بالكتاب والسنة وبثهما وبالعمل بهما وبالدفاع عنه بالحجة وبالقوة (٤) ذكر المباركة هنا مع الصلاة لموافقة الصلاة الابراهيمية المشروعة في الصلوات، والحمد لله على نعمه التي تتم بها الصالحات

علماء بغداد في القرن السادس

ومكانتهم في الوعظ والتذكير

قال الرحالة ابن جبير الاندلسي بعد ان وصف بغداد بأنها أمست بالنسبة الى ما كانت كالطلل الدارس وانتقد أخلاق أهلها ومعاملتهم وغرورهم ببلدهم ما نصه :

استغفر الله الا فقهاءهم المحدثين ، ووعاظهم المذكرين ، لاجرم ان لهم في طريقة الوعظ والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير ، والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير ، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرا من أوزارهم ، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم ، لكنهم معهم يضربون في حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلامد ، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه ، فالموفق منهم لايزال في مجلس ذكرٍ أيامَه كلها لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة ، فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية ، وفقيه المدرسة النظامية ، والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية ، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور ، فصعد المنبر وأخذ القراء امامه في القراءة على كراسي موضوعة ، فتوّقوا وشوّقوا وأتوا بتلاحين معجبة ، ونغمات محرجة مطربة ، ثم اندفع الشيخ الامام المذكور فخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل ، وايراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه ، ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصر ، وتقدم وما تأخر ، ودفعت اليه عدة رقاع منها ، فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على

كل واحدة منها وينبذبها الى أن فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجمع. فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورا هينا لينا، ظهرت فيه البركة والسكينة، ولا سيما آخر مجلسه، فانه تسرت حميا وعظه الى النفوس حتى أطارتها خشوعا، وفجرتها دموعا، وبادر التائبون اليه سقوطا على يده ووقوعا، فكم ناصية جزّ، وكم مفصل من مفاصل التائبين طبّق بالموعظة وحز، فبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة، وتتغمد الجناة، وتستدام العصمة والنجاة، والله تعالى يجازي كل ذي مقام عن مقامه، ويتغمد ببركة العلماء الاولياء عباده العاصين من سخطه وانتقامه، برحمته وكرمه انه المنعم الكريم لا رب سواه ولا معبود الا إياه

وشهدنا له مجلسا ثانيا اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور، وحضر ذلك اليوم سيّدُ العلماء الخراسانية، ورئيس الأئمة الشافعية، ودخل المدرسة النظامية بهزّ عظيم وتطريف آماق تشوقت له النفوس، فأخذ الامام المتقدم الذكر في وعظه مسرورا بحضوره ومتجملا به، فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر، ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخُجَنْديّ المتقدم الذكر فى هذا التقييد المشتهر المآثر والمكارم، المقدم بين الاكابر والاعاظم،

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين أبي الفضائل ابن علي الجوزي بازاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي، وهو يجلس به كل يوم سبت، فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كل الصيد، آية الزمان،

وقرة عين الايمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهور له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر

فأما نظمه فرضيُّ الطباع، مهياري الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بقس وسحبان، ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته، انه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئا، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق، فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات، الى ان يتكاملوا قراءة وقد أتوا بآيات مشتبهات، لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عددا، أو يسميها نسقا، فاذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشان في ايراد خطبته عجلا مبتدرا، وأفرغ في أصداف الاسماع من ألفاظه دررا، وانتظم أوائل الآيات المقروآت في أثناء خطبته فقرا، وأتى بها على نسق القراءة لها لا مقدما ولا مؤخرا، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها، فلو ان أبدع مَن في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء به آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلا، ويورد الخطبة الغراء بها عجلا؟ (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟) انَّ هذا لهو الفضل المبين. فحدث ولا حرج عن البحر، وهيهات ليس الخبرُ عنه كالخُبْر، ثم انه أتى بعد ان فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقا، وذابت بها الانفس احتراقا، الى ان علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا

عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعياً له، ومنهم من يغشى عليه، فيرفع في الاذرع اليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس انابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلولم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازات القفر، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوِجهة المفلحة الناجحة، والحمدلله على ان منّ بلقاء مَن يشهد الجماداتُ بفضله، ويضيق الوجود عن مثله، وفي أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل وتطير اليه الرقاع فيجاوب أسرع من طرفة عين، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه .

ثم شاهدنا مجلساً ثانيا له بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه، وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة، وخصّ بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم، ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلك الموضع، وقد بُسط بالحصر وجلوسه بهذا الموضع كلّ يوم خميس، فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور، وقعدنا الى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر وأرخى طيلسانه على رأسه تواضعاً لحرمة المكان، وقد تسطّر القراء امامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب، وشوقوا ماشاؤا، وأطربوا ماأرادوا، وبادرت العيون بارسال الدموع، فلما فرغوا من القراءة وقد أحصينا لهم تسع آيات، من سور مختلفات، صدع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات، ومشّى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى أن أكملها، وكانت الآية (الله

الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس) فتمادى على هذا السين ، وحسَّن أيّ تحسين ، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه ، ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته ، وكنى عنها بالستر الاشرف ، والجناب الارأف ، ثم سلك سبيله في الوعظ ، كلُّ ذلك بديهة لا روية ، ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروآت على النسق مرة أخرى ، فأرسلت وابلها العيون وأبدت النفوس سرّ شوقها المكنون ، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين ، وبالتوبة معلنين ، وطاشت الالباب والعقول ، وكثر الوَله والذهول ، وصارت النفوس لا تملك تحصيلا ، ولا تميز معقولا ، ولا تجد للصبر سبيلا ، ثم في أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرّحة التشويق ، بديعة الترقيق ، تشعل القلوب وجدا ، ويعود موضوعها النسيبي زهدّا . وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام ، وأصابت المقاتلَ سهامُ ذلك الكلام

أين فؤادي أذابه الوجدُ   وأين قلبي فما صحا بعدُ
ياسعد زدني جوى بذكرهم   بالله قل لي فديت ياسعدُ

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه ، الى أن خاف الافحام فابتدر القيام ، ونزل عن المنبر دَهِشاً عجلا ، وقد أطار القلوب وجلا ، وترك الناس على أحر من الجمر ، يشيعونه بالمدامع الحمر ، فمن معلن بالانتحاب ، ومن متعفر فى التراب ، فياله من مشهد ما أهول مرآه ، وما أسعد من رآه ، نفعنا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته ، بمنه وفضله .

وفي أول مجلسه أنشد قصيدا نيّر القبَس عراقي النفس في الخليفة أوله

في شغـل من الغرام شاغل   من هاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيها عند ذكر الخليفة

يا كلمات الله كوني عوذة   من العيون للامام الـكامل

فلما فرغ من انشاده وقد هز المجلس طربا ثم أخذ في شانه، وتمادى في ايراد سحر بيانه، وما كنا نحسب أن متكلما في الدنيا يعطى من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطي هذا الرجل، فسبحان من يخص بالـكمال من يشاء من عباده لا إله غيره

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن نستغرب شأنه بالاضافة لما عهدناه من متكلمي الغرب، وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة شرفهما الله مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد فصغرت بالاضافة لمجلس هذا الرجل الفذ في نفوسنا قدرا، ولم نستطب لها ذكرا، وأين تقعان مما أريد، وشتان بين اليزيدين، وهيهات الفتيان كثير، والمثل بمالك يسير،

ونزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه، ويروق استطلاعه، وحضرنا له مجلسا ثالثا يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور بازاء داره على الشط الشرقي فأخذت معجزاته البيانية مأخذها، فشاهدنا من أمره عجبا، صعّد بوعظه أنفاس الحاضرين سحبا، وأسال من أدمعهم وابلا سكبا، ثم جعل يردد في آخر مجلسه أبياتا من النسيب شوقاً زهديا وطربا، الى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والها مكتئبا، وغادر الكل متندما على نفسه منتحبا، لهفان ينادي ياحسرتا واحربا، والنادبون يدورون بنحيبهم دور الرحى، وكل منهم بعدُ من سكرته ماصحا، فسبحان من خلقه عبرة لأُولي الالباب، وجعله لتوبة عباده أقوى الاسباب، لا إله سواه .

الدكتور شبلي شميل

في اليوم الاول من هذه السنة الميلادية سنة (١٩١٧) اغتالت المنية الطبيب النطاسي ، الحكيم الاجتماعي ، العالم الطبيعي ، الاديب الكاتب ، الناظم الناثر ، الدكتور شبلي شميل الشهير بتصانيفه ومقالاته العلمية والاجتماعية في المجلات والجرائد العربية والفرنسية

كان شبلي فذا نادر المثل في مجموعة علومه واعماله وأفكاره وأخلاقه والذي يحملنا على ترجمته انه كان من طلاب الاصلاح المدني والتجديد الاجتماعي المخلصين — وقليل ماهم — لامن الذين اتخذوا العلم ذريعة لجمع المال ولا وسيلة للجاه كما هو شأن السواد الاعظم من المتعلمين ، فهو لم يدخر مالا ولم يتأثل عقارا ، ولم يصرف جل أوقاته للكسب ، بل كان اشتغاله بالامور الاجتماعية أكثر من اشتغاله بالطب ، ومثل هذا يكون مؤثرا في أهل جيله تأثيرا نافعا أو ضارا لا كالذين يعدون من العلماء بورقة شهادة يحملها كل منهم بيده ونرى أنه يعيش عمرا طويلا ثم يموت كما يموت العصفور لايترك أثرا في جيله ينسب اليه. لهذا نذكر عن هذا الرجل أهم مانرى فيه العبرة من ترجمته فنقول:

كان أول من نشر مذهب دارون باللغة العربية وانتصر له وناضل دونه اذ كان رجال الدين ولا سيما الكاثوليك الذين نشأ شميل على مذهبهم يعدون هذا المذهب من دعائم الكفر ، ولم يكتف الرجل بذلك بل كان يصرح قولا وكتابة بالتعطيل والالحاد، ولم يتجرأ أحد قبله على ما تجرأ عليه من ذلك فيما نعلم مع كثرة الذين زاغت عقائدهم من المتعلمين على الطريقة الاوربية الحديثة. ومن الغريب أن نرى المحامين عن النصرانية وكتبها الدينية كاليسوعيين (الجزويت) لم يتصدوا للرد على الدكتور شميل كدأبهم في الرد على أمثاله من كتاب الشرق والغرب ، وقد كانت مجلتهم (المشرق) واقفة بالمرصاد للمقتطف والهلال وغيرهما من الصحف المنشرة كلما نشر فيها شيء يخالف الدين أو المذهب الكاثوليكي ردوا عليه أشد الرد . فاذا كان

الجزويت لم يشنعوا على الدكتور شبلي شميل كما شنعوا على من لم يجهر بمثل ماجهر به فلا عجب اذا سكت عنه من دونهم عصبية وعناية بهذا الامر ، وأكبر ما بلغنا من مقاومة بعض القسيسين له أنهم كانوا ينهون بعض الناس سرًّا عن دعوته لمعالجة مرضاهم . وجمهور المتعلمين على الطريقة العصرية من السوريين في مصر وسورية وأمريكة يحبون الدكتور شميل ويعدونه من دعاة الاصلاح الاجتماعي المخلصين ومنهم من يغلو فيه ، أما النصارى منهم — وهم الاكثرون — فلا يرون عدم تدينه ما نعا من اصلاحه الاجتماعي اذ لا علاقة للدين بذلك عندهم ، ولا شك في كون هذا من تساهلهم الذي قاربوا به الافرنج، وأما المسلمون فلا يرون مروقه من عقيدته التي نشأ عليها مبعدا له عنهم لانها ليست عقيدتهم فهو في نظرهم طبيب عالم اجتماعي غير مسلم، ولكنه أقرب من غيره من المخالفين لهم الى التساهل والانصاف لحريته واستقلال فكره . وله أصدقاء من مسلمي مصر لعلهم يزيدون على أصدقائه من مسلمي سورية الذين لا يعرفه أكثرهم الا بالسماع

وأما مذهب دارون فقد تكلم بعض علماء المسلمين فيه وفي مخالفته لظواهر النصوص في خلق آدم عليه السلام، ولم يجعلوا ذلك ردا على الدكتور شميل لانه لم يكن صاحب المذهب . وقد سبق أشياخنا الى الرد على مذهب دارون وأول ما رأيناه في ذلك ما أبرزه لنا الاستاذ الامام في ترجمته لرسالة استاذه الحكيم السيد جمال الدين التي سماها الرد على الدهريين . ثم ما كتبه استاذي الذي تخرجت على يديه الشيخ حسين الجسر في الرسالة الحميدية فهو قد لخص هذا المذهب وبين أن دلائله في أصل البشر ظنية لم تصل الى درجة القطع ، وأنها لو ثبتت وصارت يقينية لا تكون حجة على الاسلام لإمكان تأويل ظواهر النصوص الواردة في الكتاب والسنة في خلق آدم . وقد أقر أكابر علماء سورية شيخنا على تلك الرسالة وترجمت بالتركية فأقرها علماء الترك ، وكافأه السلطان عبد الحميد على خدمته للاسلام بها برتبة علمية عالية وراتب شهري. ورغب اليه ان يكون من شيوخ قصره فاعتذر وعاد الى طرابلس الشام بعد ان أقام في قصر يلدز عدة شهرا ضيفا مكرما عند السلطان . وأما علماء الازهر فقد اطلع كثير منهم على الرسالة الحميدية وأعجب بها . ولكن لم

نسمع ان أحداً منهم كتب في موضوعها شيئا

بينا رأي المسلمين الذين يعرفون الدكتور شبلي فيه وانهم كانوا يرونه أقرب الى التساهل والانصاف، وبيان ذلك انه كان يقول انه لا يوجد دين اجتماعي يتفق مع مصالح البشر المدنية الا دين القرآن. سمعت هذا منه غير مرة. وأخبرني أنه طالما خطر في باله ان يجمع ما في القرآن من الآيات الواردة في المسائل الاجتماعية والادبية ويفسرها تفسيرا علميا اجتماعيا . وانه قد حاول هذا الجمع فصعب عليه تجريد ما أراده لما في القرآن من المزج بين هذه المسائل والمسائل الروحية الاخروية . وقال لي انك أقدر مني على تجريد ما أريد فلو فعلت لكان تفسيري نافعا لك فيما تتوخاه من التوفيق بين الاسلام والعلم العصري والحضارة العصرية ومن نشر محاسن الاسلام بين الناس لان الوفا من الناس يقرؤن تفسيري ولا يقرؤن تفسيرك

وأما رأيه في نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فهو انه كان يفضله على جميع البشر، وقد كتب الي منذ تسع سنين كتابا أودعه أبياتا من الشعر في ذلك : هذا نصه :

الى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار

أنت تنظر الى محمد كنبي فتجعله عظيما وانا أنظر اليه كرجل واجعله أعظم . ونحن وان كنا في الاعتقاد (الدين أو المبدأ الديني) على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والاخلاص في القول وذلك أوثق بيننا لعرى المودة .

من صديقك الدكتور شميل

﴿ الحق أولى أن يقال ﴾

دع من محمد في سدى قرآنه ما قد نحاه للحمة الغايات
اني وان أك قد كفرت بدينه هل أكفرن بمحكم الآيات
أوما حوت فى ناصع الالفاظ من حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو انهم عقلوا بها ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدبر والحكيم وانه رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والدها بطل حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد خلب النهى وبسيفه أنحى على الهامات

من دونه الابطال فى كل الورى من سابق أو لاحق أو آت

وقد نشرنا هذا الكتاب والابيات فى (ج ١ م ١١) فى معرض الرد على البرنس كايتاني فى زعمه أن نجاح النبي (ص) كان فى كفاءته من حيث هو سياسي محنك أكثر من نجاحه من حيث هو نبي، وان حنكته وسياسته أفادا أكثر من افادة القرآن. رددنا على صاحب هذا القول وعلى المؤيد الذي نقل كلامه وأقره وعلى الدكتور شميل فيما زعمه من أن النبي (ص) أفضل من حيث كونه رجلا منه من حيث كونه نبيا. وسألنا الله تعالى أن يهديه الى الباقي من مزايا كتابنا ورسولنا (ص) وهو المهم الاعظم المتعلق بأمر الدين والآخرة الذي أشار اليه فى البيت الاول وكفر به فى البيت الثاني، فقد صرح لنا بأن مراده بلحمة الغايات أمور الآخرة

ان الدكتور شبلي شميل قد اهتدى بالاطلاع على القرآن الحكيم الى ما فيه من الحكم الروادع للهوى والشرائع الموافقة لاصول العمران حتى فى هذا الزمان. وبالاطلاع على سيرة النبي (ص) الى كونه قد فاق جميع أبطال البشر وعظمائهم — ويدخل فيهم عنده أكابر الانبياء عليهم السلام وكبار الساسة وقواد الحروب وأهل الفصاحة والادب. فلو ان الدكتور تأمل فيما اهتدى اليه من هذين الامرين وكان مؤمنا بالله تعالى لجزم بكونه نبيا مرسلا من عنده عز وجل، لان ما امتاز به كتابه وما امتاز به شخصه على جميع البشر من سابق أو لاحق أو آت انما كان بعد ان بلغ أربعين سنة فى الامية بين أهل الشرك والجاهلية فهل يعقل أن تحدث هذه المزايا العلمية العملية الادبية العمرانية الحربية السياسية الاجتماعية لرجل فى سن الكهولة دفعة واحدة؟ كلا ان هذا لا يعقل أن يكون الا بوحي وتأييد من الله عز وجل. ولكن كثيرا من الباحثين فى مثل هذه المسألة يبحثون فيها من جهة واحدة منصرفين عن سائر الجهات فلا يحيطون بسائر أطراف المسألة. والصوارف عن أمثال هذه المباحث كثيرة أظهرها كون انكار الاديان عندهم من القضايا المسلمات، وكنت أرى ان للدكتور شبلي شميل مانعا قلما يشاركه فيه غيره فى بلاده وهو عده الجرأة على التصريح بالتعطيل مزية من المزايا العظيمة التي انفرد بها، وحب الامتياز من غرائز البشر الراسخة فمن رأى نفسه قد انفرد بشيء منه قلما يفكر ويبحث في شيء من شأنه أن يذهب

بما انفرد به . على ان رجال الدين الذين على مذهب أسرته الذي نشأ عليه ثم ارتد عنه قد حكموا بأنه تاب من ردته وعاد قبل الموت الى دينه ومذهبه الاولين ولذلك جنزوه وصلوا عليه في كنيستهم ودفنوه في مقابرهم ، وجماهير الناس يرتابون في ذلك أو يجزمون بخلافه ويعدون هذا من غرائب تساهل الكاثوليك

كان الدكتور شبلي شميل من دعاة الاشتراكية وهو مستقل برأيه فيها غير مقلد لطائفة من طوائفها ، وكان ماديا في آرائه وأفكاره الا انه كان متحليا بكثير من الاخلاق الحسنة المحمودة التي يضاد بعضها ما تقتضيه الافكار المادية التي غلبت على عقله وخياله ، كالرأفة والسخاء والصدق والوفاء والنجدة والمروءة والشجاعة وغير ذلك . وان تحلي بعض المعطلين بالفضائل من أقوى الشبهات على الدين في هذا العصر ، فاننا نسمع كثيرا من المرتابين أو الراسخين في الكفر يقولون أي حاجة للناس في الدين واننا نرى كثيرا من المصلين الصائمين منغمسين في المعاصي والرذائل ، بل نرى كثيرا من رؤساء الاديان الرسميين كذابين طماعين أدنياء بخلاء لا يرجى منهم معروف ، ونرى فلانا وفلانا ممن لا دين لهم متحلين بالاخلاق الفاضلة والآداب العالية والسبق الى عمل المعروف وقد أجبت عن هذه الشبهة في المنار غير مرة واتخذت تأبين الدكتور فرصة لبيان ذلك للجمهور

في اليوم المتمم للاربعين من تاريخ وفاته أقام النادي السوري في القاهرة حفلة تأبين للدكتور الذي هو من نوابغ السوريين بلا خلاف أجاب الدعوة اليها مئات من أهل العلم والادب والوجاهة من سكان القاهرة على اختلاف مذاهبهم ونحلهم فغص النادي بهم ، وافتتح الجلسة رئيسها احمد حشمت باشا بخطبة وجيزة أطرى فيها المؤبن اطراء كبيرا . ثم دعي الدكتور يعقوب صروف الى الكلام في علم الدكتور شميل وهو أعلم الناس به وبعلمه فجاء من ذلك بخلاصة جمعت فأوعت .

ثم دعيت الى الكلام على أخلاقه فقلت ماخلاصته على ما أتذكر الآن :

« أشكر لادارة النادي السوري اختيارهم اياي للكلام في أخلاق الدكتور شبلي شميل فان الكلام في الاخلاق أحب اليّ لان أثرها في حياة الناس العملية أعظم من أثر العلم، لان العلم يبين طرق العمل، والاخلاق هي التي تبعث عليه وتهدي

الى الغاية منه، فحسن الاخلاق هوالذي يجعل العلم نافعاً وسوء الاخلاق قد يجعله ضاراء ولذلك شبه حكماؤنا علم فاسد الاخلاق بالسيف في يد المجنون ، واننا نرى مبلغ تأثير ضرر العلم بسوء استعماله في الحرب الاوربية الحاضرة التي كان الموقد لنيرانها بعض الاخلاق المذمومة من الطمع والكبر وحب العلو واستعباد الاقوياء للضعفاء

على ان العمل النافع لا يرتقي الا بالعلم ، وما ساد بعض الامم على بعض الا بالعلم، (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وانما تظهر حقيقة المرء وتعرف ترجمته ببيان علمه وأخلاقه وأعماله ، وقد أحسن النادي باختيار العلامة الدكتور صروف للكلام على علم الدكتور شميل فهوأعلم منا بهذه العلوم وبمكان الرجل منها وقد جاء بفصل الخطاب في ذلك

كان الدكتور شميل متحليا بعدة من الاخلاق الحميدة التي لا يرتقي العمران البشري الا بكثرة المتحلين بها في الامم كالصدق واستقلال الرأي والشجاعة والثبات والسخاء والوفاء والنجدة والمروءة والرأفة ، يعرف له ذلك كل من عرفه ، وكل خلق من هذه الاخلاق له تأثير في أعمال الناس ومعاملاتهم ولا يمكن بيان ذلك بالتفصيل في وقت قصير محدود كوقتنا هذا وانما أشير الى بعض ذلك بالايجاز فأقول :

ان من أضر مفاسد الكذب طمس الحقائق وابطال ثقة الناس بعضهم ببعض فالكذاب لا يوثق بخبره ولا بعلمه ولا برأيه ولا يمكن أن يرتقي قوم فقدت الثقة من بينهم . ومن أكبر بواعث الكذب الجبن ولولا ما أوتي الدكتور شميل من الجرأة والشجاعة لما أمكنه أن يكون صادقاً يقول ما يعتقد وان كان مما ينكره عليه و يكرهه منه أهله وقومه والسواد الاعظم من أهل وطنه ، والشاهد على هذا تصريحه قولا وكتابة بالآراء التي تخالف عقائد هؤلاء الذين يعيش معهم، والمعروف أن الخوف من عاقبة قول الصدق ، هو الذي يحمل الناس على الكذب ، ولذلك يكثر في عهد الاستبداد والظلم ، ولكننا نري كثيرا من كبراء الحكام ورؤساء الناس فى بلاد كثيرة يكذبون على رعاياهم ومرؤسيهم ، فلا يتجرءون على التصريح لهم بما لا يرضيهم ، وان كان التصريح خيرا لهم، وهكذا يعيش كثير من أكابر الناس وأصاغرهم عيشة الكذب والغش والرياء والنفاق لجبنهم وضعف ملكة الاستقلال

فيهم ، ولم يكن شميل مرائيا ولا منافقا بل كان مستقلا شجاعا يقول ما يعتقده حقا وصوابا غير هياب ولا وجل

وكان على جرأته وشدته في آرائه رقيق القلب سخي النفس، فكان اذا دعي الى معالجة فقير يخف اليه مرتاحا ويعالجه مجانا وربما اشترى له الدواء ، وزاده ثمن الغذاء ، على انه لم يكن ذا فضل من المال ، واننا نرى كثيرا من الاغنياء البخلاء ، يحتالون على أكل أموال الناس حتى الفقراء والادباء ، ونحن أصحاب الصحف قد جربنا جميع أصناف الناس فوجدنا في كل صنف منهم (حتى علماء الدين وكبار الحكام من قضاة وغيرهم) اناسا يتعمدون هضم الحق فيعدون جابي الصحيفة ويمطلون ، حتى تمر الشهور والسنون ، ولا يصدقون ولا يفون . فهل يمكن ان ترتقي أمة الا بزوال هؤلاء أو زوال النعمة من أيديهم ؟ ان السخي لا يمنع حق أحد ، لان من يعطي الناس من ماله ما ليس لهم ، لا يعقل ان يمسك عنهم ما هو لهم ، وفي مثل شائع بين كثير من المسلمين : ان الذي يزكي لا يسرق .

وههنا مسألة مهمة تخفى على كثير من الناس، وهي ان اكثر مكارم الاخلاق لا تنطبع في النفس الا بالتربية الدينية ، وتكون عرضة للفساد بالتعطيل والافكار المادية، فكيف اتصف الدكتور شميل بتلك الاخلاق الحسنة مع كونه كان ماديا معطلا ؟ يحتج بهذه الشبهة بعض الملاحدة على عدم الحاجة الى الدين قائلين إننا نرى فلانا وفلانا ممن مرقوا من الدين أفضل أخلاقا وآدابا من المتدينين الذين نرى من رؤسائهم وعلمائهم من فشا فيهم الكذب والطمع والدناءة والبخل والجبن والرياء والنفاق ، والجواب عن هذه الشبهة ان فاسدي الاخلاق من المنسوبين الى الدين لم يتربوا تربية دينية صحيحة بل لم يكن لهم حظ من الدين الا الاسم أو تعود بعض العبادات من غير فهم لحكمها ولا قيام بحقها ، وان أولئك المعطلين الحسني الاخلاق قد تربوا تربية دينية تكونت بها أخلاقهم الفاضلة ثم طرأت عليهم فكرة التعطيل في الكبر فلم تطمس ماطبع في النفس من أخلاقهم ، فقد حدثني الدكتور شميل عن نفسه انه كان في نشأته الاولى مبالغا في التدين مواظبا على العبادة ، وان فكرة التعطيل ماطرأت عليه الا بعد سفره الى أوربة، فقد لقي في فرنسة عالما ماديا قال له كلمة هدمت عقيدته الدينية

هدما، ولم يذكر لي تلك الكلمة. وأقول انها لم تهدم تأثير التربية الدينية في نفسه، ولا ماورثه من أخلاق أهل بيته ، ولاعجب فقد ثبت في العلم الحديث ان لكل نوع من المدركات الفكرية والوجدانية مركزا خاصا في دماغ الانسان ، وما كل فكر يأخذه المرء بالتسليم يؤثر في أخلاقه وآدابه العملية بل لا بد في هذا التأثير من التربية العملية أو كونه عقيدة يجزم صاحبها عقلا ووجدانا بأن العمل بمقتضاها سعادة، وتركها شقاوة لا تعدلها شقاوة ، وفكرة الإلحاد ليست كذلك ، فهي قد كانت محصورة في مركز صغير من دماغ الدكتور شميل له صلة بلسانه ولاسلطان له على قلبه ، ولذلك كانت تظهر أحيانا في كلامه ولكنها لم تنزع من نفسه ما تربى عليه في بيته من الاخلاق الدينية كالصدق والرحمة والسخاء وغير ذلك »

ثم ذكرت في التأبين رأي الدكتور في الاسلام وفي نبينا عليه الصلاة والسلام وقرأت كتابه وأبياته في ذلك وقد تقدم ذكرها في هذه الترجمة

هذا ما أتذكره من كلامي في أخلاق الدكتور شميل لم أترك منه شيئا ولكنني زدت مسألة الشبهة الاخيرة إيضاحا لانني رأيت بعض الناس لم يفهمها حتى قال لي بعضهم ان التأبين يقصد به المدح وأنت ذممت الرجل وجعلته مجنونا ، وانما أخذ جعلي إياه مجنونا من قولي ان فكرة الكفر والالحاد قد طرأت على دماغه في الكبر، وقد عبرت بكلمة المخ بدل الدماغ ففهم ذلك الرجل وغيره من ذلك ما فهموا ولغطوا به

ثم دعي الدكتور كحيل الى الكلام في سيرة شميل الطبية فقرأ خطبة طويلة بالفرنسية بين فيها ذلك . ودعي محمد حافظ بك ابراهيم فأنشد قصيدة بليغة استعاد الجمهور كثيرا من أبياتها مرارا. ودعي أيضا كل من انطون جميل الاديب المشهور وحسن افندي الشريف وهو شاب من أبيار وأميل افندي زيدان صاحب الهلال فألقى كل منهما خطبة فصيحة أطرى فيها الفقيد إطراء الشاب الممتلئ اعجابا بآرائه وأفكاره ونشاطه وهمته ، فدل ذلك على تأثير الرجل في أنفس النابتة الجديدة . ثم قام ابن أخيه رشيد بك شميل صاحب جريدة البصير فشكر للنادي السوري وللمؤبنين عملهم ، وانفضت الحفلة

عمران بغداد في القرن الثالث

﴿ وصف دار الخلافة فيها ﴾

نشرنا في هذا الجزء اثارة من تاريخ بغداد العلمي الديني في القرن السادس بعد تخريب التتار لعمرانها وننشر هنا أثارة أخرى من تاريخ عمرانها قبل ذلك سبق لنا نشره في (ص ٢٨٥ م ١٣) منقولا عن تاريخ مدينة السلام للخطيب الحافظ قال

حدثني أبو الحسين هلال بن المحسن قال كانت دار الخلافة التي على شاطىء دجلة تحت نهر معلّى قديما للحسن بن سهل ويسمى القصر الحسني فلما توفي صارت لبوران بنته فاستنزلها المعتضد بالله عنها فاستنظرته أياما في تفريغها وتسليمها ثم رمتها وعمرتها وجصصتها وبيضتها وفرشتها بأجل الفرش وأحسنه وعلقت أصناف الستور على أبوابها وملأت خزائنها بكل ما يخدم الخلفاء به ورتبت فيها من الخدم والجواري ماتدعو الحالة اليه . فلما فرغت من ذلك انتقلت وراسلته بالانتقال ، فانتقل المعتضد الى الدار ووجد ما استكثره واستحسنه، ثم استضاف المعتضد بالله الى الدار مماجاورها كل ما وسعها به و كبرها وعمل عليها سورا جمعها به وحصنها وقام المكتفي بالله بعده ببناء التاج على دجلة وعمل وراءه من القباب والمجالس ما تناهى في توسعته وتعليته، ووافى المقتدر بالله فزاد في ذلك وأوفى مما أنشأه واستحدثه وكان الميدان والثريا وحير الوحوش (بستانها) متصلا بالدار، كذا ذكر لي هلال بن المحسن أن بوران سلمت المعتضد الدار الى المعتضد وذلك غير صحيح لأن بوران لم تعش الى وقت المعتضد وذكر محمد ابن أحمد بن مهدي الاسكافي في تاريخه انها ماتت في سنة احدى وسبعين ومئتين وقد بلغت ثمانين سنة ويشبه أن تكون سلمت الدار الى المعتمد على الله والله أعلم

حدثني القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي قال حدثني أبو الفتح أحمد ابن علي بن هرون المنجم قال حدثني أبي قال قال أبو القاسم علي بن محمد الجواري في بعض أيام المقتدر بالله وقد جرى حديثه وعظم أمره وكثرة الخدم في داره : قد اشتملت الجريدة الى هذا الوقت على أحد عشر الف خادم خصي وكذا من صقابي ورومي وأسود وقال هذا جنس واحد مما تضمه الدار فدع الآن الغلمان الحجرية وهم ألوف كثيرة والحواشي من الفحول . وقال أيضا حدثني أبو الفتح عن أبيه وعمه عن

أبيهما أبي القاسم علي بن يحيى أنه كانت عدة كل نوبة من الفراشين في دار المتوكل على الله أربعة آلاف فراش ، قالا فذهب علينا أن نسأله كم نوبة كانوا . حدثني هلال بن المحسن قال حدثني أبو نصر خواشاذة خازن عضد الدولة قال طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحرمها وما يجاورها ويتاخمها فكان ذلك مثل مدينة شيراز قال هلال وسمعت هذا القول من جماعة آخرين عارفين خبيرين

ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر بالله ففرشت الدار بالفرش الجميلة وزينت بالآلات الجليلة ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة وقد أظهروا العدد الكثير والاسلحة المختلفة فكانوا من أعلى باب الشماسية الى قريب من دار الخلافة، وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم الخواص الدارية والبرانية الى حضرة الخليفة بالبزة الرائقة والسيوف والمناطق المحلاة وأسواق الجانب الشرقي وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة[١] وقد اكتري كل دكان وغرفة مشرفة بدراهم كثيرة، وفي دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والزلالات والسميريات[٢] بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبئة، وسار الرسول ومن معه من المواكب الى أن وصلوا الى الدار ودخل الرسول فمر به على دار نصر القشوري الحاجب ورأى ضففا كثيرا ومنظرا عظيما فظن أنه الخليفة وتداخلت له هيبة وروعة حتى قيل له انه الحاجب، وحمل من بعد ذلك الى الدار التي كانت برسم الوزير وفيها مجلس أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات يومئذ فرأى أكثر مما رآه (عند) نصر الحاجب ولم يشك انه الخليفة حتى قيل له هذا الوزير، وأجلس بين دجلة والبساتين في مجلس قد علقت ستوره واختيرت فروشه ونصبت فيه الدسوت وأحاط به الخدم بالاعمدة والسيوف ، ثم استدعي بعد ان طيف به في الدار الى حضرة المقتدر بالله وقد جلس وأولاده من جانبيه فشاهد من الامر ما هاله ثم انصرف الى دار قد أعدت له

حدثني الوزير أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن المسلمة قال حدثني

(١) النظارة المتفرجون (٢) أنواع من السفن

أمير المؤمنين القائم بأمر الله قال حدثني أمير المؤمنين القادر بالله قال حدثتني جدتي أم أبي اسحاق بن المقتدر بالله أن رسول ملك الروم لما وصل الى تكريت أمر امير المؤمنين المقتدر بالله باحتباسه هناك شهرين ولما وصل الى بغـداد نزل دار صاعد ومكث شهرين لا يؤذن له في الوصـول حتى فرغ المقتـدر بالله من تزيين قصره وترتيب آلته ثم صف العسكر من دار صاعد الى دار الخلافة وكان عدد الجيش مئة وستين الف فارس وراجل ، فسار الرسول بينهم الى أن بلغ الدار ، ثم أدخـل في أزج [1] تحت الارض فسار فيه حتى قبل بين يدي المقتدر بالله وأدّى رسالة صاحبه ثم رسم أن يطاف به في كل الدار وليس فيها من العسكر أحد البتة وإنما فيها الخدم والحجاب والغلمان السودان وكان عدد الخدم اذ ذاك سبعة آلاف خادم منهم أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود وعدد الحجاب سبع مئة حاجب وعدد الغلمان السودان غير الخدم أربعة آلاف غلام قد جعلوا على سطوح الدار والعلالي وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل بخزائن العرائس وقد علقت الستور ونظم جوهر الخلافة في قلّابات على درج غشيت بالديباج الاسود .

ولما دخل الرسول الى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها وكانت شجرة من الفضة وزنها خمس مئة ألف درهم عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده . قال لي هلال بن المحسن ووجدت من شرح ذلك ما ذكر كاتبه أنه نقـله من خط القاضي أبي الحسين بن أم شيبان الهاشمي وذكر أبو الحسين أنه نقله من خط الامير وأحسبه الامير ابا محمد الحسن بن عيسى ابن المقتدر بالله قال كان عدد ما علق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطرر المذهبة الجليلة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطيور والستور الكبار البصنائية والارمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والدبيقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر — منها الستور الديباج المذهبة المقدم وصفها اثنى عشر ألفا وخمس مئة ستر — وعدد البسط والنخاخ [2] الجهرمية والدرابجردية والدورقية في الممرات والصحون التي

(١) بيت مستطيل أخص من النفق (٢) الصواب الانخاخ وهو ضرب من البسط

وطيء عليها القواد ورسل صاحب الروم من حد باب العامة الجديد الى حضرة المقتدر بالله سوى ما في المقاصير والمجالس من الانماط الطبري والدبيقي التي لحقها النظر دون الدوس اثنان وعشرون ألف قطعة، وادخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الاعظم الى الدار المعروفة بخان الخيل وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام وكان فيها من الجانب الايمن خمس مئة فرس عليها خمس مئة مركب ذهبا وفضة بغير أغشية ومن الجانب الايسر خمس مئة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال وكل فرس في يد شاكري بالبزة الجميلة. ثم أدخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش وكان في هذه الدار من أصناف الوحش التي أخرجت اليها من الحير قطعان تقرب من الناس وتشمهم وتأكل من أيديهم. ثم أخرجوا الى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار فهال الرسل أمرها، ثم أخرجوا الى دار فيها مئة سبع: خمسون يمنة وخمسون يسرة كل سبع منها في يد سباع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد

ثم أخرجوا الى الجوسق المحدث وهي دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة، طول البركة ثلاثون ذراعا في عشرين ذراعا، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة مزينة بالدبيقي المطرز وأغشيتها دبيقي مذهب وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيه نخل قيل ان عدده اربع مئة نخلة وطول كل واحدة خمس أذرع قد لبس جميعها ساجا منقوشا من أصلها والى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة وجميع النخل حامل بغرائب البسر الذي أكثره خلال لم يتغير، وفي جوانب البستان اترج حامل ودستنبو ومقفع وغير ذلك

ثم أخرجوا من هذه الدار الى دار الشجرة وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة مدوّرة فيها ماء صاف وللشجرة ثمانية عشر غصنا لكل غصن منها ساحات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف الالوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر، وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره وفي أيديهم

مطارد على رماح يدورون على خط واحد في الناورد خببا وتقريبا وفي الجانب الايسر مثل ذلك ،

ثم أدخلوا الى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من الفرش والالات ما لا يحصى ولا يحصر كثرة ، وفي دهاليز الفردوس عشرة آلاف جوشن مذهبة معلقة ثم أخرجوا منه الى ممر طوله ثلاث مئة ذراع قد علق من جانبيه نحو عشرة آلاف درقة وخوذة و بيضة ودرع وزردية وجعبة محلاة وقسي، وقد أقيم نحو الفي خادم بيضا وسودا صفين يمنة و يسرة ثم اخرجوا بعد ان طيف بهم ثلاثة وعشرين قصرا الى الصحن التسعيني وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل والبزة الحسنة والهيئة الرائعة وفي أيديهم الشروخ والطبرزينات والاعمدة. ثم مروا بصاف من عليه السواد من خلفاء الحجاب والجند والرجالة وأصاغير القواد ودخلوا دار السلام. وكانت عدة كثير من الخدم الصقالبة في سائر القصور يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والاشربة والفقاع ومنهم من كان يطوف مع الرسل ولطول المشي بهم جلسوا واستراحوا في سبعة مواضع واستسقوا الماء فسقوا

وكان أبو عمر عدي بن أحمد بن عبد الباقي الطرسوسي صاحب السلطان ورئيس الثغور الشامية معهم في كل ذلك وعليه قباء أسود وسيف ومنطقة ووصلوا الى المقتدر بالله وهو جالس في التاج مما يلي دجله بعد ان لبّس بالثياب الدبيقية المطرزة بالذهب على سرير آبنوس قد فرش بالدبيقي المطرز بالذهب وعلى رأسه الطويل ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ومن يسرته تسعة اخرى من افخر الجواهر واعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار و بين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنة واثنان يسرة. ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر بالله فكفّر له (اي سجد) وقال الرسول لمؤنس الخادم ونصر القشوري وكانا يترجمان عن المقتدر لولا اني لا آمن ان يطالب صاحبكم بتقبيل البساط لقبلته ولكنني فعلت ما لا يطالب رسولكم بمثله لان التكفير من رسم شريعتنا ، ووقفا ساعة وكانا شابا وشيخا فالشاب الرسول المتقدم والشيخ الترجمان وقد كان ملك الروم عقد الامر في الرسالة للشيخ متى حدث بالشاب حدث الموت، وناوله المقتدر بالله من يده جواب ملك الروم وكان ضخما كبيرا فتناوله وقبله إعظاما له واخرجا من باب الخاصة الى دجلة واقعدا وسائر اصحابهما في شذا من الشذاوات الخاصة وصعدا الى حيث أنزلا فيه من الدار المعروفة بصاعد وحمل اليهما خمسون بدرة ورقا في كل بدرة خمسة آلاف درهم وخلع على أبي عمر عدي الخلع السلطانية وحمل على فرس وركب على الظهر وكان ذلك في سنة خمس وثلاث مئة اه

خاتمة السنة التاسعة عشرة للمنار

بحمد الله تعالى نختتم المجلد التاسع عشر جاءاين حجمه وعدد أجزائه كما بينا في خاتمة المجلد الذي قبله لان الورق قد قل وروده وزاد غلاء ثمنه حتى ان ما كنا نشتريه قبل الحرب بمئة قد صار ثمن مثله أربعمائة أو خمسمائة

وقد جرينا في إصدار أجزاء هذا المجلد على ترتيب الشهور الذي اضطررنا اليه في العام الماضي حتى إننا بدأنا بطبع هذا الجزء في الشهر السادس من سنة ١٣٣٥ إذ كان هو الشهر العاشر لسنة المجلد التي كان بدؤها شهر شعبان سنة ١٣٣٤ ولكننا اضطررنا بعد طبع أكثره الى تأخير إصداره الى شعبان، وكان من أسباب ذلك وعكة عرضت لنا، وتلتها وثأة أصابت يدنا اليمنى، ومنها مرض عرض لمن يتوقف عليه العمل في المطبعة، وأقوى الاسباب انني لم أكن أكره مثل هذا التأخير في هذه السنين النحسات التي حجب فيها المنار عن قرائه في بلاد كثيرة فقلت الاستفادة منه وقل دخله من حيث كثرت نفقته ونفقتنا، لم أكن أكره هذا ولم أكن أتعمده، فلما عرضت الاسباب له لم أجتهد في مقاومة ما يمكن مقاومته منها، فاذا رحم الله تعالى البشر فصرف عنهم شر هذه الحرب عن قريب وعادت المياه الى مجاريها فلنا الرجاء بأن نتدارك ما فات باصدار جزئين في كل شهر الى ان تعود سنة المنار الى ماكانت عليه من غير ان تنقص مجلداته عن عدد سنيه القمرية، واذا أراد الله ان يطول أجل الحرب فالارجح ان نتعمد تأخير بعض الاجزاء من المجلد العشرين الى ينتهي بانتهاء سنة ١٣٣٦ فيضيع بذلك مجلد من حساب السنين القمرية، ولا تلبث مجلدات المنار أن توافق عدد سنيها الشمسية، ونحن إنما نتقاضى اشتراك المنار عن المجلدات لا عن السنين فلا يضر المشتركين تأخر بعض الاجزاء. على ان بدء المجلد العشرين سيكون في التاريخ الذي بدء فيه المجلد التاسع عشر فلا تأخير جديد

هذا وان ما كنا قد ادخرناه من الورق لهذا المجلد قد اضطررنا الى استعمال بعضه لمطبوعات أخرى (كذكرى المولد النبوي) فلم يكن كافيا ، وقد وفقنا لابتياع

طائفة أخرى من ورق خير من ورقه لاجل المجلد العشرين تكفيه اذا صدر بحجم هذا المجلد فلا يخشى ان يتوقف صدوره من عدم الورق وان انقطع الوارد عن مصر انقطاعا تاما، وليس هذا الانقطاع ببعيد اذا اشتدت وطأة الحرب فقد علمنا من أخبار أوربة أن أعظم دور الصناعة تشكو من قلة الورق وقد نقصت صحفها من عدد أوراقها وقيل ان بعضها سيحتجب أو يبطل صدوره، فما القول في بلادنا التي تجلب كل الورق الذي تحتاج اليه من أوربة وقد تضاعف ثمنه هنالك وتضاعفت اجرة نقله، وما كل ما ينقل يصل بل تغرق الغواصات بعض السفن التي تحمله. فعسى ان يكون علم المشتركين بهذه الاحوال باعثا لهم على أداء قيمة الاشتراك بلا مطل ولا تسويف

ونذكر المشتركين الكرام بشيء ربما يغفل الكثيرون عنه، هو نفقة الجباة أو وكلاء التحصيل فان الذي كان يرضى بعشرين في المئة مما يجمعه أصبح لا يرضى بخمسة وعشرين، وقد طاف بعض اخواننا في بعض البلاد طوفة للتحصيل على نفقتنا فبلغت نفقته أربعين في المئة مما جمعه، ويا ليته جمع من كل مدينة أو قرية جميع ما يطلب من مشتركيها واستغنى عن العودة اليها بقية العام. كلا ان بعضهم لوى وسوف وطلب النظرة مع الميسرة لا اليها، فاذا كان أهل كل بلد لا يؤدون ما عليهم الا بعد أن يسافر اليهم الجابي مرارا بمثل تلك النفقة أو بما دونها قليلا فماذا يبقى لصاحب الصحيفة في مقابلة سائر النفقات ثم ماذا يبقى له بعدها في مقابلة عمله لاجل نفقته؟ فمن تأمل هذا نهاه قلبه (ضميره) أن يسوف في أداء ما عليه، وأن يلجئ الجابي الى تكرار العودة اليه، وان كان قد اعتاد الارجاء والتسويف

الانتقاد على المنار

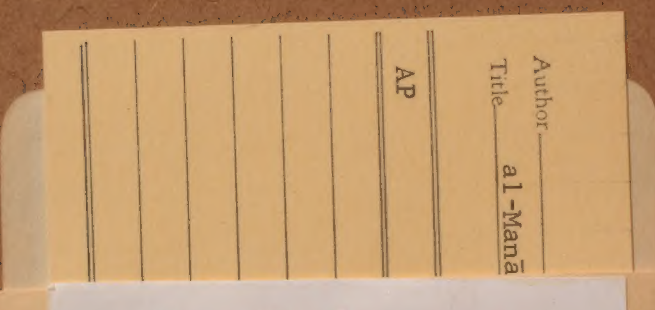
لم يكتب الينا في هذه السنة انتقاد ما على شيء من مباحث المنار إلا ما كتبه بعض إخواننا من إخبارنا بكراهة كثير من الناس لما يكتب في المنار من الفلسفة السياسية (كذا كتب بعضهم) وقد كلمنا غير واحد من الاخوان في ذلك مشافهة وصرحوا بأن ما يكرهون من المنار هو طعنه في الحكومة التركية الاتحادية على علاتها التي يصدق اخبارها السوءى بعضهم دون بعض، وتأييده للحركة العربية الحجازية. وقد أجبت عن هذا الانتقاد بأنني كتبت في ذلك ما أعتقد انه حق

وان بيانه واجب علي لملتي وأمتي وسيعلم من لا يكره أن يعلم انني كنت ناصحا مخاصا وعلى حق وصواب، وقد كنت كتبت لهذا الجزء مقالة تاريخية طويلة للمسألة العربية بينت فيه اخلاص العرب للدولة الى ان اضطرتهم الحكومة الاتحادية الى ما اضطرتهم اليه من مقاومة بغيهم، ضاق عنها هذا الجزء وستنشر في الاول من المجلد العشرين ان شاء الله تعالى

وانتقد بعض الاخوان والمحبين شدة العبارة التي انتقدنا بها بعض الشبان الذين ذهبوا الى الحجاز وأخلوا فيه بالواجبات وفاهوا بالمنكرات قائلين ان بعض الناس قد أولوها بغير ما قصد بها من النصح ثم علمنا ان ذلك التأويل كان في بلد نحن من أشد الناس اخلاصا له وغيرة عليه اذ عد الانتقاد طعنا في حكومة الحجاز نفسها . واقترح علينا ان نصرح بغرضنا من ذلك النقد فنقول :

إننا لم نكن نظن انه يخطر ببال أحد يقرأ المنار أو يعرف مشربنا في الجملة اننا نقصد بتلك العبارة غير النصح لمن اعتادوا التهاون بأمور الدين ان يراعوا الفرق بين البلاد المقدسة وغيرها وان لا يجعلوا أنفسهم حجة لاهل الحجاز — ولا لغيرهم — على رجال النهضة الجديدة وطلاب الاصلاح للامة العربية فتبطل الثقة بهم ، وربما يكون سببا لسوء الظن بالحكومة العربية الجديدة اذا انتظم أولئك المنتقدون فيها على ان ماحكيناه عن بعضهم كان قبل تأسيس هذه الحكومة فليس في عبارة الانتقاد ذكر لها ولا لكون المنتقدين انتظموا في سلك خدمتها وكلامنا صريح في هذا لا يكاد يتبادر الى الذهن غيره ، وقد كنا نسدي مثل هذه النصيحة لمن نراه من أولئك الشبان قبل سفرهم ولكن يتعذر رؤية كل من يسافر لهذا الغرض فتعين النصح بالكتابة، ونحن العرب أحوج الناس الى الوحدة والاتفاق ونبذ الخلاف والشقاق والاجتهاد في جعل الحكومة التي تجددت لنا في أحسن حال ممكنة، وهذا ما نقصده من نصحنا والله يعلم حسن نيتنا

ونقل الينا ان بعض الناس استنبط من عبارة المنار في هذا الموضوع اننا نقول بوجوب لباس الاحرام على كل من يسافر الى مكة ولو بقصد التجارة، وهذا من سوء الفهم، ومعاذ الله أن نقول بذلك، وانما يجب لباس الاحرام على من قصد الحج أو العمرة دون غيره. ومن شأن المتدين أن يغتنم فرصة ذهابه الى الحرم فيحج أو يعتمر، وأسأل الله تعالى ان يوفق كلاً منا للقيام بما يجب عليه، والاخلاص فيه، والحمد لله أولا وآخرا.


Author
Title al-Manā
AP

